THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

نزهة القارئ

للمدارس الثانوية

الجزء الأول

تأليف

الشيخ احمد الاسكندرى

المدرس بدار العلوم

يطلب من

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

« حقوق الطبع محفوظة »

« الطبعة الأولى »

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

893.74
Is3

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ الفتّاحِ العليم ، والصلاةُ والسلامُ على محمدٍ الرسولِ الكريم ، وعلى آله وصحبه أُولِي الفضلِ العَميم

أمّا بعدُ فإنى وَجدتُ الشُّداةَ من قرّاءِ العربيّة يتشوّفون إلى كتابٍ تُحبّبُ عبارتُه السّهلةُ القراءةَ إليهم ، وتُطلقُ فُنونُه المتنوّعةُ الأعِنّةَ لعقولهم ، وتقوّمُ أساليبُه المختلفةُ من لَهْجةِ ألسنتهم ، وتُسرّى طرائفُه السأمَ عن نفوسهم ، ورأيتُ أنّ تأليفَ مثل هذا الكتابِ فرضُ كفايةٍ على طائفةِ المعلّمين ؛ غيرَ أنه تطاولت الأيامُ والأعوامُ ، والأمرُ على ما كان

فاستخرتُ اللهَ أن أقومَ بهذا الفرضِ واهبًا كلَّ أوقاتِ راحتى لخدمةِ طائفتى ونابتةِ لُغتى ، ووضعتُ هذا الكتابَ مشتملاً على حكاياتٍ خُلُقيّة ، وأخبارٍ تاريخيّة وجُغرافيّة ، ومُقطّعاتٍ شعرية ، ونماذجَ إنشائية ، ورسائلَ أدبية ، وخطبٍ بليغة ، ومقالاتٍ علمية أقر بصحتها العلماء الموثوقُ بهم فى تدريس علمها

وبذلتُ وُسعى فى شرح غريبه والتعريفِ برجاله وأماكنه وضَبْطِ ألفاظه متنقّلاً من مُعْجَماتِ الألفاظِ الى مُعْجَماتِ المعانى

فإن أرضيتُ به إخوانى المعلمين ، وسددتُ من حاجة أبنائى الطالبين ، فتوفيقٌ من ربِّ العالَمين ، وإن كانتِ الأُخرى ، فقد أبليتُ عُذرًا

واللهَ أسألُ أن يهدينَا جميعًا إلى خيرِ أُمتنا ولُغتنا ؛ وهو المأمولُ ، لإجابة السُّول ؟

محمد الاسكندرى
المدرس بدار العلوم

وكُتب بالقاهرة ١٠ ربيع الثانى سنة ١٣٤٠هـ : ٩ ديسمبر سنة ١٩٢١ م

حَمْدُ اللهِ تعالى والاستعانةُ بِه

سُبحانَكَ اللهُمَّ[١] وبحمدِك ، نحمَدُكَ على نِعَمِك التى لا يُحصيها عَدَدٌ ، ولا ينقطعُ لها مَدَدٌ[٢] : وَهبتَ لنا نِعمةَ الحياةِ فظهرْنا إلى هذا الوُجودِ المُبدَعِ بعظيمِ قُدرتِك ، المُفعَمِ[٣] بغزيرِ حِكمتِك : لِنتنظِمَ فى سِلْكِ نِظامِه ، ونترقَّى فى مَعارِجِ[٤] كمالِه . وكرَّمْتَنا بالعقْلِ لِنتفكَّرَ فى عجائبِ مخلوقاتِك ، وننظرَ إلى آثارِ رَحْمتِك وآياتِك ، ونتعرَّفَ سُنَنَك[٥] فى خَلْقِك ، ونتفهَّمَ كُتُبَك المُنزلةَ على رُسُلِك ، (عليهم صلواتُك) ؛ فنُذعِنَ[٦] لك بالرُّبُوبيَّةِ[٧] ، ونُؤَدِّىَ شعائرَ[٨] العُبوديَّة ، ونتبيَّنَ الرُّشْدَ من الغَىِّ ، والنافعَ من الضارِّ ، ونجعلَ ما فى البرِّ والبحرِ كما شِئْتَ مُسخراً لنا ، ومُيَسَّراً لأمرِنا . ومَنَحْتَنا مِنَ الحواسِّ والجوارحِ[٩] ما تتكمَّلُ بهِ حَياتُنا ، وتتيَسَّرُ حاجاتُنا ، وينكشِفُ بهِ الضُّرُّ عنا : مِنْ بَصرٍ نُشاهدُ بِهِ السماءَ وزِينتَها ، والأرضَ وبَهْجتَها ، ونهتدِى

---

(١) مصدر لسبَحَ ، ثم جعل اسماً للتسبيح (أى التنزيه والتبرئة من النقص) ونصب على أنه مفعول مطلق لفعل محذوف ؛ فمعنى سبحان الله : تنزيهاً لله . واللهم مركب من لفظ الجلالة والميم ، وهو منادى حذفت فيه ياء النداء وألحقت به الميم عوضاً عنها . والواو فى (وبحمدك) زائدة كما فى نحو (ربنا ولك الحمد) بدليل استعمال التسبيح بالحمد مجرداً من الواو فى قوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك) (والملائكة يسبحون بحمد ربهم)

(٢) الزيادة بما يُستعان به من جيش ومعونة (٣) المملوء (٤) جمع مَعْرَج وهو السُّلَّم والمصعد (٥) السنن الطرق ، أى عاداتك فى خلقك (٦) نقرّ (٧) اسم من لفظ الرب أى (كونه ربًّا) (٨) جمع شَعيرة وهى من الدين معالمه التى ندب الله اليها وأمر بالقيام بها (٩) جمع جارحة ، وهى من الانسان العضو الذى يكتسب كاليد والرجل

بهِ فى طلَبِ أرزاقِنا ، ومُحاولةِ أعمالِنا ، وندرُسُ بهِ من الكتب ما ينفعُنا فى دُنيانا ودِينِنا ؛ ومنْ سَمْعٍ ومَنْطِقٍ يتمُّ بهما تفاهُمُنا ، ويكْمُلُ أُنْسُ اجتماعِنا ؛ ومِنْ شمٍّ وذَوْقٍ قاما على مَمْلكتِنا الباطنةِ حارسَيْنِ يقِظَيْنِ ، وحاجِبَيْنِ رَفيقَيْنِ يُجيزانِ إليها ما تَستمرِئُهُ[١] ، ويدرَأانِ[٢] عنها ما تستبشِعُهُ[٣] ؛ ومن أيدٍ بها نَبطِشُ ، وعليها نعتمِدُ : فهى أداةُ حياتنا ، ومصدَرُ أعمالِنا ؛ ومن أرجُلٍ بها نسعَى إلى مقاصدِنا ؛ وعليها ننتقلُ من حزْنٍ الى سَهْلٍ ، وتحوّلُ من جدْبٍ إلى خِصْبٍ

فسبحانَكَ اللهمَّ ما أجلَّ مِنَّتَكَ[٤] ! وأعظمَ قُدرتَك !

اللهمَّ إنا جِئنا لِبابِ كرَمِك مُستفتِحين ، ولدعوتِك الى طلَبِ العِلْمِ مُستجيبينَ ، وبنورِ هِدايتِك مُستهدِين ، ومن جليلِ عَوْنك مستمِدّين ، فلا تَرُدَّنا خائبين

اللهمَّ وهيِّئ لنا مِنْ أمرِنا رَشَدا ، وأمِدَّنا فى أبداننا بصِحَّةٍ وعافيةٍ ، وأنِرْ بصائرَنا لمعرفةِ دُروسِنا ؛ فسهِّلْ علينا صَعْبَها ، واهدِنا الصَّوابَ فى فَهْمِها ، وانفعْنا بها فى حِفظِ أنفُسِنا ودِينِنا ولُغَتِنا ووَطَنِنا

اللهمَّ واعطِفْ علينا قلوبَ والدِينا ومُعلِّمينا ورُؤَسائنا ووُلاةِ أمورِنا ، ووَفِّقْنا إلى طاعتِهم والعملِ بنصائحِهم ، وألْهِمْنا وإيّاهمُ السَّدادَ[٥] فى الرأْى والنَّجاحَ فى العَمَل ؛ لنعيشَ آمنِين فى أسْرابِنا[٦] ، مُعتزّينَ فى أوطانِنا . إنك سميعُ الدعاء ، آمين !

---

(١) تجده هنيئاً حسنَ المَغَبَّة (٢) يدفعان (٣) تستكرهه (٤) نعمتك
(٥) الصواب (٦) جمع سِرْب وهو النفس والبال

قِراءةُ الكُتُبِ

بسم الله الرحمن الرحيم « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ من عَلَقٍ (١) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ »

القِراءةُ غِذَاءُ النفسِ، وَثِقَافُ (٢) العقلِ، وقِوامُ (٣) الخُلُقِ، ونُزْهةُ الخاطرِ وهى أُنْسُ المستوْحِشِ، وسَلْوةُ المحزُونِ ، وشُغْلُ الخَلِيِّ (٤)، ولَذَّةُ البائِسِ (٥) . حثَّتِ الشَّرائعُ على تعلُّمِها، ونَزلتِ الكتبُ لِتُفهَمَ بها، واسْتَنْبَطَ الإنسانُ حُروفَها مُنذُ خطَا أَوَّلَ خَطوةٍ فى سبيلِ الحَضَارةِ . ولِعِظَمِ شأنِها وجليلِ نَفْعِها كانتْ أَوَّلُ آيةٍ نزلتْ من القرآنِ الكريمِ آمرةً بها منوِّهةً بفضلِها (٦) . ولأمرٍ ما جعل رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فِديةَ مَنْ لَمْ يَكُنْ لهُ مالٌ مِن أَسْرَى بَدْرٍ تعليمَ عشرةٍ من أصحابِهِ الأنصارِ القراءةَ والكتابةَ .

والقراءةُ مِعْيارٌ (٧) يُعرَفُ به تقدُّمُ الأُمَمِ وتَقَهْقُرُها : فانتشارُها فى أُمَّةٍ وكثرةُ إقبالِ قُرَّائِها على الكتبِ والصُّحُفِ والمَجلَّاتِ علامةٌ على نُبوغِها وعُلُوِّ كَعْبِها فى العلمِ والأدبِ ؛ وعلى عَكسِها غيرُها

وقراءةُ الكتبِ درسٌ دائمٌ لا يرتبط بمكانٍ ولا زمانٍ . ولا غِنًى ولا فقرٍ ؛

---

(١) من دم (٢) أصل الثقاف الآلة التى تُثقَّف بها الرماح : أى تعدّل، والمراد بها هنا الأمور التى تقوّم العقل (٣) قوام الأمر نظامه وعماده وملاكه، أى الذى يستقيم به (٤) الفارغ من العمل (٥) الفقير المحتاج (٦) وهى قوله اقرأ باسم ربك الآية (٧) المعيار والعِيار ما جُعِل نظاماً وأساساً لمعايرة الموازين والمكاييل والنقود ونحوها

فيتلقّاهُ القارئُ امامَ المُعلِّم، وفى ساحةِ المدرسةِ، وبينَ مقاصيرِ[١] القصورِ، ومفاوزِ[٢] الصحارى، وتحتَ ظِلالِ الأشجارِ، وعلى شواطىءِ الأنهارِ والبحارِ وفى عَجَلةِ القِطارِ، وعلى ظَهرِ السفينةِ، وفى شَرْخِ[٣] الشَّبابِ، وعَجْزِ الشيخوخةِ، وفى بَسْطةِ الغِنَى وعَوَزِ[٤] الفقرِ. وربّما كانتِ القراءةُ هى اللذّةَ الوحيدةُ التى أصبحتْ ميسَّرةً للغنىِّ والفقيرِ؛ لِقلّةِ أثمانِ الكتبِ والصُّحفِ بكثرةِ انتشارِ المطابعِ

والقراءةُ أستاذٌ عالِمٌ بكلِّ علمٍ، ماهرٌ فى كلِّ فنٍّ؛ فبينما هى تقُصُّ علينا أخبارَ التاريخِ، وما صنعهُ الإنسانُ منذُ استخلفَهُ اللهُ فى الأرضِ، واستعمَرَهُ فيها، وتحدّثُنا بأنباءِ الرُّسُلِ وما لاقَوْهُ من أُممِهم، وتُعدِّدُ لنا الملوكَ وفتوحَهم، والشعوبَ وحضارتَهم، إذا هى تَصِفُ لنا الأرَضِينَ والبحارَ، والسُّهُولَ والجبالَ وما فيها مِنْ حيوانٍ ونباتٍ، ومَعادِنَ وأحجارٍ، ومَسالِكَ وممالكَ. ثم تكشِفُ لنا بعضَ الحُجُبِ عن بَديعِ خَلْقِ السمواتِ وما فيها: من شُموسٍ مُضيئةٍ، وأقمارٍ متشكّلةٍ، وسيّاراتٍ[٥] سابحةٍ، ونجومٍ ثابتةٍ، وشُهُبٍ متساقطةٍ. ثم لا يزالُ هذا الأستاذُ العليمُ يُمِدُّنا كلَّ حينٍ من حقائقِ العلومِ ودقائقِ الفنونِ بما أفْنَى الآباءُ والأجدادُ ألوفَ السِّنينَ وبدَرَ الأموالِ فى استنباطِه وتحقيقِه، وتجْربتِهِ وتهذيبِهِ، حتى صار قواعدَ مُطَّرِدةً يُغْنينا العِلمُ بها عن كثيرٍ من

---

(١) جمع مقصورة وهى الحجرة (٢) المفازة البيداء المهلكة، جعلت كأنها مكان للفوز تفاؤلاً لسالكها (٣) شرخ الشباب أوّله (٤) العوز الحاجة (٥) جمع سيّار وسيارة. وأصل السيار الكثير السير، أُطلقت على الكواكب التى تطوف حول غيرها كالمشترى والمرّيخ والأرض لأنها تدور حول الشمس

تجاربنا الفعليّة المشوبة[1] بالمتاعب والآلام. فلو أنّ رُبّاناً[2] لا يمهر فى الملاحة حتى تكثر على يديه حوادث الغرق لكان رُبّاناً شقياً محروماً من التوفيق. والتاجر الذى لا ينجح فى تجارته إلاّ بعد كثرة الخسائر، وتعدّد الإفلاس عاجز سيّئ الحظ. وإن الحكمة التى لا تُكسب إلاّ بالمحن والمصائب لهى حكمة غالية الثمن

وقراءة الكتب مُحدّث لا يكذب، وراوٍ لا يشك ولا ينسى، مهما تطاولت على الكتب الدهور، واختلفت العصور

وقراءة الكتب إذا استوفت شروطها أعدّت الطالب بعد خروجه من المدرسة إلى أن يقف فى مصاف العلماء وعظماء الرجال؛ فإننا نرى الطلبة يدرسون على منهاج واحد، وينالون شهادات متحدة الصفة، ثم يصير بعضهم بعد سنين عالماً عظيماً ونابهاً شهيراً، ويصبح الآخر خاملاً مستضعفاً؛ ذلك بأن الأول أكبّ على القراءة والتحصيل وتكميل معارفه، ونسى الآخر ما تعلّمه بانغماسه فى غمار الكسالى القانعين بضئيل المكاسب، المتساقطين على أخونة القهوات تساقط الذباب، حيث يقتلون — كما يقولون — أوقاتهم فى لعب النرد، أو القهقهة من نكتة لفظية، أو الشغب والصخب فى مناقشة عقيم

وإذا أحسسنا من القراءة ضجراً وسأماً وقلة فائدة فلعلّ العيب منا لا منها: بأن لم نكن تخيّرنا الكتب المناسبة لنا ولم نسأل أهل الذكر عنها. فإذا انتقينا كتاباً نقرؤه ينبغى أن نتفهّمه بتمعّن حتى ترسخ له صورة مجملة

---

(١) الممزوجة (٢) ريس السفينة

فى أذهاننا نَستَمِدُّ منها عند الحاجةِ إليها . وألاّ نَطرَحه من أيدينا حتى ننقلَ إلى كُنَّاشاتِنا الخاصةِ أسماءَ مباحثِه النافعةِ لنا فى أعمالنا ومُناقشاتِنا ومحاضراتِنا وأرقامَ صَفحاتِها

وعلى من أراد التَّوسُّعَ فى فَنٍّ ألاَّ يكتفىَ بقراءة كتاب واحد، وانما يَسأل علماء الفن وأُمناء خزائن الكتب والورّاقين عَمَّا أُلِّفَ فيه ويستوْعِبَ ما يعثُرُ عليه منها بحثاً وتمحيصاً

نُجباءُ الأبناء

لَمْ يَحْوِ التاريخُ بيْنَ دِفافِ[1] كُتُبِه أخباراً أغزرَ نفعاً ولا أبْقى أثَراً مِنْ أخبارِ عُقلاءِ الناسِ وأذكيائهم ، إذْ كانوا أُستاذِى العالَمِ ومُحْكِمِى نِظامِه وَوَاضِعِى عُلومِه ومُؤسِّسِى حِضارته . ولقد كان فى قَصَصهم عِبْرةٌ لأُولى الألباب مِمَّنْ خَلَفَ مِنْ بعدهم ليقتفوا آثارَهم، ويُكْمِلُوا ما لم تصلْ اليه طاقتُهم. وإذا ثبتَ أن صُحْبةَ العُقلاءِ تَزيدُ اللبيبَ عقلاً على عَقْلِه فسماعُ أخبارهم لا يقلّ كثيراً عنها فى هذا الأثر . وسُمِعَ المأمونُ يقولُ: لا شىءَ أطيبُ مِنَ النظر فى عقول الرجال

وليس أسرُّ لِلْقارئ ولا أعجَبُ للسامع من وُقوفِه على ما كان يحدُثُ مِنْ هؤلاءِ العُقلاء، وهُمْ أطفالٌ يلْعبُونَ أمامَ دُورِهم، أو فتيانٌ يدرُسُون فى مَكاتِبِهِمْ. ويَكادُ يَكونُ من المتّفقِ عليه أن لا شىءَ أشْهَى لِنَفْسِ الوالدِ ولا أشْرحَ لِصَدْرِ الأُمِّ مِنْ أن يكونَ لهما وَلَدٌ نَجيبٌ يُصْبِحُ بذكائه واجتهادِه

---

(١) دفتا الكتاب ضِمامتاه اللتان تضمان بينهما صحائفه من الجلد والقرطاس المقوّى

قُرَّةَ أعينِهما إبَّانَ الصِّبا وسَلْوةَ أفئِدتهما زَمَنَ الشيْخُوخةِ. ولقدْ يعرِفُ كثيرٌ من الآباءِ والمعلمين الذين طالَ عهدُهم بممارسةِ تَرْبيةِ الناشئين بعْضَ أماراتٍ يستدِلّون بها على نجابةِ الفِتيانِ وعُلُوِّ هِمَّتِهم وعَظَمَةِ مُسْتقبلِهم أوْ على فَسَالتهم [1] وخُمُولِهم. فمن دلائلِ النجابةِ فى الطفْلِ شدّةُ تيقُّظِه لما يُلقَى عليه، وسكينتُه، وَقِلَّةُ تلفُّتِهِ، وسلوكُهُ جادَّةَ التوسُّطِ فى المَلْعَبِ والمأكَلِ والمَلْبَسِ، واجتنابُهُ ما يخشَى ضررَه من صحبةِ الأشرارِ ومُخالطةِ الكُسالَى. وأقوَى الدلائلِ على نُبْلِه وعُلُوِّ هِمَّتِهِ صَراحَتُهُ فى القوْلِ مَعَ تَوَخِّى [2] الأدبِ، وتوقيرُ الكبيرِ، وشدّةُ رغبته فى تَجْويدِ ما يصْنَعُه وتَثْبيتِ ما يفهَمُه، والعملُ على فَوْقِ أقرانِه، وإعجابُه بأعمالِ عُظماءِ الرجال

والى القارئ بعضَ حكاياتٍ قصيرةٍ أُثِرتْ عن عُظماءِ الامم فى صَراحة القول واحترام المعلم وإفحام المجادِلِ نقصّها عليه من حينٍ لآخرَ؛ علَّها تُثيرُ كامنَ همّتِه، وتُحرّكُ الى المجد نفسَه

نبل عبد الله بن الزبير [3]

مَرَّ عمرُ بنُ الخطاب (رضى الله عنه) بصِبيانٍ يلعبون، وفيهم عبدُ الله بنُ الزبيرِ، ففرُّوا حينَ رَأَوْه، وثبتَ عبدُ الله. فقال عُمَرُ: ما لَكَ لا تَفِرُّ مَعَ أصحابِك؟ قال: لَمْ أُجْرِمْ فأخافَكَ، ولم يكنْ فى الطريق ضِيقٌ فأُوسِعَ لك

---

(١) قلة المروءة والنفع (٢) توخى الأمر تحرّاه وتعمده بعد تأمل

(٣) هو عبد الله بن الزبير بن العوام، دعا لنفسه بالخلافة زمن يزيد، وبايعه أهل الأقطار ما عدا الشام، وبقى فى مكة حتى زمن عبد الملك، فبعث اليه بجيش على رأسه الحجاج فقتله سنة ٧٣هـ

غفل المأمون

رُوِيَ عن أبي محمدٍ اليزيديّ[١] أنه قال : كنتُ أُؤَدِّبُ المأمونَ، وهو في كَفالةِ سَعيدٍ الجَوْهريّ، فجِئتُ دارَ الخلافةِ، وسعيدٌ قادِمٌ إليها. فوَجَّهْتُ إلى المأمونِ بعضَ خُدامِهِ يُعلِمُه بمكاني، فأبطأ عليّ، ثم وجَّهْتُ آخرَ فأبطأ. فقلتُ لسَعيدٍ : إنّ هذا الفتى رُبَّما تشاغل بالبَطالةِ وتأخّر. فقال : أَجَلْ! وَمَعَ هذا إنّه اذا فارقك تعرَّمَ[٢] على خَدَمه، ولَقُوا مِنْهُ أذًى شديداً. فقوِّمْه بالأدب. فلمّا خَرَجَ تناولتُه ببعض التأديب. فإنه لَيَدْلِكُ عَيْنَيه من البُكاء إذْ قِيل : جعفرُ بن يحيى (الوزير) قدْ أقبلَ. فأخذ مِنْدِيلاً فمسح عينيه، وَجَمَعَ ثِيابَه، وقام الى فِراشِه، فقَعَدَ عليه متربِّعاً. ثم قال : لِيدخلْ. فقُمتُ عن المجلس، وخِفْتُ أن يشكوَنى اليه فألقى منه ما أكْرَهُ. (قال) فأقبل عليه بوجهه، وحدّثه حتى أضحكه وضَحِك اليه. فلما همَّ بالحركة دعا المأمون بدابّة جعفر، ودعا غِلمانَه فسعَوْا بَيْنَ يديه. ثمَّ سألَ عنّى، فجئتُ. فقالَ : خُذْ عليَّ بقيةَ حِزْبى[٣]. فقلتُ : أيها الأميرُ، أطالَ اللهُ بقاءك، لقد خفتُ أن تشكوَنى الى جعفرِ بنِ يحيى. ولو فعلتَ لتنكَّرَ لِى. فقال : تُرانِى يا أبا محمدٍ كنتُ أُطلِعُ الرشيدَ عَلَى هذه ؟ فكيفَ[٤] بجعفرِ بْنِ يحيى حتى أُطلِعَه أنّنى أحتاجُ الى أدب ! خذْ فى أمركَ، عافاك الله! فقد خطر ببالك ما لا تراهُ أبداً، ولو عُدتَ الى تأديبى مائةَ مرة

---

(١) هو أبو محمد يحيى بن المغيرة المقرئ النحوى توفى سنة ٢٠٢هـ (٢) اعتدى عليهم
(٣) اسمع لى بقية درسى (٤) الباء زائدة، وكيف خبر مقدم، وجعفر مبتدأ مؤخر

ولد المأمون

نظرَ المأمونُ الى ابنٍ صغير له فى يده دَفْتَرٌ، فقال : ما هذا الذى بيدِك ؟ فقال بعضُ ما تُسَجَّلُ بهِ الفِطنَةُ، ويُنبِّهُ من الغفلة، ويُؤنِسُ مِنَ الوَحشةِ. فقال المأمونُ : الحمدُ لله الذى رزقنى من وَلدَى مَنْ ينظرُ بعين عقْله أكثرَ مما ينظرُ بعينِ جسمه وسِنّه

نباهة عبد الله بن المعتز[1]

قال محمد بن ظفَر[2] الصَّقَلّى بلغنى أن أبا العباس عبدَ الله بنَ محمد المعتز بالله نطق بالحكمة صغيراً ؛ فكان مما حفُظ عنه فى صباه أن مؤدِّبَه قال له : لقد هممتُ بتأديبك لشىء كان منك، ثم رأيتُ التجاوُزَ عنك أوْلى. فقال له عبدُ الله : أصلحك الله ! إنك تُرادُ للتأديب لا للتجاوُز، وإنه يلزم الحازمَ قبل أن يُنبِّهَ على عفْوِهِ أن ينبِّهَ المسىءَ على إساءتِه : ليتجافَى عن أشباه زَلَّتِه، ويُنزِلَ العفوَ بمنزلته .

وسأله مؤدِّبُه أن يكتُبَ كتابَ شفاعةٍ لإنسان يَعِزُّ عليه ؛ فجعل يتباطأُ فى كِتابته ، ويطلُبُ التأملَ . فقال له مؤدِّبُه : اكتبْ على ما خيِّلْتَ ؛ فلستَ ممَّن يُتَفَقَّدُ عليه . فقال : كلاَّ ! إن عقلَ الكاتب فى قلمِه .

---

(١) هو ابن المعتز الخليفة العباسى كان عالماً كاتباً شاعراً، خرج رؤساء الكتاب على المقتدر خليفتهم وبايعوا ابن المعتز فثار غلمان المقتدر وقتلوه من يومه (٢٩٦هـ) (٢) أحد علماء صِقِلّية ومؤلف « أنباء نجباء الأبناء » و « سلوانة المطاع » توفى بحماة سنة ٥٦٥هـ

فضل العقل

(قال الأصمعى)[1] قلتُ لغلام حَدَثِ السنِّ من أولاد العرب أيسُرُّك أن يكون لك مائةُ ألف درهم وأنك أحمقُ ؟ فقال : لا والله ! قلت ولِمَهْ ؟ قال : أخاف أن يَجنِيَ عليَّ حُمْقى جنايةً تُذهِبُ مالى ويبقَى عليَّ حُمْقى .

صبى يفحم فيلسوفا

قال ثُمامةُ بن أشرسَ أحدُ كبار المتكلمين من المعتزلة زمنَ المأمون : دخلتُ الى صديق لى أعُودُه ، وتركْت حمارى على البابِ ، ولم يكن معى غُلَامٌ ، ثم خرجتُ واذا بصبىٍّ عليه فقلت : أتركَبُ حِمارى بغير إذنى ؟ قال : خفتُ أن يذهبَ فحفِظتُه لك : قلت لو ذهبَ ما باليْتُ بذهابه . قال : فإن كان هذا رأيك فى الحمار فاعمَلْ على أنه قد ذهبَ وهَبْهُ لِى ، واُربَحْ شُكرِى . فلم أدْرِ ما أقول .

مُقطَّعات شعرية

التعلم فى الصغر

أنشد أبو عبد الله نِفْطَوَيه لنفسه رحمه الله[2]

أُرَانِىَ أَنْسَى ما تَعَلَّمْتُ فى الكِبَرْ ... وَلَسْتُ بناسٍ ما تَعَلَّمْتُ فى الصِّغَرْ
وَمَا الْعِلْمُ إلاَّ بالتَّعَلُّمِ فى الصِّبَا ... وَمَا الْحِلْمُ إلاَّ بالتَّحَلُّمِ فى الكِبَرْ

---

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب كان راوية زما نه توفى سنة ٢١٦ هـ

(٢) هو ابرهيم بن محمد بن عرفة النحوى المقرئ الشاعر توفى سنة ٣٢٣ هـ

وَلَوْ فُلِقَ الْقَلْبُ الْمُعَلَّمُ فى الصِّبَا ... لَأُلْفِىَ فيهِ الْعِلْمُ كَالنَّقْشِ فى الحَجَرْ
وَمَا الْعِلْمُ بَعْدَ الشَّيْبِ إلاَّ تَعَسُّفٌ ... إذَا كَلَّ قَلْبُ الْمَرْءِ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرْ
وَمَا الْمَرْءُ إلاَّ اثْنَانِ : عَقْلٌ وَمَنْطِقٌ ... فَمَنْ فاتَهُ هذَا وَهذَا فَقَدْ دَمَرْ[1]

التعلم فى الصغر أيضا

ومما يُنْشَدُ لخلف الأحمر[2]

خَيْرُ مَا وَرَّثَ الرِّجَالُ بَنِيهِمْ ... أَدَبٌ صَالِحٌ وَحُسْنُ ثَنَاءِ
هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدَّنانيرِ والأُوَ[3] ... رَاقِ فى يَوْمِ شِدَّةٍ وَرَخاءِ
تلكَ تَفْنَى وَالدِّينُ وَالأَدَبُ الصَّا ... لِحُ لا يَفْنيانِ حتى اللِّقَاءِ[4]
إنْ تَأَدَّبْتَ يا بُنَىَّ صَغِيرا ... كُنْتَ يَوْماً تُعَدُّ فى الكُبَرَاءِ
وَاذَا مَا أَضَعْتَ نفسَكَ أُلْفِيـ[5] ... ـتَ كَبِيراً[6] فى زُمْرَةِ الْغَوْغاءِ
لَيْسَ عَطْفُ الْعُودِ إنْ كَانَ رَطْباً ... وَإذا كَانَ يابساً بِسَوَاءِ

العلم والعمل

ومن شعر لمنصور الفقيه

أَيُّهَا الطَّالِبُ الْحَرِيصُ تَعَلَّمْ ... إنَّ لِلْحَقِّ مَذْهَباً قَدْ ضَلَلْتَهْ
لَيْسَ يُجْدِى عليكَ عِلْمُكَ إنْ لَمْ ... تَكُ مُسْتَعْمِلاً لِمَا قَدْ عَلِمْتَهْ
قَدْ لَعَمْرِى اغْتَرَبْتَ فى طَلَبِ الْعِلْـ ... ـمِ وَحاوَلْتَ جَمْعَهُ فَجَمَعْتَهْ
وَلَقِيتَ الرِّجَالَ فيهِ وَزَاحَمْـ ... ـتَ عليهِ الجَمِيعَ حتى سَمِعْتَهْ

---

(١) أى هلك (٢) كان راوية للشعر والأدب وشيخًا من شيوخ النحويين البصريين توفى سنة ١٨٠ هـ (٣) جمع وَرْق مثلثة وهى الدراهم المضروبة من الفضة (٤) يوم اللقاء أى لقاء الله وهو يوم القيامة (٥) أى وُجدت (٦) نصب على الحال

ثُمَّ ضَيَّعْتَ أَوْ نَسِيتَ، وَمَا يَنْـــفَعُ عِلْمٌ نَسِيتَهُ أَوْ أَضَعْتَهْ
وَسَوَاءٌ عليكَ عِلمُكَ إِنْ لَمْ يُجْدِ نَفْعًا عَلَيكَ أَمْ مَا جَهِلْتَهْ
كَمْ إِلَى كَمْ تُخَادِعُ النفسَ جَهلاً ثُمَّ تُجرِى خِلَافَ مَا قَدْ عَرَفْتَهْ
تَصِفُ الْحَقَّ والطريقَ إليهِ فإِذَا مَا عَمِلتَ خالفتَ سَمْتَهْ(١)

عجائب الدنيا

فُطِرَ الإِنسانُ على العَجَبِ مِمَّا لم يأْلفْه، أو مَا حَوَى سرًّا يعجِزُ عن تأْويله؛ فكان فى أوَّلِ أطوارِ بَدَاوتِه وأعْصارِ جاهِليَّته يُدْهَشُ لرُؤْية الدوابِّ الهائلة الخِلْقة أو الدقيقةِ الإِلهام أو المُبَرْقشة الألوان أو الرفيقةِ العَمل، ويَعُدُّ مِنَ العجائب شُروقَ الشمسِ وغُروبَها، وتفاوُتَ حرِّها وبَرْدِها، وتزايُدَ القمرِ وتناقُصَه، وبُزوغَ الكواكب وأُفولَها، وتساقُطَ الشُّهُبِ، وانتيابَ الزلازل، وكان مع فَرْط حَيْرته فى معرفة كُنْهِها(٢) وإِكباره لأمرها يرى لها مِنَ النفْع والضَّرَر ما جعله يُعَظِّمُ النافعَ منها ابتغاءَ نَفْعِه، ويتملَّقُ الضارَّ اتقاءَ شرِّه. وليس تعظيمُه هذا وتملُّقُه ذاكَ الا ضُروبًا مِنَ العِبادة؛ فعبَدَ الشمسَ والقمرَ والكواكبَ والفِيلَ والبَقَرَ كما عبد التماسيحَ والحيّاتِ

فلما أَلِفَ نَظَرُهُ هذه المخلوقاتِ الفِطْرِيَّةَ، وتَفَهَّمَ أَسْرارَ الكثيرِ مِنَ المَشَاهد الكونيّة، وأَصبحَ بَنُو جنسه يُقيمون بأَيْديهم ما يُسامِى الجبالَ

---

(١) السمت الطريق (٢) حقيقتها

ويُناطِحُ السَّحابَ : من البُروج المشيّدة وَالمصانِع العظيمة وَالمَناوِر الشاهقة، وَما يُماثِلُ الحيوانَ مِنَ التماثيل الهائِلة والصُّوَرِ البديعةِ ، وَما يُحاكِي أصواتَ المُغَرِّداتِ: من الآلاتِ المُطْرِبة ، وَما يُضاهِي ألوانَ الزَّهْرِ وَرِيشَ الطَّيْرِ وَأَجْنِحةَ الفَراشِ من الأصْباغِ المُؤتلِفة والمختلفة التي زَخْرَفَ بها القُصورَ، وَنَمَّقَ بها البُسُطَ وَالطَّنافِسَ، أخَذَ مَجْرَى عَجَبِهِ يَنْحَرِفُ رُوَيْدًا الى ما هو بديعٌ مِنْ صُنْعِ الإنسانِ ؛ حتى رأينا مُؤَرِّخِي السَّلَف وَجَوَّابَةَ الآفاقِ مِنَ القُدَماءِ اذا أحْصَوْا عَجائِبَ الدُّنيا فقلَّما يَدرُجون فى إحصائهم بعضَ العجائبِ الفِطْرِيَّة

فقال الرومانُ مثلاً : إن عجائبَ الدنيا سبعةٌ[1] ؛ عَدُّوا منها أسوارَ بابلَ وحدائقَها المعلَّقةَ ، وتمثالَ رُودِسَ الهائلَ ومَنارةَ الاسكندرية . ثم لمّا ضرَبَ السائحون لعهدِنا هذا فى الأرض وَطوَّفُوا الممالكَ وَالأمصارَ صارتْ عجائبُ الدنيا تُعَدُّ أكْثرَ من سَبْعة فى جملتها سورُ الصين الأعظمُ وَبُرْج بيزا الهائلُ. وَاتفق المتقدّمون وَالمتأخرونَ عَلَى أنّ من أعجبِها هَرَمَى الجيزة منْ مِصْرَ

---

(١) هى الأهرام والثلاثة المذكورة فى الصلب ، والخامس معبد ديانة بأفَسُوس من الجانب الغربى لآسيا الصغرى بناه مهندسو الإغريق فى أيام الاسكندر وتم بناؤه حوالى سنة ٣٣٠ ق. م، ودمره القوط سنة ٢٦٢م، وكُشف سنة ١٨٨٣م وقدّر أنه كان ٤١٨ قدم فى ٢٣٩ قدم . والسادس تمثال جُبتير (المشترى) بأولمبيا صنعه فدياس الشهير سنة ٤٥٠ ق . م فى اليس بالمورة ، وكان ارتفاعه ٤٠ قدماً يمثل جبتير جالساً مرتدياً قابضاً بيده اليمنى على رمز النصر، والمظنون أنه كان مكسىّ الصدر والوجه بالعاج المكفّت بالذهب على صور أزهار . والسابع ناوُس أرتميزيا فى هليكرناس على شاطئ الجنوب الغربى لآسيا الصغرى، بنته أرتميزيا لزوجها أحد ولاة الفرس سنة ٣٨٠ق م

أسوار بابل

فأمَّا أسوارُ بابِلَ فكانتْ أسواراً هائلةَ الشانِ، سامِقةَ البُنيانِ، تُحيطُ بمدينةِ بابلَ العظيمة التى كانت فى إبَّانِ عَظَمَتِها أى منذ ٢٥٠٠ سنة تقريباً تَشْغَلُ من بَسِيطِ الأرض ما يبلغ نحوَ مائةِ ميلٍ مُربَّعٍ

وكان عُلُوُّ الأسوارِ فى بعض جِهاتِها يبلغُ ٣٣٥ قَدَم فى سَمْكِ ٨٥ قدماً، عليها نحوُ مائة باب كلُّها من الصُّفْرِ (١)

وكان بالمدينة جملةُ صُروحٍ كالأهرامِ المدرّجة كثيرة الغرف والنوافذ ومن بينها بُرْجُ بابلَ العظيم المضروبُ بهِ المثلُ فى الارتفاع

وكان من مرافق القصر المَلَكىِّ بالمدينة (حدائقُ بابلَ المُعلَّقةُ) المشهورة وهى حدائقُ بديعةٌ غُرِسَتْ أشجارُها فى أُصُصٍ (٢) هائلة من الفخّارِ، مُلِئتْ بالطين، ونُصبتْ عَلَى قناطرَ رُفِعتْ عن الأرض بنحو ٧٥ قدماً. فى شكلٍ مُربَّعٍ، ضِلعُهُ نحوُ ٤٠٠ قدم. وكان الماءُ يصِل إليها من نَهْرِ الفُراتِ بطُنْبُورٍ لَوْلَبِىٍّ عَجيبٍ يدُور عَلَى مِحْوَرِه

تمثال رودس

وأما تمثالُ رُودِسَ الهائلُ فكان تمثالاً عظيماً من الشَّبَهِ (٣) يُمثِّلُ أحدَ معبوداتِ اليونان، ارتفاعُهُ ١٢٠ قدم، أُقيم عند مَدْخلِ مِيناءِ رودس سنة ٢٨٠ ق. م، ثم سقط سنة ٢٢٤ ق. م على أثرِ زِلْزالٍ شديد، فتهشَّم، وبقيت أنقاضُه

---

(١) النحاس الأصفر (٢) جمع أصيص وهو وعاء شبه نصف جرّة تغرس فيه الرياحين (٣) هو ما يسمى (البرنز)

هنالك الى أن استولى العربُ على جزيرة رودس سنة ٦٥٦ م ، فبيعتْ من احد تجار اليهود ، فسخَّر فى حملها ألفَ جمل

منارة الاسكندرية

وأمَّا مَنارةُ الإسكندريَّةِ أو مَنارةُ فارُوسَ[١] فهى مَنارةٌ عظيمةٌ بناها بَطْلَيْمُوسُ الثانى ما بينَ سَنتَىْ ٢٨٣ و ٢٤٧ ق . م لِتكونَ هِدَايةً للسُّفَّار[٢] فى البرِّ والبحر ومَرْقباً تُلْمَحُ منه السُّفُنُ على بُعْدٍ عظيمٍ ؛ وكان يُوقَدُ فى رأسِها النِّيرانُ ، فتُرَى على أكْثرَ من سبعين مِيلاً . وَلَمْ يُعْلَمْ مِقدارُ ارتفاعِها بالضبط زَمَنَ البطالِسَة . وَأعْدَلُ الأقوالِ فيهِ أنه أربعُمائة ذِراعٍ بالذراع السوداء[٣] . والمشهورُ أنهُ سقطَ من أعلاها زَمَنَ الوليد من بنى أمية مِقدارٌ عظيمٌ حامَتِ الظنونُ والتخرُّصاتُ حولَ سببِ سُقوطِهِ

وكانتْ هيئتُها مُرَكَّبةً مِنْ ثلاثةِ أشكالٍ: الأوَّلُ مَنْشُورٌ مُرَبَّعٌ ، والأوسطُ منشورٌ مُثَمَّنٌ مِساحةُ قاعدتِهِ أضيقُ ذَرْعاً مِمَّا قبلهُ ، والأعلى مُدَوَّرٌ أُسْطُوانىٌّ . ولَعلَّ المِصريين قد حاكَوْا هذا الشكلَ فى بِناءِ مَنارات مساجدهم ولا سيما ما بُنِىَ منها زَمَنَ المماليك

ولما استبدَّ أحمدُ بن طُولونَ بمُلكِ مِصْرَ رَمَّمَها ، وَبَنَى عليها قُبَّةً من خشبٍ أطَارَتْها الرِّياحُ بعدَ زمنٍ ، وكذلك أصلحَ ما تشعَّثَ من جانبها ابنُهُ أبو الجَيْش خُمارَوَيْهِ . ثم حدَثَتْ فى سنة ٣٤٤ هـ زَلْزلةٌ عظيمةٌ أسقطتْ مِنْ أعلاها نحوَ

---

(١) نسبة الى جزيرة فاروس وكانت منفصلة عن الاسكندرية ثم وصلت بها

(٢) جمع سافر لا فعل له (٣) هى الذراع العباسية النيلية

ثلاثينَ ذِراعاً. وشاهدَها ابنُ جُبَيْرٍ[1] الرحّالةُ المشهورُ سنة ٥٧٨ هـ فى عُلُوّ نحوِ خمسينَ ومائةِ قامةٍ، وذَرَعَ ضِلَعَ قاعدتِها السُّفلَى، فكان ذَرْعُها أكثرَ من خمسينَ ذِراعاً، وذكرَ أنهُ صَعِدَ فيها وصَلَّى فى المَسْجد الذى بُنِىَ فى أعلاها، فشاهدَ مِنْ شأنِ مَبْنَاهُ عَجَباً لا يَسْتَوْفيه وَصْفُ واصف؛ وفى أيام الملك الظاهر بيبرْسَ البُنْدُقداريّ تَدَاعَى بعضُ أرْكانِها، فأمرَ بِبِنَاءِ ما تهدّمَ سنة ٦٧٣ هـ وأعادَ بناءَ المَسْجدِ، ولكنَّهُ سَقَطَ فى سنة ٧٠٢ هـ فى زِلْزالٍ عظيمٍ، ثم جَدَّدَهُ الأميرُ رُكنُ الدينِ بيبرْسُ الجَاشْنكيرُ سنة ٧٠٣ هـ

ووَصَفَها بَعْدَ ذلك الرَّحَّالَةُ ابنُ بَطوطة[2] عند وُصُوله الى ثَغْرِ الاسكندريةِ ابتداءَ رِحلَتِه سنة ٧٢٦ هـ فقال ما خلاصته:

قَصَدْتُ المنارَ فرأيتُ أحدَ جوانبِهِ مُهَدَّماً. وَصِفَتُه أنهُ بناءٌ مُرَبَّعٌ ذاهبٌ فى الهواءِ، وبابُه مرتفعٌ على الأرضِ، وَإزاءَ بابه بناءٌ بقدرِ ارتفاعِه وُضِعَتْ بينهما ألواحُ خشبٍ يُعْبَرُ عليها إلى بابه فإذَا أُزيلتْ لم يكنْ له سبيلٌ؛ وداخلَ البابِ موضعٌ لجُلوسِ حارسِ المنارِ، وداخلَ المنارِ بيوتٌ كثيرةٌ، وَعَرْضُ المَمَرِّ بداخلِهِ تسعةُ أشبارٍ، وَعَرْضُ الحائطِ عشرةُ أشبارٍ، وَعَرْضُ المنارِ من كلِّ جهةٍ من جهاته الأربعِ أربعُون ومائةُ شِبرٍ، وهو على تَلٍّ مُرتفعٍ الخ. ثم قال:

---

(١) هو الرحالة المشهور الكاتب الشاعر الأديب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى البلنسى، جاء الى مصر وحج ودخل العراق والجزيرة والشام ورجع الى بلاده ثم عاد الى الاسكندرية وتوفى بها سنة ٦١٤ هـ

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجى ذهب الى مصر والحجاز والعراق والروم وفارس وبلاد الترك والهند والصين والسودان والاندلس

وَقَصَدْتُ المنارَ عند عَوْدِى إلى بِلادِ المَغْرِب سنة ٧٥٠ هـ فوجدتُه قَدِ اُستولى عليه الخرابُ بحيث لا يمكن دخولُه ولا الصعود الى بابه اهـ

ثم تساقطتِ المنارةُ عَقِبَ ذلك . فلما زارَ السلطانُ الملكُ الأشْرفُ قايتْباىُ ثغرَ الاسكندرية سنة ٨٨٢هـ وكان مُولعاً بالعمارة ، رَسَمَ بأن يُبْنَى على أساسِها بُرْج عظيمٌ فبُنِىَ ثمَّ تَهَدَّمَ ، وَبَنَى عَلَى أساسِهِ مُجَدِّدُ مِصْرَ محمدُ على باشا حصناً سُمِّىَ وَلا يَزَالُ يُسَمَّى حِصْنَ (طابية) قايتْبَاىَ، وقد شَعَّثَتْه الأساطيلُ الانجليزيةُ عِنْدَ ضرب الاسكندرية زَمَنَ الثورةِ العرابيَّة . وَبقِىَ مأوًى لبعض خفر السواحل ، وهو الآنَ فى حكم الخرائب

سور الصين

وأما سُورُ الصِّينِ أو السَّدُّ الأعظمُ فهو أهْوَلُ ما بَنتْهُ أيدِى الجبَّارين

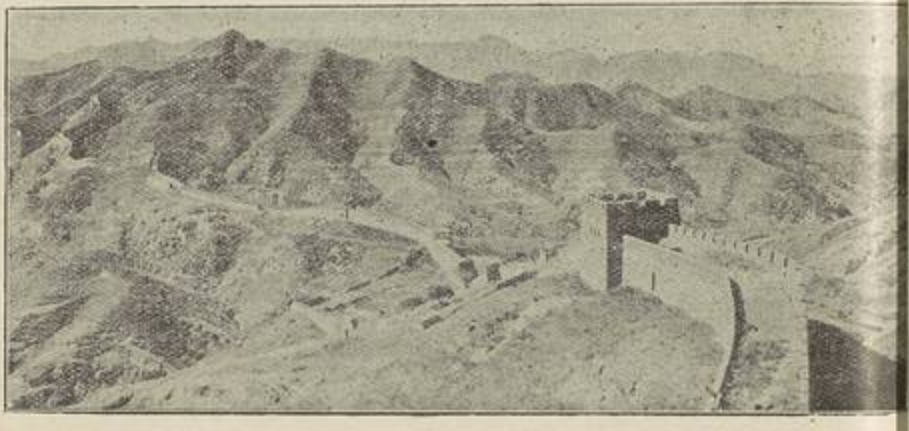

سور الصين

من بنى آدم . أمرَ بإقامتِه عاهلُ الصِّين العظيمُ شِى هُوَنْجَ تِى فى أواخر القرنِ الثالث من الميلاد شمالىَّ بلادِه ؛ ليدفع عنها غاراتِ المُغولِ والتتار ؛ فمَدَّه

على طُولِ أَلفَىْ مِيلٍ وأكثرَ، وأقام عليه من الأبراج والقِلاع ما لا يقلُّ عن
٢٥٠٠٠ قلعةٍ. وقد طال عليه الزمانُ، وعَبثَتْ بهِ يَدُ الحدَثان، ولكنَّه لا يزال
موضعَ دَهْشَةِ الناظرين وإكبارِ السائحين، فلم يقع عليه نظرُ انسانٍ الاَّ وقد
هالتْهُ رُؤيتُه، وعدَّهُ أعجبَ عجائبِ الدنيا، وأيقنَ أن لا يُضاهيهُ بناءٌ آخر
فى ضَخامته وكثرةِ مَنْ سُخِّروا فى بنائه. ولا عَجَبَ فقد قال كاتبٌ من
الثقات: إنّه لو اُستُعْمِلَتْ أنقاضُهُ فى بناءِ منطقَة على طُول خطِّ الاستوا
لأَوْفَتْ عَلَى إقامةِ سُورٍ حول الكرة الأرضية يبلغُ عُلُوُّه ثمانِىَ أقدام، وسَمكُ
ثلاثَ أقدام: وإنَّ ذلك ليُقَرِّبُ الى أذهاننا مقدارَ مئاتِ الألوف من الناس
الذين سُخِّرُوا فى بنائِه، ومَبْلَغَ ما عانَوْهُ هُمْ وأهلُوهم من التَّعْسِ والشقاء خلَفَ
بعد خلَفٍ. ولقد كان من الجائز أن يغتفِرَ الصينيُّونَ لعاهِلِهم هذا العَسْفَ
المبينَ لو بقِىَ السور مانعاً لهم من أعدائهم؛ ولكنْ أتَتِ المقاديرُ على عَكْسِ
ذلك؛ فلم يمضِ عَلَى إتمام السور عهدٌ طويل حتى توالَتْ غاراتُ التتار والمُغول
عَلَى الصين الى مُنْتَصَفِ القرْنِ السابعَ عشرَ من الميلادِ

برج بيزا المائل

وأما «برجُ بيزا[1] المائلُ» فكان بُرْجاً للكنيسة الأُسقُفيّة لتلك
المدينة يُدَق مِنْهُ ناقوسُها، بُنِىَ فى سنة ١١٧٤ م من الرُّخام الأبيض عَلَى يد
اثنين من مهندسى مدينة أنْزِبْرُوكَ من أعمال التِّيرول. وقد حدَثَ فى قاعدة
أساسه بعض اُرتجاج فُجائى أفضى الى اُرتكازه فى موضعه المائل الذى يرى

(١) من مدن ايطاليا

عليه الآنَ . وإن الناظر الى هذا البرج ليُدْهَشُ من بقائه ثابتاً مع شدَّةِ ميلهِ ؛ إذ يبلغُ انحرافُ قِمَّتِهِ عن الخطِّ العمودىِّ نحو أربعَ عشرةَ قدما . والظاهرُ أنه

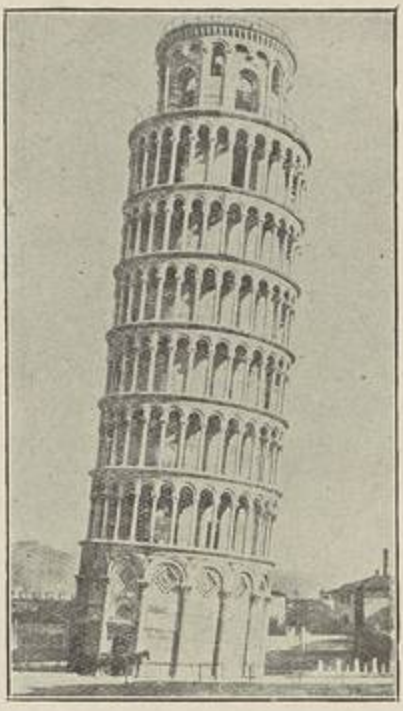

برج بيزا المائل

حَدَثَ قريباً بعضُ اهتزازاتٍ أخرى فى أساسه جعلتْ هذا الأثرَ العجيبَ مُهَدَّداً بالسُّقوطِ . ومع ما يقومُ به الآنَ أُولو الشأن من الاحتياط لتلافى ذلكَ يقول العارفون إنه سيسقُطُ عما قريبٍ لا محالةَ . والمظنون أن الذين ينظرون الى صورته المدرَجة فى هذا الكتاب لا تُتاحُ لهم مشاهدتُه قبل سُقوطه

ملهى رومية (الكولسيوم)

وأما مَلْهَى الكُولسيُوم بِرُومية فهو بَنِيَّةٌ عظيمةٌ بَيْضِيَّةُ الشكل شاهقة الجُدران، كثيرةُ الطيقان، محيطُ دائرِها ٥٢٧ ذِراع فرنسية، وقُطرُهُ الأصغرُ ١٥٥ ذراع، والأكبرُ ١٧٨ ذراع

بَناهُ العاهلُ الرومانيُّ فسْبِسْيانُ حولَ بركةٍ كانتْ وسَطَ حدائقِ الطاغية العاهل نيرونَ، وأتمّه العاهلُ طِيطُسُ ليكونَ ملهًى يجمعُ أعيانَ رومية ورجالَ حكومتها

وكان يستندُ الى جِدارِه العظيمِ من الداخل مقاعدُ مدرَّجةٌ بعضُها فوقَ بعض تتَّسعُ لِجلوسِ خمسينَ ألفَ مُشاهِدٍ، وتُطيفُ بفضاءٍ متَّسعٍ من الأرض: وهو بركةُ نيرون. وقد صُنِعَ لها أقنيةٌ وجداولُ تنسابُ فيها المياهُ من بُحيْرَةٍ قريبةٍ بحيثُ يمكنُ تجفيفُها فتصبحُ مَسْرَحًا، أو مَلْؤُها فتعودُ بُحيْرَةً

وقد نُصِبَتْ عَلَى الملهى قُبَّةٌ عظيمةٌ من أقواس ووشائجَ[1] من الحديدِ، نُشِرَتْ عليها مِظَلَّةٌ من النسيج المُزَوَّق بِصُورَةِ السَّماءِ والكواكبِ، يتخلَّلُها أنابيبُ تَنبَعِثُ منها الروائحُ الذكيةُ

وكان به لقياصرة الرومان وحاشيتهم مقاصيرُ خاصة بهم وبنسائهم، تليها مراتبُ أهلِ الدَّولةِ وقوّادِها وحُكّامِها الذين يُهْرَعُونَ إليهِ فى أيامِ الزينةِ والحَفْلِ بنَصْرٍ أو عِيدٍ، ويدخُلونه من ثمانينَ بابًا

---

(١) أصل الوشائج جمع وشيج ووشيجة وهى ما التف من عروق الشجر أو أغصانه المشتبكة شبهت بها قضبان الحديد المشتبكة

وفى عام ٢١٧ م انقضَّتْ على الملْهَى صاعقةٌ دمّرتْ منه جانباً ، فرمَّمَه بعضُ القياصرة

وكانتِ المشاهدُ التى تقام فى هذا الملهى صُنوفاً شتَّى : منها المقبولُ المحمودُ ومنها المستهجَنُ الفظيع ، وان كان كلاهما مُسْتَمْلَحًا فى عُرْفِ الرومان

فمنَ المقبولِ — وهو أقلُّها — تَمْثيلُ بعضِ القِصَصِ والأساطيرِ وإجراءُ بعضِ الألعابِ الرياضيـة والتمرينات العسكريةِ : من مُبارزةِ الأقرانِ ،

ملهى رومية (الكولسيوم)

ومُصارَعة الفِتيان ، ومُسابقةِ الجيادِ والعجَلاتِ . ومُباراة المدَّائين . وكانت المياهُ اذا أُطلِقتْ عَلَى ساحـةِ الملهى من البُحَيْرَةِ القريبة دخلَ من جداولِها بعضُ القوارب ذواتِ المجاديفِ والشُّرُعِ فتجرِى فى البِرْكةِ مُتَسابِقةً عَلَى رِهان ومنها غيرُ المقبول وهو أكثرُها ، كإطلاق بعض السباع الكواسر على

بعض أو على العبيدِ والاسارَى. وعند ما أُفتتحَ العاهلُ طِيطُسُ الملهى بدأَ الافتتاحَ باحتفالٍ امتدَّت مُدَّتُه الى مائةِ يَوْمٍ هلَك فى خِلالِها نحوُ خمسةِ آلافِ وَحْشٍ

وكان للسِّباعِ من الأسود والنُّمورة والفِيَلة ونحوِها فى الطبقة السُّفلى من الملهى وتحتَ الأرض أوْجِرَةٌ وأقفاصٌ عليها أسْوِجَةٌ من حديدٍ تُفتحُ أبوابُها الى ساحةِ الملهى. فاذا أرادُوا مشاهدةَ قتال الكواسر فتَحُوا بابَ أسدٍ مثلاً فمرَّ يعدُو الى ساحةِ الملهى؛ فما هو إلاَّ أنْ يُشاهِدَ تلك الجُموعَ المتراصَّةَ، ويستمع ضَجِيجَها المرتفِعَ الى السماء طَرَباً وحُبُوراً حتى يُذهلَ ويقفَ مبهُوتاً مُتَحَيِّراً؛ فلا يُفيقُ من ذُهولِه إلاَّ بسبُع آخرَ يُطلَقُ عليه كَفِيلٍ أو نمرٍ أو كَرْكَدَنٍ[1]. فيقعُ بينهما من الخَمْشِ والنَّهْشِ والنِّطاح والصِّيالِ ما يشغلُهما بأنفُسِهما عن الناس حتى يفتِكَ أحدُهما بالآخرِ. وتارةً يُطلِقون جُملة سباعٍ بعضها على بعضٍ فيكونُ المشهدُ أهْوَلَ وأفظعَ؛ ولكنه كان يُعْتَبرُ ينبُوعَ سرورٍ واُبتهاج فى عُرْفِ أولئكَ الجبابرةِ القُساةِ القلوب

ولمَّا دخلتِ الديانةُ النَّصرانيةُ بلادَ الرومان كان يُؤتَى بالفِرَق المتنصِّرةِ الى ساحة هذا الملهى أفْواجاً، حيث يُقطَّعُون أو يُصَلَّبُون، أو تُطلَق عليهم السباعُ فتفْتَرِسُهم

ولقد لبِثَ هذا الملهى مَسْرَحاً لإحْدَاثِ هذه الفظائع الى انقراضِ الدولة

---

(١) هو حيوان عظيم من ذوات الجلد الصفيق قصير القوائم غليظها له قرن واحد فوق أنفه يقتل به أحياناً الفيل والأسد

الرومانية الغربية من رومية ، فأُغفِلَ أمرُه إلاَّ قليلاً حتى القرنِ التاسع ؛ فأُهمِلَ شأنُه جُملةً ، وتخرّبَ . وشرَعَ أُمراءُ القُرونِ الوُسطى ينقُلون أحجارَه لِبناءِ قصورِهم وكنائسِهم الى أن منعَ ذلك بعضُ البابواتِ فى مُنتَصفِ القرن التاسعَ عشرَ ، وَبَنَى فيهِ مَعْبَدًا صغيراً ليكونَ تذْكاراً لِقُدماءِ المسيحيين الذين سُفِكتْ دماؤُهم فى ساحتِه

وَيُعَدُّ هذا الملهى الى الآنَ من أشهرِ آثارِ رُومِيةَ القديمةِ ، ويُبذَلُ فى سبيلِ حِفظِهِ كثيرٌ من المال . ومع أنه لم يبقَ من جِداره الأَنحوُ الثُّلُثِ قَوَّمَ بعضُ المهندسين ما بقِيَ فيهِ من الحجارة والرُّخام بثمانية آلافِ ألفِ دِرهمٍ (فرنك) . ولا غروَ فقد قال بعضُ المؤرّخين : إنهُ لم يتمَّ بناءُ هذا الملهى الاَّ بَعْدَ أن جرَى فيهِ نَهْرٌ من الذهب

أهرام مصر

وأما أهْرامُ مِصْرَ فقد وَقفَنَا العلمُ الحديثُ على حقيقتِها ، وكشف لنا السِّتارَ عن إنشائِها ، وَتبيَّنَّا بَواطنَها وظَواهرَها ، حتى أصبحَ حديثُ المعاصرين عنها ليْسَ بأعجبَ لدينا من وصفِ المتقدّمين لها . فمن أقوال المتقدّمين ما وَصفها بِهِ الرَّحّالةُ الحكيمُ المُتطبِّبُ المؤرّخُ عَبْدُ اللطيف البغدادىُّ عند زيارتِهِ مِصْرَ أواخرَ القرن السادسِ من الهجرةِ فى كتابه المختصَر الذى سماه الإفادةَ والاعتبارَ قال رحمه الله :

أما ما يُوجدُ بمصرَ من الآثارِ القديمةِ فشَىْءٌ لم أرَ وَلَمْ أسْمَعْ بمثلِه فى مثلِها ؛ فأقتصرُ على أعجبِ ما شاهدتُه

فمن ذلك الأهرامُ . وقد أكثرَ الناسُ من ذكرها ووَصْفِها ومساحتِها وهى كثيرةُ العددِ جدًّا ؛ وكلُّها ببرِّ الجيزةِ ، وعَلَى سَمْتِ مِصْرَ القديمةِ وتمتدُّ فى نحوِ مسافةِ يَوْمين . وفى بُوصِيرَ منها شىءٌ كثيرٌ . وبعضُها كِبارٌ وبعضُها صِغارٌ ، وبعضُها طِينٌ ولَبِنٌ ، وأكثرُها حَجَرٌ ؛ وبعضها مُدَرَّجٌ وأكثرُها مَخْروطٌ أمْلَسُ ؛ وقد كان منها بالجيزةِ عَدَدٌ كثيرٌ لكنها صِغارٌ فهُدِمَتْ فى زمنِ صَلاحِ الدين يُوسُفَ بنِ أيُّوبَ عَلَى يَدَىْ قَراقُوشَ بعضِ الأمراءِ ، وكان رُومِيًّا سَامِىَ الهمَّةِ ، وكان يتولَّى عمائرَ مِصْرَ ، وهو الذى بَنَى السورَ من الحجارةِ مُحِيطًا بالفُسْطاطِ والقاهرةِ وما بينهما وبالقلعةِ التى على المُقَطَّمِ ، وهو أيضًا الذى بَنَى القلعةَ ، وأنبط فيها البئرَيْنِ الموجودتَيْنِ اليومَ وهُمَا أيضًا من العجائبِ ، ويُنْزَلُ اليهما بدَرَجٍ نحو ثَلثمائةِ درجةٍ . وأخذ حجارةَ هذه الأهرامِ الصِّغارِ وبنى بها القناطرَ الموجودةَ اليومَ بالجيزةِ ، وهذه القناطرُ من الأبنيةِ العجيبةِ أيضًا ومن أعمالِ الجبَّارين ، وتكوِّنُ نيِّفًا وأربعينَ قنطرةً . وفى هذه السنةِ وهى سنةُ سبعٍ وتِسْعينَ وخمسمائةٍ تولى أمرَها مَنْ لا بصيرةَ عندَه فسدَّها رَجاءَ أن يحتبسَ الماءَ فيرْوِىَ الجيزةَ ، فقويتْ عليه جَريةُ الماءِ ، فزُلْزِلَتْ منها ثلاثُ قناطرَ وانشقتْ ، ومع ذلك فلم يُرْوَ ما رَجَا أن يُرْوَى . وقد بقِىَ من هذه الأهرامِ المهدومةِ قلبُها وحَشْوَتُها ، وهى رَدْمٌ وحجارةُ صِغارٌ لا تصلُحُ للقناطرِ فلأجلِ ذلك تُرِكَتْ

وأما الأهرامُ المتحدَّثُ عنها المشارُ اليها الموصُوفةُ بالعِظَمِ فثلاثةُ أهرامٍ موضوعةٌ على خطٍّ مستقيمٍ بالجيزةِ قُبالةَ الفُسْطاطِ ، وبينها مسافاتٌ يسيرةٌ وزواياها متقابلةٌ نحوَ المشرقِ واثنان منها عظيمان جدًّا وفى قَدْرٍ واحدٍ ؛ وبهما

أولعَ الشعراء. وهما متقاربان ومَبنيّان بالحجارةِ البيض. وأمّا الثالثُ فصغيرٌ عنهما نحو الرُّبع لكنه مبنىٌّ بحجارة الصَّوّان الأحمرِ المُنقَّطِ الشديدِ الصَّلابةِ ولا يؤثرفيهِ الحديدُ الاّ فى الزمنِ الطويل. وتجدُه صغيراً بالقياس الى ذَيْنِكَ؛ فإذا قربْتَ منه وأفردتَه بالنظر، هالكَ مَرْآهُ، وحسرَ الطَّرْفُ عند تأمُّلِه. وقد سُلِكَ فى بنايةِ الأهرام طريقٌ عجيبٌ من الشكل والإتقانِ، ولذلك صبَرتْ على مَمَرِّ الزمان، بل على ممرِّها صبَرَ الزمانُ؛ فإنك إن خبَرْتَها وجدْتَ الأذهانَ الشريفةَ قد اُستُهْلِكتْ فيها، والعقولَ الصافيةَ قد أفرغتْ عليها مجهُودَها، والأنفُسَ النيّرةَ قد أفاضتْ عليها أشرفَ ما عندَها، والملَكاتِ الهندسيةَ قد أخرجتْها الى الفعلِ مثلاً هو غايةُ إمكانِها؛ حتى إنها تكادُ تُحدِّثُ عن قومِها، وتُخبِرُ بحالِهم، وتنطقُ عن عُلومهم وأذهانهم، وتُترجِمُ عن سِيَرِهم وأخبارِهم؛ وذلك أنّ وَضْعَها عَلَى شكلٍ مخروط يبتدئ من قاعدة مُربَّعةٍ، وينتهى الى نقطةٍ، ومِنْ خواصّ الشكل المخْرُوطِ أنَّ مركزَ ثِقَلِه فى وَسَطِه، وهو يتساندُ على نفسه، ويتواقعُ عَلَى ذاتِه، ويتحاملُ بعضُه عَلَى بعضٍ؛ فليْسَ له جهةٌ أُخرى خارجةٌ عنه يتساقطُ عليها. ومن عجيبِ وَضعِه أنه شَكْلٌ مُربَّعٌ قد قُوبِلَ بزواياهُ مهابُّ الرِّياحِ الأربع؛ فإن الريحَ تنكسرُ سَوْرَتُها عند مُصادَمَتِها الزاويةَ، وليست كذلك عنْدَ ما تلقى السَّطحَ

ولْنرجعْ الى ذكر الهرَمَيْنِ العظيمين فإن المُسَّاحَ ذكَرُوا أن قاعدةَ كُلٍّ منهما أربعُمائةِ ذراعٍ طولاً فى مثلِها عَرْضاً، وارتفاعَ عمودها أربعُمائةِ ذراع، وذلك كلُّه بالذراع السوداء. وينقطعُ المخروطُ فى أعلاه عند سطحٍ مساحتُه عَشْرُ أذرعٍ فى مثلِها. وأما الذى شاهدتُه مِنْ حالِهما فإنَّ راميًا كان مَعِى

رَمَى سَهْماً فى قُطْرِ أحدهما وفى سَمْكِهِ، فسقط السَّهْمُ دُونَ نصفِ المسافة
وخُبِّرْنا أنَّ فى القريةِ المجاورةِ لهما قوماً قد اعتادوا ارتقاءَ الهرَمِ بلا كُلْفَةٍ
فاستدعينا رجلاً منهم، ورضَخْنا[1] له بشىءٍ، فجعلَ يُصَعِّدُ فيه كما يَرْقَى أحدُ
فى الدَّرَجِ، بل أسرعَ؛ وَرَقِىَ بنعليْهِ وأثوابِهِ، وكانت سابغةً، وكنت أمرُّ
أنهُ اذا استوَى على سطحه قاسَه بعمامتِهِ، فلما نزل ذرَعْنا من عمامتِهِ مقدا
ما كان قاسَ، فكان إحدى عشرةَ ذراعاً بذراع اليد. ورأيت بعضَ أرباب
القياس قال: ارتفاعُ عمودِها ثلثمائة ذراعٍ ونحو سبعَ عشرةَ ذراعاً، يُحيطُ
أربعةُ سُطوحٍ مُثَلَّثاتُ الأضلاعِ، طولُ كلِ ضِلَعٍ منها ستون وأربعمائةِ ذرا
وأرى هذا القياس خطأً. ولو جعَلَ العمودَ أربعمائةِ ذراع لصحَّ قياسُه. وإ
ساعدتْ المقاديرُ توليتُ قياسَه بنفسى

وفى أحد هذيْن الهرَمين مَدْخَلٌ يَلِجُهُ الناسُ يُفْضِى بهم الى مسالك
ضيِّقةٍ، وأسْرابٍ مُتنافذة، وآبارٍ، ومَهالِكَ وغيرِ ذلك مما يحكيه مَنْ يلِجُ
ويتوغَّلُ فيه؛ فإن ناساً كثيرين لهم غرامٌ به وتحيُّلٌ فيه فيُوغلون فى أعماقِهِ و
بُدَّ أن ينتهُوا الى ما يعجِزون عن سُلوكه. وأما المسلوكُ فيهِ المطروقُ كثير
فزَلَّاقةٌ تُفضِى الى أعلاه، فيُوجَدُ فيه بيتٌ مُرَبَّعٌ فيه ناوُسٌ من حجَرٍ. وهذ
المَدْخلُ ليس هو البابَ المتَّخَذَ له فى أصلِ البناءِ، وانما هو منقوبٌ نَقْباً صُودِف
اتِّفاقاً. وذُكِرَ أن المأمونَ هو الذى فتحَه. وجلُّ مَنْ كان معَنا وَلَجُوا فيه
وصعِدُوا الى البيت الذى فى أعلاه. فلما نزلوا حدَّثوا بعظيم ما شاهدوا، وأ
مملوءٌ بالخفافيش وأبوالها حتى يكادَ يُمنَعُ السالكُ. ويعظُمُ فيها الخفَاشُ حتى

(١) رضَخ له: أعطاه عطاء غيرَ كثير

يكونَ فى قدْرِ الحمام. وفيه طِيقانٌ ورَوَازِنُ نحوَ أعلاه، وكأنها جُعِلَتْ مسالكَ للريح ومنافذَ للضَّوْءِ. ولَجْتُه مرَّةً أخرى مع جماعةٍ، وبلغتُ نحوَ ثُلُثَيِ المسافة فأغْمِيَ علىَّ من هَوْلِ المطْلَع، فرجعْتُ بِرَمَقٍ

وهذه الأهرامُ مبْنِيَّةٌ بحجارةٍ جافيةٍ يكونُ طولُ الحجَر منها ما بين عشْرِ أذرعٍ الى عشرين ذراعاً، وسَمْكُه ما بين ذِراعين الى ثلاثٍ، وعرضُه نحوَ ذلك. والعجبُ كلّ العجبِ فى وضْع الحجر على الحجر بهنْدامٍ ليس فى الإمكان أصحُّ منْه؛ بحيثُ لا تجدُ بينهما مدخلَ إبْرةٍ، ولا خلَلَ شعْرةٍ، وبينهما طينٌ كأنهُ الوَرَقةُ لا أدرى ما صِفتُه، ولا ما هو. وعلى تلك الحجارةِ كتاباتٌ بالقلم القديم المجهول الذى لم أجدْ بديار مِصْرَ من يزعُمُ أنه سمِعَ بمنْ يعْرِفُه. وهذه الكتاباتُ كثيرةٌ جدًّا، حتى لو نُقِلَ ما عَلَى الهرَمَيْنِ فقط الى صُحُفٍ لكانتْ زُهاءَ عشرةِ آلافِ صحيفة

وكان الملكُ العزيزُ عثمانُ بنُ يوسُفَ[1] لما استقلَّ بَعْدَ أبيه سوَّلَ له ولَجَهَلَةُ أصحابه أن يهْدِمَ هذه الأهْرامَ، فبدَأَ بالصغيرِ الأحمرِ — وهو ثالثةُ الأثافى[2]، فأخرج اليه الجَبَلِيَّةَ والنقَّابينَ والحجَّارينَ وجماعةً من عُظَماءِ دَوْلتِهِ وأُمراءِ مملكتِهِ، وَامرهمْ بهدْمِهِ، وَوَكَّلَهُمْ بخرابِهِ. فخيَّمُوا عنده، وحشَروا عليه الرجالَ والصُّنَّاعَ، وَوَفَّرُوا[3] عليهم النفقاتِ، وأقاموا نحوَ ثمانيةِ أشْهُرٍ بخَيْلِهم وَرَجْلِهم، يهدِمون كلَّ يَوْمٍ بَعْدَ بَذْلِ الجَهْدِ واستفراغِ الوُسْعِ الحجَرَ والحجَرَيْنِ؛ فقَوْمٌ مِنْ فَوْقُ يدْفعونَهُ بالأَسافينِ[4] وقَوْمٌ من أسفلُ

(١) أى يوسف صلاح الدين الأيوبى (٢) جمع أُثْفِية : أحجار تُنصَب عليها القِدر (٣) أكثروا (٤) جمع إسفين يريد به الإزميلَ والعتلة

يَجْذِبونه بالقُلوسِ والاشْطَانِ[١] . فاذا سقطَ سُمِعَ له وَجْبَةٌ عظيمةٌ مِنْ مَسافةٍ بَعيدةٍ ؛ حتى تَرْجُفَ الجِبالُ، وتُزْلْزَلَ الارضُ، ويغوصُ فى الرَّمْلِ . فيَتْعَبُونَ تعباً آخرَ حتى يُخرِجُوه . ثمَّ يَضربونَ فيه بالأسافين بَعْدَ ما ينقبُون لها مَوْضِعاً، ويُثَبِّتُونها فيه ، فيتقطَّعُ قِطَعاً ، فتُسْحَبُ كلُّ قِطعةٍ على العجَل ؛ حتى تُلْقَى فى ذَيْلِ الجبَل ، وهى مسافةٌ قريبةٌ . فلما طالَ ثَواؤُهم[٢] ونفِدَتْ نفقاتُهم، وتضاعفَ نَصَبُهم ، وَوَهَتْ عزائمُهم ، وخارَتْ قُواهم ، كَفُّوا مَحْسورينَ[٣] مَذْمُومِينَ، لم ينالُوا بُغْيَةً ، ولا بلَغُوا غايةً ؛ بل كانت غايتُهم أن شَوَّهُوا الهرَمَ وأبانوا عن عَجْزٍ وفَشَلٍ . وكان ذلك فى سنةِ ثلاثٍ وتسعين وخَمْسمائةٍ . ومع ذلك فان الراءى لحجارةِ الهَدْمِ يَظُنُّ أنَّ الهرَمَ قد اُستُؤصِلَ ، فاذا عايَنَ الهرَمَ ظنَّ أنه لم يُهدَمْ مِنْهُ شَىءٌ وانما جانبٌ منه قد كُشِطَ بعضُه . وَحِينما شاهدتُ المَشقَّةَ التى يجِدونَها فى هَدْمِ كلِّ حجَرٍ سألتُ مُقدَّمَ الحجَّارينَ ؛ فقلتُ له : لو بُذِلَ لكم ألفُ دينارٍ على أن تَرُدُّوا حجَراً واحداً الى مكانه وهِندامه فهل كان يُمكِنُكم ذلك ؟ فاقسمَ بالله تعالى إنهم لَيعْجِزون عن ذلك، ولو بُذِلَ لهم أضعافُه

وبازاءِ الأهرامِ من الضفَّةِ الشرقية مغايرُ[٤] كثيرةُ العدد كبيرةُ المِقْدارِ عميقةُ الأغْوارِ، مُتَداخِلةٌ[٥] . وفيها ما هو ذو طبقاتٍ ثلاثٍ . وتُسمَّى المدينة؛

---

(١) جمع قَلْس : الحبل الضخم . والأشطان جمع شَطَن : الحبل الطويل

(٢) مُكثهم (٣) المحسور : المُعْيَا المُتعَب (٤) جمع مغارة والقياس مغاور ولكنه ورد فصيحاً أيضاً مغاير ومغائر بالهمز (٥) يُشير الى ما يُسمَّى الآن معبدَ أبى الهول وما كُشِف حوله حديثاً

حتى لعلَّ الفارسَ يَدخلُها برُمحه، ويتخلَّلُها يوماً أجمعَ، ولا يُنْهِيها لكثرتِها وسَعَتِها وبُعدِها، ويظهرُ مِنْ حالِها أنها مقاطِعُ حجارةِ الأهرام

وأما مقاطِعُ حِجارةِ الصَّوَّانِ الأحمرِ فيقال إنها بالقُلْزُمِ وبأُسْوانَ

وعِنْدَ هذه الأهرامِ بأكثرَ منْ غَلْوةٍ[1] صورةُ رأسٍ وعُنُقٍ بارزةٌ من الأرض فى غاية العِظَمِ يُسَمِّيهِ الناسُ أبا الهوْل، ويزعمون أن جُثَّتَهُ مدْفونةٌ تحتَ الأرضِ[2]. ويَقْتَضِى القياسُ أن تكونَ جُثَّتُهُ بالنسبةِ الى رأسِه سَبْعينَ ذِراعاً فصاعداً. وفى وَجْهه حُمرةٌ ودِهانٌ يلمَعُ عليه رَوْنَقُ الطَرَواةِ. وهو حسنُ الصُّورةِ مقبولُها، عليهِ مَسْحَةُ بَهاءٍ وجَمالٍ؛ كأنَّهُ يضحَكُ تبسُّماً. وسألنى بعضُ الفضلاء ما أعجبُ ما رأيتَ؟ فقلتُ: تناسبُ وَجْهِ أبى الهوْل؛ فان أعضاءَ وَجْهِهِ كالأنف والعَيْنِ والأُذُنِ متناسبةٌ كما تصنعُ الطبيعةُ الصُّوَرَ متناسبةً؛ فإنَّ أنفَ الطِفْلِ مثلاً مُناسِبٌ له، وهو حَسَنٌ به؛ حتى لو كان ذلك الأنفُ لرجلٍ كان مُشَوَّهاً به، وكذلك لو كان أنفُ الرجل للصَّبىِّ لتَشَوَّهَتْ صُورتُه، وعَلَى هذا سائرُ الأعضاءِ؛ فكلُّ عُضْوٍ ينبغى أن يكونَ على مِقْدارٍ وهيئةٍ بالقياسِ الى تلك الصورةِ وعَلَى نِسْبَتِها؛ فإنْ لم تُوجَد المناسَبَةُ تَشَوَّهَتِ الصُّورةُ. والعَجَبُ من مُصَوِّرِه كيفَ قدرَ أنْ يحفَظَ نِظامَ التناسُبِ فى الأعضاء مع عِظَمِها، وأنَّه ليس فى أعمالِ الطبيعة ما يُحاكِيهِ ويُنقلُه اهـ. انتهى بحذف يسير

---

(١) الغَلوة رمية سهم. ويقال هى قدر ثلثمائة ذراع الى أربعمائة

(٢) كأنه كان يظن قبل إزاحة الرمال عن أبى الهول أنه تمثال رجل واقف

وقد وصف الأهرامَ الشعراءُ بما لا يُحصى. ومن ذلك قولُ محمودِ سامى البارُودِى يصِفُ هَرَمَى الجيزةِ وأبا الهول :

سل الجيزةَ الفيحاءَ عن هَرَمَى مِصْرِ؛ لَعَلَّكَ تدرى غيْبَ ما لم تكُنْ تدرِ
بِناءانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عنهما، ومِنْ عَجَبٍ أن يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ
أقاما على رَغْمِ الخُطوبِ ليَشْهَدَا لِبانيهما بينَ البريّةِ بالفخرِ
فكَمْ أُمم فى الدهر بادتْ وأعْصرٍ خلَتْ وهما أُعْجُوبةُ العينِ والفكرِ
تلوحُ لآثارِ العقول عليهما أساطيرُ لا تنفك تُتْلَى الى الحشرِ
رُموزٌ لو اسْتَطْلَعْتَ مكْنونَ سِرِّها لأبصرت مجموعَ الخلائقِ فى سطرِ
فما مِنْ بِناءٍ كانَ أو هو كائنٌ، يُدانيهما عندَ التأمُّلِ والخُبرِ
يُقصِّرُ حُسْنًا عنهما صَرْحُ بابلٍ، ويَعترِفُ الإيوانُ[1] بالعجزِ والبهرِ
كأنهما ثَدْيانِ فاضَا بِدِرَّةٍ من النيلِ تَروِى غُلَّةَ الأرضِ إذ تجرِى
وبينهما بَلْهِيبُ[2] فى زِىِّ رابضٍ أكبَّ على الكفَّينِ منه الى الصدرِ
يُقلِّبُ نحوَ الشرقِ نظرةَ وامقٍ؛ كأنَّ له شَوْقًا الى مَطلَعِ الفجرِ
مَصانعُ فيها للعلومِ غوامضٌ تَدُلُّ عَلَى أنَّ ابنَ آدمَ ذُو قَدرِ
رسا أصلُها، وامتدَّ فى الجوِّ فَرْعُها، فأصبحَ وَكْرًا للسِّماكَينِ[3] والنَّسرِ[4]
أقمتُ بها شهراً، فأدركتُ كلَّ ما تَمنَّيْتُه من نعمةِ الدَّهْرِ فى شهرِ

---

(١) هو ايوان كسرى كان بهواً عظيماً فى قصره بالمدائن، سقفه أزَج معقود و
سمى قصره الأبيض (٢) اسم لأبى الهول عرف به صدرَ الاسلام. ولعل أبا الهول
محرف عنه (٣) السماكان نجمان نيران فى السماء أحدهما السماك الرامح والثانى السما
الأعزل (٤) النسر كوكبان : الواقع والطائر. وفى النسر تورية

أزاهرَ علمٍ لا تَجِفُّ مع الزَّهرِ ... نروحُ ونغدو كلَّ يومٍ لِنجتَنى
ألَحُّوا عليها بالخيانةِ والغَدْرِ ... وما ساءنى الاَّ صنيعُ معاشرٍ
محاسِنَ كانتْ زينةَ البرِّ والبحرِ ... رأيادُوا بها شملَ العلومِ ، وشوَّهُوا
وشَلُّوا يداً كانت بها رايةُ النَّصرِ ... فكم سَمَلُوا عيناً بها[1] تُبْصرُ العُلا ،
عَدُوَّةُ ما شادَتْه فينا يدُ الفِكرِ ... ألاَ قبحَ اللهُ الجهالةَ ، إنَّها

أمثالٌ على ألسنةِ الحيوان

لا يحبو المكر السيئ الاّ بأهله

زَعَمُوا أنَّ عُلْجُوماً[2] عَشَّشَ فى أَجَمَةٍ كَثيرةِ السَّمك ، فعاشَ بها ما عاشَ ، ثُمَّ هَرِمَ ، فلَمْ يَسْتَطِعْ صيداً . فأصابَهُ جُوعٌ وجَهْدٌ شديد . فجَلَسَ حَزِيناً يَلْتمسُ الحِيلةَ فى أمْرِه . فمَرَّ بِهِ سَرطانٌ ، فرأى حَالتَه وَما هو عليه مِنَ الكآبَةِ والحُزْنِ . فدَنا منه ، وَقالَ : مالِى أرَاكَ أيها الطَّائِرُ هكذا حَزِيناً كئيباً ؟ فقالَ العُلْجُومُ : وكيف لا أحْزَنُ ، وقد كُنْتُ أعيشُ مِنْ صيْدِ ما هَا هُنا مِنَ السمكِ . وَإنّى قَدْ رَأيْتُ اليومَ صيَّادَيْنِ قد مرَّا بهذا المكان . فقالَ أَحَدُهُما لصاحِبه : إنَّ هَهُنا سمكاً كثيراً أفَلا نَصيدُه أوَّلاً . فقَالَ الآخَرُ : أنّي قد رَأيْتُ فى مكانِ كذَا سَمَكاً أكثرَ مِنْ هذا السَّمَكِ ؛

---

(١) يشير الى ما فعله جماعة من المتورعين والصوفية من تشويه وجه أبى الهول ومنهم الشيخ محمد صائم الدهر سنة ٧٨٠ هـ (٢) هو طائر أبيضُ

فَلْنَبْدأْ بِذَاكَ ؛ فَاذَا فَرَغْنَا منه جئْنا الى هذا فأفْنَيْنَاهُ . وَقَدْ علمتُ أنَّهم إذَا فَرَغَا مِمَّا هنالك انتهيا إلى هذه الاجمَةِ فَاصْطَادَا ما فيها . فإذَا كان ذلك فَهُو هلاكِى وَنَفَادُ مُدَّتى . فانْطَلَقَ السَّرَطانُ من ساعَتِه إلى جَمَاعة السمك ، فأخْبَرَهُنَّ بذلك . فأقْبَلْنَ إلى العُلْجُوم ، فاستَشَرْنَه ؛ وَقُلْنَ لَهُ إنَّا أتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ علينا ، فإنَّ ذَا العَقْل لا يَدَعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّه . قَالَ العلجوم أمَّا مُكَابَرَةُ الصَّيَّادِين فَلاَ طَاقَةَ لى بها ، وَلاَ أعْلَمُ حِيلَةً إلاَّ المَصِيرَ الى غَدِير قَرِيبٍ من هَا هُنَا فيهِ سَمَكٌ ومياهٌ عظيمةٌ وقَصَبٌ . فإن استَطَعْتُنَّ الانْتِقَالَ إلَيْهِ كانَ فيهِ صلاحُكُنَّ وخِصْبُكُنَّ . فَقُلْنَ له : ما يَمُنُّ علينا بذلك غَيْرُكَ فَجَعَلَ العُلْجُومُ يَحْمِلُ فى كلِّ يَوْم سَمَكَتَيْن حتى يَنْتَهِىَ بهما الى بعض التِّلاَل ، فيأْكلُهما ؛ حتى إذا كان ذاتَ يَوْمٍ جاءَ لأخْذِ السَّمَكَتَيْن ، فقال السَّرَطَانُ فقَالَ له : إنى أيضاً قَدْ أشْفَقْتُ مِنْ مكانى هذا ، واسْتَوْحَشْتُ منه ، فَاذْهَبْ بى إلى ذَلك الغَدِير . فاحْتَمَلَه وَطَارَ بِهِ ، حَتى إذَا دَنَا مِنَ التَّل الَّذِى كانَ يَأْكلُ السَّمكَ فيه نَظَرَ السَّرَطانُ ، فرأى عِظَامَ السَّمَكِ مجموعة هُنَاك ، فعلِمَ أنَّ العُلْجُومَ هُوَ صَاحِبُها ، وأنَّهُ يُرِيدُ به ذلك . فقالَ فى نَفْسِه : إذَا لَقِىَ الرَّجُلُ عدُوَّه فى المَوَاطِنِ التى يَعْلَمُ أنَّهُ فيها هَالِكٌ ، سَوَاءٌ قَاتَلَ أمْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كان حقيقاً أنْ يُقَاتِلَ عَنْ نَفْسِه كَرَماً وحِفَاظاً . ثُمَّ أهْوَى بِكلْبَتَيْه عَلَى عُنُق العُلْجُومِ ، فَعَصَرَهُ ، فمات . وتَخَلَّصَ السَّرَطانُ الى جماعة السَّمكِ ، فأخْبَرَهُنَّ بذلك

عاقبة إساءة النصيحة لمن لا يقبل النصح

زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ القِرَدَةِ كَانُوا سُكَّانًا فِى جَبَلٍ. فَالْتَمَسُوا فِى لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَاحٍ وَأَمْطَارٍ نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوا. فَرَأَوْا يَرَاعَةً[1] تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةُ نَارٍ، فَظَنُّوهَا نَارًا، وَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا، فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ طَمَعًا فِى أَنْ يُوقِدُوا نَارًا يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ البَرْدِ. وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ: لَا تَتْعَبُوا فَإِنَّ الَّذِى رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ. فَلَمَّا طَالَ عَلَيْهِ ذَلِكَ عَزَمَ عَلَى القُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ. فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَعَرَفَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ فَإِنَّ الحَجَرَ المَانِعَ الَّذِى لَا يَنْقَطِعُ لَا تُجَرَّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ، وَالعُودَ الَّذِى لَا يَنْحَنِى لَا تُعْمَلُ مِنْهُ القَوْسُ، فَلَا تَتْعَبْ. فَأَبَى الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ، وَتَقَدَّمَ إِلَى القِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ اليَرَاعَةَ لَيْسَتْ بِنَارٍ، فَتَنَاوَلَهُ بَعْضُ القِرَدَةِ، فَضَرَبَ بِهِ الأَرْضَ فَمَاتَ

عاقبة من يتعرض لما ليس من شأنه

زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا رَأَى نَجَّارًا يَشُقُّ خَشَبَةً، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا، وَكُلَّمَا شَقَّ مِنْهَا ذِرَاعًا أَدْخَلَ فِيهَا وَتِدًا. فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ. فَقَامَ القِرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ؛ فَرَكِبَ الخَشَبَةَ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الْوَتِدِ وَوَجْهَهُ قِبَلَ الخَشَبَةِ، فَتَدَلَّى ذَنَبُهُ فِى الشَّقِّ وَنَزَعَ الوَتِدَ فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ، فَكَادَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الأَلَمِ. ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فَأَصَابَهُ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ. فَكَانَ مَا لَقِىَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الخَشَبَةِ

---

(١) اليراع ذباب يطير بالليل يضيء كأنه نار

سؤم الوشاية

قال مؤيد الدين الحسين بن محمد الطغرائي صاحب لامية العجم المقتول عام ٥١٣ه

لَقَدْ جاء فى أمثالِهِمْ أنَّ ثَعْلَباً ... وذِئباً أصابا عِنْدَ لَيْثٍ تَقَدُّ

أضرَّ بِهِ جُوعٌ شديدٌ ، فَشَفَّهُ[1] ... وَأَبقَى له جِلداً رَقيقاً وَأعظُم

ففازَ لديهِ الذئبُ يوماً بخَلْوَةٍ ... فقال : كَفاكَ الثَّعْلبُ اليومَ مَطْعَم

فكُلْهُ ، وَأَطْعِمْهُ[2] ؛ فما هو شَكلُنا ، ... وَلستُ أرَى فى أكْلِهِ لكَ مَأْثَ

فلما أحسَّ الثُّعلُبانُ[3] بكَيْدِه ... تطبَّبَ عند الليْثِ ، وَاحتال مُقْدِ

وقال : أرَى بالمَلْكِ داءً مُماطِلاً ... تَهَدَّمَ منه جِسمُه وَتَحطَّم

وفى كَبِدِ الذئبِ الشِّفاءُ لدائِهِ ... فإن نالَ منها يَنْجُ منهُ مُسَلَّ

فصادف منه ذا قبولاً . فعندها ... أحالَ[4] عَلَى الذئب الخبيث ، فصَمَّ

فأَفْلتَ مسلوخَ الإهاب[5] مُرَمَّلاً[6] ... فلما رآهُ الثُّعلُبانُ تبسَّ

وَصاح به يا لابِسَ الثوب قائِنا[7] ! ... متى تخْلُ بالسلطان فاسكُتْ لتَسْلَ

أثرُ النَّقْد فى القول والعمل

أثره فى تحرير العبارة

حُكِيَ أنَّ حاكمَ بلدةٍ كان سائراً ذاتَ ليلةٍ مُظلمةٍ فى أحدِ شوارعها ، فصدَمَهُ انسان . فأصْدَرَ من غَدِه منشوراً ألاَّ يَسْرِيَ أحدٌ ليلاً إلاَّ وفى

---

(١) شفه الهم والمرض أنحله (٢) أى وأطعمنا منه (٣) الثعلب الذكر
(٤) أقبل (٥) الجلد (٦) أى ملطخاً بالدم (٧) أى شديد الحمرة

يده فانوس[١] . وبينا هو يعسُّ الليلةَ التاليةَ فى أنحاء البلدة إذ لاقى الرجلَ عينه وَجْهاً لوَجْه. فقال له ، وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيْظِ : وَيْلَك ! ألَمْ تعلَمِ الأمرَ الذى أمَرْتُ ! فقال الرجلُ : بَلَى يا مولاى ! قد قرأتُه ، وها هو ذا فانوسى . فتأمَّلَه الحاكمُ ، وقالَ : ولكنَّه خالٍ من الشمَع. فقال الرجلُ : إنك يا مولاى لم تذكرْ فى أمرك ما يُوجبُ علىَّ أن أضعَ فيه شمعاً . فذهب الحاكمُ ، وأصدرَ فى الغدِ أمراً يقضى على السارين أن يضَعُوا الشموعَ فى فوانيسهم . ولما خيم الليلُ أنطلق يعسُّ فى الأزقة والدُّروب ؛ علَّه يعثُر برجلٍ قد خالف أمرَه ، وأهمل طاعته . فقضَى سوءُ الحظ أن يصطدِمَ بصاحبه مرَّةً أخرى . فقال له : وقد تملَّكه الغضَبُ : لا أُمَّ لك ! لقد ظفِرْتُ بك هذه المرةَ وسأُنْزِل بك من النَّكال ما يجعلُك عِبرةً لغيرك ؛ فقد استَخْفَفْتَ بأمر حاكِمك ، وسرتَ بغير فانوس . فقال له الرجلُ : هَوِّنْ عليكَ يا مولاى ! أليس هذا فانوساً ؟ فقال له الحاكمُ : ولكن لا شمعةَ فيه ! فقال له الرجلُ بلى ! فيه شمعةٌ ، ومدَّ يده فاستخرج مِنْ باطن الفانوس شمعةً غيرَ مُشْعَلةٍ . فزاد غضبُ الحاكمُ ، وقال له : إنك لم تُشعِلْها ! فقال الرجلُ من فورِه : وأنت يا مولاى لم تذكرْ فى منشورك ما يُوجبُ علىَّ إشعالَها

عند ذلك اضطرَّ الحاكمُ الى أن يُصدِرَ أمراً آخرَ يقضى على الناس بأن يُوقدوا الشموعَ فى فوانيسهم حين يُدلجُون. وأخذ من ذلك اليوم يُدقِّق فى تحرير أوامره تدقيقاً لا يتركُ للناس ذريعةً بها يعتذِرون اذا كانوا لأوامره يخالفون

---

(١) الفانوس فى اللغة النمّام نقله القاموس عن المازرى شيخ القاضى عياض، قال وكأنّ فانوس الشمع منه . اذن فهو حقيقة عرفية منقولة عن المجاز، جارية على أسلوب العربية

أثره فى الصناعة

اشتهرت الصينُ من غابر الأزمان بالنقش والتصوير ، حتى لا تخلو آنيتُهم وماعُونُهم وملابسُهم وفُرُشُهم وأدوات عملهم من صُوَر الحيوان والنبات والمنازل والأنهار والجبال . فبلغ عاهلَ الصين أن فى الروم مُصَوِّراً يفوق مُصَوِّرِى بلاده مَهارَةً وإتقاناً ، فأشخصَهُ اليه ، وأمره بعَمَلِ شىءٍ مما يقدِرُ عليه من النقش والتصوير ليَعرِضَه على الناس بباب قصره . فنقش له فى رُقْعةٍ صورةَ سُنْبُلَةِ حِنْطةٍ خضراء قائمةٍ ، وعليها عُصفُورٌ ، وأتقن نَقْشَه وهيئتَه حتى اذا نظرَه أحدٌ لَمْ يَشُكَّ أنه عصفورٌ حىٌّ على سُنْبلَةٍ خضراء ، ولا يُنكِرُ شيئاً من ذلك غيرَ عدم النُّطق والحركة ، فأعجَبَ العاهلَ ذلكَ ، وأمر بتعليقه ، وبادَرَ بإدرار الرزق عليه الى انقضاء مُدَّةِ التعليق . فمضت سنة الاّ بعضَ أيامٍ ، ولم يقدِرْ أحدٌ على إظهار عَيْبٍ أو خلل فيه . فحضَرَ شيْخٌ مُسِنٌّ ، ونظر الى المِثال ، وقال : هذا فيهِ عيْبٌ . فأُحْضِرَ الى العاهل ، وأُحْضِرَ النقّاشُ والمِثالُ ، وقال : ما الذى فيه من العيب ؟ فأخرُجْ عمّا وقعتَ فيه بوَجْهٍ ظاهر ودليل جلىّ وإلاّ حَلَّ بك الندمُ ، فقال الشيخُ : أسعدَ الله العاهلَ ! وألْهَمَهُ السَّدادَ ، مثالُ أىِّ شىءٍ هذا الموضوع ؟ فقال العاهلُ : مثالُ سُنبلةٍ من حِنطةٍ قائمةٍ على ساقها ، وفوقها عُصفورٌ ؛ فقال الشيخُ : أصلَحَ اللهُ العاهلَ ! أما العُصْفورُ فليس بهِ خلَلٌ ، وإنما الخلَلُ فى وَضع السُّنْبلةِ . قال العاهلُ : وما الخلَلُ ؟ وقد امتزج غضباً على الشيخ . فقال : الخلَلُ فى استقامةِ السُّنْبلة : لأن فى العُرْفِ أن العُصْفورَ إذا حطَّ على سُنبلةٍ أمالَها لِثِقَل العصفورِ وضَعْفِ ساقِ

السُّنْبُلَةِ . ولو كانت السُّنبلةُ مُعْوَجَّةً مائلةً لكان ذلك نهايةً فى الوضع والحِكمة . فوافقهُ العاهلُ على ذلك وأجازه

وليمة مصرية قديمة*

يقرأُ المرءُ كتبَ الأخبارِ وأسفارَ التواريخ فلا يَقْنَعُ بما تصِفُ مِنَ الحروبِ والغاراتِ، ولا يكتفِى بما تقُصُّ من الهزائم والانتصاراتِ، وما تُورِدُ من أسماءِ المُلوكِ والسلاطينِ ، وما تَسْرُدُ من أرقام الشهور والسنين، بل يتوُقُ الى معرفةِ ما كان عليهِ الناسُ فى خاصّة أنفسهم ، ويهشُّ الى الوقوف على طُرُق معايشهم ، وأدبهم فى اجتماعهم وتعاشُرهم . وأشدُّ ما تكون رغبتُه اذا تُليتْ عليهِ أخبارُ أسلافهِ الأوَّلين، وأجدادِه الغابرين؛ إذ كان تاريخُه تكْمِلَةً لتاريخهم ، وسيرتُه تتِمَّةً لسِيَرهم

لهذا كان موضوعُ قراءتِنا اليومَ وصفَ وليمةٍ من ولائم قدماءِ المصريين أقيمت فى مدينـة طِيبةَ عَلَى ضِفافِ النيل منذُ ثلاثة آلافٍ من السنين . ولْنفرضْ أننا كُنَّا من المدْعُوّين فنَصِفُ لغيرنا ما شاهدناه

سِرْنا الى دار داعينا وبلغناها وقتَ الظَّهيرة ، فإذا غيرُنا من الضِّيفانِ مُقبلون : من بين سائرٍ عَلَى قدميْهِ أو مَحْمولٍ فى مَحَفَّةٍ أو مستظهرٍ فوق عجلة. واستشرفنا الدارَ ، فرأيناها مُشيَّدَةً عَلَى أجمل نظام وأبدعِ طِرازٍ، يُحيط بها سُورٌ عالٍ، منقوشٌ بأبدعِ الخطوط؛ مُزوَّق بأعجب التهاويل. وقُبالةَ الباب

---

* ترجمها المرحوم عبد القادر حسن افندى الذى كان مدرّسًا بدار العلوم ونقحها المؤلف

مِسَلَّتان حُفِرَ عليهما اسمُ صاحبهما، ودُوِّنتْ مآثرُهُ ومفاخرُه. ثم دخلنا م
باب السُّور العظيم، وقد جُعلتْ عِضادَتاهُ[1] بُرْجَين شاهقين

وسرنا فى طريق طويل متَّسع تَصافَّتْ عَلَى جانبيهِ الأشجارُ، حتى بل
داراً مبنية بالآجُرِّ مكتوباً عَلَى بابها بالفِرْعَوْنيةِ (الهيروغليفية
« البيت المبارك » . ولقد زاد هذا البيت رونقاً وبَهْجَةً كثرةُ ما فيهِ : م
الأبْهاء الأنيقة والأَرْوقة البديعة والسَّاحات المُكَشَّفة التى تُظَلِّلها العرائ
والمَظالُّ المبرقشة بمُؤتلِفِ الألوان ، وزاهى الدِّهانِ ، وحوالَىْ ذلك حدائ
الأزهار وَدَوالى الكُروم وَعوالى المراقب والمناظر

وقد وصلَ الى الدار فى هذه الهُنَيْهَةِ وَجيهٌ راكبٌ عجلةً، يسوقُ جوادَ
بيده ويُطيف بهِ غِلْمَةٌ من حشَمِهِ. فلم يكَدْ يقفُ حتى نزلَ أحدهُمْ فقرَ
البابَ ، وبادرَ آخرُ الى الأخذِ بعِنانِ جَوادِه ، وَغيرُه الى مُعاوَنتِهِ عَلَى النُّزو
وَآخرون الى حَمْل ما يحتاجُ اليهِ من الملابس وَالأدواتِ؛ وَدَخلَ الدِّهليز
فتَسَلَّمَ خادِمٌ من الدار نَعْلَيْهِ ، وَأَتَى بماءٍ فغَسَلَ بهِ رجْلَيهِ . حتى إذا فرَغَ م
ذلك دُعِىَ الى حُجْرة الوليمة حيث يجلس فى صدرها صاحبُ الدار وَزوْج
وقد ربطَا الى كراسيِّهما قِرْدَهما الذى يُعِزَّانِه ويُداعِبانه

ولَحظنا أن صاحبَ الدار مَحْلوقُ الرأسِ لابسٌ شَعْراً مُستعاراً تَستر
منه لِمَّةٌ طويلةٌ خلْفَ أُذنيهِ ، ولهُ عُثْنُونٌ قصيرٌ فى ذَقَنِهِ إذْ كان من آدا
المِصْريين ألاّ يُؤذَنَ لأحدٍ غيرِ المَلِكِ بإطالة عُثْنُونِه. وعليه ثَوْبٌ مِنَ الكتّا
الأبيضِ رَقيقُ النَّسْج واسعُ الأرْدانِ[2] ، وأعضاؤُهُ مُحَلاّةٌ بالعُقود والأسا

(١) جانباه (٢) جمع رُدْن وهو أصلُ الكم

والخواتم. وتلبس امرأته ثوباً مثله إلاّ أن ذوائب شعرها تلتوى من خلف أذنيها منعطفة على صدرها، ولها من قرطيها وعقدها وخلخاليها وصائل عدة

ولما دخل الضيف حيّاهما، فردّا تحيته بأحسن منها، وأتيا اليه بكرسيّ جلس عليه، وتقدم اليه خادم فغلّف رأسه بالطيب، وناوله زهرة من زهر البشنين وكلّل رأسه وعنقه بالزهر، وقدّم اليه قدحاً من الشراب، وبهذا انتهى استقبال هذا الضيف الكريم

وشاهدنا أن لكل سيدة جارية قائمة فى خدمتها. ثم عزفت المعازف ورقصت الراقصات أثناء قدوم الزائرين؛ حتى اذا تمّ استقبالهم جلسوا على الكراسيّ متقابلين، وجعلوا يتحدّثون ويتسامرون. ويدور حديث النساء حول ما يلبسن من الجواهر والحلىّ. ويحيّى بعضهن بعضاً بتبادل أزهار البشنين

ورأينا فى الحجرة كثيراً من الأرائك والوسائد والمساور[1] والكراسى المتخذة من خشب الآبنوس المكفّتة بالعاج المزيّنة بأشكال الحيوان المكسوة المقاعد بالفراء

وشاهدنا السقوف مجصّصة مزخرفة بأزهى الألوان، والحوائط منقوشة بالكتابة المتقنة وشكول الزهر البديعة، والموائد ممدودة والنمارق[2] مصفوفة

وبدأنا بتناول الطعام، فغسلنا أيدينا، وأخذنا مجالسنا، كلّ اثنين منا على خوان. وطيف علينا بألوان الأطعمة من خضر ولحوم وسمك وطيور ودار علينا النُدُل[3] بأكواب الشراب يملأونها من جرار الفخار

---

(١) جمع مسور أو مسورة وهو متكأ من جلد (٢) الوسائد الصغيرة (٣) خدم الوليمة

ولما طاب سرورُ القوم وعظُم ابتهاجهم ، أُتِيَ لهم بتمثال يُمثل مُومِيَّةً[1] بشرية . فدار به عبدانِ على القوم تذكِرةً لهم بالموت والفناء، وإشعاراً بالزوال والانقضاء، وكأنه يقول لكل منهم ما يقوله أبو العتاهية

عِشْ ما بدا لكَ سالماً في ظلّ شاهقةِ القُصُورِ
يُسْعَى إليك بما اشتهيـ ـتَ لدَى الرَّواحِ وفى البُكور
فإذا النفوسُ تغرغرتْ[2] بزَفير حَشْرَجةِ الصدور
فهناك تَعْلَمُ مُوقناً ما كنتَ إلاّ فى غُرُور

ولَمْ يُعكِّرْ علينا هذا الأمرُ كثيراً من صَفْونا . ذلك أن تمثالَ المومية لم يكن يُحدثُ فى قدماء المصريين هذا الشعورَ ويُنغِّص عليهم ما كانوا فيه من السرور، لتعوُّدِهم رؤيتَه فى ولائمهم ، ومشاهدتَه فى مآدبهم

غيرَ أن هناك من بين أولئك المدعوّين ضيفاً لم تُقدَّم له هذه التذكرةُ ولم يذكَّرْ بتلك العِبْرة ، وهو وإن غُلِّف بالطِّيب رأسُه وقُلِّد بالزهر عنقُه ونُصِبَ أمامَه خِوانُه، لا يتناول مما وُضع أمامه من أطايب المآكل ولذائذ المشارب فما ذلك إلاّ أنه مُومِيَّةُ ميت من أعضاء الأسْرة قد استبقاه صاحبُ الدار بضعةَ أشْهر قبلَ أن يُغيَّبَ فى الرَّمْس، ويُوضَعَ فى ظلمة الناوُس؛ بل هو الذى من أجله قد أُقيمتْ هذه الوليمةُ تكريماً له وتوديعاً، واحتفاءً به وتشريفاً. فيكون أمثال هذه المُومِيَّة التى ليست الأَجثةَ قريبٍ عزيزٍ أو صديقٍ لهم من أشدِّ أسباب سرورهم، وأعظم دواعى ابتهاجهم وحُبورهم حين اجتماعهم

(١) جثة، منسوبة الى الموم، وهو معرب قديم : دواء يعالج به كالشمع أو هو نوع منه منه دواء يركب وقد يؤخذ من قبور قدماء المصريين – عبد اللطيف وابن البيطار وابن البيطار وغيرهم (٢) التغرغر والحشرجة تردُّد الصوت والنفس فى حلق المحتضَر للموت

أذكياء القضاة

الملاّح والتاجر

حدث فى إحدى مُدُن أوربّة أن تاجراً فقد هميانا[1] به أربعمائة دينار فاستأجر منادياً ينشده فى الأسواق ويقول: من وجد هميانا صفته كذا وكذا فله نصف ما فيه حلالاً سائغاً إذا ردّه الى صاحبه. وكان قد التقطه ملاّح فقير، فدفعته أمانته وكرم نفسه الى أن يخبر المنادى أنه وجده. فذهب به الى صاحب الكيس، فحمله لؤم نفسه أن يغدر بالملاّح، ويخلف وعده فقال: إن الهميان كان فيه زمردة ثمينة فهل هى فيه؟ فدهش الملاّح وأدرك كيده وأنه يريد حرمانه؛ فاختصما وترافعا الى القاضى

فسأل القاضى الملاح عن الزمردة، فأقسم أنه لم يجد إلاّ الدنانير فسأل التاجر عن أوصاف الزمردة، فتلعثم، وأخذ يتخبط فى قوله. فأدرك القاضى مكره وخبث نيته. وقال: يا هذا! تقول: إنك فقدت هميانا فيه زمردة صفتها كذا وكذا، وما فى هذا الهميان زمردة، فليس به؛ فأنشد هميانك الذى فيه الزمردة علّك تجده، ثم التفت الى الملاّح وقال له: أحفظ هذا الهميان أربعين يوماً، فإذا لم يحضر من يسألك عنه فهو لك. فعند اضطرّ التاجر الى الإقرار على نفسه بالكذب، وأنه كان يريد حرمان الملاح واستدلّ بما يثبت أنه هميانه حقاً، فعزّره[2] القاضى على كذبه، وأعطى الملاح نصف ما فى الهميان

---

(١) الهميان وعاء للنقود كالحزام يتخذ من جلد ونحوه ويشدّ على الوسط وهو المسمى بالعامية (الكمر) (٢) أدّبه

فراسة إياس (١)

استودع رجلٌ آخرَ مالاً ، ثم طلبه . فجَحده . فخاصَمه الى إياسٍ القاضى فقال الطالبُ : إنى دفعتُ المالَ اليه . فقال القاضى : ومن حضرَكَ ؟ قال : دفعتُه فى مكان كذا وكذا ، ولم يحضُرْنا أحدٌ . قال : فأىُّ شىءٍ فى ذلك الموضع ؟ قال : شجرةٌ . قال : فانطلِقْ الى ذلك الموضع ، وانظر الشجرةَ ، فلعلَّ اللهَ تعالى يوضِّحُ لك هناك ما يتبيَّنُ به حقُّك ، لعلَّكَ دفنتَ مالَك عند الشجرة ونَسِيتَ فتتذكَّرَ إذا رأيتَ الشجرة . فمضى الرجلُ . وقال إياسٌ للمطلوب : اجلِسْ حتى يرجعَ خصمُك . فجلس ، وإياسٌ يقضى وينظرُ اليه ساعةً . ثم قال له : يا هذا ! أترى صاحبَك بلَغَ موضعَ الشجرة التى ذكَرَ ؟ قال لا ! قال : يا عدوَّ الله إنك لخائنٌ ! قال : أقِلْنى (٢) أقالَكَ الله ! فأمر مَن يحتفظُ به حتى جاء الرجلُ . فقال له إياس : قد أقرَّ الله لك خصمك بحقك فخذْه

ذكاء قاضى واسط (٣)

تقلَّدَ القضاءَ بواسطٍ رجلٌ ثِقةٌ كثير الحديث . فجاء رجلٌ فاستودع بعضَ الشهود (٤) كيساً مختوماً ، ذكَرَ أن فيه ألفَ دينارٍ . فلما حصل الكيسُ

---

(١) هو أبو واثلة إياسُ بن معاوية بن قُرة المُزَنى المضروب به المثل فى الذكاء والفِراسة ، أمر عمرُ بن عبد العزيز الخليفةُ الأموىُّ عامله عَدِىَّ بن أرْطاة أن يستقضيه على البصرة ، فولاَّه قضاءها ، ومات سنة ١٢٢ هـ عن ٧٦ سنة (٢) أقاله عثرته : نهضه ، والمراد سامحْنى (٣) مدينة على دجلة بين بغداد والبصرة ، بناها الحجاج ، وهى الآن خراب الاَّ قليلاً (٤) كان بكل مدينة شهودٌ عُدول يثق بهم القضاةُ ويستشهدونهم فى عقودهم ، وكادت هذه العادة تبطل فى زماننا

عند الشاهد، وطالت غيبةُ الرجل، قدَّر أنه قد هلك، فهمّ بإنفاق المال ثمَّ دبَّرَ وفتَقَ الكيسَ من أسفله، وأخذ الدنانيرَ، وجعل مكانَها دراهمَ وأعاد الخياطةَ كما كانتْ. وقُدِّرَ أن الرجلَ وافَى وطالَب الشاهدَ بوديعته فأعطاه الكيسَ بختْمِه. فلما حصَل فى منزله فضَّ ختْمَه، فصادفَ فى الكيس دراهمَ، فرَجَعَ إلى الشاهد، فقال: عافاكَ اللهُ! أردُدْ علىَّ مالى؛ فإنى استودعتُك دنانيرَ، والذى وجدتُه دراهمُ. فأنكر ذلك؛ واستعدى عليه القاضىَ المقدّمَ ذكرُه، فأمر بإحضار الشاهدِ مع خصْمه. فلما حضرا سأل القاضى الشاهدَ منذ كم أودَعَك هـذا الكيس؟ قال منذ خمسَ عشرةَ سنة. فأخذ القاضى الدراهمَ وقرأ سِكَّتَها، فإذا هى دراهمُ منها ما قد ضُرِبَ منذ سنتين وثلاث ونحوها. فأمره أن يدفع الدنانيرَ إلى صاحبها فدفعها إليه. وأسقطه من الشهادة. ونادى مناديه: ألاَ إن فلانَ بن فلانٍ القاضىَ قد أسقط فلانَ بن فلانٍ الشاهدَ فاعلموا ذلك، ولا يغترَّنَّ به أحدٌ بعدَ اليوم. فباع الشاهدُ أملاكه بواسطٍ، وخرج عنها هارباً. فلم يُعلَم له خبَرٌ، ولا أُحِسَّ منه أثر

مِثالُ الطالبِ النجيب[1]

مَنْ مُنْشِدٌ مِنْ كَثَبِ[2] شِعرَ كِرامِ العَرَبِ؟
ومَنْ أراهُ مُحْسِناً نُطْقَ اللسانِ الأَجنبى
ثُمَّ يَكُرُّ دارِساً لِلْعِلْمِ بَعْدَ الأَدَبِ

---

(١) من نظم المؤلف (٢) قريب

يكونُ حِيناً رَاكِضاً وَمُمْعِناً[1] فى اللَّعِبِ
ثُمَّتَ[2] لا يَلْبَثُ أنْ يَجْلِسَ بَيْنَ الكُتُبِ
فلا قَرِيبـات لَهُ يُوصِينَهُ بالدَّأْبِ[3]
ولا أَبٌ يلومُه فى طَلَبٍ لَمْ يُجَبِ
حَذْقُ الدُّروسِ عنده يرُوقُ إنْ لَمْ يَجِبِ
إخالُ هـذا طالباً يَرُومُ أسمَى مَطْلَبِ
وأنَّه ابْنٌ قُرَّة لِعَيْنِ أمٍّ وأبِ
كأننى بِهِ[4] وَقَدْ سما رفيعَ الرُّتَبِ
وعُدَّ فِى أوْطانِهِ مِنَ الفُحُولِ النُّجُبِ
ودُوِّنَتْ أخبارُه فى صَفَحَاتِ الحِقَبِ[5]
إذ ليس بَعْدَ العِلْمِ فى دَرْكِ العُلا مِنْ سَبَبِ

---

(١) امعن فى الأمر تباعد فيه وتوغل (٢) لغة فصيحة فى ثم (حرف العطف)
(٣) الدأب بسكون الهمزة وتحريكها كما هنا الجد فى العمل (٤) معنى كأن هنا التقريب – أى قريباً نراه قد سما الخ وفيه اعرابات ، أمثلها أن مدخول كأن اسمها والباء زائدة والضمير خبر على حذف مضاف تقديره مبصره . أو الباء أصلية أى كأننى نبصر به وجملة « وقد سما » حال متممة للمعنى نحو فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ
(٥) جمع حِقبة اسم المدة من الدهر لا حد لها والسنة

الأرضُ التى نَعيشُ عليها

لما كانت الأرضُ مَسْكَنَ الإنسانِ، ومَنبتَ مَعاشِه، ومَيْدانَ أعمالِه ومثْواهُ الأخيرَ، لم يكنْ بُدٌّ مِنْ أن تَصيرَ مَوْضِعَ بَحْثِه ومَقصِدَ عُلومِهِ وفنونِ

فمنذُ عقلَ الإنسانُ، تأمَّلَ فى مَلَكوتِ السموات والأَرض، وأخ يَفرِضُ فى حقائقِها فُروضاً، ويتخيَّلُ أَخيلَةً: بعضُها بايَنَ الحقيقةَ، وبعضُ قارَبَها؛ غيرَ أنهُ لَمْ يستنِدْ فى جميعها الى بُرهانٍ مَنْطِقِيٍّ إلا بَعْدَ أن تَمدَّرَ ودَرَسَ الفنونَ والصِّناعاتِ واستدلَّ بالقياس

وقلَّما وَافقَ رأىُ أُمَّةٍ من القدماء رأىَ غيرها فى حقيقة شَكْلِ الأرض فتوهَّمَ بعضُهم أنها مُسَطَّحَةٌ كالحصير. وقال قومٌ إنَّها كأُسْطُوانةٍ. وقال آخرو إنَّها عَلَى هيئةِ طَبْل. وخالفَهُم غيرُهم فقال إنها كقارِبٍ، ونحو ذلك من الأشكال؛ الى أن ظهر بعضُ حُكماءِ اليونان، وفرَضَ أنها كُرَةٌ تَشْغَلُ وَسَطَ العالَمِ، وأن العالَمَ فَلَكٌ مُحيطٌ بها وهى ثابتةٌ فى وَسَطِه. وقفَا أثرَه غيرُه من حكمائهم، وقال بحركَتِها هى، وإنَّ الفلَكَ ثابتٌ

دُوِّنَتْ هذه الآراءُ وغيرُها فى الكُتُب، وجاء الإسلامُ بحَضارتِه حاثّاً عَلَى النظرِ فى مَلَكوتِ السمواتِ والأرض والاستدلالِ منها على بدائعِ صُنْعِ الخالق، وقرأَ العربُ كُتُبَ الجميع، وعمِلُوا عَلَى تحقيق كلِّ مذهَبٍ وافترقوا فِرَقاً، ما بين عالمٍ مُدَقِّقٍ أو قاصٍّ مُتَمَشْدِقٍ. فأمَّا العلماءُ فجَنَحُو الى المعقولِ الصحيحِ من أقوالِ اليونانِ، وأكْمَلُوا عليها، وكَشَفُوا فى شكل

الأرض وقياسِ دَرَجتها وأنواعِ حركاتها ما كان سبيلاً مُعبَّداً[1] لمن أتى بعدهم مِنَ الأوربيين . وكتبُهم الفلكيةُ مملوءةٌ بإثبات كُرِيَّة الأرض وما يتعلق بكُرِيَّتها؛ وعلى هذا الأساس بَنَوْا حِسابَهم فى عِلْمَيِ الفلكِ والميقات وغيرهما

قالوا بذلك ودرَسوه ودوَّنوه ولم يُكفِّرْهم مُكفِّرٌ أو يُحرِّقْهم مُمَلِّكٌ جبَّارٌ كما فعلتْ بَعْدَهم أوربة بعُلَمائها وفلاسفتها، فإنه ما كادَ يَنْتَشِرُ العلمُ فيها ويَنْقُلُ العلماءُ أقوالَ اليونانِ والعرب فى شكْلِ الأرضِ حتى ثارتْ بهم عاصفةُ المُتعصِّبةِ من جهَلة القساوسةِ والمُلوكِ والأُمراء، وسجنُوهم وعذَّبوهم وحرَّقُوهم؛ ولكنَّ العلمَ والنورَ يغلِبانِ الجهْلَ والظلامَ؛ فما زالَ العلماءُ منهم فى جِهادٍ حتى أَحْنَوْا رُءوسَ المُتعصِّبينَ، وهبُّوا يتفهمون أقوالَهم فى الأرض والسماء، وظهر لهم من أسرارها قَدْرٌ لا يُستهانُ بهِ

والرأىُ الذى عليهِ عالَمُ العِلْمِ الآنَ أنَّ الأرضَ سَيَّارٌ من السَّياراتِ التى تَدُورُ حول الشمس، وهى تدورُ على نَفْسِها أيضاً . وهى السيارُ الذى نعرِفُ من أحوالِه أكْثرَ مما نعرِفُ من أحوال غيره لأننا نسكنُهُ، أما السياراتُ الأخرى فبعيدة عنا لا نعلَمُ منها إلاَّ بعضَ أُمورِها العَرَضيَّةِ كالبُعْدِ والضَّوْءِ والكثافةِ ونحو ذلك

والأرضُ فى رأْىِ أَعْيُننا جِرْمٌ مُسْتَقِرٌّ فى وَسَطِ الفلَكِ وهى فى الحقيقة سابحةٌ فى الفضاء على مَدَارٍ خاصٍّ بها حَوْلَ الشمس وَعَلَى أَبْعادٍ محدودةٍ بينها وبين الكواكب وتجاذُبٍ فيما بينها يُمْسِكُها أن تتصادمَ . ذلك تقديرُ العزيزِ العليم

---

(١) ممهداً

ولقد يُخيَّلُ لنا بسكنِنا إيَّاها أنها أعظمُ الأجرامِ الفلكيةِ مع أنها تصغُر عن بعضِ نجومِ السماءِ بما لا تُقدَّرُ معه بذرَّة. ونَعَمْ إنها قد تكبُرُ عن بعضِ الكواكبِ كالزُّهرةِ وعُطارِدَ مِنْ زميلاتِها سيَّاراتِ الشمس، ولكنها تَصْغُرُ عن بعضِ هذه السيارات كالمُشتَرِي وزُحَلَ

وما نراه من اختلافِ الليلِ والنهارِ وشُروقِ الشمسِ وغُروبِها وطُلوعِ بعضِ الكواكبِ وأُفولِها ليس إلاّ نتيجةَ حركةِ الأرضِ على مِحْورِها، لا أن هذا العالَمَ بأسره يدُورُ حوْلَنا. وهذه الحركةُ هي إحدى حركاتٍ عِدَّةٍ للأرضِ تنشأُ منها فصولُ السنةِ الأربعةُ وطولُ النهارِ وقِصَرُه

وليس هنا مكانُ التدليلِ عليها وإثباتِ براهينها؛ فقد تكفَّلَ بذلك علمُ الفلَكِ والجُغرافية والرياضة

تَكْوِينُ الأَرْضِ

يقولُ العلماءُ الآنَ: إنَّ العالَمَ كُلَّه مخلوقٌ مِنْ مادَّةٍ واحدةٍ، أجزاؤُها نِهايةٌ في الدِّقةِ نُسَمِّيها مادَّةَ الكَوْنِ ومِنْ هذه المادَّةِ ما هو باقٍ على دِقَّتِه ومِنْها ما تكاثَفَ بدَرَجاتٍ مختلفةٍ، فيكونُ تارةً صَعَّاداً[1] متقِّداً أو بارداً وطَوْراً سائلاً متقداً أو بارداً، وحِيناً جَماداً صُلْباً أو هَشّاً، وآونةً نباتاً أو حيواناً

وقد كانتِ الشمسُ وسيَّاراتُها كُتْلَةً واحدةً مِنْ دُخانٍ[2] متقِّدٍ كغيرِها

---

(١) الصعاد هو ما يسمى (الغاز) وجاء في كتاب الحيوان للجاحظ أن الأجسام إما صلبة وإما سائلة وإما صعادة (٢) يشير الى ذلك قوله تعالى «ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ» ويسمى هذا الدخان الآن السَّديمَ وأصله لغةً الضبابُ الرقيق

أجرام السماء، ففتق[1] الله بعض الكواكب من بعض، وفتق الأرض عن الشمس، فسبح كلٌّ فى فلكه[2]، ودار حول نفسه، وحول ما هو أكبر منه على نظام مطّرد وتقدير حكيم

فصارت الأرض بدورانها على محورها كرة تضىء بذاتها كالشمس لبعض الكواكب. وبدورانها حول الشمس فى طبقات الفضاء البارد جدًّا فقدت حرارتها وبردت شيئاً فشيئاً حتى صارت كرة سائلة، وتناقص حجمها فرقصاً عظيماً، وانتفخت قليلاً من وسطها، وتفلطحت من قطبيها تبعاً لقانون دوران السوائل. إلا أنه لم تسل كل كتلتها، وبقى بعضها جواً عليها مادًّا حولها تخلله بعد حين بخار الماء. وبازدياد البرد على تراخى الزمان جمد سطحها، وتغطت بقشرة أخذت تغلظ وتيبس بالتدريج

ولما انخفضت درجة حرارة الجو المحيط بها سال بخار الماء، فكان يسقط مطراً على الارض، حتى إذا لامسها اصعد ثانية لحرارة سطحها، ثم يسقط ببرودة الجو، ثم يصعد وهكذا؛ حتى أصبح سطحها ملائماً لاستقرار الماء عليه فى حالة سيولة، فغمر جميع سطحها وصار بحراً واحداً. ولكن تقبض قشرة الأرض وتقلصها بالبرودة كما تتقبض قشرة التفاحة والخيارة إذا جفت وانطوت جعل بعض سطحها يعلو عن بعض، فتكونت من العالى القارات والجزائر والجبال، وتكونت من المنخفض البحار. ثم لما ازداد التقبض والتغضن[3]

---

(١) يشير الى ذلك قوله تعالى (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) (٢) يشير الى ذلك قوله تعالى فى سورة يس (كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) بعد ذكر الأرض والشمس والقمر (٣) تغضن الشىء تشنج وتثنى

انحسرت البحارُ عن بعض البقاع فزادت على مساحة القارات كثيراً من الوديان والسهول والجبال؛ يُعلَمُ ذلك بما نُشاهدُه فى أحافيرها من بقايا الحيوان المائىّ. وهذا هو طَوْرُ التكوين الأول. وكلُّ أرضه صخرية بلّورية التركيب والشكل. ومنها عامّةُ الجبال والصخور

وإذ كانت الأودية والسهول تحُفُّ بها جبالٌ شاهقة تَصُدُّ بُخارَ الماء المتشبّعَ به الهواء بَرَدَ ذلك البُخارُ على سَطْحِها أو بجوارها وتكاثف وصار مَطَراً. فإذا اشتدَّ البَرْدُ صار ثلجاً وجَمَدا. ثمَّ يَسيلُ المنخفضُ منه بالحرارة ويندفعُ سُيُولاً وأنهاراً تحتَ الجبَل، وتجرُفُ ما يُوهنُه اختلافُ الحرّ والبرد وخفقُ الرياح، وتحمله وتُلقيه فى البحار والسهول. فمنه ما يصلبُ بضغطِ حديد لقديمه ويثبتُ فى مكانه ويكون طِباقاً من الجير والجصّ والطُّفال[1]، ومنه ما يبقى هَيْلاً وينتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ كبعض الحصَى والرّمال والتراب. وهذا الراسبُ من فِعْلِ السُّيولِ والأنهارِ أو انحسار البحارِ القديمة يسمى أرضَ الرُّسوب

ثمَّ لمَّا أصبحت الأرضُ صالحةً للحياةِ خلقَ اللهُ النباتَ على أطوارٍ، ففرقها وعظَّمَ، وتكاثفَ آجاماً وغاباتٍ غَيْباءَ[2] ثمَّ جرفته السُّيولُ وحطَّمته العواصف ونبتَ غيرُه، وهكذا حتى كان منه طبقاتٌ مدفونة فى باطن الأرض استحالَ بعد حين فَحْماً حجريّاً. ثمَّ خلقَ اللهُ أوائلَ الحيوان المائىّ ثمَّ ذوات القشور والمَحار كبعض أنواع السَّراطين والحلازين[3]. ثم توالَيها من ذوات الفقار كالتنانين وبعض الأسماك، ثم أنواع الزواحف والوَرَل ذوات الحياتَين البرّ

(١) الطُّفال: الطينُ اليابسُ الناعم (٢) ملتفة (٣) ذوات المحار المُحَوَّى

والبحرية، ثم الدوابّ والوحوش والسباعَ؛ حتى عمّت الأرضَ، وبادَتْ وَخلفها غيرُها، ثمّ غيرُها وغيرُها فى دُهُورٍ طويلةٍ تُعدُّ بألوفِ الألوف[1]. واُمتزجَ بعض ما تخلّفَ من بقايا الحيوانِ والنباتِ بأرضِ الرُّسوب، فتكوّنَتْ الأراضى الزراعيةُ الحديثة التى يكثُرُ خصبُها بكثرةِ الموادِّ الحيويّةِ فيها ﴿٢﴾.

الجراءة والاقدام

قال صاحب كتاب الأذكياء[3]: حدثنى أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب قال حدثنى بعض الأشراف بالكوفة: أنه كان بها رجل حسنىٌّ يُعرفُ بالأدرَعِ شديدُ القلب جدًّا قال: وكان فى خرائب الكوفة شىءٌ يظهرُ للمجتازينَ فيه نارٌ يطولُ تارةً ويقصُرُ أخرى يقولون هو غُولٌ يفزَعُ منها الناسُ. فخرج الأدرعُ ليلةً راكبًا فى بعض شأنه، قال لى الأدرعُ: فاعترضَ لى السوادُ والنارُ؛ فطال الشخصُ فى وَجْهِى، فأنكرتُه، ثمّ رَجعتُ الى نفسى. فقلتُ: أمّا شيطانٌ وَغُولٌ فهَوَسٌ، وليس إلاّ إنسانًا. فذكرتُ اللهَ تعالى،

---

(١) ولا ينافى ذلك ما ورد فى القرآن الكريم من أن الله خلق الارض وقدر أقواتها فى أربعة أيام فان أيام الله ليست كالأيام التى نعدّها. قال تعالى: (تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيهِ فى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) وهذا من قبيل التمثيل والاّ فلا يعلم مقدار يومه الاّ هو ﴿٢﴾ قد اطلع على هذه المقالة الأستاذ «ميخاءيل فرج بك» مدرس علم التاريخ الطبعى بمدرسة المعلمين السلطانية وأقرّ بصحة ما فيها من الحقائق العلمية

(٣) هو الزاهد الواعظ المحدث القاصّ المؤرخ الشاعر أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى عين أعيان بغداد فى القرن السادس الهجرى

وصلّيتُ على نبيه صلى الله عليه وسلم، وجمعتُ عِنانَ الفرس، وَقرعتُهُ بالمِقْرَعة وطرحتُهُ على الشخص، فازدادَ طُولُه، وَعَظُم الضوءُ فيه، فنفرَ الفرسُ فقرعتُهُ، فطرحَ نفسَه عليه، فقصُرَ الشخصُ حتى عادَ عَلَى قَدْرِ قامةٍ. فكادَ الفرسُ يخالِطُه ولّى هارباً. فحركتُ الفرسَ خلفَه، فانتهى الى خربة فدخلها. فدخلتُ خلْفَه، فاذا هو قد نزل سِرداباً فيها. فنزلتُ عن فرسي وَشدَدْتُه وَنزلتُ، وسيفي مجرَّدٌ. فحينَ حصلتُ فى السِّرداب أَحْسَسْتُ بحركةَ الشخص يُريد الفِرارَ منى، فطرحتُ نفسى عليه. فوقعتْ يَدِى على بَدَنِ إنسانٍ فقبضْتُ عليه فأخرجتهُ؛ فإذا هى جارية سوداء. فقلتُ: أىُّ شىءٍ أنتِ؟ وإلاَّ قتلتُكِ الساعةَ. قالت: قبلَ كلِّ شىءٍ أنت إنسىٌّ أم جنىٌّ؟ رأيتُ أقوى قلباً منك قطُّ. فقلتُ: أىُّ شىء أنتِ؟ قالت: أَمَةٌ لآل فلان (قوم بالكُوفة)، أَبقتْ مِنهم مُنذُ سنين، فتغرَّبْتُ فى هذه الخَربة، فولَّد الفِكْرُ أَن أحتال بهذه الحيلة وأُوهِمَ الناسَ أنى غُولٌ حتى لا يَقْرُبَ الموضعَ أحدٌ، وأتعرضُ ليلاً للأحداثِ؛ وربَّما رمَى أحدُهم مِنديلاً أو زادا فآخذه فأبيعهُ نهاراً وأقتاتُ به أياماً. قلتُ: فما هذا الشخصُ الذى يطولُ ويقصُر والنارُ التى تظهرُ. قالتْ: كِساءٌ معى طويلٌ أسودُ (وأخرجتْه من السرداب) وقَصَباتٌ هِنْديَّةٌ أُدْخِلُ بعضَها فى بعض فى الكِساء وأرفعُه فيطول؛ فإن أردتُ تقصيرَه دفعتُ من الأنابيب واحدةً فى واحدةً فيقصُرُ. والنارُ فتيلةٌ شمع معى فى يدى لا أُخرجُ الاّ رأسَها مقدارَ ما يُضِئُ الكِساءَ (وأرانى الشمعةَ والكِساءَ والأنابيبَ) ثمَّ قالت: قد جازت هذه الحِيلةُ نَيِّفاً وعشرين سنة، واعترضتُ فُرسانَ الكُوفة وشُجْعانها وكلَّ أحدٍ، فما أقدمَ أحدٌ

على غيرك ولا رأيت أشدَّ قلباً منك . فحملها الأدرعُ الى الكوفة، فردَّها الى مواليها . فكان يُحدِّثُ بهذا الحديث ، ولم يُرَ بعد ذلك أثرُ غول ، فعُلِم أن الحديث حق

وصايا الآباء للأبناء

حسن الاستماع

أوصى الحسنُ البَصْرِيُّ[١] ابنَه فقال : يا بُنَيَّ اذا جالستَ العُلماءَ فكُنْ على أن تسمعَ أحرصَ منك على أن تقولَ . وتَعلَّمْ حُسْنَ الاستماع كما تتعلَّمُ حُسْنَ الصَّمْتِ . ولا تقطَعْ على أحدٍ حديثاً وإن طالَ حتى يُمْسِكَ[٢]

أدب السؤال والجواب

أوصى يَحْيَى[٣] بنُ خالدِ بن بَرْمَكَ ابنَه جعفراً فقالَ : لا تَرُدَّ على أحدٍ جواباً حتى تفهمَ كلامَه ؛ فإن ذلك يَصرِفُك عن جوابِ كلامِه الى غيره ، ويُؤكِّدُ الجهلَ عليك ؛ ولكن افهَمْ عنه ، فإذا فهمتَه فأجبْهُ . ولا تَعْجَلْ بالجواب قبل الاستفهامِ . ولا تستحْيِ أن تستفهِمَ اذا لم تَفْهَمْ ؛ فإنَّ الجوابَ قبلَ الفهمِ حُمْقٌ . وإذا جهِلْتَ ما قِيلَ فسؤالُك واستفهامُك أجملُ بك وخيرٌ من السكوت على العِيِّ

---

(١) كان من خيار التابعين علماً وفقهاً وتورعاً وفصاحة توفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ

(٢) يمسك : ينهى كلامه

(٣) كان وزيراً للرشيد ثم خلفه ابنه الفضل فجعفر ثم نكبهم الرشيد فقتل جعفراً سنة ١٨٧ هـ وسجن يحيى والفضل فتوفى يحيى سنة ١٩٠ هـ فى السجن

وصية قيس بن عاصم[١]

لما احتُضِرَ قَيْسُ بن عاصمٍ قال لبنيه: يا بَنِيَّ احفَظُوا عنى ثلاثًا، فلا أحد أنْصَحُ لكم منى: إذا أنا مِتُّ فسوِّدُوا[٢] كِبارَكُمْ، ولا تُسَوِّدوا صِغارَكُمْ فيُحَقِّرَ الناسُ كِبارَكُمْ وتهونوا[٣] عليهم. وعليكُمْ بحفظ المال؛ فإنهُ منبهةٌ للكريم، ويُسْتَغنَى به عن اللئيم. وإياكم والمسألةَ؛ فإنها آخرُ كَسْبِ الرجل

مجالسة أهل العلم

روى أبو على القالى[٥] فى أماليه من كلام العرب ووصاياها: «جالِسْ أهلَ العلم فإن جهِلْتَ علَّمُوك، وإن زَلَلْت قوَّمُوك، وإن أخطأت لم يُفنِّدُوك[٦] وإن صَحِبْتَ زانُوك، وإن غِبْتَ تفقَّدُوك[٧]. ولا تجالِسْ أهلَ الجهل؛ فإنك إن جهِلتَ عنَّفُوك، وإن زَلَلْتَ لم يُقوِّمُوك، وإن أخطأت لم يُثبِّتُوك

وصية عبد الله بن معاوية[٨]

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب لابنه: أى بُنَىَّ! إنى مؤدٍّ حقَّ الله فى تأديبك، فأدِّ الىَّ حقَّ اللهِ فى الاستماع منى. كُفَّ الأذى

---

(١) هو سيد أهل الوبر فى الجاهلية وسيد بنى تميم جاهلية واسلاماً أسلم سنة ٩ ثم رحل الى البصرة ومات بها (٢) أى اجعلوهم سادة ورؤساء (٣) يسهل أمركم عليهم أى تصغرون فى أعينهم (٤) أى مُشْعِرٌ بقدره ومُعْلٍ لشأنه

(٥) هو اللغوى الأديب الراوية رحل من المشرق الى الأندلس وحظى عند ملوك بنى أمية بها وله كتب جليلة منها أماليه توفى سنة ٣٥٦هـ (٦) يكذبوك (٧) بحثوا عنك

(٨) خرج على مروان آخر خلفاء بنى أمية واستولى على فارس ثم هزم والتجأ الى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية فسجنه ومات فى السجن

وارفُضِ البَذَا[1]، واستعِنْ على الكلام بطولِ الفِكر فى المواطنِ التى تدعوك فيها نفسُك الى الكلام؛ فإنّ لِلْقولِ ساعاتٍ يَضُرُّ فيها الخطأُ، ولا ينفعُ فيها الصوابُ. واحذَرْ مَشُورَةَ الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذَرُ مَشُورةَ العاقلِ اذا كان غاشّاً؛ لأنه يُرديك[2] بمشورته. واعلم يا بُنَيَّ أنّ رأيكَ اذا احتَجْتَ اليه وجدتَه نائماً، ووجدتَ هواكَ يقظانَ، فإيّاكَ أن تستبدَّ برأيك؛ فإنه حينئذٍ هواك. ولا تفعَلْ فعلاً إلاّ وأنت عَلَى يقينٍ أنّ عاقبتَه لا تُرْديك، وأن نتيجتَه لا تَجنِي عليك

بُمْبَيْيَه

ذكَرَتْ كتبُ التاريخ القديمةُ أنه كانتْ تقومُ بسَفْحِ ويزُوفَ الى الجنوب الشرقيّ من نابُلِي مدينةٌ جميلةُ الدُّورِ والقُصُورِ كثيرةُ الشوارعِ والحَمّاماتِ والبِرَكِ والفوّاراتِ، رائقةُ الهياكلِ والملاهِى والملاعب، يَسكنُها نحوُ اثنَيْ عشرَ ألفَ نَسَمةٍ. تلك هى مدينةُ بُمْبَيْيَه التى بناها اليونانُ قبلَ المسيح بمئاتٍ من السنين واستحوذَ عليها الرومانُ فى جُملةِ ما استحوذوا عليه من المُستعمَرات اليونانية

بنَوْها، وقد أمِنُوا غائلةَ ويزوفَ الذى خمدَتْ أنفاسُه قبلَ بنائها بعِدّةِ قُرونٍ، وما دَرَوْا أن أتُونَ[3] جوفِ الأرضِ ما زالَتْ تغلِى مَرَاجِلُه[4]، وأنّ

---

(١) البذاء الكلام الفاحش. قصره للسجع (٢) يهلكك

(٣) هو الموقد العظيم لعمل الجير والجص وللحمامات وأفران الخبز

(٤) جمع مِرْجل وهى القدر الكبيرة

الغطاء الذى طمَّ أحدَ منافذِ لهيبهِ ليس إلاَّ طفاوةً[١] لا تلبثُ أن تطير بنبضةٍ من تيَّارِ قلبه الخافق

قطنها الرومانُ فى أزمانِ ترفهم وبذخهم ولهوهم ولعبهم، وشادوا فيها القصورَ والهياكلَ. وإنَّهم لفى سكرتهم يعمهونَ[٢] إذا ويزوفُ ينذرهم أن قد آنَ الرَّحيلُ، ووجبتِ الهجرةُ، فزلزلهم زلزالاً شديداً أتى بنيانهم من القواعدِ، فانتقضتِ الهياكلُ والأبراجُ، وتداعتِ القصورُ والملاهى، ولم يبقَ بالمدينةِ إلاَّ البيوتُ الصغيرةُ الأحاديَّةُ الطِّباق. فنهتِ للدَّولةُ عن تجديدها خشيةَ كرَّةِ ويزوف عليها. فلبثتْ رددحاً[٣] من الزَّمنِ خاويةً على عروشها نحوَ ستَّ عشرةَ سنة؛ حتى أذنتْ لهمْ ببنائها، فجدَّدوها على الطِّرازِ الرُّومانى الحديثِ إلاَّ أنَّهم فى هذه المرَّةِ أخذُوا بالحيطةِ؛ فبنَوْا دُورَها أحاديَّ الطِّباقِ أو ثُنائيَّتها، ومَنْ رغبُوا فى التَّعالى بنَوْا أسفلَ المبانى بالحجارةِ وعلاليَّها بالخشبِ. وهيهاتَ أن ينفعَ حذرٌ منْ قدرٍ؛ فلم يكتفِ ويزوفُ أن يأخذَ بالرَّجفةِ فى غضبتِه الأخرى حتى شفعها بكسفٍ من الحُمَمِ[٤] والرَّمادِ المتوقِّدِ والصواعقِ، فأصبحُوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنَوْا فيها

حدثتْ هذه الداهيةُ المدلهمَّةُ[٥] فى شهر أغسطس سنة ٧٩ م، والقومُ محتشدون فى ملهى المدينةِ الكبيرِ محتفلون بيومِ زينةٍ غارقونَ فى بحارٍ من اللَّهوِ واللَّعبِ؛ فلم يشعُروا إلاَّ وقد زُلزلتِ الأرضُ زلزالَها، وأخرجتْ أثقالَها تتطايرُ من حلقِ ويزوفَ العظيم. فانبعثتْ منه سحابةٌ سوداءُ من

(١) ما طفا من زبد القدر (٢) يضلون (٣) مدة طويلة، لبثت خربة ١٦ سنة
(٤) الفحم (٥) السوداء

الرَّمادِ طبَّقتِ الافقَ ، وتساقطَتْ عَلَى المدينةِ . فطار أهلُها من المَلْهَى سِراعًا طالبين النّجاةَ . وبهم من الذُّعرِ[١] ما يعجزُ القلمُ عن وصفه . ومَنْ ساعدتْهم المقاديرُ، وهم الأكثرون، نَجَوْا قبلَ أن يَمُدَّ ويزوفُ رَمادَه بالحُمَمِ والصُّخورِ الملتهبةِ . ومن عثرتْ بهم جُدُودُهم[٢]، وهم الأقلُّونَ، أدْرَكتْهم كِسَفُ ويزوفَ المشتعِلةُ ، فأصبحوا فى ديارهم جاثِمين وعَلَى الطُّرُق مُصَرَّعين

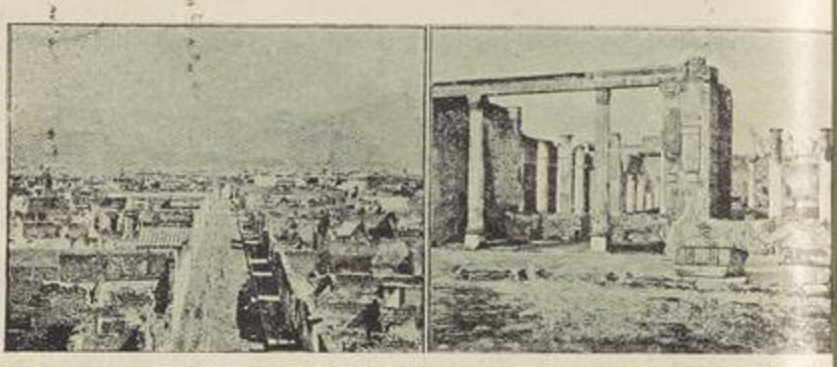

منظران فى بُمْبَيْه

وكأنّنا بهؤلاء المتخلِّفين وقد ظنّ بعضُهم أن سحابةَ ويزوفَ الرَّمادية سحابةُ صيفٍ عن قريبٍ تَقَشَّعُ، فلجَئُوا الى مَخادِع[٣] ديارهم، فكانتْ مقابرَ لهم . وقد ظنَّ آخرون أن فى استطاعتهم استنقاذَ أموالهم وجواهرهم، فدُفِنَتْ معهم . يُعلَم ذلك من مشاهدةِ مَصارعِهم بعْدَ كشفِ الزمانِ الغِطاءَ عن مَدِينتهم

ظلَّ ويزوفُ ذلك اليومَ يُمْطِرُ المدينةَ وابلا[٤] من ناره ، فخرَّقَ طِباقَ الخشبِ ومَصاريعَ الأبوابِ والطِّيقانِ، ثم زفَرَ فطمَرَ المدينةَ بطبقةٍ من الرَّمادِ

(١) الخوف (٢) حظوظهم وبختهم (٣) جمع مِخْدَع ومُخْدَع وهو الخزانة والبيت داخل البيت (٤) المطر الشديد الضخم القطرات

تعلو الأرضَ بأكثرَ من عشرين قدماً . وتعدَّتْ قذائفُه المدينةَ الى المد
المُجاورةِ والممالكِ المصاقبةِ؛ حتى بلغَتْ شواطئَ إفريقيَّةَ، وظنَّ الناسُ أن ق
آذنَتِ الساعةُ بالقيام

سُوِّيَتِ المدينةُ بالأرضِ وشُغِل الناسُ بأنفُسِهم عنها، وأغفلَ خلائفُ
أمرَها، فضاعُوا مكانَها، وحرثوا أرضها حُقولاً ومزارعَ قروناً طويلةً
وأصبحتْ نَسْياً مَنْسِيّاً

وبينما كان أحدُ المهندسين يُجرى قناةَ مياهٍ سنة ١٥٩٢م الى مدينةٍ قري
منها عثرَ على خرائبِها، ولكنَّ دولةَ الطَّلْيانِ لم تُعْنَ بكشفِها إلاَّ منذُ سنة ١٧٤٨
فظهرَتِ المدينةُ بدُورِها وشوارعِها وحماماتِها. وعرَفوا من أطلالِ المبانى وبق
الماعونِ والآنيةِ كيف كانت معيشةُ الرومانِ ونظامُ بُيوتهم، وعرَفوا م
رُفاتِ الموْتى كيف كانت مصارعُهم، وعلى أىِّ حالٍ دهمَتْهم غاشيتُهم (١)
وحاقَتْ بهم بَليَّتُهم

فمِنْ أُمٍّ رَءُومٍ (٢) ضمَّتْ طِفلَها الى صدرِها للوَداع لا للرَّضاع
ومِنْ ربِّ بيتٍ بين زوجه وأولاده، وافَتْهم منايامم فى لحظة، وضمَّ
من الدار قبرٌ واحدٌ

ومن اسارى صُرِّعوا والأغلالُ فى أعناقِهم والسَّلاسلُ والأَدَاهم (٣)
أرجلهم، فأراحتْهم الفاجعةُ من تعذيبِ مُعْتقليهم

ومن خيلٍ وبغالٍ عاشتْ دهراً فى خدمةِ البشرِ، ثم هلكتْ فى جَرَائِ
وساوتْهم فى مدافنِهم

---

(١) الغاشية من أسماء النار (٢) الرءوم التى تعطف على ولدها وتلزمه
(٣) جمع أدهم وهو القيد

وإذ كان الفعلة منذ عهدٍ قريبٍ يفرغون شارعاً صغيراً من الردم والأنقاض رأوا فراغاً يحتوى عظاماً، فدعوا مدير العمل اليه فسكب فيه جصاً مائعاً حتى كسا العظام، وملأ الفراغ. فلما أزاح ما حوله إذا بأربعة أشخاص من الجص الصلب لا ينقصهم الا الحياة والنطق: ثلاث نساء، بجانب احداهن قطع نقود وقدحان من فضة ومفاتيح وجواهر، وفى أصبع الأخرى خاتم حديد، ورجل مستلق على ظهره، وجرموقاه[1] مشدودان على ساقيه، ولم تزل المسامير فى نعليه، وفى يده خاتم حديد، وفمه مفتوح، وبعض أسنانه مفقود. وكان بقرب هذه المدينة ثلاث مدن، وهى «هركيولانيوم» و«رزينا» و«بلنتة» نكبت فى يوم بمبيه بمثل نكبتها. وفى خبر بمبيه ما يغنى عن خبرها

عقلاء المجانين

قال ابن القصاب الصوفى: دخلت المارستان فرأيت فيه فتى مصاباً. فولعت به[2]، وزدت فى الولع، فاتبعته، فصاح، وقال: انظروا إلى شعور مطررة[3]، وأجساد معطرة، قد جعلوا الولع بضاعة، والسخف صناعة. فقلت له: من السخى؟ قال الذى رزق أمثالكم، وأنتم لا تساوون قوت يوم. قلت له: من أقل الناس شكرا؟ فقال: من عوفى من بليته، ثم رآها فى غيره فترك الشكر. فانكسرت بذلك. وقلت له: ما الظرف؟ قال: خلاف ما أنتم عليه

---

(١) مثنى جرموق وهو العصابة التى تشد فوق الخف (الألشين)

(٢) أى سخرت به (٣) من طررت الجارية اتخذت لها طرة

كان فى بنى أسد مجنونٌ، فمرّ به قوم من بَنِي تَيْمِ اللهِ فعَبِثُوا به وعذَّبوه فقال: ما أعلمُ فى الدنيا قوماً خيراً من بنى تيم الله! قالوا وكيفَ؟ قال بنو أسد ليسَ فيهم مجنونٌ غيرى، وقد قيَّدونى وسَلسلونى. وكلكم مجانين وليس فيكم مقيَّد

مرَّ بُهلولٌ[1] بقوم فى أصل شجرة، وكانوا عشرةً. فقال بعضُهم لبعض تعالَوْا حتى نسخَرَ ببُهلول. فسمِع بُهلول ما قالوا فجاءهم. فقالوا: يا بُهلول تَصْعَدُ لنا رأسَ هذه الشجرة وتأخذُ عشرةَ دراهمَ؟ قال: نعم! فأعطَوْه عشرةَ دَراهم، فصيرها فى كُمّه، ثم الْتفتَ، فقال: هاتوا سُلَّماً. فقالوا: يكن هذا فى الشرط! فقال: كان فى شرطى دونَ شرطِكم!

مُقطَّعات شعرية

قال محمودُ سامى البارُودِى[2]

بادِرِ الفُرصةَ، واحذَرْ فَوْتَها ... فبُلوغُ العزِّ فى نَيْلِ الفُرَصْ
واغتنِمْ عُمرَك إبَّانَ الصِّبا ... فهْوَ إن زاد مع الشَّيْب نقَصْ
وابْتَدِرْ مَسعاك، واعلَمْ أنَّ منْ ... بادرَ الصَّيدَ معَ الفجْرِ قنَصْ
إن ذا الحاجةِ إن لمْ يغترِبْ ... عن حِماهُ مثلُ طَيْرٍ فى قفَصْ

---

(١) هو أبو وُهَيب الكوفى محدث زاهد مُوَسوس كان فى زمن الرشيد وتوفى سنة ١٩٠ هـ (٢) كان رئيس الوزارة المصرية زمن الثورة العرابية واشترك فيها ونفى الى سرنديب فمكث بها ١٧ سنة ثم عمى وعفى عنه وجاء مصر ومات سنة ١٣٢٢ هـ

وأجتنِبْ كلَّ غَبيٍّ مائقٍ فهْوَ كالعَيْرِ[1]؛ إذا جَدّ قمَصْ
إنّما الجاهلُ فى العين قذًى حيثُما كانَ، وفى الصدر غُصَصْ
واختَبِرْ مَن شئتَ تعرِفْه؛ فما يعرِفُ الأخلاق إلاّ من فَحَصْ

وقال أبو اسحاق إبراهيمُ الغَزّىّ[2]

بمَسيرِهِ نقَصَ الهِلالُ، وزادا فاجعَلْ كَراكَ[3] إذا اعتزمتَ سُهادا[4]
لولا انصلاتُ[5] البِيضِ[6] من أغمادها[7] مَشْحُوذةً لم تَفضُلِ الأغمادا
وفضيلةُ الحيوان فى حركاته لولا منافعُه لكان جمادا
ما العمرُ الاّ راحلٌ، وأظنه اتّـــخذَ الشبيبةَ للمسافةِ زادا
لا تخلَعَنَّ عن اللسانِ لِجامَهُ وتوَقَّ فَرْطَ جِماحِه المُعتادا
فاللهُ خصَّ الإستماعَ بآلةٍ مَثْنَى، وجارحة الكلامِ فُرادى

وقال أبو نصرٍ عبدُ العزيز بنُ نُباتة السَّعدىّ[8]

حاوِلْ جسيماتِ الأمور، ولا تقُلْ إنّ المحامدَ والعُلاَ أرزاقُ
وارغَبْ بنفسِك[9] أن تكونَ مُقصّرا عن غاية فيها الطِّلابُ سِباق

---

(١) الحمار (٢) هو ابراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبى شاعر مجيد صاحب مطولات، وله ديوان اختاره لنفسه، ولد بغزة سنة ٤٤١ هـ وتصرفت به الأحوال فذهب الى المشرق ومات بين مَرْو وبلخ سنة ٥٢٤ هـ (٣) الكرى النوم
(٤) السهاد السهر (٥) تجرّد (٦) السيوف (٧) جمع غِمْد وهو قِراب السيف
(٨) هو أبو نصر عبد العزيز ابن عمر المشهور بابن نباته، ويُنسَبُ الى سعد تميم، وعدّ فى شعراء سيف الدولة الحمدانى، وله ديوان حافل توفى سنة ٤٠٥هـ ببغداد. وهو القائل:
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد
(٩) صُنْ نفسك

لا تشفقنّ[1] فإنّ يومك إن أتى ... مِيقاتُه لم ينفعِ الإشفاقُ
واذا عجزتَ عن العدوّ فداره ... وامزِجْ له إن المِزاجَ وِفاقُ
فالنارُ بالماءِ الذى هو ضِدُّها ... تُعطِى النِّضاجَ، وطبعُها الإحراقُ

العلمُ النافعُ أمانٌ من الفقر

قال صاحب الفرج بعد الشدّة[2]

حدثنى أبى، قال: بلغنى من غير واحدٍ أن أبا يُوسفَ[3] صحِبَ أبا حنيفة على فقرٍ شديدٍ. وكان ينقطعُ بملازمتِه عن طلب المَعاشِ، فيعود الى مَنزلِه عَلَى جهْدٍ. وكانت أُمُّه تحتالُ فيما يقتاتون بهِ يوماً بيوم. فلما طال ذلك عليها خرجَ الى المجلس يوماً فأقامَ فيه، وعادَ ليلاً، وطلَبَ ما يأكُلُ، فجاءتْه بغَضَارةٍ[4] مُغَطّاةٍ، فكشفَها، فإذا فيها دفاترُ. فقالَ: ما هذا؟ قالتْ: ما أنتَ مشغولٌ بهِ نهارَك أجْمعَ! فكُلْ منه ليلاً! فبكى، وباتَ جائعاً، وتأخّر من غدٍ عن المجلس، حتى احتالَ فيما أكلُوه. فلما جاء الى أبى حنيفةَ سأله عن سبب تأخُّره، فصَدَقَهُ. فقال: هلاّ عرّفتَنى فكنتُ أمُدّك! ولا يجبْ أن تغتمّ فإنّه إن طال عمرُكَ فستأكلُ بالْفِقْهِ اللَّوْزِينَجَ[5] بالفُسْتُق المقشّر. قال أبو يوسفَ: فلما خدمتُ الرّشيدَ، واختصصتُ بهِ قدّمَ بحضرتِهِ يوما

---

(١) لا تخافنّ (٢) هو القاضى المحدّث الأديب الشاعر المحاضر أبو على المحسّن ابن أبى القاسم على التّنُوخىّ توفى سنة ٣٨٤ هـ ببغداد (٣) هو صاحب الامام أبى حنيفة ومؤيد مذهبه وأول من تلقب بقاضى القضاة توفى سنة ١٨٢ هـ (٤) صحفة متخذ من الطين الحرّة (٥) نوع من الحَلْوَاء شِبْهُ القطائف يُؤدم بِدُهن اللَّوْز

لوزينج بفستق مقشر، فدعانى اليها، فحين أكلت منها ذكرت أبا حنيفة، فبكيت وحمدت الله تعالى، فسألنى الرشيد عن السبب فأخبرته

وروى أيضاً فى كتابه الآنف الذكر قال

وجدت فى بعض الكتب عن الأصمعى[1] قال: كنت بالبصرة أطلب العلم وأنا مقل. وكان على بابنا بدال، اذا خرجت بكرة يقول لى: إلى أين؟ فأقول: الى فلان المحدث، واذا عدت المساء يقول لى من أين؟ فأقول: من عند فلان الأخبارى أو اللغوى. فيقول: يا هذا أقبل وصيتى؛ أنت شاب، فلا تضيع نفسك، واطلب معاشاً يعود عليك نفعه، وأعطنى جميع ما عندك من الكتب أطرحها فى هذا الدن، وأصب عليها من الماء للعشرة أربعة، وأنبذه، وأنظر ما يكون منه. والله لو طلبت منى بجميع ما لديك من الكتب جوزة ما أعطيتك. فيضيق صدرى بمداومة الكلام؛ حتى كنت أخرج من بيتى ليلاً وأدخله ليلاً، وحالى فى خلال ذلك يزداد ضيقاً؛ حتى أفضيت الى بيع آجر دارى، وبقيت لا أهتدى الى نفقة يومى، وطال شعرى، وأخلق ثوبى؛ وأتسخ بدنى. وبينما أنا كذلك متحير فى أمرى، إذ جاء لى خادم للأمير محمد بن سليمان[2] قال: أجب الأمير. فقلت: ما يصنع الأمير برجل قد بلغ به الفقر الى ما ترى. فلما رأى سوء حالى وقبح منظرى رجع، فأخبر الأمير بخبرى، وعاد إلىّ، ومعه تخوت[3] ثياب

---

(١) هو الراوية الشهير توفى سنة ٢١٦ هـ (٢) من بيت الخلافة وهو محمد بن سليمان بن على بن عبدالله بن عباس (٣) جمع تخت وعاء تصان فيه الثياب

وَدُرْجٌ[1] فيه بَخُور، وليس فيه دنانيرُ. وقال: قد أمرنى الأميرُ أن أُدخِلَك الحَمّام وأُلبِسَك مِن هذه الثياب، وأَدَعَ باقيَها عليك، وأُطعِمَك من هذا الطعام (واذا بِخِوَانٍ[2] كبير فيه صنوفُ الأطعمة) وأبخّرَك لِترجعَ اليك رُوحُك وأُطلِعُك عليه. فسُرِرتُ بذلك سُروراً شديداً، ودعوتُ له. فقمت وعملت ما قال، ومَضَيتُ معهُ حتى دخلتُ على محمد بنِ سليمانَ. فسلمتُ عليه، فقرّبنى ورفَعنى. ثم قال: يا عبد الملك قد اخترتُك لتأديب ولَدِ أميرِ المؤمنين. فاعمد عَلَى الخروج الى بابه، وانظُرْ كيف يكونُ. فشكرتهُ ودعوتُ له. وقلت سمعاً وطاعةً! سأُخرِجُ شيئاً مِن كُتُبى وأتوجّه. فقال دَعْنِي وكنْ على الطريق فقبّلت يدَه، وأخذتُ جميع ما احتجتُ اليه من كتُبى، وجعلتُ باقيَها فى بَيْتى وسَدَدْتُ بابَه، وأقمْتُ على الدار عجوزاً مِن أهْلِنا تحفَظُها، وبا كَرَ رسولُ محمدِ بنِ سليمانَ، وأخذَنى الى زَلّال[3] قد اتُّخِذَ لى، وفيه ما أحتاجُ اليه وجلَسَ معى يُنفِقُ علىَّ حتى وصلتُ الى بغدادَ، ودخلتُ على أمير المؤمنين فسلمت، فردَّ علىَّ السلامَ. وقال: أنت عبدُ الملك بن قُرَيب الأصمعى؟ قلت نعم! أنا عبدُ أمير المؤمنين ابن قُرَيب الأصمعى. قال: اعلمْ أنّ وَلَدَ الرَّجُل مُهْجةُ قلبه، وثمرةُ فؤادِه، وهو ذا أُسْلِمُ اليكَ ابنى محمداً بأمانةِ اللهِ؛ فلا تعلّمه ما يُفسدُ عليه دِينَهُ؛ فلعلَّهُ أن يكونَ للمسلمينَ إماماً. قلتُ: السَّمعُ والطاعةُ. وأخرَجَهُ الىَّ. وتحوّلتُ معهُ الى دارٍ قد أُخلِيت لنا لتأديبه فيها، وبها من أصناف الخَدَم والفُرُش ما يَسُرّ؛ وأجرى علىَّ فى كلّ شهرٍ عشرةَ آلافِ

(١) سُفَيْط صغير تدَّخِر فيه المرأة طيبها وأدواتها (٢) كغراب وكتاب ما يوضع عليه الطعام (٣) نوع من القوارب

الدراهم، وأمر بأن يُخرَجَ الىَّ فى كلِّ يوم مائدةٌ، فلزمتُه. وكنتُ أُنفِذُ جميعَ ما يجتمعُ لَدَىَّ أوَّلاً فأوَّلاً الى البصرة، فأبنِى دَارِى وأشترى ضِياعاً وعَقاراً. فأقمتُ معه حتى قرأ القرءانَ، وتفقَّه فى الدين، وروَى الشِّعْرَ واللُّغةَ. وروَى أيامَ الناسِ وأخبارَهم، واستعْرضه الرَّشيدُ فأُعجِبَ بِهِ، وقال: يا عبد الملك أُريدُ أن يُصلِّىَ بالناس إماماً فى يوم جُمُعةٍ، فاُخْتَرْ له خُطبةً وحفِّظْهُ إيَّاها. فحفظته عَشْراً. فخرج وصلَّى بالناس وأنا معه، فأُعجِبَ الرشيدُ بِهِ، وأخذهُ نِثارُ الدراهم والدنانيرِ من الخاصة والعامة، وأتتنى الجوائزُ والصِّلاتُ من كلِّ ناحية، فجمعتُ مالاً عظيماً؛ ثم استدعانى الرشيدُ؛ فقال: يا عبد الملك قد أحسنتَ الخِدمةَ فتَمنَّ، فقلت: ما عَسَيتُ أن أتمنَّى وقد حُزْتُ آمالِى. فأمر لِى بمالٍ عظيم وكُسْوةٍ كثيرة، وطيبٍ فاخِرٍ، وعبيد وإماءٍ وظَهْرٍ[1] وفرشٍ وآلة فقلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذَنَ لِى بالإلمام بالبصرة والكتابة الى عامِله بها أن يخاطِبَ الناسَ الخاصةَ والعامةَ بالسلام علىَّ ثلاثةَ أيام وإكرامِى بعد ذلك. فكتب لِى عنه بما أردتُ، وانحدرتُ الى البَصرة، وداري قد عمَرتْ، وضِياعِى قد كثُرت، ونعمتى قد فشَتْ، فما تأخَّر عنِّى أحدٌ؛ فلما كان اليوم الثالثُ تأملتُ أصاغِرَ من جاءنى فاذا البدَّالُ. وعليه عمامةٌ وسِخةٌ ورداءٌ خفيف وجُبَّةٌ قصيرةٌ وقميصٌ طويلٌ فى رجليه جُرْمُوقان[2] فقال لى: كيف أنت يا عبدَ الملك؟ فاستضحكتُ من حماقتِه وخطابِه لى بما كان يُخاطبُنى الرشيدُ. فقلتُ بخيرٍ! وقد قبلتُ وصِيَّتَك، وجمعتُ ما عِنْدِى من كتُبِ العِلْم، وطرحتُها فى الدَّن كما أمرتَ، وصبَبْت عليه من الماء للعشرة أربعة تخرج ما ترى. ثم أحسنتُ اليه بعد ذلك وجعلته وكيلى

(١) الظهر ما يُركَبُ من الدوابّ (٢) عصابة تشدّ على الخف

العمل

الجسمُ الحيُّ متحرِّكٌ بطبعِه. وحركتُه عملٌ يصدُر منه لحفظِ ذاتِه م
أو لبقاءِ نوعِه ما شاء الله أن يبقى. فالتنفُّسُ والتغذِّي وتوقِّي الحرِّ والبر
والاستكنانِ في مأوًى يدفعُ عوادِيَ الخليقةِ كلُّ أولئك عملٌ للحيِّ يتفاوَ
قوَّةً وضعفًا بتفاوُتِ قوةِ حياتِه وضعفِها. إذًا فلا معنى للحياةِ بدُونِ عملٍ

والإنسانُ الحيُّ جسمٌ عاملٌ، فبحسَبِ كثرةِ عملِه النافعِ وقلَّتِه تعظُمُ حي
أو تضعُفُ. ومعنى عظَمةِ الحياةِ طولُ دوامِها سليمةً من العِللِ مفعَمةً بالسُّرو
فاذا أردنا أن نعيشَ متمتِّعين بهذه الحياةِ فليس لنا طريقٌ اليها الاَّ العمل

العملُ وحدَهُ هو الذي يكفلُ لنا هذا العيشَ الرَّغدَ المشتمِلَ
اللذائذِ والطيِّباتِ المشفوعَ بحُسْنِ السُّمعةِ ورضا الخالقِ. والكسلُ لا يُور
الاَّ معيشةً ضنْكًا[1] محفوفةً بالبؤسِ والسآمة، مشوبةً بالوساوسِ والأحز
مقرُونةً بخِذلانٍ[2] من الله ومَقْتٍ[3] من الناس

كلُّ انسانٍ يستطيعُ العملَ، ولا يُكلِّفُه طلبُ المعيشةِ الشريفةِ ع
فوقَ طاقتِه؛ والعملُ المستطاعُ الدائمُ هو كلُّ ما يُطلَبُ من المرءِ ليعي
سعيدًا في نفسِه وعشيرتِه وبين أبناءِ جنسِه

ويُمكِّنُنا استدامةُ أعمالِنا بتنظيمِ أوقاتِنا؛ فنُعيِّنُ وقتًا منها لنومِنا، وو
لغذائِنا، ووقتًا لعبادةِ ربِّنا؛ ووقتًا لترويحِ نفوسِنا، وبقيَّتَها لأعمالِنا. و
هذه البقيةَ وإن قلَّتْ عن ثُلُثِ اليومِ والليلةِ لَهِيَ كثيرةٌ جدًّا بطو

---

(١) ضيقة (٢) الخِذلان تركُ النُّصْرة (٣) مصدر مقته اذا أبغضه

دوامها ؛ فإنْ نحن تغالَيْنا ، فأفرطْنا فى العمل ، وقلَّلْنا من نومِنا وراحتِنا كانت عاقبةُ أمرِنا نَهْكَ[1] أجسادنا ، وإخمادَ عقولِنا ، وحِرْمانَ أنفسِنا القُدرةَ على استدامة العملِ ؛ وإن نحنُ توانينا فاستطبْنا الكسلَ ، وآثرْنا النَّومَ والخمودَ ، واعتزلْنا العملَ ، فقد تشبَّهْنا بالموْتَى ، وتعجَّلْنا الفناءَ وخالفْنا قانونَ الحياةِ وهو العملُ

فالعملُ الشريفُ مُتيسِّرٌ لنا ، وأوقاتُنا كافيةٌ له . ومن العَجْزِ والجُبْنِ أن نبرِّرَ كسلَنا ، ونحتجَّ لِفتورِ همَّتِنا بإبداءِ المعاذيرِ الباطلةِ : فنشكوَ حِيناً قلةَ الوقتِ ، وتارةً فواتَ الفرَصِ ، وآونةً ضَعْفَ القُدْرةِ . وهيهاتَ أنْ تقبلَ العقولُ السليمةُ والنفوسُ الأبيَّةُ والطِّباعُ الحُرَّةُ هذه المعاذيرَ المُنتحَلةَ[2]

الوقتُ كثيرٌ ؛ وإنما نحنُ الذين نبذِّرُه ، وننفقُه بلا حِسابٍ ، ونصرِفه لغيرِ عِوَضٍ مِنَ العملِ أو بعملٍ حقيرٍ من اللهوِ واللعبِ والهزْءِ والسُّخْريةِ

والفرَصُ سانحةٌ فى كثيرٍ من الأحيانِ ، وإنما يهتدِى إليها العامِلون المُجِدُّون ، والأيْقاظُ المُتنبِّهون ، الذين يبْحثُون عنها فينتهِزونها . أمَّا الكُسالَى المُتوانُون فهُمْ عنها غافلون وفى كُهُوفهم نائمون . وإذا كانت الفرَصُ كما يزعُمُ الكُسالَى نادرةَ الوُقوعِ فالعَمَل الدائمُ يُصادِفُها دائماً لا محالةَ . أما العملُ المتقطِّعُ فقلَّما يُصادِفُها أو تُصادِفُه . وكثرةُ مصادَفةِ الفرَصِ تمرِّنُنا على معرفة أماراتِها وبشائرِ قُدومها ؛ فنُهيِّئُ لها العُدَّةَ ، ونَنصِبُ لها الفِخاخَ

---

(١) إضعاف (٢) انتحل الشيء ادّعاه لنفسه والحق أنه لغيره أى يعتذر بما ليس فيه

والحبائلَ[١] . والعاجزُ الوكَلُ[٢] لا يعرفُ الفُرْصةَ إلاّ إذا صادمتْه مُصادمةٌ فأخذَتْه فى وَجْهها ، وأجْرتْهُ معَها شَوْطاً بَعيداً .

والقُدرةُ الضعيفةُ مُمْكِنةُ النَّتاجِ إذا رَفَقْنا بها ، واحْتفظْنا بسلامتِها واستعملْناها فى الوجه الذى تَسْتَطيعُه لخِدْمة أَنْفُسِنا وأُمَّتِنا . فكثيرٌ من المؤلّفين والمُخْترعين والإداريين والسِّياسيّين وأصحابِ الأعمالِ العظيمة قضَى اكثرَ حياتِهم بَينَ مُكابَدة آلامِ الداءِ وتَجَرُّعِ غُصَصِ الدَّواءِ ، ولم يَمْنَعْه مَرَضُهم عنْ أن يَستعملوا بعضَ طاقتهم فى رِفعةِ أنفسِهم وتشريفِ ملّتِهم وتأييدِ دَوْلتهم . وكثيرٌ من العَجَزةِ والمكفُوفين[٣] والعجائز والأرامل يسترزقون ببَيعِ حقيرِ البُقول والثِّمار أو حَلْوَى الأطفال : لأنَّ نفوسَهم الأبيّةَ تأبى أن يُريقوا ماءَ وُجوههم وشرفهم فى سُؤال الناسِ أو خِدمة اللئام ؛ إذ مَهْما كان العملُ الحلالُ خسيساً فالسؤالُ أخسُّ منه

وكلُّ عملٍ يُنتِجُ ولو فائدةً قليلةً لصاحبِه وأُمَّتِه عملٌ شريفٌ يستحقّ عليْه صاحِبُه الاحترامَ والتبجيلَ اكثرَ مما يستحقُّ أولئك الذين يأكلون تُراثَ[٤] المَوْتَى ويحتقِرون كلَّ عملٍ إلاّ لَعِبَ المَيْسِرِ وإلاّ الاسترسالَ مع دواعِى الشرورِ والشهوات . والذين يحسَبون النبلَ والسُّؤدُدَ لا يتّفِقانِ مع الكَدِّ والعملِ هم قدوةٌ سيئةٌ ومِثالٌ خبيثٌ لأبنائِهم ولأهلِ بيئتِهم . وقد يُصبِحُون إذا كثُرَ عديدُهم داءً عُضالاً فى جسم الأُمة يُورِدُها مَوارِدَ الحَتْف

---

(١) جمع حِبالة وهى المِصيدة (٢) الذى يكِل أموره الى غيره لعجزه
(٣) العُميان (٤) ميراث

والدمار. أولئك هم المترفون الذين تخرب القرى والمدائن بكثرتهم، وتفنى الأمم بحياتهم

إن الترف والدعة واطراح العمل تنهك الأجساد، وتفسد العقول. فالجسد الذى لا تتحرك أعضاؤه بالعمل المتعب تفتر أعصابه، وتترهل[1] عضلاته، ويختل نظام هضمه ودورة دمه، وتتراكم الفضول السامة فيه؛ فلا يعود يقوى على شيء حتى العمل الهين. ولذلك نرى بعض الأطباء يقتصرون فى معالجة مرضاهم على المشي الكثير والرياضة العنيفة

والعقل الذى لم يتعود التفكير ودقة النظر تتعطل مواهبه، فلا يستعرض إلا الأخيلة الفاسدة، والأمانى السخيفة، والوساوس الشيطانية

وإن العمل البدنى والعقلى والمشترك بينهما: من التجارة والصناعة والزراعة يقوى البدن، ويخرج الفضول، ويهذب الخلق، ويكسب النظام، ويطرد الوساوس والاوهام، ويعود صاحبه صحة الحكم وبعد النظر والاقتصاد فى الوقت والمال. وإنا لنجد كثيراً من عظماء الرجال وأساتذة العالم تخرجوا فى مدرسة العمل العليا، مدرسة الحرف والمهن؛ فكان اكثر الأنبياء رعاة للحيوان قبل أن يصيروا رعاة للإنسان، وكان أبو بكر وعمر وعثمان تجاراً؛ وكان عمرو بن العاص فاتح مصر جزاراً، وكذلك كان فقهاء المسلمين ومحدثوهم وعلماؤهم يحترفون بالحرف، ويتكسبون بالمهن، ويفضلونها على القضاء ومناصب الدولة. وكان الحواريون أصحاب عيسى عليه السلام صيادى سمك، وكان قواد الرومان زراعاً يعودون من ميادين النصر،

(١) تسترخى

ورؤوسهم مُكلَّلةٌ بأكاليلِ الظفرِ الى مزارعهم يفلحونها بأيديهم . ولمَّا استخدموا فى الزراعة والأعمالِ العبيدَ مِنْ أسرى الحروب ، واحتقروا العملَ ، وركنوا إلى الراحةِ لم يصبروا على حرِّ القتال ، وبادُوا أمامَ أعدائهم الأشدَّاء . وإذا قرأنا تاريخَ عظماءِ الإنجليزِ وأممِ أوربَّة ، وجدنا أنَّ اكثرهم كانوا أصحابَ حِرَفٍ وصناعات . وليس ذلك بعجيب ؛ فإنَّ العالمَ الإنسانىَّ مدينٌ فى رُقيِّه وحضارتِه لأهلِ العملِ ، حتى أولئك الكُسالَى هُمْ مدينونَ أيضاً لمُورِّثيهم الذين لم يجمعوا ثروتهم إلاَّ بالكدِّ والعملِ

إذا علِمْنا هذا علِمْنا أن أوجبَ الواجباتِ علينا هو العملُ ؛ فيجبُ أن نعملَ لأنفسنا بحفظِ صحَّتنا وترفيهِ[1] عيشِنا ، وتنميةِ معارفنا ، وصيانة شرفنا

ونعملَ لغيرنا مِنَ الأقرباءِ والبُعَداء ، وذلك : بتربيةِ أبنائنا وتثقيفِ عقولِهم وتهذيبِ أخلاقهم وإعدادِهم لأن يكونوا أبطالاً فى ميدانِ التنازعِ البشريِّ العظيم ، ثمَّ بترقيةِ أمَّتنا وجعلِها عزيزةَ الجانب ، مرفوعةَ الرأسِ بين أممِ الأرضِ ؛ فنكونُ جميعاً جنوداً لها فى الحرب وصُنَّاعاً وتجاراً وزُرَّاعاً فى السِّلْم ، ثم بمساعدةِ اخواننا فى الإنسانيةِ بحُسنِ معاملتِهم وتخفيفِ آلامِ مصائبِهم عليهم

ونعملَ لله مُخلصينَ له الدِّينَ : فنؤدِّىَ شعائرَ دينِه ، ونعملَ على تثبيته وتمكينِه

هذا وقد آن لنا بعدَ هذا أنْ يُعاهِدَ بعضُنا بعضاً على أن نكونَ جميعاً من أهل العملِ النافعِ الصالح ، وأن نبذُلَ غايةَ طاقتنا فى ترقيةِ نفوسِنا وتأييدِ وطنِنا ودِيننا

---

(١) تنعيم وتحسين

دَعوةُ الداعى

نَسَبى فى ذُرا النَّسَبْ ... مِنْ قُدامَى[1] ومِنْ عَرَبْ
وبأخبـــارِ أُمَّتِى ... سارَ مَنْ قصَّ أو كَتَبْ
لُغَتِى دونَ غيرها ... سَلِمتْ مِنْ يدِ الثُّوَبْ
لغـــةُ الدِّين والدُّنا ... لغـةُ العلمِ والأَدَبْ
وبلادى بِنيلِهـــا ... تُرْبةٌ تُنبِتُ الذَّهبْ
لِمَ لا أَرْتقى ولَمْ ... يكُ للعَجْزِ مِنْ سببْ؟
ألِمَا قِيـــلَ إننِي ... لا نِظامٌ ولا دأَب
أو لِمَا قِيـــلَ إنَّنِي ... أطلبُ الرزقَ مِنْ كَثَب
أو لِمَا قِيـــلَ إنَّنِي ... جهلىَ الآنَ قد غلَب
فلَئِن كان كلُّ ذا ... سبباً إنهُ العَجَب
ليسَ بى نَقْصُ فِطرةٍ ... عائقٌ لى عن الأَرَب
انما الأمرُ عَزْمةٌ ... بَعْثُها الآنَ قد وَجب
فهَلُمُّوا الى العُلا ... نستَعِدْ بعضَ ما ذهَب
ننشُدِ العلمَ نافعا ... فى دِيارٍ ومُغْتَرَب
فترُقِّى صِناعـــةً ... مَسَّها الضُّرُّ والعطَب
ونُحايِى زِراعـــةً ... لم تزلْ بَعْدُ فى وَصَب
ونُعـــانِى[2] تِجارةً ... أصبحتْ خيرَ مُكتسَب
كلُّ صَعْبٍ مُيَسَّرٌ ... لِلَّذى جدَّ فى الطلب

---

(١) أى من قدماء المصريين والعرب الفاتحين (٢) نحييها بالتغذية المناسبة

منشأ الحياة على وجه الأرض[1]

عند ما برد سطح الأرض، واستقرت عليها مياه البحار والغدران أصبح بطول تعرضه لضوء الشمس وحرارتها مهداً صالحاً لوجود الحياة

والحياة قابلية الجسم وقتاً ما للتغذى لحفظ شخصه ونوعه ما شاء الله أن يحفظ. وتلك القابلية إما أن تكون مع حركة وإحساس ظاهرين، وهي حياة الحيوان، وإما أن تكون مع حركة واحساس غير ظاهرين. وهي حياة النبات. وإذا فقد الحي الغذاء أو عجز عن تناوله واستمراءه[2] نافعه وإفرازه ضاره فقد الحياة لا محالة، واستحال إلى موات

ومن هنا نعلم أن المعادن والأحجار والأبخرة والسوائل من كل ما لا يتوقف بقاؤه على الغذاء والإفراز ليست بكائنات حية؛ وإنما هي موات

وقد نظر العلماء في الكائنات الحية واستعملوا لرؤية دقيقها المجهر المعظم، فوجدوا أن مياه البحار والغدران ملأى بالأحياء، وأن بعضها أقل تركيباً من بعض؛ بل إن منها ما يقل تركيبه حتى يصل الى ذرة دقيقة جداً أغلظ قواماً من الماء في وسطها نقطة منضمجة هي نواتها ومركز حياتها وسائرها كأطراف لها، سموها «خلية»[3]، وهي تتغذى وتنمو بالتغذي

---

(١) اطلع على هذه المقالة حضرة الأستاذ احمد شوقي بكير بك مدرس علم الأجنة بمدرسة الزراعة العليا وأقر بصحة ما فيها من الحقائق العلمية

(٢) استمرأ الطعام وجده هنيئاً مريئاً أي نافعاً للجسم (٣) أصل الخلية بيت النحل أطلقت على الذرة الحيوية كأنها عش للعناصر الدقيقة جداً التي يتألف منها الجسم

وبعضُها يتكاثرُ بطريقةِ أنَّ الخليّةَ إذا نَمَتْ انقسمت نواتُها وأطرافها خليّتين مستقلتين، ثم كلٌّ منهما اثنتين، وهكذا؛ وبعضُها يتحرّكُ؛ وبعضُها لا يتحرّكُ، وبعضُها يترَاكمُ بعضُه على بعضٍ، فيكوّنُ كائناً مُركّباً حياً ووجدوا من هذه الخلايا ما تكونُ مُحاطةً بغشاءٍ زُلاليّ، ومنها يتكوّنُ

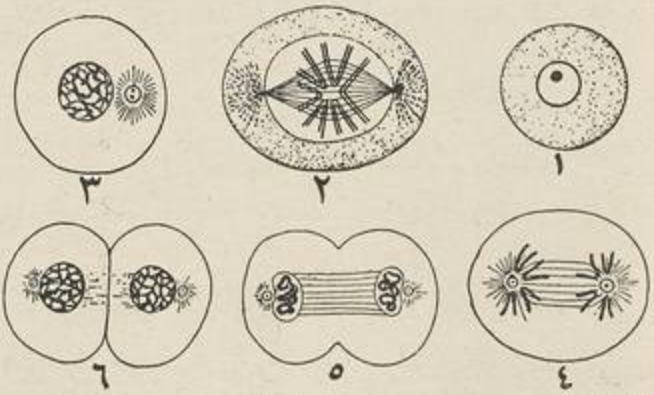

(١) خلية فردة مجردة
(٢) خلية متشعبة
(٣) خلية انقسمت نواتها
(٤) خلية تباعد شطرا نواتها
(٥) خلية تكاد تنقسم الى اثنتين
(٦) خلية انقسمت قسمين

الحيوانُ، وما تكونُ مُحاطةً بغشاءٍ نَسَويّ، ومنها يتكوّنُ النباتُ؛ وتمتازُ فوق ذلك باحتوائها على المادّة الخضراء

ووَجَدُوا أن المركّباتِ الحيّةَ الدقيقةَ ذواتُ أحوالٍ متباينةٍ أو متشابهةٍ: فمنها ما يكونُ ظاهرَ الحِسِّ والحركةِ أو الانتقالِ في طلبِ الغِذاءِ من حيّزٍ[1] إلى حيّزٍ، وهذا لَمْ يَشُكَّ العُلماءُ في أنهُ حيوانٌ ضئيل، ولو لم تكُنْ له أعينٌ ولا أطرافٌ، ومنها ما يفقِدُ ذلك فيقْتَنِعُ الباحثونَ بأنهُ نباتٌ، ومنها ما

(١) الناحية والمكان

تَتَشَابَهُ أحوالُه؛ فلا تُعْلَمُ حركتُه إن كانت اختياريةً أو بدافعٍ اضطراريٍّ من الأجسامِ المحيطةِ به، فيتوقف الباحثون عن البتِّ فى أمره

وقد وجدُوا أيضاً أن جميعَ الحيوانِ والنباتِ: صغيرِهما وكبيرِهما يتألفُ نسيجُ جسمِه من جُملةِ خلايا دقيقةٍ جداً؛ فالفرقُ بين أدقِّ جُرثومةٍ حيةٍ وبين الفيلِ مثلاً أن الأولى خليةٌ واحدةٌ أو خلايا قليلةٌ تستوفى بذاتها جميعَ مطالبِ حياتها، وأن الفيلَ مُركَّبٌ من ألوفٍ ألوفٍ من الخلايا، ولكنها ليست جميعاً متشابهةً فى العملِ؛ فبعضُها يُكوِّنُ العظمَ، وبعضُها يكوِّنُ اللحمَ وبعضُها يكوِّنُ الشعرَ، وهلمَّ جرًّا

فأصلُ الأحياءِ خليةٌ نشأتْ فى الماءِ بقدرةِ العزيزِ العليمِ، ثمَّ تكاثرتْ فكوَّنتْ أجساماً حيةً، ثمَّ تميزتِ الأجسامُ حيواناً ونباتاً. وهذا يفسِّرُ قولَه تعالى «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ» وقولَه تعالى «وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ»

وكان الماءُ فى بُداءةِ الخليقةِ يغمرُ سطحَ الأرضِ جميعَه. فلما صفا جلدُ الأرضِ من الأبخرةِ، ونفذتْ أشعةُ الشمسِ الى ظاهرِها، وانحسرَ الماءُ عن بعضِ بقاعِها، رسَبَ بعضُ الكائناتِ الحيةِ عليها، وتنوعتْ بعضَ الشيءِ فكان منها النباتُ الأحاديُّ الخلايا، وهو خليةٌ واحدةٌ تمتصُّ غذاءَها بنفسِها وتؤدِّى جميعَ مطالبِ حياتِها بذاتِها كالطُّحْلُبِ[1]. ثمَّ تميزَ بعضُ أنواعِه وظهرتْ أطرافٌ ليفيةٌ دقيقةٌ يمتصُّ بها غذاءَه، وهى جذورٌ ضئيلةٌ جداً. ثمَّ لما اعتدلَ الجوُّ صارَ للنباتِ سُوقٌ وأوراقٌ قليلةُ التراكُبِ والتفرُّعِ. ثمَّ ظهرَ النباتُ

(١) هو الغبارُ الأخضرُ الذى يعلو سطحَ الماءِ الراكدِ وسطحَ آنيةِ الماءِ من الفخارِ

المتشعّبُ الجُذورِ والسُّوقِ والأوراقِ، الخَفِيُّ الزَّهْرِ أو الخالي منه جُمْلَةً. ثمَّ فرُهَ النباتُ وعظُم لكثرة الحرارة والرطوبة وامتلاء الجوّ بالحامض الفحميّ ومادّةِ النبات الخضراء التي يكونُ لأشعة الشمس في ظهورِها أثرٌ أيُّ أثرٍ. ثمَّ نشأ النباتُ ذو الأزهار المتنوّعة الحاملةِ الثِّمار والبُذور ذاتِ الفِلْقةِ الواحدةِ ثمَّ ذاتِ الفِلْقَتَين

هيا كل عظمية لبعض الحيوان البائد

ولما بردَ سطحُ الأرض وأصبح مُلائماً لحياةِ الحيوانِ ظهرَ في الماء الحيوانُ الضئيلُ القليلُ التركيب والحركة كالجراثيم الصغيرةِ، ثمَّ الإسْفَنْجُ والمَرْجانُ، ثمَّ الدِّيدانُ والحلازين[1] وذواتُ المَحار، ثمَّ أنواعُ السراطين والحشرات. ثمَّ ظهر الحيوانُ الفقْرِيُّ، وأوَّلُه السَّمكُ، ثمَّ الزواحفُ التي

(١) جمع حَلَزُون: دُوَيْبَّة رخوة كالدودة تسكن صَدَفة مُدَوَّرة ومنها البرية والبحرية

تنوَّعتْ أنواعاً شتَّى : فكان منها أصنافُ الورَل[1] الهائلةُ التى تقاسُ بعشرات الأذرع ؛ وكانت مُتغلِّبةً على غيرها من الحيوان ، مُروِّعةً له ؛ وكان منها ما يعيشُ فى البرّ ، وما يعيشُ فى البَحْر ، وما يعيشُ فيهما معاً . ومنها ذو العُنُق الثُّعبانى . ومنها الخفافيشُ الزاحفةُ . ثمَّ خلق اللهُ الطيورَ ، ثمَّ الدوابَّ والوُحوشَ من الحيوانِ الثديىّ ؛ فانقرضَ بعضُها وبقِىَ بعضُها . ومن المنقرِضِ الفيلُ البائدُ ذو الأنياب الملْويّة والجلدِ المكسوِّ بالوَبَر الكثيفِ . ولما صار ظهرُ الأرض صالحاً لحياة الإنسان خلقه الله فى أحسن تقويم ؛ وكفَلَ له الخلافةَ على سائرِ الحيوان بما وَهَبَ له من قوَّةِ العقل وسُهولة الإمْساكِ بالاصابع

فيُعْلَمُ مِمّا تقدَّمَ أن أحياءَ عصْرنا من الحيوانِ والنَّباتِ لم تكُنْ مخلوقةً من قبلُ ، وأنهُ قدْ سبقَها ما لا يُحْصَى من أنواعِ الحيوانِ والنَّباتِ وانقرضَ

ويُثْبتُ ذلك الأحافيرُ التى كانتْ مدْفونةً فى طبقاتِ الأرض ؛ فإنَّها كلَّما كانت أوْغلَ عُمقاً فى باطن الأرض كانت أقدمَ تكوُّناً ، وكلَّما كانت أقدمَ كانت أبْعدَ من الأحْياءِ الحاليَّةِ

وقدْ مَضَى على الأرض منْذُ ظهرتِ الحياةُ عليها ألُوفُ الألُوفِ من السِّنين والإنسانُ الذى هو أحدثُ الأحياءِ ظهُوراً على وَجْهِها لم يَقِلَّ مبْدأُ ظهُورِه عنْ مِائتَىْ ألْفِ سنةٍ . فسُبْحانَ اللهِ منْ إلهٍ حكيمٍ ذرَأ[2] الخلْقَ على نِظامٍ باهرٍ وفطَرهُمْ على سُنَّةٍ ثابتةٍ ؛ فلَنْ تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تبْديلاً ولَنْ تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تحْويلاً

---

(١) أصل الورل دابة من نوع الوزغ كبيرة . وفصيلة الورل كل ما كان على هذا الشكل من الضباب والتماسيح والحرابىّ ونحوها (٢) خلَق

نجباء الأبناء

حكى ابنُ ظفر الصقلّى أن الفضلَ[١] بنَ سهلٍ أرسلَ وهبَ بنَ سعيدٍ
الى فارسَ مُحاسِباً لعُمّالها. فبلغهُ أنهُ خانَ، فعزلَه وسَخِطَ عليه، وبعثَ بهِ إلى
أخيه الحسَنِ بنِ سهلٍ لينظرَ فى أمره. فأحسَّ وهبُ بنُ سعيدٍ الشرَّ،
فأوصى إلى رجلٍ من أهل واسطٍ ثقةٍ مُوسِرٍ يحترفُ بالجزارةِ، ويتّجرُ فى
الجُلود؛ فأعطاهُ مالاً عظيماً، وضمَّ اليهِ ولَدَيْهِ الحسنَ وسليمانَ، وهما صغيران.
ثم توجَّهَ وهبٌ الى بَغدادَ فغرِقَ. فلما بَلغَ ذلك الوصىَّ أخبرَ بهِ الغلامَيْن.
وقال: اختارا حِرْفةً تحترفانِ بها، وأن اخترتُما الجزارةَ وبيعَ الجُلود بَصَّرتُكما
بذلك. ولَكُما عندى مالٌ سأشترى لكما بهِ ضِياعاً تستظهِران بها على أحْداثِ
الزمان. فقالا: مالَنا ولِحِرَفِ العوَامِّ وصِناعاتِهم؟ وإنما حرفةُ أمثالِنا جَزْرُ
أعناقِ الرِّجالِ فى القراطيس! فسمع الجزّارُ كلاماً لا عَهْدَ له بسَماع مثلِه،
ورأى بَزّاً[٢] ليْس مِن سُوقه. فهيَّبَهُما وَضمَّ إليهما من يُؤَدِّبُهما، ويُصلحُ
من شأنهما. فلما اشتدا قالا لوَصِيِّهما: إن واسطاً لا تَفى لنا بما نَرُومُه من
العلم، ونُؤَمِّلُه من الرِّياسة. فقال لهما الوَصِىُّ: إن مثلَكما لا يُولَّى عليه؛
فمُرانى بأمرِكما أُطِعْ. فقالا له: جهِّزنا الى مُعْتَرَض العلماء ومُستَقَرِّ الخلفاء.
فجهَّزَهما إلى بَغْدادَ، ودفعَ اليهما من المال ما أحبَّاهُ. (وذكر الصُّولِىُّ[٣] أنه
دفع إليهما مالَهما كلَّه) فلما صارا الى بَغْدادَ نالا ما أمَّلاَ من الرياسةِ والعِلْمِ.

---

(١) الفضل بن سهل والحسن بن سهل كانا وزيرين للمأمون

(٢) أصل البز الثياب وبائعه بزّار (تاجر مانيفاتورة) والمراد رأى منهما ما لاخبرة له به

(٣) هو أبو بكر محمد الصولى الشِّطْرَنْجى صاحب كتاب الوزراء توفى سنة ٢٨٢ هـ

ثم كَتبا معاً فى دار المأمون فى حالِ غُلُوميَّتهما وصِغَرِ سِنِّهما. ورأى المأمون يوماً أحدَهُما فى الدار يمشى، فقال له: مَن أنت يا غلامُ؟ فقال أنا الناشئُ فى دولتك، المغتذِى بنعمتِك، المكرَّمُ بخدمتك، عبدُك وابن عبدك سليمانُ بن وهْب[1]. فقال المأمونُ: أحسنتَ يا غلامُ.

ثم إن المأمونَ دعا سليمانَ بن وهب، وهو غلامٌ، فأمره أن يكتبَ بين يديهِ كتاباً لم يَبْلُغْ قدرُه أن يَكتُبَ مثله. فحرَّرَه على ما أرادَ المأمونُ على أحسنِ خطٍّ وأصحِّ ضَبْطٍ وأسْهلِ لفظٍ وأجودِ معنى. فسُرَّ به المأمونُ سروراً ظهر عليه. فلما خرج سليمانُ كتب إليه بعضُ إخوان أبيه يقول:

أَبُوكَ كَلَّفَكَ الشأوَ[2] البعيدَ كما ... قِدْماً تكلَّفَهُ وَهْبٌ أبو حَسَنِ

فلستَ تُحْمَدُ إنْ أدْرَكْتَ غايتَه ... ولستَ تُعذَرُ مَسبوقاً فلا تَهِنِ

ولم تزلْ أمورُهما تَنْمِى حتى نالا الوِزارةَ. وبقيت فى أعقابهما مدّة

أمثال على ألسنة الحيوان

مثل الحزم والتردد

زعموا أنَّ غَدِيراً كانَ فيه ثلاثُ سمكات: كَيِّسَةٌ، وأكْيَسُ منها، وعاجزة. وكانَ ذلك الغديرُ بِنَجْوَةٍ[3] من الأرض لا يَكادُ يَقْرُبُه أحدٌ. وبقُرْبِه نَهرٌ جارٍ. فاتَّفق أنه اجْتازَ بذلك النَّهْرِ صيَّادان، فأبْصَرَا الغدير. فتواعَدَا أنْ يَرْجِعا

---

(١) ويروى ان الذى لقيه المأمون فى دار الخلافة هو الحسن بن رجاء الذى صار بعد أحد رؤساء الكتاب (٢) الغاية والمدى (٣) مكان مرتفع

إليه بشِبَاكِهما، فيَصِيدَا ما فيه مِنَ السَّمَكِ. فسَمِعَ السَّمَكاتُ قَوْلَهُما. فأمَّا الكَيِّسَةُ فلَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهما ارْتابَتْ بهما، وتَخَوَّفَتْ منهما، فلم تُعَرِّجْ[1] على شيء حتى خرجَتْ من المكان الذى يَدخُلُ فيهِ الماءُ من النهر إلى الغدير. وأمَّا الكَيِّسَةُ الأخرى فإنها مَكَثَتْ مكانَها حتى جاء الصَّيَّادان. فلمَّا رأَتْهُما وعَرَفَتْ ما يُرِيدان ذهَبَتْ لتَخْرُجَ منْ حيْثُ يدْخُلُ الماءُ، فإذا بهما قد سَدَّا ذلك المكانَ. فحينئذٍ قالَتْ: قد فرَّطْتُ. وهذه عاقِبَةُ التَّفْريطِ. فكيف الحِيلَةُ على هذه الحال؟ وقلَّما تَنْجَعُ حيلةُ العَجَلَةِ والإرْهاق[2]؛ غيرَ أنَّ العاقلَ لا يقْنَطُ مِنْ منافِعِ الرَّأْى، ولا يَيْئَسُ عَلَى حالٍ، ولا يَدَعُ الرَّأْىَ والْجَهْدَ. ثُمَّ إنها تَماوَتَتْ فطَفَتْ عَلَى وَجْهِ الماءِ مُنْقَلِبَةً عَلَى ظَهْرِها تارَةً وتارةً على بَطْنِها. فأخَذَها الصَّيَّادَان، فوضَعاها على الأرْض بَيْنَ النَّهْرِ والْغَدِيرِ. فوَثَبَتْ إلى النَّهْرِ فنَجَتْ. وأمَّا العاجِزَةُ فلَمْ تَزَلْ فى إقْبالٍ وإدْبارٍ حتى صِيدَتْ

عاقبة الشره والحرص

زَعَمُوا أنَّهُ خرَجَ ذاتَ يَوْمٍ رجلٌ قانِصٌ، ومَعَهُ قَوْسُهُ ونُشَّابُه، فلَمْ يُجاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ حتى رَمَى ظَبْيًا، فحَمَلَهُ ورَجَعَ طالِبًا منْزِلَهُ. فاعْتَرَضَهُ خنزيرٌ بَرِّىٌّ، فرَمَاهُ بنُشَّابَةٍ نفَذَتْ فيه. فأدْرَكَهُ الخنزيرُ، وضَرَبَهُ بأنْيابِه ضَرْبَةً أطَارَتْ مِنْ يدِهِ القَوْسَ، ووَقَعَا ميِّتَيْنِ. فأتَى عَلَيْهِمْ ذئْبٌ، فقَالَ: هذَا الرَّجُلُ والظَّبْيُ والخنزيرُ يَكْفِينى أكْلُهُمْ مُدَّةً؛ ولكنْ أبْدَأُ بهذا الوَتَرِ فآكُلُهُ، فيكُونُ قُوتَ يَوْمى. فعالَجَ الْوَتَرَ حتى قطَعَهُ. فلَمَّا انْقَطَعَ طارَتْ سِيَةُ[3] القَوْسِ، فضَرَبَتْ حَلْقَهُ فمَاتَ

---

(١) أى لم تقف (٢) الضيق والعسر (٣) سية القوس طرفها المنحنى

عاقبة فضول الكلام

زعموا أنَّ غديراً كانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ، وَكانَ فيهِ بطَّتانِ. وَكانَ فى الغديرِ سُلَحْفاةٌ بينها وبينَ البطَّتينِ مودَّةٌ وصداقةٌ. فاتَّفقَ أنْ غِيضَ[1] ذلك الماءُ، فجاءتِ البطَّتانِ لوَداعِ السُّلَحْفاةِ، وقالتَا: السَّلامُ عليكِ! فإنَّنا ذاهبتانِ عنْ هذا المكانِ لأجلِ نُقْصانِ الماءِ عنه. فقالتْ: إنَّما يَبينُ نُقْصانُ الماءِ على مثلى؛ فإنّى كأنّى السفينةُ لا أقدِرُ عَلَى العيْشِ إلاَّ بالماءِ. فأمَّا أنتُمَا فتقدِرانِ عَلَى العيْشِ حيْثُمَا كُنتُمَا، فاذْهبَا بى معكُمَا. قالتَا لها: نعمْ! قالتْ: كيفَ السَّبيلُ الى حَمْلى؟ قالتَا: نأخُذُ بطرَفَىْ عُودٍ وتَقْبِضينَ بفيكِ عَلَى وَسَطِهِ، وَنطيرُ بكِ فى الجوِّ. وإياكِ إذَا سَمِعْتِ النَّاسَ يتكلَّمُونَ أن تنطقى. ثمَّ أخذَتَاها، فطَارَتَا بها فى الجوِّ. فقالَ النَّاسُ: عَجَبٌ! سُلَحْفاةٌ بين بطَّتينِ قد حَمَلتَاهَا! فلمَّا سَمِعَتْ ذلك قالتْ: فقَأَ اللهُ أعْيُنَكُمْ أيُّها النَّاسُ! فلمَّا فتحتْ فاها بالنُّطقِ، وَقعتْ عَلَى الأرْضِ فماتَتْ

صبر الملوك

قال الإمامُ محمدُ بنُ ظفرٍ الصقلّى فى كتابه «سُلْوان المُطاعِ»

صَبْرُ الملوكِ عبارةٌ عن ثلاثِ قُوًى: القوةُ الاولىَ قوَّةُ الحِلْمِ، وثمرتُها العفوُ، والقوّةُ الثانيةُ قوَّةُ الكِلاءةِ[2] والحفظِ، وثمرتُها عمارةُ المملكةِ، والقوةُ الثالثةُ قوةُ الشَّجاعةِ، وثمرتُها فى الملكِ الثَّباتُ. وأما ثمرتُها فى حُماةِ المملكةِ

---

(١) نَضَب وجفّ (٢) مصدر كَلأَ بمعنى حفظ

من المُقاتِلةِ فالإقدامُ فى المعارِكِ . ولا يُرادُ من المَلِكِ الإقدامُ فى المُكافَحةِ ؛ فإن ذلك من الملكِ تهوُّرٌ وَطَيْشٌ وتغريرٌ[1] وإنما شجاعةُ المَلِك ثباتُه حتى يكون قُطْباً للمُحاربين ، ومَعْقِلاً للمُنهزِمين . وهذا ما دام بحضرته مَن يَثِقُ بذِبِّه عنه ودِفاعِه دُونَه وحمايتِهِ له . فلقد ذكروا عن الفُرْس أن فِيلاً هاج فدخلَ قصرَ كِسرَى أنُوشِرْوانَ (والفيلُ اذا هاج نكِرَ سُوَّاسَه ، ولم يثبُتْ له شىءٌ إلاَّ أتى عليه) قالوا : وإن ذلك الفيلَ قصَد مجلساً كان فيه كِسرَى ، وكان فيه جماعةٌ من كُفاةِ أصحابه . فلما رأى الذين مع كِسرى أن الفيلَ قصدَهم فرُّوا من المجلس ، وثبتَ كسرى على سريره ، وثبتَ معه رجلٌ كان مكيناً عندَه يَثِقُ بثباتِه . فقامَ ذلك الأُسْوارُ[2] بين يدَىْ سَرِيرِ كسرَى ، وبيده طَبَرْزِينٌ[3] . وقصده الفيلُ ، فثبت له حتى غشِيَه ، فضربه بالطَبَرْزِينِ على فِنْطِيستِه[4] فكرَّ الفيلُ راجعاً من حيثُ جاء ، وقد نالتْ منه الضربةُ مَنالاً شديداً ، وكسرى لم يتحلحَلْ[5] من مَجْلسه ، ولا تغيَّرَتْ هيئتُه ، ولا فارقته أُبَّهَتُه . فهذه غايةُ الشجاعةِ المطلوبةِ من المَلِك . فإن لم يكن بحضرة الملك مَن يثِقُ بدَفْعه عنه حَسُنَ منه حينئذٍ أن يَذُبَّ عن نفسه : إما بالإقدام على العدوّ إن غلَب على ظنه الامتناعُ منهم بالإقدام عليهم ، وإمَّا بانهزامه اذا أتاه ما لا قِبَلَ له به ، وأشفقَ من عَطَب رعيته بهُلْكِه : كما حُكِىَ أن مُوسى الهادى كان يوماً فى بُسْتانٍ ، ومعَه أهلُ بيتِه وبِطَانتُهُ ، وهو راكبٌ

---

(١) أى مخاطرة بنفسه (٢) الأُسوار القائد من الفرس أو الرامى بالسهام منهم

(٣) الطبرزين والطبَر آلة للقتال شبه فأس الاَّ أن رأسه قائم لا مستعرض وهو المسمى (البلطة) (٤) فنطيسة الفيل ونحوه خرطومه (٥) يتحرك

على حِمارٍ ، وليس معه سلاح ، فدخل عليه حاجبه فأخبره أن رجلاً من الخَوَارج جِيءَ به أسيراً . وكان الهادى حريصاً على الظفَر به ، فأمر بإدخاله فأُدخِلَ بين رجلَين قد أمْسكا بيديه . فلما رأى الخارجىُّ الهادىَ جذَبَ يدَيْه من الرَّجلَين اللذَين كانا يُمسكانِه ، واختَرطَ[1] سيفَ أحدهما ووثَبَ نحو الهادى . ولما رأى ذلك مَنْ حَوْلَ الهادى من أهلِه وخاصَّته فروا جميعاً ، وبقِيَ الهادى وحده ، فثبتَ على حماره بمكانه ؛ حتى اذا قرُب الخارجىُّ منه ، وكاد يعلوه بالسيف قال الهادى : اضرِبْ يا غلامُ عنقَه . فالتفتَ الخارجىُّ حين سمِعَ ذلك . ووثب الهادى عن سَرْجِه ، فاذا هو على الخارجىِّ ، والخارجىُّ تحته . فقبضَ الهادى على يَدَيْه ، وانتزعَ منه السيفَ ، فذَبَحَه به ، ثم عاد الى ظهر حِماره . وتراجَعَ اليه خاصَّتُه وأهلُه يتسلَّلون[2] ، وقد مُلِئُوا رُعباً وحياءً . وما خاطبَهم فى ذلك بحَرْفٍ واحدٍ . ولم يكن بعد ذلك يُفارقُه سيفُه ، ولم يركبْ الاَّ الخيلَ

وقد جلا لك هذا الخبرُ ما أيَّدَ الله بهِ موسى الهادى من ثبات الجأشِ[3] وأصالة الرأى وشدَّةِ الكَيْدِ[4] وشجاعة القلب والبدن (رحمه الله تعالى)

---

(١) اختَرط السيفَ استلّه (٢) تسلل انطلق فى استخفاء أى ذهبوا اليه مواجهين له خجلاً منه (٣) الجأش فزعُ القلب واضطرابه

(٤) الكيد الخديعة والمكر

حياةُ الحيوان[1]

يتكوَّنُ هذا الوجودُ مِن كائناتٍ حيَّةٍ وغير حيَّةٍ. فالكائنُ الحيُّ كلُّ ما تعاوَرَهُ[2] التجدُّدُ والفناء، وتوقَّفَ بقاؤه الموقوتُ على التنفس والغذاء؛ والحيُّ هو الحيوانُ والنباتُ، وغيرُهُ هو الموات: مِنَ الجمادِ والسائل والصعَّادِ. ونأتي في كتابنا هذا على نُبْذَةٍ يسيرةٍ من أحوال الكائناتِ مبتدئين بأرْقاها وهو الحيوانُ

الحيوانُ كلُّ ذي رُوحٍ. وتمتازُ حياةُ الحيوان من حياةِ النباتِ بالحِسِّ والحركةِ الإراديةِ لِطَلَبِ الغذاءِ أو النجاةِ

وإنَّ هذا العالَم الذي نعيشُ فيهِ ليَضُمُّ بين أرْجائه من ألوفِ ألوفِ الحيوان المختلفةِ الشكول والألوان ما لا نكادُ نعرفُ عنه شيئاً؛ ولكنَّ اللهَ تعالى حثَّنا على التفكُّرِ في خلقِ هذه الكائناتِ لعلَّنا نقفُ بأنفسِنا على بعضِ أسرارِ تركيبها ونُعوتها وأحوال معايشها؛ وفي ذلك ما يكشفُ الغطاء عن مقدارِ منزلةِ الإنسان في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويزيدُنا إيماناً بقدرةِ الخالقِ الحكيم، ويُزوِّدُنا من الحِكْمةِ والعبرةِ والموعظةِ الحسنةِ بما يُقرِّبُنا من الخيرِ، ويهدينا سواءَ السبيل

ويرى الناظرُ في أحوال الحيوان أنَّه على كثرةِ تعدُّدِ أنواعِه مؤلَّفٌ من طوائفَ متميزٍ بعضُها من بعضٍ، يجمعُ أفرادَ كلٍّ منها شيءٌ من الشبهِ.

---

(١) قد اطلع على هذه المقالة حضرة الأستاذ ميخائيل فرج بك مدرّس علم التاريخ الطبعي بمدرسة المعلمين السلطانية وأقرَّ بصحة ما فيها من الحقائق العلمية (٢) تداوله

ففى طائفةٍ منها يَجدُ لِكلّ قدمٍ خمسَ أصابعَ أو مَخالِبَ تُقابِلُ فى الإنسان أصابعَ اليدين والرِّجلين : كالقِرَدَةِ والكلاب . وفى أُخرَى يَجِدُ بها أربعَ كالخنزير وفَرَس النهر . وفى أخرَى ثلاثاً كالكركَدَّن ، ويجد فى الحيوان المجترّ ، وهو ذواتُ الظِّلْفِ : مِنَ البَقَرِ والغَنَمِ ونحوها اثْنَتين[1] ، وفى ذوات الحَافِرِ من الخيل والحَمِير واحدة . ويَرَى فى غيرها أَنْ قد اسْتحالَتْ أصابعُ الحيوان أو مَخالِبُه آلاتِ طيَرانٍ شبيهةً بالأَجنحةِ ، كالخفافيش

ثمَّ هُو يَرَى منها ما تكونُ أَسْنانُها مُذرَّبَةً[2] كأكثرِ أكلةِ اللَّحم ، وما تكونُ أسْنانُها قواضِمَ وطواحِينَ كأكلةِ العُشْبِ والحُبوب ، ومِنْها ما طالَتْ ثَناياها ، وأُعِدَّتْ لقَرْضِ الخَشبِ ونحوِه كالجِرْذانِ[3] والأَرانِب ، وما ليْس لَها أَسْنانٌ كالضفادع ، وما طالَتْ ثناياها العليا كالفِيَلَةِ

ويَرَى مِنْها ما كُسِيَتْ جُلودُها شَعرًا كالمَعِز ، وما كُسِيَتْ صُوفًا كالغَنَم وما كُسِيَتْ وبَرًا كالإِبلِ ، وما كُسِيَتْ رِيشًا كالطَّيْر ، وما كُسِيَتْ حَرْشَفًا كالسَّمكِ ، وما كُسِيَتْ ذَبْلًا[4] كالسَّلاحِفِ والتَّماسِيح ، وما كُسِيَتْ قِشْرًا كالسَّراطِين ، وما كُسِيَتْ صَدَفًا كذواتِ المحار من الوَدَع والحلازِين ، وما خُلِقَتْ بادِيَةَ الأديم[5] كالضفادع والديدان

ويَرَى منها القَرْناءَ[6] والجَمَّاءَ ، والمُجْتَرَّةَ وغيرَ المُجْتَرَّةِ ، وما تَلِدُ وما تَبيض ، وما تَنْقَسِمُ عَلَى نَفْسِها : مما لا يُحصِيه عَدَدٌ ، ولا يَحْلُوه نَعْتٌ . فسُبحانَ خالِقِها الحكيمِ العليم .

---

(١) وعدد أصابعها الفطرية أربع بعدّ الزَّمَعتين وهما الهَنتان البارزتان فوق الظِّلف

(٢) حديدة (٣) جمع جُرَذ وهو الفأر الكبير (٤) جلد السلحفاة ونحوها مما كُسِيَ بمادة قرنية (٥) الجلد (٦) ذات القرون والجماء الخالية من القرون

وقد قسّمها العلماء جميعَها قِسمَين عظيمين : فِقْرِيّ وغير فِقْرِيّ

فالفِقرِيُّ كلُّ ما له هيكلٌ عظميٌّ يقومُ أساسُه على الصُّلْب . والصُّلْبُ (ويُسمَّى فى العُرْفِ العَمودَ الفِقرِيَّ أو سِلْسِلةَ الظَّهْر) مَجْمُوعُ فِقارٍ أى عِظامٍ أُسطوانيةٍ مثقوبة الى جانب منها مُتضامَّةٍ طولاً بحيثُ يتكوَّنُ منها سلسلةٌ قابلةٌ للانْحِناء قليلاً أو كثيراً، ويَمْلأُ جوْفَها نُخاعٌ يتفرَّعُ منهُ كثيرٌ مِنَ الأعْصاب تنقل الارادة والإحساس من الدماغِ لأعضاء الجسم

وغيرُ الفِقرِيّ ما لَيْسَ له هيكلٌ عَظْميٌّ

وتَحْتَ هذَيْنِ القِسْمَيْنِ أقسامٌ صغيرةٌ تُسمَّى أصْنافاً

فالحيوانُ الفِقرِيُّ خمسةُ أصْنافٍ وهى : —

(١) الحيوانُ الثَّدْيُّ — وهو الذى يَلِدُ ويُرضِعُ صِغارَهُ . ويكسو جلده شعرٌ كثير أو قليل

(٢) الطُّيورُ — وهى كلُّ ما كُسِيَ بالرِّيش، ولا يَلِدُ بل يَبيضُ، فالخُفَّاشُ ليس بِطَيْرٍ وإنْ طَارَ؛ لِأنَّه يَلِدُ . والنَّعامُ طَيْرٌ وإن لم يَطِرْ لأنَّهُ يَبيضُ

(٣) الزَّواحِف — وهى مِمَّا يَبيضُ ويُغطى جلده ذَبْلٌ صفيقٌ أو رقيق

(٤) ذَواتُ الحَياتَيْن (المائِيَّةِ والهَوائِيَّةِ) — وهى تَبيضُ، وقَبْلَ أنْ يَكمُلَ تكوينُها تَمُرُّ بأطوارٍ مِنْ ضُرُوبِ الخِلْقةِ: كالضَّفادِعِ، وهى عاريةُ الأدَمَةِ

(٥) السَّمك — وهو يَعيشُ فى الماءِ، ويَكتفِي بِاسْتنشاق الهَواءِ الذَّائِبِ فيهِ بالخَياشِيم . وجلده مغطًّى بالحَرْشف ؛ فالْبالُ وفرَسُ البَحر لَيْسَا بسمَكٍ وإنْ سَبَحا فى الماءِ لأنَّهما يَتنفَّسانِ بالهواء الجوِّيّ ، ولَهُما رِئَتانِ، ولا يَبيضان بل يَلِدان

أمَّا الحيوانُ غيرُ الفقريِّ فعلى أصْنافٍ كثيرةٍ :

(١) منْها الحيوانُ الرِّخْوُ — ويُحيطُ بجسمِه غِشاءٌ رقيقٌ يُسَمَّى البُرْنُس وهو ذوات المحار والأصداف من الحلازين والوَدع والدُّلَيْنِس (أُم الخلول)

(٢) ومنها الحيوان القِشْرى كالسراطين وجراد البحر

(٣) ومنها العناكب والعقارب ، ولها ثمانية أرجل

(٤) ومنها الحشَراتُ — وهى التى لها ستُّ أرْجُلٍ وأرْبَعةُ أجنِحَةٍ

(٥) ومنها الديدان

ولِكلٍّ مِنَ الأصناف المتقدِّمةِ أقسامٌ صُغرى تُسَمَّى طبَقاتٍ تمتازُ كلُّ طبَقةٍ منها عن الأُخْرى بفُروقٍ فى تركيبها تَقِلُّ فى الظُّهورِ عن الفُروق التى تُميِّزُ كلَّ صِنفٍ عن الآخرِ ؛ فمَثلاً مِنَ الطَّبقاتِ التى يتألَّفُ منها صِنفُ الحيَوانِ الثَّدْيِيِّ طبَقةُ السِّباعِ المفترسةِ ، وهى تتَميزُ مِنْ غيرِها مِن طبَقاتِ الحيَوانِ الثَّدْيِيِّ بشكلِ أنيابِها العُصْلِ [1] وأضراسِها الحَديدةِ ؛ لأنَّ أسنانَها لم تُعَدَّ لِمضْغِ لحُومِ فرائِسِها بل لِنَهشِها وتَجْريدِها مِنْ عِظامِها . ومِنْ طبَقاتِ صِنفِ الحشَراتِ الخَنافِسُ والجمْلانُ . وهى تمتاز بأنَّ جَناحَيْها العُلْوِيَّيْنِ صُلبانِ ، ولا عَملَ لهما إلاَّ وقايةُ الجَناحَين السُّفْلِيَّيْنِ عند عدمِ اسْتِعمالِهما

على أنَّ كلَّ هذا التقسيمِ لا يَكْفِى ؛ فإنَّ كثيراً مِنَ السِّباعِ المفترسةِ يَختلِفُ بعضُه عن بَعضٍ مِنْ وُجوهٍ عِدَّةٍ ؛ فالضَّبُعُ مثلاً تَختلِفُ اختِلافاً بيِّناً عنِ الأَسَدِ كما يَختلِفُ الأسد عَنِ الذِّئْبِ ، والدُّبُّ عن الفَهْدِ

---

(١) جمع أعصَل وهو الناب الأعوج (٢) جمع جُعَلٍ وهو أبو جِعْران

الايمان بالقضاء والقدر

قال صاحب[١] كتاب عجائب الهند :

من طريف الأخبار ما حدّث به بعض أصحابنا قال : ركبتُ سفينةً من الأُبُلّة[٢] أريدُ بَيْنُونَةَ[٣]، فأخذتْنا الرياحُ والأمواجُ، وزاد الأمرُ علينا حتى نَزَعنا ثيابَنا، ولم يكن عندنا شكٌّ أنّنا تالفون . وكان فى السفينة معنا امرأةٌ معها صَبِيٌّ، وكانت ساكتةً قبل ذلك . فلما اشتدَّ بنا الأمرُ أخذتْ تُرقِصُ الصَّبِيَّ، وتضحَكُ . ولم يكن فينا فضلٌ لخطابها ؛ لأنّا يئسْنا من الحياة . فلما صرنا فى الشطِّ، وأَمِنّا الغَرَقَ قلتُ لها : يا هذه أَمَا تَتَّقينَ اللهَ عزّ وجلّ ! أنت تَرَيْنَ ما حَلَّ بنا من البَلاءِ، وأنّا قد يَئِسْنا من الحياة، وتُرقِصين الصبيَّ وتَضْحَكين، أمَا خِفْتِ الغرقَ كما خِفْنا ! فقالت : لو سمِعتُم حديثى لتَعَجَّبْتُمْ، وما أنكرتُمْ علىَّ صبرى وتهاونى بالغَرَقِ . قلنا لها : حدّثينا . فقالت أنا امرأة من أهل الأُبُلّة، وكان لوالدى صديقٌ من بُنانِيّة[٤] المراكب المختلفة[٥] من عُمانَ الى البَصْرة . وكان إذا وردَ المركبُ الذى هو فيه من عُمانَ نزل الينا، وأقام عندنا أياماً، وأهدى الينا . واذا أرادَ الخروجَ فعلْنا مثلَ ذلك وأهدَيْنا اليه ما يُمكننُا . وكان رجُلاً مَستوراً . فزوَّجنى أبى به، وما مضى غيرُ ثلاثِ سنين حتى تُوُفِّىَ أبى . فقال لى : قُومى حتى أحمِلَكِ الى عُمانَ فان لى بها والدةً وأهلاً، فخرَجْتُ معه الى عُمانَ . وكنتُ مع أهله بها مقدارَ

---

(١) هو بُزُرْك بن شَهْرِيار الناخذاه (الرُّبّان) الرامَهُرْمُزى من أهل القرن الرابع الهجرى (٢) الأبلة مرفأ البصرة (٣) بلدة بالبحرين (٤) يظهر أنهم ملاّحون يُنسبون الى بنانة : محلة بالبصرة (٥) المترددة بين البلدين

أربع سنين، وهو يختلفُ بين عُمانَ والبَصرة. ثم تُوُفِّيَ بعُمانَ بعدَ أن ولدت هذا الصبيَّ بخمسة أشهرٍ. فلما قضَيْت العِدَّةَ لم يَطِبْ لى المُقامُ بعُمان؛ لأن مُقامى إنما كانَ بسببه. فقلت لوالدتِه وأهله: أُريدُ أن أرجعَ الى أهلى بالأُبُلَّة. فقالوا لى: إن أقمت عندنا قاسمناك حياتَنا؛ فليس لنا فى الدنيا غيرُ هذا الصبيِّ. وسألونى الاقامةَ بينهم فأبيتُ. فلما عزمتُ على الخروج اشتريتُ للصبى سَريراً وَثيقاً مِن خَيْزُران، وجعلتُ فيه ثياباً كنتُ قد جمعتُها لى وللصَبيِّ وذخيرةً كنتُ ادَّخرتُها، وغطَّيْتُ ذلك كلَّه وأحكمتُه، وجعلتُ الصبيَّ فوقه، وخرجتُ فى مركب يريدُ البصرة. فبينما نحن كذلك إذْ أخذَنا الخَبُّ[1] فانكسر المركبُ نصفَ الليل، وتفرَّقت الرُّكَّابُ والبُنانيَّةُ فى البحر؛ فلم يَرَ أحدٌ منَّا صاحبَه. وتعلقتُ بلَوْحٍ من الألواح فضبَطتُه، ولم أزل عليه الى نصف النهار من الغد حتى رآنا صاحبُ مركبٍ مُجْتازٍ، فجمعَ منْ الركاب نحوَ عشرةِ أنفسٍ، كنتُ أنا أحدَهم. وحملَنا الى مَركبِه، ونكَسُوا رءوسَنا حتى قذَفْنا الماءَ الذى شَربناهُ فى البحرِ. وسقَوْنا أدويةً، وعالجونا الى الغداة من الغدِ حتى رجَعتْ نفوسُنا إلينا. وأنا قد نَسيتُ ابنى لما أنا فيه، وزال الفكرُ فيه عن قلبى. فلما كان الغدُ قال صاحبُ المركبِ، وأنا أسمع: انظروا هذه المرأةَ ألَها لَبَنٌ؛ فان هذا الصبيَّ الذى وجدناه يموتُ. فقالوا لى: ألَكِ لَبَنٌ؟ فتذكَّرتُ الصبيَّ، فقلتُ: قد كان لى لبنٌ، ومع ما مرَّ بى ما أعلم أنه قد بَقِى منه شىءٌ. فقالوا: أبْصِرى هذا الصبيَّ قبلَ أن يموتَ. فجاءونى بالسَّريرِ، وفيه الصبىُّ بحاله؛ ما فتحوه،

(١) هياج البحر وتيّاره

ولا أخذوا منه شيئاً. فلما رأيتُه وقعْتُ على وجْهى ؛ وصَرَخْتُ وغُشِىَ علىَّ ؛ فرَشُّوا علىَّ الماءَ ، وقالوا : ما أنتِ ؟ فأفقتُ بعد ساعة ، وأقبلْتُ أبكى وأضُمُّ الصبىَّ فقالوا : يا هذه ما لكِ ؟ فقلتُ : هذا الصبىُّ ابنى ! فقام صاحب المركَب إلىَّ ، وقال : هذا ابنُكِ ؟ فأىّ شىءٍ الذى تحتَه ؟ فأقبلتُ أعُدُّ عليهم ما تحته ، وجعلوا يُخرجون شيئاً بعدَ شىء ؛ كأنه انما وُضِعَ الساعةَ . فما منهم أحدٌ إلاَّ بَكَى بُكاءً عظيماً ، وحَمِدوا اللهَ وشكَرُوا له

فأنا التى غرِقْتُ فى ذلك البحر ، وفُرِّقَ بَينى وبَينَ ابنى ، فجَمَع اللهُ بينى وبينه على تلك الصورة أخافُ من هذه الرِّحلة ؟ إن كتَبَ اللهُ علىَّ الغرقَ لم ينفعنى الحذَرُ !

التصوير الشمسى (١)

كان الناسُ قبل أن يعرفوا التصويرَ الشمسىَّ يُلاقون من التصوير بالأدهنة عناءً كبيراً ، ويضيّعون فيهِ زمناً طويلاً ، وكان المصوِّر يَكُدُّ قريحتَه ، ويستفرِغُ جُهْدَه ، ليُخرِجَ مما يُصوِّرُ مثالاً مُطابِقاً له . وقلما كانت الصورةُ تُشبه الأصلَ المنقولةَ هى عنه من كُلِّ وجه. وتبعُد مسافةُ الفرق اذا كان المصوَّرُ إنساناً ؛ فإنهُ لا يقوَى على الجُلوسِ أمامَ المصوِّر ساعاتٍ متواليةً دونَ أن يُحرِّكَ عُضْواً . وليس معنى هذا أن السالفينَ من المُصوِّرين لم يُخلِّفوا لنا صورةً جديرةً بحسن الذكر ، ولا حقيقةً بالثناء ، فإن منهم من برَعَ وأبدع أيَّما

(١) ترجمها المرحوم عبد القادر افندى حسن ونقحها المؤلف

إبداع : مثلُ رُفائيلَ[١] وَفانديك[٢] وغيرهما ؛ وانما المقصودُ أنهُ لم يَبْلُغْ أحدٌ من هؤلاء ببراعته وحذْقِه ومَهارته ونُبُوغِه فى تقريب الصورةِ من أصلها ، وإخراجها على حقيقتها ، ما بلَغه المصوّرون اليومَ باستخدام الأشعةِ الشمسية وإن كانت القيمةُ الفنيَّةُ للتصاوير اليَدَويّة أكبر حظًّا من قيمة التصاوير الشمسيةِ لأن الإبداعَ فيها ينِمُّ عن ذكاءٍ ذاتىّ وعَبْقَريةٍ[٣] شخصية جديرة بالإكبار . ولأن التصوير الشمسى يُتْقِنُه مَنْ يقتصرُ على حفظ قواعده ووَعْيِها وإحكام تطبيقها وإنفاذها . على أن الفطرةَ كانت أسبقَ من الإنسان الى إماطة اللثام عن هذا المخترَع الثمين ؛ لأنها تُجرِّبُه وتستخدمُه منذ خُلقت العيونُ وكُوّنتِ الأبصارُ ؛ إذ العينُ لا تستطيعُ أن ترَى أىَّ مَرْئىّ شاخصٍ أمامَها إلاّ إذا عكستْ أشعّةُ الأضواء الشمسية صورةَ ذلك المرْئىّ عليها . وكذلك يفعل الإنسانُ اليومَ ، فالعينُ التى يصوّرُ بها المرْئىّ هى الآلةُ الشمسية : يُوجّهُها أنّى شاء ، ثم يفتحُ جفْنها ، فترسِمُ فى هُنَيْهةٍ ما كان النقّاشُ يقضى فى رَسْمِه الأيامَ الطوال

وإن من آلاتِ التصوير ما يرسمُ المرءَ سائرًا فى الطريق ، والطائرَ مُحلِّقًا فى السماء ، والسهمَ مارقًا فى الهواء ، والقِطارَ مُنسابًا على الغبْراء ، دُونَ أن يُخِلَّ بإحكامِها إسراعُه ، أو يُقلِّلَ من تحقيقها تحرُّفُه

والتصويرُ ضربٌ من ضروب التفاهُم ، ووسيلةٌ من وسائل التعارُف ؛ فهو فى ذلك كالكلام إلاّ أنهُ أبلغ وأفصحُ ، أو الكتابةِ غيرَ أنهُ أبينُ وأعمُّ ، لأن الناسَ إنما يتمُّ تفاهُمُهم باللغة بعد إحاطتهم بها علمًا ، والغريبُ عنها

---

(١) أعظم مصورى الطليان (١٤٨٥ - ١٥٢٠ م) (٢) مصور فلمنكى اشتهر فى وطنه ثم انتقل الى انجلترة فحظى عند ملوكها (١٥٩٩-١٦٤١ م) (٣) اجادة ونبوغ

لا يُجيدُ الكلام بها إلاّ بعد قتْلها بَحْثاً ودَرْساً. أما لُغةُ التصوير فهى لُغةٌ يفهمُها الناسُ كلهم بفِطرتهم؛ لأنها تُحاكى ما يُدْرَكُ من الأشياء فى عالَم الحِس والمشاهدة

والصورة اذا نظرتَ اليها نظرةً واحدةً أغنتْك عمّا يكتبُهُ المُسْهِبُ فى وَصْف صاحبِها؛ ولربما قرأتَ الوصفَ المطوّلَ فلم تنطبع الحقيقةُ فى ذِهنك، ولم ترتسِمْ فى مُخَيّلتك بمثل ما تنقلُه اليك الصورةُ الشمسيةُ فى طرْفةِ العين

والصورةُ تُخلِّدُ ذكرَ العظماء من الرجال، والمتميّزين من الأبطال، ليقتدىَ الخلفُ بهم فى جلائلِ أعمالهم، ويُطرِّقوا[1] لانفسهم مفاخرَ كمفاخرهم وذكراً كذكرهم. والصورةُ خيرُ ما ينُوب عن وُجوهِ الأقارب والأصدقاء عندَ غِيابهم؛ فهى تحفظُ الصِّلاتِ بينهم، وتُهوِّنُ آلامَ الفِراق عليهم

وقد أُدخِلَ التصويرُ فى كثير من العُلوم، واُستُعِينَ به على اُستجلاء غوامضِ الفُنون، فأتَى بالنفع الكثير، وكان له أثرٌ جليل: أُدخِلَ فى القضاء فاهتدى به ذوُوه الى تتبُّع آثارِ الجُناة الفارّين من وجهِ العَدالةِ، وتمكنوا به من القَبْضِ عليهم، وحمايةِ الناس من شرّهم. فسدَّ هذا الفنُّ فى القضاء ثُلْمةً ما كان يَسُدُّها الوصفُ المسْهَبُ لِملامِح الهاربين من الجانين؛ لتشابُهِ الوجوه

وأُدخِلَ فى علم الفَلَك؛ فصوَّرَ أجرامَ النجوم والكواكب، وبَيَّنَ حركاتِها ومثَّلَ دَوَرانَها بمساعدة المِرْقَبِ مما لم تكن تستطيعُه العينُ البشريّةُ الطول الوقت الذى يستغرقُه رَصْدها، ولِمَا يُصيبُ العينَ من الحَسَر والكَلال فى الشخُوصِ إليها، ويُعجزُها عن تتبُّع سَيْرِها؛ هذا الى قصور الذاكرة فى

(١) طرَّقَ لنفسه جعل لها طريقاً الى الشىء

أغلب الأحيان عن استعادةِ صُورها واستجلاء حقائقها ووقائعها؛ على حين أن الآلةَ المُصوِّرةَ كلّما طالت مدةُ تعريضِها للضوء المعكوس من الصورة المنقولة زادتْ بنسبةٍ خاصة فى تجميع الضوء وتوضيح الشكل

وأُدخل التصويرُ الشمسىُّ فى علم الطب، فأمكنَ به تصويرُ الصُّورِ المكبَّرة لِصغير الأجسام ودقيقها؛ فيكفى طالبَ هذا العلم فى كثير من الأحوال أن يتصفَّحَ صورةً مُكبَّرةً للعُضو الذى يدرُسه، وكأنه نظرَ الى حقيقته من خِلالِ قصبةِ المِجْهَرِ، غير أن الصورةَ الشمسيةَ لا تُكلّفُه من العَناء والنَّفقة والانتباه والعناية ما يُكلّفُه المِجْهَرُ. وقد قُرِنَتِ الآلةُ الشمسيةُ بأشعَّة «رُونْتجِن»[1] فأثبتتْ عَلَى الصُّحُفِ بواطنَ الأجسام، وأبانتْ للعين ما تحت الجلد والعَضَل من هياكل العظام

وزُيِّنتْ بالصُّور الشمسيةِ الطروس[2]، والكتبُ؛ فكانت خيرَ مُعينٍ على توضيح مُعضِلاتِ العلوم وعويصاتِ المسائل بتجسيم حوادثِ القصص

هذا الى ما يجده القارئُ فيها من اللذة والرَّغبةِ، وما تبعثُ فيهِ من المَيْل الى مُتابعةِ المطالعةِ وتتميمِ القراءة، وبخاصة القارئَ الصغيرَ السن السريعَ المَلَلِ. والصورة تنقل اليك مناظرَ الأقطار النائية ومظاهر الأصقاع القاصية وأنت لم تتكلفْ عَناء الأسفار؛ فتصبح كمن شدَّ اليها الرِّحال، ورأى فى السعى اليها المصاعبَ والأهوال

واذا كنا نذكر للتصوير كل هذه الفوائد فلا ننسى اكبرَ آثاره، ولا

---

(١) عالم طبعى المانى ولد سنة ١٨٤٥م واهتدى الى الأشعة المشهورة التى نُسِبَتْ اليه

(٢) جمع طِرْس وهو الصحيفة

يفوتُنا التنويهُ بأعظمِ منافعه وهى « الخَيالةُ » التى لم تقُم لها قائمةٌ الأَ به ؛ إذ هى صورٌ شمسيةٌ تُؤخذُ عن الشىء بصورٍ متعددةٍ مماثلة إياه فى حركاته وسكناته ؛ ثم تُعرَضُ أمامَ الأعين عَرْضاً سريعاً ، فتخالها متحركة ، وتكاد تظنها حقيقة

مُقطَّعات شعرية

أنشودة الطالب النبيل (١)

لا رَوانى النيلُ يوماً مِنْ ظمَا ! ... وتجرَّعتُ (٢) زُعاقاً (٣) علقَما (٤)
وعدَانى (٥) فضْلُ آبائى الأُلَى ... شرَّفُوا العُرْبَ ، وزانُوا العَجَما
إنْ طلبْتُ العِلمَ إلْماماً ، ولَمْ ... أتَّخِذْهُ للمعالى سُلَّما
أو حذَقْتُ العِلمَ لا أشفعُهُ ... بخِصالٍ تتَسامَى كَرَما
أو حمِدْتُ القولَ لا أتْبعُهُ ... بمَقالٍ لِىَ يُتْلَى حِكَما
أو قرأْتُ الكُتْبَ أبغِى سَبَقاً (٦) ... فى امتحانٍ ، ثمَّ أنْسَى كلَّ ما (٧) ...
أنا لا أرغبُ فى العَيْشِ إذا ... كان حَظِّى منه جهْلاً وعَمَى
كيف أشْقَى ، والورَى تسعَدُ من ... قفْوِ آثارِ جُدودِى العُظَما
كيف أستأْهِل (٨) وصْفَ العلْمِ إنْ ... لَمْ يَكُنْ لِى منه حظُّ العُلَما :
أكْرِمُ النَّفْسَ ، وأُعْلِى معْشَرِى ... ثمَّ لا أحْرِمُ مَنْ تحتَ السَّما

---

(١) من نظم المؤلف (٢) شربتُ بَلْعاً (٣) الزعاقُ الماء المرُّ الغليظُ لا يُطاق شُربُه (٤) العلقمُ هنا أشدُّ الماء مرارةً (٥) تجاوزنى (٦) السبَق خطرُ السباق : أى الجائزة . والمُراد بها شهادةُ النجاح فى الامتحان (٧) فيه اكتفاء بالموجود عن المحذوف : أى أنسى كل ما قرأتهُ (٨) اكون أهلاً : أى أستحِقُّ

حلم وآداب

قال أبو تمّام حبيبُ بنُ أَوْسٍ الطائىُّ الشاعر المشهور المُتوفّى سنة ٢٤١ هـ :

إذا جارَيْتَ فى خُلُقٍ دَنِيئًا ... فأنتَ ومَن تُجاريه سواءُ
رأيتُ الحُرَّ يجتنبُ المَخازى ... ويَحميه عن الغدْرِ الوَفاءُ
وما مِن شدَّةٍ إلّا سيأتى ... لها مِن بعْدِ شِدّتها رَخاءُ
لقد جرَّبتُ هذا الدهرَ حتى ... أفادتْنِى التجارِبُ والعَناءُ
إذا ما رأْسُ أهلِ البيتِ ولّى ... بدالهمُ مِن الناسِ الجفاءُ
يعيشُ المرءُ ما اسْتحيا بخيرٍ ... ويبقَى العُودُ ما بَقِىَ اللِّحاءُ[1]
فلا واللهِ ما فى العيشِ خيرٌ ... ولا الدّنيا إذا ذهبَ الحياءُ
إذا لم تخشَ عاقبةَ الليالى ... ولم تستحْىِ فاصْنعْ ما تشاءُ

فضل الغنى

قال أعرابىّ من باهلة[2] :

سأُعمِلُ نصَّ العِيسِ[3] حتى يَكُفَّنِى ... غِنَى المالِ يَوْمًا أو غِنَى الحَدَثانِ[4]
فَلَلْمَوتُ خيرٌ مِن حياةٍ يُرَى لها ... على المرءِ ذى العلياءِ مسُّ هَوانِ
متى يتكلَّمْ يُلْغَ حُكْمُ مَقالِهِ ... وإنْ لَمْ يَقُلْ قالُوا : عديمُ بيانِ
كأنَّ الغِنَى فى أهلِهِ (بُورِكَ الغِنى) ... بغيرِ لسانٍ ناطقٌ بلِسانِ

---

(١) لحاء عودِ الشجرةِ قشرُهُ . وبه تكون حياةَ الشجرة . أى إن الانسان يكون حسن العيش مع الناس ما دام الحياء غالباً عليه . فاذا زال زال الخير عنه

(٢) احدى قبائل العرب المضرية (٣) النصُّ السَّيْرُ السريع. والعِيس جمع عيساء وهى الناقة البيضاء (٤) الحدثان غِيَرُ الزمان ونوائبه . كنّى بها عن الموت : أى سأرحل فى طلب الرزق حتى يغنينى عن الرحلة المالُ أو الموت

سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو شَيْخُ المُسلمين، وأوَّلُ الخُلفاء الراشدين، مَوْلانا وقُدْوَتُنا أبو بَكْرٍ عبدُ اللهِ الصِّدّيقُ بْنُ أَبى قُحافَةَ عثمانَ بنِ عامِرٍ وينتهى نسبه الى تَيْمٍ أحد بطون قريش

وكان اسْمُه فى الجاهِلِيَّةِ عبدَ الكَعْبَة؛ فسمَّاه رسولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) عبدَ اللهِ، وسمَّاه عَتيقاً

وُلِدَ قَبْلَ البَعْثِ بنَحْو ٤٣ سنة. ونَشَأَ بمكةَ المُكرَّمةِ. واحترفَ بالتِّجارَةِ كأَكْثرِ قُرَيْشٍ؛ وأَخَصُّ ما كان يتَّجِرُ فيه البزازةُ (بيعُ الثياب). وكان صَديقاً لِرسولِ الله قبلَ البَعْثِ؛ فلمَّا بُعِثَ (صلى الله عليه وسلم) كان أبو بَكْرٍ أوَّلَ الرجالِ الأحْرارِ إسْلاماً. وأَخَذَ يُصَدِّقُ النبىَّ فى كلِّ ما جاءَ به بلا تَرَدُّدٍ؛ فَسُمِّىَ «الصدّيقَ» لِذلك. وأيَّدَ الإسلامَ بمالِهِ وحُسْنِ رَأْيِه واستمالةِ الناسِ إليه؛ لأنَّه كان صَدُوقاً أَميناً لَيِّنَ الجانبِ طَيِّبَ الحَديثِ مُحَبَّباً إلى قَومِهِ عالِماً بأيَّامِهم وأنْسابِهم؛ فكان يجتمِعُ اليه لذلك كِرامُ قَوْمِهِ. فجَعَلَ يدعو مَنْ يَثِقُ بِهِ منهم إلى الإسلامِ؛ فأسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ عُثمانُ بنُ عَفّانَ والزُّبَيْرُ بنُ العَوّامِ وعبدُ الرحمَن بنُ عَوْفٍ وسَعْدُ بنُ أبى وَقّاصٍ وطلحةُ ابنُ عُبَيْدِ اللهِ. وهؤلاءِ همُ السابقون الأوَّلون. ثم فَشَا الإسلامُ بعدَ ذلك.

وكان يَشْتَرِى المَوالِىَ الَّذينَ يُسْلِمُون، ويُعَذِّبُهم أرْبابُهم لإسلامهم؛ ومِنْهم بِلالُ بنُ رَبَاحٍ، الذى صار بَعْدُ مؤذِّناً لرسول الله

وما زال رضى اللهُ عنه خَيْرَ صاحبٍ لِرسولِ اللهِ حتى أمَرَ اللهُ النبىَّ بالهِجْرةِ

إلى المدينةِ المنوَّرةِ، فهاجرَ معه إليها، وأقامَ معَه فى الغارِ ثانىَ اثْنَيْنِ. ثمَّ أقامَ بالمدينةِ، يُصَدِّقُ رسولَ الله ويُؤَيِّدُه. وزوَّجَه ابْنَتَه أمَّ المؤمنينَ السيِّدةَ عائشةَ (رضِىَ اللهُ عنها). وحضرَ معه المَشاهدَ والغزَوات. ولمَّا مرِضَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) مرَضَ الموْتِ استخلفه علَى الناسِ فى إمامةِ الصَّلاةِ، وهىَ الإمامةُ الكُبرَى، فكانَ ذلِك مِن أهمِّ الأسباب فى تَوْليتِه إمامةَ الولاية بعدَه. وماتَ رسولُ اللهِ فكانَ أجلدَ الناسِ لفراقِه وأربطَهم جأْشاً وأشدَّهم تثبُّتاً؛ فصار خيرَ قُدوةٍ لأصحابِ رسولِ الله فى تخفيفِ جزَعِهم؛ حتى انتفعَ بذلك عُمَرُ بنُ الخَطاب

ثم أظهرَ مِنَ الحزْمِ والعزْمِ هو وصاحِبُه عُمَرُ (رضى الله عنه) حِينَ افْتِتانِ الناسِ يَوْمَ وفاةِ النبىِّ ودُعاءِ الأنصارِ إلى بَيْعةِ خليفةٍ منهم وميْلِ بنِى هاشمٍ إلى أن تكونَ الخِلافةُ فيهم ما جَمَعَ المسلمينَ على تلْبيةِ دَعْوتِه ومبايعتِهم بالخِلافة له. فجمعَ كلمتَها واشتدَّ فى إنفاذِ ما كان يُريدُه (صلى الله عليه وسلم) مِن فتحِ ممالكِ كِسْرَى وقَيْصَرَ. وأوَّلُ عَملِه بعدَ تَولِيةِ الخلافةِ إنفاذُ الجَيْشِ الذى كان رسولُ الله جهَّزَه قبيْلَ مرضِ الموتِ لغزْوِ أطرافِ بلادِ الرُّومِ بقيادةِ أُسامةَ بنِ زَيْد مَوْلى رسولِ الله. فذهبَ الجيشُ وغزا أطرافَ الشامِ، ورَجَع غانماً

ولما تنبَّأ كثيرٌ مِن شياطينِ العربِ، وارتدَّتْ جماهيرُهم عَنِ الإسلامِ إلاَّ أهلَ المدينةِ ومكَّةَ والطائفِ، ومنَعتِ العربُ الزكاةَ، وهىَ من أركانِ الإسلامِ، دعا (رضى الله عنه) المُسلِمين إلى غزْوِهم وحمْلِهم على الإسلامِ وتأديةِ الزَّكاةِ، على قِلَّةِ مَنْ بقِىَ مُخلِصاً لله مِنَ المُسلِمين، وهم أهلُ المُدُنِ

الثلاث . فنصحه أكابرُ الصحابةِ ألاَّ يهيجَ العربَ ويجمعَهم على عداوته ، ومنهم عمرُ وعليٌّ (رضى الله عنهما) فقال : والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدُّونه لرسولِ الله لقاتلتُهم عليه . فكان رأيُه أصوبَ الآراء فى هذه الكارثة ؛ فما ساق جيوشَه الصغيرةَ على هؤلاء المتنبئين والمرتدين حتى أظهرَ اللهُ دينَه ، وخذلَ أهلَ الضلال ، ورجعتِ العربُ الى الإسلام خاضعين نادمين . فرأى أن الفرصةَ قد حانتْ لتحقيق بشارةِ النبىّ لفتحِ الممالكِ ، فجمع بضعةً وأربعينَ ألفَ مقاتل ممَّنْ لم يدخلْ قلبَه ردّةٌ — وكان أكثرُهم من قريشٍ وثقيف — وبعثَ بعضَهم لغزوِ الفرسِ وبعضَهم لغزوِ الرُّوم . ففتحَ اللهُ على الأوّلين اكثرَ سِقْى الفراتِ ، وعلى الآخرينَ مشارفَ الشامِ وفلسطينَ حيثُ وقع بينهم وبينَ الفرسِ والرُّومِ من الوقائع ما لم يفلحوا بعدها فى موقعةٍ مع المسلمين

ومات (رضى الله عنه) وجيوشُه تحاصرُ دمشقَ ، وتهدِّدُ المدائنَ ، ويُجبَى إلى المدينةِ ومكةَ ثمراتُ القطرَيْنِ وبدرُ الذهب والفضةِ من المملكتين : مِمَّا حملَ الناسَ على حبِّ الغزوِ ، ومهَّدَ للخليفةِ عمرَ من بعده طريقَ الفتحِ ، وأن يسوقَ بقيةَ العربِ على المملكتين ، ويتمَّ تأسيسَ تلك الدولةِ العربيةِ العظيمةِ التى شادت من مُلكها الضخمِ فى أقلَّ من قرنٍ ما لم تشدْه دولةٌ قبلَها ولا بعدَها ، ونشرتْ من الدِّين والعلومِ والفنونِ فى الأرض ما جعلَها من أكرمِ الأممِ أثراً ، وأمجدِها تاريخاً وأشرفِها ذِكْراً

فعلَ كلَّ ذلك أبو بكرٍ فى أقلَّ من ثمانيةٍ وعشرين شهراً ؛ فكان بذلك المجدِّدَ لدينِ اللهِ والمؤسِّسَ الأوَّلَ لدولةِ الإسلام . فجزاه اللهُ عن المسلمين خيرَ الجزاء .

وتُوفِّيَ (رحمه الله) بالحُمَّى لِثمان ليالٍ بَقِينَ من جُمادَى الآخرةِ ليلةَ الثلاثاءِ سنة ١٣ هـ. وأوصَى أن يُكَفَّنَ فى ثَوْبَيْهِ — وقال: الحَيُّ أحْوَجُ الى الجديدِ من المَيِّتِ — وأن يَرُدَّ أهْلُه ما أخذَه من بيتِ المالِ نفقةً له مُدَّةَ وِلايتِهِ، ونزَلَ لبيْتِ المالِ فى مقابلِ هذا النفقة عن حائطٍ (بُستانٍ) كان له. وكان له من الفَيْءِ[1] عبدٌ يخدُمُه وبَعيرٌ يَسْتقِى عليهِ، فأوصَى بردِّهما الى بيتِ المال، فقبلَهما عُمَرُ

وكان (رحمه الله) أبيضَ خفيفَ العارضين أقْنَى غائرَ العَيْنين، مَقرونَ الوَجْهِ[2]، نحيفاً يخضِب بالحِنّاءِ والكَتَمِ[3]

الشجاعةُ أمانٌ لصاحبها

روَى صاحبُ كتابِ الفرج بعد الشدّة عن رجل كُرْدِيٍّ شجاعٍ يُعْرفُ بأبى على كان قد انْحازَ إلى عِمْرانَ بن شاهين الكُرْدِى — وهو فاتكٌ يقودُ طائفة من اللصوص اشتهرَت بقطع الطريق فى جبال الكُرْدِ — قال: خرجْنا مرَّةً بالجبال فى أيام مَوسِمِ الحج، وعدَدُنا سبعون رجلاً من فارسٍ وراجلٍ، فاعترَضْنا الحاجَّ الخراسانيةَ. وكان لنا عَينٌ[4] من القافلة، فعادَ وعرَّفنا أن فى القافلة رجلاً من أهل شاشٍ[5] وفَرْغانةَ معه اثنا عشر جملاً وجارية فى قبَّةٍ[6] عليها حَلْيٌ ثقيلٌ. فجعلنا أعيُنَنا عليه حتى وَثَبْنا عليه، وهو

---

(١) غنائم الحرب (٢) أى ليس بعريض الوجه (٣) الكتم نبات يُخلَط بالحِنّاء ويُخضَبُ به الشعر فيبقى لونه (٤) العينُ الذى يبعث ليتجسس الخبر (٥) بلدة من بلاد ما وراء النهر (ببلاد التركستان) وفرغانة مدينة وكورة تسمى باسمها فى هذه النواحى (٦) هَوْدَج كالقبة

والجارية فى عَمَارِيَّة[١] فقطعنا قِطَارَه، وكتَّفناه وأدخلناه وما معه بين الجبال، ووقفنا على ما معه، وفرحنا بالغنيمة. وكان للرجل بِرْذَون[٢] أصفرُ يساوى مائتَىْ دِرهم، فلما رآنا نريد القُفُولَ[٣] قال: يا فِتْيانُ! هنَّاكم الله بما أخذتم! ولكنَّنى رجلٌ حاجٌّ بعيدُ الدّار؛ فلا تتعرضوا لسُخْط الله بمنْعِى من الحجّ، فأما المالُ فيَذهبُ ويجىء، وتعلمونَ أنهُ لا نجاةَ لِى إلاَّ على هـذا البِرْذَون فاتركوه لِى، فليس يَبِينُ ثمنُه فى الغنيمة التى أخذتموها. فتشاوَرْنا. فقال شيخ مُجرَّب: لا تردّوه عليه، واتركوهُ مكتوفاً هنـا؛ فإن كان فى أجله تأخير فسيُقَيِّضُ[٤] الله له من يَحُلّ كِتافه — فكنتُ فيمَنْ عزَم على هذا — وقال بعضُنا: ما مقدارُ دَابةٍ بمائتى دِرهم حتى نمنعَها رجلاً حاجّاً؟ وجعلوا يرققونَ قلوبَ الباقين حتى سمَحْنا بذلك، فأطلقْناه، ولم نَدَعْ عليهِ الاّ ثوباً يَسْتُره. فقال: يا فتيان! أنتم مَنَنْتم علىّ ورَدَدْتم دَابَّتى، وأخشى اذا أنا سِرتُ أن يأخذها غيرُكم؛ فأعْطونى قوسى ونُشَّابى أذُبُّ بها عن نفسى وفرسى، فقلْنا: لا نَرُدُّ سلاحاً على أحدٍ. فقال بعضُنا لبعض: وما مقدارُ قوسٍ ثمنُها دِرهمان؟ وما نخشَى من مِثل هذا؟ فأعطيناه قوسَه ونُشَّابَهُ، وقلنا: انْصرِفْ. فشكَرَنا ودَعا لنا، ومضَى حتى غابَ عن أعيننا. فما كِدْنا نَسِيرُ، والجاريةُ تبكى؛ حتى كرَّ الرجل راجعاً، وقال: يا فتيان! أنا لكم ناصحٌ؛ فإنكم قد أحسنتم الىَّ، ولا بُدَّ لِى من مُكافأتكم على إحسانِكم بنصيحتى لكم. فقلنا: ما نصيحتُك؟ فقال: دعُوا ما فِى أيديكم وانصرفوا سالمين بأنفُسِكمْ، ولكم الفضل؛

---

(١) العمارية نوع من الهوادج (٢) فرس تركى (٣) الرجوع - أى نريد أن نتركه مكتوفاً (٤) يقدّر

فإنكم مَنَنْتُم على رجلٍ واحدٍ، وأنا أَمُنُّ على سَبْعِينَ رجلاً مِنكم. واذا به قد انقلبتْ عيناه فى أُمِّ رأسه، وخرجَ الزَّبَدُ عَلَى أشداقِهِ كالجَمل الهائج. فهزأنا به وضحِكْنا. فأعادَ علينا النصيحةَ فقال: يا قومُ! قد مَننتُ عليكم، لا تجعلوا لى على أرواحِكم سبيلاً! فزادَ غيْظُنا منه، فقصَدْناه وحَمَلْنا عليه، فانحازَ عنا، ورمَى خمْسَ نُشَّابات كانت بيده، فقتل بها منّا خمسةَ رجال وأخذ خمسَ نُشَّابات أُخَر، وقال: إن جماعتَكم تموتُ على هذا إن لم تُخَلّوا ما فى أيديكم. فلم نزل نُدافِعه، ويقتلُ مِنا حتى قتلَ خمْسِين رَجلاً، وبقِيَ معه بعضُ النُّشَّابُ فى جعْبته. ثم قَتل منا جماعةً آخرينَ. فاضطُرِرْنا الى أن ترجَّلْنا. فحازَ دوابَّنا وحدَه وساقَها قليلاً، ثم رَجَعَ وقال: من رمى بسلاحه فهو آمن، ومن تمسّك به فهو أبصرُ بنفسه. فرَمَينا سِلاحنا. فقال: اذهبوا آمنين، وأخذ جميعَ السِّلاح والدَّوابّ. وفاتَتْنا الغنيمةُ والخيلُ والسلاحُ. وكان ذلك سببَ تَوبتى عن قطع الطريق أنفَةً لِمَا لحقنى منه، وأنا على ذلك الحالِ الى اليوم

العصر الحجرى والعصر المعدنى

من أعجبِ مُشتهَياتِ الإنسانِ وأبلغِها فى إدخال السرور على قلبه مَعْرفتُه بأخبار السابقينَ الأوّلينَ من بَنى جنسه، ووقوفُه على مَعيشةِ أوّلِ من عَمَروا الأرضَ منهم، وكيف كانوا يَحتالون لمُقاوَمةِ عوادِى الخليقة: من حَرٍّ لافحٍ[1] وبَرْدٍ قارس[2]، وسَبُعٍ[3] ضارٍ، وعدُوٍّ مُفاجئٍ، على ما هم عليه من ضَعْفِ قُوَّة

---

(١) محرق (٢) شديد (٣) كلُّ ما يفترس ويأكل فريسته من حيوان البر والبحر يسمى سبعاً

ورقةِ بَشَرةٍ، وتجرُّدٍ من الأصواف والأوبار والأشعار والحَراشِفِ[١] التي يتدثَّر[٢] بها غيرهم من الحيوان

لا شكَّ أن أفصحَ لِسانٍ يُنبِئُنا عن حالهم هو ما دَوَّنوه فى كُتُبهم ونقَشوه على جُدْران مصانعِهم ومعابدهم. وهيهاتَ أن تُخبرَنا الكتابةُ بأبعدَ من خمسةِ آلافِ سنةٍ. وليست هذه الخمسةُ الآلافِ إلاَّ حَلْقةً من سلسلةِ حياةِ الجنس البشريِّ الطويلةِ. فهل وَقفَ الإنسانُ جامداً فى بَيْداءِ القِدَم ومَجاهلِ التاريخ، وهو ذلك المخلوقُ العجيبُ الذى أودعَهُ الله من قُوَّة النظرِ واستنباط المجهول من المعلوم ما أودَعه؟ كلاَّ! إنه بعْدَ أن فاتَتْه قراءةُ أسفار الإنسانِ لم تَفُتْه قراءةُ سِفْرِ الخليقة والآثار؛ فنقَّب وبحَثَ، واستخرج خبايا الأرض ودفائنَ الرُّموس[٣] وودائعَ المغاورِ والكهوف؛ حتى وقف على كثير من أحوال معيشة الإنسان الفطرية، وكيفَ توالتْ عليه الأطوارُ، وتعاقبت الأعصار؛ حتى انتهى بهِ الزمانُ الى عصر التاريخ

ويَظهرُ من تتبُّع آثار الإنسان أن أوَّلَ ما استعانَ بهِ على تذليل صِعاب الحياةِ الآلاتُ الحادَّةُ ليصطادَ بها من الدَّوابِّ ما يأكُلُه، ويَدْفَعَ بها عن السِّباعِ والأناسيِّ[٤] ما يَفْتِكُ بهِ. فوجَد أن بَعْضَ شظَايا[٥] الصخور والعِظامِ وفُروعَ الأشجار وقرون البقر والأوعال[٦] تقوم بحاجته؛ غيرَ أنَّ كثيراً

---

(١) جمع حَرْشَف فلوس السمك وقشره (٢) أى تكون له كالدِّثار وهو ما فوق الشِّعار من الثياب (٣) جمع رَمْس وهو القبر (٤) جمع إنسىّ وهو الواحد من بنى آدم (٥) جمع شَظِية وهى الفِلقة من الصخر (٦) جمع وعِل وهو دابة من صنف الغزال أضخم منه ولها قرون عظيمة

منها لا يفي بها إلاّ بعد شيء من التهذيب والتحسين ؛ فاستعملَ بعضها في إصلاح بعض حتى أصبحتْ عامّةُ آلاتِ قتاله وصناعتِه من الظِّرَّان[١] والعيدان . فاتّخذَ من الظِّرَّانِ أشباهَ سكاكينَ وسيوف، وصنعَ أسنّةَ رماحٍ ونُصولَ سهامٍ ورؤوسَ فؤوسٍ وقواديمَ ومثاقبَ يُركّبُ بعضها في أطراف الهراوى[٢] والقُضبان، ويربطها بسيورٍ من جلود الحيوان . وربّما استعانَ على نقرِ سوقِ الأشجار الغليظة بوضعِ الجمرِ على مكانِ النقرِ حتى يحترقَ ما تحتَه بقدرِ ما يريدُ وأتمَّ النقر بالظِّرَر ؛ فكان أحدُهم اذا شاء أن يصنعَ زورقاً عمدَ الى ساقِ شجرةٍ، فقطعَه بالحرقِ والنقرِ، وجوّفَ جانباً منه كذلك

ويُستدَلُّ على هذا بما عثرَ عليه المنقّبونَ في ناحيةٍ من نواحي برطانيا من قاربٍ تعلوه آثارُ إحراق، وفيه رأسُ فأسٍ من الظِّرَر

وما زال المتوحشون في جزائر المحيط الهادي ينحَوْنَ هذا النحوَ إلى يومنا هذا . وعُثِرَ في جنوبيّ إيقوسيا على هيكلِ رجلٍ في تابوتٍ ردىءِ الصناعة ذراعُه منفصلةٌ من كتفه، وقد نَشِبَتْ في العظمِ المهشّمِ شظيّةٌ من الصوّان. فلا بُدَّ أن هذا الشخصَ أصابته ضربةٌ شديدةٌ بفأسٍ ظِرّ من يدِ رجلٍ أيّدٍ[٣] قويّ الساعد . وقد مضى على ذلك الحادث ألوفُ السنين ونطق ذلك الظِرُّ الصامت بخبره بأجلى بيان . وإن من البقاع ما وُجدَ فيه ألوفٌ من أمثالِ هذه الآلات : مما يدلُّ على أنها كانت ميادينَ لملاحمَ عظيمةٍ

ومن المخلّفاتِ الحجريةِ التي عُرِفَ بها طرَفٌ من أصول مُلك الغابرين

---

(١) جمع ظِرَر : وهي الحجر له حدٌّ كحدِّ السكين (٢) العصيّ الغليظة
(٣) شديد القوّة

وأركان ديانتهم ما وُجدَ فى قبورهم ونواويسهم : من نِصال السهام ، وأَسِنَّةِ الرِّماحِ التى بَلِيَتْ قُضبانُها لِتقادُم العهد عليها . والمظنونُ أن هذه الآلاتِ كانت تُودَعُ قبرَ الميّتِ لاعتقادِهم أنهُ سيبعثُ من مرْقَدِه ، فيلقى عالماً حافلاً بالصيدِ مزدحماً بالمنافسين والأعداءِ ؛ فلا يَلْقَى عناءً فى إعدادِ آلاتٍ جديدة لذلك . وفى دار العادِيَّات بالقاهرة حُجرةٌ ملأى بأنواع الظُّرَّانِ

بعض آلات من العصر الحجرى
١ و ٢ و ٣ آلات قطع فى الطور الاول .
٤ - ٩ آلات مهذبة فى الطور الثانى منها : —
٤ منشار — و ٥ طبر — و ٦ رءوس سهام — و ٧ ازميل و ٨ رأس حربة — و ٩ مطرقة ومقطع

ولقد غبرَ الإنسانُ دُهوراً طويلةً وهو على هذه الحال التى لا تُؤَدِّى إلى تغيير عادة ، ولا تَهْدِى إلى طريق حَضارةٍ ، حتى عثرَ فى بعض بُحوثِه على بَعضِ قِطَعٍ من المعادن ، فاستعملها استعمالَ الظِّرَّانِ بالطَّرْقِ والدَّقِ . ويُظَنُّ أن قد سقطتْ منه مرَّةً قطعةٌ سَهْلَةُ الانصهار كالقَصْدِيرِ والنُّحاس فى نارٍ مُتأجِّجةٍ فانصهرت ، ثم بَعْدَ خُمودِ النار جَمَدتْ وتَشكَّلتْ بشكل آخرَ ؛ فاهتدَى بذلك الى صَهْرِ المعادن . ثم خلطَ القَصْديرَ بالنُّحاسِ فنُتِجَ منهما مَعْدِنٌ أصلبُ مِنْ كِليْهِما . وهو الشَّبَهُ (البُرُنْز) ؛ فانْفتحَ أمامَه بابُ العصرِ المَعْدِنِىِّ . وتوسَّعَ فى استعمال الآلاتِ المعدنيةِ والحُلِىِّ مِنَ الذَّهب والفِضة واستكثرَ منها ، وتعدَّدتْ صناعاتُه ومرافِقُه ، فقطعَ بذلك أوَّلَ مرْحَلةٍ مِنْ

طَرِيقِ الحَضارةِ والعلم . فقطعَ بالمعادن الأحجارَ ونَحتَها وبَنَى منها بُيوتاً ومَصَانِعَ بدَلَ الكُهوفِ والمغاورِ والأكواخِ ، وقطعَ الأشجارَ، فاتَّخذَ منها سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً وكَراسيَّ وأخونةً وموائدَ وصناديقَ وخزائنَ

وتأخَّرَ الإنسانُ فى استعمالِ الحديد لصُعُوبةِ صَهْرِهِ وشِدَّةِ اختلاطِهِ بغيره . ولَمْ يُذَلِّلْ هذه الصُّعوبَةَ إلاّ بَعْدَ أن وقَف على كثيرٍ من أسرار الطبيعة، وتَهيَّأَ له بناءُ الأتاتين (١) الكبيرة، فصَهَرَهُ واستبدلَه بالشَّبَهِ وغيرِه فقطعَ به المَرْحلة الثانيةَ من طريق تَمَدُّنِه

ولقد كان الرُّقِيُّ الذى أحدَثَهُ استعمالُ المعادن فى الصِّناعاتِ مَقْرونًا بالتقدم فى كثير من شؤون الإنسانِ الحَيَوِيَّةِ ، وأغراضه الاجتماعيّة ، وعاداتِهِ القَوْميّة ، وعقائده الدينية . ولَبِثَ فى هذه المَرْحلةِ أُلوفاً من السنين ؛ حتى كشَفَ أسرارَ البُخار والكَهْرَباء والمَغْنَطيسِ والأثيرِ، فقطع المَرْحلةَ الثالثة ؛ ثم طار فى السماء، وغاص فى الماء، وخاطبَ السُّفُنَ الماخرة فى لُجَجِ البحار. ولا يدرِى إلاَّ اللهُ كَمْ بَقِيَ له من المَراحلِ فى طريق حياتِهِ الدنيا

وفاءُ السَّمَوْءَل

من أقوالهم : الوفاءُ ضالّةٌ (٢) كثيرٌ ناشدُها (٣) ، قليلٌ واجدُها، وقالوا : الوفاءُ من شِيَمِ الكِرام، والغَدْرُ من خلائق اللئام . وقالوا : اذا تُرِكَ الوَفاءُ نزلَ البلاءُ

---

(١) جمع أتُّون وهو الموقد العظيم للحمام والجير ونحوهما

(٢) أصل الضالة الناقة التى تضِلُّ عن صاحبها (٣) طالبها

ومن الأمثال فى ذلك « أوفى من السَّمَوْءَل » وهو السموءَلُ بن عادِياءَ اليهودىُّ صاحبُ قصرِ تَيْماءَ[١] المُسمَّى بالأبلقِ الفَرْد

ومن خبرِه أن امرأَ القَيْس الشاعرَ المشهورَ كان قاصداً الشامَ ليخرج منها الى قيصرَ يستنجدُ به على أعدائه. فأودعَ السموءَلَ أدراعَه[٢] وكُراعَه. فماتَ امرؤُ القيس بأَنْقِرَةَ[٣]. فقصدَ السموءَلَ الحارثُ بن أبى شِمْرٍ الغسّانى يطلبُ منه ما كان أودعَه امرؤُ القيس عندَه، فأَبَى أن يُسَلِّمها له، وتحصَّن فى قصره وكان حصناً منيعاً لا يُنال. فقالَ: إن لم تُسَلِّمْها ذبحْتُ وَلدَك (وكان قد أسرَه عندَ نُزوله على القصرِ) فقال: أجِّلْنى الليلةَ. ثم جمعَ أهلَه، واستشارَهم؛ فكلٌّ أشارَ بأن يدفعَ اليه ما طلبَه منه. فلما أصبحَ قال له: ليس إلَى دَفْعها سبيلٌ. فافْعلْ ما بَدَا لك! فذبحَ الملكُ ولدَه، ورَحَلَ عنه. ثم إن السَّمَوْءَلَ وافى المَوْسِمَ[٤] بالأدْراعِ فدفعَها لوَرَثةِ امرئِ القيس

وفيه يقولُ الأعشى يُخاطِبُ شُرَيحَ بن السموءل بن عادِياء من أبيات:

كُنْ كالسموءلِ إذ طافَ الهُمامُ به[٥] فى جَحْفَلٍ[٦] كسوادِ الليلِ جرّارِ
بالأبلقِ الفَرْدِ من تَيْماء منزلُه حِصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدّارِ

---

(١) بلدة أثرية على الطريق بين المدينة وفلسطين؛ كان بها قصر السموءل المسمى بالأبلق الفرد. وقد خربت الآن وبها أطلال أبنية قديمة (٢) جمع درع وهى ثوب من الحديد كالشبكة ضيق النسج صفيقه تلبس كالقميص فتكون وقاية من سلاح العدو. والكراع اسم يقع على الخيل ونحوها من البغال والحمير (٣) مدينة مشهورة بآسيا الصغرى (٤) أى موسم الحج بعكاظ ونحوها من أسواق العرب (٥) أى الملك الهمام يريد به الحارث بن أبى شِمْر (٦) الجحفل الجيش العظيم

فقال: ثُكْلٌ[١] وغَدْرٌ: أنت[٢] بينهما ... فاختر، وما فيهما حَظٌّ لمختارِ

فشكّ[٣] غيرَ طويلٍ، ثم قال له: ... اُقتلْ أسيرَكَ؛ إنّى مانعٌ جارِى

فقال تَقْدِمةً إذ رامَ يقتلُه: ... أشرفْ سَمَوْءَلُ فانظُرْ فى الدّمِ الجارى

أأقتلُ ابنَك صبراً أو تجىء بها ... طوعاً؟ فأنكرَ هذا أىَّ انكارِ

فشكَّ أوداجَه[٤]، والصدرُ فى مَضَضٍ[٥] ... عليه مُنطوياً كاللّذع بالنارِ

واختار أدراعَه من أن يُسَبَّ بها ... ولم يكن عهدُه فيها بختّارِ[٦]

وقال: لا أشترى عاراً بمَكْرُمةٍ ... فاختار مَكْرُمةَ الدُّنيا على العارِ

والصبرُ منه قديماً شيمةٌ خُلُقٌ ... وزَنْدُه[٧] فى الوفاءِ الثاقبُ الوارِى

وفى ذلك يقول السموءَلُ مفتخراً:

وفَيْتُ بأدرُعِ الكِندىِّ[٨]؛ إنّى ... اذا ما خانَ أقوامٌ وفَيْتُ

وأوصَى عادِيا يوماً بأن لا ... تُخَرِّبْ يا سموءَلُ ما بَنَيتُ

بنَى لِى عادِيا حِصناً حصيناً ... وماءً[٩] كلما شئتُ استَقيتُ

وقعت هذه الحادثة قبل الإسلام بنحو ٦٠ سنة

---

(١) أى فقدٌ لولدك أو غدر بعهدك (٢) أى أنت مخير بينهما (٣) أى تردد
(٤) جمع ودَج وهو أحد العرقين اللذين يقطعهما الذابح (٥) المضض وجع المصيبة
(٦) غدار (٧) ما يحدث النار من عُودٍ يُفتل على ظهر عود فيتولد من كثرة الدلك نار. وورِىَ الزَّنْدُ: اتقد بالنار (٨) أى امرئ القيس المنسوب الى قبيلة كندة احدى قبائل العرب القحطانية (٩) أى بئراً ذات ماء

الأقـزام[١]

اذا ذَكَرَ الأَوَّلونَ فى أَساطيرِهم أنَّ مِنَ البَشَرِ قَوماً طِوالَ الأجسامِ كالعَمالِقَةِ، لَمْ يُهملوا فيما دَوَّنوه فى أسفارهم أن مِنَ الناسِ جِيلاً قِصارَ القاماتِ كأقزامِ الزُّنوج ؛ فقد عُثِرَ فى آثارِ المِصريين على قِصَصٍ وصُوَرٍ تَدُلُّ على أن فراعنتهم كانوا يَلْهُونَ بأقزامٍ لَهُمْ، جلبَهم أعوانُهم مِن السُّوادن . وذكرَ بعضُ مؤرخى اليُونانِ وحكمائهم وشُعرائهم من القصصِ والأخبارِ والأشعارِ ما يُؤَيِّدُ وُجودَ أقزامٍ فى عصورهم كانوا يسكنون أوربّة وإفريقية

زنوج اقزام ووراءهم زنوج طِوال لاظهار الفرق

وما زال المتأخرونَ من الأوربيين يَشُكُّون فى صِحَّةِ هذا القَوْل ؛ ويُؤَوِّلُونه بأنّهم إنّما رأوُا القِردةَ الشبيهةَ بالأناسِيِّ ،فظنُّوها إيّاها؛ حتى رَغِبُوا فى الاستعمارِ ، وجابوا

(١) جمع قَزَم وهو الصغير الجثة

القِفارَ والبِحارَ، فرأوْا مِن شُعوبِ الأرضِ وقبائلِها ما جَعَلَ أخبارَ المُتقدِّمينَ صحيحةً فى جُمْلتِها إن لم تكُنْ فى تَفْصيلها

وليسَ الأقزامُ مُختَصِّينَ بصُقْعٍ يَنزِلونهُ مِنَ المعمور أو بِلَوْنٍ لا يكون إلاَّ لِبَنِي جِلْدَتِهم ؛ فإنَّ مِنْهم مَنْ يَسكُنُ الاقاليمَ الاستوائيةَ من أواسطِ إفريقيةَ غربيَّ أوغَنْدةَ، وهم أقصرُ الأقزامِ، ومِنهم مَن يَسكُنُ غربيَّ إفريقية الجنوبية كقبائلِ البُشْمَن والهُوتِنْتُوت، ومنهم من يَسكُنُ شبهَ جزيرة مَلَقَا وفِيلِبِّينَ وجاوَةَ وغانةَ الجديدةَ وجزائرَ أنْدَمان من آسيا. وكلُّ أقزامِ هذه الشُّعوبِ الشرقية سُمرُ الوجوهِ فُطْسُ الأنوفِ جِعادُ الشعور، مِمَّا يَدُلُّ على أن بَيْنَهم وبَيْنَ الزُّنوج نَسَبا وصِهْرا، وإن لم يُماثِلوهُم مِن كلِّ وجْهٍ

ولولا سَباطةُ الشَّعرِ فى أُمَّةِ اللَّابونِ والإسْكِيموسِ سكانِ الأصقاعِ القطبيةِ الشماليةِ لكانت نِسْبتُهم إلى هؤلاءِ أقربَ من نِسْبَتِهم الى الجنس الأصفرِ المُغُولى ؛ لأنهم يكادُون يماثِلونَهم فى قِصَرِ القامة، وإن كانت بَدَانةُ[1] أجسامِهم ووثاقةُ خَلْقِهم[2] تجعلُنا نخصُّهم باسم البَحاتِر[3]

ولِسُيَّاحِ الأوربيين ورُوَّادِهم فى القَرْنِ الماضى أقاصيصُ عنِ الأقزامِ. واكثرُ مَن أفاضَ القولَ فى أقزامِ أواسطِ افريقية هو الرَّحّالةُ إستَنْلِي. ويؤخذ مِنْ أقواله أنَّهم استوطنوا تلك البلادَ مُنْذُ خمسين قَرْنًا، وأنَّهم أهلُ أُلْفةٍ وأَنَفَةٍ ومهارةٍ فى صِناعة الأدواتِ التى يحتاجون اليها، ولاسِيَّما الحِرابِ المسمومةِ، وأن لهم نِظاماً يُوَحِّدُ قَومِيَّتَهم، وأنهُ تَعَرَّفَ بِمَلِكَتِهم فرآها على جانبٍ من اللُّطف والأدب

---

(١) سِمَن (٢) متانة عضلهم (٣) جمع بُحْتُر وهو القصير المجتمع الخَلْق

وقد مرَّ بالقاهرة الضابطُ هريسُن سنة ١٩٠٥ م ، ومعه ستة أقزامٍ من الكُنْغو ، متوسّطُ أطوالِهم ذراعٌ فرَنسيةٌ وثلاثُون عَشيراً[1] ، رآهم الناسُ ودرس أطباءُ قصرِ العَيْنيّ طبائعَ أجسامِهم

أما أقزامُ جزائرِ أنْدَمانَ فأوّلُ كتابٍ علميٍّ كُتِبَ فى أحوالهم وصُحّحَ فيهِ ما قالَهُ العربُ والإفرنجُ كان سنة ١٨٦٠ م ، فذكرَ أوصافاً لهم تُقارِبُ أوصافَ أقزامٍ إفريقية ، وعُرِفَ منه أنّ أقزامَ أنْدَمانَ أطولُ قليلاً وأقلُّ ذَكاءً من الإفريقيينَ . وأنّهم يتّخِذُونَ من أغصانِ الأشجارِ وأوراقِها خِصاصاً . ولم يكونوا وقتئذٍ يعرِفُون الفِلاحةَ ولا استعمالَ جُلودِ الحيوانِ ولا المعادنَ ، ويستعملون مكانها الأصدافَ والظُّرّانَ . وربَّما صنَعُوا بعضَ الآنيةِ من الطِّينِ المُجَفَّفِ فى الشمسِ أو المَشْوِيِّ قليلاً ، وبعضَ القوارِبِ من سُوقِ الأشجارِ المنقورةِ . ويستعملونَ النارَ ولكنّهم لا يَعْرِفون طريقةَ إيرائِها ؛ فيحافِظُون عليها كى لا تنطفِئَ . ومعيشتُهم من صَيْدِ البَرّ والبَحرِ ومِمّا تُخرِجُه جزائرُهم بطبيعتها مِنَ البُقول والثمارِ

ويرى بعضُ العلماءِ أنهم بقايا أهلِ الهندِ الجنوبيةِ ، أجلاهم عنها الأجناسُ القويةُ من أهلِ الشّمالِ

---

(١) العَشيرُ فى قول نقله المصباح أنه : عُشْرُ العُشْرِ : أى جزءٌ من مائة ، وأن المِعشارَ عُشْرُ العشير أى جزءٌ من ألفٍ . وعليه سمَّينا (الدّيسيَ) عُشرا ، و(السَّنْتِي) عَشيرا ، و(المِلّى) مِعشارا

نُبَذٌ من أخبارِ الأذكياء

فراسة ابن طولون

رُوِيَ فى كتاب الأذكياء لابن الجَوْزِيّ[١] أن أحمد بن طُولونَ[٢] جلسَ يوماً فى مُتَنَزَّهٍ له يأكلُ، فرأى سائلاً فى ثَوْبٍ خَلَقٍ[٣]. فوضع يدَه فى رَغيفٍ ودَجاجةٍ وفَرْخٍ وقِطَعِ لَحْمٍ وقِطعةِ فالوذج[٤]، وأمرَ بعضَ الغِلمانِ بمناولته اياها. فرجع الغلامُ وذكر أنه ما هشَّ له. فقال ابن طُولونَ للغلام: جِئْنِي به. فمَثَلَ بين يَدَيْهِ، فاستنطقه، فأحسنَ الجوابَ، ولم يضطربْ من هيبته. فقال له: أحْضِرْنى الكتبَ التى مَعَك، وأصدُقنى عمَّنْ بعثَ بك؛ فقد صحَّ عندى أنك صاحبُ خبر (واستحضرَ السِّياطَ) فاعترفَ له بذلك

فقال بعضُ مَنْ حضرَ: هذا واللهِ السِّحرُ. فقال أحمدُ: ما هو بسِحرٍ؛ ولكنَّه قياسٌ صحيحٌ؛ رأيتُ سوءَ حالِ هذا، فوجَّهتُ إليه بطعامٍ يَهِشُّ الى أكلِهِ الشبعان؛ فما هشَّ له، ولا مدَّ يدَه، فأحضرتهُ، فتلقانى بقوة جأشٍ. فلما رأيتُ رَثاثةَ حالِهِ وقوَّةَ جَنانِهِ[٥] علمتُ أنه صاحبُ خبَر

صدق التحرى

وذكر أيضاً أن مَلِكاً كانت أسرارُه تظهرُ كثيراً لعدُوِّه، فيبطُلُ تدبيرُه على العَدُوّ. فبلغَ ذلك منه[٦]، فشكا إلى أحد نصحائه وقال له: إن

---

(١) تقدمت ترجمته (٢) هو احمد بن طولون أوّل من استبدّ بملك مصر من ولاة الدولة العباسية سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) (٣) بال (٤) نوع من الحلواء تسمى الآن بالعامية (البلوظة) (٥) قلبه (٦) أثّر فيه

جماعةً يطَّلِعُونَ عَلَى أسرارٍ لى لا بُدَّ من إظهارِها لهم، ولستُ أدرِى أيّهم يُظهرها، وأكرَهُ أن أنالَ البرىءَ منهم بما يستحقُّ الخائنُ. فكتب النَّصيحُ أخباراً مِنْ أخبارِ المملكةِ، وجعلَها كَذِباً كلَّها. وقال للملك: أخبرْ كلَّ واحدٍ منهم بخبرٍ على حِدَةٍ لا يظهرُ عليه سائرُ أصحابه. وأُمُرْ كلَّ واحدٍ يستُرُ ما أسررْتَ إليه، واكتُبْ عَلَى كلّ خبرٍ اسمَ صاحبه. فلَمْ يلبثْ أن أظهرَ الخَوَنةُ ما أفشى إليهمْ، وانكتمَتْ أخبارُ الناصحين. فعرَفَ الملكُ مَن يُفشِى سرَّه فخذِرَه

فداء الوطن

وروَى أيضاً أنه خرج عمرُ بن محمد صاحبُ السِّند وأصحابُه يَسيرون فى بلاد العَدوّ، فرأَوْا شيخاً ومعه غُلامٌ. وقد كانَ العَدُوُّ نَذِرَ بهم[1]، وهرب. فقال عُمَرُ للشيخ: يا شيخ! دُلَّنا على قَوْمِك وأنْتَ آمِنٌ. قال: أخافُ إن دَلَلتُك أن يسعَى بى هذا الغلامُ إلى الملِك، فيقتلَنى؛ ولكن اُقتُلْ هذا الغلامَ حتى أدلَّك. فضرَبَ عُنُقَ الغلامِ. فقال الشيخُ: إنما كرِهْتُ إن لم أخبرْك أنا أنْ يخبرَك الغلامُ. فالآنَ قد أمنتُ، واللهِ لو كانوا تحتَ قَدَمِى ما رفعتُها! فضَرَبَ عُنقَه

عجوز تقحم قاضيا

ورُوى فيه أيضاً أن أبا حامد الخراسانى القاضى قال: بَنَى ابنُ عبد السلام الهاشمىّ بالبصرة داراً كبيرةً، ولم يتمَّ له تربيعُها إلاّ بمَسكَن لطيف كان لعجوز

---

(١) عَلِم بهم

فى جِوارِه أُمتنعتْ من بيْعِه. فبذَل لها أضعافَ ثمنه، فأقامتْ على الأُمتناع. فشكا إلىَّ ذلك. فقلتُ هذا من أيسر الأمر! أنا أُوجبُ عليها بيعَه، فأَضطرُّها الى أن تسألَك وَزْنَ الثمن. ثم استدعيتُها فقلتُ: يا هذه! إن قيمة دارِكِ دُونَ ما دَفع لك، وقد ضاعفَها أضعافاً. فإن لم تقبليه حجرتُ عليك؛ لأن هذا تضييعٌ منك. فقالتْ: جُعلتُ فِداك! فهلاَّ كان هذا الحَجْرُ منك على مَن يَزِنُ فيما يساوِى دِرهماً عشرةً وتركتَ منزلى! ما أختارُ بيعه. فانقطعتْ[1] فى يدها.

معاوية وأمه حواء آدم

وقال بَلَغنا أن رجلاً جاء إلى حاجب مُعاويةَ. فقال له: قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك. فقال مُعاويةُ: ما أعرِفُ هذا! ثمَّ قال: أئْذَنْ له. فدخلَ، فقال له: أىُّ الأخوةِ أنتَ؟ فقال: ابن آدم وحواء. فقال: يا غلامُ! أعْطِه دِرهماً، فقال: تعطى أخاكَ لأبيك وأمِّك درهماً؟ فقال: لو أعطيتُ كلَّ أخ لى من آدم وحواءَ ما بلَغَ إليك هذا؟

أمثلة على ألسنة الحيوان

مثل حمامة برى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه

﴿ الحمامة والثعلب ومالك الحزين ﴾

زعموا أن حمامةً كانت تُفْرِخُ فى رأسِ نَخْلةٍ طويلةٍ ذاهبةٍ فى السماءِ؛ فكانتِ الحمامةُ تَشْرَع فى نَقْلِ العُشِّ الى رأسِ تلك النَّخْلةِ، فلا يُمكنُ أن

---

(١) أى انقطعت حجتى ولم استطع مجادلتها لقوة حجتها

تَنقلَ ما تنقلُ مِنَ العُشّ، وتجعلَه تحتَ البَيْضِ الاّ بعد شِدَّةٍ وتَعَب ومشَقَّةٍ لطُولِ النَّخلةِ وسُحْقِها. فاذا فرَغتْ مِن النَّقلِ باضَتْ، ثم حضَنتْ بيضَها فاذا فقَستْ، وأدركَ فِراخُها جاءَها ثعلبٌ قد تعاهدَ ذلك منها لوقتٍ قد علِمَه بقدر ما تنهَضُ فِراخُها، فيقِفُ بأصلِ النَّخلةِ، فيَصيحُ بها، ويَتوعَّدُها أن يَرْقَى إليها، فتُلقِى اليهِ فِراخَها

فبينما هى ذاتَ يوم قد أدركَ لها فَرْخانِ اذ أقبلَ مالكٌ[1] الحزينُ، فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامةَ كئيبةً حزينةً شديدةَ الهَمِّ، قال لها مالك الحزينُ: يا حمامةُ! مالِى أراكِ كاسفةَ اللونِ سيئةَ الحال؟ فقالت له: يا مالكُ الحزينُ! إنّ ثعلباً دُهِيتُ به: كُلَّما كان لى فَرْخان جاءنى يُهَدِّدُنى، ويَصيحُ فى أصلِ النخلةِ، فأفرَقُ[2] منه فأطرَحُ اليه فَرْخَىَّ. قال لها مالكٌ الحزينُ: اذا أتاكِ ليفعَلَ ما تقولينَ فقُولى له: لا أُلقِى إليكَ فَرْخَىَّ! فارْقَ إلىَّ وغرِّرْ بنفسِك! فإذا فعلتَ ذلكَ، وأكلتَ فَرخَىَّ طِرْتُ عنك، ونجَوْتُ بنفسِى

فلما علَّمَها مالكٌ الحزينُ هذه الحيلةَ، طارَ فوقَع على شاطِئِ نَهْر. فأقبلَ الثعلبُ فى الوقتِ الذى عرَف، فوقفَ تحتَها، ثم صاحَ كما كان يفعلُ. فأجابتْه الحمامةُ بما علَّمها مالكٌ الحزينُ. فقال لها الثعلبُ: أخبرينى مَنْ علَّمك

---

(١) مالك الحزين من طير الماء طويل الرجلين والعنق والمنقار مخروطه. قيل إنه «البَلَشون» قال الجاحظ: من أعاجيب الدنيا أمر مالك الحزين؛ لأنه لا يزال يقعد بقرب الماء ومواضع نبعها من الأنهار وغيرها فاذا نشفت يحزن على ذهابها ويبقى حزيناً كئيباً وربما ترك الشرب حتى يموت عطشاً خوفاً من زيادة نقصها بشربه لها (٢) أخاف

هذا ؟ قالتْ : علَّمنى مالكٌ الحزينُ . فتوجَّهَ الثعلبُ حتى أتى مالكاً الحزين على شاطىءِ النهرِ ، فوجدَه واقفاً . فقال له الثعلبُ : يا مالكُ الحزينُ ! إذا أتتْك الريحُ عن يمينِك فأينَ تجعلُ رأسَك ؟ قال عن شمالى . قال : فاذا أتتْك عن شمالك فأين تجعلُ رأسك ؟ قال : أجعلُه عن يمينى أو خلفى . قال : فاذا أتتْك الريحُ من كلِّ مكانٍ وكلِّ ناحيةٍ فأين تجعلُه ؟ قال : أجعلُه تحتَ جناحِى قال : وكيفَ تستطيعُ أن تجعلَه تحتَ جناحِك ؟ ما أراهُ يتهيَّأُ لك ! قال : بلَى ! قال : فأرِنى كيفَ تصنعُ ! فلعمرِى يا معشرَ الطيرِ لقد فضَّلكم اللهُ علينا : إنكُنَّ تدرِينَ فى ساعةٍ واحدةٍ مثلَ ما ندرِى فى سنةٍ ، وتبلغْن ما لا نبلغُ ، وتُدخِلْنَ رءوسَكُنَّ تحت أجْنِحَتِكُنَّ من البَرْدِ والرِّيح ، فهنيئاً لكنَّ ! فأرنى كيفَ تصنع ! فأدخلَ الطائرُ رأسَه تحتَ جَناحه ، فوثَبَ عليه الثعلبُ مكانَه ، فأخذَه فهمزَه همْزةً دقَّتْ عُنُقَه . ثم قال يا عَدُوَّ نفسِه تَرَى الرأىَ للحَمامةِ ، وتُعلِّمُها الحيلةَ لنفسها وتَعجِزُ عن ذلكَ لنفسكَ حتى يَستَمكنَ منك عدوُّك ؟ ثم أجهزَ عليه وأكلَه

مثل آخر العاقل يبلغ بالحيلة ما لا يبلغه بالقوة

يُحكَى أن قُبَّرةً اتخذت أُدْحِيَّةً[1] ، وباضت فيها على طريق الفيل . وكانَ لِلْفيلِ مَشْرَبٌ يتردَّدُ اليه . فمرَّ ذاتَ يومٍ عَلَى عادتِه ليَرِدَ مَوْرِدَه ، فوَطِئَ عُشَّ القُبَّرة ، وهشَمَ بيْضَها ، وقتَلَ فِراخَها . فلما نظرتْ ما ساءَها علِمتْ أنَّ الذى نالَها مِنَ الفيلِ لا منْ غيرِه . فطارتْ فوقعتْ على رأسِه باكيةً ، ثمَّ قالتْ : أيُّها الملكُ ! لِمَ هشَمْتَ بَيْضى ، وقتَلْتَ فِراخِى ، وأنا فى جِوارِك ؟

---

(١) الأدحيّة مبيض الطائر فى الرمل ونحوه

أفعلتَ هذا استصغاراً منك لأمرى واحتقاراً لشأنى ؟ قال: هو الذى حملنى على ذلك ! فتركته وانصرفتْ الى جماعة الطير ، فشكتْ اليها ما نالها من الفيل . فقلْنَ لها : وما عسى أن نبلغ منه ونحنُ طيور ؟ فقالت للعقاعق[1] والغربان : أحبُّ منكنَّ أن تصرنَ معى اليه فتفقأنَ عينيه ؛ فإنى أحتالُ له بعد ذلك بحيلة أخرى . فأجبنها الى ذلك ، وذهبنَ إلى الفيل . ولمْ يزلْنَ ينقُرْنَ عينيه حتى ذهبْنَ بهما ، وبقىَ لا يهتدى الى طريق مطعمه ومشربه الا ما يقعُ[2] من موضعه . فلما علمتْ ذلك منه جاءتْ إلى غديرٍ فيه ضفادعُ كثيرةٌ ، فشكتْ إليها ما نالها من الفيل ؛ قالت الضفادعُ : ما حيلتُنا نحن فى عظم الفيل ؟ وأينَ نبلغ منه ؟ قالت : أحبُّ منكنَّ أن تصرنَ معى الى وهدةٍ قريبةٍ منه فتنققنَ فيها وتضجْجنَ ؛ فإنه إذا سمعَ أصواتكنَّ لم يشكَّ فى الماء فيهوى فيها . فأجبنها الى ذلك ، واجتمعنَ فى الهاوية . فسمعَ الفيلُ نقيقَ الضفادع ، وقد أجهده العطشُ . فأقبلَ حتى وقعَ فى الوهدة فارتطم[3] فيها . وجاءت القبرّةُ ترفرفُ على رأسه . وقالت : أيها الطاغى المغترُّ بقوته ! المحتقرُ لأمرى ! كيفَ رأيتَ عظمَ حيلتى مع صغرِ جثتى عندَ عظمِ جثتك وصغرِ همتك !

مثل صه ينعجل بالعقوبة قبل التأمل فى الذنب

زعموا أن حمامتين ذكراً وأنثى ملأا عشهما من الحنطة والشعير . فقال الذكرُ للأنثى : إنا اذا وُجدَ فى الصحارى ما نعيشُ به فلسنا نأكلُ مما هاهنا

---

(١) جمع عقعقٍ وهو طير أبلق بسواد وبياض (٢) يأكله قمّاً كأنه يكنسُهُ كنساً (٣) وقع ولم يمكنه الخروج

شيئاً ، فاذا جاء الشتاء ولم يكن فى الصحارى شىء رجعنا الى ما فى عشنا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك ، وقالت له : نعم ما رأيت . وكان ذلك الحبُّ نديّاً حين وضعاه فى عشهما . فانطلق الذكرُ فغاب . فلما جاء الصيفُ يبس الحبُّ وانضمر . فلما رجع الذكرُ رأى الحبَّ ناقصاً . فقال لها : أليس كنا أجمعنا رأينا على ألاّ نأكلَ منه شيئاً! فلمَ أكلتِه؟ فجعلتْ تحلفُ أنها ما أكلتْ منه شيئاً ، وجعلتْ تعتذرُ اليه ؛ فلم يُصدِّقْها ، وجعلَ ينقرُها حتى ماتتْ . فلما جاءتِ الأمطارُ ودخلَ الشتاءُ تندّى الحبُّ وامتلأ العشُّ كما كانَ . فلما رأى الذكرُ ذلك ندمَ . ثم اضطجعَ الى جانبِ حمامتِه وقال : ما ينفعُنى الحبُّ والعيشُ بعدكِ اذا طلبتُكِ فلم أجدْكِ ولم أقدرْ عليكِ ، واذا فكّرتُ فى أمركِ وعلمتُ أنى قد ظلمتُكِ ، ولا أقدرُ على تداركِ ما فاتَ . ثم استمرَّ على حزنِه ؛ فلم يطعمْ طعاماً ولا شراباً حتى ماتَ الى جانبها

حياة النبات[1]

النباتُ مخلوقٌ حىٌّ يتغذّى ويتنفّسُ ويفرزُ ويتكاثرُ ويفنى ؛ فهو فى ذلك كالحيوان ، وإن خالفَه فى الحسّ الكاملِ وإرادةِ الحركةِ والانتقالِ من مكانٍ الى مكان

وللنباتِ كسائرِ الأحياءِ أعضاءٌ يؤدّى بها هذه الوظائفَ الضروريةَ لحفظ ذاتِه ونوعِه ؛ غيرَ أن أعضاءَ النباتِ تباينُ من وجوهٍ عدّةٍ أمثالَها فى الحيوان

---

(١) لحضرة الأستاذ محمد شوقى بكير بك مدرس علم حياة النبات بمدرسة الزراعة العليا

كما يختلف بعضُها عن بعضٍ فى النباتِ نفسه . وهـذا الاختلافُ نتيجة الحاجةِ والضرورة الى توْزيع العمل ووظائفِ الحياةِ . فبعدَ أن كان الجسمُ النباتىُّ كلُّه خَلِيَّةً واحدةً تعيش فى الماءِ تُؤدِّى كلَّ هذه الوظائف بذاتِها ؛ كما هى الحالُ فى بعض أنواع الطُّحْلُب ، اقتضت سُنَّةُ اللهِ فى خَلْقِهِ للعالَمِ أطْواراً أن تترَاكمَ طوائفُ من هذه الخلايا ، فتكوّنَ أجساماً مُرَكَّبَةً تكثُرُ حاجاتُ الحياةِ فيها ، وتشتدُّ اختلافاً عن أمثالِها فى الخَلِية الفَرْدةِ ؛ فكان من الحكمةِ الإلهيةِ أن تُوَزَّعَ الأعمالُ على فِرَقِ الخَلايا التى يتألف منها الجسمُ المركب ؛ بحيث تقومُ كُلُّ فِرقةٍ منها بوَظيفـةٍ خاصَّةٍ من العمل : فاختصَّ بعضُها بوظيفةِ امتصاصِ مادّةِ الغِذاء الذّائبةِ فى الماءِ الذى يَعيشُ فيه النباتُ ، وبعضُها بوظيفةِ التنفُّسِ ، وأخرى بوظيفة التكاثُر . فكان هذا التوزيعُ والاختلافُ فى أوْجه الاختصاص بتداوُل الأطوارِ وعلى تطاوُل الأعصارِ مَدْعاةً إلى تباينِ الأعضاءِ وتميُّزِ شُكولِها وهيئاتِها فى النبات الرَّاقى ، ليُلائِمَ كلٌّ منها حالَ العملِ الذى أُعِدَّ له . فصار يتركبُ مِنْ جَذْرٍ يختصُّ بامتصاصِ الغِذاءِ ، وأوْراقٍ تختصُّ بالتنفُّسِ ، وأزهارٍ تختصُّ بالتكاثر ، وساقٍ تحمل ما فوق الجذر

فالجَذْرُ هو أُرُومةُ النباتِ وأصلُه الغائرُ فى الأرض ، لتثْبيتِه فيها ولامتصاصِ الغِذاءِ من أغوارِها . وتنتهى الجُذورُ بأطرافٍ دقيقـةٍ صُلبةٍ تنضَحُ سائلاً حامضاً يُذيبُ دقائقَ المعادِنِ والأحجارِ ، فتمتزجُ برطوبةِ النبات ، وتصيرُ غِذاءً صالحاً له . وبهذه الخاصّةِ العَجيبةِ تنقُبُ أسنَّةُ الجذورِ الدقيقةُ ما يعترضُها من كَديدٍ[1] الأرض ، وتغورُ فيها باحثةً عن غِذائِها ؛ ولذلك كانت رءوس الجُذورِ فى حالةِ تَجدُّدٍ وفَناءٍ دائِبَيْنِ

---

(١) أى غليظها

ولم يقف الإبداعُ فى الجذور الى هذا الحدّ، بل تنوعتْ أنواعاً شتَّى: فكانت ليفيَّةً متشعّبةً كما فى القمح والذُّرة الشاميّة، وخشبيةً وتديةً كما فى القطن، ودرَنيةً محوريةً وغيرَ محوريةً كما فى الجزر والفُجْل، وكان منها ما يمتصُّ الغذاء من العناصرِ الأرضيةِ التى يُذيبُها الماءُ كأكثرِ النبات الرَّاقى، ومنها ما يستمدُّ غِذاءَهُ من الماء وحدَهُ كالعدَسِ المائىّ، وما يطولُ حتى يصيرَ أطولَ من شجرته، وبخاصَّةٍ جذور أعشابِ الصحارَى

ولما كان بعضُ الأعضاء كالأوراق والأزهار والثِّمار فى النباتِ الرَّاقى كثيرَ العَدَدِ لم يكنْ فى طاقةِ الجذرِ أن يقومَ وحدَه بوظيفةِ حمْلِها وتوزيعِ الغذاءِ عليها وتوجيهها الى جهاتِ الضَّوْءِ ومَهابِّ الرِّيحِ الضَّروريَّين لحياةِ النبات جعلَ اللهُ السَّاقَ كفيلةً بكلِّ ذلك، ونوَّعها على حسَبِ الفِطرةِ التى فطَرها عليها: فكان منها السُّوقُ الخشبيةُ العظيمةُ كسُوقِ الأشجارِ المُعمَّرةِ، ومنها السُّوقُ الغضَّةُ اللدْنةُ أو الرِّخوةُ كسُوقِ العشْبِ والبَقْلِ؛ ومنها الشُّعاعيَّةُ التى لا تستقلُّ بنفسها وتستندُ على أجسامٍ أُخرَى كالكَرْمِ، ومنها ما تضطجعُ على الأرض كالبطّيخ والقرْع، وما تكونُ مدفونةً فى الأرض: إما على شكْلِ دَرَنٍ نَشَوىٍّ كتُفّاحِ الأرضِ (البطاطس) والقُلْقاس، واما على غير ذلك

وإذا تأمَّلْنا فى سُوقِ بعضِ الاشجارِ وأغصانِها وجدْنا عليها نواتئَ مُغلَّفةً بعضُها فى آباطِ الوَرَق، وبعضُها عند عُقَدِ القَصْباء، تُسمَّى البراعِمَ، ويُسمِّيها العُرفُ بالأزرارِ والعيونِ. وما هى إلّا جَنينُ الفرْعِ من الشجرةِ يخرُجُ بساقٍ وورَقٍ وثمَرٍ

ومتى قطعْنا ساقاً خشبيةً قطْعاً مُستعرِضاً، رأيناها مكوَّنةً من عِدَّةِ

طبقات : هى اللِّحاء الظاهرُ، فالخشبُ الكاذبُ، فالخشبُ الصادقُ، فالنُّخاعُ فى الوسط . وتدُلُّ لفائفُ الخشب عَلَى عُمْرِ الشجرة

وساقُ النخيلِ وفصيلتِه تُسَمَّى بالجِذْع .

ومانُسمّيهِ بالأَغصانِ هو فروعٌ منَ الساق.

ومنَ النبات ما لا ساقَ له ظاهرةٌ ، ويُسمَّى « نَجْماً » ، وما له ساقٌ ظاهرةٌ ويُسمى « شجراً »

جذور العدس المائى جذرا الفجل والقمح

والأوراقُ هى أطرافٌ مسطحة يتمُّ بها بعضُ وظائفِ النباتِ الضرورية لحياته كالتغذية والتنفس ؛ فتكون بمثابةِ الرِّئتين والمَعِدةِ فى الحيوان ، وتُتِمُّ وظيفةَ الجذور بتنمية جِرْمِ النبات ؛ وذلك أنّ لها غِشاءً رقيقاً كالأَدَمَةِ فى جِلْدِ الإنسان ، ذا مَسامَّ يَمتصُّ رُطوبةَ الجوّ لَيْلاً ونهاراً ، ويجتذِب منَ الهواء الحامِضَ الفَحْمِىَّ نهاراً ، وينفُثُ فضولَهُ ليلاً ، ويستنشقُ المُزْكِىَ (الاكسجين) ليلاً ؛ وينفثُه نهاراً . ولذلك لا يُحمَدُ المَبيتُ فى وَسَطِ البساتين والغاباتِ ، ويُحمَدُ التروُّحُ بينها فى النهار

وللشمسِ فى ذلك أثرٌ بالغٌ ؛ فهى التى تَمُدُّ الأوراقَ بالمادّةِ المُلَوِّنةِ الخضراء التى بدونها يذبُلُ النباتُ ويموتُ

ولم يقلَّ تَنَوُّعُ الوَرَق عن غيرِه من أعضاء النبات ؛ فورقةُ الموز عريضةٌ

طويلة كاملة ، وورقةُ نَخيل التَّمْر (السَّعَفة) مُتَشَعِّبَةٌ خُوصاً ، وورقةُ الأثْلِ جُمانةُ سُلوكٍ وأَهْدابٍ ، وورقةُ القُطن ذاتُ فُصوصٍ خمسةٍ ، وغير ذلك من الأشكال التى لا تُحصَى

والأزهارُ من أدَقِّ أعضاء النبات تركيباً . ووظيفتُها تَوْليدُ البَذْرِ والثَّمَرِ

والزهرةُ فى الغالب مؤلَّفة من أربعِ طِباقٍ بعضُها فوق بَعْض : الكِمِّ والنَّوْرِ والمِئْبرِ والمتأبِّر

فالكِمُّ — هو الغِلافُ الأخضرُ الظاهرُ الذى يكونُ وِقايةً للزَّهْرةِ قبلَ تَفَتُّحِها

والنَّوْرُ — هو الأوراقُ البديعةُ اللَّونِ التى تَلِى الكِمَّ وتَنْبعِثُ منها غالباً روائحُ خاصَّةٌ ، ووظيفتُها إغراءُ الحشراتِ من النحل والذُّباب والفَراش بالحِطِّ عليها لبَهْجَةِ ألوانِها وذكاءِ رائحتها ، وما يكونُ أسفلَها أحياناً من الرُّطوبات العَسَلِيَّة

والمِئْبرُ — هو خُيوط دقيقةٌ تنتهى برءوسٍ تُسمَّى « المَتْكَ » يَنْتَشِرُ منها غُبارُ اللَّقاح

والمتأبِّرُ — هو عُودٌ يقومُ على قاعدةٍ هى « المَبِيضُ » ، ويحمِلُ هذا العودُ رأساً لَزِجاً يلتَصِقُ به ما يَتناثَرُ من غُبار اللقاح . ومن المبيض تنشأُ الثمرة والبذرة

والغالبُ أن يكونَ المِئبرُ والمتأبِّرُ فى زَهرةٍ واحدةٍ ، وقد يكونُ كلٌّ منهما فى زهرةٍ مستقلةٍ من أزهار الشجرةِ الواحدة ، وقد يكونُ المِئبرُ فى شجرةٍ والمتأبِّرُ فى أخرَى ، فتُسمَّى الأُولَى مذكرةً والأُخرَى مؤنَّثةً كما فى أشجار النَّخيل . وللرياح والحشَرات عَمَلٌ عظيمٌ فى نشرِ اللقاح ، وخاصةً لقاحَ الأشجار التى تجمَعُ المِئبرَ والمتأبِّرَ . أما النَّخيلُ فإذا كُثُرتِ المذكرةُ منها بَينَ

المؤنثة كانت الرياحُ والحشراتُ كفيلةً بنقْل اللقاح ، وإلاّ وجبَ التلقيحُ الصِّناعِيُّ بنقْل طلْع المِئْبَرِ إلى المُتأبِّر . واذا تمَّ التلقيحُ تذبلُ الزهرةُ ، ويتَّجهُ كثيرٌ من غِذاءِ النبات الى المَبيض فينمو ، وتتكوَّنُ منه الثمرةُ والبَذْرةُ

والثمار هى فى الحقيقة البذورُ التى يتوالَدُ بها النباتُ ويتكاثرُ . وهذه البذور منها ما يكتسى بغِلافٍ لَحْميٍّ غليظٍ كالتُّفَّاحِ والكُمَّثْرَى والنارَنْجُ الحُلْو (البرتقالىُّ) والمَوز ، أو متوسطٍ كالبَلَح والعِنَبِ ، أو لِيفيٍّ رقيق كما فى القَمْح والذُّرةِ

ويشتركُ الإنسانُ وغيرُه من الحيوان فى الانتفاع بهذه الثمار ؛ فيأكل لُبَّها ، كالبُنْدُق واللَّوْزِ والجَوْز وسائر الحبوب ، أو غِشاءها اللحمىَّ الحلوَ كأكثر الفواكه ؛ وتكون البذرة مجتمعة أو ذاتَ فِلْقين

وتحتوى عَلَى الجنينِ النباتىِّ الذى ينبُتُ فى الأرض بعد أن تتمَّ مُدَّةُ حَضَانته ، فيخرُجُ نباتاً من نَوْعه الأوّل

والضوءُ والماءُ والحرارةُ الملائمةُ والهواءُ المُطلَقُ من أهمِّ أركانِ حياةِ النبات ؛ وقد يُصْبحُ السَّماد ركناً هاماً اذا فقَدتِ الأرضُ بعض العناصر التى تُكوِّن جِرْمَ النبات

ولبعض أنواعِ النبات شىءٌ من الحِسِّ والإرادةِ لا يصلانِ به إلى حدِّ الحيوانِ ؛ فلا

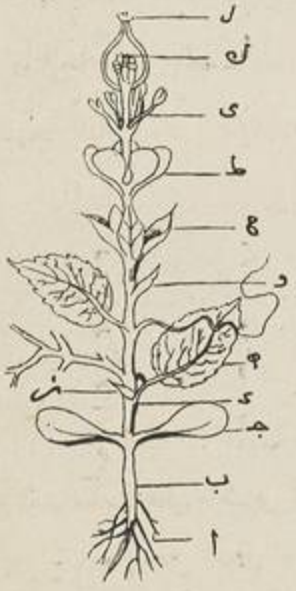

شجيرة خيالية جامعة لاعضاء النبات
(ا) شعبة جذر ليفية (ب) جذر (جـ) فلقا بذرة (د) ساق (هـ) ورقة (و) عسلوج (ز) برعم (ح) كم (ط) نور (ى) مئبر (ك) متأبر (ل) ميسم المتابر

نَزالُ نُشاهِدُ فصائلَ من النبات تُوَلِّى وجهَها شَطْرَ الضَّوْءِ والشمسِ حيثما كانا ؛ كأنَّ لها عُيونًا لا تُحبُّ الظُّلمةَ، كالخُبّازَى وعَبّادِ الشَّمْس ؛ وفصائلَ أخرى تُغْمِضُ جفونَها إذا خيَّمَ الليلُ، أو اشتدَّ البردُ كأنما تَنْعَمُ بلذَّةِ الكَرَى ؛ فإذا أشرقَت الشمسُ تنبَّهَتْ من غفلتِها، واستيقظَتْ من رَقْدَتِها، لتبْتهِجَ برُؤيتِها، وتدفأَ بأشعَّتِها، كالنِّيلُوفَر ؛ ونرَى بعضَ الفصائلِ ينكمِشُ من اللَّمس، فيطوى أوراقه بأسرع مِمَّا تدخل الحلازينُ قُرونَها فى محارها. ويُشاهَدُ فى النبات المتسلِّقِ أنه يُحرِّكُ عَساليجَه تحريكا غريبا ؛ حتى لتحسَبُه يرْتادُ مَوْضِعًا يحُطُّ عليه. ومن النبات ما إذا وقعتْ على أوراقه حشرةٌ أطبقَها عليها ؛ فلا تَنْفتحُ حتى يمتصَّ رطوبتَها غذاءً له، فهُوَ يُشبهُ فى ذلك الحيوانَ القوِىَّ، يظفرُ بالضعيف، فيعْدُو عليْهِ ويفترسُه

الجُندىّ الأمين

حكى أبو بكر الطَّرْطُوشىّ[1] فى كتابِه « سِراج الملوك » قال: أخبرنى أبو الوَليد الباجِى[2] عن أبى ذَرٍّ الهَرَوىّ قال: كنتُ أقرأُ على الشيخ أبى

---

(١) هو الفقيه الورِع المُحدّث ابو بكر محمد بن الوَليد الأندلُسىّ من أهل طرطوشة وكانت مدينة عظيمة بشرقى الأندلس أخذ العلمَ عن ابى الوليد الباجى وغيرهم ثم رحل الى المشرق ودخل العراقَ والشامَ ومصر ثم أقام بالأسكندرية ونشر العلم بين أهلها ومات بها سنة ٥٢٠ هـ وقبره بها مشهور يزار

(٢) الفقيهُ المحدث أبو الوليد سليمانُ بن خَلَف من أهل باجة من مُدن الأندلس. دخل المشرقَ ولقِىَ أباذَرّ بن احمد الهرَوىَّ المحدث بمكة وأقام معه بها نحو ثلاثة أعوام ومات بالأندلس سنة ٤٧٤ هـ

حَفْصٍ عُمَرَ بنِ شاهِينَ ببَغدادَ جُزْءًا مِنَ الحديث فى حانوتِ رجلٍ عطّارٍ. فبينما أنا جالسٌ معه فى الحانوتِ إذْ جاءه رجلٌ من الطَّوّافِينَ مِمَّنْ يبيعُ العِطْرَ فى طَبَقٍ يحمِلُه على يَدِهِ. فدفَعَ اليهِ عشرةَ دراهِمَ، وقال له: أعْطِنى بها أشياءَ سمّاها له مِنَ العِطْرِ، فأعطاهُ إيّاها. فأخذها فى طبقِهِ، وأرادَ أن يَمضِىَ، فسقطَ الطبقُ من يدِهِ فكُبَّ جميعُ ما فيه. فبكى الطوّافُ وجزِع؛ حتى رحِمناهُ. فقال أبو حفصٍ لصاحب الحانوت: لعلَّك تُعينُه على بعضِ هذه الأشياءِ. فقال: سمعاً وطاعةً! فنزَلَ وجمع له ما قَدَر على جمعه منها، ودفع له ما عَدِمَ منها. وأقبلَ الشيخُ على الطوّافِ يُصَبِّرُه، ويقولُ له: لا تجزَعْ؛ فأمْرُ الدُّنيا أيْسَرُ من ذلك. فقال الطوّافُ: أيُّها الشيخُ ليْسَ جزَعِى لِضياعِ ما ضاع؛ لقد علِمَ اللهُ تعالى أنى كنتُ فى القافلةِ الفُلانيّة، فضاع لى هِمْيانٌ فيه أربعةُ آلافِ دينارٍ، ومعَها فُصُوصٌ قيمتُها كذلك، فما جزِعْتُ لضَياعِها إذ كان لى غيرُها مِن المال، ولكن وُلِدَ لِى ولَدٌ فى هذه الليلةِ، فاحتاجتْ أمُّه إلى ما تحتاج إليه النُّفَساء، ولم يكن عندى غيرُ هذه العشرةِ الدَّراهِمِ فخشِيتُ أن أشترىَ بها حاجةَ النُّفَساء، فأبقَى بلا رأسِ مال، وأنا قد صرتُ شيخاً كبيراً لا أقدِرُ على التكسُّب. فقلتُ فى نفسى أشترى بها شيئاً مِن العِطْرِ، فأطوفُ به صدْرَ النهار؛ فعسَى أنْ أستفضلَ شيئاً أسُدُّ به رَمَقَ أهلى، ويبقَى رأسُ المالِ أتكسَّبُ به، واشتريت هذا العِطرَ، فحِينَ كُبَّ الطَّبَقُ علِمتُ أنه لم يبقَ لى إلاّ الفِرارُ منهم. فهذا الذى أوجب جَزَعى

قال أبُو حَفْصٍ: وكان رجلٌ مِن الجُندِ جالساً إلى جانبى يَستوعِبُ الحديثَ. فقال للشيخ أبى حفص: يا سيِّدى! أريدُ أن تأتىَ بهذا الرجلِ إلى منزلى.

فظننا أنه يُريدُ أن يُعطيَه شيئاً . قال فدخلْنا الى منزله ، فأقبلَ على الطوّافِ وقال له : عجبتُ من جَزَعِك ! فأعادَ عليه القصةَ . فقال له الجُندِى : وكنتَ فى تلك القافلةِ ؟ قال : نعم ! وكان فيها فلانٌ وفلان . فعَلِمَ الجُنْدِىُّ صِحَّةَ قَوْلِه فقال : وما علامةُ الهِمْيانِ ؟ وفى أىِّ مَوضِعٍ سَقَطَ مِنك ؟ فوصَفَ له المكانَ والعلامةَ . قال الجُندِى : إذا رأيتَهُ تعرِفُه ؟ قال : نعم ! فأخرجَ الجُنْدِىُّ له هِمْيانًا ، ووضعه بين يديه . فحينَ رآه صَاحَ ، وقال : هذا هِمْيانِى واللهِ ! وعلامةُ صحةِ قولى أن فيه مِن الفُصوص ما هو كيتَ وكيتَ . ففتَحَ الجندىُّ الهِميانَ ، فوجَدَه كما ذكرَ . فقالَ : خُذْ ما لَكَ بارَكَ اللهُ لك فيه ! فقالَ الطوّافُ : إنّ هذه الفصوصَ قِيمتُها مِثلُ الدنانير واكثرُ . فخُذْها ، وأنتَ فى حِلٍّ منها ، ونَفْسى طيّبةٌ بذلك . فقال الجُندِىُّ : ما كنتُ لآخذَ على أمانتى مالاً . وأبَى أن يأخذَ شيئاً . ثمَّ دفعَها لِلطوّافِ جميعَها ، فأخذَها ومضى . ودخلَ الطوّافُ وهو مِن الفقراءِ ، وخرجَ وهو مِن الأغنياء

القِـرَدة

القِرْدُ ويُكْنَى أبا خالِدٍ حيوانٌ قبيحٌ مَليحٌ ذَكِىٌّ مُحاكٍ قابلٌ للتأديب وهو أشبهُ بالإنسان فى أكثرِ أحواله من سائرِ الحيوان ؛ فيضحَكُ ، ويطرَبُ ، ويَتناوَلُ بيدِه ، وله خَمْسُ أصابعَ ذاتُ أظافيرَ عريضةٍ تُقابل إبهامُها أربعَها ؛ ويقبَلُ التلقينَ والتعليمَ ؛ ويأنَسُ بالناس ؛ ويَمشى على أربعٍ

مَشْيَه المعتادَ، ويسعَى على رِجْلَيهِ حيناً يسيراً، ولِجَفْنِ عينِهِ الأسفلِ أهدابٌ، ويَغرَقُ فى الماءِ كالآدمىّ الذى لا يُحسِنُ السِّباحةَ

وموطنُ القِرَدةِ الأقاليمُ الحارَّةُ من كلّ القاراتِ إلاَّ أُستراليا. ويقالُ إن فى جبل طارقٍ بأوربّةَ قَطِيعٌ منه

وللقِرَدةِ نِظامٌ فى مَعِيشتها: فيخضَعُ ضعيفُها لقويّها، ويسودُ الجميعَ أشدُّها قوّةً، وأوثقُها خَلقاً، وأحدُّها ظُفُراً وناباً، وليستْ سيادتُه فيها مقصورةً على قهره إياها، بل بدفاعه أيضاً عنها واستماتتِهِ فى منْعِ حِماها وحُسْنِ قيادَتِهِ لها؛ ولذلك يخضَعُ له ذُكْرانُ القطيع، وتخدُمه إناثُه بتَفْلية شعره وحَكِّ ظَهْره

وأنْثَى القُرودِ تحمِلُ من سَبْعةِ أشهرٍ الى تسعةٍ. وتلِدُ ولداً واحداً يُسَمَّى «قِشَّةً». وقلَّما تلد اثنين. وولدُها أملطُ قبيحُ المنظرِ جدًّا، ولكنَّ القِرْدَ فى عينِ أُمِّهِ غزالٌ، فتضمُّه إلى صَدرها وتُداعبه، وتهتمُّ جِدَّ الاهتمامِ بتنظيف بدَنِه من الأذى. وهى أحرصُ على ذلك من كثيرٍ من أُمهات النساءِ. ويكونُ الوَلد فى صغره عاجزاً قليلَ الحركةِ والشُّعور. ثمَّ تشتدُّ أعصابُه ويصيرُ يُحِبُّ اللَّعِبَ مع غيره من صِغارِ القرودِ؛ فتجلِسُ أُمُّه حِيالَه تحرُسُه لئلاَّ يُصيبَه أذًى. واذا مرِضَ سَهِرتْ عليه أكثرَ مما تسهرُ الأُمُّ الرءومُ من النساء على طِفلها، واذا مات تقومُ بجانب جُثتِه، وتنقطِعُ عن الطَّعامِ والشَّراب. وربما ماتت حُزناً عليه وكَمداً

وتنامُ القُرودُ قبلَ ظلامِ الليل، وتستيقِظُ بعد شُروق الشمس، فتصعَدُ إلى رُءوس الصخورِ والأشجار تتشرَّقُ[1] حتى يجِفَّ الندَى عنها. ثم تُفلى

(١) تقعد فى الشمس لتجف وتستدفئ

جلودها وتُنظّفُ أبدانَها ، ثم تغدُو فى طلب غِذائِها ، فلا تعِفُّ عن شىء يُؤكَلُ من أنواع الثمار والجُذور والحبوب والأوراق والطيور والحشرات . وأموالُ الناس مُباحة فى مَذْهبها ؛ فتستحلُّ سَرِقةَ الحُقول والكُروم والبساتين ولا يصُدُّها عنها سُورٌ ولا سِياجٌ . واذا بغتَها[1] أحدٌ ، وهى تنهبُ أموالَ الناس نكصَتْ[2] على أعقابها ، ولاذَتْ بالفِرار . فاذا رأتْ أبوابَ النجاةِ مفتوحةً فذاك ؛ وإلاّ ثارتْ فى وجه طالبها مُتعمّدَةً الدّفاعَ عن نفسها ، ولو كان الطالبُ إنساناً أو فيلاً . ودفاعها مرٌّ كدِفاعِ الجَبان اذا شارَفَ الخطرَ

وقلما تؤثِرُ القِردةُ المشْىَ على الأرض ما أمكنَها الوثبُ على الأشجار . ولقد تتكاثفُ الأشجارُ فى الغابات التى تُقيمُ فيها تكاثُفاً تستطيعُ معه أن تقطعَ عليها المراحلَ الكثيرة ، إلاّ أن يعترضَها جَدْولٌ أو مَسِيلُ ماء ، فماذا تفعل اذاً ، وليسَ لها حظٌّ من السباحة ؟ إنها تجتمعُ كأنها تتشاوَرُ ، ويعلو بينها الصُّراخ ، ثمّ تختارُ موضعاً من المسيل بشاطئيه شجرتان متقابلتان ؛ فيُمسكُ أحدُها بشجرةٍ منها ، ويُمسِكُ آخرُ به ، ويُمسِكُ ثالثٌ بهذا ، وهكذا ؛ حتى تكونَ منها سلسلةٌ تهتزُّ وتترجّحُ كأرجوحةِ الوالى ؛ حتى يصلَ طرفُها فى عُلُوّه الى الشجرةِ الأخرى ، فيمسكُ الأخيرُ بها ، فتكونُ من ذلك قنطرةٌ عجيبةٌ تجوزُها البقيةُ . وإذْ كانت القِردةُ معروفةً بشدة مَيْلِها الى العَبَث والمُداعبة فقلّما يعمِدُ أهلُ القنطرةِ الى السُّكون وقتَ جواز غيرها من فَوْقِها ؛ فلا تفتأُ تخمِشُها بأظافيرها ، وتعضُّها بأسنانِها وتجذِبُ أذنابها رَغمَ ما هى فيه من الخطرِ المُحدِق ، غيرَ أن القردةَ كلَّها تجتازُ النهرَ سالمةً . ثم تتناوَحُ القنطرةُ الى الضّفةِ الأُخرى

---

(١) فاجأها (٢) رجعت

وطوائفُ القرود كثيرة ؛ ولكنها تُقَسَّمُ صِنْفين كبيرَيْن : هما قرودُ العالَمِ القديم ، أى قرودُ آسيا وإفريقيّة وأوربة ؛ وقرودُ العالم الجديد ، أى أمريكا الشمالية والجنوبية . والقسم الثانى منهما يُقَسَّمُ طائفتين : وهما القُرودُ أشباهُ

قنطرة القردة

السناجيب والثعالب ، والقُرودُ المتعاوِيةُ . وكلُّ هذه وطنُها أواسطُ أمريكا من بلاد المكسيك الى بلاد البرازيل . والسِّنْجابيةُ منها حقيرةٌ فى شكلها وحركاتِها ؛ فلا تكادُ تماثِلُ السنجاب خِفَّةً ولا تمشى إلَّا على الأربع . والمتعاوِيةُ أرقى منها كثيراً ، وذنبها طويل قوىٌّ جدًّا يَلْتوِى ويَعلَقُ بالأغصان ؛ فهى

تعتمدُ عليه أكثرَ مما تعتمدُ على أيديها. وتمتازُ بأنها لأسباب مختلفة تتعاوَى فتملأُ الوادىَ صُراخاً

بعض أنواع القرود

وقرودُ العالَمِ القديم تُقسَّمُ طائفتين أيضاً: أشباهِ الكلاب، وأشباهِ الإنسان فالأُولى لها خَطْمٌ[1] طويلٌ وأسنانٌ كأسنانِ ذواتِ الأربع وأذنابٌ كأذناب الكلاب أو هى أطول. وهى أكثرُ القردة وُجوداً. ويسكُنُ السودانَ المصرىَّ منها كثيرٌ. وهى مستكملة مزايا القرود؛ فإن لكلّ قطيع منها قائداً ذكراً

(١) الخطم فى الدوابّ مقدم الأنف والفم

يُدَبِّرُ أمورَها، ويُعَيِّنُ أعمالَ كلِّ واحدٍ منها. وهى تَظُنُّ فى أنفسِها الترفُّعَ عن كل أنواع العجماواتِ حتى على الكلاب، مع ان الكلاب ليست دونَها فَهْماً وذكاءً. ولمشابهةِ يديْها لِيَدى الإنسان تستطيعُ أن تأكلَ بالسكين والشَّوكة، وتصُبَّ الماءَ فى الكُوب، وتشربَ منه؛ وتلبَسَ الثيابَ وتركَبَ الخيلَ، وتتعلَّمَ الحركاتِ العسكريةَ، وتخدُمَ أسيادَها كما يخدُمُهم الإنسانُ

والظاهرُ أن القدماءَ عرَفوا ذلك واستخدموا القرودَ لغاياتٍ كثيرة. قال الدَّميريُّ فى كتابه «حياة الحيوان»: إنَّ ملِكَ النُّوبةِ أهدى إلى الخليفةِ المتوكِّلِ قِرْداً خيَّاطاً وآخرَ صائغاً. وقال: إنَّ أهلَ اليَمَنِ يُعلِّمون القردةَ القيامَ بحوائجِهم؛ حتى إنَّ القصَّابَ والبَدَّالَ يُعلِّمُ القردَ حِفظَ الدُّكانِ حتى يعودَ. وذكرَ أنَّ قرداً ليزيدَ بن معاوية دُرِّبَ عَلَى رُكوبِ الحمير، فركِبَ أتاناً وسابَقَ بها الخيلَ؛ وفى ذلك يقول:

فمَن مُبْلِغُ القردِ الذى سبَقتْ به ... جوادَ أميرِ المؤمنين أتانُ

تعلَّقْ أبا قَيْسٍ بها إن ركِبتَها ... فليس عليها إنْ هلكتَ ضَمانُ

والثانية تُشبِهُ الإنسانَ فى عِظَمِ الجسم ومواضع غزارة الشعرِ وجُملةِ أعضاء الرأس

ومهما زادتْ نباهةُ القرودِ الشبيهةِ بالكلاب لا تَبلُغُ نباهةَ القرودِ الشبيهةِ بالناس التى منها: انسانُ الوَحْش (الشمبَنْزى)، والعِتْرِيسُ[1] (الغُورلا)،

---

(١) العِتريسُ الجبّار العظيمُ الجسم الغضبان والغُولُ الذَّكَرُ. وبه سَمَّينا هذا الوحش لانطباق أكثرِ الوصف عليه ولأن العرب تصف الغولَ فى أشعارها بما يُقارب وصفه

وإنسانُ الغاب (الأورانغ أو تانْنع) وغيرها؛ فان هذه القردةَ إذا رآها الإنسانُ اضْطرَّ أن يعاملَها لا كما يعامل الحيوانَ الأعجمَ بل كما يعاملُ الإنسانَ الناطقَ

فأما القردان الأولان فلونهما أسود أو أغبر، ويعيشان فى السودان الغربى من إفريقية، وهما من فصيلة واحدة، غير أن العِتريسَ أصغر آذاناً وأضخمُ جثَّة وأشرسُ خُلُقاً وأبعدُ من التأديب غايةً

ولإنسانِ الوحش أصواتٌ مَقْطَعيَّةٌ يدُل بها على أغراضِه؛ حتى إن الأولادَ الذين يُرَبَّوْنَ معه يستطيعون أن يفهَمُوا مُرادَه حالاً. وهو يخضَع

العتريس (الغورلا)

انسان الوحش (الشمبنزى)

للإنسان، ويظهر منه أنه يشعرُ بسيادته عليه وارتقائه عنه. ولا يُقِرُّ بهذه السيادةِ لأحدٍ غيرِ الإنسان، بل يَعُدُّ نفسَه أرفعَ من كلِّ الحيوان ولا سيما بقية طوائف القُرود. ويُحِبُّ اللعبَ مع الأطفال وتفحُّصَ الآلاتِ والأدواتِ. وإذا فَهِمَ طريقةَ تحريكها وطُرُقَ استعمالِها طَرِبَ طرَباً عظيماً كأنه كشفَ سِرًّا خفِيًّا. وهو ظريف لطيفٌ، لَيِّنُ العريكةِ؛ تراه تارةً جذِلاً طَرِباً وتارةً حزيناً كئيباً، وقلَّما يتقلَّب

إلاّ عَلَى هاتَيْنِ الحالَتين ويندرُ أن يُشاهَدَ على توسُّط بينهما

وأما صِنفُ إنسانِ الغاب فإنه أكلفُ اللونِ وأكثر بُعْداً من إنسان الوحش فى مشابهةِ الجنسِ البَشرىّ منْ حيثُ الهيكلُ العظمىُّ والنطقُ ، ويعيش على أشجار غابات سومَطْرةَ وبُرنيو

وكلا الصِّنفين شبيهان بالإنسان فى الوقوف أحياناً على القدمَيْن والاستعانةِ بالهَراوَى والحجارة ، وأعضاءِ الهضمِ ، وموضع غزارة الشعر

ويبعدان عنه بكثافةِ شعر الجلد حتى يصيرَ فروةً ، وقِصَرِ فِقار العُنق ، وقلةِ عددِها ، وضَخامتِها ، وضِيق زاويةِ الوجه الآتى من صِغَرِ الدّماغ وجُمجمته ، وطُولِ الساعدين ، ورَبالةِ[1] البطن ، وقَعَسِ[2] الصَّدر ، واندغامِ الخاصِرَتَيْن

هيكل انسان

هيكل عنريس

وعِرَضِ الأنخاذِ ، ودِقةِ عَظمِها وعَضَلِها ، ودِقةِ عَظْمِ الرُّكبةِ ، ومشابهةِ تكوينِ الرِّجل لتكوينِ اليد ، وأن إبهامَها تطولُ وتُقابِلُ الأصابعَ كلَّها ، وأن سُلاميَاتِها[3] تطولُ وتنحنى الى أسفل : مِمّا يُعِدّها لتسلّق الأشجارِ

(١) كِبَرُهُ (٢) خروجه الى الامام وتحدّبه (٣) جمع سُلامَى وهى عُقَد الأصابع

مدينة الفُسْطاطِ

﴿ مِصْر العتيقة ﴾

هى إحْدَى الحواضِرِ العَظيمةِ التى بَنَتْها العربُ عندَ فتْحها ممالكَ الفُرسِ والرومِ لتكونَ معقلا لِجُنودِها، ووطَناً جديداً للمُهاجِرينَ مِن قبائلِها يَجْمعُ كلمتَهم ويُؤخِّرُ أندماجَهم فى الامم المغلوبةِ لَهم. وهى ثالثةُ الحواضِرِ التى أنشئوها لِهذا القصد، أُولاها البَصرةُ، وثانيتُها الكوفةُ

وقد توخَّى العربُ فى أُولياتِ المُدُنِ التى أنشئوها أن تكونَ على اقترابٍ من الرّيفِ واتصالٍ بالصحراءِ، وإن فاتَها بعضُ مزايا الحَصانةِ الحَرْبيةِ والمَرافق التجاريةِ؛ وذلكَ لجملة أسباب:

الأول — أنهم كانوا قد بَنَوْها فى أوائِلِ الفتحِ أيامَ لم ترسُخْ أقدامُهم بعدُ فى البلادِ رُسوخاً يُؤْمِنُهم لقلّةِ عددِهم أن يُحاطَ بهم، فحفِظوا طريقَ الرَّجعةِ إلى بلادهم ووصولِ المَدَدِ منها اليهم. وبذلك أوصاهم خليفتُهم العظيمُ عمرُ بنُ الخطاب (رضى الله عنهُ) حينما استشاره أمراءُ الجنود بمصرَ والعراق فى اختيار المنازلِ التى ينزلُونها، فكتبَ اليهم أن «لا تُنزِلوا المسلمينَ منزلاً يحُولُ بينى وبينهم بحرٌ أو نَهرٌ، متى أردتُ أن أركبَ راحلتى حتى أقْدَمَ عليهم قدِمتُ»

الثانى — أن العربَ فى أوّلِ أمرِهم كانوا بَدْواً أصحابَ إبِل، وهى لا يُصلِحُها الأ مَراعِى الصحراءِ ومُناخُها، ولا يَسلَمُ نِتاجُها زَمَنَ الشتاءِ إلاّ فيها

الثالث — أنَّ نَشْأَتَهم البَدوية بين أجواء الصحارى الجافة جعلتهم يستوبلون[1] أرضَ المُدُن، ويستوخمون العيشَ بين مَناقِع المياهِ وأسمدة المزارع وفضول المصانع؛ فابتعدوا عنها لئلاَّ تنتقِضَ[2] صِحَّتُهم، وتَضْنَى أبدانُهم

على هذا الأساسِ بنَى عَمْرُو بنُ العاص مدينةَ الفُسطاط فى مكانها بعد استشارة عُمَرَ، كما بنى سعدُ بن أبى وقاص أمير جيوشِ العراق مدينة الكوفة بعد أن كان نازلاً بمدائن كِسرى، وبنى عُقْبَةُ بن غَزْوان البصرة

ولكنَّ الفُسطاط لم تتوافَرْ فيها كلُّ هذه الشروطِ. وكان خيراً للعرب من حيثُ الصحَّةُ وجودةُ الهواء أن لو اتَّخذوا عَيْنَ شمسٍ مثلاً حاضرةً لهم، كما رأى ابنُ رِضوان الطبيبُ المِصرى وعبدُ اللطيفِ الرَّحالةُ الفيلسوفُ البَغْدادىُّ وابن سعيد المؤرِّخُ المغربىُّ، متعجِّبين مِنْ بناء الفُسطاط فى وَهْدةٍ مِنَ الأرض بينَ ثلاثةِ جِبال: المقطَّم ويَشْكُرَ وراشدةَ تحجُب عنها رياحَ الصَّبا، وبَيْنَ النيل الذى يجعلُ أرضَها فى زمن الفيضانِ سَبِخَةً نَزَّةً

وكانَ فى موضعِ الفُسطاطِ حين نزلَها عَمْرُو بجيوشِه الحِصنُ، وشَرقيَّهُ جُمْلَةُ أَدِيرَةٍ، وشَماليَّهُ أرضٌ فضاءٌ يتخلَّلُها بعضُ مزارعَ وبساتينَ وكُروم، وكانت هذه بقايا مدينةٍ كبيرةٍ كانت تُسمَّى قديماً بابليُونَ، وتُسمِّيها العربُ فى الجاهليةِ مِصْراً، وأطلقوا اسمَها على الإقليم كُلِّهِ، ثمَّ خربَتْ. ويُقال إنَّ الفُرسَ بَنَوْها، وسَخَّرُوا فى بنائها أَسْرى بابلَ حينَ فتَحُوها فسُمِّيَتْ باسْمِهم. والمُرجَّحُ أنهم هم الذين بنَوُا الحِصْنَ، إلاَّ أنَّ الشاراتِ الرُّومانيةَ التى على الحصنِ تدُلُّ على أنَّ الرومانَ أتمُّوه أو جدَّدُوه

---

(١) أى لم توافقهم فى صحة ابدانهم (٢) تعتل

ولمَّا فتحَ العربُ الحصنَ سنة ٢٠ هـ، وأجمعُوا على المسير الى الإسكندرية أمرَ عمرٌو بفسطاطه أنْ يُقوَّضَ؛ فإذا يَمامةٌ قد باضتْ فى أعلاهُ. فقالَ: لقد تحرّمتْ بجوارنا، أقِرُّوا الفسطاطَ حتى تُنْقِفَ، وتطير فِراخُها. ووكَلَ بهِ من يَحفظُه أن لا تُهاجَ. ومضى الى الإسكندرية، ففتحها. وكتبَ إليه عُمرُ بنُ الخطَّاب ألاَّ يتخذَها منزلا. فاستشارَ أصحابَه فقالُوا: نرجعُ أيُّها الأميرُ الى فسطاطِكَ؛ فنكونَ على ماءٍ وصحراء. فرجَعُوا، وجعَلوا يقولُون: نزلْتُ عن يمينِ الفُسطاط أو عن شِمالِه. فسُمِّيَتْ البُقعةُ بالفُسطاطِ لذلك

وأمرَهُمْ عمرٌو بتقسيم الأرض، فتنافسُوا فى المواضع. فولَّى عمرٌو على تنظيم الخِطَطِ مُعاويةَ بنَ حُدَيْجٍ السَّكُونى، وشَريكَ بن سُمَيّ الغُطَيْفىّ، وعمرو ابن قَحْزمٍ الخَوْلانى، وحيْويل بن ناشرةَ المَعافرى. فسُمِّيَتْ كلُّ منزلة لقبيلةٍ خِطَّةً كما تُسمَّى نظيرتُها فى القاهرة حارةً

وموضعُ مدينةِ عمرو القديمةِ هـذه التلولُ والأنقاضُ التى شَرْقىَّ النيل وتبتدئ من الجَبَل الصغيرِ المُحاذِى للساحل القبلى جنوباً (الذى كان يُسمَّى جبلَ راشدةَ) إلى نِهايةِ تلِّ أبى السعودِ الجارحىّ بالقربِ من قناطر قناةِ المياهِ المُعلَّقةِ شمالاً. ولم يكن النيلُ فى ذلك الوقتِ ضيّقاً بين الفُسطاطِ والرَّوْضةِ كما هو الآنَ؛ بل كانت أمواجُه تضربُ فى سَفْحِ جبل راشدةَ وجدارِ حِصْنِ بابليُونَ الغربىّ، وكان له مِقياسٌ بجانبه. ويجرى من تحت جامع عمرو ودارِه سالِكاً طريقَ شارعِ أبى سَيْفَيْنِ وسِكَّةِ حديدِ حُلوانَ. وبعد الفتح بعِدَّةِ سنوات انحرفَ مُعْظَمُ النيل الى برِّ الجيزةِ، وتخلَّفَ عنه غربىَّ الفُسطاطِ شيئاً فشيئاً أرضُونَ بطولِ جزيرةِ الفسطاطِ (التى سُمِّيَتْ بعدُ جزيرةَ

الرَّوْضة) بَنَى فيها الناسُ بالتدريج بُيوتاً وقُصوراً، وأنشئُوا فيها حدائقَ وبساتين

وكانت أبنيةُ العرب فى أوَّل الأمر بالطِّين واللَّبِن طبقةً واحدةً على الأرض، ولم يتَّخِذُوا العَلالىَّ والغُرفَ إلاَّ بَعْدَ إذْنٍ من عُمَرَ بن الخطاب بشرط أن تكون طاقاتُها مُرْتفعةً حتى لا يطَّلِعَ أمرُؤٌ على جاره؛ ولكنَّهم بعد عُمَرَ اتَّخذوا القصورَ والرِّباع، وجعلوها طِباقاً خَمْسًا وستًّا، قد يسكُنُ الرَّبعَ المائةُ والمائتان، وبالغوا فى صُنع أبوابها ومَشاربها وحمَّاماتها، واستَبْحَر العُمرانُ بها وماجَتْ بسُكَّانها، وضاقَتْ بهم ذَرْعاً؛ ورستْ على ساحلها مراكبُ مصرَ العُليا والسُّفلَى وسُفُنُ البحر الأحمر بعدَ أن حفرَ عَمْرٌو خليجَ أمير المؤمنين إلى القُلْزُم، ومراكبُ البحر الأبيض الآتيةُ من دِمياطَ؛ فأصبحتْ أضخمَ مدينةٍ إسلاميةٍ حاشا بغدادَ. واشتهرتْ بعِدَّةِ صِناعاتٍ ظهرَ فيها بَرَاعةُ العرب والقِبْطِ: كصناعةِ الورَقِ والسُّكَّر والصابون والخَزَفِ والشَّمْع والنِّجارة والنَّقْش والبناء.

ولم يَعُدْ فيها موضعٌ يتَّسِعُ لجُنودٍ كثيفةٍ تنزِلُه. فلما سقطَتْ دولةُ بنى أُميَّة وجاءتْ جيُوشُ الدَّولةِ العباسيةِ بقيادةِ صالحِ بن علىٍّ[1] لمُطارَدةِ مَرْوانَ بن محمَّدٍ آخرِ الخُلفاءِ الأُمَوِيِّينَ نزَلَ عسكرُه شمالىَّ الفُسطاط؛ فسُمِّىَ مَنزِلُه العَسْكَرَ وهو الموضعُ الذى يبتدئُ الآن من أبى السعود إلى شارع الحَوْض المرْصُود. وبَنَوْا فيه المنازلَ، والقصورَ، وأقامَ فيه أُمراءُ الدولةِ قَصْرَ الإمارةِ ودواوينَ الدَّولةِ. وكان مَقرًّا لوُلاة بنى العباس والدولةِ الإخشيديَّة. ويشتملُ الآن على حىِّ زَيْنِ العابدينَ ومَقبرَتِه والمَذبَح والبغَّالةِ والماوَرْدىِّ والكَبْشِ. وصارَ مع الفُسطاطِ مدينةً واحدةً مُكْتَظَّةً بالسُّكان

---

(١) هو صالح بن على بن عبدالله بن عباس، عم الخليفة السفاح

فلما أرادَ ابنُ طُولون الاستبدادَ بمُلكِ مصرَ اشترَى كثيراً من العبيد السُّودِ والمماليكِ من التُّركِ والأرْمَن وغيرهم، وضاقَتْ بهم الفُسطاطُ والعَسْكر؛ فاتَّخذَ مدينةً لهم شرقيَّ العَسْكرِ الى الشمال قليلاً. فدخلَ جبلُ يَشْكُرَ (الكَبْش وطولون) فيها الى الرُّمَيْلَةِ وقُبّةِ الهواء (القلعة) أى قِسْمُ الخليفةِ الآنَ تقريباً؛ وجعل لكلِّ طائفةٍ من السُّودان والترك والأرْمَنِ والخَدَم وأرباب الصناعةِ قطيعةً، فسُمِّيَتِ المدينةُ بالقطائع. وجعل قصرَه تحت قبّةِ الهواء (القلعة) وبجانبِهِ ميدانه. وبَنَى جامعَهُ العظيمَ ودارَ إمارتِهِ وبيمارستانَه على جَبَلِ الكَبْش. حتى انتقض أمْرُ أولادِه وأحفادِه؛ فجاء مُحمدُ بنُ سُليمانَ الكاتبُ مِنْ قِبَلِ الدولةِ العباسيةِ بجيشٍ كثيفٍ فاستولَى على مِصْرَ، وقبَضَ عليهم، واستحوذَ على أموالِهم وذخائرِهم، وأبادَ خَضْراءهم[1] وهدمَ قصورَهم، وخرَّبَ بساتينَهم، ولولا المعَرّةُ لَهدَمَ مسجِدَهم. وبقِيَ بعدَ ذلك فى القطائع جملةُ منازلَ مُبعثَرةٍ على الكَبْش وحَوْلَ الجامعِ الى زمَنِ المجاعةِ العظيمة والوباءِ الجارفِ أيامَ المستنصرِ الفاطميّ، فخرِبَتْ القطائعُ

أما الفسطاطُ فبَقِيَتْ زاهرةً عامرةً حتى استولَتْ الدولةُ الفاطميةُ على الديارِ المصرية سنة ٣٥٩ هـ، ونقَلتْ معها منَ المَغْربِ جيُوشاً جرّارةً. وكان لهم فى الدِّينِ والسياسةِ مَذْهَبٌ خاصٌّ وتقليداتٌ دقيقة؛ فاضْطُرُّوا إلى إنشاءِ مُعسكرٍ عظيمٍ لهم يتوسَّطُه قصرُ خليفتِهم؛ فأنشئُوا القاهرةَ المُعزّيةَ فكانت ثُكنةً للجُنودِ، وداراً للخِلافةِ، ودواوينَ للدَّولةِ. فانتقلَ الأعيانُ

---

(١) الخضراء سواد القوم ومُعظَمهم. وقال الزَّمَخْشَريُّ فى الأساس «أبادالله خضراءهم: شجرتهم التى منها تفرعوا»

والأغنياء والوُجَهاء إليها . وأخذ شأنُ الفُسْطاط فى الخُمُول ، حتى أخْنَتْ[١] عليها المَجاعَةُ والطاعونُ زمنَ المستنصرِ . وما زالتْ فى تقهقرٍ إلى أن دخل الصَّليبيُّونَ الديارَ المِصريةَ ، فنزلوا بجهةِ البساتين ، وخافَ وزيرُ الدَّولةِ المستبِدُّ بأمرِها شاوَرُ بنُ مُجيرٍ السَّعْدِىُّ أنْ يعتصِمُوا بالفُسطاط ، ويتغلَّبوا بذلك على القاهرةِ ، فأمرَ بإحراقها سنة ٥٦٤ هـ ، فخرَج أهلُها سِراعاً ، وبقِيَتِ النارُ تعمَلُ فيها بِضْعةً وخمسين يوماً ، حتى صارت تِلالاً من الرَّمادِ تُشاهَدُ إلى الآنَ . ثمَّ لمَّا انتهتِ الحروبُ الصليبيةُ عمَرَ ثُلْثُها الغربىّ على ساحِلِ النيلِ ، وخاصةً أواخرَ الدَّولةِ الأيُّوبيةِ عندَ ما اتَّخذَ الملكُ الصَّالحُ نجمُ الدين أيُّوبُ جزيرةَ الروضةِ مُتَنَزَّهاً له ، وشيَّدَ فيها قلعةً وقَصْراً ، وحَمَلَ الناسَ على كَرْىِ مَجْرَى النيلِ أمامَ الفُسطاط ، وحضَرَه بنفسِه . فعادَ للفُسطاط بعضُ الرَّوْنَقِ ؛ حتى توالتِ الأَوْبِئَةُ والمجاعاتُ على مِصْرَ زمنَ المماليكِ البَحْرِيَّةِ ، فخَرِبَتْ مع ما خرِبَ من البِلادِ أواخرَ القَرْنِ الثامنِ إلاَّ سلسلةً من المنازلِ مُبعْثَرةً على ساحِلِها . ثمَّ عمَر غربيُّها قليلاً فى أواخرِ القرنِ الماضى بشُمولِ الأمْنِ واعتدالِ الاحْوالِ شيئاً ما . ولمَّا ألَّفت الحكومةُ لجنةَ حِفْظِ الآثارِ العربية كانَت الفُسطاطُ مَيْداناً عظيماً لبَحْثِها وتنقيبِها ، فكشفَت الغِطاءَ عمَّا خبَأَتْهُ أيدِى الحدَثانِ تحتَ رَمادِ الحريقِ وأنقاضِ البناءِ . وظهرَ اكثرُ المدينةِ القديمةِ بشوارعِها ومَصانِعِها وحمَّاماتِها ومَساجِدِها وفنادِقِها كأنها مدينةُ بُمْبَيَه التى طمَرَها وِيزُوفُ . ولم تُتِمَّ لَجْنةُ الآثارِ عملَها بَعْدُ . وبدارِ الآثارِ العربيةِ كثيرٌ من دَفائِنِ هذه المدينةِ مَعْروضةً للأنظارِ

(٢) أهلكتها

صِدقُ الإيمان

﴿ الدُرَّة اليتيمة ﴾

قال صاحب عجائب الهند[١]:

حدَّثَ غيرُ واحدٍ من البحَرِيِّينَ بأمرِ الدُّرَّةِ المعروفةِ باليتيمةِ (وإنما سُمِّيتِ اليتيمةَ لأنه لم يُوجَدْ لها أُختٌ فى الدنيا). وأجْوَدُهم شرحاً للقصَّةِ حَدَّثَ أنه كان بعُمانَ[٢] رجلٌ يقالُ له مُسْلِمُ بنُ بِشْرٍ. وكان رجُلاً مَستوراً جميلَ الطريقةِ، وكان مِمَّن يُجَهِّزُ الغوَّاصَةَ فى طلَبِ اللؤلُؤ. فلم يزَلْ يُجَهِّزُ الرجالَ للغَوْصِ، ولا يرجع إليه فائدةٌ، حتى ذهبَ جميعُ ما كان يملِكُه. ولم يبقَ له حِيلةٌ ولا ذَخيرةٌ ولا ثَوْبٌ ولا شىءٌ يجوزُ بيعُه الاّ خَلْخَالٌ بمائةِ دينارٍ لزَوْجتِه. فقال لها: أقرضِينى هذا الخَلخالَ لاجهِّزَ به؛ فلَعلَّ اللهَ تعالى يُسَهِّلُ شيئاً. فقالت له: يا هذا لم تَبقَ لنا ذخيرةٌ ولا شىءٌ نُعوِّلُ عليه، وقد هلَكْنا واُفتقرْنا؛ فلأَنْ نأكُلَ بهذا الخَلْخالِ أصلَحُ من أن نُتْلِفَهُ فى البحرِ. فتلطَّفَ بها وأخذَ الخَلْخالَ وصرَفهُ وجهَّزَ بجميعه الرجالَ الى الغَوْصِ، وخرجَ معهم. ومِنْ شَرْطِ المَغاصِ أنْ يُقيمَ الغوَّاصَةُ فيه شَهْرَيْنِ لا غيرُ؛ وعَلَى هذا يتشارطُون. فأقاموا يغُوصون تسعةً وخمسينَ يَوْماً، ويُخرجُون الصَّدفَ ويَفتحونَه، فلم يحْصُلْ لهم شىءٌ. فلما كان اليومُ الستُّون غاصُوا عَلَى اسمِ إبليسَ (لعنه الله)، فوجَدُوا فيما أخرجوه صدفةً استخرجوا منها حَبَّةً

---

(١) تقدمت ترجمته (٢) كورة بالشرق الجنوبى لجزيرة العرب على مدخل الخليج الفارسى من المحيط الهندى وهى كثيرة الحر، وحاضرتها الآن مدينة مسقط وكانت قديماً مدينة صُحار

لها مقدارٌ كبيرٌ، لعلّ ثمنها يُوَفّى ما كان يملكه مُسلِمٌ منذُ كان وإلى وقتِه.
فقالوا: هذا وجدناهُ على اسمِ إبليسَ (لعنه الله) فأخذَها وسحقها ورَمَى بها في البحر. فقالوا له: يا رَجُلُ لِمَ فعلتَ هذا؟ أنت قد افتقرتَ وهلكتَ، ولم يبق لك شيء! يقعُ بيدك مثلُ هذه الحبةِ التي لعلّها تساوي آلافَ دنانيرَ فتسحقُها؟ فقال سبحانَ اللهِ! كيفَ أستحلُّ أن أنتفعَ بمالٍ استُخرج على اسمِ إبليسَ وإني أعلم انَّ اللهَ تباركَ وتعالى لا يُبارِكُهُ؟ وإنما وقعتْ هذه الحبَّةُ بأيدينا ليختبرَنا اللهُ تعالى بها، ويعلَمَ من يعرِفُ خبرَها اعتقادي. ولئن انتفعتُ بها ليَقْتَدِيَنَّ كلُّ أحدٍ بي؛ فلا يغوصُون إلاّ عَلَى اسمِ إبليسَ (لعنه الله)؛ فإثْمُ ذلك يعظُمُ على كلِّ فائدةٍ وإنْ عظُمَتْ؛ ووَاللهِ لو كانَ مكانَها كلُّ لُؤلُؤٍ في البحرِ ما تلبَّسْتُ به! امضُوا فغُوصُوا وقُولوا: باسمِ اللهِ وببركةِ اللهِ! قال ففاصوا على ما رَسَمَ لهم، فما صلّى صلاةَ المَغْرِبِ من ذلك اليوم، (وهو آخر يوم من الستين) حتى حصَلَ بيده دُرَّتان: إحداهُما اليتيمةُ، والأخرى دونَها بكثير. فحملَهما الى الرَّشيدِ، وباع اليتيمةَ بسبعينَ ألفَ دِرهم، والصُّغرى بثلاثين ألفَ دِرهم، وانصرف إلى عُمانَ بمائةِ ألفٍ فبنى بها داراً عظيمةً، واشترى ضِياعاً، واعتقدَ[1] عَقاراً. ودارُه معروفةٌ بعُمانَ.
فهذا ما كان من خبر الدُّرَّة اليتيمة

---

(١) اقتنى وملَك وجمَع. والعقَارُ كلّ مِلْك ثابت كالدار والنخل

القمـــــر

القمرُ أجملُ الكواكبِ صُورةً وأبينُها مَنظراً وأسهلُها رَصْداً، وأكبرُها فى رأْىِ العَيْنِ بَعْدَ الشمسِ جِرْماً

وهو سيَّارٌ كُرِىٌّ أصغرُ مِنَ الأرضِ بِنَحْوِ تسعٍ وأربعينَ مرةً. انفصلَ مِنها زَمَنَ التَّكوينِ، وصارَ تابعاً لها، طائفاً حَوْلَها، مستمِدًّا نورَه مِنَ الشَّمْسِ مثلَها، دائراً حَوْلَ الشمسِ معَها؛ غَيْرَ أنَّ طَوافَ الأرضِ بقمرِها حولَها يتمُّ فى سنةٍ شمسيةٍ وطوافَ القمرِ حولَ الأرضِ يتمُّ فى شهرٍ قمرىٍّ: أى مدة تسعٍ وعشرينَ يوماً ونصفِ يومٍ تقريباً. ومع أنهُ خاضعٌ لنظامِ الأرضِ لا يقلُّ بُعْدُه عنها عن واحدٍ وعشرين ألفاً ومِائتىْ ألفِ ميل

والذى يسترعِى أنظارَنا كما استرعَى أنظارَ مَنْ قبلَنا اختلافُ أشكالِه وتعدُّدُ مَطالِعِه. مما جعلَه مبعثَ تخيُّلِ القُدَماءِ ومَثارَ تفكرِ الحكماءِ ومقصِداً لعبادةِ الجُهلاءِ! فتراهُ يلوحُ ليلةَ أوَّلِ الشهرِ إثْرَ غروبِ الشمسِ ضئيلاً مُقَوَّساً لا يلبثُ أن يغرُبَ ويغيبَ فى شفقِ الشمسِ؛ ثم يُهِلُّ فى الليلةِ الثالثةِ أبْيَنَ صورةً وأبْقَى زمناً لازدياد تأخُّرِه فى الغروبِ عن الشمسِ؛ ولا يزالُ نورُه فى تزايُدٍ ومَطالِعُه فى تقدُّمٍ نحوَ المشرقِ؛ حتى يطلعَ من المشرقِ فى الليلةِ الرابعةَ عشرةَ عند غروبِ الشمسِ بدراً كاملاً بَهِىَّ الطلعةِ باهرَ الأنوارِ، فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين

ولكنَّ الكمالَ لِلهِ وَحْدَهُ؛ فإن منتهَى الزيادةِ مُبتدأُ النَّقْصِ؛ ففى الليلةِ الخامسةَ عشرةَ يتأخَّرُ طلوعُه من المشرقِ، وينقُصُ من حافةِ نورِه التى كانت

موضعَ هِلالِهِ الأوّل زِيقٌ لا يُشعَرُ به إلاّ فى الليالى التالية، ولا تزال مَطالِعُهُ فى تَقَهْقُرٍ ونُورُه فى تناقُصٍ حتى قُرْبِ آخرِ الشهرِ؛ فيُشْرِقُ قُبَيْلَ الفجْرِ هِلالاً ضئيلاً يكادُ يكونُ مَقلوبَ الهلال الأول، وفى الليلةِ الأخيرةِ يكونُ عندَ الصَّباحِ فى الافقِ الشرقىّ مُظلِماً لا يُرى منه شىء، وهى ليلةُ المِحاقِ أو

صورة شمسية للقمر

السِّرار. ويظَلُّ بعضَ النهار كذلك، ثم يتولَّدُ هلالُه الجديدُ؛ ولكنّه لا يظهرُ إلاّ بعدَ أن يغيبَ قُرْصُ الشمسِ، فيلوحُ هلالُه ثم يختفى كما قدمنا

وعِلَّةُ ذلك أن نُورَ القمرِ كنُورِ الأرض مُستَفادٌ من الشمس. وهو لا يُقابِلُ الأرض إلاّ بوجهٍ واحد لا يتغير. وهذا الوجهُ بالنسبة إلى حركتِه مع الأرض حولَ الشمس لا يُقابِلُ الشمسَ مُقابلةً تامةً إلاّ فى وضعٍ واحد ومرةً

واحدةً هى الليلةُ الرابعةَ عشرةَ، فيغشاه نُورُها، ويصيرُ بدراً. أمَّا بقيةُ الليالى التى قبلَها والتى بعدَها فينحرفُ قليلاً أو كثيراً عنها؛ حتى يصيرَ كلُّه ظلاماً ليلةَ المِحَاق، فيُطوَى خبرُه، ويكونُ الوجهُ الآخر الذى لا يُرى لنا بدراً كاملاً: ثم يتولَّدُ هلالُه خلْقاً جديداً

وكذلك شأنُ الأرض فى استمدادِ نُورها أوْ ما نُسَمِّيهِ نهاراً؛ فلو كان فى القمر سُكانٌ لكانتْ فى رأْىِ أعيُنِهِمْ أكبرَ كوكبٍ فى السماء، ولَشاهدوها اكبرَ من الجِرْمِ الذى نُشَاهِدُ القمرَ عليه أضعافاً مُضاعفةً، ولكانتْ عندَهم أرْوَعَ جمالاً وأبدَعَ من قمرهم فى نظرنا تَشَكُّلاً؛ فبدورانِها على نفسها يرَوْنَها كلَّها جزءاً فجزءاً، وتظهرُ قارَّاتُها ومُحيطاتها وَاضحةً عليها فى وقت الصَّحْوِ ومُظَلَّلاً بعضُها بالغمام فى وقت الدَّجْن، وتبْدُو أهلَّتُها وبدورُها ضخْمةً باهرةً ولكن لا يراها إلاَّ سُكانُ النصفِ المُقابِلِ لنا أو الذين يُريدون التَّفرُّجَ برؤيتها من أهل النصف الثانى

ولقُربِ القمر منا وخُلُوِّ جوِّه من الهواء سَهُلَ رصْدُه علينا؛ فنرى فى صفحتِه عند الشُّروق ليلةَ التِّمام كثيراً من المَحْوِ[1] يجعلُ صورتَه أشبهَ بوجهِ إنسانٍ ذى أنْفٍ وفمٍ وحاجبينِ وعينينِ إحداهما مُغْضِيةٌ. ولا يزالُ كذلك؛ حتى يتعدَّى خطَّ زَوالِ مكانِ الناظرِ. فإذا مال الى المَغرب انْحرفَتْ هذه الصورةُ حتى يصيرَ عاليها سافلَها. وليس هذا المَحْوُ إلاَّ ظلامَ بطونِ الأوديةِ والسُّهول البعيدةِ الغَوْرِ وظِلالَ الجبال والهِضاب الشاهقةِ الطُّولِ شُهوقاً يكاد يمنع استدارتَه. أما قِمَمُ الجِبالِ وسُطُوحُها المُقابلةُ للشمس

(١) المحو: السوادُ فى القمر

فترى لامعةً ساطعةً فتبينُ سلاسلُ الجبال طرائقَ مضيئةً وقممُها نُقطاً لامعةً وفوَّهاتُ جبال ناره الشديدةُ السَّعةِ البعيدةُ الغَوْر التي تُعَدُّ بعشرات الأُلوفِ كأنها حلَقاتٌ وسطها نُقَطٌ سود

وقد ظن القدماءُ في عِلَّة المَحْوِ ظُنوناً بعضُها صادفَ الحقيقةَ وبعضُها جانبَها حتى ظهرَ غاليليُو، واخترعَ سنة ١٦٠٦ م مِرْقباً يقرِّب الأشباحَ ثلاثين مسافةً فأثبتَ وُجودَ الجبال والأوديةِ فيه. وزادَ عليه غيرُه في تحسين المراقبِ المكبِّرةِ حتى أصبح القمرُ يُرَى كأنهُ على بُعدِ أربعينَ ميلاً منا. على أن هذا القرب لا يجعلُنا نرى الأشباحَ الصغيرةَ التي من نوع الحيوان لنتحققَ أللقمرَ سُكَّانٌ كما للأرض أو لا، ولكن قد أصبح من المرجَّحِ إنْ لم يكن من المحقَّق أنهُ خالٍ من الماء ومن السَّحاب والضَّباب الناشئينِ منه ومن النباتِ؛ إذْ لو كان به شيءٌ منها لتغيَّرَ شكلُه من حالٍ إلى حال. ويُشكُّ أن له هواءً؛ وإن كان له هواءٌ فلعلَّهُ لا يزيدُ على قِيَمِ جبالِه. ولا شك أن الماء والهواء هما ينبُوعا الحياة. وتجرُّدُه منهما، وخمودُ جبال ناره ويُبس جرمِه يجعلُ بردَه شديداً جدًّا في الليل وحرَّه عظيماً جدًّا في النهار؛ على فَرْط طولهما البالغِ فيه خمسةَ عشرَ يوماً: مما يجعلُ الحياةَ فيه متعسرةً بل مستحيلةً، اللهم إلاَّ أن تكونَ حياةً غيرَ حياتنا

ويُرجِّحُونَ أنَّ القمرَ كان في أزمانٍ سحيقةٍ على طبيعة تقربُ من طبيعةِ أُمِّهِ الأرضِ؛ فكانَ آهلاً بالحيوانِ والنباتِ، إلاَّ أن صِغَرَ جسمِه جعلَه يسبقُ الأرضَ في اليُبْسِ والبرُودة، فتقبَّضَ وبَرَدَ وانتهت دُنياه، وأصبحَ كإسفنجةٍ

مُشَعَّثةٍ ذاتِ شُعَبٍ ونخاريبَ[١] تكوينُها منْ جِنْسِ تكوين الأرض

ولقدخلقَ اللهُ القمرَ مُسَخَّراً لأهلِ الأرضِ خاصَّةً، فهو بعكْسِهِ نُورَ الشمسِ عليهم هدايةٌ لهم فى ظُلُماتِ البَرِّ والبحْرِ. ولقد قضى الإنسانُ عُصوراً ودُهوراً وليس له مِصباحٌ فى جُنْحِ الظلامِ غيرُه. ولا يزالُ كذلك لأهلِ البَدْوِ وقبائلِ الهَمَجِ. وهو باختلافِ أشكالِهِ تقويمٌ فِطْرِىٌّ لهم: فبإهلالِهِ يُعْرَفُ أوَّلُ الشَّهْرِ، وبالتَّرْبيعِ الأوَّلِ يُعْرَفُ رُبْعُه، وببدْرِه[٢] يُعرَفُ نصْفُه، وبالتربيعِ الأخيرِ يُعْرفُ ثلاثةُ أرباعه، وبمُحاقِهِ تُعرفُ نِهايتُه

وإذا مَرَنَ الإنسانُ على النَّظَرِ فى تقديرِ ضَوْئِه وأوْقاتِ مَطالِعِه عرَفَ الشهرَ يوماً يوماً والليلَ ساعةً ساعةً. قال تعالى « يَسْأَلونَكَ عنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَواقيتُ لِلنَّاسِ والحَجِّ »

وباتِّحادِ جذْبِهِ معَ جذْبِ الشَّمسِ للأرْضِ ينشأُ المَدُّ والجَزْرُ، وفائدتهما فى تَسْهيلِ الملاحةِ لا تُنكَر؛ فكم من موانئَ ومرافئَ لولاهما لَسُدَّتْ برواسبِ الانهارِ والسيول

ولضوءِ القمرِ فى إنضاجِ الثِّمارِ والبقول أثرٌ أيُّما أثَرٍ؛ حتى إنَّ بعضَها لا ينمو ويزهو لونه إلاَّ فى لياليهِ البيض

---

(١) جمع نُخْروب وهى الثُّقَب التى تكون فى مثل بيوت الزنابير والنحل

(٢) مصدر بدَرَ البدْرُ يَبْدُرُ بَدْرا. وبالمصدر سُمِّىَ هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يُبادر الشمسَ بالشروق فى ليلة التّمام عند غروبها

مُقطَّعاتٌ شعرية

حِكَمٌ وآداب لصالح بن عبدِ القُدُّوسِ[١] قال :

ما يبلُغُ الأعداءُ منْ جاهلٍ[٢] ما يبلُغُ الجاهلُ منْ نَفسِهِ
والشَّيخُ لا يترُكُ أخلاقَهُ حتى يُوارَى فى ثَرَى رَمْسِهِ[٣]
إذا أُرْعَوَى[٤] عادَ إلى جهلِهِ كذِى الضَّنا[٥] عادَ إلى نُكْسِهِ
وإنَّ مَنْ أدَّبْتَهُ فى الصِّبا كالعُودِ يُسْقَى الماءَ فى غَرْسِه[٦]
حتى تراهُ مُورِقًا ناضرًا بعدَ الذى أبصرتَ من يُبْسِهِ

وقال أيضًا :

المرءُ يجمعُ ، والزَّمانُ يُفَرِّقُ ويظَلُّ يَرْقَعُ ، والخُطوبُ[٧] تُمزِّقُ
ولأَنْ يُعادِيَ عاقلًا خيرٌ له من أن يكونَ له صَديقٌ أحْمَقُ
فارْبأْ[٨] بنفسِكَ أن تُصادقَ أحْمقًا إنَّ الصَّديقَ على الصديقِ مُصَدَّقُ
وزِنِ الكلامَ إذا نطقْتَ ، فإنَّما يُبْدِى[٩] عقولَ ذوى العقولِ المنطِقُ
ومنَ الرِّجالِ إذا اُستوتْ أخلاقُهم مَنْ يُستشارُ إذا اُستُشِيرَ فيُطْرِقُ[١٠]

---

(١) شاعر مجيد من شعراء صدر الدولة العباسية يغلب على شعره الحكم والمواعظ اتهم فى زمن المهدى بالزندقة فقُتِلَ (٢) (ما) التى فى صدر الشَّطْرِ الأول نافيةٌ و(ما) التى فى أول الشطر الثانى اسم موصول (٣) قبره (٤) انكفَّ عن الجهل ورجع عنه (٥) الضنا : المرض ، والنكسُ : عود المرض بعد زواله (٦) أى عند غرسه (٧) الأمور الشديدة (٨) أى ارفع نفسك ونزهها (٩) يظهر (١٠) أى يرمى ببصره الى الأرض يتأمل

حتى يَحُلَّ بكُلِّ وادٍ قلبُه ... فيرَى ويعرِفُ ما يقولُ فينطق
وإذا امرؤٌ لسعتْه أفعَى (١) مرّةً ... تركتْه حينَ يُجَرُّ حبْلٌ يفرَقُ (٢)

وقال :

وَإِنَّ عَنَاءً أَنْ تُفَهِّمَ جَاهِلاً ... فَيَحْسَبَ جَهْلاً أَنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ
مَتَى يَبْلُغُ البُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ ... إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَغَيْرُكَ يَهْدِمُ
مَتَى يَنْتَهِي عَنْ سَيِّئٍ مَنْ أَتَى بِهِ ... إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَنَدُّمُ

النارَجِيلُ أو (جَوْزُ الهِنْد)

النارَجِيلُ من أكثرِ الأشجارِ نَفْعًا، وأطولها عُمْرًا، وأجملِها شكلاً، وأقلِّها كُلْفة . ويُشبهُ النَّخْلَ فى جذْعِه وسَعَفِه واستنباتِه، إلاّ أنَّ ثمرَه جوْزٌ عظيمٌ وثمرَ النخْل تَمْرٌ، وإنّه لا يجُودُ إلاّ فى أصقاعِ المِنطقةِ الحارّةِ، وخاصةً الأرَضينَ الرمليَّةَ الرَّطْبةَ كشواطئِ البحارِ والأنهارِ والبُحَيراتِ والغُدْرانِ

وتبلغُ أنواعُ النارَجيلِ نحوَ ثلاثينَ نوعًا، منها ما تعظُمُ جوزتُه حتى تَصيرَ بقشورِها وأغْلِفَتِها فى حَجْمِ البِطّيخةِ المتوسطةِ

ويُرَجَّحُ أنّ وطنَ النارَجيلِ القَديمَ شواطئُ الهند وجزائرُ المحيطين الهنديّ والهادِى الجَنوبىّ . ثم انتشرَتْ زراعتُه فى البلاد الرَّطْبةِ التى بَينَ المدارَيْنِ (٣) . فمِن المُمْكنِ الهيِّنِ زَرْعُه على ضِفافِ النيلِ فى صَعيدِ مِصرَ وسُودانِها وفى مَناقِعِ بحرِ الغَزالِ وبحرِ الجَبَلِ

---

(١) الأفعى حية دقيقة العنق عريضة الرأس (٢) يخاف (٣) مَدار السرَطان ومَدار الجَدْى أي المنقطة الحارَّة

وتطولُ نخلةُ النارَجيلِ إلى بضعٍ وثلاثينَ ذِراعاً فرنسية، ويغلظُ جذعُها إلى نصفِ ذراعٍ وأكثر. وجذعُها لَدْنٌ متينٌ تثنيهِ الرياحُ، وتُدنيهِ ثمرتُها الثقيلةُ من الأرضِ أحياناً، فلا ينقصفُ لِيناً

ورأسُ نخلةِ النارَجيلِ كرأسِ نخلةِ التمرِ، ذو سعَفٍ طويلٍ وخُوصٍ كثيرٍ متراصٍّ رَقيقٍ. وفي أدنى السعَفِ يطلعُ طَلْعُها، وتنشقُّ عنه كُفرَّى[1] ككفرّى النخل، ثم يتكاملُ منه القِنْوُ[2]. وتبلغُ قِنْوانُ النارَجيلِ بضعةَ عشرَ قِنْواً، يحملُ كلُّ قِنْوٍ من الجَوْزِ جُملةً من خمسٍ الى خمسَ عشرةَ؛ فيكونُ مُعدَّلُ ما تحملُه النخلةُ نحوَ عشرين ومائةِ جوزةٍ. وربما أخصبتِ النخلةُ الكريمةُ منه، فأثمرتْ نحو مائتَيْ جوزةٍ

وتتكوَّنُ الثمرةُ من قشرةٍ ظاهرةٍ رقيقةٍ صُلبةٍ مَلساء، داخلَها طبقةٌ كثيفةٌ من الليفِ الخشنِ المتين، وداخلَ طبقةِ الليفِ طبقةٌ من الخشبِ الصُّلبِ ليس بها إلاّ منفذٌ واحدٌ ضيّقٌ ينبتُ منه جنينُ الجوزةِ حين تُزرع، وبجانبه نقطتان كأنهما ثُقبان مسدودان، وداخلَ هذا الغلافِ الخشبيِّ لُبُّ الثمرة. وهو يمرُّ في طريقِ نُضْجِه بأطوارٍ عِدَّة؛ فيكون أوَّلاً لبَناً خالصاً، ثمَّ خاثِراً[3]، ثم يتكاثفُ غليظُه على جوانبِ الخشب، ويجمُدُ فيصيرُ طبقةً من اللبِّ لَوْزيَّةً في سَمْكِ الأصبعِ، وما بقيَ يصيرُ شراباً صافياً حُلواً، وربما أُغْلِيَ، واُستخرجَ منه سُكَّر

ويُنتفعُ باللُّبِّ في كل هذه الأطوار مشروباً ومأكولاً. وهو غذاءٌ

---

(١) الكفرى والكافور كم النخل ونحوه (٢) العِذْق والكِباسة وهو ما يعلق به الثمر
(٣) غليظاً ثخيناً

أساسيٌّ لكثير من الأمم التى تقطُن جزُرَ البحار الجنوبيةِ ولقردَتها التى تزاحمُها فيه أشدَّ المزاحمة

واذا بُضِعَ أصلُ الوَلِيع[١] قبل أن تنشقَ كُفرّاه، وأُلقِمَ كُوزاً امتلأَ فى نهارٍ واحد شراباً لذيذاً فى قِوامِ اللبن وطعمِه

ومن الثمرة الناضجةِ يُستَخرَجُ كثيرٌ من الدُّهن المُسمَّى بزَيت جَوز الهندِ، وهو إذا كان جديداً مُلائمٌ للصحةِ مُسمِّنٌ للبدن، ويُؤتَدَمُ به ساذَجاً ومطبوخاً مع الأُرْز وغيره، ويُستَصبَحُ به فى السِّراجِ والشمع، ويُتَّخَذ منه نوعٌ من الصابون يُرغى بالماء المِلح فيُسمَّى لذلك صابونَ الملّاحين

وللنارَجيل فوقَ هذا مَنافعُ كثيرةٌ: فمِنَ السَّعَف والجُذوعِ تُسقَفُ البيُوت، ومنَ الجَريد تُصنَعُ المجاديفُ والنُّشّابُ والرَّوافِدُ[٢] والأسْوِجَةُ[٣] والأمشاطُ، ومن الخُوص تُصنَعُ القِفافُ والجُونَ[٤] والزَّنابيلُ، ومن رَقيقِه تُصنَعُ القُبَّعاتُ، وتُضفَرُ المراوحُ والحُصُرُ وغيرُ ذلك، ومن غَضِّهِ الحديثِ وغَضِّ الثَّمَرِ يُطبَخُ لَوْنٌ من الطَّعامِ يُسمَّى الكُرُنبَ النَّخْلِيَّ. ومن

نخلة نارجيل وبجانبيها طلعة وجوزة مكبرتان

(١) الوليع الطلع فى كفرّاه، وأصل الوليع يد عرجونه (٢) خشب السقف
(٣) جمع سياج (٤) الجُونَة شبه القفة وقد تكسى جلداً

الليف تُصنَع الحِبالُ والجَوالِقُ[١] والبُسُطُ ومَماسِحُ الأحذية التى تُطْرَحُ أمامَ الأبواب والمِحَسّاتُ[٢] وحشايا الفِراش، ويُصنَعُ منه نَوْعٌ من الوَرَق والمَكانِس. ومن خشب الثمرةِ تُتَّخَذُ المغارفُ والأقداحُ. ومن الجُذورِ الحديثة تُصْنَعُ السِّلالُ وغيرها

وخشبُ الجُذوعِ القديمةِ من أجودِ الأخشاب وأجملِها وأقبَلِها للصَّقْلِ وتُتَّخَذُ منه الكراسىُّ الجميلةُ ومَناضِدُ الكتابةِ وموائدُ الطَّعامِ وخزائنُ الكتب ويُعرَفُ فى إنجلترةَ باسم خشب القُنْفُذِ

وقُصارَى القول أن نخلةَ النارَجيل قَلَّما تَعدِلُها شجرةٌ فى مَنافعها؛ حتى قِيلَ انَّ مَنافعَها بعددِ أيامِ السنةِ عدًّا، ويقولُ أهلُ جزائرِ الجَنوب إن من يزرَعُ نارَجيلةً يستغلُّها لَحْماً ولبناً ومَسكناً وثوْباً وإناءً ووَقُوداً وفَرْشاً ونفعاً دائماً له ولأولاده وأحفادِه

وزِراعةُ النارَجيل كالنَّخل؛ بأن تُنزَعَ فسائلُه[٣] من أمِّها وتُنقَلَ الى المكان الذى يُعَدُّ لها، إلاَّ أن النارَجيلَ ينجحُ استنباته من جَوْزَتِه؛ فتُدفَنُ الجوزةُ فى أرْضٍ خفيفةٍ رطبةٍ، فيخرُج فَرْخُها بعد ثلاثة أشهر. ثم تُنقل بعد شهرٍ أو شهرين من موضِعِها إلى حيث تُغرَسُ. ولا يكونُ لها جِذْعٌ خشبىٌّ. قبلَ ثلاثِ سنين. وقلَّما تُثمِرُ قبلَ ثمانٍ. وتبقَى مُخْصِبَةً أكثرَ من سبعين سنةً. ويُجْنَى الثمرُ الناضجُ منها أربعَ مراتٍ أو خمساً فى السنةِ

---

(١) جمع جُوالق وهو الذى يسمى بالعامية (الشوال) (٢) جمع مِحسَّة وهى الفِرْجَوْن للخيل والثياب وهى التى تسمى بالعامية (الفرشة) (٣) جمع فسيلة وهى النخلة الصغيرة

التسامُحُ وعُلوُّ الهِمَّة

روى صاحبُ ثمرات الأوراق[١] قال : —

لما أفضتِ[٢] الخلافةُ إلى بنى العباس اختفتْ رجالُ بنى أُمية . ومنهم ابراهيم ابنُ سُليمانَ بنِ عبدِ الملكِ بن مروان ، وكان ابراهيمُ رجلاً عالماً عاملاً ، أديباً كاملاً ، وهو فى سِنّ الشَّبيبةِ . فأخذوا له أماناً من السَّفَّاح . فقال له يوماً : حدِّثنى عما مرَّ بك فى اختفائك . قال : كنتُ يا أميرَ المؤمنين مختفياً بالحِيرَة[٣] فى منزلٍ شارعٍ على الصحراء . فبينما أنا على ظهرِ البيت إذْ نظرتُ الى أعلامِ سُودٍ[٤] قد خرجتْ من الكُوفة تريدُ الحيرَةَ ، فتخيلتُ أنها تُريدُنى . فخرجتُ من الدار مُتنكِّراً حتى أتيتُ الكوفةَ . ولا أعرفُ أحداً أختفى عنده . فبقيتُ فى حَيْرةٍ ، فإذا أنا بباب كبيرٍ رَحَبَتُه واسعةٌ فدخلتُ فيها ، فاذا رجلٌ وَسيمٌ حسَنُ الهيئة على فرسٍ قد دخلَ الرَحبة ، ومعه جماعة من غِلمانه وأتباعِه . فقال : مَن أنتَ ؟ وما حاجتُك ؟ فقلت : رجلٌ خائف على دمِه ، وقد استجار بمنزلِك ! فأدخلَنى منزلَه ، ثم صيَّرنى فى حُجْرةٍ تلى حرمَه . وكنتُ عنده فى ذلك على ما أُحِبُّهُ من مَطعَم ومَشرَب ومَلبَس

---

(١) هو تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى الشاعر الكاتب خدم فى دواوين الانشاء بالشام ومصر وحظى فى دولة الملك المؤيد شيخ صاحب جامع المؤيد بالقاهرة وله عدّة تصانيف أفضلها شرحه لبديعيّته وتوفى سنة ٨٣٧ هـ (٢) انتهت

(٣) مدينة على الفرات كانت حاضرة لدولة المناذرة خلفاء كسرى فى الجاهلية على العرب ، وبنيت بقربها الكوفة فى صدر الاسلام ثم خربت الحيرة بعد زمن

(٤) هى من شارات الدولة العباسية

لا يسألُنى عن شىء من ؛ حالى إلاّ أنهُ يركبُ فى كلِّ يوم رَكْبَةً ، فقلتُ له يوماً : أراك تُدْمِنُ[١] الركوبَ ، ففيمَ ذلك ؟ قال : إبراهيمُ بنُ سليمان قتلَ أبى صَبْراً[٢] ، وقد بلغنى أنهُ مختفٍ ، فأنا أطلبُهُ لأُدرِكَ منه ثأرِى . فكَبَّرَ واللهِ تعجُّبى . وقلت : القدَرُ ساقنى الى حَتْفى[٣] فى منزلِ مَن يطلُبُ دَمِى ! وكرِهتُ الحياةَ . فسألتُ الرجلَ عن اسمِهِ واسمِ أبيه فأخبرَنى . فعلمتُ أن الخبرَ صحيحٌ ، وأنا الذى قتلتُ أباه . فقلت له : يا هذا قد وجب علىَّ حقُّك ومن حَقِّكَ أن أدُلَّك على خَصْمِك وأقرِّبَ إليك الخَطْوَةَ ! قال : وما ذاك ؟ قلت : أنا إبراهيمُ بن سليمان قاتلُ أبيكَ ، فخُذْ بثأرك ! فقال : إنى أحسِبُك رجلاً قد مَضَّه[٤] الاختفاءُ فأحبَّ الموتَ . فقلتُ : لا والله ! ولكن أقولُ لك الحقَّ : يومَ كذا وكذا بسبب كذا وكذا . فلما علِمَ صِدْقى تغيَّر لونُه ، واحمرَّتْ عيناه ، وأطرقَ مَلِيّاً[٥] . ثم قال : أمّا أنتَ فستلقى أبى عند حَكَمٍ عدْل ، فيأخذُ بثأره . وأما أنا فغيرُ مُخفِرٍ[٦] ذِمّتى ! فاخرُجْ عنى ! فلستُ آمَنُ عليك من نفسى ! وأعطانى ألفَ دينار ، فلم آخُذْها منه ، وانصرفتُ عنه . فهذا أكرمُ رجلٍ رأيته بعد أميرِ المؤمنين

---

(١) تواظب (٢) أى قتله وهو محبوس مكتوفٌ لا يستطيع أن يدفع عن نفسه
(٣) الحتف : الموت (٤) أوجعه وأحزن قلبه (٥) الملىّ الزمن الطويل : أى أطرق رأسه وفكر طويلاً (٦) أى غير ناقض عهدى وتأمينى لك

إسلندة أو (أرض الجَلِيد)

إذا شخَصْتَ ببصرك إلى مُصوَّرِ القارَّةِ الأوربية فلعلَّكَ ناظرٌ فى زاويتها الشمالية الغربية جزيرةً كبيرةً مُمْعِنةً[١] فى المحيط الأطلنتى، بحيثُ تقرُبُ من الأرض الخضراء بأمريكا بنحو تسعة وتسعين ميلاً

وكأنى بك بعدَ قراءتك اسمَها (أرض الجليد) وقد صدَفْتَ[٢] عنها، ولم تحفِلْ بأمرها مُحدِّثاً نفسك ماذا عسى أن يكونَ شأنُ هذه الجزيرة المنعزلةِ عن العالَمَين القديم والجديد المندَرجةِ فى الأقاليم الثلجية. لكنَّك تعجَبُ جِدَّ العَجَب إذا علِمْتَ أنَّ هذه الجزيرة على هَوان اسمها وبُعد صُقْعها تَضُمّ بينَ جوانحها[٣] الضِّدَّين: الحرارةَ والبرودة، وتتفجَّرُ أرضُها الصخرية عن حَمَّاتٍ[٤] فوَّارةٍ بالماء الحارّ الذى ترتفعُ حرارتُه كثيراً فوق درجة الغَلَيان، ويصعَدُ فى الجوّ الى نحو مِائة قدم

وهذه الجزيرةُ صخرةٌ واحدةٌ متكوِّنةٌ من قِمم جبال نيرانٍ كانت ثائرةً فى الأزمان الغابرة، وخمَدتْ كلُّها إلاَّ واحداً يثورُ من حينٍ الى حين. ثارَ مرَّةً ثَوْرةً تباعدَ مَدَى حُمَمِه فيها حتى سقط بعضُه على ضِفاف نهرِ التيمس، وبين المَكانَين ما يربو على خمسمائةِ ميل

وفى هذه الجزيرة مجموعاتٌ من الحمَّات، منها مجموعٌ فى شمالىِّ الجزيرة

---

(١) أمعنَ فى الأمر: أبعدَ فيهِ ودخل فى أقصاه (٢) أعرضتَ عنها

(٣) أصل الجوانح الأضلاع والمراد بها جوانبها

(٤) الحمة كل عين فيها ماء حار ينبع. والفوارة التى يفور ماؤها

مِنْ بينها فوّارة عظيمةٌ وسطَ بِرْكةٍ تقذفُ الماءَ والدُّخانَ وحجارةَ الصَّوّانِ، وتجيشُ[١] هذه الفوّاراتُ جَيَشاناً خفيفاً كلَّ ساعتين أو ثلاث ساعات. أما نَوْبةُ هَيَجانها الشديدِ فتكون مرّةً كلَّ ثلاثينَ ساعةً تقريباً. ولا تستغرقُ النَّوْبةُ أكثرَ من عَشْرِ دقائقَ، تسبقُها هَمْهَمةٌ وأصواتٌ تنبعثُ من جَوْفِ الأرضِ، أشدُّ من هزيمِ الرَّعدِ[٢] ورَجْفةٌ[٣] تُزلزلُ الأرضَ

حمَّة فوّارة فى إسلندة

حولَها زِلزالاً شديداً، ثم ينبجسُ[٤] منها بغتةً جِسمٌ عظيمٌ من الماءِ يغشاهُ بُخارٌ كثيفٌ، ويندفعُ متفرّعاً، وقد يصعدُ فى الجوّ إلى أكثرَ من تسعين قدَماً، ويتجزأُ رَشَاشاً، وبعضُها يهتِكُ[٥] حجابَ البُخار، ويميلُ الى الأرض فينصبُّ عليها عَلَى شكلِ قنطرةٍ عجيبةٍ. ويتبارَى[٦] المشاهِدون فى قَذْف

(١) تفور وترتفع (٢) هزيم الريح والرعد صوته (٣) هزة (٤) ينفجر
(٥) يشق ويخترق (٦) يتسابق

كثير من الأحجار فى فُوَّهتها قبل ثَوَرانها ؛ فإذا جاء وَعْدُها[١] دَفعتها جملةً ، فكانت بهجةً للنظَّارةِ[٢] والرحَّالةِ الذين يؤمُّونها[٣] فى فصلِ الصَّيفِ من أنحاءِ العالَمِ يشاهِدون عجائبَ الخليقةِ

ومن هذه الفوَّاراتِ ما تفورُ فَوَرانًا هادِئًا ؛ فتُوضَعُ فى مائها قُدورُ الطعامِ ، فتُنْضِجُه حرارتُها

ويغسِلُ أهلُ هذه الجزيرةِ فى بعضِها ثيابَهم وآنيتَهم ، غيرَ أنَّ مياهَ كثيرٍ من هذه الفوَّاراتِ كِبْريتيَّةٌ لا يصلُح للاستعمال

ولا تُزرَعُ الحبوبُ فى أرضِها ، لبرُودةِ الجوِّ واستتارِ اكثرِها بالجليدِ اكثرَ السنةِ ، وإنما ينبُتُ فيها الخُضَرُ وبعضُ الأعشابِ

ومعيشةُ أهلِها من صَيدِ السمكِ ورَعْيِ الغنمِ والخيلِ ، ونساؤهم يشتغلْنَ بغَزْلِ الصُّوفِ ونَسْجِه ، ومنه يتَّخِذونَ أكثرَ مَلابسِهم لتَدْفئةِ أجسامِهم . وثَمَّةَ طائرٌ ينزِعُ زَغَبَ ريشِه من صَدْرِه ، ويُبطِّنُ به وَكْرَه لتدفئةِ فراخِه ، فيأخذُه الأهلُون ويغزِلونَه وينسِجونه ثيابًا مُعْجِبةً . وهم يُعْنَوْنَ أشدَّ العنايةِ بهذا الطائرِ ، ويقُونَه الأذَى ؛ وربَّما بنَوْا له الأوكارَ بأيديهم بمقرَبةٍ من دِيارهم يتألَّفونه بها ليستغِلُّوه

ويُعرَفُ أهلُ هذه البلادِ بالذكاءِ واللَّباقةِ[٤] . وهم على قلَّةِ مدارسهم شديدُو العنايةِ بتربيةِ أبنائهم وتأديبهم ؛ حتى قلَّ الأُمِّيُّ فيهم ، ولو كان ناشئًا فى أحقرِ الأكْواخِ . ولهم كُتُبٌ قليلةٌ إلَّا أنها مُفعَمةٌ بحوادثِ أسلافِهم الغريبةِ وأسبابِ هِجْرتهم العجيبةِ إلى هذه الجزيرة

---

(١) ميعادها (٢) المشاهدين (٣) يقصدونها (٤) الظرف ولين الأخلاق

ويرجعُ تاريخُ عُمْرانِ الجزيرةِ إلى نحوِ ألفِ سنةٍ من الميلادِ كانتْ قبلَها خِلْواً من البَشَرِ، مجهولةً لأهلِ هذا العالَمِ؛ فحدَثَ أن جماعةً من أهلِ النُّرْويج أرهقَهُم[١] مُلوكُهم ظُلْماً فهاجروا إلى إيقوسيا وإرلندة، ولكنَّ يدَ العَسْفِ والجَوْرِ ما زالتْ مُمْتَدَّةً إليهم، فأَنِفَ أُباةُ الضَّيْمِ منهم هذا العيشَ النَّكِدَ، وركبوا سُفُنَهم الى حيثُ تُطَوِّحُ بهم يدُ المقادير، فأرستْهم على هذه الجزيرةِ. فرأَوْا فيها مع شَظَفِ[٢] عَيْشِها وشِدَّةِ بَرْدِها ما يكفُلُ لهم الحُرِّيةَ؛ فجلبوا بقيةَ أهلِهم، وأسَّسُوا فيها حكومةً عادلةً. وقد ثبتَ أن من أُولئِكَ الأقوامِ مَنْ جاوَزُوا الجزيرةَ فى رِحلتِهم حتى بلغُوا سواحلَ أمريكا الشمالية؛ فسبقُوا كولُمْبَ الى كَشْفِها بدُهورٍ طويلة

ويبسُطُ الدانيمَرْقيُّون الآنَ حمايتَهم على هذه الجزيرة

وصايا الآباء للأبناء[٣]

كتاب السير هنرى سدنى[٤] لابنه فليب سنة ١٥٦٦ م

تلقَّيتُ منك رسالتَين إحداهما باللاتينيةِ والأُخرَى بالفرَنسية. فطربتُ لقراءتِهما وسُررتُ من جودة أسلوبِهما، وإنى لأرجو أن تمضىَ على هذا النحو فى كتابتِك، وتضربَ بهذا السَّهم فى إنشائك، حتى يتمَّ ما أتمنَّاه لك من التوفيق فى حياتك، والفلاحِ فى مُستقبلِك. ولما كانت هذه أُولَى رسائلى

---

(١) حمَّلوهم ما لا يطيقون (٢) شظف العيش ضيقه وخشونته وشدّته

(٣) ترجمه المرحوم عبد القادر حسن افندى الذى كان مدرساً بدار العلوم

(٤) أحد كبراء سُوّاس الانجليز (١٥٢٩ - ١٥٨٦م) تولى حكم ارلندة فأبدى مقدرة عظيمة

إليك لم أشأ أن تكون خاليةً من نُصْحٍ أُمَحِّضُكه، أو إرشاد أسوقه اليك. وإنما يحمِلُنى على ذلك حُبّى لك، وحُنُوّى عليك، وحِرْصى على نفعك. وأنت ما زلتَ حديثَ السن، فيَتيسرُ لك اتِّباعُ ما أُهديك اليه، وتفهَمُ ما أُثقّفُك به

ليكن أوّلَ همِّك أن تتعهّدَ نفسَك بذكر الله تعالى ذِكراً يصدُرُ عن سُوَيداء[1] قلبك، ويخرجُ من أعماق صدرِك. ولْتتفقّهْ تمام التفقُّهِ ما تقرؤه فى صلاتك بإعمال الفكرة وإجهادِ البصيرة والتوجّه بها الى من يخشَعُ له فؤادُك، ويعنُو[2] له وجهك. ولا تَسْهُوَنّ فى ذلك عن الغرض الذى قصدتَ والطلب الذى أردت؛ وليكن اتّباعُك لهذا الأمر اتباعَ من يرجو تعوُّدَه، ويروم إلْفَه؛ فتأتيه كلَّ يوم فى ساعات محدودة، حتى يكون الوقتُ عَوْناً لك على تذكر ما تعوّدت، واستحضار ما أَلِفتَ

هذا وليكُنْ إقبالُك على الدرس وقصدُك الى التحصيل فى الزمن الذى يخصصه بدرسك أُستاذُك اللَّبقُ ومرشدُك الحكيمُ. وأنا واثقٌ من أنه يقدّر لك الوقتَ الذى يكون كافياً لاستفادتك وتعلُّمِك، ضامناً لسلامةِ بدَنِك ودوامِ صحّتك. واذا قرأت شيئاً فلْتُنْعِم النظرَ فيما ينطوى عليه من المعنى. ولْتبحثْ عما كُتبَ لأجلِه كما تبحثُ فيما أُلْبِسَهُ من حُلّة اللفظ. فتغذُو لسانَك بجَزْل الكلام، كما تغذو عقلَك بجيّد المعانى؛ وتكفلُ اكتمالَ حِذْقِك ووفُور حلمك كلَّما كبِرتْ سِنُّك ومُدَّ فى أجلِك

ولْتكنْ يا بُنَىَّ متواضعاً لأُستاذِك مُطيعاً لأمرِه؛ فإنك إن لم تُدرِّبْ نفسَك على طاعة غيرك أخفقْتَ فى حَمْل غيرِك على طاعتِك. ولْتتجمّلْ بحُسن الأدب فى مُعاملةِ الناس، ولْتتنكّبْ[3] عما يُوجِدُهم[4] عليك من المَساءة

(١) سويداء القلب حبته ولبه (٢) يخضع ويذلّ (٣) مِلْ وانحرف (٤) يُغضبهم

والفظاظة . ولا تساوِ بينهم فى الأقدار ؛ بل أجلَّ كلاًّ منهم على قدْر منزلته، ونسبةِ موضعه : فإنه لا شىء أدْعَى الى رَفْعِك فى عيُونِهم ، وإنزالِك منزلةَ التَّجِلةِ من قلوبهم كالعناية بإحسانِ مُعاملتِهم ، كما أنهُ لا شىء أقلُّ من ذلك تكليفاً للمرء فى بَذْلِ نفيسٍ

وعليك بالقصْدِ فى مأكَلِك ، والاعتدال فى مَشْرَبك ؛ حتى لا يكونَ سَدُّكَ عَوَزَ بدنك هادماً لِصَرْح عقلِك مُخْمِدًا جَذْوةَ ذكائِك . ولتحرَّكْ أعضاءك بما يبعثُ فيها النشَاط مع مُحاذرةِ ما يؤذِى مفاصِلَك ، ويُضِرُّ بعظامك : فإن رياضة البدَن مَدْعاةٌ الى زيادة مَضائه وتجويدِ صحته . ولْيكنْ لك فى تنظيفِ جسمِك وتطهيرِ ثيابك سرورٌ تسعَى وراءه وتستقِلُّ بإدراكه ولا تُسْلِمنَّ نفسَك الى الحزنِ والكآبةِ بل ابعثها على ما تظفرُ فيه بالجَذَلِ والغِبطة ؛ فإنك إن لم تجدْ نفسك فى حالِ سرورك وأوان حُبورك أقدرَ على إحسان عملك ، واستخدام عقلك وبدنك ، كنتَ مخالفاً فى ذلك لطبيعةِ أبيك، وأقلَّ توفقاً منه الى ما يسعَدُ به الطالعُ وتحسُنُ به المَغبَّة. ولْتترفَّعْ فى لَهْوك عما يُسىء الناسَ من الغَمْز وتُقْرَعَ به أسماعُهم من قوارص الكَلِم ؛ فلعلَّ كلمةً تُحدِثُ جُرحاً تكونُ مُداواته أعزَّ من جراحات الأسِنَّة

ولْتُؤثِرْ يا بُنَىَّ الاستماعَ الى ما يقوله غيرُك والاعتبارَ بما يُلْقُونَه من الموعظة الحسنةِ ويُوردُونَه من الحكمةِ البالغةِ على أن تكون بادئاً بالحديث خائضاً فيه دونَهم، وإلاَّ كنتَ موْضعاً لسوءِ المَظِنَّة متَّهماً بشَيْنِ الغُرور بنفسك مذموماً لِثرثرتك وهَذَرك ، واذا سمعتَ قولاً حكيماً فلْيكُنْ همُّك أن تستودعَه ذاكرتَك لِمراجعته عند الحاجة اليه وروايتِه فى المقام المناسبِ له

ولا تعكّرْ صفو حديثك بساقطِ اللفظ وبَذِيء الكلام، ولْتَمقُتْه من غيرك حتى تجعلَ من نفسك عدُوًّا له يدرأ عنك شرّه، ويردُّ غارَتَه. وأجعلْ رائدَك الحياء اذا ضمّتْك المجامعُ والتفّتْ عليك المحافلُ، ولكنْ لا تُفْرِطْ فى الحياء فإنّ اتّهامَ السفهاءِ إيّاك بما يشاكلُ خفرَ العذارَى أنكى فى قلبك من رَمْى الفضلاء إيّاكَ بما يُشابهُ الطيْشَ والخُرْق. ولْتزنْ كلَّ ما يفوه به لسانُك قبل أن يقرعَ الأسماعَ. واذكرْ كيفَ خُلِقَ اللسانُ، وقد جُعِلتْ من دُونِه الأسنان والشَّفتان، كأنما هى تحبسُه عن الخروج الى ما عساه أن يُلْحِقَ بصاحبه الأذَى من سقطات القوْل كما يكْبَحُ الزمامُ أو العِقالُ جماحَ الدابّة. وإيّاك والكذبَ مهما حقرتَ الغرضَ الذى تعمّدتَ الكذب من أجله: فإنك إن فعلت عاجلَكَ تعوُّدُه، وإن تعوّدتَه خبُثتْ نفسُك وساء طبعُك؛ ولا تغتبط بقُدْرتك على سَوْق الباطل فى هيئةِ الحقّ وتمكّنِك من حَمْل الناس على تصديقك فإنه إذا انكشف أمرُك، وافتضحت سريرتُك لزِمك الخِزْيُ ولَصِق بك الشَّيْنُ، إذ لا شىء أجْلَبُ للعار، وأدْعَى الى اللوم، من أن يشتهرَ المرء بالكذب وإيثار الباطل على الحق

ولْتحملْ نفسَك يا بُنَىَّ على التحلّى بالفضيلة والتجمّل بشرفِ القصد وصدق الطوِيّة، حتى تألفَ الاستقامةَ فى فعالك، وتغرسَ حبَّ الخير فى نفسك، وتأنفَ التسفُّلَ الى عملِ الشرّ مهما غالبَك الدافعُ اليه، وناضلتْك الرغبةُ فيه. واذكر يا بُنَىَّ شرفَ عُنصُرك وكرمَ مَحْتِدك فى بيت أبيك وأمّك، واعلمْ أنّكَ لنْ تفوزَ بالمحافظةِ على مقامِ أسرتك الا باتباع الأخلاق الكريمة وبإيثار الفعالِ القويمة

والآنَ يا بُنيَّ أقِفُ عندَ هذا الحَدِّ من النُّصْح ، إذ أخشى إن أنا أمعنتُ فيه أن يثقُلَ عليكَ عِبْؤُه . واذْ كان من شأنه أن يغْذوَ عقلك بلبان الحق والفضيلة فإنى مُتْبعه بأكثرَ منه تبعاً لشبابك وتغير أطوارك

أبوك الذى يقيم عَلَى حبك ما أقمت عَلَى خَشْيَة الرحمن

السير هنرى سدلى

الضفادع

الضِّفْدَعُ دابَّةٌ صغيرةٌ من الزَّواحف تُكنَى بأُمِّ هُبَيْرَةَ

وأنواعُها كثيرةٌ : منها الضَّفادعُ العاديَّةُ ، وهى كثيرةُ الانتشار ، والمتسلِّقةُ والسامَّةُ

والضفادعُ من أغرب الزواحف فى تكوين خَلْقها وتركيب جسمها وحالِ مَعيشتها . فرأسُها متَّصلٌ بجملةِ جسمها ، وقلَّ مِنْ أنواعِها ما يتميز عُنُقُه . وفمُها واسعٌ يحتوى فكُّه الأعلى فى بعض أنواعها على أسنانٍ دقيقةٍ حادَّةٍ متلاصقةٍ صفًّا واحداً أو صفَّين متوازيين ، وفى بعض آخر يتجرَّدُ الفكَّان من الأسنان جُملةً . وحَنْجَرةُ الصَّوت فيها فى نهايةِ الفَم ؛ ولذلك كان فمُها الواسعُ أشبهَ ببُوقٍ يرتفعُ به صوتُها ويَجهُرُ ، فيكونُ منه النقيقُ المعروفُ . وهى تنِقُّ نقيقاً يختلفُ فى القوَّة والجَهارة ؛ فيتعذَّرُ عَلَى سامعها أن يستدلَّ بصوتها عَلَى ما بينه وبينَها من المسافةِ . ويزدادُ نقيقُها فى ليالى الربيع والصيف ، حتى تَحْرِمَ من جاورها لذَّةَ الرُّقاد . وللذَّكرِ منها صوتٌ رَنَّانٌ ليس للأُنثى

وتتفاوتُ أرجلُها فى الطُّول ؛ فتكونُ يداها أقصرَ من رجليها كثيراً ؛ فهى لذلك لا تُحسنُ المشىَ بل تقفزُ قفزاتٍ شديدةً يكونُ اعتمادُها فيها على أرجُلها ؛ وكذلك تفعلُ فى سِباحتِها اذ يبطُلُ عملُ يديها ، فتلتصقان بجسمها ، وتدفعُ الماءَ برجليها . وليَديها أربعُ أصابعَ وأثرٌ للإبهام . وفى أرجُلها خمسٌ يصلُ بعضَها ببعضٍ غِشاءٌ جِلْدِىٌّ يُعينُها على السباحةِ . وبَطنُها مُسطَّحٌ أملسُ . وظهرُها خشِنٌ ذُو غُدَدٍ وحراشفَ بارزةٍ . وفِقارُ ظهرِها قليلةٌ متماسكةٌ كأنها عَظمٌ واحدٌ . وليس لها أضلاعٌ إلاَّ هَنَاتٌ[1] ناشئة من الفِقارِ . وليس للكبيرِ منها ذَنَبٌ . وعضلاتُ الفَخِذِ والساقِ قريبةُ الشَّبَهِ من عَضلاتِ الإنسانِ . وقد استعانَ الأطباءُ قديماً وحديثاً بتشريحِ جسمها عَلَى دَرْسِ أهمِّ وظائفِ الأعضاءِ فى الجسمِ الإنسانىِّ ، وأجرَوْا عليها تجارِبَ طبيَّةً وعلميَّةً فى تحقيقِ دَوْرةِ الدَّمِ والخواصِّ الكهربائية ؛ إذ كانت تقوَى على احتمالِ أشدِّ النوازلِ ؛ فلا تموتُ إذا جُرِحتْ ، وتبقَى فيها الحياةُ بعدَ استئصالِ قلبِها وأحشائها . واذا فارقتْها الحياةُ بَقِىَ منها ذِماءٌ[2] يُحرِّكُ دورةَ الدَّمِ وقوَّةَ التقلُّصِ ، ويبقى به الحِسُّ متنبِّهاً فى بعضِ أعضائها عدةَ دقائقَ بل ساعاتٍ . ولها كَبِدٌ وطِحالٌ وقلبٌ يخالِفُ نبضُه نبضَ القلوبِ ، بل يخالفُ نبضُ الجانبِ منه نبضَ الآخرِ . وتتنفَّسُ الضفادعُ من الأنفِ ؛ إلاَّ أن فى تنفُّسِها بعضَ غرابةٍ ؛ فهى تزْدَرِدُ[3] الهواءَ ازدراداً على دَفَعاتٍ كازدرادِ الطعامِ ، فيدخلُ الهواءُ من حنجرتِها ثم تسدُّها ، فتدفعُ عضلاتُ

(١) جمع هَنَة وهى كناية عن الشىء اليسير الصغير (٢) الذِّماء : بقية الروح فى الجسد (٣) تبتلع

للعنق الهواء إلى الرئتين . فإذا أخذتَ ضِفدَعاً ، وفتحتَ فاهاً مدةً طويلةً اختنقتْ وماتتْ على مثال ما يختنقُ الإنسانُ إذا سُدَّ فوهُ وأنفهُ . ومن غرابة تنفُّسِها أيضاً أنها إذا نُزِعتْ رئتاها عاشتْ بدونهما مدَّةَ خمسةِ أسابيعَ أو ستةٍ تتنفَّسُ فيها من جلدِها

أطوار خِلقة الضفدع

(١) بيض فى مبيض الضفدعة
(٢) بيض بعد الوضع توًا
(٣) بيض قبيل الفقس
(٤) دعموص بعد الفقس
(٥) دعموص نشأ له رأس وزعانف
(٦ و ٧) دعموص زالت زعانفه
(٨ و ٩) دعموص نشأت له رجلان
(١٠) دعموص نشأت له يدان ورئتان
(١١) ضفدعة لما يندغم ذنبها الصغير
(١٢) ضفدعة تامة الخلقة

وتولدُ الضِّفْدَعِ يتعاقبُ على أطوارٍ تُحَيِّرُ العقولَ : من انتقالها من طَوْرِ السَّمَكِ إلى حيوانٍ ذى رِئَتينِ يمشى على اليابسةِ . فهى تبيضُ بَيْضاً عَلَى هيئةِ نُقَطٍ سُودٍ ، فيعلقُ ببعضِ أعشابِ الماءِ ، ثم يُفقَسُ عن شبه دودةٍ ذاتِ أطرافٍ كثيرة كالأهداب ، ويظهرُ فيها فى اليوم الثانى الرأسُ متصلاً بذنب ذى غُضُونٍ[1] جلدية ، ثم فى اليوم الثالثِ يتكوَّنُ فى الرأس خياشيمُ كخياشيم السَّمَكِ ، ثم تظهرُ لها بعد ذلك أربع زعانف[2] ذاتُ أصابعَ كثيرةٍ ، فلا تزالُ تصغر حتى تزول ، ثم تنشأُ لها رجلانِ ثم

(١) جمع غَضْن وهو الثنىّ فى الشىء (٢) جمع زِعْنِفة وهى الطرف والجناح من السمك

يدان، ويقصرُ الذَّنَبُ بالتدريج حينما تُصبحُ الارْجُلُ صالحةً للسِّباحةِ، فتستعيضُ بها عن الاذنابِ، وتزولُ الأذنابُ والخياشيمُ، ويَتِمُّ تكوُّنُ الرِّئتين فتصلُحان للتنفُّسِ فى الهواءِ. وتَتِمُّ هذه الأطوارُ فى الجوِّ المعتدلِ الحرارةِ فى مُدَّةِ شهرٍ تقريباً. ويسمَّى هذا الطورُ طورَ الحضانةِ، ويسمى الحيوانُ حينئذٍ دُعْمُوصاً

ويعيشُ الحيوانُ طولَ هذه المدّة فى الماءِ والمستنقعاتِ والرُّطوباتِ. فإذا قَوِىَ عَلَى المَشْيِ والطَّفْرِ[1] خرج الى اليابسةِ يلتمسُ رِزقَه من الحشَراتِ والدِّيدان

وفى الجهات المجاورة للمستنقعاتِ يخرُجُ منه فى الليالى الرَّطْبةِ عددٌ عظيم؛ حتى يتوهمَ الناسُ أن السماءَ تُمْطرُ ضفادعَ

ولو سَلِمَ ما يُنقَفُ من بَيْضِ الضفادع فبلغَ أشُدَّه لغَطَّتِ الضفادعُ سَطْحَ الأرضِ فى بعض البلاد، غيرَ أنَّ السمكَ يأكلُ من صغارِها مُعظَمها. ويسطو عَلَى كبيرها أكثرُ ذواتِ الفِقار: من السمك إلى الإنسان. وللأفاعى والطيورِ عليها تسلُّطٌ عظيمٌ. وقد قدَّروا ما يسلَمُ من بَيضها بواحدٍ من ألفٍ

وتعيشُ الضفادعُ على شُطوط الأنهارِ والبِرَكِ والغِياض[2] فتندفنُ بين الأعشاب وأوراق الأشجار أو تحفِرُ على ضِفاف المستنقعات أجحاراً فى الأرض تقطنُها نهاراً وتخرُجُ منها ليلاً، وعندما يكون الجوُّ رطباً أو دَجْناً[3] وتأكلُ الضفادعُ الحشراتِ والدِّيدانَ بشراهة. فإذا جاء الشتاءُ انقطعتْ

---

(١) الوثب (٢) جمع غيضَة، وهى الأجمة ومجتمعُ الشجر فى مَغِيض ماء

(٣) إلباس الغَيمْ الأرض وأقطار السماء

عن الأكل ؛ حتى اذا اشتدّ البردُ انطمرتْ فى الطين واستولى عليها السُّبات[١] حتى الربيع

وبعضُ الناس يأكلونَ لحومَها وخاصةً أوراكَها وظُهورَها . وهى فى فرنسا لَوْنٌ لذيذ من الطَّعام يُتباهَى بأكلِه ، ويُعتبرُ ألذَّ من ألوانِ الدَّجاجِ

ومن الضفادعِ نوعٌ عظيمٌ ربما بلغ طولُه واحداً وعشرين قيراطاً ، وهى شَرِهةٌ تأكلُ صِغارَ البطِّ وصغارَ الأفاعِى والفأرِ ، وقد تأكلُ صغارَها . ولا تلتهمُ الحيوانَ إلاّ حيّاً . وهى منتشرةٌ فى الولاياتِ المتحدة . وقد يُلقُونها فى الآبارِ لاعتقادِهم انها تُطهّرُها

ومن الضَّفادع نوعٌ يتسلَّقُ الأشجارَ ، ولها أظافرُ وغُدَدٌ مَصَّاصةٌ . وهى صغيرةُ الحجْمِ ، خفيفةُ الحركةِ ، خشِنةُ البطنِ ، كثيرةُ حراشفِ الجلدِ . ويتلوَّنُ جسمُها تلوُّنَ الحِرْباءِ ؛ فتَتشبَّهُ بلَوْنِ ما يُجاورُها من الأجسامِ اختفاءً من أعدائها وهى كثيرةُ النقيق وخاصةً عند دُنُوِّ المطر

وفى بُرْنيُو جنسٌ من الضَّفادعِ المتسلقةِ يعرَفُ بالطيَّارِ . ويمتازُ بطولِ أصابعِه واتصال بعضها ببعض بغشاءٍ جلدِىّ . فإذا بَسَطَتِ الضِّفدعُ غِشاءَ أصابعها ، ونفَخَتْ جسمَها تمكنتْ من الوَثَبانِ أو الطيرانِ من الأشجارِ المرتفعةِ إلى الأرضِ . ولونُ هذا الجنسِ أخضرُ مُدْهامٌ[٢] وبطنُه أصفرُ ، وطوله نحوُ أربعة قراريطَ ، ومِساحةُ غِشاءِ أرجُلِه نحوُ اثنىْ عشرَ قيراطاً مُربَّعاً . وفى أطراف أصابعه غُدَدٌ مَصَّاصةٌ يتسلَّقُ بها

ومن الضَّفادع نوعٌ لحمُه سامٌّ . وتُعرَف بقوة لسانها وخُلُوِّ فكها من الأسنان

---

(١) النوم (٢) أخضر ضارب الى السواد

جملةً وثِقَلِ بَدَنِها، وإنّ الغالبَ فى سيرها الزحفُ، وهى تقوَى على احتمالِ الجُوع وقلةِ الهواءِ مدّةً طويلةً . وقد وجدوا بعضَها بين الصُّخورِ الصُّلبةِ أو فى جَوْفِ شجرةٍ لا صِلةَ بينها وبين الهواءِ . ومن أنواع هذا الضفدعِ السامّ ضفدعٌ أخضرُ طولُه نحوُ ثلاثة قراريط، قاتم اللون إلى الصُّفرةِ، وفى وسط ظهره جُدَّةٌ [١] صفراءُ لامعةٌ، ولون أسفلِ جسمه ضاربٌ الى الصُّفرة مُتَرَقِّط رُقَطًا سوداً، وعلى فخذيه أطواقٌ سوداء قُزَحِيَّةٌ [٢] . ويعرفه أكلةُ لُحوم الضفادع

صِيانةُ مالِ الأُمَّة

روى صاحب الكَشكُول [٣] عن علىّ بن أبى رافع [٤] أنهُ قال :

قال كنتُ على بيتِ مالِ علىّ بن أبى طالب (رضى الله عنه) وكاتبَه . فكانَ فى بيت مالِه عِقدٌ ؛ فأرسلتْ الىَّ بنتُ علىّ بن أبى طالب ، فقالت لى :

---

(١) الجدة : الخطة فى ظهر الحمار وغيره يكون لونها غير لون سائر جسده

(٢) القزحة الطرائق من الألوان : أى ان سوادها متدرج طرائق

(٣) هو العالم المصنف الكاتب الشاعر الرحالة محمد بهاء الدين بن حسن بن عبد الصمد العاملى ، ولد ببعلبك سنة ٩٥٣هـ ونشأ فى بلاد الفرس وساح نحو ثلاثين سنة فى كثير من الممالك، ودخل مصر وألف بها كتابه الكشكول، ثم رجع الى بلاد الفرس وألف كثيراً من الكتب. وطبع له فى مصر غير الكشكول كتاب المِخْلاة وتوفى سنة ١٠٣١هـ بأصبهان ودُفِن بطوس

(٤) كان خازناً بعد أبيه ، لعلى بن أبى طالب وأبو رافع مولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبطى الأصل مات فى زمن على . وتروى هذه القصة عن رافع نفسه لاعن ابنه

إنه قد بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقدَ لؤلؤ، وهو فى يدك، وأنا أُحِب أن تُعيرَنيه، أتجمّلُ به فى يوم الأضحَى. فأرسلتُ اليها: «العقدُ عاريةٌ مضمونة مردودةٌ بعد ثلاثة أيام الىَّ؟ بنتَ أميرِ المؤمنين!». فقالت: نعم! عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام. فدفعتُه اليها. وإن أميرَ المؤمنين عليه السلام رآه عليها فعرَفه. فقال لها: من أين جاء اليك هذا العِقْد؟ فقالت: أستعرتُه من ابن أبى رافعٍ خازنِ بيت مالِ أمير المؤمنين لِأتزيّنَ به فى العيد. ثم أردّه. (قال) فبعث إلىَّ أميرُ المؤمنين فجئتُه. فقال لى: أتخون المسلمين يا بن أبى رافِع؟ فقلت: معاذَ اللهِ أن أخونَ المسلمين؛ فقال: كيف أعرتَ بنتَ أمير المؤمنين العِقْدَ الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم؟ فقلتُ. يا أمير المؤمنين إنها بنتُك، وسألتْنِى أن أُعيرَها العقدَ تتزيّنُ به، فأعرتُها إياه عاريةً مضمونةً مردودةً على أن تردّه سالماً الى موضِعه. فقال: رُدّه من يومِك! وإياك أن تعودَ الى مثلِه فتنالَك عقوبتى. ثم قال: ويلٌ لابنتى لو كانت أخذت العِقدَ على غير عارية مضمونة مردودة لكانت إذاً أوّلَ هاشميةٍ قُطِعَتْ يَدُها فى سرقةٍ. فبلغَتْ مقالتُه (كرّمَ الله وجهه) ابنتَه. فقالت له: يا أميرَ المؤمنين أنا ابنتك وبِضْعةٌ منك! فمَنْ أحقُّ بلُبسِها منى؟ فقال لها: يا بنتَ ابنِ أبى طالب لا تذهبَنّ بكِ نفسُكِ عن الحقّ! أكلُّ نساءِ المهاجرين والأنصار يتزيّنَّ فى مثل هذا العِيد بمثل هذا؟ (قال): فقبضتُه ورَددْتُه الى موضِعه

الشمس[١]

الشمسُ كوكبٌ مُضيءٌ بذاتِه. وهى أعظمُ الكواكب المرئيّة لنا منظراً، وأسطعُها ضوءاً، وأغزرُها حرارةً، وأجزلُها نفعاً للأرضِ التى نسكُنها ولكثيرٍ من أخواتِها سيارات الشمس وبناتِها

والشمسُ كرةٌ متأجّجةٌ ناراً، حرارتُها أشدُّ من حرارةِ أىّ ساعورٍ[٢] أرضىّ. ويبلغُ ثِقلُها ثلثمائةِ وَزْنٍ من ثِقلِ الأرض، وهى أكبرُ منها جِرماً بثلثمائةِ ألفٍ وألفِ الفِ مرّةٍ

وتدورُ الشمسُ على مِحْورِها من الغرب الى الشرق مرةً واحدةً فى نحو خمسةٍ وعشرين يوماً. وتبعُدُ عنا بنحو اثنين وتسعين ألفَ ألفِ ميلٍ وخمسِمائةِ ألف ميل. وهى مع كلّ هذا العِظَمِ الهائلِ لا تُعَدُّ فى النجوم الكُبرى، بل إن أكثرَ ما نُشاهدُه من النجوم الثابتةِ شموسٌ أكبرُ من الشمس بألُوف الالوف، والشمسُ بسيّارتها تابعٌ من توابع أحَدِها

وسَطْحُ الشمس مَهَبُّ عواصفَ وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ تُثيرُ فى جوّها أشوِظَةً[٣] هائلةً، تندلعُ[٤] ألسنتها المتأججة عن مُحيط كرتها أميالاً. وقد وصفَ بعضُ العلماءِ لهباً ارتفعَ من سطحِها لأوّلِ وَهْلةٍ نحوَ أربعينَ ألفِ ميل فى الفَضَاء، ثم ازدادَ بَريقاً وتألُّقاً[٥]، ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعةٍ الى خمسين وثلثِمائةِ ألف ميل، ثم جعلَ يضؤُل ويضعُفُ، فلم تمضِ ساعتانِ حتى

---

(١) ملخص من كتاب محاسن الطبيعة للورد «أڤبرى» وغيره من الكتب المعتبرة

(٢) الساعور النار نفسها أو مَوْقِدها (٣) الشُّواظ اللهب (٤) اندلع اللسان خرج من الفم (٥) تلألؤاً

اضمحلَّ اضمحلالاً. غيرَ أن ما وصَفَه هذا العالم ليس إلاَّ من قبيلِ النوادرِ، ولكنَّ ارتفاعَ اللهبِ نحوَ مائةِ ألف ميل ليس بغير العـاديّ. وكثيراً ما تبلُغُ سُرعةُ اللهب مائةَ ميلٍ فى الثانية. وأكثرُ مادَّةِ الشمس من عُنصرِ المُحْذِى (الإيدرُجين) المتَّقد

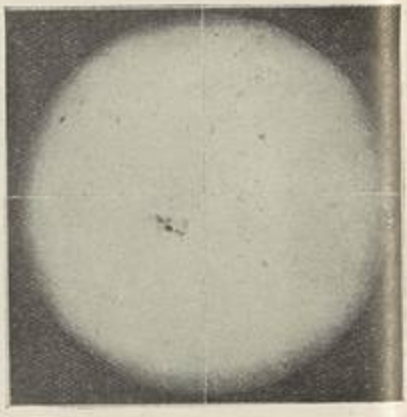

صورة شمسية للشمس
صورت فى ٨ فبراير سنة ١٩٠٥

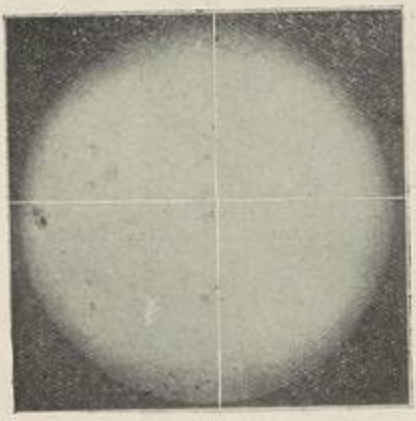

صورة شمسية للشمس
صورت فى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٥

وبرَصْدِ الشمس مراراً بالمِرْقَب المُغَشَّى بالسَّوادِ شُوهدَ فى صَفْحة قُرْصِها نُكَتٌ سُودٌ وكَلَفٌ يُشَوِّهُ مُحَيَّاها، كأنما هى كُرةٌ سوداءُ الباطنِ غُلِّفَتْ بسطحٍ ساطعٍ من الصَّعَّادات يتخلَّلُه نُقَبٌ يظهرُ تحتَها السوادُ. ولا تزالُ حقيقةُ هذه البُقَعِ موضوعَ البحث والتعليل عند الفلكيين. ومن تنقّلِ هـذه النكت عُرفت دورتها على محورها

وللشمس سياراتٌ أو أبناءٌ انفصلتْ منها منذُ أزمانٍ سحيقةٍ، عُلِمَ منها الى الآنَ نحوُ ثمانية، هى على ترتيب الأقربِ منها فالأقرب: عُطارِدُ فالزُّهْرَةُ فالأرضُ فالمرّيخُ فالمُشْتَرِى فزُحَلُ فأُرانوسُ فنِبْتُونُ. ولم تعلَمْ كلُّ شُؤونِ

هذه السيارات حقَّ العلم وإنما ألمَّ العلماء بمعرفة موادّها وكثافتها وأبعادها، ولكن أمرَ الحياة فيها لم يزلْ مُبْهَماً مُسْتَغْلِقاً اللهمَّ إلاَّ فى الأرض وقرها

أما مقدارُ النِّعَم التى سخَّرها اللهُ لنا بوُجود الشمس فمِمَّا لا يُحصيه العدّ؛ فهى مبْعَثُ حياتنا وحياة الحيوان الذى يعيشُ معنا، ومصدرُ نُورِنا ونارنا وحرّنا وبَرْدنا. وهى التى تُحيلُ مياهَ البحارِ بُخاراً، وتُقلُّها فى الجَوِّ غُيوماً، وتُنزلُها على الأرض أمطاراً، حيثُ تجرى جداولَ وأنهاراً، فتروى زَرْعنا، وتُنْمِى غِراسَنا، وتُثيرُ الرياحَ، وتُطلِعُ الأنواء، وتُزْجِى[1] السُّفُنَ والبواخرَ فى عُباب الماء، وتدفعُ القُطُراتِ الحديديةَ، وتُديرُ الآلاتِ البُخارية، وتُنيرُ المصابيحَ الدُّخانية والزيتية، إذ ليس الفحمُ الحجَرىُّ والزيتُ الأرضىُّ إلاّ حرارةَ نارِها المُدَّخرَةَ منذُ قديمِ الدهورِ لينتفعَ بها أحياءُ هذه العُصور، وما النهارُ المُبْصِرُ، والليلُ المُظلِمُ، الا آيتانِ من آيات اللهِ المُسَخَّرةِ لنا بتسخيرِ هذا المخلوق العجيب: ففى النهارِ نسعَى فى مَناكب الأرض لابتغاء رزْقنا، وتدبيرِ معاشِنا، وتنظيمِ شُؤون حياتنا، ونُسَبِّحُ بحمدِ ربّنا، ونعتبرُ بآثارِ من سبقَنا، وفى الليل نسكُن لإراحة أبدانِنا، واستجمام[2] قُوانا، واستيفاء حظِّنا من النومِ الذى به نستديمُ صِحّتَنا، ونستعيضُ ما فقَدناه بأعمالنا، وننظرُ فى مَلكوتِ السمواتِ وما خلقَ اللهُ من شىءٍ فى حركات الكواكب وانتقالِها، وبديعِ صُورِها وألوانِها، فتعْنُو وجُوهُنا، وتتضاءلُ كِبرياؤُنا، أمامَ قُدْرة خالِقنا العظيمِ؛ فسبحانَه من إلهٍ حكيمٍ

وما الألوانُ التى نراها فى نَوْر الأزهار وريش الأطيار ونفائس المصنوعات

---

(١) تسيّر (٢) استجماع

إلاَّ أثرُ وُقوعِ أضوائِها على هذه المَرْئيات وانعكاسها[٣] عَلَى أبصارِنا؛ فإنَّ نورَ الشمس الأبيض مُؤَلَّفٌ من سبعة ألوانٍ أصلية[٤] تنشأُ منها كلُّ الألوانِ الفرعية، وهى الأحمرُ، والبُرْتقالىُّ، والأصفرُ، والأزرقُ، والأخضرُ، والنِيلَجِىُّ، والبَنَفْسَجِىُّ. فمن الأجسام ما لا يمتصُّ شيئاً من هذه الألوانِ، بل يَعكِسُها كلَّها عَلَى العين، فيبدو أبيضَ ناصعاً كزهرةِ الياسَمين، ومنها ما يمتصُّ بعضَها ويعكِسُ باقِيَها، فيتلوَّنُ بلَونِ ما يعكِسُ منها؛ فإذا أبصرتَ ورقةَ الشجر خضراءَ عرَفت أنها اختزنت من ضَوْءِ الشمس ستةَ ألوان، ورَدَّتْ الى عينيك سابعها، وهو الأخضر لأن فيما ادَّخرَتْهُ نفعاً لها، وليس بها الى ما لفَظَتْه افتقارٌ، ومنها ما يردُّ لونين أو أكثرَ، فيبدو لونُه مَزيجاً بين هذه الألوان السبعة. وهذه الألوان من عجائب صُنعِ الله فى الأرض لتمييز بعضِها من بعض؛ فقد يتماثلُ الشيئان شَكْلاً، وحَجْماً، وصَلابةً، ولِيناً، وشمًّا ثم لا يتباينانِ إلاَّ من حيثُ اللونُ؛ فيكونُ اللونُ آيةَ تبايُنِهما، وأكثرُ ما يكون ذلك فى الأزهارِ

وتنوُّعُ الألوانِ هو السِرُّ فى جمالِ المَرْئياتِ من مَشاهِدِ الطبيعةِ وبدائعِ الصناعةِ، وإن أعظمَ المُصوِّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يُبرِّزُوا على غيرِهم، ويدُلُّوا على ذكائِهم ونُبوغِهم الاَّ ببراعتِهم فى مُحاكاةِ ألوانِ الطبيعة المُؤتلفةِ وأشكالِها المتجانِسة. وإنما يتمُّ لهم ذلك اذا عرَفوا كيفَ يمزُجُونَ من الأصباغِ ما يستخدِمون به ألوانَ النُّورِ خيرَ استخدامٍ، وينتفعون بهِ أحسنَ انتفاعٍ.

(١) انعكس مطاوع عكس، كما فى الأساس (٢) امكن ارجاع هذه الألوان فى الصناعة الى ثلاثة

وقد سخَّر علماء الطب تباينَ الألوان فى كشف النِّقاب عن حقائق الجراثيم؛ فإنَّ منها مالا يتضح للعين فى المِجْهَرِ إلاَّ اذا أُلْقِىَ عليه صِبْغٌ خاصٌّ يؤثِّر فيه لونُه فيُصبغُ به

ولأمواج الشمس الضوئية سُرعةٌ معلومةٌ تسيرُ بها، فاذا انخفضتْ هذه السرعةُ عما هى عليه لم تعُدِ العينُ قادرةً على رؤيتها، لأنها تستحيلُ الى مظهرٍ آخرَ غيرِ مَظْهرِ الضوء والحرارة. وليس يُنكرُ ما للضوء والحرارةِ معاً من الأثر الحسَنِ فى تنقيةِ المساكن مما يقطنُها من الجراثيم القتَّالةِ والعفَنِ المُضْنى، ولذلك قِيلَ: إن الدارَ التى تدخلُها أشعةُ الشمس لا يدخلُها الطبيبُ

وما الشمسُ وما تركيبُها؟

سؤالٌ ظنَّهُ السلفُ مُشكلةً لا قِبَلَ للإنسان بحلِّها، كما صرَّحَ به العلاَّمةُ «كَنْت[1]» إذ يقولُ عن الأجرامِ السماويةِ: «أما تعيينُ أشكالِها وأقيامِ أبعادِها وزنةِ أجرامِها ومعرفةُ حركاتِها فمِمَّا يتسنَّى لنا تصوُّرُ إمكانِه. وأما أن نصلَ الى درسِ تراكيبها الكيميائيةِ والمعدنية بوسيلةٍ من الوسائل فذلك من قَبيل تعليل النفس بالمستحيل». وقد ساءَ فالُ هذا العلامةِ المُتشائم، وقُدِّرَ للبشرِ أن يجرُوا شوطاً بعيداً فى سبيل إدراك ما كان يعزُّ إدراكُه ويُعَدُّ مستحيلاً. وظهرَ بتحليل أضوائِها أنَّها مركَّبةٌ من عناصرَ لا تُحْصَى بلغَ المعروفُ منها الى الآنَ نحوَ ستةٍ وثلاثينَ عُنصُراً من العناصر التى نعرفُها فى أرضِنا؛ وأكثرُها انتشاراً فى الشمس هو عُنصر المُحْذِى (الإيدروجين). ولم تُمِطْ يدُ العلم النِّقابَ بعدُ عن كلِّ ما كُنا نجهَلُه من أمرِ أُمِّ الأرض (الشمس)، ولكنَّ ما بدا لنا من خفىِّ حقائقِها يدُلنا على قُرب الشَّبَهِ بين الأُمِّ وبنتِها

(١) فيلسوف ألمانى شهير (١٧٢٤ - ١٨٠٤م)

جابر عثرات الكرام

روى صاحب ثمرات الأوراق[1] أنهُ كان فى أيام سليمانَ بنِ عبدِ الملك رجلٌ يقال له خزيمةُ بن بِشْرٍ من بنى أسَدٍ مشهورٌ بالمروءة والكرمِ والمُواساة، وكانت نعمتُه وافرةً. فلم يزل على تلك الحالة حتى احتاج إلى إخوانِه الذين كان يُواسيهم ويتفضّلُ عليهم، فواسَوْه حِيناً، ثم مَلُّوه. فلما لاح له تغيُّرهم جاء امرأتَه، وكانت ابنةَ عمّه فقال لها: يا بنتَ العمّ! قد رأيتُ من إخوانى تغيُّراً، وقد عزمْتُ على لُزومِ بيتى الى أن يأتيَنى الموتُ. ثم أغلقَ بابَه عليه، وأقامَ يتقوّتُ بما عنده حتى نفِدَ، وبَقِى حائراً فى حاله. وكان عِكْرِمةُ الفيّاضُ والياً على الجزيرة. فبينما هو فى مجلسِه، وعنده جماعةٌ من أهل البلد إذْ جرَى ذِكرُ خزيمةَ بن بِشر؛ فقال عِكرمةُ: ما حالُه؟ فقالوا: صارَ فى أسوإ الأحوال، وقد أغلقَ بابَه ولزِمَ بيتَه. فقال عِكرمةُ الفياضُ (وما سُمِّىَ الفياضَ إلاّ للإفراط فى الكرم): فما وجدَ خزيمةُ بنُ بِشر مُواسياً ولا مكافئاً؟ وأمسك عن ذلك. فلما كان الليلُ عمَد الى أربعةِ آلاف دينارٍ، فجعلَها فى كيس واحدٍ، ثم أمر بإسراج دابّتِه، وخرَجَ سرًّا من أهله، فركِبَ ومعه غلامٌ واحدٌ يحمِلُ المال، ثم سار حتى وقف بباب خزيمةَ. فأخذ الكيسَ من الغلامِ ثم أبعدَه عنه، وتقدّم الى الباب فطرَقه بنفسِه، فخرج خزيمةُ، فقال له: أصلحْ بهذا شأنَك. فتناوَله فرآه ثقيلاً، فوضعَه وقبَضَ عَلَى لِجامِ الدّابّة،

---

(١) تقدمت ترجمته

وقال له : مَنْ أنتَ ؟ جُعلتُ فداءكَ ! قال له : ما جئتُ فى هذا الوقت ، وأنا أُريدُ أن تعرِفَنى! قال خزيمةُ : فما أقبلُه أو تُخبرَنى مَن أنت . قال : أنا جابرُ عَثَرات الكرام . قال : زِدْنى. قال : لا ! ثم مضَى . ودخلَ خزيمةُ بالكيس الى امرأته، فقال لها : أبشرى ! فقد أتى اللهُ بالفَرَج ! فلو كان فى هذا فلوسٌ[١] كانت كثيرةً ، قُومى فأسْرِجى ! قالت : لا سبيلَ الى السِّراج . فبات يتلمَّسُ الكيس ، فيجدُ تحتَ يده خشونةَ الدَّنانير . ورجعَ عِكرمةُ الى منزله فوجدَ امرأتَه قد افتقدَتْه وسألت عنه ، فأُخبِرَتْ بركوبه منفرداً ، فارتابت ولطمتْ خدَّها . فلما رآها على تلك الحالة قال لها : ما دَهاكِ يا بنتَ العم ؟ قالتْ : سوءُ فعلِك بابنةِ عمِّكَ ! أميرُ الجزيرةِ يخرجُ بعدَ هَدْأة من الليل منفرداً عن غِلمانه فى سِرٍّ من أهله إلاّ إلى زَوْجةٍ أو سُرِّيَّةٍ[٢] ؟ فقال : لقد علمَ اللهُ ما خرجتُ لواحدةٍ منهما ! قالت : لا بُدَّ أن تُعلِمَنى . قال : فاكْتُميه إذاً ! قالت : أفعلُ . فأخبرَها بالقصة على وجهها . ثم قال : أتُحبِّين أن أحلِفَ لكِ ؟ قالت : لا ، قد سكنَ قلبى ! ثم لما أصبحَ خزيمةُ صالحَ غُرماءه ، وأصلحَ من حاله ، ثم تجهَّزَ يريدُ الخليفةَ سليمانَ بنَ عبد الملك بفِلَسْطينَ . فلما وقفَ ببابه ، دخل الحاجبُ فأخبرَه بمكانه ، وكان مشهوراً بمروءته ، وكان الخليفةُ به عارفاً ، فأذن له . فلما دخلَ عليه وسلّم بالخلافةِ قال : يا خزيمةُ ما أبطأكَ عنا ؟ فقال : سوءُ الحال يا أمير المؤمنين ! قال فما مَنعك من النَّهضة إلينا ؟ قال : ضَعفى ! قال : فمن أنهضَك ؟ قال : لم أشعُرْ يا أمير المؤمنين بعد هَدْأةٍ من الليل الاّ ورجلٌ يطرُقُ بابى ، وكان منه كيْتَ

(١) هى ما يُتعامل به من النحاس والشبه (٢) السرية الجارية تشترى بالمال فتكون كالزوجة

وكيتَ (وأخبرَه بقصتِه من أوّلها الى آخرها). فقال: هل عَرَفتَه؟ قال: لا واللهِ! لأنه كان متنكّراً، وما سَمِعتُ منه إلاّ «جابرِ عَثراتِ الكرام». قال: فتلهّفَ سليمانُ بنُ عبد الملك على معرفته. وقال: لو عَرَفناه لأعنّاه على مُرُوءته. ثم قال: علىَّ بقَناة فأُتى بها. فعقَد لِخُزَيمةَ[1] الولايةَ على الجزيرةِ وعلى عَمَل عِكرمةَ الفيّاض، وأجزل عطاياه، وأمره بالتوجه الى الجزيرة. فخرج خزيمةُ متوجّهاً إليها. فلما قربَ منها خرج عكرمة، وأهلُ البلد للقائه فسلم عليه، ثم سارا جميعاً الى أن دخلَ البلد. فنزل خزيمةُ فى دارِ الإمارة، وأمر أن يُؤخذَ عكرمةُ وأن يحاسَبَ. فحوسِبَ ففَضَل عليه مال كثير، فطلبه خزيمةُ بالمال، فقال: مالى الى شىء منه سبيلٌ! فأمر بحبسه، ثم بعث يُطالبه فأرسل اليه إنى لَستُ مِمَّن يَصونُ ماله بعِرضه، فاصنعْ ما شئتَ! فأمر به فكُبِّل بالحديد، وضيّق عليه، وأقام على ذلك شهراً، فأضناه ثِقَلُ الحديد وأضرَّ به. وبلغ ذلك ابنةَ عمّه فجَزِعتْ عليه واغتمت؛ ثم دعت مولاةً لها ذاتَ عقل، وقالت: امضى الساعةَ الى باب هـذا الأمير فقولى: عندى نصيحةٌ؛ فإذا طُلبتْ منكِ فقولى: لا أقولها الاّ للأمير خُزَيمةَ. فإذا دخلتِ عليه فسليه الخلوةَ، فإذا فعلَ قولى له: ما كان هذا جزاءَ جابرِ عَثرات الكِرام منكَ فى مكافأتك له بالضّيق والحبسِ والحديدِ! ففعلَتْ ذلك. فلما سمع خزيمةُ قولَها قال: وَا سَوْءتاه! جابرُ عثرات الكرام غريمى؟ قالت: نعمْ! فأمَرَ من وقته بدابّته فأُسْرِجت، وَرَكِبَ الى وجوه أهل البلد فجمعهم، وسار

(١) أى عقد له لواء الولاية لأنهم كانوا اذا ولّوْا والياً عقدوا له راية على قناة أو رمح إذ كان الوالى منصبه يومئذٍ إدارياً حربياً

بهم الى باب الحبس ففُتح ودخل . فرأى عكرمةَ الفياضَ فى الحبس متغيراً قد أضناه الضُّرُّ ، فلما نظرَ عِكرمةُ الى خزيمةَ وإلى الناس أحْشَمه ذلك . فنكسَ رأسه ، فأقبلَ خزيمةُ حتى أنكبَّ على رأسه فقبّله ، فرفعَ رأسَه إليه وقال : ما أعقبَ هذا منك ؟ قال: كريمُ فِعلك وسوءُ مكافأتى ! قال : يغفرُ اللهُ لنا ولكَ . ثم أمر بفكِّ قيوده وأن تُوضَعَ فى رِجليه ، فقال عكرمةُ تريد ماذا ؟ قال : أريد أن ينالَنى مِن الضُّر مثلُ ما نالَك . قال : أُقْسم عليك بالله ألاّ تفعلَ ! فخرجا جميعاً الى أن وصلا الى دار خزيمةَ ، فودعه عكرمةُ: وأرادَ الأنصرافَ ، فلم يُمكِّنه من ذلك . قال وما تريدُ ؟ قال : أُغَيِّرُ من حالِك ، وحيائى من ابنة عمك أشدُّ من حيائى منك . ثم أمر بالحَمَّام فأُخليت ، ودخلا جميعاً ، ثم قام خزيمة فتولَّى خدمتَهُ بنفسه ثم خرجا ، فخلع عليه ، وحمَل اليه مالاً كثيراً ثم سار معه الى داره ، واستأذنه فى الاعتذار من ابنة عمه ، فأذِن له ، فاعتذر إليها ، وتذمَّم[1] من ذلك . ثم سأله أن يسير معه الى أمير المؤمنين وهو يومئذٍ مقيمٌ بالرَّملة[2] فأنعم له بذلك . فسارا جميعاً حتى قدِما عَلَى سليمانَ ابن عبد الملك . فدخل الحاجبُ فأخبره بقدوم خزيمةَ بن بشر ، فراعه ذلك وقال : وَالى الجزيرةِ يَقْدَم علينا بغير أمرنا مع قرب العهد به ؟ ما هذا إلاّ لِحادث عظيم ! فلما دخل عليه قال (قبل أن يسلم) : ما وراءك يا خزيمة ؟ قال : خيرٌ يا أمير المؤمنين ! قال : فما أقدمك ؟ قال: ظفِرتُ بجابر عَثَرات الكرام فأحببت أن أُسرَّك لِما رأيتُ من شوقِك الى رؤيته . قال : ومن هو ؟ قال : عِكرمةُ الفياض . فأَذِنَ له فى الدخول . فدخل فسلم عليه بالخلافة ! فرحَّبَ

---

(١) اى أستنكف من عمله اليها (٢) قرية من قرى فلسطين

به ، وأدناه من مجلسه ! وقال : يا عكرمةُ كان خيرُك له وبالاً عليك . ثم قال له : اكتب حوائجك وما تختاره فى رُقعة . فكتبها وقُضِيَتْ عَلَى الفوْر . ثم أمر له بعشرة آلاف دينار مع ما أُضيفَ اليها من التُحف ، ثم دعا بقناةٍ وعقدَ له عَلَى الجزيرة وإرْمِينيةَ وأذْرَبِيجانَ . وقال له : أمْرُ خزيمةَ اليك : إن شئت أبقيته ، وإن شئتَ عزلتَه : قال : بل أردُّه الى عمله يا أمير المؤمنين . ثم انصرفا جميعاً ، ولم يزالا عامِلَين لسليمان بن عبد الملك مدةَ خلافته

الزَّرافــة

الزرافةُ (وتكنى أمَّ عيسى) دابَّةٌ من ذواتِ الأربعِ . جميلةُ المنظَر جمَعتْ فى خَلْقها أشباهَ جُملةِ أنواعٍ من الحيوانِ ؛ فهى برأسِها وعنقها تُشبهُ البعيرَ ، الاّ أن عنقَ الزَّرافةِ يَعظُم مما يلى الصدر ، ويَدِقُّ مما يلى الرأسَ ، ولا ينحنى ولا ينبسط ، بل يظَلُّ منصباً ، وأن رأسها أصغرُ قليلاً وأدَقُّ خَطْماً من رأس البَعير . وهى بأظلافِ أرجلِها المنشقةِ وقَرْنَيها تشبهُ البقرَ والوُعولَ ، الاّ أنَ أظلافَها ليس لها زَمَعَتان[1] وإنّ قَرْنيها مستديران قصيران مكسوّان بجلدٍ شعرى ينتهى بحلْقةٍ من الشعرِ الكثيف . وبلَون وبَر جلْدها الأرقطِ تُشبهُ النُّمورةَ والفُهودَ . وبارتفاع كاهلها كثيراً عن مُؤْخِرِ كَفلَها وانحدار مَتْنها وانتشار مَعْرَفتها تُشبهُ الضَّبُعَ . ولذلك كان اسمُها عندَ الفُرس (أشترْ كاوْ بلَنْكَ) ؛ لأن معنى (اشتر) الجملُ و (كاو)

---

(١) الزمَعَة هَنة ناتئة قرنية فوق الاظلاف والحوافر ، وقد يكون بها شعر كشعر الخيل

البقرُ و (بلنك) النمرُ ، وهم يزعمون أنها تتولَّدُ من هذه الدوابِّ . وتشابهُ الحيوانَ المجترَّ فى تركيب كُرُوشِه وأمعائه . ولِمَنْخَرَىِ الزرافة جهازٌ عضلىٌّ تستطيعُ به فتحهما وإغماضَهما . أما عيناها فكبيرتانِ سوداوانِ جميلتا الشكل براقتان تتمكَّنُ بهما من النظر الى الأعلى والوراء فى وقتٍ واحد ، مما يجعلُ الدُّنُوَّ منها مُستصعباً ؛ فإذا قاربها عدوٌّ بادرته بالرفس ، فدفعته عن نفسها بشدة قد تدرأ عنها الأسد الضعيف

ولما كان أكثرُ رَعْيها أوراقَ الأشجارِ من السَّنطِ وغيره خلقَ اللهُ عنقها طويلاً مركباً فى كاهلٍ مُرتفعٍ على صدرٍ مستطيلٍ عالٍ ، فتتناولُ ورقَ الشجر بلسانٍ طويلٍ رفيعٍ يلتوى ويدِقُّ ؛ حتى تستطيعَ أن تُدخله فى حلْقةٍ لا يزيدُ قُطرُها على نِصْف قيراطٍ ليسهلَ عليها طىُّ ورقِ الشجر وحزْمُه ، ويُعينها على ذلك كثرةُ ما فيه من الحَلَمات الخشنة . وإذا أرادت رعْىَ شىءٍ من عُشْبِ الأرض فَسَحَتْ يديْها ، فيدنو صدرُها من الأرض ، فيصلُ خطمُها اليها

والزرافةُ فى عَدْوها أسرعُ من جِياد الخيلِ وأصبرُ على بُعْدِ الشُّقَّة . وقوامُ الزرافة يختلفُ بين خمسَ عشرةَ وستَّ عشرةَ قدماً

وكان اعتقادُ الناس فيها أن يدَيْها أطولُ من رجْليْها الى أن أفسده الامتحانُ وتحقَّقَ أن رجْليْها أطولُ من يدَيْها بنحو قيراط أو ما يزيدُ عليه قليلاً ، باعتبار أن الطولَ يبتدئ من أسفل الإبْطين فى اليدين ومن نُقطةِ انفصال الفخذين عن الأيْطَلَين[1] ؛ ولكنَّ ارتفاعَ الكاهل وطُولَ جانبى الصَّدر وانتصابَ العُنق كلُّ ذلك يُوهِمُ الناظرَ أن اليدَيْن أكثرُ طولاً

(١) الأيطل الانفراج الذى بين فخذى الدابة وبطنها

ويختلفُ لونُها باختلاف أعضائِها: فالرأسُ أشقرُ الى الحُمرةِ. وعلى العنق والظهر والجانبين رُقَطٌ مُرَبَّعةٌ مُكْمَتَّةٌ ينفصِلُ بعضها عن بعض بِتَوالِيعَ[1]

رأس الزرافة

الزرافة

بيضاء الى الصُّفرة. ولونُ البَطْنِ وجانبي الفخذين الإنْسِيَّين[2] ضاربٌ الى البياض. ولونُ الزَّرافةِ فى الذُّكور أجملُ منه فى الإناثِ وأشدُّ بَرِيقًا وبهاءً، وجِرْمُها أعظمُ من جِرْمِ الإناثِ، وهى تخالفُ الذكورَ ببُروز عظمِ الجبهة.

---

(١) جمع توليع وهى الخطوط التى تكون فى مثل حمار الوحش وتفصل سواده عن بياضه (٢) الجانب الإنسىّ من الذراع والفخذ فى الحيوان هو الجانب الباطن منهما. وعكسهُ يسمى الجانب الوحشى

ومدّةُ حملِ الزَّرافة خمسةَ عشرَ شهرا

وتعيشُ الزرافىُّ فى الحمائلِ والغياض الغضَّةِ فى أواسط إفريقيـةَ شرقاً وجنوباً : من بلاد النّوبةِ الى جوارِ رأس الرجاء الصالح . وهى كسائرِ الوُحوشِ تتقهقرُ أمامَ التمدينِ وترجعُ عن كل مكانٍ طرَقه المتحضرون

ولا ترعَى الزرافىُّ إلاَّ أسراباً

ولا يُنتفعُ بالزَّرافةِ فى شىء كيفما دَجنت وأَنِسَتْ. وفى حِلّ أكل لحمها خِلافٌ بين عُلماء المسلمين

وكانت الزَّرافةُ تُعَدُّ رؤيتُها فى البلاد المتمدينـةِ من الغرائب : فكانت أفخرَ ما يُهديه ملوكُ السودان الى ملوكِ البلاد الشمالية . وكان يوليوسُ قيصرُ أوَّلَ من عرضها على الناس فى مَعارض الحيوان ، ثم أقتفى أثرَه كثيرون من مُلوك الرُّومان . وفى كُتُبِ العرب كثير من قِصصِ التهادى بها : من ذلك ما جاء فى تاريخ ابن خلدون أن « أشروال من ملوك السودان أتحفَ أبا سالم ابن السلطان أبى الحسن المَرينى (ملك المغرب) بهدية سنيـة سنة اثنتين وستين وسبعمائة هـ ، وكان فيها الحيوانُ العظيمُ الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروفُ بالزرافة ، تحدث الناس بما اجتمعَ فيه من مفترِق الحِلَى والشبَه فى جُثْمانِه ونُعوته دَهْراً »

أما الآنَ فكثُر وجُودُها فى معارض الحيوانِ بأكثرِ بلاد الدنيا . وفى معرِض حيوان الجيزة عدَّة منها

والزرافة حيوانٌ هَلُوعٌ نفور . وإذا حُجِرَ عليه فى حظيرة صار وديعاً فى الجملة ، ولكنه لا ينسى طبيعةَ النِّفارِ

سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)

هو أميرُ المؤمنينَ، وثانى الخُلَفاء الرَّاشدين، أبو حَفْصٍ عُمَرُ الفاروقُ ابنُ الخَطاب بن نُفَيْلٍ القُرَشىّ العَدَوىّ، وُلِدَ بعد مَوْلِدِ النَّبىّ (صلى الله عليه وسلم) بثلاثَ عشرةَ سنة؛ ونشأ (رضى الله عنه) بمكة فيما ينشأ فيه شُبَّانُ قُرَيْشٍ: من القِيام بِرَعْىِ الماشيةِ فى الصِّغَرِ ثم مزاوَلةِ التجارةِ ومُعالجةِ فُنونِ القتالِ فى الكِبَرِ. وكان الحدُّ الفارقَ بَيْنَ حِرْفَتَىِ الصغيرِ والكبيرِ فى قُرَيْشٍ مُناهزةُ الفتى الخامسةَ عشْرَةَ مِن عُمْرِه. وزادَه الله بَسْطَةً فى الجِسْمِ والعَقْلِ فاقَ بهما الكثيرَ من شُبَّانِ قَومِهِ. وكانتْ قُرَيْشٌ قبلَئِذٍ قد تعلمت الخَطَّ والكتابةَ من أهلِ الحِيرةِ والأنبار، فكان عمرُ فيمَن تعلمها. فما شارَفَ العِقْدَ الثالثَ من عُمُرِه إلا وهُو بَصِيرٌ بالتجارة شجاعٌ ثَقيفٌ[1] بفنونِ القتالِ؛ إذ كانت الثَّقافةُ فى القتالِ خَصْلَةً لازمةً وضرورةً حافزةً[2] لِلتَّاجرِ القُرَشىِّ الذى يختلفُ ببضاعتِه فى رِحلَتَىِ الشتاءِ والصَّيْفِ بين اليَمَنِ والحَبَشةِ جَنوباً والشامِ والعِراقِ شمالاً. فعظُمَ شأنُه فى قُرَيْشٍ، وعُدَّ فى أشرافهم ورِجالاتهم المعدُودين: بلاغةَ لسانٍ وقُوَّةَ جَنانٍ وأَصالةَ رأْيٍ ومَضاءَ عزيمةٍ. وكانت إليه السِّفارةُ بينَ قُرَيْشٍ وقبائلِ العَرَبِ فى حَرْبِها وسَلْمِها ومنافَرتِها[3] ومفاخَرتِها

---

(١) ثَقُف ثقافة صار حاذقاً خفيفاً فطناً؛ فهو ثقيف (٢) دافعة، من حفزه يحفزه: اذا دفعه من خلفه (٣) وهى المحاكمة فى الحسب وعزة النفر والقبيل

ولما جاء الإسلامُ كان من أشدِّ الناسِ مناهضةً[١] له وإنكاراً على متَّبعيه وكان رسولُ الله يرَى من صِفاتِه الخَلْقيَّة والخُلُقيَّة ما يُحبِّبُ إليه إسلامَهُ ؛ حتى كانَ يدعو اللهَ ويقولُ « اللهُمَّ أعزَّ الإسلامَ بأحبِّ الرَّجُلَيْنِ إليك : بعُمَرَ بن الخطاب أو بأبي جهلِ بن هِشامٍ » . فاستجابَ اللهُ تعالى دُعاءه في عُمَرَ ، فأعزَّ الإسلامَ ودعا أهلَه الى الجهر به ، ولم يكونوا بَعْدُ أكثرَ من خمسةٍ وأربعين رجلاً وثلاثَ عشرةَ امرأةً يجتمعون سِرًّا في دارِ الأرْقمِ ابن أبي الأرقم المَخْزومي في أسفلِ جَبلِ الصَّفا من مكَّة . فحدَّثَ عُمرُ عن نفسه في قصَّةِ إسلامِه قال :

« خرجتُ بعدَ إسلامِ حَمْزةَ بثلاثةِ أيام ، فإذا فلانٌ المخزوميُّ ، فقلتُ له : أرغبتَ عن دِينِ آبائِك واتَّبعْتَ دِينَ محمدٍ ؟ فقال : إنْ فعلتُ فقد فعَلَه مَنْ هُوَ أعظمُ عليكَ حقا منِّي ! قلتُ : ومَنْ هو ؟ قال : أُختُك وخَتَنك[٢] فانطلقتُ فوجدتُ هَمْهَمَةً ، فدخلتُ فقلتُ : ما هذا ؟ فما زال الكلامُ بيْننا حتى أخذتُ برأسِ خَتَنِي فضَربتُه فأدْمَيْتُه . فقامت إليَّ أُختي ، فأخذَتْ برأسِي وقالت : قد كان ذلك على رَغْمِ أنفِك ! فاستحيَيْتُ حين رأيتُ الدِّماءَ فجلستُ وقلتُ : أرُونِي هذا الكتابَ . فقالت : إنه لا يَمسُّه الاَّ المُطَهَّرون فقُمْتُ فاغتسلتُ ، فأخرجُوا لي صحيفةً فيها : « بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ (فقلتُ : أسماءٌ طيبةٌ طاهرةٌ !) طهَ ما أنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرْءانَ لتَشْقَى . . . . . إلى قولِه : اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ لَهُ الأسماءُ الحُسْنى » فتعظَّمتْ[٣] في صَدْرِي ،

---

(١) مقاومة (٢) الخَتَنُ : الصِّهرُ (٣) أي السورة ، أو الآيات ، أو أسماء

وقلتُ : مِنْ هذا فَرَّتْ قُرَيْشٌ ؟ فأسْلَمْتُ . وقلتُ أينَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالتْ : فإنه فى دار الأرْقمِ . فأتَيْتُ فضربتُ البابَ ، فاستجمعَ القومُ ، فقال لهم حَمْزَةُ : ما لَكُمْ ؟ قالوا : عُمَرُ ! قال : وعُمَرُ ! افتحوا له البابَ ؛ فإنْ أقبلَ قَبِلْنَا منه ، وإن أدبرَ قتلناهُ . فسمِعَ ذلك رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) فخرَج ، فتشَهَّدْتُ ، فكبَّرَ أهل الدار تكبيرةً سمِعَها أهلُ مكةَ . قلتُ يا رسولَ الله ألَسْنا على الحقّ ؟ قال : بلَى ! قلتُ ففيمَ الاختفاء ؟ فخرَجْنا صفَّين : أنا فى أحدهما ، وحمزةُ فى الآخَرِ ؛ حتى دَخلْنَا المسجدَ . فنظرَتْ قُرَيْشٌ إلىَّ وإلى حمزةَ ، فأصابَتْهُمْ كآبةٌ شديدةٌ ؛ فسمَّانى رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) الفاروقَ يومئذٍ[1] »

وكان إسلامهُ (رضى الله عنه) فى ذى الحِجة من السنةِ السادسةِ من النبوّة وهو ابنُ ست وعشرين سنةً . ولبثَ عُمَرُ والمسلمون معه يجْهَرُون بالإسلام إلى أن بايعَ أهلُ المدينةِ رسولَ الله على حمايتِه ونُصرةِ الإسلام ، فخافَتْ قريشٌ العاقبةَ ، فتآمَرَتْ على رسول اللهِ وعلى أصحابه . فأمرَ رسولُ اللهِ أصحابَه بالهجرةِ الى المدينةِ ، فكانوا يتسلَّلُون مُستخفينَ من مكةَ إلاَّ عُمَرَ ؛ فإنهُ لما هم بالهجرةِ تقلَّدَ سيفَه ، وتنكَّبَ قوسَه وانتضَى فى يده أسْهُمًا ، وأتى الكعبةَ ، وأشرافُ قُريشٍ بفِنائِها ، فطافَ سَبْعًا ثم صلَّى ركعتين عندَ المَقامِ ، ثم أتَى حِلَقَهم واحدةً واحدةً ؛ فقال : شاهت[2] الوُجوهُ ! من أراد أن تَثْكَلهُ أمُّه وَيَيْتَمَ وَلَدُه وتُرْمِلَ زوجتُه فليَلْقَنى وَراءَ هذا الوادِى ! فما تبعَه منهم أحدٌ

ولما هاجرَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة اتَّخذَها معه دارَ

---

(١) لأنه أظهرَ الإسلام وفرَّقَ بين الحقّ والباطل (٢) قبحت

إقامةِ، وأيَّده ونَصَره، وحضَر معه الغزَواتِ كلَّها، وثبت معه فى أشد المواقع التى لم يثبُتْ فيها كثيرٌ من أصحابِه، وأخلصَ للإسلام إخلاصاً جعل نفسَه تَمتزجُ بروحِ الإسلام؛ فجاء القرءان مُؤَيِّداً لرأيِه فى بعض الحوادثِ

ولم يزَلْ مع رسولِ الله الصَّاحبَ الأمينَ حتى قَبَضَ اللهُ رسولَه (صلى الله عليه وسلم)، واختلفَ المهاجرون والأنصارُ فيمن يكونُ خليفة من بعده، فأيَّدَ أبا بكرٍ (رضى الله عنه) بالقول والعمل حتى تمَّتْ له البَيْعةُ. وبقِىَ له مُدَّةَ خلافته مُستشاراً نصيحاً وقاضياً عادلاً حتى إذا حضر أبا بكرٍ الموتُ لم يعدِل به بديلاً يخلُفُه فى المسلمين، فكان هذا الاختيارُ من أقوى الدلائلِ على حِذْق أبى بكر وبُعدِ نَظَرِه وصدقِ فِراسته وشدةِ نُصحه للمسلمين

فلما تولَّى عُمَرُ الخلافةَ لم يكن أوَّلَ هَمِّهِ إلاَّ إتمامُ مقاصد أبى بكرٍ فى فتحِ ممالك كِسرَى وقيصرَ، ولم تأخُذْه فى الحقِّ هَوادَةٌ[1]. ولم يضَعْه تواضعه وزُهده عن الثقة بنفسه؛ فكان من قولِه فى ذلكَ ما ذكرَه فى خُطبةٍ له بَعْدَ أن حَمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ وذكَّرَ به وباليوم الآخِر:

«أيها الناسُ إنى قد وُلِّيتُ عليكم، ولولا رجاءُ أن أكونَ خيْرَكم لكُمْ وأقواكم عليكم وأشدَّكم اضطِلاعاً[2] بما ينوبُ من مُهِمِّ أُمورِكم ما تولَّيْتُ ذلك منكم، ولكفَى عُمَرَ مُهِمًّا مُحْزِناً انتظارُ مواقفَتِهِ[3] الحساب بأخْذِ حُقوقكم كيف آخُذُها ووضعِها أينَ أضَعُها وبالسَّيرِ فيكم كيفَ أسِيرُ.

---

(١) أى لِينٌ (٢) قوّة وتمكُّناً واحتمالاً (٣) المواقفة أن تقف مع غيرك ويقف معك فى خصومة أو حرب والمراد المحاسبة يوم القيامة

فربّى المستعانُ ؛ فإن عُمَرَ أصبح لا يثق بقُوَّةٍ ولا حيلةٍ إن لم يتداركْهُ اللهُ عزَّ وجلّ برحمته وعَوْنِه وتأييدِه »

ولقد أخذَ بهذه الشدّةِ فى اللهِ أكابرَ الصحابةِ وأشرافَ القبائلِ والعشائرِ من العرب ، فاعتزت العامّةُ وساوتْها الخاصّةُ فى الحقوق المشروعةِ . ولم يُقَدِّمْ أحداً على أحدٍ إلاّ بحُسنِ بلائِه فى الإسلام وكثرةِ غَنائه للمسلمين ؛ فأطاعهُ الجميعُ إطاعةَ خُضُوعٍ للحَقِّ لا إطاعة ذُلٍّ لجبّار . وكان أشدَّ حاملٍ لهم على طاعته تَنَزُّهُهُ عن أموالهم ورضاهُ بالقليل من فيْئِهم : نُقِلَتْ اليهِ كُنوزُ كسرى وذخائرُ قيصر ، فما زاد على أن مشى فى ثوبٍ مُرَقَّعٍ وأَتْدَمَ بالخلّ والزيت ولم يأكلِ اللحم إلاّ بعض أيام فى الأسبوع ؛ فلم تزد نفقتُه من بيت المال على درهمين فى اليوم . خطب يوماً فقال :

أيها الناسُ مَنْ رأى منكم فىّ اُعوجاجاً فليُقَوِّمْهُ . فقامَ إليه أعرابىٌّ من المسجدِ وقال : واللهِ لو رأينا فيك اُعوجاجاً لقوَّمْناه بسيوفِنا ! فقالَ عُمَرُ : الحمدُ للهِ الذى جعَلَ فى هذه الأمة مَن يُقَوِّمُ اُعوجاجَ عُمَرَ بسيفِه

كانتْ كلُّ هذهِ الصفاتِ الباهرة كفيلةً أن يلىَ هذا الخليفةُ العظيمُ كلَّ أعمالِ الخلافةِ بنَفْسِه ؛ فكان يُنَصِّبُ القوَّادَ ، ويُوَلِّى الوُلاةَ ، ويُحَرِّكُ الجُيوشَ ، ويَرْسُمُ الخِطَطَ الحَرْبِيَّةَ ، ويبعثُ الأمْدادَ ، ويُقَسِّمُ الغنائمَ ، ويُقيمُ الحُدودَ ، ويُمَصِّرُ الأمصارَ ، ويَسُنُّ السُّنَنَ ، وهو فَرْدٌ يُقيمُ فى مدينةٍ مَحْفُوفةٍ بالصَّحارَى لا يُعاوِنُه مِنْ أصحابِه فيها الاّ بضعةُ نَفَرٍ : مما تنوء به الدُّولُ الدُّستوريةُ والمجالسُ النيابيةُ . وليس لهذا كُلِّه من سببٍ سِوَى عَدْلِ الرئيس وإخلاص المَرْءوسِ واتّحادِ القلوبِ على طاعةِ الحقّ وقُوَّةِ الإيمان باللهِ ، ولا شكّ أن هذه

قوةٌ عظيمةٌ لم تلبثْ ممالكُ كسرى وقيصر أن تدكدكتْ أمامها، وأصبحَ الإسلامُ في أيامهِ باسطَ اليدَيْنِ على أغنى البلاد من أواسطِ آسيا الى صحارى لوبية وبقيت خلافته كلُّها فتحاً ونصراً وعزاً ورحمة حتى دهى المسلمين فيه ذلك العبدُ الأثيم المجوسيّ أبو لؤلؤة فيروز عبدُ المغيرة بنُ شُعْبَةَ، وكان مولاه استأذنَ عمرَ في إنزالهِ المدينةَ لينفعَ الناس بصناعاتهِ المتعدّدة؛ إذ كان نجّاراً حدّاداً نقّاشاً، فأذِن له، وضرب عليه مولاهُ كلَّ يومٍ درهمين يؤدّيهما له، فاستعظم ذلك فيروز، وشكا مولاهُ لعمر، فقال له: أحسِنْ الى مولاك، ما خرجُك بكثيرٍ، (وفي نيته أن يكلّم المغيرةَ في أمره)، ولكنَّ الخبيثَ حقدها عليه، وأعدَّ له خنجراً ذا نصلَيْنِ نصابُه في وسطهِ، واختبأ وقت الغلس في زاوية من المسجدِ. فلما جاء عمرُ للصلاة وقفَ وراءهَ في الصفِّ، ولم يشرعْ فيها حتى طعنَه عدوُّ اللهِ عدّةَ طعناتٍ إحداها تحتَ سُرّته كانت سببَ موتهِ، ثم طعنَ ثلاثةَ عشرَ رجلاً ممّن يليه عن يمينه ويساره مات منهم ستة، فألقى عليه أحد الناس رداءه، فلما أُغتمَّ فيه انتحر بالخنجر؛ وحُمِلَ عمرُ الى داره، فأوصى بالخلافة الى واحدٍ من الستة الذين تُوُفّيَ رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) وهو عنهم راضٍ، وهم: عثمانُ وعليٌّ وعبدُ الرحمن بن عَوْفٍ وسعدُ بن أبي وقّاصٍ وطلحةُ والزُّبير. واستأذنَ أمَّ المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) في أن يُدفن في حُجْرتها مع صاحبيه: رسولِ الله وأبي بكرٍ، فأذِنتْ له، فحمدِ الله. ومات ليلةَ الأربعاء لثلاثٍ بقينَ من ذي الحِجّة سنة ٢٣ هـ، ودُفن من الغد عن سِنٍّ ثلاثٍ وستين، ومدة خلافته عشرُ سنين وستة أشهر وثمانية أيام

وكان عمرُ (رحمه الله) طويلاً جسيماً أبيضَ شديدَ الحُمرة أصلعَ أشيبَ

فى عارِضَيه خفةُ شَعْر، وسبَلَةُ شاربِه كبيرةٌ فى طرفها صُهْبة

وهو أوَّلُ من سُمِّىَ أمير المؤمنين وأوَّلُ من كتَب التاريخ الهجرىَّ وأوَّلُ من دوَّنَ الدواوين ومصَّر الأمصارَ وسنَّ قيامَ شهرِ رمضانَ

خطبتـان

﴿ لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴾

روى الجاحظُ[١] فى البيان والتبيين أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطب ذاتَ يوم، فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه بما هو أهلُه، ثم أقبلَ على الناسِ فقال:

أيُّها الناسُ إنَّ لكُمْ مَعالِمَ[٢] فانتهُوا الى مَعالِمِكم، وإنَّ لكم نهايةً فانتهُوا الى نهايتِكم؛ فإنَّ العبْدَ بينَ مَخافتَين: بَيْنَ عاجلٍ قد مَضَى، لا يدرِى ما اللهُ صانعٌ به، وبَينَ آجلٍ قد بَقِىَ لا يدرى ما اللهُ قاضٍ فيهِ. فليأْخذِ العَبْدُ من نفسِهِ لنفسِهِ[٣]، ومن دُنياهُ لآخرتِهِ، ومن الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الكِبْرَةِ[٤]، ومن الحياةِ قبلَ الموتِ. فوالذى نَفْسُ محمدٍ بيدِه ما بعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ[٥] ولا بعدَ الدنيا من دارٍ الاّ الجنةُ أو النارُ

---

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ صاحب التصانيف المشهورة توفى سنة ٢٥٥هـ

(٢) معلم الشىء ما يستدل به عليه، أى ان الله وضع لكم معالم للخير فتعرَّفوها

(٣) أى يحاسب نفسه لنفسه (٤) اسم من الكبر فى السن (٥) استرضاء

وروى صاحب[١] صبح الأعشى قال :

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم « أيها الناس كأنَّ الموتَ فيها[٢] على غيرنا قد كُتِب، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا قد وجَب، وكأن الذى نشيِّعُ من الأموات سَفْرٌ[٣] عما قليلٍ الينا راجعون، نُبَوِّئُهم أجداثَهم[٤]، ونأكلُ من تُراثِهم، كأنَّا مُخلَّدون بعدهم، ونَسِينا كلَّ واعظة، وأمِنَّا كل جائحةٍ[٥] طُوبَى لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ الناسِ، طوبى لمن أنفقَ مالاً اكتسبه من غيرِ مَعصية، وجالسَ أهلَ الفقهِ والحكمة، وخالط أهلَ الذُّلِّ والمسكنة، طوبى لمن زَكَتْ وحَسُنَتْ خليقتُهُ، وطابت سَريرتُهُ، وعَزَل عن الناسِ شرَّهُ، طوبى لمن أنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قَوْلِه، ووَسِعَتْه السُّنَّةُ ولم تَسْتَهْوِه البِدْعةُ !

الصحـــة[٦]

الصِّحةُ بَهْجةُ الحياةِ، والمَرَضُ نَغْصُها، والصحـةُ متأصِّلةٌ فى الإنسانِ والمرضُ طارئٌ عليهِ، ومُجانَبةُ أسبابِ طُروئِه أهونُ من معالجةِ إزالته بعدَ حُدوثِه؛ ومن الأقوالِ الحكيمةِ دِرْهَمُ وقايةٍ أفضلُ من قِنطارِ علاج ». غيرَ أننا نُشاهِدُ، والحسرةُ مِلْءُ قلوبنا، أنَّ كثيراً منَّا لا يَكترِثونَ بأمْرِ الصحةِ إلاَّ إذا أزعجَهم ألَمُ المرضِ وأصبحوا على شفا الهَلَكة

---

(١) هو شهاب الدين احمد بن على القَلْقَشَنْدِىّ تُوفى سنة ٨٢١ هـ

(٢) أى الدنيا (٣) جمع سافر وهو المسافر (٤) أى نسكنهم قبورهم (٥) آفة

(٦) اطلع على هذه المقالة حضرة النطاسى الفاضل محمد شفيع الطبيب بوزارة المعارف وأقر بصحة ما فيها من الحقائق الفنية

واذا كانت الصحةُ تقومُ عَلَى أُسُسٍ ضروريةٍ فإنَّ بعضَها بِحَمْدِ اللهِ مُسَخَّرٌ لنا بالفِطرةِ، كالهواءِ والماءِ والحركةِ والنَّوم، وبعضَها مَقْدُورٌ لنا ببعض الكَدّ والعمل، كالمأكلِ والمَسْكَنِ والمَلْبَسِ. وانما الذى يُنغِّصُ الصحةَ على الناس، ويُكدِّرُ صَفْوَ الحياةِ هوسوءُ استعمالِ هذه النِّعَم بالإفراطِ والتفريطِ؛ فبعضُها لا ينتفعون منهُ بقدرِ الحاجة، وبعضُها يتناولونه بحِرْصٍ وشراهةٍ

فأما الهواءُ الذى هو أوَّلُ شروطِ الحياةِ والذى لا يصبرُ الإنسانُ على فقْدِه بِضْعَ دقائق فكثيرٌ من الناس، وخاصةً سكانَ المُدنِ الكبيرةِ، لا يصيبون منه كفايتهم مع أنهُ أكبرُ الأجسامِ المُحيطةِ بهم؛ لأنهُ لا يُعَدُّ صالحاً للحياة حافظاً للصحةِ إلاَّ إذا كان مُتَجَدِّداً خالصاً من الأجسامِ الغريبةِ كالأبخرةِ السامَّةِ والجراثيمِ المُعْفِنة. ولا شكَّ أن سَعةَ منازلِ المُدن وشوارعِها وتنظيفَها وتسهيلَ مَرِّ الهواءِ بها مِمَّا يُقلِّلُ من شوائبِ ضررِ الهواءِ فيها، ولكنهُ لا يكون من النَّقاءِ على مثلِ هواءِ الفلَواتِ والمُروجِ والبِحارِ والأنهارِ الكبيرة. فاذا حُرِمَتْ سُكَّانُ المُدُنِ التنفسَ فى هذا الهواءِ النقيِّ فلا أهْوَنَ من أن يقضُوا بعضَ أوقاتِ فَراغِهم فى النُّزْهةِ والرِّياضةِ بين ضواحيها، وأن يتروَّحوا ببعض الرِّحلاتِ البريةِ والبحريةِ ما أمكنَتْهم الفُرَصُ، فان الوقتَ الذى نقضيهِ فى التنفس فى الهواءِ الصحيحِ لا يُعَدُّ ضائعاً، كما أن أعظمَ مِقدارٍ نستنشقُه منه لا يُعتبرُ زائداً على حاجتنا. ولذلك نرى أهلَ البَدْوِ وسكانَ الجبال عَلَى فقْرِهم وشَظَفِ عيشهم وجهلِهم أصحَّ أجساماً وأشدَّ قُوَّةً من أهل الحَضَرِ على عِلْمِهم وغِناهم

وأما الماءُ العذْبُ فهو وإن قلَّ فى الأرض عن الهواءِ وتفاوتَتْ أنواعُه

ومقاديرُه عند الأممِ والأفراد لم يقلَّ عن حاجة طالبِه ولم يصعُبِ استعمالُه فى كلّ ما ينبغى له . وكلُّ امرىءٍ قادرٌ عَلَى تحصيل كفايتِهِ منه وجعْلِه صالحاً للاستعمال ، فينبغى أن نُنَقِّيَهُ من الكدرِ بترشيحِه من مرشحٍ أو زيرٍ ، وأن نُكثِرَ من استعماله ونتخذَه عُدَّةَ نظافتِنا فى وُضوئِنا وغَسْلِ أبدانِنا وثيابِنا

وكثرةُ استعمال الماء من أعظمِ شروطِ الصحةِ وأظهرِ علاماتِ الحَضارةِ والرُّقىّ فى أخلاقِ الأممِ . ولذلك جعلَ الدِّينُ الإسلامىُّ استعمالَه فى الوُضوءِ والغُسْلِ فرْضاً أو سُنَّةً فى كل أنواعِ العباداتِ

فان نحنُ تعوَّدْنا النظافة ، ورشَّحْنا مياهَ شُربنا أمِنَّا شرَّ كثيرٍ من الأمراض المُعْدِية والمعوِية والجلدية والبَوْلية والرَمدية وأكثرِ الأمراض العَفِنةِ ، ونَشِطتْ أعصابُنا . وتفتَّحتْ مَسامُّ جُلودنا ، فاستكملتْ وظيفةَ التنفُّسِ ، وأفرزَتِ العرقَ الجاذبَ لكثيرٍ من الفُضُول السامّة

وأما الحركةُ فكلُّ جسمٍ حىٍّ مُضطرٌّ إليها فى تحصيل قُوتِه ، إلاّ أن اتّساعَ دائرةِ الحَضارةِ ، وتَعَدُّدَ الأشغال العقلية ، وكثرةَ التَّرَفِ والغِنى جعلَ حياةَ كثيرٍ من أهل المدُن جُلوسيةً ، فقلّتْ فيهم الحركةُ الضرورية لصحة الجسمِ ، ووجبَ عليهم الاستعاضةُ عن أعمال الصناعاتِ الجسمية بالرِّياضة البدنية : من نحو المشى غيرِ المتعِب والعَدْوِ المنتظم والسِّباحة والتجديف وركوب الخيل والصَّيدِ والألعاب النظامية والتسلّى فى أوقات الفَراغ ببعض الصناعات اليدوية الجميلة كالنِّجارة وزراعة البساتين ونحوهما . ويحمُلُ بصغارِ

الفتيان أن ينتظموا فى سِلْك فِرَقِ الكَشَّافةِ المُهَذَّبةِ التى لا تُلهيها أعمالُها عن الدَّرْس وطلبِ العلم

ومن هنا نعلَمُ حكمةَ خليفتِنا العظيم عُمَر بن الخطاب إذ يقول: « عَلِّمُوا أولادَكم الرِّمايةَ والعَوْم، ومُرُوهُم فَلْيَثِبوا عَلَى الخيلِ وَثْباً [1] »

وتُعتَبرُ الصلاةُ فوقَ أنها عبادةٌ للخالق وتهذيبٌ للنفس من أجمعِ أنواعِ الرياضة، لتحريك كُلِّ أجزاءِ الجسم فيها، فيجب أن نُحافظَ عليها ونُؤَدِّيَها فى أوقاتِها لِتتخلَّلَ أعمالَنا، وتنبِّهَ من غفْلة قلوبنا، فاذا عُنينا بتحريكِ أعضائِنا فأدَّينا الصلاةَ على أكملِ وُجوهها، وواظبْنا عَلَى الأعمال التى نَستدِرُّ منها أرزاقَنا، وتعهَّدْنا أجسامَنا بأنواعِ الرياضة جادَ هضمُنا، وسهُلَ تنفُّسنا، وانشرحتْ صُدورُنا، وتجدَّدتْ دماؤُنا، ونشِطتْ أعصابُنا وعقولُنا، وانتفتْ الفضولُ السامّةُ عنَّا؛ لتأدية كل عضو فى الجسم وظيفتَه بنظام؛ واحتملْنا مَشاقَّ أعمال الحياة والدِّفاعِ عن النفس والمال والأهل والوطن والحق

أمَّا النومُ فهو الراحةُ الاضطراريةُ العظمى للجسم الحىّ، ولكن لا يغرُب عن عقولنا أن الراحةَ لا تُفيدُ أو هى تنقلِبُ تعباً اذا لم تبلُغْ حدَّ الاعتدالِ أو تجاوزتْه. فينبغى أن تكونَ مدَّةُ النومِ فى ضَجْعة الليل مناسبة للسن؛ وإن ساعة نومٍ بالليل خيرٌ من مثلها بالنهار؛ فنَمْ مُبادِراً واستيقِظْ مُبكِّراً

وسيأتى يومٌ تعرِفُ فيهِ مَعْنَى الأرَقِ بكثرةِ الهُموم والحوادث ومُعضلاتِ الحياةِ، فلا تنزعجْ لذلك، وروِّضْ جسمَك وعقلَك بمشاهدة المناظرِ الجميلة

---

(١) بألاَّ يستعينوا على رُكوبها بوضع الأرجل فى الرِّكْب. وكان هو رضى الله عنه يجمع جراميزه: أى أطرافه ثم يثبُ فكأنه مخلوقٌ مع الفرس

وجوالب السرور. واحذرْ أنْ تتناولَ منوّماً، وثِقْ بعدَ ذلك أنك ستنامُ نَوْماً فِطْرِيّاً مُنعشاً

وأمّا المأكلُ فهو مادّةُ الحياةِ التى منها يتكوّنُ الجسمُ ويستعيضُ بها عما فقدَه بالعمل، إلا أن الجسمَ لايحتاجُ منهُ إلاّ إلى قَدْرٍ معلومٍ. فاذا زادَ عليهِ استحالَ سُمّاً بَطيئاً أو سريعاً. وتسعةُ أعشارِ الناسِ يقعُون فى هذا الخطإِ؛ حتى صارَ عددُ المرْضَى بسوءِ الهضم يربو عَلَى أضعافِ بقيةِ المرضى. ومن السَّهْلِ تعوُّدُ كثرةِ الطعامِ، ولكن من الصعب جدًّا تعوُّدُ الاكتفاءِ بالقليل منهُ؛ فلْنتّخِذْ قولَ نبيّنا (صلى الله عليهِ وسلم) لرسول المقوقسِ: «نحنُ قومٌ لا نأكلُ حتى نَجوعَ، وإذا أكلْنا لا نشبعُ» ميزانَ اعتدالنا فى المأكل

وكثرةُ ألوانِ الطعام وتأنُّقُ الطُّهاةِ فى صُنعِهِ مِمّا يُغرِى الآكلَةَ بالشَّرهِ إليه والحِرْصِ عليهِ، فيختلُّ نظامُ الجسم والعقل؛ فلا تكْثِرْ من ألوانِه؛ فإنما نأكلُ لِنَعيشَ لا نعيشُ لنأكلَ

وأما المسكنُ فهو حِصنُ حياتنا وكِنُّ أجسامِنا ومَهْبِطُ راحتِنا، ومجتمعُ شَمْلِنا، وحِرْزُ نفائسنا، ومستودَعُ أسرارنا، وبهِ نقضى نصفَ أعمارِنا مابينَ نَومٍ وراحةٍ وأُنسٍ بالأهل والأقارب. وهو الوطَنُ الصغيرُ الذى يجبُ على ربِّ البيتِ الحرصُ عَلَى إسعادِ سكّانِه وتوثيقِ أسبابِ الألفة بينهم

فلْنتّخِذْ منازلنا فى محَلّةٍ هادئةٍ، ولتكُنْ حُجُراتُها رحبةً ونوافذُها واسعةً لتسهيلِ مُرورِ الهواءِ بها، ونفوذِ أشعّةِ الشمسِ اليها، والى حُجرةِ النوم خاصّةً

ولا ننسَ أَنَّ وَفْرةَ مَرافق المنزل وإحكامَ مَسايلِ مياهِه وتنظيفَ مَطْهَرَتِه من أَهمّ شرائط الصحةِ فيهِ وأَجمعِ أَسباب الراحة

وأَما الملابسُ فهى مِرءاةُ أَخلاقِنا وعُنوانُ نُبْلِنا واعتدالِ ذَوْقنا، فلا نلبَسها الاَّ نظيفةً مقبولة اللون؛ ولئن عَدَلْنا بها عن أَصل المقصودِ منها وهو الوقايةُ من الحرّ والبرْد الى المغالاةِ فى ثمنها وبَرْقشة أَلوانِها والتأَنُّق فى هَنْدَمةِ تفصيلها حتى نجعلَها كقوالبَ لأجسامنا لقد جَعلْناها إِذاً مَشْغَلَةً لعقولنا وخواطرنا فوقَ تكاليفِ الحياةِ الكثيرةِ. فلْندَعْ ذلك لأهل الدَّعةِ والبَطالةِ الذين فاتَتْهُم زينةُ العلم والعمل وتهذيبِ النفس، فأَرادوا أَن يتستروا عنها برَوْنق الثياب، وهيهاتَ أَن تروقَ تمويهاتُهم عقلاءَ الرجال وأَبطال الأعمال وإِنما تُلحقهم بالقواعد من ربات الحِجال[1]

خطبـــــة

﴿ لأبى بكر (رضى الله عنهُ) ﴾

روى السُّيُوطى[2] فى تاريخ الخلفاء أَنَّ أَبا بكرٍ (رضى الله عنهُ) خَطَبَ الناسَ فقال: (بعدَ أَن حمِدَ اللهَ وأَثنى عليهِ وصلّى عَلَى نبيّه صلى الله عليهِ وسلم)

أُوصِيكم بتقوَى اللهِ والاعتصامِ بأمرِ الله الذى شَرَعَ لكم وهداكم بهِ؛ فانَّ جوامعَ هَدْيِ الإِسلام بَعْدَ كامِةِ الإِخلاص السَّمْعُ والطاعةُ لِمَنْ

---

(١) أى النساء. والحجال جمع حَجَلة وهى موضع يزين بالثياب والأسرة والستور للعروس

(٢) هو جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المصنف المشهور توفى سنة ٩١١ هـ بالقاهرة

ولاّهُ اللهُ أمرَكم ؛ فانهُ مَن يُطع الله وأُولى الأمرِ بالمعروفِ والنَّهى عن المُنكَرِ فقد أفلحَ ، وأدَّى الذى عليهِ من الحقِّ . وإيَّاكم واتّباعَ الهوى ؛ فقد أفلحَ مَن حُفِظَ من الهوَى والطمَعِ والغَضَب . وإيَّاكم والفخرَ ! وما فَخْرُ من خُلقَ من تُرابٍ، ثم الى التراب يعودُ، ثم يأكلهُ الدُّودُ، ثم هو اليومَ حَىٌّ وغداً ميِّتٌ ؟ فاعملوا يَوْماً بيومٍ ، وساعةً بساعةٍ ، وتَوَقَّوْا دُعاءَ المظلومِ ، وعُدُّوا أنفسكم فى الموتى . واصبروا ، فانَّ العملَ كلَّه بالصبر . واحذروا ، والحذرُ ينفعُ . واعملوا ، والعملُ يُقْبلَ ، واحذروا ما حذَّركُمَ اللهُ من عذابه ، وسارعوا فيما وعدَكم اللهُ من رحمتِه ، وافهَمُوا وتفهَّمُوا ، واتقُوا ، وتَوَقَّوا فإنَّ اللهَ قد بَيَّنَ لكم ما أهلَكَ بهِ مَن كان قبلكم ، وما نجَّى بهِ مَن نجَّى قبلكم ؛ قد بَيَّنَ لكم فى كتابهِ حَلالَه وحرامهُ ، وما يُحبُّ من الأعمالِ ، وما يكْرَه ؛ فإنى لا آلُوكم[١] ونفسى . واللهُ المستعانُ ولاحولَ ولا قُوَّةَ الاَّ بالله . واعلَمُوا انكم ما أخلصتم لله من أعمالكم فربَّكم أطعتم ، وحظَّكم حفِظْتُم واعتبظتم[٢] ، وما تطوَّعتم بهِ لدينِكم فاجعلوهُ نوافلَ[٣] بين أيديكم تستوفُوا سَلَفَكم[٤] وتُعطَوْا جِرايتَكم[٥] حين فقرِكم[٦] وحاجتكم اليها . ثم تفكَّرُوا عبادَ الله فى إخوانكم وصحابتكم الذين مَضَوْا ، قد وردُوا على ما قدّموا فأقامُوا عليهِ ، وحلُّوا فى الشقاءِ أو السعادة فيما بعد الموت . ان الله ليس

---

(١) مضارع ألا وهو هنا بمعنى « ترك » أى لا أترككم من التذكير بالخير ولا أترك نفسى أيضاً (٢) أى حسن حالكم (٣) جمع نافلة وهى العطية وما تفعله مما لم يجب (٤) السلف القرض وكل عمل صالح قدمته . أى تستوفوا من الله جميع ما قدمتموه بين أيديكم (٥) الجراية الجارى من الوظيفة والرزق (٦) أى فى الآخرة

له شريكٌ، وليس بينه وبين أحدٍ من خلقهِ نسبٌ يُعطيه بهِ خيراً، ولا يَصرف عنهُ سُوءًا الاّ بطاعتِه واتّباع أمرِه ؛ فإنهُ لا خَيْرَ فى خيرٍ بعده النارُ، ولا شَرَّ فى شَرٍّ بعده الجنَّةُ

أقولُ قولى هذا وأستغفرُ الله لى ولكم، وصلُّوا على نبيّكم (صلى الله عليهِ وسلم)، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

القاهرة المُعزّية

لمّا انتكثَ فَتْلُ الدَولةِ العبّاسيةِ بغلَبَةِ الوُلاةِ والثُوّارِ من التُرْكِ والدَيْلم والعَرَبِ على أقاليمها، بل عَلَى بغدادَ نفسِها كان العلَويّون المشهورون بالفواطِم ممن غلَبَ عَلَى كثيرٍ من ممالِكها ؛ فاستولَوْا عَلَى شَمالىّ إفريقيةَ ثم عَلَى مصرَ والشامِ والحِجازِ. وأوّلُ من دعا منهم الى نفسِهِ بالخلافة خليفتُهُم الأوّلُ عُبَيْدُ الله بن محمد « وتلقّبَ بالمَهْدِىّ » وأقامَ بإفريقيةَ، ثم خلَفَه ابنُه القائمُ بأمرِ الله محمدٌ ثم ابنُ القائمِ المنصورُ بنصرِ اللهِ إسماعيلُ ثم ابنُ المنصورِ المُعزُّ لِدينِ اللهِ أبو تَميمٍ مَعَدٌّ

وكانوا يُرسلون الجُيوشَ للاستيلاءِ عَلَى مِصْرَ فيُدحَرون[1]، حتى ضعُفتْ شوكَةُ الدولةِ الإخشيديّة، فأرسل المُعزُّ جيشاً عَرَمْرَماً بقيادةِ مولاه وكاتبِه جوهرٍ الصَّقَلّىّ، ففتحَ مصرَ بعد مُناوَشةٍ خفيفةٍ، ونزَلَ بجيوشِه شَمالىَّ العَسْكَرِ، وحفَرَ حيثُ نزلَ من ليلة الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ

---

(١) يطردون ويبعدون

أساسَ القصرِ الكبيرِ الذى أعدَّه لمولاهُ وأساسَ أسوارِ المدينةِ ، وبقُربه مَسْجدَه الجامعَ الأزهرَ، وأنزلَ طوائف الجيش حَولها فى نحو عشرين حارةً، وخصَّ كلَّ طائفةٍ بحارةٍ كحارة زَويلةَ[1] وحارة الرُّوم، وحارة كُتامةَ، وأحاطَ الجميعَ بسُورٍ من اللَّبِن؛ فكانَ من ذلك مدينةٌ سُمِّيَتْ القاهرةَ تفاؤلاً بأنها تقهرُ أعداءها. وكان القصدُ من بنائها أن تكونَ ثُكنًا للجُندِ وداراً للخلافة ومَعقلاً يدفعُ عن الفُسطاطِ وما وراءها المُغيرينَ من جهةِ الشام. وقد ابتعد فى اختيار موضعها من النيل؛ لأنه كان يَطغَى بعضَ السنين على أراضى الساحل الشرقى فيجعلُها نَزَّةً إن لم يلتهمْها جُملةً اذ كانت فى أوَّل الفتح مجرًى له

وكان موضعَ هذه المدينة شرقىَّ الخليج بقليلٍ رملةٌ ليس بها معمورٌ إلاَّ دَيْرٌ كان يُسمَّى دَيْرَ العِظامِ دَخلَ فى خِطَّة القَصْر الملكى، وإلاَّ بستانٌ لمحمدِ بنِ طُغْج الإخشيدِ على الخليج (من جهة الموسكى) يُعرفُ بالبُستانِ الكافورىِّ؛ فكان الخليجُ حدًّا غربيًّا للمدينةِ يبعُدُ عن سورها بنحو ثلاثين ذراعاً فرنسية، وتُلولُ مقبرةِ المجاورين الحاليَّة وبابُ الوزير حدًّا شرقيًّا

أما الجنوبىُّ فكان يبتدئُ بالقُربِ من حِيضانِ العَوْصلىِّ الى الخليج بجهةِ بابِ الخَرْقِ (الخلق)، والشمالىُّ من نهايةِ مَقبرة العفيفىِّ إلى الخليج. وكان فى الجهةِ الجنوبيةِ بابا زَويلةَ وفى الشماليَّة بابان[2] بابُ النصر وبابُ الفُتوح وفى الغربيةِ بابُ سَعادةَ وبابُ الخَرْق، وفى الشرقيةِ البابُ المحروقُ وباب

(١) اسم قبيلة بربرية جاءت منها فرقة مع جوهر من المغرب واختطت خطتها جانب هذا الباب (٢) كان جوهر قد بنى فى هذه الجهة بابين فلما بنى الأفضل الباب الحالى هدمهما واتخذ بابا واحداً

البرقية ؛ وهذه الأبواب خرجت عن مواضعها قليلاً عندما بناها الأفضل أمير الجيوش فاتسعت بذلك القاهرة ستين فدّاناً فأصبحت أربعمائة فدان على شكل يكاد يكون مربّعاً

وأهمّ المبانى التى اشتملت عليها القاهرة فى القرن الخامس الهجرى القصران الشرقى والغربى وخزائنهما ، ودار الوزارة ، ودار الضيافة ، والجامع الأزهر وجامع الحاكم ؛ ويلى ذلك رباع وفنادق وخانات وأسواق ومساجد ودور لخاصة الدولة وعامتها ، ثم السور والأبواب المجدّدة العظيمة

فأما القصر الكبير فكان يبتدئ طولاً من شارع خان الخليلى إلى مدرسة بيبرس الجاشنكير بالجمالية ؛ ويمتدّ عرضاً من نقطة تلاقى شارع خان الخليلى بشارع الصاغة الى ما وراء شارع أمّ الغلام ، ثم يتجه حدّه شمالاً الى نهاية شارع قصر الشوك . وكان هذا القصر يشتمل على عدّة قصور صغيرة كقصر الشوك وقصر الذهب أو قاعة الذهب وغيرهما ، وله عدّة أبواب : أعظمها باب الذهب عند مدخل شارع خان الخليلى من الصاغة ، ثم باب البحر وموضعه الآن باب قديم لخان بشتاك ، وباب الريح ، وباب العيد من جهة شارع الجمالية ، وباب الديلم ويدخل منه الى مشهد رأس الحسين وباب الزعفران ويسلك منه الى تربة القصر مكان خان الخليلى

وأمّا القصر الصغير فكان موضعه الآن الصاغة وحمام النحاسين ومستشفى قلاوون والقبة والمدرسة وجامع برقوق والمدارس التى بعده الى الخرنفش

وكانت دار الوزارة شمالىّ مدرسة الجمالية الآن على شارع باب النصر ، وأمامها دار الضيافة

وكان جامعُ الحاكم أكبرَ من الجامع الأزهرِ ، ويشغَلُ الفضاءَ الذى بين باب الفتوح وباب النصر

وكان الجامعُ الأزهرُ جنوبىَّ القصر ، وقد بارك الله عليه فبَقِىَ عامراً تتنافسُ الملوكُ والسلاطينُ فى توسعتهِ وتسهيلِ طلَبِ العلم فيه

وأما سورُ القاهرةِ فقد بناه أوَّلاً جوهرٌ القائدُ باللبِنِ ، ثم تجاوزَه الأفضلُ أميرُ الجيوش وبنى سُوراً آخرَ باللَّبِنِ عليه جُملةُ أبوابٍ : أعظمُها باب زَويلة وبابُ النصر ، وبابُ الفتوح : قامَ بإنشائها فيما يقالُ ثلاثةُ مهندسين من مدينة الرُّها[1] ؛ فجاءتْ أعظمَ أبوابٍ لمدينة إسلامية

وكانت دواوينُ الدّولة أوّلاً فى القصرِ الكبير ، ثم نُقِلَتْ الى دارِ المُلْكِ عَلَى ساحلِ الفُسطاطِ ، ثم عادت الى القصر

وكانت القاهرةُ فى أوّلِ عهْدِها كلُّها مِلْكاً للخليفة ؛ فلم يكنْ يُسمَحُ لأحدٍ من غيرِ خاصّة السُّلطانِ وجُنْدِه أن يملِكَ فيها أو يسكُنَها ، وإنَّما كان السُّلطانُ يُؤَجِّرُ الأسواقَ والدَّكاكينَ والمصانِعَ ونحوَها لأهلِ الفُسْطاطِ بأُجورٍ عظيمة . ثم أُذِنَ للناسِ بالمِلْك فيها ، فانتقلَ اليها كثيرٌ من تجار الفسطاطِ وصُناعِها ، وغصّتْ بالرِّباعِ والفنادق والحمّاماتِ والأسواقِ وازدحمتْ بالسّكان فغلَوْا فى رَفْعِ طِباقِ المبانى فبلغت ستّاً وسبعاً ، بل أنشئوا ظاهرَها كثيراً من العمائرِ والبساتين

وبلغَتِ القاهرة القديمةُ فى أواسطِ القرنِ الخامسِ غايةَ عُمرانها ، وتأنَّقَ خلفاؤُها ووزراؤُها فى تشييدِ المناظرِ والقُصورِ وتفخيمِ الرِّباعِ والدُّورِ ،

---

(١) هى مدينة أُرفة الآنَ

وتفنَّنَ بها الصُّناعُ فى النَّقْشِ والزَّخرفة وتأليف الألوان والأصباغِ والزُّجاج المُلوَّن والإبداع فى تبليط الرُّخام وتركيب الفُسَيْفِساء[١]، مما باهتْ به القاهرةُ بغدادَ وقُرْطُبةَ، وكان نموذَجاً متْقَناً لارتقاء فَنِّ العمارة والزَّخرفةِ أواخِرَ القرن السابع وأوائلَ الثامن. وقلَّما سُمعَ فى تاريخ دولةٍ إسلامية ما سُمع عن الخلفاء الفاطِميين فى تَرَفِهم وامتلاء خزائنهم بالذَّخائرِ والنفائسِ والجواهرِ والأسلحة والكُتب

منظر الجنوب الغربىّ من القاهرة

ولم يقُمْ فى مملكةٍ من الاحتفال ما كان يقومُ به خلفاء القاهرة فى المواسم والأعياد، وهى الأيام التى كانوا يظهَرون فيها للرَّعية، وقلَّما كانوا يظهرون لهم فى غيرها، وإنما كان لهم سَراديبُ تحتَ الأرضِ ينتقلون فيها الى قصورهم ومناظرهم على الخليج وغيره

(١) خرز وفصوص من زجاج وحجارة ومعادن تخلط فتكوّن مزيجاً بديع الألوان

وبقيتْ القاهرةُ تختالُ ببهجتها وزُخرفها حتى دهمتْها فتنة قامت بين طائفتى الجنودِ السُّودانِ والتُّركِ زمنَ الخليفةِ المستنصرِ ، فتعطَّلتْ فيها المرافقُ ، واختلَّ الأمنُ ، فنُهبت الدورُ وقصورُ الخلفاء . وتلا ذلك الكارثةُ التى لم يُسْمَعْ بمثلِها فى التاريخ ، وهى المجاعةُ العُظمَى التى استمرت سبعَ سنين وعمّت القطرَ المِصْرىّ ، وصحِبَها طاعونٌ جارفٌ أهلكَ أكثرَ من ثُلُثِ سكّانِ البلادِ ؛ فكان من أقوَى عواملِ ضَعْفِ الخلفاء وعاصمتِهم . على أنها قد حفِظتْ كثيراً من رَوْنَق حضارتها حتى زالت دولةُ الفواطم على يدِ صَلاحِ الدين ؛ فأخرجَ الخلفاء من قُصورِهم ، وأسكنَ أمراءه القصرَ الكبيرَ ، وأسكنَ أباه القصرَ الصغيرَ ، ونزَل هو ومَن خلفه دارَ الوزارة . ثم أنشئوا قلعةَ الجبلِ ، فاتّخذوها هم ومَن بعدهم دارَ مُلْك ؛ ولمّا انقرضتْ دولتُهم وخلفَتْها دولةُ المماليك استدعَى منهم السلطانُ الملكُ الظاهرُ بيبرسُ البُنْدُقْدارِىُّ أولادَ العاضد الفاطمىّ ، واستنزلَهم عن مِلْكِ آبائهم فى القُصورِ والمناظر والدُّورِ وجميعِ ما خلّفوه بأثمانٍ صُوريّةٍ ، واستحلَّ بذلك بَيْعَ هذه الأملاكِ ، فبِيعَتْ وقُسِّمتْ شوارعَ وحاراتٍ ، وفنادقَ وحماماتٍ ، وتغيَّرتْ معالِمُها جُملةً

هذا شأنُ القاهرةِ زمنَ الفواطم وبعدَه بقليل

ولما أصابتِ الممالكَ الشرقيةَ إحَنُ التتارِ وكوارثُهم ، هاجرَ مِئاتُ الألوفِ منها الى مصرَ والشام ؛ فكان نصيبُ القاهرةِ منهم عظيماً ، ثم هاجر اليها كثير من التتار الذين أسلموا وضاقتْ بهم ، فنزلوا ظاهرَها غربىَّ المدينة وبَنوا العماراتِ العظيمةَ والأسوارَ والفنادقَ والخاناتِ ، وسُمِّى جميعُ ذلك ظاهرَ

القاهرةِ ؛ حتى إذا آذَنَ الله بتشتت شمل التتار وإسلام مَن بَقِيَ منهم صفا الزمانُ لملوكِ الترك البحريةِ بمصرَ ، واستفحلَ أمرُهم ، وامتدَّ سُلطانُهم إلى الجزيرةِ الفُراتيَّةِ والحجازِ وبَرْقةَ ودُنقلةَ ، وأصبحت القاهرةُ فى ذلك الحين أفخمَ حاضرة إسلامية تُجبى إليها ثمراتُ كلّ شىء من مشارقِ الأرض ومغاربها ؛ تخلفت بغداد وقرطبةَ ؛ وامتدت عِماراتها حتى أصبحت حدودُها من مُنيةِ الشَّيْرَجِ إلى دَيْرِ الطِّينِ ، ومن ساحِلِ النِّيلِ الحالىّ إلى قُبورِ الخلفاء : أى كانت تُقاربُ ما هى عليه الآنَ ، وتنافسَ المماليكُ فى عِمارة المساجدِ والأربطةِ والسُّبُلِ والمدارسِ والرِّباعِ والفنادقِ والحمّاماتِ حتى خرجوا بذلك عن حدِّ المعقولِ ؛ فلا يكادُ الإنسانُ يَمُرُّ بالشارع الذى يمتدُّ من السيدةِ نَفيسةَ الى باب النصرِ وبابِ الفتوحِ حتى يُذْهِلَه عَدَدُ ما يراه على جانبى الشارعِ من المساجدِ والمدارسِ والأربطة التى تتجلّى فيها بدائعُ الصِّناعة العربية من البناء والنَّحْتِ والنَّقْشِ والتطعيمِ والنجارةِ الدقيقة ، مما هو ماثلٌ إلى الآنَ يشهدُ بضَخامةِ السُّلطانِ وأُبَّهةِ الملْكِ وعِظَمِ الثَّروةِ التى كانت تتمتَّعُ بها القاهرةُ . وأصدقُ شاهدٍ بذلك ما قالَه المؤرِّخُ الثقةُ الحكيم عبدُ الرحمن بنُ خلْدونَ فى رِحلتِه الى المشْرقِ عندَ ما دَخلَ الاسكندريةَ وانتقل منها إلى القاهرة سنة ٧٨٤ هـ

« فانتقلتُ إلى القاهرةِ أوّل ذى القَعْدةِ ، فرأيت حاضرةَ الدُّنيا ، وبُستانَ العالَمِ ، ومَحْشَرَ الأُمَمِ ، ومدرَجَ الذَّرِّ من البَشرِ ، وإيوانَ الإسلامِ ، وكُرسىَّ المُلْكِ ، تلوحُ القصورُ والأواوينُ فى جَوِّه ، وتَزْهَرُ الخوانقُ[1] والمدارسُ

(١) جمع خانقاه : كلمة تركية عربت وأطلقت على الأربطة (التكايا)

بآفاقه، وتُضيء البُدورُ والكواكبُ من عُلمائه، قد مثلَ بشاطئ النيل يَسقيه العَلَلَ والنهلَ سيحُه، ويَجْبي اليه الثمراتِ والخيرات سَبْحُه[1]. ومررتُ في سِكك المدينة تغصُّ بزحام المارَّة وأسواقُها تزخر بالنعم الخ »

ولكنَّ مآلَ كلِّ حال الى الاضمحلال، فلم تنْعَمْ القاهرةُ بذلك أكثرَ من قرنين؛ حتى تناوبتْها الفتنُ وثوراتُ المماليك الداخلية، والطواعينُ الجارفةُ التي أعظمُها طاعونُ سنة تسع وأربعينَ وسبعمائة، فابتدأ خرابُ العمائر في ظاهر القاهرة؛ حتى فتحَ السلطانُ سَليمٌ مصرَ، فأصبحتْ بذلك ولايةً خاليةً من أُبَّهة الملك والسلطان والغِنَى، وزادَ الخطبَ تفاقماً نقلُ السلطانِ سليم كثيراً من مَهَرة الصُّنَّاع الى القُسْطَنْطينية. وتضاعفَ الخرابُ في القاهرة حتى كانت أزمانَ الاحتلال الفرنسيِّ تكادُ تُحصَرُ بين حدود القاهرة القديمة. ولما أذِنَ اللهُ لحَضارة القاهرة أن تُبعثَ من رَقْدَتها أتاحَ لها حكومةَ المُصلِح العظيم محمدِ عليّ باشا الذي جدَّدَ في مصرَ كلَّ شيء، ونقلَ إليها حَضارةَ أوربة، وشيَّدَ فيها المصانعَ والمدارسَ والثُّكناتِ وجدَّدَ بَنيَّةَ القلعةِ وأقامَ فيها ذلك المسجدَ الفخمَ الذي أصبحَ عَلَمَ القاهرة الفرْدَ. وأنشأ بها حَفيدُه العظيمُ الخديو إسماعيلُ عشراتِ القصور، وشقَّ بها كثيراً من الشوارع؛ وغرسَ بها الأشجارَ والحدائقَ، ومنها حديقةُ الأزبكية وأفسحُ الميادين وبنى قصر عابدين، فأخذت القاهرةُ تنتعشُ بالتدريج حتى صارت تماثلُ أو تفوق ما كانت عليه في القرن السابع. وأصبح عددُ سكانها أكثرَ من ثمانمائةِ ألفٍ. ودلائلُ الأحوال تُشيرُ الى أنها ستكونُ أكبرَ مدينةٍ إسلاميةٍ على وجهِ البسيطة

---

(١) أي السبح فيه. والسبح أيضاً التقلب في المعاش والذهاب والمجيء فيه وهو مناسب هنا أيضاً

خطبـــــة

﴿ لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ﴾

روى صاحب صبح الأعشى أن أميرَ المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب (رضى الله عنه) قال من خطبة :

أيُّها الناسُ ! إنَّه أتى عليَّ حِينٌ وأنا أحْسِبُ أنَّ مَنْ قرأ القرءانَ إنَّما يُريدُ اللهَ وما عندَه ؛ ألاَ وإنهُ قد خُيِّلَ إليَّ أن أقواماً يَقرءونَ القرءانَ يُريدون ما عندَ الناس[١] ؛ ألا فأَرِيدُوا اللهَ بقراءتِكم ، وأَرِيدُوه بأعمالِكم ؛ فإنَّما كُنَّا نعرِفُكم إذ الوَحْيُ ينزِلُ ، وإذ النَّبيُّ (صلى الله عليهِ وسلم) بينَ أظْهُرِنا[٢] ، فقد رُفِعَ الوَحْيُ ، وذهَبَ النبيُّ (عليهِ السلام) فإنما أعرِفُكم بما أقولُ لكم : ألا فَمَنْ أظْهرَ لنا خيراً ، ظَنَنا به خيراً وأثْنَيْنا به عليهِ ؛ ومن أظهرَ لنا شَرًّا ظَنَنَّا به شرًّا ، وأبْغَضْناهُ عليهِ

اقْدَعُوا[٣] هذه النُّفوسَ عن شهواتِها ؛ فإنها طَلِقَة[٤] ، وإيَّاكم ألاَّ تقدَعُوها تَنْزِعْ بكم الى شَرِّ غايةٍ . إنَّ هذا الحقَّ ثقيلٌ مرِيءٌ[٥] وإنَّ الباطلَ خفيفٌ وَبِيءٌ[٦] وتَرْكُ الخطيئةِ خيرٌ من مُعالجةِ التَّوبةِ .

---

(١) أى يريدون أن يشتهروا بالمعرفة والعبادة لينالوا من أولياء الامور خيراً

(٢) أى حيّ مقيم وسطنا (٣) أى كفوا . وقدَع الفرسَ كفَّه

(٤) الطلق الفرس السريع الجرى . أى كفوا النفوس عن شهواتها كما تمنع الفرس عن جماحها (٥) المرئ الهنىء النافع للجسم (٦) ضد هنىء : أى وخيم ضار للجسم

العَنْكَبُوت[1]

﴿ حقيقة فى فُكاهة ﴾

كان من عادتى فى رياضتى أن أخرُج آخِرَ كلِّ أسبوع الى البيداء لأُرَوِّحَ النفسَ من العَناء، فدخلت ذاتَ مرَّةٍ غابةً باسقةَ الأشجارِ مُلتفة الأعشاب يجرى خِلالَها نهرٌ مُتَعَجِّج[2]، شاهدتُ على إحدى ضفَّتَيْه عَنكبوتاً سمراءَ اللَّوْنِ مُكِبَّةً على حجرٍ تُنظِّفُ بذراعَيها وجهَها كما يفعلُ الذُّبابُ، وهى مَهْزولة الجسم خائرةُ القُوَى. فرأيتُ أن أفضلَ ما أستفتحُ به حديثَها سؤالُها عن صِحَّتِها. فقلت لها: أراكِ مُنحرِفةَ المِزاجِ فماذا يُؤلِمُك؟ فقالت: إنى مريضةٌ وَجِلةٌ قَلِقةٌ. فقلت: ففيمَ ذلك؟ ولم يخطُرْ ببالى قطُّ أن عنكبوتاً مثلَك تمرَضُ وتخافُ، وقد مُنِحْتِ قُوَّةً لم يُمْنَحْها سِواكِ. فقالت: وهذه إحدى البَلِيَّتَيْنِ! فإنَّ الناسَ يظُنُّون الظُّنونَ ويستخرجون النتائجَ من أقيسةٍ لا تُنتِجُ، ولا غروَ أن قِصَّتى تفتحُ عينيْكَ فترى الأمورَ على حقيقتها

حدَثَ منذ سنتَين أن أُمِّى كانت قابعةً[3] فى عُقْرِ بيتها[4] فجاءها المَخاضُ، وجعلتْ تبيضُ بيضَها واحدةً بعد أُخرى، الى أن بلَغَ عددُ ما باضتْه ذلك اليومَ ثلثمائةِ بيضةٍ. وخافَتْ أن يتبعثرَ البيضُ فجعلت، تغزِلُ الخيوطَ من مَغازلها، وهى ستُّ أنابيبَ فى ذَنَبها تُفرِزُ الخيوطَ الحريريةَ الدقيقة التى

---

(١) نقلت بتصرف عن المقتطف، وهو ترجمها عن مقالة لسيدة انجليزية

(٢) تعجج السيل والحية والريح وغيرها تلويها وتثنيها كما فى «الأساس» وغيره

(٣) قبع الرجل حتى رأسه وطأطأه الى صدره أو أدخله فى جيب قميصه

(٤) عقر البيت وسطه

تُسمُّونها نَسْجَ العنكبوتِ وتضربون بها المَثَلَ فى الوَهَنِ لِدِقَّتها، وهى واهنة حقًّا إلا أنها لو جُمِعَ بعضُها الى بعضٍ لصارت أَمتنَ من أسلاكِ الحديدِ. فأفرزتْ كثيراً من هذه الخيوط، ولَفَّتْ بَيْضَها بها حتى صارَ البَيْضُ كلُّه كُرَةً كبيرةً تُحيطُ بها خيوطٌ صفراءُ كالزَّغَبِ الواهى أو كريش النَّعامِ. ولما تمَّ لها ذلك حملتْ هذه الكُرةَ بين فكَّيْها، وخرجتْ من بيتِها لتصعدَ بها مكاناً عليًّا لا يبلغه ماءُ النهرِ اذا فاضَ. وبعد عناءٍ وجَهْدٍ وضعتْ بَيْضَها فى ثُقْبٍ غائرٍ بين صخورٍ عاليةٍ ثم عادتْ الى بيتِها على ضَفةِ النهر. ولو رآنى أحدٌ أنا وأخواتى فى ذلك اليوم والأيام التالية لَظَنَّنا بُزوراً دقيقةً تجمَّعَ عليها زَغَبٌ من الحرير. على أنَّ وَضْعَنا فى ذلك الغارِ الحريز لم يُؤْمِنَّا دقيقةً من الخطرِ. ففى ذاتِ يومٍ زارَنا طائرٌ قبيحُ المَخْبَرِ، وإن لم يكُنْ قبيحَ المَنْظَرِ مُبَرْقَشٌ بالزُّرقةِ والصُّفرةِ ليُخْفِىَ شراسةَ أخلاقِه، وجعل يفتشُ بين الصُّدوع والنَّخاريب ويستخرجُ الدِّيدانَ والحشراتِ منها ويأكُلُها. ولِحُسن التوفيق كانت أمُّنا أخفتْنا فى ثُغْرةٍ عميقةٍ جعلتْه لا يهتدى الينا، ومرَّ بنا فصلُ الشتاءِ ونحن بَيْضٌ ثم فُقِسنا من البَيْضِ فى الربيع. ولم نخرُجْ منها دِيداناً بل خرجنا عنا كِبَ خَلْقاً كاملاً. وهذا أمرٌ يستحقُّ النظرَ؛ فان الفَراشَ والنَّحْلَ والخنافسَ تخرُجُ كلُّها دِيداناً صغيرةً ثم تصيرُ فَيالِجَ [1] قبل أن تبلُغَ درجةَ الكمال؛ أما نحنُ فممتازاتٌ عليها كلِّها لأننا نخرُجُ من البيض عنا كبَ كاملةً كما يخرُجُ أصدقاؤُنا الجنادِبُ [2]. خرجنا من بيضِنا ولكننا كُنَّا صِغاراً كحَبِّ الخَرْدَلِ، ولم

(١) جمع فيلجة. وهى الغشاء الذى تبنيه دودة القز على نفسها كما فى المصباح. وقد أطلقناه على نظيره هنا (٢) نوع من الجراد

نستطيعُ أن نرى الأشياءَ جليةً إذ كنا مغشيَّاتٍ بغشيةٍ رقيقةٍ تصوننا كما تُصانُ الجواهرُ فى أصوتها[١] . ولقد كنتُ أولَ من مزَّقَ غطاءه . فلما انكشف الغطاءُ عن عينىَّ ذهلتُ عن نفسى بما رأيتُه حولى من اتساعِ الوادى الذى كنا فيهِ واستعظمتُ ما حوْلَه بالإضافة إلىَّ ؛ فكنتُ أرى النَّبْتةَ الصغيرةَ فأحسبُها شجرةً كبيرةً . لكننى شُغِلتُ عن ذلك توًّا بما رأيتُه حوْلى من كثرةِ أخواتى اللواتى خرجْنَ من بيْضِهِنَّ مثلى . وبينما أنا أنظرُ إليهنَّ سمِعْتُ صوْتًا يُخاطبُنا بلهْجةِ الآمرِ الناهى فالتفتُّ ، فاذا المتكلِّمُ عنكبوتٌ كبيرةٌ جالسةٌ فى بابِ بيتها ، وهى أُمُّنا ؛ فأصغَيْنا اليها ، فقصَّتْ علينا خبرَ ما أصابها من العَناء من جرّائنا ؛ أما أنا فلم يذْهلْنى خبرُها بقدْرِ ما أذهلَنى شىءٌ رأيتُه تحتَها وهو كأنه عنكبوتٌ ميتةٌ ؛ فلما أتمتْ حديثَها قلتُ لها : ما هذا الذى أراه تحت أقدامِك يا أُمَّاه . فقالت : هذا أبوك يا وَلَدى ، فقلت : ولكننى أراه ميتًا لا حرَاكَ به . فتبسَّمتْ وقالت : نعم هو ميِّتٌ . فقد انقضت أيامُ الأفراحِ ولم يَعُدْ لنا به أربٌ ، فقتلتُه ومَصَصت دمَه ولم يبقَ منه إلاّ جِلْدُه ، وسأجعَلُه فراشًا لى ، وهو فِراشٌ وَثِيرٌ[٢] مُدْفِئٌ فى ليلةٍ نَدِيةٍ مثل هذه الليلة . فقلتُ لها : هل أتزوَّجُ متى كَبِرتُ وآكلُ زوجى ؟ فقالت : لا ! لأنك أنتَ ذَكَرٌ يا وَلَدِى ، وستأكلُكَ زوجتُك كما أكلتُ أنا أباكَ . ولا تَدْنُ منى الآنَ ؛ لأنى أحيانًا آكلُ أولادى أيضًا . فكان هذا أوَّلَ نبإٍ سمعتُه فى حياتى ! فما أتعسَ هذه الحياةَ وهل تُتصوَّرُ حياةٌ أتعسُ منها ؟

فقلتُ له بعدَ أن عرفتُ أنه ذكرٌ : الآن عرفتُ لماذا أنتَ خائفٌ

---

(١) جمع صوان . وهو الوعاء الذى يحفظ فيه الشىء النفيس (٢) ممهَّد ليّن

كاسفُ البال، ولكنّ لك أُسوةً بنا ؛ فكم رجلٍ منا أكلتْه زوجتُه. فقال : ألا تُريدُ أن تسمعَ بقيةَ قِصَّتى.

قلتُ : بلَى ! هاتِ ما عندك. فقال : ما أنبأتْنا أُمُّنا أنها تأكلُ أولادَها حتى أطلقْتُ أرجُلى للرّياحِ وهربتُ من وجهها منحدِراً إلى النَّهرِ حتى بلغْتُ شاطئَه. فوجدتُ أننى أستطيعُ أزأمْشِىَ على الماءِ كما أمشِى على اليابسةِ. فسرّنى ذلك سُروراً عظيماً.

فقلتُ له : هذا أمرٌ لم أكُنْ أعرِفُه. فقال : إنك لا تعرفُ مقدارَ ما نستطيعُه اذا اُضطُرِرنا إليه. وحَقًّا ليس كلُّ العناكب يستطِعْنَ ذلك، وأنا منهم. على أنّ مِنْ أبنائِنا ما يغوصُ فى الماءِ، ويسكُنُ فى فُقّاعةٍ من الهواءِ، وما يَثِبُ على الأرض، وهو اللَّيْثُ. ولا غرابةَ فى مَشْينا على الماءِ ؛ فإن بيننا وبين السَّراطين نَسباً، وإن كان بعيداً. فقلتُ له : أصَبْتَ ؛ فإنك

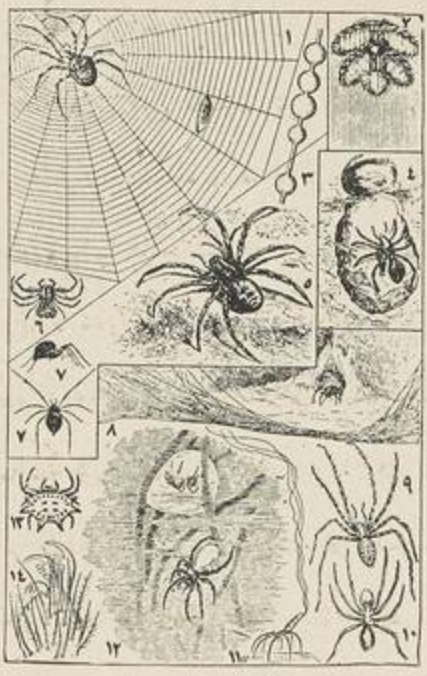

العناكب وأنواعها

(١) عنكبوت بستانية ونسيجها
(٢) جهاز فرز النسيج من العنكبوت
(٣) منظر مكبر لخيط حلزونى من خيوط العنكبوت وفيه تشاهد العقد اللزجة
(٤) العنكبوت ذات المصيدة
(٥) و (٦) و (٧) بعض أنواع العنكبوت الوثابة من طائفة الليث
(٨) بيت عنكبوت المنازل على شكل رف فى زاويته عنكبوت
(٩) و (١٠) نوعان من عنكبوت المنازل
(١١) عنكبوت تسبح فى الهواء عالقة بخيوطها
(١٢) عنكبوت مائية وبيتها
(١٣) عنكبوت سرطانية
(١٤) قدم مكبرة لعنكبوت بستانية

تشبهها فى شكلها . فقال : نعم ! ولكنّ السرطانَ لا يكتفى بثمانى أرجلٍ مثلنا ، بل له عشرُ أرجُلٍ . ولماذا تقطعُ علىّ الحديثَ ؟ دعنى أتمّمْ قصتى

لما رأيتُنى أمشِى عَلَى وجه الماء بادَرْتُ إلى أقربِ قَصْباء[1] ، فرأيتُ حشَراتٍ صغيرةً خضراءَ اللَّوْن خاليةً من الأجنحةِ ، فقبضْت على واحدةٍ منها . والْتهمْتُها فاستطبتُها ، فجعلت أَلتهِمُ الواحدةَ بعدَ الأخرى حتى انتفخ بطنى ، وشعَرْتُ أنه كادَ يَنْشَقُّ

فقلتُ له : كيفَ كنتَ تلتهمُها ؟ أكنتَ تبلعُها بلعاً ؟ فقال كلاَّ ! بل كنتُ أشُقُّ ظهرَها من : بين كَتِفَيْها ، وأمتصُّ دَمَها ، فلا أُبقِى فى جسمِها شيئاً غيرَ جلدِها . ولما شَبِعْتُ عُدتُ الى بناء بيتى فأتممْتُه وجلستُ فيه أترقَّبُ سُقوطَ الذُّبابِ . فعَلِقَ بخيُوطِه ذُبابٌ كثيرٌ ، فأكلتُه ، وسَمِنْتُ جدًّا ، حتى كنت أُضْطرُّ أن أنسلخَ من جلدى مِراراً ؛ إذ لم يَعُدْ يَسَعُنِى ؛ وكثيراً ما كانت تَنْقَطِعُ منِّى إذ ذاكَ يَدٌ أو رِجْلٌ

فقلتُ : كيفَ ذلك ؟ أوَلَمْ يكُنْ قطعُها مُؤلِماً حتى تتحدَّثَ عنه بطيبِ خاطرٍ ؟ فقال : بلَى ! كنت أتألَّمُ شيئاً ما ، ولكنَّا معشرَ العناكبِ لا نألَمُ مثلَكم ، ولا مثلَ الديدانِ . فإذا انقطعَت رِجْلٌ أو أرجُلٌ من الدُّودة ماتت حَتْماً . أمّا نحنُ فإذا انقطعَت رِجْلٌ من أرجُلِنا نبتَت لنا أُخرَى . وقد قُطِعت منى اثنتانِ فنبتت لى غيرُهما . ولا داعِىَ للإطالةِ فى تاريخ حياتى عند ذلك النهر ، فأدَعُهُ وأقصُّ عليك قصةً غيَّرتْ مَجْرى أمرى :

كنت ذات يوم جالساً فى بيتى أتردَّدُ على بابه لعلّى ألْفِتُ إلىَّ ذبابة

(١) القصباء جماعة القَصَب وهو كل نبات ذى أنابيب

كبيرةً واقفةً على قصبةٍ أمامى . وبينما أنا أنظرُ إليها وأتأملُ جناحيها إذا بالجناحين سقطا عن بدَنها بَغْتةً ، وإذا هى نَمْلةٌ كبيرةٌ كأقبحِ ما يكون من النَّملِ

فقلت له : ألَمْ تعلَمْ أن مَلِكاتِ النملِ يَرْمينَ أجنحتَهنَّ بعد زواجهن ؟ فقال : كلاَّ ! لم أكُنْ أعلمُ ذلك . قال فوقَفْتُ مدهوشاً ، وقبلَ أن أُفيقَ من دهشتى جعلَت النملةُ تُناجى نفسَها وتقول : « لقد كان الواجبُ علىَّ أن أعرِفَ أن جَناحىَّ يسقطانِ اليومَ ، فلا أبقَى هنا فوقَ الماءِ . ولولا هذا القصبُ ، وإن كان المشْىُ عليه عسيراً ، لقضَى علَىَّ . ما هذا الذى أمامى ؟ هذه عنكبوتٌ ! إذن آخذها معى الى قَرْيتى ، وآكلها على مَهَلٍ » . وأنتَ تعلَمُ مقدارَ ما حاقَ بى حينئذٍ . فرميْتُ بنفسى من يبتى الى الماءِ ، فالتفتُّ فاذا أنا بخُنْفُسةٍ كبيرةٍ من خنافس الماءِ قد رَفعتْ زُبانَيْها[1] ، وجدّتْ فى أثرى سِباحةً . ونظرتُ أمامى لعلِّى أجدُ مَهْرَباً ، فإذا دودةٌ كبيرةٌ عيناها كمِصْباحين متُقدَيْن سدَّتْ فى وجهى مَسالكَ الماءِ واليابسة . ولم يَبْقَ أمامى إلاَّ الهواءُ . فوَثَبتُ الى وَرَقةٍ من ورق زَنْبَق الماءِ ، ولجأتُ الى سَليقةٍ أسلافى ، وأفرزْتُ من مَغازلى الستةِ التى فى ذَنَبى ستَّةَ خيوطٍ حريريَّة دقيقة ، فاتَّحدَتْ معاً وطارتْ فى الهواءِ خيْطاً واحداً برَّاقاً كالبلُّور ، فتشبَّثتُ به وطِرْتُ بمجارى الرِّياح ، فكانت تُمدّدُه حرارةُ الشمس ، وترسِلُ به صُعُداً . ثم عبثَ بى النسيمُ ، فحمَلَنى الى حَرَجَة[2] من الصَّنَوْبَر وأصارنى فوقَها وفوقَ السهول المجاورة لها . ورأيتُ فى طريقى كثيراً من أخواتى راكباتٍ مُنطاداتِها

(١) زبانى العقرب ونحوها من العناكب قرنها (٢) مجتمع الشجر الكثير

وسائرات بين الأرض والسماء، ولكنى رأيتُ طيوراً صغيرةً تنقضُّ عليها وتخطفُها، فقلتُ: ويلاه! الى متى لا نسلَم من الأعداء؟ ألا إن من أراد السلامةَ لم يجدْها، ولو اتَّخذَ لها نَفَقاً فى الأرض أو سُلَّماً فى السماء. فأطلتُ خيطى، وجعلتُ أهبطُ رُوَيْداً إلى أن وقعتُ على بعض الهشيم. ولم أكدْ أصِلُ اليه، حتى رأيتُ زِنباراً كالتِّنِّين واقفاً فى انتظارى. ونحن العنا كبَ لا نخشاه اذا كنا فى بيوتنا؛ بل نحتالُ عليه، ونَنسِجُ حَوْلَه خيوطَنا حتى نمنَعَه من الحركة، ثم نَمصُّ دَمَه، وهو كبيرٌ كثيرُ الغِذاء، فنقتاتُ به أياماً. أما اذا رآنا ظاهرَ بُيوتِنا فانه ينتقمُ منا: فيهجُمُ على العنكبوت، ويقبضُ عليها بفكَّيْه، ويحملُها الى بيته، ويأكلُها دَفعةً واحدةً. ولا مأرَبَ لى بذلك. ولم تَهيَّأْ لى هذه الحيلةُ فقطعْتُ خيطى وارتميتُ فى الهشيم كقِطعةٍ من الحجر، فوصلتُ الى أسفله، وقد أشَلَّ الخوفُ أعصابى

وبرَقت السماءُ ورعَدت تلك الليلةَ، وسقط بَرَدٌ كبيرٌ، وقمتُ فى الصباح واذا الريحُ تَهُبُّ باردةً، والسماءُ مُحَجَّبةٌ بالسُّحُبِ. فصغُرَتْ نفسى فى عينى، وشعَرْتُ بوحدةٍ ووَحْشةٍ، فصعِدْتُ إلى رأس الشجرة التى كنتُ فيها، وأفرزتُ الخيوطَ من مغازِلى، وصَعَّدتُ بها فى الجوّ، فساقتْنِى الرياحُ، ورمتنى على ضَفَّة النهر فى المكان الذى قضيتُ فيه زَهرةَ صِباىَ. واعتدلَ الهواءُ حينئذٍ. وكنتُ قد بلغتُ أشُدِّى، فتاقت نفسى الى زَوْجةٍ تكونُ معى

فقلتُ: ما لك وللزّوجةِ وأنتَ تعلَمُ عاقبةَ أمرك معها؟

فقال: هكذا كان! فتزوَّجْتُ وتورَّطتُ. والآنَ حُمَّ القضاءُ. (قال ذلك، وهو ينظرُ يَمْنةً ويَسْرةً كالمُستجير). وبينما هو كذلك وأعضاؤه ترتجفُ وجَلاً،

وأنا أنظرُ اليه مدهوشاً، خرجتْ عنكبوتٌ كبيرة من الغارِ ووثبتْ عليهِ، فحاوَل دَفْعَها عنه، ولكنها أمسكتْ به، وخنقتْ أنفاسَه. وفى أقلّ من خمس دقائقَ تركتْه جِلْداً خاوياً

خطبـــــة

﴿ لعثمان (رضى الله عنه) ﴾

روَى الطبرىُّ[١] فى تاريخه أنَّ آخر خطبة خطبَها عثمانُ فى جماعةٍ هى :

إنَّ اللهَ (عزَّ وجلّ) إنما أعطاكم الدنيا لتطلُبوا بها الآخرة، ولم يُعطِكُموها لتركَنُوا إليها. إنّ الدنيا تفنى والآخرةَ تبقَى؛ فلا تُبْطِرَنَّكم[٢] الفانيةُ، ولا تَشغَلَنَّكم عن الباقيةِ، فآثِرُوا[٣] ما يبقَى عَلَى ما يفنَى؛ فإن الدُّنيا منقطعةٌ؛ وإنَّ المَصيرَ إلى اللهِ. اتَّقُوا اللهَ (عَزَّ وجَلَّ) فإنّ تقواه جُنَّةٌ[٤] مِن بأسِه ووسيلةٌ عِندَه، واحذَروا من اللهِ الغِيَرَ[٥]، والزمُوا جماعتَكم لا تَصيروا أحزاباً «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكم فَأَصْبَحْتُم بنعْمَتِهِ إِخْوَانًا»

---

(١) هو الامام المجتهد المفسر المؤرّخ محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

(٢) البطر : قلة احتمال النعمة وكراهة الشىء من غير أن يستحق الكراهة أى لاتجعلكم الدنيا تكرهون العافية التى أنتم فيها (٣) اختراقاً (٤) وقاية وستر

(٥) حوادث الزمان

خطبـــــة

﴿ لعلىّ (كرم الله وجهه) ﴾

روَى صاحبُ العقدِ الفريدِ[١] أن عَلِيًّا (كرمَ الله وجهَه) خطبَ أهلَ الكوفةِ يُؤَنِّبهم على التراخى فى القِتال فقال :

أيُّها الناسُ المُجْتَمِعةُ أبدانُهم المُخْتَلِفةُ أهواؤُهم ! كلامُكم يُوهِنُ الصُّمَّ الصِّلابَ[٢] ، وفِعلُكم يُطْمِعُ فيكم عدوَّكم ، تقولون فى المجالس كَيْتَ وكَيْتَ فإذا جاء القتالُ قلتُم حَيادِ[٣] . ما عَزَّتْ دَعوةُ مَنْ دعاكم ، ولا اُستراحَ قلبُ مَن قاساكم أضاليلُ[٤] بأباطيلَ

وسألتُمونى التأخيرَ : دِفاعَ ذِى الدَّيْنِ المَمْطولِ[٥] ، ألَا لَا يدفعُ الضَّيمَ الذَّليلُ ، ولا يُدرَكُ الحقُّ إلّا بالجِدّ . أىّ دارٍ بعدَ دارِكم تَمْنَعون ؟ أم معَ أىِّ إمامٍ بعدى تُقاتلون ؟ المَغرورُ واللهِ مَن غَرَرتموه . ومَن فازَ بكم فاز بالسَّهْمِ الأخيبِ . أصبحتُ واللهِ لا أُصدِّقُ قولَكم ولا أطمعُ فى نُصرَتِكم . فَرَّقَ اللهُ بَيْنِى وبَيْنَكم ، وأعقَبَنى بكم مَن هو خيرٌ لى منكم . ودِدْتُ واللهِ لو أنَّ لِى بكلِّ عشرةٍ منكم رَجُلًا مِن بنى فِراسِ[٦] بن غَنْمٍ صَرْفَ الدِّينارِ بالدِّرهم

---

(١) هو الأديب الشاعر المصنف احمد بن محمد بن عبد ربه توفى سنة ٣٢٨ هـ

(٢) أى الصخور الصلبة (٣) اسم فعل أمر من حاد عنه أى جانبنا

(٤) جمع أُضلولة . والأباطيل جمع باطل على غير قياس أو هى جمع أُبطولة

(٥) مطله بدينه : طاوله فيه وسوّفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى (٦) هم بطن من بنى كنانة يعدون أشجع العرب

الاخلاق الفاضلة

نبذة مقتبسة بتصرّف من كتاب الأخلاق لمحيي الدين بن العربي (١)

الأخلاقُ التي تُعَدُّ فضائلَ منها :

العِفَّةُ — وهي ضَبْطُ النفس عن الأهواءِ ، وقَصْرُها على الاكتفاءِ بما يُقيم أودَ الجسدِ ويحفَظُ صحتَه ، واجتنابُ السَّرَفِ والتقتيرِ في جميع اللذات ، وقَصْدُ الاعتدال ، وأن يكونَ ما يُقتصرُ عليه منها على الوجهِ المستَحَبِّ المتَّفَقِ على ارتضائه ، وفي أوقاتِ الحاجة التي لا غنىً عنها ، وعلى القدرِ الذي لا يُحتاجُ الى أكثرَ منه ولا يحبسُ النفسَ والقوَّةَ على أقلَّ منه . وهذه الحالُ هي غايةُ العِفَّة

ومنها التَّصَوُّنُ — وهو التحفُّظُ من التَّبَذُّلِ . فمِنَ التصوُّنِ التحفُّظُ من الهَزْلِ القبيحِ ومُخالطةِ أهلِه وحضورِ مجالِسِه ، وضبطُ اللسانِ من الفُحْشِ وذِكْرِ الخنا والقبيحِ والمُزاحِ السخيفِ ، وخاصةً في المحافل ومجالسِ المحتشِمين. ولا أبَّهةَ لمن يُسرفُ في المُزاحِ ويُفْحِشُ فيه . ومن التصوُّنِ أيضاً الانقباضُ عن أدنياءِ الناس وأصاغرِهم ومُصادقتِهم ومُجالستِهم ، والتحرُّزُ من المعايشِ الرديئةِ واكتسابِ الأموال من الوجوه الخسيسةِ ، والترفُّعُ عن مسألةِ الحاجاتِ لئامَ الناسِ وسِفْلَتِهم والتواضُعِ لِمَنْ لا قدرَ له ، والإقلالُ من البروزِ من غيرِ حاجةٍ والتبذلِ بالجلوسِ في الأسواقِ وقوارعِ الطُّرُقِ من غير

---

(١) هو العارف المتصرّف المصنف محيي الدين محمد بن علي بن العربي دخل المشرق وسكن دمشق وتوفي بها سنة ٦٣٨ هـ

ٱضطرار؛ فإنَّ الإكثارَ من ذلك مُخِلٌّ، وأعظمُ الناسِ قدراً عند الخَلْق من ظهر ٱسمُه وخَفِي شخصُه

ومنها الحلمُ — وهو تركُ الٱنتقام عندَ شِدةِ الغَضب مع القُدرةِ على ذلك. وهذه صفةٌ محمودةٌ ما لم تُؤَدِّ الى ثَلْمِ جاهٍ أو فسادِ سياسةٍ. وهى بالرؤساء والملوك أحسَنُ، لأنهم أقدرُ على الٱنتقام مِن مُغْضِبيهم؛ ولا يُعَدُّ فضيلةً حِلْمُ الصغيرِ عن الكبيرِ، وإن كان قادراً على مقابلتِه فى الحال؛ فإنه إن أمسكَ فإنما يُعَدُّ ذلك خَوْفاً لا حِلماً

ومنها الوَقارُ — وهو الإمساكُ عن فضولِ الكلام والعيب وكثرةِ الإشارة والحركةِ فيما يُسْتَغنَى عن الحركةِ فيه، وقِلَّةُ الغضب، والإصغاءُ عند الٱستفهام، والتوقُّفُ عندَ الجواب، والتحفُّظُ عن التسرُّع فى جميع الأُمور. ومن قَبيل الوَقارِ أيضاً الحياءُ — وهو غَضُّ الطَّرْف والٱنقباضُ عن الكلامِ حِشمةً للمستحيا منه. وهذه العادةُ محمودةٌ ما لم تكُنْ عن عىٍّ ولا عَجْزٍ

ومنها الرحمةُ — وهى لا تكون الاّ لمن تظهرُ منه لِراحِمِه خَلَّةٌ مكروهةٌ: إما نقيصةٌ، وإما مِحْنةٌ عارضةٌ. فالرحمةُ هى محبةٌ للمرحوم مع جَزَعٍ من الحالِ التى من أجلها رُحِمَ. وهذه الحالُ مستحسنةٌ ما لم تخرُجْ بصاحبِها عن العَدْل، ولم تَنْتَهِ به إلى الجَورِ وإلى فساد السياسة؛ فليس بمحمودٍ رحمةُ القاتل عندَ القَوَدِ والجانى عندَ القِصاص

ومنها الوفاءُ — وهو الصَّبرُ على ما يَبذُلُه الإنسانُ مِن نَفْسه، ويرهَنُ به لسانَه والخروجُ مما يَضمَنُه وإن كان مُجْحِفاً به؛ فليس يُعَدُّ وَفِيّاً مَن لم يَلْحَقْه بوفائه أذيَّةٌ وإن قَلَّتْ. وهذا الخُلُقُ محمودٌ ينتفِعُ به جميعُ الناسِ. فإن مَنْ

عُرِفَ بالوفاء كان مقبولَ القولِ عظيمَ الجاه، الاّ أن انتفاعَ الملوك بهذا الخُلقِ أكثرُ وحاجتهم اليه أشدُّ . وإنه متى عُرِفَ منهم قلّةُ الوَفاء لم يُوثَقْ بمواعيدِهم ولم تَتِمَّ أغراضُهم ، ولم يَسكُنْ إليهم جندُهم وأعوانُهم

ومنها أداءُ الأمانةِ — وهو التعفُّفُ عمّا يتصرفُ الإنسانُ فيه من مالِ غيرِه وما يُوثَقُ به وعليهِ من الإعراضِ والحُرَمِ مع القُدرةِ عليه ، وردُّ ما يُستودَعُ الى مُودِعِهِ

ومنها كتمانُ السِرِّ — وهذا الخلقُ مُركَّبٌ من الوَقارِ وأداءِ الأمانة . فان إخراجَ السرِّ من فُضولِ الكلامِ . وليس بوَقورٍ من تكلَّمَ بالفُضول . وأيضاً فكما أنَّ مَن اُستُودِعَ مالاً فأخرَجه إلى غيرِ مُودِعِهِ فقد خفرَ الأمانةَ كذلك مَن اُستُودِعَ سِرًّا فأخرجَه إلى غيرِ صاحبِه فقد خَفرَ الأمانةَ . وكتمانُ السرِّ محمودٌ من جميعِ الناس ، وخاصَّةً مَن يَصحَبُ السلطانَ ؛ فإن إخراجَه، أسرارَه مع أنه قبيحٌ، يُؤَدّي الى ضَرَرٍ عظيمٍ يدخُلُ عليه من سُلطانه

ومنها التواضُعُ — وهو تَرْكُ الترؤُّس وإظهارُ الخُمولِ وكراهيةُ التعاظُمِ والزيادةِ في الإكرامِ ، وأن يتجنَّبَ الإنسانُ المباهاةَ بما فيه من الفضائلِ والمفاخرةَ بالجاهِ والمالِ ، وأن يتحرَّزَ من الإعجابِ والكِبْرِ . وليس يكونُ حسنُ التواضعِ ظاهراً الاّ في أكابرِ الناسِ ورؤسائِهم وأهلِ الفضلِ والعِلمِ

ومنها البِشْرُ — وهو إظهارُ السُّرورِ بمن يَلقاه الإنسانُ من إخوانِه وأوِدَّائِه وأصحابِه وأوليائه ومَعارفِه ، والتبسُّمُ عندَ اللقاءِ . وهذا الخُلقُ مستحسَنٌ من جميعِ الناسِ، وهو من الملوكِ والعظماءِ أحسنُ . فإنّ البِشرَ في المَلِكِ يتألَّفُ به قُلوبَ الرَّعيةِ والأعوانِ والحاشيةِ ويزداد به تَحَبُّباً إليهم . وليس سَعيداً

مِن الملوكِ مَن كان متبغِّضًا إلى رَعيَّتِهِ ؛ وربما أدَّى ذلك إلى فسادِ أمره وزوالِ ملكه

ومنها صِدْقُ اللهجةِ — وهو الإخبارُ عن الشيء على ما هو بهِ . وهذا الخُلُقُ مستحسن ما لم يُؤَدِّ الى ضررٍ مُجْحِفٍ مُهلِك عُدوانًا وظلمًا . والصدقُ مستحسَنٌ من جميع الناس ، وهو من المُلوكِ والعُظَماءِ أحسنُ

ومنها سلامةُ النيّةِ — وهى اعتقادُ الخيرِ لجميع الناس ، وتجنُّبِ الخُبْثِ والغِيلةِ والمَكْرِ والخديعةِ . وهذا الخُلُق محمودٌ من جميع الناس ، إلاّ أنهُ ليس يصلح للملوكِ التخلق به دائمًا ، ولا يتمّ المُلكُ إلاّ باستعمالِ المَكْرِ مع الأعداءِ ، ولكن لا يحسُنُ بهم استعمالُه مع أوليائهم وأصفيائهم وأهل طاعتهم

ومنها السَّخاءُ — وهو بذلُ المالِ من غير مسألة ولا استحقاق . وهذا الفعلُ مستحسَنٌ ما لم ينتهِ إلى السَّرَفِ والتبذير ، فإنْ مَنْ بَذَلَ جميعَ ما يملِكُ لِمَن لا يستحقُّه لم يُسَمَّ سَخِيًّا ، بل يُسَمَّى مُبذِّرًا مُضَيِّعًا . والسخاءُ فى سائر الناس فضيلةٌ مستحسنةٌ ؛ فأما فى الملوك فأمرٌ واجبٌ ؛ لأن البُخْلَ يُؤَدِّى الى الضررِ العظيمِ فى مُلْكِهم ، والسخاءُ والبذلُ يرتهنُ به قلوبُ الرعيةِ والجُندِ والأعوانِ فيعظُم الانتفاعُ به

ومنها الشجاعةُ — وهى الإقدامُ عَلَى المَكارهِ والمَهالكِ عندَ الحاجةِ الى ذلك ، وثباتُ الجأشِ عند المخاوف ، والاستهانةُ بالموت . وهذا الخلقُ مستحسَنٌ من جميع الناس ، وهو بالملوك وأعوانِهم ألْيَقُ وأحسنُ ، بل ليس بمستحِقٍّ للمُلكِ مَن عَدِمَ هذه الخَلّة . وأكثرُ الناس أخطارًا وأحوجهم الى اقتحامِ الغَمَراتِ هم الملوك ؛ فالشجاعةُ من أخلاقِهم الخاصةِ بهم

ومنها المنازعةُ — وهى منازعةُ المرءِ فى التشبُّه بغيرهِ فيما يُرغبُ فيه والاجتهادُ فى الترقّى الى درجةٍ أعلى من درجتهِ . وهذا الخُلُق محمودٌ اذا كانت المنافسةُ فى الفضائل والمراتب العاليةِ وما يكسبُ مجداً وسؤدُداً. فأمّا فى غير ذلك من اتّباع الأهواء والمباهاةِ باللذات والزّينةِ والبزّةِ فمكروهٌ جدًّا

ومنها الصبرُ عند الشدّةِ — وهذا الخُلُقُ مُركّبٌ من الوقار والشّجاعةِ ومستحسنٌ جداً ما لم يكن الجزعُ نافعاً ولا الحُزْنُ والقلقُ مُجدِياً ولا الحيلةُ والاجتهادُ دافعةً ضررَ تلك الحالةِ. وما أقبحَ الجزعَ اذا لم يكنْ مفيداً

ومنها عظمة الهمّةِ — وهى استصغارُ ما دُونَ النّهايةِ من معالى الأمور، وطلبُ المراتب السامية ، واستحقارُ ما يجودُ به الإنسانُ عند العطيّةِ ، والاستخفافُ بأوساطِ الأمورِ، وطلبُ الغايات ، والتهاوُنُ بما يملكه الإنسان وبذلُ ما يُمكنُه لمن يساله من غيرِ امتنانٍ ولا اعتدادٍ به . وهذا الخُلُق من أخلاقِ الملوك خاصةً. وقد يحسُنُ بالرؤساء والعُظماء ومن تسمُو نفسه الى مراتبهم

ومن عِظم الهمّةِ الأنفةُ والحميّةُ والغَيْرةُ : والأنفةُ هو نبُوُّ النفسِ عن الأمورِ الدنيئةِ ، والحميةُ والغيرةُ جميعاً هما الغضبُ عند الإحساس بالنقص . وانما يلحقُ الإنسانَ الغيرةُ على الحُرَم لأن فى التعرّض لهنّ عاراً ومنقصةً ، فإن المتعرّضَ للحُرَمِ مهتضمٌ لصاحبهنّ ومتصرّفٌ فى حقّ له ، والاهتضام نقيصةٌ . ومن عِظَمِ الهمّةِ الأنفةُ من الاهتضامِ ودُخولِ النقص . وهذا الخُلُق مستحسنٌ من جميع الناس

ومنها العدْلُ — وهو التوسُّطُ اللازمُ للاستواء ، وهو استعمالُ الأمورِ فى مواضعها وأوقاتِها ووجوهِها ومقاديرِها من غيرِ سَرَفٍ ولا تقصيرٍ ولا تقديمٍ ولا تأخيرٍ

عِبْرَةٌ فى فُكاهةٍ

﴿ رِثاءُ هِرّ ﴾

كان لابنِ العَلّاف[1] هِرٌّ يأنَسُ به. وكان يدخُلُ أبراجَ الحَمام التى لجِيرانِه ويأكُلُ فِراخَها. وكَثُرَ ذلك منه، فاحتالَ له أربابُها بحِبالة التفّتْ على عنقه فقتلوه. فرثاه بقصيدة مشهورة. وقيل إن القصة تمثيل لا حقيقة وهى قصيدةٌ بديعةٌ

قال فيها ابنُ خَلِّكان[2]: هى من أحسن الشِّعرِ. وعددُها خمسةٌ وستون بيتاً، فاقتصرنا منها على ما يأتى ذكره:

يا هِرُّ فارقتَنا، ولم تَعُدِ ... وكنتَ فينا بمَنْزِلِ الوَلَدِ

فكيف ننفكُّ عن هواكَ، وقد ... كنتَ لنا عُدَّةً من العُدَدِ؟

---

(١) هو أبو بكر الحسن بن على بن أحمد الضرير النهروانى. كان من الشعراء المجيدين، وكان ينادم الامام المعتضد بالله العباسى. وقيل انه بات ليلة فى دار المعتضد مع جماعة من ندمائه فاتاهم خادم ليلاً فقال أمير المؤمنين يقول أرقت الليلة بعد انصرافكم فقلت:

ولما انتبهنا للخيال الذى سرى ... إذا الدار قفر والمزار بعيد

وقد أُرتج علىَّ تمامه فمن أجازه بما يوافق غرضى أمرت له بجائزة. فلما سمع الندماء ذلك أُرتج عليهم، وكلهم شاعر فاضل، فابتدر ابن العلاف فقال:

فقلت: لعينى عاودى النوم واهجعى ... لعل خيالاً طارقاً سيعود

فرجع الخادم. ثم عاد فقال له: أمير المؤمنين يقول: قد أحسنت. وقد أمر لك بالجائزة. وتوفى سنة ٣١٨ هـ

(٢) هو قاضى القضاة المؤرخ الأديب احمد بن ابراهيم بن أبى بكر خلكان الإربلى صاحب «وفيات الأعيان» توفى سنة ٦٨١ هـ

فتُخْرِجُ الفأرَ من مكامنِها ... ما بَيْنَ مفتوحِها الى السُّدَدِ[1]

يلقاكَ فى البيْتِ منهمُ[2] مَدَدٌ ... وأنتَ تلقاهُمُ بلا مَدَدِ

لا عَدَدٌ كان منك مُنْفلتاً ... منهمْ، ولا واحدٌ من العَدَدِ

لاترهَبُ[3] الصيفَ عندهاجرةٍ[4] ... ولا تهابُ الشتاءَ فى الجَمَدِ[5]

وكان يجرِى (ولا سَدادَ لهم) ... أمرُك فى بيتِنا عَلَى سَدَدِ[6]

حتى اُعتقَدْتَ الأذَى لجيرتِنا ... ولم تكُنْ للأذى بمعتقِدِ[7]

وحُمتَ حوْلَ الرَّدَى بظلمِهِم ... ومن يَحُمْ حولَ حوضِه يَرِدِ

وكان قلبى عليك مُرْتَعِداً ... وأنت تنسابُ غيرَ مُرتعِدِ

تدخلُ بُرْجَ الحَمامِ مُتَّئِداً ... وتبلَعُ الفَرْخَ غيرَ مُتَّئِدِ[8]

وتطرَحُ الرِّيشَ فى الطريق لهم ... وتبلَعُ اللحمَ بَلْعَ مُزْدَرِدِ[9]

أطعَمَك الغَىُّ لحمَها . فرأَى ... قتْلَك أربابُها من الرَّشَدِ

حتى اذا داَوموك[10]، واجتهدوا ... وساعدَ النَّصْرُ كَيْدَ مُجتَهِد

كادوك دَهراً ، فما وقعتَ ، وكم ... أفلتَّ من كيدهم، ولم تكَدِ[11]

---

(١) جمع سُدّة ، وهى الباب أى سواء أكانت المكامن مفتوحة أم لها سدد ، أى أبواب تسدُّ (٢) أعاد على الفيران ضمير العقلاء لأنه أنزلها منزلة العقلاء ونسب اليها أعمالاً كأعمالهم كقوله تعالى « كُلٌّ فى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » (٣) تخاف (٤) الهاجرة نصف النهار عند اشتداد الحرّ (٥) الجمد الثلج . أى لاتهاب الشتاء عند نزول الثلج (٦) السدد والسداد الصواب والاستقامة (٧) اعتقد كذا عقد عليه القلب والضمير (٨) اتّأدَّ : تأنّى وتمهل فهو متئد (٩) أى بلا مضغ (١٠) تأنوا فى طلبك (١١) أى أفلتَّ ولم تكد تفلت

فحين أخفرتَ[١]، وانهمكتَ، وكا ... شفتَ[٢] وأسرفتَ غيرَ مُقتصِدِ[٣]

صادُوك غيظاً[٤] عليك، وانتقموا ... منك وزادوا. ومن يَصِدْ يُصَدِ

ثم شفَوْا بالحديدِ أنفسَهم ... منك، ولم يَرعَوُوا[٥] على أحَدِ

فلم تزَلْ للحَمام مرتصِداً[٦] ... حتى سُقيتَ الحِمامَ بالرَّصَدِ[٧]

لم يرحَمُوا صوتَك الضعيفَ كما ... لم ترثِ منها لصوتِها الغَرِدِ[٨]

أذاقَكَ الموتَ ربُّهن كما ... أذقتَ أفراخَه: يداً بيدِ

كأنَّ حبْلاً حوَى بجَوْدتِه ... جيدَك للخنْقِ كان من مَسَدِ[٩]

كأن عيْنِي تراكَ مُضطربا ... فيه، وفى فيكَ رَغْوةُ الزَّبَدِ

وقد طلبتَ الخلاصَ منه، فلَمْ ... تقدِرْ على حيلةٍ، ولم تَجِدِ

فجُدتَ بالنفسِ، والبخيلُ بها ... أنت؛ ومن لم يجُدْ بها يَجُدِ

فما سمعْنا بمثلِ موتِك إذ ... مُتَّ ولا مثلِ عيشكِ النَّكِدِ

عشتَ حريصاً يقودُه طمَعٌ ... ومُتَّ ذا قاتلٍ بلا قَوَدِ[١٠]

يا مَنْ لذيذُ الفِراخِ أوقعَه ... ويحَك هلاَّ قنِعْتَ بالغُدَدِ![١١]

ألم تخَفْ وَثْبةَ الزمانِ كما ... وَثَبْتَ فى البُرجِ وَثبةَ الأسَدِ

---

(١) غدرت وخنت (٢) كاشفه بالعداوة: باداه بها وأظهرها من غير مبالاة

(٣) معتدل (٤) أى حقدا عليك (٥) أصل معنى «ارعوى» انكف، وضمنه هنا معنى «أرعى» بمعنى أبقى عليه. أى ولم يبقوا على حرمة أحد من أصحابك

(٦) مترقباً كما فى (الأساس) (٧) مصدر رصده بمعنى ترقبه (٨) المطرب

(٩) من ليف (١٠) القود القصاص. أى مت مقتولَ قاتلٍ لم يقتص منه

(١١) جمع غدَّة: وهى العقدة التى تكون فى اللحم يرمى بها للهرة

عاقبة الظلم لا تنامُ ، وإن تأخَّرتْ مُدَّةً مِنَ المُدَدِ
أردت أن تأكلَ الفِراخَ ، ولا يأكُلُك الدَّهرُ أكْلَ مُضْطَهِد
هذا بعيدٌ من القياس ، وما أعزَّهُ فى الدُّنُوِّ والبُعُد !
لا بارَكَ اللهُ فى الطَّعامِ ، إذا كان هلاكُ النفوسِ فى المِعَد !
كم دخلتْ لُقمةٌ حشا شَرِهٍ فأخرَجَتْ رُوحَه من الجَسَد
ما كان أغناكَ عن تسوُّرِك الـ ـبُرْجَ ، ولو كان جَنَّةَ الخُلُدِ !
قد كنتَ فى نَعْمةٍ وفى دَعةٍ من العزيزِ المُهَيْمِنِ الصَّمَد :
تأكُلُ من فأرِ بيتنا رَغَداً وأيْنَ[1] بالشاكرين للرَّغَدِ
وكنتَ بَدَّدتَ شَمْلَهمْ زَمناً فاجتمعُوا بعد ذلك البَدَدِ[2]
فلم يُبَقُّوا لنا على سَبَدٍ فى جوْفِ أبياتنا ولا لَبَدِ[3]
وفرَّغُوا أرضَها ، وما تركوا ما علَّقَتْه يَدٌ عَلَى وتَدِ
وفتَّتُوا الخبزَ فى السِّلال ، وكم تفتَّتَتْ للعِيال من كبِد
ومزَّقوا من ثِيابنا جُدُداً فكُلُّنا فى المصائبِ الجُدُدِ

مَوقعة اليرْمُوك الحاسِمة

نُريدُ بالمَوْقعةِ الحاسمةِ كلَّ مَوقعةٍ كان النصرُ فيها لقَبيلٍ فَشَلاً لقبيلٍ آخرَ فلا تقومُ له بعدَها قائمةٌ ، وإن لم تكن خاتمةَ المواقع : كموقعةِ اليَرْمُوكِ التى انتصرَ فيها العَربُ عَلَى الرُّومِ ، وكانت سَبَباً فى فَتْحِ الشأمِ حتى شواطئ

---

(١) الباء زائدة (٢) مصدر بمعنى التفرق كما فى (اللسان) (٣) ما له سبد ولا لبد أى لا قليل ولا كثير . والسبد من الشعر واللبد من الصوف

الفُراتِ الأعلى ، وكموقعةِ القادِسيَّةِ التى لم تُفْلِحْ بعدَها الفُرسُ فى موقعةٍ إلى أن زالتْ دَوْلتُهم

وإليك نُبذَةً من أخبارِ الأُولى ، وسَنُتْبِعُها أخبارَ الأُخرَى

لمَّا فرَغتْ جيُوشُ أبى بكرٍ مِن مُحاربةِ المُرْتَدِّين ساقَهم جيشاً بعدَ جَيْشٍ إلى نَشْرِ الإسلامِ فى فارسَ والشامِ وحمايةِ دَعوتِهم إليه بالسيف من تعدّى المُتعدِّينَ . فبعَثَ مُفْتَتِحَ سنة ١٣ هـ خالدَ بن سَعيدِ بن العاصِ وعمرَو ابنَ العاص وشُرَحْبيلَ بنَ حَسَنةَ وأبا عُبَيْدَةَ عامرَ بنَ الجرَّاح ويَزيد بن أبى سُفيانَ يقودُ كلٌّ منهم جَيشاً ، وسمَّى لِكلٍّ منهم ناحِيةً مِن شَرْقىّ الشام يتولَّى فتحَها . وكان جمهورُ الناس فى جَيْشِ يزيدَ بنِ أبى سُفيانَ ؛ فخرجَ أبو بكرٍ مِنَ المدينةِ يُشَيِّعه ماشِياً ، وأوصاه وغيرَه من الأمراء ؛ فكان مما قال له :

« وإذا قَدِمتَ على جُنْدِك فأَحْسِنْ صُحْبَتَهم وأَبْدِأْهُم بالخيرِ وعِدْهم إيّاه ، وإذا وعظتَهُم فأَوْجِزْ ؛ فإنَّ كثيرَ الكلامِ يُنسِى بعضُه بعضاً . وأَصْلِحْ نَفْسَك يَصْلُحْ لك الناسُ . وصَلِّ الصَّلَواتِ لأوقاتِها بإتْمامِ رُكوعِها وسُجودِها والتخشُّعِ فيها

وإذا قَدِم عليك رُسُلُ عَدُوِّكَ فأَكْرِمْهم ، وأَقْلِلْ لُبْثَهم حتى يَخرُجوا من عسكرِك وهم جاهلونَ به . ولا تُرَيِّثْهم (١) ؛ فيَرَوا خَلَلَك ، ويعلموا عِلْمَك ، وأَنزِلْهم فى ثَرْوةٍ (٢) عَسكرِك . وامْنَعْ مَن قِبَلَك مِن مُحادَثَتِهم ، وكُنْ أنتَ المُتَوَلِّىَ لِكلامِهم

---

(١) تبطِّئهم (٢) أى فى وَفرة عَددك وعُدَّتك

ولا تجعَلْ سِرَّك لِعلانِيَتِك، فيختلِطَ أمرُك . وإذا استَشرتَ فاصدُقِ الحديثَ تُصدَقِ المَشورةَ . ولا تخزُنْ عن المُشيرِ خبرَك فتُؤتَى مِن قِبَلِ نفسِك . وأسمِرْ بالليلِ فى أصحابِك تأتِكَ الأخبارُ، وتنكشفُ عندك الأستار . وأكثِرْ حرسَك ، وبدِّدْهم فى عسكرِك ، وأكثِرْ مفاجأتَهم فى محارسِهم بغيرِ علمٍ منهم بك ؛ فمن وجدته غفَل عن مَحْرَسه فأحسِنْ أدبَه وعاقِبْه فى غيرِ إفراطٍ ، وأعقِبْ[1] بينَهم بالليل، واجعَلِ النَّوْبةَ الاولى أطولَ من الأخيرة؛ فإنها أيسرُهما لقربها من النهار . ولا تخفْ من عقوبةِ المستحِقّ ، ولا تلجَنَّ[2] فيها ، ولا تُسرِعْ إليها ، ولا تتَّخِذْ لها مَدْفعاً .[3] ولا تغفُلْ عن أهلِ عسكرك فتُفْسِدَه ، ولا تجسَّسْ عليهم فتفضَحَهم ، ولا تكشف الناسَ عن أسرارهم ، واكتفِ بعلانيتهم . ولا تجالِسْ العبّاثينَ ، وجالسْ أهلَ الصِّدْقِ والوَفاءِ . وأصدُقِ اللِّقاءَ ، ولا تجبُنْ فيجبُنَ الناسُ ، واجتنِبْ الغُلول[4] فإنه يقرِّبُ الفقرَ ويدفعُ النصرَ . وستجدون أقواماً حبَسوا أنفسَهم فى الصوامع[5] فدَعْهم وما حبَسُوا أنفسَهم له »

فسارَ كلُّ أميرٍ بجيشِه إلى الجهةِ التى سمَّاها له ، ووقعَتْ بينَهم وبين العدو عِدَّةُ وقائع انتصرَ الرُّومُ فى بعضها وانتصر العربُ فى أكثرِها ، الى أن تكاملت تعبئةُ الرُّوم مائةَ ألفٍ على أقلّ تقدير فسيَّروا على كل جيشٍ من جيوش العرب ما يفُوقُه مِراراً . فاضطربتِ الأمراءُ ، وكاتَبَ بعضهم بعضاً ، ثم استشاروا

---

(١) أى أجعل بعضهم عقباً لبعض (٢) تُبالغنّ (٣) أى عذراً تدفع به العقاب (٤) مصدر غلّ يغُلّ اذا خان فى المغنم وغيره (٥) اديرة مرتفقة ينقطع فيها الرهبان للعبادة

عمرو بنَ العاصِ فاشار عليهم بأن يتجمّعوا فى مكانٍ واحدٍ هو اليَرْموك . ثم بعثوا إلى أبى بكر يستشيرونه فأشار عليهم برأى عَمْرو. فتجمّعوا على ضفّة اليرموك من شرقىّ فِلَسْطين ، فتبعتْهم جيُوشُ الرُّوم بقيادةِ تُذَارقَ أخى هِرَقْلَ ونزلوا بجانبهم على النَّهر فى مكانٍ فسيح بين النَّهر وبين هُوَّةٍ عميقة سُمِّيتْ «الواقُوصَةَ» بحيث لم يكُن لهم إلا منفَذٌ واحدٌ ضيّق حفَروا فيه خَندقاً وأرادوا بذلك أنهم يتحرَّزون بالنهرِ والواقوصة والخَنْدَقِ مِن مفاجَأةِ العرب وتبييتِهم[1] ، وأن يُطاوِلُوهم ليتأنسَ الرُّومُ بهم فيزولَ الرعبُ عن نفوسهم وليملَّ العَرَبُ المُقامَ فيختلَّ أمْرُهم. ولبثوا كذلك شهرَ صفر وشهرَى ربيع ولكن العربَ انتهزتِ الفُرصتَين فى المكانِ والزَّمان

فأما فى المكان فإنَّهم تقدَّمُوا ونزَلُوا أمامهم فسدُّوا عليهم المنفَذَ وقطعوا عليهم طريقَ الرجعة الى بلادهم . ونادى عمرُو بنُ العاص « أيُّها الناسُ أبشِرُوا حُصِرَتْ واللهِ الرومُ ، وقلّما جاء محصورٌ بخَيْر » . فوقعت بينهم مُناوشاتٌ كانت تنتهى بفوزِ العرب

وأما فى الزَّمانِ فإنّ تلبُّثَ الروم هذه المدةَ كان كافياً لأن يَستمِدَّ العربُ أبا بكر ، فكتبَ الى خالِدِ بن الوليد (وكان قد سيَّره على جيْشٍ يُظاهِرُ المُثَنى بن حارثةَ على فَتْحِ العِراقِ) أن ينهضَ إلى الشامِ بنصفِ جيش العراق وأن يكون أميرَ الجيوش كلّها . فسار مُسرعاً بنحو تسعةِ آلافٍ سالكاً طريقَ بادية الشام ، فوصلَ إلى شرقىِّ الشام بعدَ أيامٍ قليلةٍ ففتح؛ بُصْرَى وكانت مدينة تجاريةً على حُدودِ الصحراء ، ثم طلَع على المسلمين فى اليرْموك ،

---

(١) بيّت العدوَّ دهمه ليلاً

ووافق طلوعُه قُدومَ عَدَدٍ عظيمٍ للروم يقودُه باهانُ؛ فاشتبكَ مع خالدٍ فى مُناوشة اضطرتْ باهانَ أن يدخُل الخندقَ مع جيشِ الروم، وتكاملَ جيشُ العربِ بخالدٍ أربعين ألفَ مقاتل

وكان الأمراءُ متساندين: كلُّ أميرٍ يتولَّى تَدْبيرَ جيشه ولا يرتبط بتدبير الآخرِ. فخطب فيهم خالدٌ يَحُثُّهم على الاتحاد، وأن يقاتِلوا بقيادة أمير واحدٍ، وأن يتأمَّرَ كلُّ أميرٍ على الجيش يَوْماً، واقترحَ أن يكونَ هو الأميرَ فى اليوم الأوَّل، فأمَّرُوه وهم يَرَوْنَ أنها كخَرْجاتهم العادِيَّةِ وأنَّ الأمْرَ أطولُ مما صارُوا إليه. فخرج الرومُ فى تَعْبِئَةٍ لم يُرَ مِثلُها، وخرجَ خالدٌ فى تعبئةٍ لم تُعبِّئْها العربُ قبلَ ذلك؛ فخرج فى نحوِ أربعين كُرْدُوساً، وقال إنَّ عَدُوَّكم قد كَثُر وطغَى، وليْسَ من التَّعْبِئَةِ أكثرُ فى رأْى العينِ من الكراديس. وجعَلَ على القَلْبِ أبَا عُبيدةَ، وعلى المَيْمَنَةِ عمرَو بن العاص، وعَلَى المَيْسرةِ يزيدَ بن أبى سُفْيانَ. ونشِبَ القتالُ، والتحمَ الناسُ، وتطاردَ الفرسان. فإنهم عَلَى ذلك إذْ قدِمَ البريدُ[1] من المدينةِ، فأخذَتْه الخيولُ، وسألوه الخبرَ، فلم يخبرْهم إلاّ بسلامةٍ وإمْدادٍ (وإنما جاء بموت أبى بكر وتولية عُمَرَ بن الخطاب وعزلِ خالدٍ عن قيادةِ جُندِ الشامِ وتأميرِ أبى عبيدة بدلَه) فأبلغوهُ خالداً، فأبلَغَه خبرَ أبى بكرٍ أسرَّهُ اليه، وأخبرَه بالذى أخبرَ به الجندَ. فقال: أحسنْتَ، وجعلَه بجانبِه وأخذ خالدٌ الكتابَ وجعلَه فى كِنانةِ سِهامِه. ثم حمَل الرومُ حَمْلَةً أزالُوا بها العربَ من مواقِفهم، فتنادى الناسُ، فثابُوا الى أماكِنِهم، وتراجعوا.

---

(١) معناه هنا الرسول

فزحف خالدٌ بقلب الجيش، وتبعهُ بقيّته؛ واشتدَّ القتالُ من ارتفاع النّهار الى الليل. وصلّى الجيشُ الظهرَ والعصرَ إيماءً[1]. ثم نهدَ خالدٌ بالقلب، واخترقَ صُفوفَ الرُّوم، ففصلَ بين فُرسانهم ورَجّالتهم، فانحصرَ الفُرسانُ بين جيُوشِ العربِ، فلم يَسَعْهم إلاّ أن يَشُقُّوا لهم طريقاً وسط العرب ليخرجوا الى الصحراء، فأفسحَ لهمُ العرب الطريقَ، فخرجُوا هاربين لا يَلْوُون على شيءٍ وتبدَّدَ شَمْلُهم. وجاء الليلُ فواصلَ العربُ القتالَ، وهجموا بكراديسهم على الروم، فاقتحموا خندقَهم، فاقتحموه وراءهم، واستحرَّ القتل فيهم؛ وكان أكثرُ رَجّالةِ الروم مُسَلْسَلِينَ: كلٌّ مربوطٌ بالآخر خشيةَ الهَرَب، فكان ذلك أنكى عليهم من سيوفِ العرب؛ فإنهم لمّا تقهقرُوا فى جُنحِ الظلام تساقطُوا فى هُوَّةِ الواقوصة من جانب وفى النهر من آخرَ، وكان إذا سقطَ واحدٌ جرَّ وراءهُ آخر؛ فلم يُصبح الصباحُ إلاّ وقد فَنِيَ أكثرُ الرّوم، وكان مَنْ تردَّى فى الواقوصة أو غرقَ فى النهرِ أكثرَ ممَّن قُتِلَ بسيوفِ العرب. وأصبح خالد فى فُسطاطِ تُذارق

واستشهدَ من المسلمين فى هـذه الواقعةِ نحوُ ثلاثةِ آلاف. ولما انتهت الموقعةُ أخبرَ خالدٌ أبا عُبيدةَ بموتِ أبى بكرٍ وتوليهِ، وسلّمه قيادةَ الجيش، وقال: «الحمدُ للهِ الّذى قضَى على أبى بكرٍ الموتَ، وكان أحبَّ إلىَّ من عُمَرَ. والحمدُ للهِ الّذِى وَلّى عُمَرَ، وكان أبغض إلىَّ من أبى بكرٍ، ثمَّ ألزَمنى حبَّه»

وبقِيَ خالدٌ يعملُ تحتَ إمرةِ أبى عُبيدةَ مُخْلِصاً له باذلاً نُصْحَه اليه حتى تم فتح بلادِ الشامِ كلِّها

---

(١) أى بتحريك رءوسهم فقط

دِمَشْقُ الفَيْحَاء

دِمَشْقُ وتُسَمَّى « جِلَّقَ » هى إحدَى حواضر الدُّنيا العظيمة الشانِ، القديمةِ العُمرانِ، الآهلةِ بالسكَّانِ، الكثيرةِ الحَدَثانِ

قامت عَلَى الضَّفَّةِ الجنوبيَّةِ لِنهر بَرَدَى وسَطَ سهلٍ فسيح شرقىَّ جبلِ لُبنانَ، من أخصبِ سُهولِ العالَمِ تُرْبَةً، وأطيبها بَقلاً وفاكهةً وحَباً. وتَبعُد عن مَرفئها « بَيْرُوتَ » بنحو ١١٢ ألفِ ذراعٍ فرنسيةٍ (متر). وتَعلو سطحَ البحر بنحو ٦٠٠ ذراعٍ فرنسيةٍ؛ ولذلك كان هواؤها معتدِلاً إلاّ فى الخَريف إبَّانَ تكاثُرِ المستنقَعاتِ وتكاثُفِ الرُّطوباتِ؛ فيَوْخُمُ الهواءُ وتنتشرُ الحُمَّى الأجَميَّةُ التى تستحيلُ فى بعض السِّنين وَباءً فتَّاكاً؛ غيرَ أنه لو بُذِلَتْ العنايةُ بتنظيفِ شوارعها ومَجارِى مياهها ومصارفها لأصبحَ العيْشُ فيها رَغَداً والصِّحَّةُ مُسْتَتِبَّةً أبداً

ويبلغُ أهلُها نحوَ ٣٠٠ ألفِ نَسَمة أكثرُهم مُسلمونَ، وبقيتهُم نصارَى ويهود وقد بُنِيَتْ دِمَشْقُ على شَبَكةٍ مِنَ الأنهارِ والخُلُجِ والأقْنيةِ والعُيون؛ فلا يكادُ بَيْتٌ أو خانٌ أو مَسْجِدٌ أو مَعْبَدٌ أو رَحًى أو حَمَّام أو مَصْنَعٌ إلاَّ والأنهارُ تجرِى مِن تحتِه وتَسْقِى أهلَه وحديقتَه. وعامَّتُها مُسْتَمِدَّةٌ من نهر بَرَدَى بأقنيةٍ مُصَهْرَجةٍ[1] وأنابيبَ مُحكمةِ الوضْعِ متقَنةِ الصُّنْع

ويُحيطُ بدمشقَ القديمةِ سُورٌ فى شماليِّه قلعتُها العظيمةُ؛ وسائرُ المدينة الحديثة خارجَ السُّورِ. وتُشْرِفُ عليها جِبالٌ شاهقةٌ أشهرُها جبلُ قاسيونَ

(١) أى مبنية بالصارُوج وهو أخلاط من الكلس وغيره تبقى على فعل الماء

ومنظرُ دِمَشْقَ الظاهرىُّ قليلُ الجَمال، لضيقِ شوارعها وتعرّجها وندرة تبليطها وتحصيبها ولسَقْفِ أكثرِ أسواقها، إلاّ أنّ دواخلَ قصورِها ومساجدها تَسْترعى الأنظار، وتُبهجُ الخواطر: لِما احتوتْ عليه من بدائع الصَّنْعة وجميلِ الهِندام

ومع أنّ دِمشق من أقدم مُدُن العالَم العامرةِ قلّما تجدُ بها بناءً أثَرِيًّا ماثلاً، اللّهمّ إلاّ ما كان خارجاً عنها أو عَلَى سُفوحِ جبالها، لكثرة النَّكبات التى مُنِيَتْ بها من تحريق الفاتحينَ وتدمير المحاصرينَ وكَيْدِ الفِرَقِ من المُتعصّبين؛ حتى لم يبقَ من أحسنِ أثرٍ فيها وأجملِ بَنِيّة شيّدتْها العرب بها، وهو جامعُ بنى أُميّة، إلا بعضُ حيطانٍ وسُقُفٍ، وسائرُه جديدٌ مستحدَث[1]

وبِشَرْقىّ دِمشق غُوطتُها[2] العظيمةُ التى تنبسط عَلَى مُعْظَمِ السَّهْلِ فى تُرْبةٍ حمراء خِصْبةٍ. وتحوى من بساتين الفاكهةِ والرَّياحين وحقول الحُبوبِ والخُضَرِ والبقول ما لا تكادُ تجتمع جملتُه فى بُقْعةٍ من بقاعِ الأرض، على جودةِ صِنْفٍ ولَذةِ طَعْمٍ وطيبِ رائحةٍ، وخاصةً ثمرَ المِشْلَوْزِ (المِشمِش اللَّوْزى الحُلْو النواة) الذى تمتازُ دمشقُ بطيبِه عَلَى أكثرِ البلاد

وتشتملُ الغُوطةُ على ٢٨ ضيعةً أكثرُ أهلها نَواطيرُ[3] وزُرّاعٌ. وقد أكثرَ السُّيّاحُ والمورّخون فى وَصْفِ هذه النُّوطة بما أفضَى بأكثرهم إلى اعتبارها أحدَ متنزّهات الدنيا وجناتها الأربع (وهى صُغْد سَمَرْقَنْد[4]، وشِعْبُ

---

(١) ربما خصصناه بمقالة فى غير هذا الجزء (٢) اسم لجنات دمشق وقد تطلق على دمشق نفسها (٣) جمع ناطور وهو حافظ الكرم، فارسى معرب (٤) الصغد سهل يشتمل على أخصب جنات الدنيا بين بخارى وسمرقند ببلاد التركستان

بَوَّانَ[١] ، ونهر الأُبُلَّة[٢] ، وغُوطَةُ دمشق)

وقد عرَف أهلُ دمشقَ قيمةَ التَّمتُّع بنَعيم هذه الجنان ؛ فخصَّ كثيرٌ منهم عامَّةَ أيام الرَّبيع بالخروج إليها والترَوُّح بها ، وميَّزوا منها سبعةَ ثُلاثاواتٍ وسبعةَ سُبوتٍ وستةَ أخمساء أولُها مارس

دمشق

ودِمَشْقُ من أقدم مُدُنِ الدنيا ، حتى لَيُقالُ انها أقدمُ مدينة باقية على عظمتها الى الآن . وهى من بِناء قُدَماء الآرَامِيِّينَ من بنى سامٍ ، وكانت قاعدةً للشُّرْيانِيِّينَ منهم . ومرَّ بها الخليلُ إبراهيمُ (صلوات الله عليه) عندَ هِجْرتِه من أرض حارانَ الى أرض فِلَسْطِينَ ، وأقامَ بها مُدَّةً . ودخلَتْ فى حَوْزةِ المِصْرِيِّين عند ما اكتَسَحُوا سُورِيةَ إلى الفُرات ، ثمَّ اندمَجَتْ فى

(١) سهل خصيب جدًّا ببلاد فارس (٢) نهر فى الجنوب الغربى من البصرة يروى سهل الأبلة . والأبلة مرفأ البصرة على خليج فارس

مَمْلَكةِ داوُدَ (عليه السلامُ)، ثمَّ أستولَى عليها الأشُوريّون مراراً دُمِّرَتْ فى إحداها جملةً ثم أستعادت نَضْرتها، ففتحها البابليُّون، ثم الفرسُ ثم الإسكندرُ المَقدونىُّ؛ فكانت من مدُنِ المملكةِ السِّلُوقيّة اليونانية خلفائِه فى سورية، إلى أن غلبَهم عليها الرُّومانُ سنة ٦٤ ق. م، ثم أستُضعِفُوا، وزاحمَهم فى مُلْكها العَرَبُ من التَّدْمُريّةِ والغسّانيّة وأستقلوا بها مراراً. وحينَما تنصَّرَ الرومانُ دخلتْها الديانةُ المسيحيّةُ

ثم أُفتتحها المسلمون فى رجب من سنة ١٤ هـ بعد حِصارٍ ومنازلةٍ. وكان قد نزَلَ على كلِّ بابٍ من أبوابها أميرٌ من المسلمينَ بِرُبعِ الجيش؛ ففتحها خالدُ بنُ الوليد من الباب الشرقىّ عَنْوةً، فتسارَعَ أهلُ البَلدِ الى أبى عُبيدةَ عامرِ بنِ الجرّاحِ ويزيدَ بن أبى سُفيانَ وشُرَحْبيلَ بن حسَنة، فسألوهم الأمانَ فأمَّنوهُمْ، وفتحوا لهم الأبوابَ الثلاثة، فدخلُوا منها بالصُّلْحِ، ودخلَ خالدٌ بالقَهرِ، وتلاقتِ الجيوشُ فى مُنتصفِ المدينةِ. وكتبوا الى الخليفةِ عمرَ بنِ الخطاب (رضى الله عنه) بالخبرِ، وكيف كان الفتحُ، فأجراها كلَّها صُلْحًا

ثم وليَها مُعاويةُ بنُ أبى سُفيان من قِبَلِ عُمَرَ وبقِىَ والياً عليها حتى آلت اليهِ الخلافةُ؛ فأصبحتْ دارَ خلافةٍ لأعظمِ مَمْلكةٍ عربيةٍ ملَكتِ الأرض من حُدودِ الصِّين الى جبال البرانِس من أوربة الى سنة ١٣٢ هـ، وهى دولةُ بنى أُميَّةَ. وبلغت فى هذه الدولةِ نهايةَ حَضارتِها وغايةَ عزِّها وتَرفِها وغِناها

ثم لما زالَتِ الدَّولةُ الأُمويّةُ أصبحتْ مَقرَّ ولايةٍ عبّاسيّةٍ، الى أن أضطرب حَبْلُ العباسيّين، وخرجَ عليهم مَواليهم من التُّرك وغيرهم، فأستولتْ عليها الدولةُ الطُّولونيّة المِصريّة، ثم الإخشيدية المصرية، ثم الفاطميَّة المصرية،

ثم دخلها القرامطة[1] وشغّشوا منها، ثم دخلت في ملك فروع الدولة السلجوقية الى أن تملكها صلاح الدين وأولاده من الدولة الأيوبية، ثم صارت الى دولتي المماليك المصرية البحرية ثم البرجية مدة دمرها في خلالها تيمورلنك، ثم اكتسحتها الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ، وما زالت في ملكهم حتى قامت الحرب الأوربية العامة، واشتركت فيها الدولة العثمانية، فخسرت بلادها العربية. وظن العرب من أهلها وأهل سورية أنهم سيستقلون بكل شؤونهم فأخفقوا، ودخلوا في حماية فرنسا ووصايتها

وأهل دمشق أهل ظرف ورقة جانب وميل إلى الأدب والعلم. ولهم شهرة قديمة في الصناعة وحسن بصر بالتجارة. ومن صناعاتهم العجيبة التي انقرضت صناعة السيوف الدمشقية التي يضرب بها المثل في المضاء والمرونة، وقد انقرضت هذه الصناعة منذ فتحها تيمورلنك ونقل صناعها إلى سمرقند؛ وصناعة الوشي، وصناعة القاشاني[2] الجميل. وبقيت فيهم صناعات أهمها النسج وهو محور أعمال المدينة ومصدر تجارتها، ثم الدباغة والصباغة والنجارة وتطعيم الخشب بالعاج والصدف ونحو ذلك، وكلها في حالة تقهقر واضمحلال لغلبة المصنوعات الأوربية عليها

---

(١) أهل مذهب يزعمون أنهم من شيعة علي (رضي الله عنه) ولكنهم غلاة إباحيون. وقد عاثوا في مملكة الدولة العباسية وخاصة بلاد العرب والعراق والشام اكثر من قرنين وينسبون الى رئيس مذهبهم «قرمط» (٢) نوع من الخزف الصيني جميل النقش تزين به الحوائط كأنه منسوب الى مدينة قاشان من مدن الفرس

رسائل

فى أغراض مختلفة

كتب الحسنُ بن وَهْبٍ[١] فى الشكر :

من شكرِكَ عَلَى درَجةٍ رفعتَه إليها، أو ثَرْوةٍ أفدْتَهُ إيَّاها فإنَّ شكرِى لك عَلَى مُهْجةٍ[٢] أحييتَها، وحُشاشةٍ[٣] أبقيْتَها، ورَمَقٍ[٤] أمسكتَ به، وقتَ بين التلفِ وبينَه. فلِكلِّ نِعمةٍ من نِعَمِ الدنيا حدٌّ يُنتهَى إليه، ومدى يوقَف عنده، وغايةٌ من الشكر يسمُو إليها الطَّرْفُ[٥]، خلا هذه النعمةَ التى قد فاقَتِ الوصفَ، وأطالتِ الشكرَ، وتجاوزتْ قدرَه، وأتت من وراء كل غاية، وردَّتْ عنا كَيْدَ العَدُوّ، وأرغمتْ[٦] أنْفَ الحسودِ؛ فنحن نلجأُ منها إلى ظِلٍّ ظليلٍ وكَنَفٍ كريم؛ فكيفَ يشكُر الشاكرُ وأين يبلغُ جَهْدُ المجتهد؟

وكتَبَ ابنُ مُكرم[٧] الى أحمدِ بنِ المُدَبِّر[٨] يُثنِي عليه ويتقرب اليه :

إن جميعَ أكفائِك ونظرائِك يتنازعون الفضلَ فإذا انتَهَوْا إليك أقرُّوا لك، ويتنافسون المنازلَ فإذا بلغُوك ونَفوا دونَك. فزادك اللهُ وزادَنا بك وفيك[٩]، وجعلنا ممَّن يقبَلُه رأيُك، ويُقدِّمُه اختيارُك، ويقعُ من الأمورِ بموقعِ مُوافقتِك، ويجرِى فيها على سبيلِ طاعتك

---

(١) كان كاتبًا بليغًا وشاعراً مجيداً وكان رئيساً لديوان الرسائل زمن المعتصم والواثق والمتوكل (٢) المهجة القلب والروح (٣) الحشاشة بقية الروح (٤) القوة وبقية الروح (٥) البصر (٦) ألصقته بالرَّغام وهو التراب أى أذلته (٧) كان من رؤساء الكتاب فى الدولة العباسية أواسط القرن الثالث (٨) كان من رؤساء الكتاب والولاة أواسط القرن الثالث (٩) أى فى خدمتك

ولهُ فى حسن الاعتذار الى بعض الرؤساء

نبَتْ بِى غِرَّةُ[١] الحَداثة فردَّتنى اليك التجربة ، ثِقَةً بإسراعِك الىَّ[٢] ، وإن أبطأتُ عنك ، وقبولك لِعُذرى ، وإن قصَّرتُ عن واجبك . وإن كانتْ ذُنوبى سَدَّتْ علىَّ مَسالِكَ الصَّفح عنى فرَاجعٌ فىَّ[٣] مجدَك وسُؤددَك . وانى لاَ أعرِفُ موقِفاً أذلَّ مِن موقِفى لولا أنَّ المخاطبةَ فيه لك ، ولا خُطَّةً أدْنى مِن خُطَّتى لولا أنّها فى طَلَبِ رِضَاك

الشجرة المباركة

يتفاضلُ النباتُ كما يتفاضلُ الحيوانُ بتفاوُتِ نَفْعِه للإنسان ؛ فأفضل النبات أو الحيوان أدْوَمُه نفعاً وأبركه ثمرةً . ولَعلَّكَ إذا سمِعْتَ فى فضل بعض الحيوان قَوْلَ رسول الله صلى عليه وسلم « الخيلُ معقودٌ بنواصيها[٤] الخيرُ إلى يوم القيامة » إذ كانت عُدَّةً لِمعزَّةِ الإنسان فى حَرْبه وسلمِه ، تَفْهَمُ معنى نَعْتِ بعضِ النباتِ بالبركةِ فى قوله تعالى « اللهُ نُورُ السَّمواتِ والأرْض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ[٥] فيها مِصْباحٌ المِصْباحُ فى زُجاجةٍ الزُّجاجةُ كأنها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجرةٍ مباركةٍ زَيْتُونةٍ لا شَرْقِيةٍ[٦] ولا غَرْبِيةٍ يكادُ زيْتُها يُضِىءُ

---

(١) أى أبعدتنى غفلة الصغر عن الاجتهاد فى خدمتك (٢) أى ثقة باسراعك الى الرضا عنى (٣) أى فى أمرى والعفو عنى (٤) جمع ناصية ، وهى شعر مقدم الرأس أى لا يفارق الخيرُ وجوهها (٥) المشكاة كل كوّة غير نافذة والمراد بها هنا عمود القنديل الأجوف الذى توضع فيه الفتيلة لأنه غير نافذ (٦) أى انها ليست معرضة دائماً لحرّ الشمس من الشرق أو الغرب بل أنها فى وسط أشجار تصيبها الشمس وقتاً وتحجب عنها آخر فيكون ذلك خيراً لنضجها

وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » كما تفهم معنى عدّه من أعظم النِّعَم في قوله تعالى « وشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وصِبْغٍ (١) لِلْآكِلِينَ » إذْ كان له من شجرةِ الزيتونِ المنوّهِ بها في الآيتينِ غِذاءً وضياءً وشفاءً

وشجرةُ الزيتونِ ليست من الأشجارِ العظيمة، فقلّما يتجاوزُ علوّها ثلاثين قدماً . وهي دائمة الخضرة في وطنها ، فاذا نقلت الى الأقاليم الباردة سقطَ وَرَقها في الشتاء

ولونُ حبِّ الزيتون قبل نُضْجِه أصفرُ ضاربٌ الى الخضرة، ثم يسوادُّ مع النضج،

وشجرة الزَّيتون من أغزرِ الأشجارِ نفعاً وأطولها عُمراً وأقلّها نفقةً. ومن أمثال الإيطاليين المشهورةِ ، وهم أحفلُ الناسِ بزراعةِ الزيتون ، « إذا أردت أن تُخَلِّفَ ميراثاً خالداً لأولادِك وأحفادِك فاغرِسْ زَيتونة» . ولا غرْوَ فإنّ غَلةَ الزَّيتون في كثرتها وطُول دوامها تعدِلُ غَلَّةَ أعظمِ الأشجارِ نفعاً إن لم تَفُقْها جميعاً لِعِدَّةِ وُجوهٍ :

الأولُ — أن شجرةَ الزَّيتون تُثمِرُ بعد زمنٍ يسيرٍ ؛ فلا يكادُ يمضي على غَرسها سنتان حتى تُبكِّرَ بالثَّمرةِ ، ومتى بلَغَتْ ستَّ سنواتٍ أدَّتْ ما عليها لصاحبها من نَفقاتِ غَرْسها وتربيتها ، وَلَوْ لم يَزْرَعْ بجوارِها عُشباً ولا بَقْلاً

الثاني — أن شجرةَ الزيتونِ تُعَمَّرُ طويلاً ، ولا يُهْرِمُها كرُّ الغداة ومرُّ

---

(١) أي أدم

العَشيّ؛ فلا تزالُ تَعظُمُ وتُثمِرُ عشراتٍ بل مِئاتٍ من السنين، كأنها حالَفت الدَّهرَ على الصبا، وأَخذتْ عليه ضماناً من الشَّيْخُوخة. فمن ذلك أن شجرةً طال عليها الأَمَدُ حتى بَلِيَ خشبُ ساقها، وبقيَ لحاؤُها قائماً حَيّاً يُمدُّ الشجرةَ بالغِذاء، ويُخوّلها أن تُغِلَّ في صَيْفٍ واحدٍ ما لا يَقِلُّ عن خمسة قناطيرَ من الزيت. ومن بين أشجارِ الزَّيتون بفِلَسطين ما يُوفي عمرُه على أَلْفَيْ عام. ويقالُ إن في إيطاليا أشجاراً عاديّةً[1] من الزَّيتون عاصرَتِ الجمهوريةَ الرومانية

غصن زيتون مثمر وعلى يمينه أزهار مجتمعة وزهرة مكبرة وعلى يساره حبة مكبرة ونصف حبة بنوانها

الثالث — أن شجرة الزيتون يُرتَفَقُ بخشبها وثمرها:

فأمّا خشبُها فهُو وإن كان سهلَ الانكسارِ معدودٌ من أخشاب الزّينة؛ فلِضيق مَسامّه، ودِقّة تكوينه يسهُلُ صقلُه، فيصيرُ سطحُه بَرّاقاً مُمَرَّجاً بطرائقَ: ما بين صُفرةٍ إلى خضرةٍ إلى كُمْتةٍ، ولذلك يُرغَبُ استعمالُه في صُنْع الأدوات الجميلة كالأدراج المزخرفة وأنصبةِ السكاكين ومقاطع الورق ونحو ذلك

وأمّا ثَمَرُ الزيتون فأبلغُ نفعاً وأجدى عائدةً[2] من الخشب؛ فهو بأكْلِه مَملوحاً غَضّاً أو ناضجاً أُدْمٌ لَذِيذٌ اذا انفردَ بنفسه، مُشَهٍّ رغيبٌ

(١) أي قديمة جداً كأنها منسوبة الى قوم عاد (٢) نفعاً

إذا شُفِعَ بغيره . وهو بعصره ينبوعُ زيتٍ غزيرٍ ثابتٍ لا يَصَّعَّدُ ولا يَزْنَخُ زمناً طويلاً ، ولا يكادُ يفضُلُه فى ذلك زيتٌ من الزيوت التى يَأْتَدِمُ بها الإنسانُ أو يتداوَى بها

وأكثرُ ما يُغرَسُ الزيتونُ لاستخراج زَيْتِه ؛ فإذا أُريدَ استخراجُه أُبْقِىَ الزيتونُ على الشجرةِ حتى ينضَج ، ولكن ينبغى ألا يُؤَخَّرَ عن ميعاد جَنْيِه لِتبقَى الشجرةُ مُخْصِبة فى العام القابل

وبعدَ جَمْعِ الزيتونِ يُبسَطُ على الأرض فى سَمْكٍ لا يزيدُ على ثلاثةِ قراريطَ أو أربعةٍ مُدَّةَ يَوْمين أو ثلاثةٍ لِيصَّعَّدَ بُخارُ رُطوبتِه ، ثم يُهرَسُ ويُجعلُ فى أكياسٍ من الشَّيْلِ[1] صفيقةِ النَّسْجِ ، وتُوضَعُ تحتَ مِهْراسٍ ثقيل يدورُ عليها ، فيرشحُ الزيتُ من خِلالِها أوَّلَ رَشْحة ، وهى أفضلُ الزيت وأطيبُه رائحةً وطَعْماً وأنقاه لَوْناً . وقد تُستخرَجُ منه رَشْحةٌ ثانيةٌ وثالثةٌ بترطيبِه ثم عَصْرِه . ويُنقَلُ الزيتُ بعد ذلك الى أحواضٍ عظيمة يمكُثُ فيها مُدَّةً حيثُ يُرَوَّقُ ويرسُبُ ما عَلِقَ به من لُبِّ الثمرةِ ، فيتحوَّلُ من عصيرٍ غليظٍ مُسْوَدٍّ الى سائلٍ رائقٍ أصفرِ اللونِ إلى الخُضْرةِ

وتبلُغُ أنواعُ الزيتون ثلاثين نوعاً : ما بين صغيرٍ وكبيرٍ ومُستطيلٍ ومُستدير وقليل الزيت وكثيره وطيّبِ الرائحة وكريهها وقليل المرارة وكثيرها على اختلاف ألوانِها وتفاوُت غَلَّتِها ، إلاَّ أن المَعْنِيَّ به منها بِضْعةُ أنواعٍ

والزيتونُ من أقدمِ الأشجار المعروفة فى الدُّنيا وأكثرِها حُرْمةً فى

---

(١) هو النبات الذى يتخذ منه الثياب ويسمى بالعامية (التيل)

أكثرِ الأديانِ، ولا تخلو الكتبُ القديمةُ سماويةً أو غيرَ سماويةٍ من ذكرِه وتعظيمِ شأنِه والتيمُّن به

ووطنُه الأصليُّ طورُ سيناء وفِلَسطينُ والشام، ثم انتقل منها الى آسيا الصُّغرى وبلادِ الإغريق وجَنوبيّ أوربة وشماليّ إفريقية، ولا يُظنُّ أن زراعته نجحت فى مصر فى أزمانها الخالية، لأنها إنما تنجح فى المنحدرات والسُّفوح الطينية الرَّملية المعرَّضة لهواء البحار، ومصرُ كانت فى تلك الزمان تستحيل الى رَدَغةٍ طينية مدة الفيضان. ولذلك أفلحَتْ زِراعته نوعاً ما فى الفيوم أواخرَ القرن الماضى لكثرةِ مُنحدراتِها

وأوَّلُ من جلبَه إليها أميرا مصر المرحومان محمد على باشا وابراهيم باشا ابنه وكلّ ما فى مصرَ من أشجار الزيتون منقولٌ من الفيُّوم، وبلَغ تعداد أشجار الزيتون فى عهدِها الأوَّل نحوَ ألفَىْ ألفِ شجرةٍ، إلاَّ أن أكثرها هلَك بقلَّةِ العناية به ورطوبة أرضه. ويمكنُ غرسُه فى مِصْرَ على حُدود الصحارى وفى الأرض المرتفعة قليلاً من شماليّ الشرقية والدقهلية والبُحَيرة

ويُزرَعُ الزيتون بغرس قضبانِه، أو قطعِ فسائِله من أصل أُمِّها ونقلِها، أو ترْقيدِ أغصانِه فى جوف الأرض حتى تَنْبُتَ ثمَّ تفصل من أُمِّها وتنقَل فى الأرض

وينتشرُ الزيتونُ الآنَ فى الممالكِ التى على شواطئ بحرِ الرومِ وأواسطِ أمريكا وآسيا وفى أُستراليا وزيلندة الجديدة

ولا تزالُ إيطاليا حافظةً لمقامِها الأوَّل فى غَرْسِ الزيتون، وإن كانت جارتها فرنسا قد سبقتها فى نَتْجِ الزُّيُوت الفاخرة، غيرَ أن فى إيطاليا الآن نهضةً لاستجادةِ أنواعِ الزيوت ممَّا يجعلُها باقيةً على اشتهارها بصناعتِها

الأســـــد

الأسدُ (ويُكنَى أبا الحارثِ وأبا شِبل) أكبرُ السباعِ[١] جسماً، وأهولُها خَلْقاً، وأقواها صَوْلةً، وأشدُّها على الإنسانِ ضَراوةً، كبيرُ الرأسِ مستديرُه دقيقُ الخَصْرِ، أهْرَتُ[٢] الشِّدْقَيْنِ، واسعُ المَنْخِرَيْنِ، صغيرُ الأذنين، مفتولُ الذِّراعين، برَّاقُ العينين واسعُهما، حادُّ الأنيابِ، صُلبُ البَرَاثِنِ[٣]، جَهيرُ الصَّوتِ، جريءُ القلبِ، هائلُ المنظرِ

وله فى اللغة العربية أكثرُ من خَمْسمائةِ اسمٍ، منها: أُسامةُ وقَسْوَرَةُ وحَيْدَرة وزُفَرُ واللَّيْثُ والبَيْهَسُ والضَّيْغَمُ والغَضَنْفَرُ والعَنْبَسُ والهِزَبْرُ والضِّرغامُ والرِّئبالُ والدوَّاس. وأُنثاه تُسَمَّى لَبُوءَةً وولدُه يُسَمَّى شِبْلاً

والأسدُ من أقدمِ أنواعِ السباعِ المعروفة، وقلَّما تخلو لغةُ أُمةٍ وَحْشِيَّةٍ أو عريقة فى المدنيةِ من أخباره وسَرْدِ نعوته؛ فقد كان كثيرَ الانتشارِ فى أكثرِ أقاليم العالَمِ القديمِ حتى أوربة، ولكنَّ إلحاحَ الصيادين عليه قديماً وحديثاً جعله يتراجعُ فى طريقِ الانقراض. وليست نِكايةُ مُحْدَثى الصيادين فيه بأكثرَ من نِكايةِ المتقدِّمين: يَدُلُّنا على ذلك ما حوَتْه أخبارُ الرومان من تعريضهم مِئاتِ الأُسودِ فى أعيادِهم وحفْلِهم للفَناء؛ فقد قيل إن قائدَهم بُمْباى عرَض ستمائة أسدٍ فى محفلٍ واحدٍ

وأكثرُ ما يكون الأسدُ الآن فى إفريقية (إلاَّ بعضَ جهاتٍ انقرض منها)، وفى بلادِ ما بين النهرين وفارسَ وبعض بِقاعٍ خاصَّةٍ فى الهند. وقد

---

(١) السبع فى عرف المحدثين من علماء الحيوان هو آكل اللحوم. والفيل ليس بسبع عندهم

(٢) واسع (٣) جمع بُرْثُن. وهو مخلَب السبع ويطلق أيضاً على كفه بأظافرها وعلى أصابعه

تنبَّه الناس فى أزماننا الى وَشْكِ انقراضه ، فحُرِّمَ صيْدُه فى بعض البقاع لئلاَّ يبيدَ فيها

ويستحقُّ الأسدُ تسميتَه « ملكَ السباع »، لرَوْعة منظرِه وعظمِ قوَّته وشدّة صولتِه ودفاعِه عن نفسه وهيبة جميع السباع إيَّاه ، ولذلك ضُرِبَ به المثل فى الشجاعة والهيبة والنجدةِ ، ومما يزيدُ منظرَه هَوْلاً عِظَمُ مُقدِمه وتكاثُفِ اللِّبَدِ على أعناق الذُّكورِ منه

الأسد واللبؤة

ولا يكادُ يعادلُ الأسدَ حيوانٌ فى ايْده[1] فلقد ينهَضُ بحَمل الثوْر العظيم ، ويصرَعُ الإنسان بضرْبةٍ واحدةٍ من ذَنَبه . وليس فى السباع جميعاً ما هو أقوى منه ضَرْبةَ كفٍّ ؛ فإن ضربةً منه تقضى على فريسته

ويبلغ متوسِّط عُلُوِّ الأسدِ أربعَ أقدامٍ من الأرضِ إلى اعلَى مَنْكِبِه

(١) قوته وشدة عضله

ويتراوح طُولُه بين ستِّ أقدامٍ وسبع خلا ذَنَبَه الذى لا يقلُّ عن ثلاث؛ غيرَ أنّ أنثاه دُونَه فى كلّ شَىْءٍ إلاّ فى شراسة الخُلق فإنها أشدُّ

والأسدُ من الحيوان الذى يَنْهَشُ اللحمَ : يمزّقه بأنيابه المذرَّبة ويبتلعُه ولا يمضُغه؛ ولهذا كان فكّاهُ لا يتحركان إلاّ إلى أعلَى أو أسفل

وهو ذو ألوانٍ : فمنه الأصفرُ والوَرْدُ[١] والأكْلَفُ[٢] والأربدُ[٣] والأعفرُ[٤]، ويكون لونُ لِبْدَته أقتَمَ غالباً دون سائر بدنه

والأسد كالنِّمرِ والفَهْدِ من فصيلة الهِرَرةِ لا يمتازُ فى خَلْقه منها إلاّ باللِّبَدِ فى الذكُور وعِظَمِ الجُثَّة : فأظافرُه على حِدَّتها وعِظَمها تختفى فى مَقانب كَفّه اللّيّنة؛ فيَطأُ الأرضَ ولا يُشْعَرُ به . وعيناه تتَّسِعُ نواظرُهما وتضيق تبعاً لقلّة الضوء وكثرته ولسانه خشن يعينه على تعرّق العظام

ويقطُنُ الأسدُ السُّهولَ الرملية والوعورَ الصخرية التى تكتنفُها أو تتخلّلُها الغِياضُ والآجام ومناقعُ المياهِ والغُدرانِ حيث يكثر عليها وُرودُ الوَحْش الكبير من أكَلَة النبات فيفترسها، كالجواميس وبَقَرِ الوحشِ والظباء وحُمُرِ الوحْش والزَّرافىّ . وقد يفترسُ الفيلَ والكركدَنَ، وقلما تسلَمُ منه دوابُّ المزارع التى تجاورُ عرينه ولا أهلُها . ومما عُرِفَ من طباعِه أنه لا يفترسُ صِغارَ الحيوان إلا فى الأقلّ النادر وأنه لا يسعَى الى الافتراس إلاّ اذا أمضَّه الجوعُ؛ واذا عرَضَ له حيوانٌ وهو شَبْعانُ أغضَى عنه، وإن كانت مُشاهداتُ بَعْضِ المحْدَثين

---

(١) الأسد الورد بين الأصفر والأحمر الذى تشوب حمرته سواد خفيف

(٢) الأكلف الأسود الى حمرة وصفرة قليلتين (قرنفلى)

(٣) الرمادىّ (الأساس) (٤) الأعفر الأبيض الى حُمرة وصُفرة قليلتين (نباتى)

من السُّيَّاح الأوربيين (مثل لِفِنْجِسْتُون[١]) تنكرُ على الأسدِ هذا الفضل المعروفَ به من قديم الزمان

ويندُرُ أن يخرُجَ الأسدُ لطلب رزقِه نهاراً، بل يظلّ سحابةَ نهاره رابضاً فى خِيسِه ؛ فإذا جَنَّ الليلُ عَسَّ يتطلَّبُه؛ فسَرْعانَ ما تَهديه حِدَّةُ نظرِه وقوَّةُ شَمِّه الى مكان الصَّيْدِ، فيتَّجهُ صَوْبَه بتسلُّلٍ وترفُّق، حتى اذا سامَتَه وصار على بِضْعِ خَطَوات منه وَثَبَ عليه وَثْبةً سريعةً يشفعُها زئيرٌ هائلٌ، فلطَمه لطمةً دَقَّ بها عنقَه أو أنشب براثنه فى جسمِه. ويبدأ بالوُلوغ فى دَمه ثم ينهسُ ما يكفيه من لَحْمِه ويترُك بقيّةَ شِلْوِه[٢] ويعودُ الى عرينه. وتلحقُ به خلال ذلك طوائفُ من الضِّباع وبناتِ آوَى ترقُبُ من كَثَبٍ فراغَه من فريستِه فتنقضُّ عليها ولا تبقى لها أثر

والأسد شديدُ الخوفِ من النار وبهذه الخَلَّة يتَّقى الصيادُون والسُّيَّاحُ شرَّه فيُضرِمون حوْل خيامهم ودوابهم النيرانَ الكثيرة، بيدَ أن الأسد يغلِبهُم أحياناً على أمرهم؛ وذلك بأن يدنى رأسه من الأرض، ويزأَرُ زئيراً عظيماً متوالياً، فيدوى المكان بصوته، فيستولِى الذُّعْرُ على الدَّواب فلا تعرفُ المكانَ الذى أتى منه الصَّوتُ، فتقطعُ الحبالَ وتقتحمُ النارَ فينقضّ عليها. ويتخذُ الأسدُ الزئيرَ حيلةً لصيده؛ فإذا اشتدَّ به الجوعُ ولم يُحِسَّ فريسة طفِقَ يزأَرُ، فتخرُج الوحوشُ نافرة من مكامنها

---

(١) قسيس انجليزى سائح عاش مدة فى أواسط أفريقية لنشر المسيحية بين الزنوج وعرّف بأصقاع كثيرة منها (٢) الشلوجثة المقتول أو بعضها

رسائل

فى أغراض مختلفة

رسالة لأبى الفرج البيغاء[1] تهنئة بولاية :

سيّدى — أيّده الله — أرفعُ قَدْراً، وأنبهُ ذِكراً، وأعظمُ نُبْلاً، وأشهر فضلاً من أن نُهنّئه بولايةٍ وإن جلَّ خطَرُها[2] وعظُمَ قدرُها، لأن الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدْلِه، والرَّعيةِ بمحمود فعْلِه، والأقاليم بآثار رياسته، والولايات بسِمات[3] سياسته. فعرَّفَهُ الله يُمْنَ ما تولاّه، ورعاه فى سائر ما استرعاه[4]، ولا أخلاه من التوفيق فيما يُعانيه، والتسديد[5] فيما يُبرِمُهُ[6] ويُمضيه

رسالة فى اللوم والعتاب للمؤلف :

صديقى العزيز

سلاماً على مَنْ لا سلامَ لى منه، وتحيَّةً لِمَنْ لا حياةَ لِعَهْدِى عنده، ورَعْياً لمن لم يَرْعَ فىَّ حُسْنَ رِعْيةٍ

وبَعْدُ فما كنتُ لأظُنَّ أن عوادِىَ الأيام تُصالِحُك على كَيْدِى، وتُصارحُك بإفشاء سِرّى، وتُؤامِرُك فى تسوئةِ أمْرِى، لأواخِىَّ[7] عقَدَتْها بيننا يَدُ الصِّبا، واعتقدتُ ألاَّ يَحُلَّها إلاَّ حُلولُ الأجَلِ؛ ولكن وَيْحاً للإنسان : ما زالَ جَنيبَ[8] الزَّمان، يغترُّ بغِيَرِه[9] ويتمثَّلُ بصورِه؛ فينسى

---

(١) هو أبو الفرج عبد الواحد البيغاء بن نصر المخزومىّ من شعراء الشام توفى سنة ٣٩٨هـ (٢) شرفها وعظمها (٣) أمارات (٤) أى ماجعلك ترعاه وهو الرعية (٥) التوفيق والإصابة (٦) يحكمه ويقضيه وينفذه (٧) جمع آخيّة : وهى ما تربط به الدابة والمراد بها هنا رابطة المودة (٨) الفرس الجنيب : المجنوب الى آخر يسير بسيره (٩) حوادثه

الخُلَّة[١]، ويُخفِرُ[٢] الذِّمة ويَمَلُّ العافيةَ، ويبطرُ الكرامةَ

على أن لَوْمى نفسى ليسَ بأهونَ مِنْ لَوْمى لك، وعَتْبى على ضميرى يربو على العَتْبِ عليك؛ إذ كان لى نُدْحَةٌ[٣] عن الإفراطِ فى الثِّقةِ بك، والتهالُكِ[٤] فى إلقاءِ قيادِى إليك. ولعلَّ القصدَ فى ذلك يكونُ أقصدَ سبيلٍ لحياتِنا المستقبلةِ ما لم تدخُلْ فى أُخرَى لا تُحتَمَلُ، أو تخرجْ من الأُولَى بعُذْرٍ يُقبَلُ، والسلام ؟

رسالة للمؤلف على لسان مُبِلٍّ[٥] من مرَض يشكُرُ لطبيبه الذى عالجه عنايتَه به: سيدى النِّطاسىِّ[٦] الفاضل

لَئِنْ حقَّ السلامُ على مُولِى السَّلامةِ، ووجبتِ التَّحِيَّةُ لِمُنقِذِ الحياةِ لقد صارَ حقًّا علىَّ بعْدَ أدائى لكَ هذيْنِ الفرْضَيْنِ، واغتباطى بنَيْلِ تَيْنِكَ الحُسْنَيَيْنِ، أن أقومَ لك بشكرٍ يستنفِدُ جَهْدَ نفسى، ويُحيطُ بكلِّ ما فى وُسْعى؛ وكيفَ لا وقد أعدتَ إلىَّ العافيةَ وكان أيْئَسنى المرضُ منها، وأمتعتنى بنعيمِ الحياة بعد أن جفانى طيبُ عَيشها، وبعد أن أعيا سَقامى نطُسَ الأطباءِ، وملَّ عِيادتى أوْفَى الأخلاءِ. فإن كانت لى بعدُ مُنَّةٌ[٧] فهى من مَحْضِ مِنَنِكَ[٨]، أو كان لى يدٌ فى عملٍ فهى بعضُ أياديك

فجزاكَ اللهُ خيرَ ما يُجزَى طبيبٌ عن مُبِلٍّ، ومُكْثِرٍ من الفضل عن مُقِلٍّ. والسلامُ عليك ورحمةُ الله

---

(١) الصحبة (٢) يخون ويغدر (٣) سعة وفسحة (٤) مصدر تهالك فى الأمر: جدّ فيه (٥) أبلّ المريض من مرضه: برأ منه فهو مُبِلٌّ (٦) النِطاسىّ العالمُ والطبيبُ الماهر (٧) قوّة (٨) جمع مِنّة وهى النعمة والعطية

موقعة القادسية الحاسمة

لمَّا اختلَّ أمرُ الفُرْس ، وعظُمتْ الفتنةُ بينهم أذِنَ أبو بكرٍ (رضى الله عنه) للمُثَنَّى بنِ حارثةَ الشَّيْبانيّ وسُوَيْدِ بن قُطْبةَ العِجْليّ بغَزْوِ فارسَ . ثم أمدَّهم بخالدِ بن الوليد ، ففتح الحِيرةَ وبعضَ رِيفِ السَّواد . ثم سيَّره بنِصْف جيش العِراق مَدَداً لجنود الشام . ولمَّا وَلِيَ عمرُ (رضى الله عنه) الخلافةَ أمدَّ المثنى بجَيْشٍ عليه أبو عُبَيْدِ بنُ مسعودٍ الثقفيُّ ، فتسرَّعَ وعبرَ الفُراتَ إلى العدُوّ ، فنفرتْ خيلُه من فِيلته ، فاضطربَ جيشُه ثم هُزِمَ ، وقُتل أبو عبيدٍ ، وهلَكَ من المسلمين نحوُ ثلاثةِ آلافٍ قتلاً وغرقاً . فامدَّهم عمرُ بجيشٍ آخرَ عليه جَريرُ بنُ عبدِ الله البَجَليُّ ، فانتصرَ على الفُرسِ في عِدَّةِ وقائع ، واستباحَ العربُ سِقْيَ الفُرات ، حتى استقامَ أمرُ الفُرس ، وولَّوْا عليهم يَزْدَجِرْدَ آخرَ ملوكهم . فاستنفر الناسَ للدِّفاعِ عن بلادِهم ؛ فأجابوا ، وأمَّر عليهم رُسْتُمَ أعظمَ قوَّاد الفُرس يومئذٍ . ففصَلَ رُسْتُمُ عن المدائن بجيشٍ جرَّارٍ كثيرِ العُدَدِ والذخائر والفيلة يَربُو عددُهُ على مائةِ ألفِ مقاتلٍ . فلمَّا عَلِمَ العربُ بذلك بعثَ عمرُ بنُ الخطاب رُسُلاً إلى جميع قبائل العرب ، وندَبَ فُرسانَها وخُطباءها وشعراءها وأهلَ الرَّأْى والنَّجدة منها ؛ فانتدبَ له نحوُ عشرين ألفَ مقاتلٍ أمَّر عليهم سعدَ بنَ أبى وقاصٍ القُرَشى . فنزل على القادسيَّة . ومات المُثَنَّى قبل مَقْدَم سعْدٍ بقليل . وتكاملَ عددُ المسلمين بضعةً وثلاثين ألفاً ، واختلفتْ الرسُلُ مُدَّةً بين العرب وكِسْرَى يَزْدَجِرْدَ وبينهم وبين رستُم في الدعوة إلى الإسلام من العَرَب ، والوَعْد والوَعيد من الفُرس ، وانتهى الأمر بتحكيم السيف بينهم ؛ فعبر الفُرسُ الفُراتَ ونهرَ القادسية ، واسند المسلمون

ظهورَهم إلى حائط القادسية وقصرها وخندقها. وفشا فى بَدَن سعدِ بن أبى وقّاصٍ دَمامِيلُ كبيرةٌ أمضَّتْه، ولم يُمكنه الركوبُ ولا الجلوسُ؛ فانبطح على صدره فوق قصر القادسية يُشرِفُ من شُرُفاتِه على الجيْش، ويأمرُ كتائبَه بما يرَى. فخرجت العجمُ مصطفّةً ثلاثةَ عشرَ صفًّا بعضُها خلْفَ بعضٍ، منهم نحوُ ثلاثين ألفًا من المُستَميّةِ المقيَّدين بالسلاسل، ويقدُمُ الجميعَ ثلاثةٌ وثلاثون فيلاً مُدرَّبةٌ على القِتال. وبرزَ المسلمون فى ثلاثة صُفوف متتالية. وناب خالدُ بنُ عُرفُطةَ عن سعدٍ فى قيادة الجيش منفِّذاً أوامرَ سعدٍ من أعلى القصر. فانتشبَ القِتال، ونضَح الفُرسُ العربَ بالنُّشاب، ففشتْ فيهم الجراحاتُ. فلم يكُن بُدٌّ للعرب من إعجالهم بالحملةِ، فحملُوا حملةً صادقةً؛ إلاّ أنّ خيلَهم نفرتْ من وُجوه الفِيَلةِ، وهجمتْ الفيّالةُ على العرَب وأخلّتْ صفوفَهم. فبرزَ إلى الفيلة شُجعانُهم من أمثال عمرِو بنِ معْدِيكربَ الزُّبيْدِى وعاصِم بن عمرو التميمىّ، وهجموا على الفيلة، فقطعوا أوضِنتها[1] فسقطتْ التوابيتُ التى على ظهرها بمقاتِلِها، وثبتَ المسلمون إلى هُدْأةٍ من الليل، فتراجعَ الفريقان. وقد قتلَ من المسلمين كثيرٌ فى هذا اليوم الأوّل

ثم بكّروا القتالَ فى اليوم الثانى، ولم تشترك فيه الفيلةُ لاشتغالهم بإصلاح عُدّتها؛ واتّفق أن طلعتْ عليهم أمدادُ الشام إليهم أرْسالاً عشرةً عشرةً بعد أن انتصروا فى اليرموك، وعليهم القَعقاعُ بنُ عمرو التميمىّ أحدُ شُجعان العرب، فاشتركُوا توًّا فى القتال، وصدق الفريقان النيّةَ، فقُتل فى هذا اليوم الكثيرُ من صناديدِ الفرس وفرسانهم، ولاَح النصرُ فى هذا اليوم على العرب، فواصلوا القتالَ الى نصف الليل

---

(١) جمع وضين وهو بطانٌ (حزام) عريض منسوج من جملة سيور من جلد

ثم أصبحوا اليومَ الثالث وهم عَلَى مَواقِفِهم، وبين الصَّفين من قَتَلَى المسلمين ألفان من بين قتيلٍ وجريح، ومن الفرس عشرة آلاف، فجعل المسلمون ينقلُون قَتْلاهم إلى المقابر والجرحى الى النساء، وكان النساءُ والصبيانُ يحفِرون القبورَ، وفتَرَ الفرس عن نقل قَتْلاهم وجرحاهم، فقوِّى ذلك من نفوس المسلمين. ثم تزاحفُوا واشتركت الفيلةُ فى هذا اليوم يَحميها الرَّجَّالةُ والفُرسان، فاحتال لها شجعانُ العرَب، فترجَّلوا وأخذُوا الرِّماحَ فبخَصُوا بها أعين الفيلة فهاجت وألقَتْ مَنْ عليها، فضرَبوا خراطيمَها بالسيوف، فقُتِلَ بعضُها، وخرجَتْ بقيّتها من الجيش شاردة، فشقَّتْ جيُوشَ الفُرس، وخاضَت الفُرات الى المدائن. ومالَ الظلُّ والفُرسُ والعربُ عَلَى سَواء، حتى أقبل الليلُ، فلم يرجع العربُ عن القتال، وحمَلُوا بعد أن صلَّوُا العشاءَ على الفُرس حملةً فرَّقوا بها صفوفَهم. وباتَ الفريقان بليلةٍ لم يَرَوا مثلها

وأصبح صباحُ اليومِ الرابع، وهم على أشدِّ قتالٍ يكونُ، حتى قامَ قائمُ الظهيرة، فتَضَعْضَعَتْ صفوفُ الفرس، وانفرجَ القلبُ، وهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ فى وُجوه الفرس، فغمَّتْ أبصارَهم، وطارَتْ بفُسطاط رُستمَ، فانكشف للعرَبِ، ووَقَفَ يستظلُّ ببغالٍ، محملةٍ مالاً، فضربه هِلالُ بن علْقَمةَ، فتحاملَ ورَمَى بنفسه فى النهر، فاقتحمه هلالٌ وراءه، وجرَّ برجله وقتَله، ونادى قتلتُ رُستمَ وَربِّ الكعْبةِ! فانهزمت الفرس، وبقِىَ المسلسَلون ففنُوا عن آخرهم. وأخذَ ضِرارُ بن الخطَّاب رَايةَ مُلْكِهم، وكانت من الجلْدِ المرَصَّع بأنفس الجوْهَر، وحازَ المسلمون ما لا يُحصى من الغنائم. وكان عددُ مَنْ قتل منهم ستةَ آلاف. ولم يقُمْ للفرس بعدها قائمةٌ، وإن نازلوا المسلمين بعدها فى فُتوح كثيرة

﴿ تم الجزء الأول بحمد الله وعونه ﴾

فهرست

صحيفة		صحيفة	
١	حمد الله تعالى والاستعانة به	٨٠	صبر الملوك
٣	قراءة الكتب	٨٣	حياة الحيوان
٦	نجباء الأبناء	٨٧	الايمان بالقضاء والقدر
١٠	مقطعات شعرية	٨٩	التصوير الشمسى
١٢	عجائب الدنيا	٩٣	مقطعات شعرية
٣١	أمثال على ألسنة الحيوان	٩٥	سيدنا أبوبكر الصديق رضى الله عنه
٣٤	أثر النقد فى القول والعمل	٩٨	الشجاعة أمان لصاحبها
٣٧	وليمة مصرية قديمة	١٠٠	العصر الحجرى والعصر المعدنى
٤٢	أذكياء القضاء	١٠٤	وفاء السموءل
٤٤	مثال الطالب النجيب	١٠٧	الأقزام
٤٦	الأرض التى نعيش عليها	١١٠	نبذ من أخبار الأذكياء
٤٨	تكوين الأرض	١١٢	أمثلة على ألسنة الحيوان
٥١	الجراءة والاقدام	١١٦	حياة النبات
٥٣	وصايا الآباء للأبناء	١٢٢	الجندى الأمين
٥٥	بمبيه	١٢٤	القِرَدَة
٥٩	عقلاء المجانين	١٣٢	مدينة الفسطاط
٦٠	مقطعات شعرية	١٣٨	صدق الإيمان
٦٢	العلم النافع أمان من الفقر	١٤٠	القمر
٦٦	العمل	١٤٥	مقطعات شعرية
٧١	دعوة الداعى	١٤٦	النارجيل أو جوز الهند
٧٢	منشأ الحياة على وجه الأرض	١٥٠	التسامح وعلو الهمة
٧٧	نجباء الأبناء	١٥٢	اسلندة أو أرض الجليد
٧٨	أمثال على ألسنة الحيوان	١٥٥	وصايا الآباء للابناء

صحيفة		صحيفة	
١٥٩	الضفادع	٢٠٢	حقيقة فى فكاهة (العنكبوت)
١٦٤	صيانة مال الأمة	٢٠٩	خطبة لعثمان رضى الله عنه
١٦٦	الشمس	٢١١	الأخلاق الفاضلة
١٧١	جابر عثرات الكرام	٢١٦	عبرة فى فكاهة (رثاء هر)
١٧٥	الزرافة	٢١٩	موقعة اليرموك الحاسمة
١٨٩	سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه	٢٢٥	دمشق الفيحاء
١٨٥	خطبتان لرسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٣٠	رسائل فى أغراض مختلفة
١٨٦	الصحة	٢٣١	الشجرة المباركة
١٩١	خطبة لأبى بكر رضى الله عنه	٢٣٦	الأسد
١٩٣	القاهرة المعزية	٢٤٠	رسائل فى أغراض مختلفة
٢٠١	خطبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه	٢٤٢	موقعة القادسية الحاسمة

اصلاح بعض كلمات وقعت محرّفة فى هذا الجزء

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤٦	١٧	متمشدِق	متَشدِّق	٩٨	٧	مقرون	معروق
٧٢	١٦	احمـد	محمـد	١٢١	١٩	ملسم	ميسم
٨٦	٥	ثمانيـة	ثمـانى	١٣٣	٦	عقبـة	عتبـة

نزهة القارئ

للمدارس الثانوية

الجزء الثاني

تأليف

الشيخ أحمد الاسكندري

الطبعة الأولى

حق الطبع لمؤلفه

١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م

المطبعة السلفية - بمصر

لصاحبها : محب الدين الخطيب وعبد الفتاح فندون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علَّمَ الإنسانَ ما لم يعلَمْ ، والصلاةُ والسلام على محمد الهادى الى الصراط الأقْوم ، وعلى آله وصحبه الجامعين بَينَ القول المُحكَم ، والفِعل الأكرم

وبعدُ فهاهو ذا الجزء الثانى من كتاب نُزْهة القارىء ، شَجَّعَنى على إصداره إقبالُ المدارس والقُرّاء على سابقه : فى الديار المصرية ، والممالك العربية . فلله الحمدُ والشُّكْران ، وعليه التُّكْلانُ ؟

وكتب بالقاهرة فى ٢١ ذى الحجة سنة ١٣٤١ - ٤ اغسطس سنة ١٩٢٣

أحمد الاسكندرى

العلم

لقد كرّم اللهُ بنى آدمَ وفضّلهم على كثيرٍ من خَلْقه، بما أودعهم من سرّ التعقّل والاستنباط، وانتفاعِ خَلَفهم بما هدىٰ اليه تعالى سَلَفَهم: مما سُمِّيتْ فُصولُه شرائعَ وديانات، وفنُوناً وصناعاتٍ، واندمجتْ جُملته فى اسم العِلْم؛ غيرَ انهم لم يكونوا فى إحراز هذا العلم سواءً، فمنهم من تضاءَلَ علمُه حتى ألتحقَ بالعَدَم، وتسفّل الى دَرْك الحيوانِ الأعجم، ومنهم من تَسامىٰ به علمُه حتى رَفَعَ من حُجُب الطبيعة وكشَفَ من أسرارِ الخليقة، حكمةٌ بالغةٌ منه تعالىٰ لاستعمارهم فى الأرض، وتسخيرِ بعضهم لبعض؛ اذْ يقول جلّ من قائلٍ: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا[1]»

وما كان تفاضُلُهم عندَ الله وعندَ أنفسهم الا بقَدْر مَبلَغِهم من العلم وحَظِّهم من العمل به. «قُلْ هَل يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُوْنَ والَّذِين لاَ يَعْلَمُوْنَ»

وعلى هذه السُّنّةِ الفِطرية سِنةِ التعزُّز بالعلم والتمجّد بالعمل به قامت حضارة الأمم العظيمة، واستمكن سلطانُ الدُّولِ العتيدة، ولم يتخلف أثرُ هذه السنةِ في قوم الا بعد أن تحرَّفوا عنها وعملوا بغير ما علموا، وظلموا أنفسهم، وسيَطرَ[2] شِرارهم على خِيارهم، فخرّبوا بُيوتهم

(١) مصدر سخره: كلفه ما لا يريد قهراً وغلبة (٢) تسلط

بأيديهم ، أو بعث الله عليهم أقواماً شرّا منهم ؛ فاستعبدُوا سادتهم ، واستذلُّوا كبراءهم : بما قدّمت أيديهم ، وما عطّلوا من سُنّة الله فيهم . وما ربُّكَ بظلّامٍ للعبيد .

اذا كانت هذه هى سنة الله فى خلقه فما بالنا معاشرَ الشرقيين قد عكسْنا القياس ، ونِمنا وأدلَج (١) الناس ، بعدأن كنا منبعَ العلم ومُتفجَّر الحكمة ومهبطَ الشرائع ومهْد الصناعات .

ألَمْ يأْنِ (٢) لنا أن نُميطَ (٣) القذَى عن عُيوننا ، ونَنزِعَ الغِلَّ من صُدورنا ، وننفى الحسدَ من نُفوسنا ، ونَنْبذ التباغض والتناحُر على عَرَضِ الدنيا الذى لم يبقَ لنا منه إلاّ لُماظةُ (٤) طاعِمٍ أو نُغْبةُ (٥) طائر

ألم يأْن لنا أن نأتلفَ إخواناً ، ونتّحد أنصاراً وأعْواناً ، ونكون على العيش النَّكد والحياة المرّة يداً واحدة ، ويدُ الله فوقَ أيدينا

ألم يأْن لنا أن نأتىَ البيوت من أبوابها ؛ فنلجَ الى السعادة من باب العلم ، ونتطلّبَ السيادة من طريق العمل به

إننا اذا أردنا أن نَعيشَ جميعاً آمنينَ فى أسرابنا مُعافَيْنَ فى أبداننا ، مصيبين لأقواتنا ، فلا زَعيمَ لنا بذلك إلا العلم والعمل به

يُلقى بعضُ المُعذِّرين (٦) منّا تَبعة تخلُّفهم (٧) على كواهل دُوَلهم بأنها هى التى قصَّرتْ فى تعليمهم وتثقيف عُقولهم . وقد نَسُوا أن

---

(١) ساروا ليلا (٢) انى يأتى : حان يحين (٣) نزيل (٤) بقية الطعام فى الفم أو أثره فيه (٥) حسوة الطائر من الماء (٦) الذين يتحلون الاعذار غير المقبولة (٧) تأخرهم فى العلم والفضل

دُوَلهم منهم وإليهم ، وكما يكونون يُوَلَّى عليهم

وانما البَراعةُ والنُّبوغُ (١) فى العلوم الشريفةِ رَهْنُ الدأب وشدة الرَّغْبة وبذْل النفقة والحَمْل على النَّفْسِ ، وكلُّها أمور لا تستطيع دَولةٌ ما أن تجبُر عليها رعيَّتها ، فهى إن ضمنتْ القُدْرة على تجميع المال ، وتسخير الأبدان ، فما لَها على النُّفوس سُلطان ، ولا بتقليب القلوب يَدان (٢)

اذاً فمَعَرَّةُ التقصير لاصقة بالأُمّة حاكِمها ومحكومها كمِصْداقِ الحديث الشريف « كلُّكم راعٍ وكلُّكمْ مَسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ »

ويَتعذَّرُ فَريقٌ آخر عن تكميل ذاتِ نفسِه بقلة ذاتِ يَدِه ، واستغراق طلَب رِزقه أفضلَ وقتِه . ولم يَدْر أن الفقر مَدْرَجة العلماء ، وخُشونة العيش مصقَلة العظماء ، وأن أكثر نُبغاء العالم وأغنياءه نَبَتوا فى مَزْرعة الحِرْفة (٣) والبُؤس ، واستغنَوْا بعزائمهم وتدبير أوقاتهم ، وشغَلوا فَراغَهم بعد كسب أقواتهم بالقراءة والدَّرْس

ومن المُقَصِّرينَ من بَهرتْ مدَنية الغرب أبصارهم واختلبت ألبابهم ، فنسُوا تاريخهم ، وجهلوا أنفسهم وجنسَهم ، وحسِبوا أن الغربيين فُطِروا من طِينة غير طينة الشرقيين ، وأنهم أرقى عقولا وأرقُّ شُعوراً ، مُتعَلِّلين بأن الشرقيين فى إبَّانِ دولتهم وعُنفُوان عظمتهم لم يتَنبّهوا لما تنبّه له الغربيون من قُوَى البخار والمغنطيس والكهرَباء . وجهلوا أن الأيَّام دُوَل ، والأعمال فى الدنيا نُوَب ؛ فلَوْ ان نَوْبةَ الغربيين

(١) مصدر لنبغ (المختار) (٢) أى قدرة لان اليدين آلتا العمل (٣) النحس والفقر

كانت بدلَ نَوْبتنا ؛ فاستيقظوا هم منذ آلاف السنين ، وقمنا نحن الآن بمثل نَوْبتهم ما جاءوا بأكثر مما جاء به قدماء المصريين والأشوريين وغيرهم من الغابرين . وكنا نحن قد قمنا بكل ماهم مخترعوه ، وتممنا على ما ابتدءوه . وما أوّلُ مَن استوقد النار ، واستنبت الأشجار ، وَرَكِبَ البحار بأقلَّ على الانسانية فضْلاً ممن كشفَ سِرَّ الكهرباء والبخار ، والدهر بالناس مَنْجَنون[1] ، والعلم سائح يطوف حول الارض من الشرق الى الغرب ؛ ثم يعود طبعاً الى الشرق

ومنهم من يَحتجُّون بكبر السِّنّ وفوات فُرصة التعلُّم . وهى عِلَّةٌ استشرَى فينا شَرّها ، وتَعَضَّلنا[2] دَاؤُها ؛ اذ ليس للعلم فَصل يُحمَد فيه غِراسه ، ولا إبَّان تنضَج فيه ثِماره

وثَمَّ صِنْف من الناس نرجو الله ألاَّ يُفْشِى فينا آراءه ، وأن يُبيدَ مِن بيننا خَضْراءه[3] . وهذا الصِّنف فَريق من سلائل الأغنياء المُتْرَفين يزعمُون أن طُلاَّب العِلم إنما يَنهكون أبدانهم ، ويكُدُّون أذْهانهم بُغيةَ تحصيل المال ، وتأثيل[4] العزّ والجاه ، وهم قد كُفُوا مَئُونة هذا العَناء ، وورِثوا كلّ ذلك عن الآباء ، ولا معنَى عندهم بعدئذ لطلب العلم الا الشُّؤْمُ والتحرُّف[5] ونَغَص العَيْش وبَطرُ النِّعمة . وفى بيداء هذا الخَطَلِ[6] وتلك الضلالة يَتِيهُ الأغرار[7] من أبناء النِّعمة

---

(١) دولاب دائر (٢) تعضل الداء الأطباء : غلبهم (٣) سواده ومعظمه اى يستأصله (٤) أثّل المال وغيره : زكاه وأصّله وكثره وعظمه (٥) معاناة الحرفة والتكسب (٦) فساد الرأى (٧) جمع غر بالكسر وهو الحدث لاتجربة عنده

فى بلادنا ؛ فهم لايحضُرون المدرسةَ إلا لتسلية نفوسهم مع أترابهم ، وقتل الوقت باللَّعب والسُّخْرية ، والوَلوُع برُحماء المعلِّمين ، ولا يُقيمون بالمدرسة إلا رَيْثَما يُلِمُّون ببعض مَبادئ العلوم . وقلَّ منهم من ضرَب فى العلوم العالية بسهم أونالَ فيها شهادة ، ثقةً بثَرْوة آبائهم التى ستبيد على أيديهم . ولو عَقَل أولئك الأغرار أنَّ للعلم سلطانا على القلوب فوق سلطانَى المال والولاية ، وأن لذةَ العالِم بانكشاف الحقائق له وانتفاء الحيرة عن قلبه أضعافُ لذة المتموِّل الطَّرُوب ، وأنّ اجتماع العلم والمال للمرء سعادة ليس فوقها سعادة الا رِضا الخالق ، ما استهواهم شيطان الهوى ولعلموا أنَّ العلم وسيلة الى كلّ فضيلة

فاذا لَم يعدُ لنا عُذر نَنْتَحِله للصُّدوف عن العلم فما العلوم التى يجب أن نَبلُغ مَقاصدها بعد أن ولِجنا مَداخِلها ؛ ويتفرّغ كل طائفة من أذكيائنا للتبحّر فى كلّ فرع من فروعها بعدأن ألْمَمْنا بجُملتها ، وجرَّ بنا أنّ الأصول لاتغنى من الفروع شيئا ، وأن اكتناهَ حَشَرة قد يقى الهَلَكةَ أُمّة

إنَّ ثَمَّةَ علوما لايبلَى شرفُها على مرّ الزمان ، وتناءى البُلْدان ؛ وهى علوم الدين واللسان ؛ فبالاولى يُعْرَف الرَّبُّ ويَخشَعُ القلب ، وبالثانية يَبين مُراد النفس ، ويلتئم شمل الجنس ، فينبغى أن يُلِمَّ بها جَميعُنا ، وإن لم يتعمَّق فيها إلاّ الخاصّة منا

أما العلوم الكَوْنية من الرياضة والطبيعة والكيمياء ، وما يتفرع منها من الصناعات فقد كان لنا فيها القِدْح المُعَلَّى والمَثَل الأعْلَى ، ولكنَّنا (ويا حَسْرَتَا على ما فرَّطْنَا) غفَلْنا عنها ، وطالَ الأَمَدُ على غَفْلتنا ، فلم

نَستفِق إلاّ بَعْدَ أنْ دَهَمَنا الغَرب بخَيْلِه ورَجْلِه كما زَحَمَنا ببضائعه، وأغْرَقَ أسواقنا بمصنوعاته. فبادَتْ أمامَها صناعتنا، وبارت تجارتنا، وعجَزْنا حتى عن صُنْعِ خِياطِ [1] الثياب وأعواد الثِّقاب [2]. فاذا نَحْن لم نحتفظ بمَرافِقنا، ونُحْيي علومنا وصناعاتنا كان سبيلُنا الانقراض من الدنيا غيرَ مأسُوف علينا. وليس علينا فى ذلك من كُلْفَة غير الاقتباس من علم أهل الغرب كما اقتبسوا منا؛ ثم لا نُلقِي على عواتقهم أعباءَ الاستكشاف عَن أسرار الطبيعة، بل نُقاسِمُهم العَناءَ فى خِدمة الانسانية، ونشاركهم فى استمار الأرض التى نسكُنها. ولا يكون ذلك الا بالتبريز فى تلك العلوم والصِّناعات التى أصبحت غاية الغايات، إذْ لم تَعُد طبيعةُ الأرض كَفيلةً بمعيشة أبنائها على تَكاثُرهم وتضاعُفهم دونَ أن يعملوا على إصلاحها جَهْدَ أنفسهم، ويَستدرُّوا أخلافها [3] بأيديهم، ولم يَبقَ فى إمكان شَعْب أن يضمَن كِيانه، ويأخذ فى ميدان التزاحم البشرى مكانَه إلا اذا أعدّ لمُزاحِميه ما استطاع من قُوّة، ولا قوةَ لنا الا بالله وباستخدام ما بثّه فى الكون من قُوَى الطبيعة، وباستجلاء ما أوْدع هذا الوجودَ من أسرار لم يَزِلِ العالَمَ على شاطئ محيطها الذى لا يمنَع من يركَب لُجَجَه ويَشُقُّ ثَبَجه [4]. وما الحيوانُ، والنبات، والماء، والهواء، وحرارة الشمس، وضوءها، وظاهر الارض، وجوفها، وذلك الأثيرُ [5] المُنبَعِث

(١) الابرة (٢) الاعواد التى تثقب بها النار اى تشعل (اعواد الكبريت)
(٣) الخلف بالكسر كحمل لذوات الخف والظلف كالثدى للانسان، او هو طرف الضرع (٤) وسطه ومعظمه (٥) هو نهاية مادة الكون فى الرقة والدقة، يونانى معرب

فى مَلَكوت السّموات والأرض ، والتجاذب العام بين الأجرام ، إلا خزائن وكنوز لأنواع من القوى لاتتناهى لم يَعْرِف الانسان منها الا قَطْرة من بحر . وليس البَحْثُ فيها وَقْفا على أُمة او جِيل ؛ بل هو مباح لكل من يستحق أن يعيش

ان العلم لم يذلِّل بَعْدُ الا قليلا من صِعاب الحياة ؛ فلا تزال الأمراض تفتِكُ بنا ، وأحقر المخلوقات من الدِّيدان والحشَرات يَغصِبنا أرزاقَنا ؛ ولا قِبَلَ لنا بمَنع أنفُسنا منها ؛ اوتخفيف بعض ويلاتها علينا . ولايزال التواصُل بَيْنَ سُكّان الأرض عَسيرا ، وتبادُل المرافق بينهم مَحْدودا ، ووثوق بعضهم ببعض مفقودا ، وكل ذلك يُحتّم أن نَهُبَّ فنستوفِى قِسْطَنا من العلم ونصيبنا من العمل ، فنستردّ مَكانَتنا من الشَّرَف ، ونعمَل على تَرقِيَةِ عَيْش الأنسان فى الأرض ، ورفع لواء الإخاء والسلام فى هذه الحياة الدنيا . والله وَلىُّ العاملين .

بليغ أقوال فى وصف رجال

وصف ضرار الصدائى لعلى (رضى الله عنه)

قال معاوية[١] لِضرارٍ الصُّدائى[٢] : يا ضِرار صفْ لى عليًّا (رضى الله عنه) قال : أعْفِنى يا أمير المؤمنين . قال : لتَصِفَنَّهُ ! قال : أمّا إذْ لابُدَّ مِن وصفه فكان والله بعيدَ المدَى[٣] ، شديدَ القُوَى ، يقول فَصْلا[٤] ، ويحكُم عَدْلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطِق الحكمة من نواحيه ، يَستوحش من الدنيا وزَهْرتِها[٥] ، ويَستأنِس بالليل ووَحْشته . وكان والله غزير العَبْرة[٦] ، طويلَ الفِكْرة ، يُقلِّب كَفَّه[٧] ، ويخاطب نفسه[٨] ، يُعجبه من اللباس ما قصُر[٩] ، ومن الطعام ما خَشُن . كان فينا كأحدِنا : يُجيبنا اذا سألناه ، ويُنبئُنا اذا استنبأْناه ، ونحْنُ مع تقريبه ايّانا وقُربه مِنّا ، لانكاد نكلّمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظِّم أهل الدِّين ، ويُحبّ المساكين . لا يطمَع القوىُّ فى باطله ،[١٠] ولا يَيْئس الضعيف من عَدْله . وأشهد لقد رأيتُه فى بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سُدولَه[١١] ، وغارت[١٢] نجومُه ، وقد

---

(١) أى بعد قتل على واستقامة الخلافة لمعاوية (٢) نسبة الى صداء حى من مذحج من اليمن (٣) المدى : الغاية أى بعيد النظر فى امر الدين والدنيا ، أو أن صفاته الفاضلة بعيدة على غيره لا يدركها (٤) أى قولا فاصلا بين الحق والباطل (٥) غضارتها وحسنها (٦) العبرة تحلّب الدمع أو الدمع نفسه (٧) كناية عن الاسف والندم (٨) أى يلومها ويؤنبها (٩) لما فى ذلك من طهارة الثياب والقصد فى المال (١٠) الاضافة هنا للمشاكلة أى فى باطل يجامل به القوى (١١) جمع سدل كقفل وحمل : الستر (١٢) غربت ، أى فى وقت السحر

مَثَل [١] فى مِحْرابه قابضا على لحيته يتململُ [٢] تململَ السليم [٣] ويبكى بكاءَ الحزين ؛ ويقول : ياذُنْيا غُرّى غيرِى ! أَلِى تعرضتِ ؟ أم الىّ تشوّقتِ ؟ هيهاتَ هيهاتَ قد بايِنتُك [٤] ثلاثا لا رجعةَ فيها : فعمرك قصير ، وخطرُك [٥] حقير . آهِ من قِلةِ الزاد [٦] ، وبُعْدِ السفر ، ووَحشة الطريق .

فبكى معاوية (رحمه اللهُ) وقال : رحِم الله أبا الحسَن : فلقد كان كذلك . فكيف حزنك عليه ياضِرار ؟

قال : حزنُ مَنْ ذُبح واحدها فى حِجرِها !

وصف رجل بلبيغ

ذكر خالد بن صَفوان [٧] رجلا فقال : كان والله بديعَ المنطق ؛ دَلِق [٨] الْجُرأة ، جَزْلَ [٩] الألفاظ عربىّ اللّسان ، ثابت العُقدة [١٠] ، رقيق الحواشى [١١] ، خفيفَ الشَّفتَين [١٢] بَلِيلَ الرّيق [١٣] ، رحْب

---

(١) اى وقف منتصب القامة (٢) اى لا يكاد يستقر كأن به وجعا (٣) السليم : الملدوغ كانهم تفاءلوا له بالسلامة (٤) اى طلقتك (٥) القدْر والمنزلة (٦) أى الزاد للآخرة (٧) هو أحد البلغاء وسمار الملوك وخطيب بنى منقر من تميم ، نادم الخلفاء من بنى أمية والسفاح من بنى العباس (٨) سريع (٩) الجزل من الالفاظ القوى فى معناه بحيث يصعب استعمال غيره بدله (١٠) العقدة : نفع الرجل وغناؤه وبلاغه فى الامور وكفايته فيها (١١) جمع حاشية وهى طرف الثوب وغيره ومن الرجل جنبه وظله . ومعنى رقيق الجانب والظل : خفيف الروح والطبع (١٢) أى انهما مطاوعتان له عند حركة التكلم (١٣) أى لايجف ريقه من العى والحصر . والوصفان كناية عن الفصاحة ومطاوعة الكلام

الشرف ، قليلَ الحركات ، خفيَّ الاشارات ، حُلو الشمائل [١] ، حَسَنَ الطّلاوة [٢] حَبِيًّا جَرِيًّا قئولا صَمُوتًا يُقِلُّ الحَزَّ [٣] ويُصيب المفاصل. لم يكن بالمُعَذِّر [٤] فى منطقه ، ولا الزمن [٥] فى مُروءَته ، ولا بالخَرِق [٦] فى خليقته [٧] ، متبوعاً غير تابع ، كأنّه علم فى رأسه نار [٨]

وصف فائز نصيح

دخلَ ابو دُلَف [٩] على المأمون بعد الرِّضا عنه ، فسأله عن عبدالله ابن طاهر [١٠] . فقال خلَّفتُه يا أميرَ المؤمنين أمينَ غَيْب [١١] نَصِيحَ جَيْبٍ [١٢] أسداً عاتيا قائما على بَرَاثِنِه [١٣] ، يَسْعَد به وليُّك [١٤] ، ويشقى به عَدوُّك ، رَحْبَ الفِناء لأهل طاعتِك ، ذَا بأسٍ شديدٍ لمن زاغ عن قصْد

---

(١) جمع شمال ككتاب : الطبع والخلق (٢) البهجة والقبول

(٣) من معانى الحز القطع من غير ابانة وفصل للمقطوع . ومعنى يصيب المفاصل أى يبين المقطوع . والمعنى أنه فلما يقطع ولا يبين بل اذا قطع فصل — أى انه كثير اصابة الغرض كثير الصواب فى كلامه (٤) المعذر الذى يعتذر بغير عذر مقبول ويتعلل بالاعذار (٥) الزمن المبتلى بمرض دائم

(٦) الخرق الدهش من خوف او حياء او الذى لا يحسن العمل والتصرف

(٧) طبيعته (٨) العلم الجبل : وتوضع النار فى اعلاه لهداية الناس بالليل

(٩) هو القاسم بن موسى العجلى احد الشجعان الاجواد كان من اشهر قواد المأمون والمعتصم اقام والياً وغازيا بجبال ارمينية وطبرستان دهراً ومات سنة ٢٢٦ هـ

(١٠) لأنه كان معه عند محاربته لنصر بن شبث احد الخوارج بالجزيرة. وهو عبد الله بن طاهر بن الحسين احد قواد المأمون والمعتصم وابوه طاهر فاتح بغداد وقاهر الامين . تولى عبد الله خراسان بعد ابيه طاهر ومات بمرو سنة ٢٣٠ هـ (١١) أى انه امين فى غيبته على حقوق الناس فلا يغدر ولا يغتاب

(١٢) الجيب الصدر وناصح الجيب ونصيح الجيب : خالى الصدر من الغش

(١٣) براثن الاسد مخالبه وهى له كالاصابع للانسان (١٤) اى نصيرك

مَحَجَّتِك [١] ، قد فقّهَهُ الحزْم ، وأيقظَه العَزْم ؛ فقام فى نَحْر الأمور على ساق التّشمير [٢] يُبْرِمُها بأَيْدِهِ [٣] وَكَيْدِه ، وَيَفُلُّها بِحدّه وجِدّه . وما أُشَبِّهه فى الحرب الا بقول العباس بن مِرْداس [٤] :

اكُرُّ على الكتيبة لا أُبالى أَحَتْفِى كان فيها أَمْ سِواها

فقال قائل : ما أفْصَحه على جَبَلِيّتِه [٥] ! فقال المأمون : وإن بالجَبَل لَو ما أمجاداً ، كراما أنْجاداً ، وإنهم لَيوفُّون السّيفَ حظّه يوم النِّزال ؛ والكلامَ حقّه يومَ المَقال

صفة رجل كامل

كتب الحسن بن سَهْل [٦] الى محمد بن سَماعة القاضى [٧] « أما بعد فانى احتجت لبعض امورى الى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفّةٍ ونزاهة طعْمَة ، [٨] قد هذَّبَتْهُ الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بِظَنِين [٩] فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسَبه ، ان اؤْتُمِنَ على الأسرار قام بها ، وان

---

(١) المحجة : جادة الطريق (٢) الخفة والنشاط (٣) يحكمها بقوته ودهائه (٤) احد فرسان الصحابة وشعرائهم وسيد بنى سليم وامه السيدة الخنساء الشاعرة المشهورة وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم فتح مكة وموقعة حنين . وسأل عبد الملك بن مروان جلساءه من اشجع الناس فى شعره فتكلموا فى ذلك فقال اشجع الناس العباس بن مرداس فى قوله « اكر على الكتيبة ... البيت »

(٥) اى على كثرة اقامته بارمينية وجبال طبرستان وكان اولى به ان يكون مستعجما (٦) هو وزير المأمون وابو زوجه بوران ، توفى سنة ٢٣٦ هـ (٧) كان من صدور فقهاء الحنفية ولى قضاء بغداد للمأمون وكان ثقة عابداً مات سنة ٢٣٦

(٨) نزاهة طعمة : يعنى لا يبغى الا حلال الرزق (٩) ظنين : متهم

قُلّد مُهِمًّا من الأمور أجزأ [١] فيه ، له سِنٌّ مع أدَب ولسان ، تُقعده الرَّزانة ، ويُسكِّنه الحلم ، قَدْ فُرّ [٢] عن ذكاء وَفِطْنَةٍ ، وعَضَّ على قارحة [٣] من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وتُرشده السَّكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام فى أمورهم فَحُمِد فيها ، له أناة [٤] الوزراء ، وصَوْلة الأُمراء ، وتَواضع العلماء ، وفَهْم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لايبيع نَصِيبَ يومه بحرمان غده ، يكاد يَسْتَرِق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه ، دَلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضْطَلِعا بما استُنهض [٥] مستقلاً بما حُمِّل

وقد آثرتُكَ بطلبه وحَبَوْتك بارتياده [٦] ثقةً بفضل اختيارك ومعرفةً بحسن تَأتِّيك [٧] »

فكتب اليه « انى عازم أن أرغب الى الله جل وعز حَوْلاً كاملا فى ارتياد مثل هذه الصِّفة ، وأُفرّق الرسل الثقات فى الآفاق لالتماسه . وأرجو أن يمن الله بالاجابة ، فأفوز لديك بقضاء حاجتك . والسلام »

---

(١) اجزأ فيه : قام قياماً حسنا (٢) فر عن ذكاء وفطنة . يعنى جرب فاذا هو ذو ذكاء وفطنة واصله من فر عن الدابة : اذا كشف عن اسنانها لينظر ماسنها (٣) القارحة السن التى تلى الرباعية وهى مايستحق الجمل ان يسمى بها قارحا يريد من كملت تجربته (٤) الاناة الروية (٥) عالما بمادة عمله (٦) حبوتك بارتياده : خصصتك بالبحث عنه (٧) تأتيك : ترفقك في الطلب

تربية الاعراب [١]

مِن أخبارِ الشُّجعان مَا حكاهُ الفضلُ بن يَزيد [٢] قال : نزل علينا بَنو تَغْلِبَ [٣] فى بعض السنين ، وكنت مشغوفا بأخبار العرب أن أسمَعَها وأجمَعَها

فبينما أنا أدور فى بعض آحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فِناء خِبائها وهى آخذة بيد غلام . فما رأيت مثله فى حسنه ، له ذُؤابتان كالسَّبَج [٤] المنظوم . وهى تعاتبه بلسان رَطب ، وكلام عذْب ، تَحنُّ اليه الاسماعُ ، وترتاحُ له القلوب ، وأكثرُ ما أسمَعُ منها « أى بُنَىَّ » وهو يتبسم فى وجهها ، قد غلب عليه الحياءُ والخجل ، لا يردُّ جواباً . فاستحسنتُ ما رأيتُ ، واستحليتُ ما سمعت . فدَنوت منه ، وسلمت . فردّ علىّ السلام فوقفتُ أنظرُ إليهما فقالت : يا حَضَرِىُّ ماحاجتكْ ؟ فقلتُ الاستكثار مما أسمَع ، وما أعرِف من أمر هذا الغلام . فقالت : يا حَضَرِىُّ إن شئتَ سُقتُ إليكَ مِن خبره ما هو أحسنُ من منظَره ، فقلتُ : قد شئتُ (يَرحمكِ الله) فقالت : حملْتُه والرزْق عَسِرٌ ، والعَيشُ نكِدٌ حملاً خفيفاً ، حتى مضتْ له تسعةُ أشهر ، وشاءَ الله عز وجل أنْ أضَعَهُ : فوضعْتُهُ خَلْقاً سَوِيًّا ، فوربِّك ماهو إلا أن صارَ ثالثَ أبويه حتى أفضل

---

(١) من الابشيهى فى المستطرف بتصرّف قليل (٢) هو الفضل بن يزيد الثمالى الكوفى من كبار المحدثين الثقات زمن بنى امية كان ينزل بجزيرة الفرات (٣) قبيلة كبيرة اشتهرت بالشجاعة ومنها كليب واخوه مهلهل فى الجاهلية وهذه القصة وقعت فى الاسلام (٤) الخرز الاسود

اللهُ عز وجل وأعطى، وآتى من الرزق بما كفى وأغنى. ثم أرضعته حَوْلَيْنِ كاملَيْن فلما استتمّ الرَّضاع نقلتهُ من خِرَق المهدِ إلى فِراش أبيه فرُبّى كأنه شِبل أسَد؛ أقيه بَرْد الشتاء وحرّ الهجير، حتى اذا مضتْ له خمسُ سنين أسلمتهُ الى المؤدِّب فحفَّظه القرآنَ فتلاه، وعلَّمه الشعرَ فرواه؛ ورغِب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده. فلما أن بلغ مبلغ الرجال واشتدَّ عظمُه وكمُل خَلْقه حملتُه على عِتاق الخيل فتفرَّس وتمرَّس، ولبِسَ السلاحَ ومشى بين بُيوتات الحى الخِيلاء، وأخذ فى قِرى الضيفِ وإطعام الطعام وأنا عليه وَجِلة أشفِقُ عليه من العيون أن تُصيبه فاتفق أن نزلنا بمَنهَلٍ من المناهل بين أحياء العرَب فخرجَ فتيانُ الحى فى طلب ثأرٍ لهم وشاءَ الله تعالى أن أصابتْه وَعْكةٌ [1] شغلتْه عن الخروج. حتى إذا أمعن القومُ ولم يَبق فى الحى غيره، ونحن آمِنون وادعون فما هو إلاّ أن أدبرَ الليلُ وأسفرَ الصباحُ حتى طلعتْ علينا غُرر الجِياد وطلائع العدوّ، وما هى الا هُنَيْهةٌ حتى أحرزوا الأموالَ دون أهلها، وهو يسألنى عنِ الصوت، وأنا أستُرُ عليه الخبر، إشفاقا عليه وضَنًّا به. حتى اذا علتِ الاصوات، وبرَزتِ المخدَّرات، رَمَى دِثارَه، وثارَ كما يثورُ الأسد، وأمرَ بإسراج فرسه، ولبِس لأْمة [2] حَرْبه، وأخذ رمحه بيده، ولحِق حُماةَ القوم، فطعَن أدناهم منه، فرمَى به ولحِق أبعدهم عنه فقتله. فانصرَفتْ وجوه الفُرسان اليه، فرأوْه صبيا صغيرا لا مَدَدَ وراءه

---

(١) الوعكة: أذى الحمى ووجعها (٢) اللأمة: الدرع

فحملوا عليه. فأقبل يؤمّ البيوتَ ؛ ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة ، حتى إذا مدّهم وراءه ، وامتدوا فى أثره عطف عليهم ، ففرّق شملهم ، وشتّتَ جمعهم ، وقلّل كثرتهم ، ومزّقهم كلّ ممزّق ، ومرق كما يمرُق السهم . وناداهم خلّوا عن المال ! فوالله لارجعتُ إلا به أو لأهلكنّ دونه ! فانصرفتْ اليه الأقران ، وتمايلتْ نحوه الفُرسان ، وتميزتْ له الفتيان ، وحملوا عليه ، وقد رفعوا اليه الأسنّة ، وعطفوا عليه بالأعنّة ، فوثَبَ عليهم ، وهو يهدُر كما يهدر الفحل من الأبل ، وجعل لايحمِل على ناحية إلا حطمها ، ولا كتيبة إلا مزّقها ؛ حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ثم ساق المال وأقبلَ به . فكبّر القومُ عند رؤيته ، وفرِح الناس بسلامته . فوالله ما رأينا قط يوما كان أسمحَ صباحاً ، وأحسن رواحاً ، مِن ذلك اليوم . ولقد سمعته يقول فى وجوه فتيات الحىّ هذه الأبيات :

تأمّلْنَ فعلِى هلْ رأيْتُنّ مثلَه ؟ اذا حشرجتْ[1] نفسُ الجبان من الكَربِ
وضاقت عليه الارضُ حتى كأنه مِن الخوف مسلوبُ العزيمة والقلبِ
ألم أعْطِ كُلاًّ حقّه ونصيبه من السَّمْهَرِىّ اللّدْن والمرهَفِ العضْبِ ؟
أنا ابنُ أبى هندِ بن قيس بن مالكٍ سَليل المعالى والمكارِم والسَّيْبِ[2]
أبى لى أنْ أُعْطَى الظُّلامة[3] مرهَفٌ وطِرْفٌ[4] قوىُّ الظهر والجوف والجنب
وعزمٌ صحيحٌ لو ضربت بحده الْـ جبالَ الرَّواسِى لانحططن الى التُّربِ

(١) أى ترددت فى الحلق وأوشك أن تفارق الجسد (٢) السيب : العطاء والمعروف (٣) أى أن يظلمنى غيرى (٤) فرس

وعِرضٌ نقيٌّ أتّقي أنْ أُعيبَهُ ، وبيتٌ شريفٌ في ذُرَا تغلبَ الغُلْبِ [١]
فان لم أُقاتِلْ دونكنّ ، وأحتمي لَكُنّ ، وأحميكنّ بالطعْن والضرب
فلا صدَقَ اللاتي مَشَيْنَ الى أبي يُهَنِّئْنَهُ بالفارس البَطَلِ النَّدْبِ [٢]

مكة المكرمة

هي حَرَم الله ، ومنزِل إسماعيل ، ومَوطِن قُرَيش ، ومولِد النبي ﷺ ، ومطلَع فجْر الإسلام ، ومُؤْتَمّ الحجيج

ولها أسماء كثيرة : منها بَكّة ، وأُمّ القُرَى ، والبلدُ الأمين

وتُعتبَرُ مكة من تِهامة على مَبدإ المِنطقة الحارّة من الشّمال . وهي في بطْن وادٍ ضيق مُنحدِر من الشمال الشرقيّ الى الجَنوب الغربيّ بين جبالٍ شاهقة تتضامّ على الوادي من أعلاه وأسفله حتى تصير كسُور سامق [٣] حَصين لا يُسلَك منه إلى المدينة إلاّ من ثلاثة شِعاب [٤] : هنّ أبواب مكة . وأشهرُ هذه الجبال : أبو قُبَيْس من الشّرْق ، وأجيادُ من الجنوب الشرقيّ ، وقُعَيْقِعانُ من الغرب ، والفَلَق من الشمال الغربي

وتَنحصِر الرياح بين هذه الجبال ؛ فتجري في مَهَبٍّ ما ، فلا تلبَث أن تَصُدّها الجبال المُتعَطِّفة ، فتدُور وتلتوي وتعُود أدراجَها . من أجْلِ

---

(١) جمع أغلب أو غلباء من الغلب (بفتح اللام) وهو غلظ العنق توصف به السادة الشجعان وتغلب تسمى (الغلباء) (٢) كانت العرب اذا ولد لاحدهم غلام هنئوه بقولهم « يهنئك الفارس » والندب الخفيف في الامور الظريف النجيب
(٣) مرتفع (٤) جمع شعب كحمل : الطريق في الجبل

ذلك كانت أرجاء مكة فى ساعة واحدة أغراضا لمختلف رياح تكون حارّة فى النهار ، أكثرَ فصول السنة طيبة فى الليل ، وأطيبها الدَّبور [١] ، ثم الشَّمْأَل

وقلما يجودُ الغَيْث [٢] هذا الوادى ، غيرَ أنه يصيرُ فى بعض السنين مجرَى سيول عظيمة تَتَحاَبّ [٣] إليه من الجبال والبِطاح التى أعلاه ، فتُضِرّ بأهله أكثرَ مِمّا تنفعهم

والمستفيض من أمر مكة أنها كانت قبل إبراهيم (عليه السلام) وادياً قَفْراً تسلُكه العالقة وعشائر جُرْهُم الثانية عند ارتيادها مَساقط الغَيْث . فلما أنزل إبراهيم ولده إسماعيل (عليهما السلام) وأمّه هَاجَرَ بَطْنَ هـذا الوادى لم يكن ثَمَّ زَرْعٌ ولا حِواءٌ [٤] ، فيسَّرَ الله لهما نَبْع زمزم . واجتازت بهما رُوَّاد جُرْهُم وقُطوراءَ ، فاستأذنوا أن يكونوا لهما جيرة . فأَذِنا ، وأصْهَرَ [٥] إسماعيل إلى جُرْهُم

وكان إبراهيم يَقدَم لزيارة ابنه من الشام كلَّ عدّة سنين ، فلما كانت أخرى قَدماته عليه أمَره الله تعالى أن يَبْنِيَ بيتا لِعبادته وَحْدَه فى البُقعة المباركة التى يَنزلها إسماعيل . فَبنىَ بمعُونة ابنه الكَعْبة ، وجعَل حَوْل وَاديها حَرَما آمنا لا يُعْدَى على نازله ، ولا يَحِلُّ صَيْده ، ولا يُقطَع شَجَره ولا عُشْبه . وأَذّنَ فى الناس بالحجِّ الى البيت والطَّواف به ، وقضاء المناسك فى شعائره . فأتَوْه رِجالا وعلَى كلّ ضامِر [٦] ؛ حتى إذا فَشَتْ

---

(١) الريح الغربية (٢) الغيث : المطر (٣) تسيل اليه من هنا وها هنا
(٤) الحواء جماعة البيوت المتدانية (٥) أى تزوج منهم وصار صهرا لهم
(٦) أى جمل ضامر

بَيْنَهم دَعوته ، وانتشرتْ مِلَّتُه استخلفَ ابنَه على البيت . وأرسله الله رسولا إلى قبائل العرَب ، فبقِيَ يدعُو إلى الله فيهم حتى قُبِضَ ، ودُفِن بجانب أُمّه هاجَر بجوار الكعبة . ولبِثَتْ ذُرِّيته ينزِلون مع أخوالهم من جرهم حَوْل البيت فى المَضارب والخيام ، ويقومون بأمره . فغَلَبهم بعضُ جيرانهم من العمالقة عَلَيْه دَهراً وجدَّدُوا بِناءَ الكعبة . ثم إن ولد إسماعيل وأخوالَهم استنقذوه منهم ، وصارت رياسة الولاية والحكم لِجُرْهُم وسِدانة البيت لبنى إسماعيل ، ثم استبدَّتْ جرهم بالجميع ، وجدَّدت بناءَ الكعبة . وتفرَّق بنو إسماعيل فى بَسيط الجزيرة ، وتشعَّبوا قبائلَ وعشائرَ وبقِيَتْ بعض قبائلهم بمكة جيرةً لجرهم . فطغتْ جرهم وبغَتْ ، وغيَّرت وبدَّلَتْ فى مِلّة إبراهيم ، وذهَب منهم عمرو بن لُحَيّ إلى الشام والروم فرأى بأصنام نَصبَها فى الكعبة ، ودَعا إلى عبادتها شُفعاءَ مِن دُون الله فَفشت عبادتها فى العرَب ، ونسِيَتْ مِلّة إبراهيم إلا أكثرَ مَناسِك الحج فبعَث الله خُزاعة من القَحْطانِيّين على جرهم ، فأجلتها عن الحرَم ، وتفرقوا فى القبائل ، فبادوا وانقرضوا . واستولت خزاعة على البيت حتى نشأ قبيلة قُرَيْش فى جِوارهم ، ونبُهَ من بينهم قُصَىّ بنُ كِلاب جدّ النبى (عليه الصلاة والسلام) وكان ذَكِىّ الفُؤاد ، سديد الرأى ، فعمِل على استخلاص ميراث أجداده من خزاعة ، فاحتال حتى اشترى مَفاتيح الكعبة من أبى غَبْشان الخُزاعى سادِنِها ، فغَضِبَتْ خُزاعة ، وهمّت بقريش . فوحّدَ قُصَىٌّ كَلِمتهم ، وجمَعَهم تحتَ لِوائه ، فهزم بهم خُزاعة وأجلاها عن الحرَم . ثم كان لبعض العرَب ميزة إجازةِ الحجّ من

الموقف بعرفة ، فاستردها قُصَيّ ، فتم لقريش بذلك الزعامة الدينية على العرب والسلطة السياسية على الحرم على يد رجلها العظيم قُصَيّ بن كلاب . وشرع من ذلك الحين يوطد أركان هذه الزعامة وتلك الرياسة بتمصير مدينة تلم شعث قومه ، وتحفظ عليهم حريتهم وأموالهم ، فأنشأ دار الندوة(١) بقرب الكعبة لتكون داراً للحكم بينهم ، ومجمعاً قومياً للتشاور فى أمور الحرب والصلح والتجارة مع الممالك المجاورة لهم ، ونحو ذلك من الأمور ذوات البال ، فكانت هذه الدار أول بناء بمكة بعد الكعبة . وهبّت قريش تبتنى المنازل حتى ملأت الوادى ، وكانت منها مدينة مكة التى صارت سوقاً لمتاجر الشمال والجنوب علاوة على مزيتها الدينية . وعظم أمر قريش ، وتشعبت عدة بطون : من أشهرها بنو هاشم وبنو أمية . وجاء الاسلام وسيد بنى هاشم أبو طالب بن عبد المطلب عم النبى (ﷺ) ، وسيد بنى أمية أبو سفيان صخر بن حرب

فلما بعث الله رسوله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم للناس بشيراً ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، استجاب له قليل من أهل مكة . ونفست عليه سائر قريش اختصاصه بزعامة الدين . وخشيت أن يجلب عليها عداوة العرب فتبور تجارتها ، وربما انتزعت الخرم من أيديها ، فناصبته العداء ، وآذته بضروب الأذى . فأمره الله وأصحابه بالهجرة إلى أنصارهم بالمدينة . فهاجر هو وصاحبه أبو بكر الصديق ، ولحق به أصحابه تباعاً . ثم عاد بعد ثمانى سنين

(١) من معانى الندوة الاستشارة والجماعة يتشاورون

بجيش عظيم، ففتح مكة وكسّر الأصنام ودخلت مكة فى دين الله. وولّى عليها عتّاب بن أسيد. وصارت ولاية تابعة للمدينة مدة رسول الله والخلفاء من بعده حتى زمن يزيد بن معاوية. فامتنع عبد الله بن الزبير بمكة عن بيعته، ودعا الى نفسه خليفةً. وتبعه أهل المدينة وبلاد العرب والعراق ومصر الى زمن عبد الملك بن مروان، فبعث عليه جيشا يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى. فحاصر مكة ورمى الكعبة بالمنجنيق، وفتح مكة وقتل ابن الزبير. فرجعت مكة ولايةً تابعةً لدمشق زمن بنى أمية، ثم تابعةً لبغداد دهرا من زمن الدولة العباسية، حتى اذا فتحت الدولة الفاطمية مصر — سنة ٣٥٩ هـ — وحضر المعزّ لدين الله القاهرة، استولى الشريف جعفر بن محمد من ذرية الحسن بن على (كرّم الله وجهه) ودعا للمعزّ، فولاّه أميراً على مكة من قبله على أن تكون طعمةً له ولذريته، فبقيت الإمارة فى عقبه زمن الفاطميين، ثم عادت الدعوة بمكة للعباسيين، فأقرّوا الأشراف على الامارة، وكذلك عاملتهم دولتا المماليك بمصر، ثم الدولة العثمانية الى عصرنا هذا. فلمّا دارت رحى الحرب العظمى بين أكثر ممالك الارض استقلّ بالحجاز آخر أمير منهم؛ ولُقّب بملك الحجاز، وهو الآن الشريف الملك حسين بن على

أما أهل مكة السابقون من قريش فقد هاجر أكثرهم من مكة للغزاة ولولاية الممالك المفتتحة؛ إذ كانوا هم أهل البلاء والنجدة فى الفتح والدفاع عن الاسلام لمكانهم من الخلافة وقرابتهم من رسول الله، فكانوا أحقّ بولاية الاحكام. ولكن أنسابهم هضمت فى أمم الاعاجم التى

استبدّت بالأمر دونهم على تراخى الزّمان ،ولم يحتفظ بنسبه إلا بعض العلويين والبكريين والعمريين

وأشهر البيوتات الباقية من قريش بمكة بيت الملك من السادة الأشراف الحسنيين ،وبيت حجابة الكعبة من الشيبيين من بنى عبد الدار

ويبلغ سكان مكة الآن نحو ١٥٠ ألفاً أكثرهم من الغرباء الذين جاوروا حرم الله زهادة ولياذاً به من حكم الظالمين؛ فآلت اليهم تجارة مكة. وجلهم من البخاريين والهنود والجاويين ، ولذلك كانت خصائصهم فى لهجتهم وأخلاقهم وعاداتهم وأزيائهم مزيجا من خصائص أممهم . وكل سكان مكة مسلمون ، فلا يؤذن لغير مسلم بتعدى جدة إلا متنكراً

والحجاج هم موارد الرزق لعامة أهل مكة من ملاك وتجار ومطوفين وحجبة ومكرى مطايا

وليس فى مكة مادة للتجارة ولا للعمارة . ولكن الله تعالى مكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنه . فالحبوب والقطانى تجلب اليهم من مصر والهند ، والثياب من الهند واليمن وأوربة والطنافس والأنماط من فارس والهند ، والمرجان الأحمر والأسود (اليسر) من بحر القلزم ، والعطور من الهند واليمن ، والخضر والفاكهة من الطائف وبطن مر

وجميع وادى مكة مكتظ بالمنازل الضيقة الذرع الكثيرة الطباق والنوافذ ، العديمة الباحات ، خلا بعض بيوت الاشراف والمتمولين

وأطيبها مسكناً ما كان على سُفوح الجبال ، وخاصة جبل أجياد ، محلّة الأغنياء والعظماء وأهل الدّولة

والمدينة ضيّقة الشوارع والدُّروب المتزوِّرة يمنةً ويسرة ، وليس بها رحاب ولا ميادين ولعلّ فى سعة المسجد الحرام خلفاً عنها

وآثار مكة الدينية كثيرة : ففيها غير شعائر الحج دارُ مولد النبى ﷺ (دار أبيه عبد الله) ، ومولد على رضى الله عنه (دارُ ابى طالب) ، ودار أم المؤمنين خديجة ومسكن النبى ، ومولد فاطمة ، ودار الأرقم مصدرُ الاسلام حيثُ كان يجتمع رسولُ الله والمسلمون الأولون فى نحو أربعين رجلا حتى إذا انضمّ اليهم حمزة وعمر (رضى الله عنهما) خرجوا منها جهاراً يكبّرون ويهلّلون ، حتى دخلوا المسجد الحرام (وتُسمَّى الآن دارَ الخيزُران سُمِّيَتْ كذلك باسم أمّ الرشيد لتجديدها اياها)

وسُقيا أهل مكة من زمزم وبعض الآبار والصهاريج التى تُملأ من الامطار والعيون . وأهمها مُرْتفقاً لهم عين السيدة زُبيدة زوج الرشيد (رحمها الله) أجرتها لهم من أعلى حُنين مستمِدّة فى مجراها من عيون أخرى ومارّة بعرفة وهابطةً الى مكة فى أربع قنوات تجرى تحت الارض بموارد يردها السقاءون

وبشمالىّ مكة الغربى « المعلاة » جبّانتها ، بها كثير من قبور الصحابة والتابعين وآل النبى ﷺ ومن أشهرها قبر أم المؤمنين خديجة زوج رسول الله وقبر السيدة آمنة امه وقبر عبد المطلب جده وأبى طالب عمه وغيرها

الكعبة المشرفة في المسجد الحرام بمكة

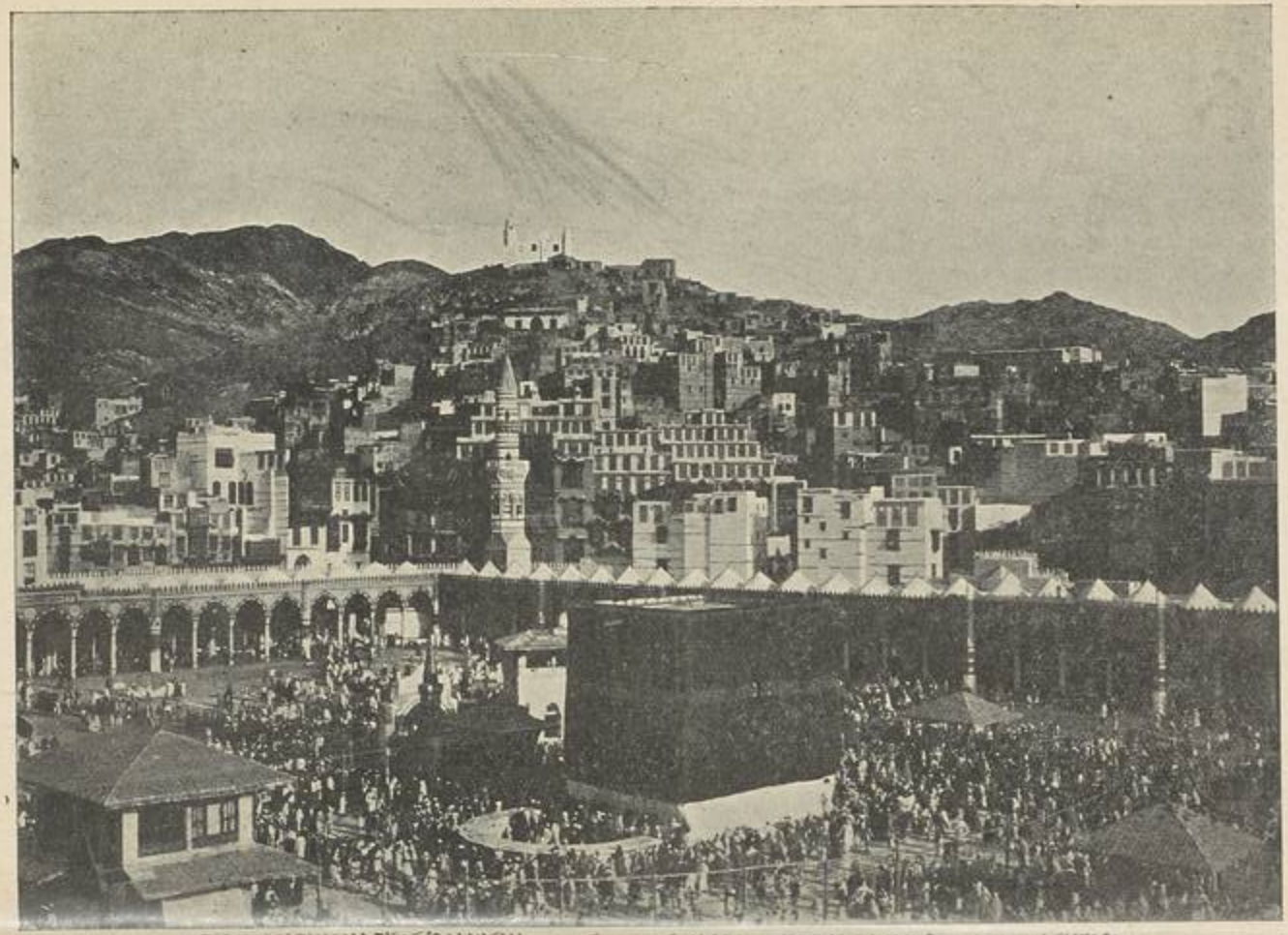

الكعبة المشرفة

لما أمر الله أن يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ (عليهما السلام) قاما بأمر الله وبنيا البيت بلا سقف. وبقيت سدانته بيد ولد إسماعيل حتى غلبتهم عليها جرهم. وسلّط الله عليهم العمالقة فغلبوهم عليها وجددوا بناءها. ثم استردتها جرهم. وجددت بناءها مرة أخرى. وعظم أمر الكعبة بين العرب والتبابعة والأكاسرة؛ فأهدوا إليها الكسى والنفائس من الحلى والسيوف والتماثيل من الذهب والفضة؛ فكانت تحفظ في جبٍّ في جوفها. وكان أول من كسا الكعبة أسعد تبع الحميري: كساها البرود والوصائل اليمانية. ثم غلبت خزاعة على الكعبة حتى استخلصتها منهم قريش على يد قصي بن كلاب، وجدد بناءها، وسقفها بخشب الدوم والنخل. ثم تهدمت بعد حين، فبنتها قريش من خاصة مالها قبيل الاسلام، والنبيّ (ﷺ) لم يبعث بعدُ، وشهد بناءها معهم. وانكسرت سفينة لرجل روميّ على ساحل جدة، فاشتروا خشبها لسقف. وقصرت بهم النفقة عن أن يبنوها على قواعد إسماعيل؛ فقصروا من طولها ثمانية أذرع وشبراً[1] فبعد أن كانت قاعدتها مستطيلة الشكل صارت مربعة إلا قليلا. وأداروا وراء ما تركوا من أصلها حائطا قصيرا كقوس منحنية طرفاها على سمتِ ركنى البيت الشمالىّ والغربى يطوف الناس من ورائه وتفصل بينه وبين البيت فرجتان، وهذا الحائط يسمى الحطيم، وطوله ذراع فرنسية

(١) اذا أطلقت الذراع كانت المعتادة وهى كالذراع البلدية

والفضاء الذى داخله هو المسمَّى بحجْر إسماعيل . وكان لها مِن قَبْلُ بابان مُتصلان بالارض ، فاكتفَوْا بباب واحد ، ورفعوه عن الأرض بقدْر قامة لِئلاَّ تدخُلَها السيول ، ولِيمنَعوا مَن أرادُوا منْعه مِن دخولها . ولمَّا بلَغُوا بالبناء مَوْضِع الرُّكْن وهو الحَجر الاسود المحفوظ فى الرُّكْن الشَّرقىّ أثراً مُباركاً مِن عهْد إبراهيم أبى المسلمين اختصمتْ بُطون قُريش أيُّها يلِى وَضْع الحجر فينفرد بالشرف . ثم اتفقوا على أن يُحكِّموا أوَّل داخل عليهم من باب بنى شَيْبة . فاتفق أن طلَع عليهم منه النبى (ﷺ) فقالوا : هذا الأمين رَضِينا حُكْمه . فقال : هَلُمَّ إلىَّ ثَوْباً . فأتَوْه به . فوضَع الحجرَ بيده الشريفة فيه . وقال : لِتأخذْ كلُّ قبيلة بِطَرف ، ثم ارفَعُوا جميعاً . ففعلوا . وأخذَه هو الحجرَ بيده ، ووضَعَه مَكانَه ، وبَنى عليه . وأتمّتْ قريش بناءَ البيت ثمانى عشرة ذراعا . وكَسَتْها هى وقبائل العرب بمختلف الثياب . ثم لما فتَح رسول الله مكة كَسّر الأصنام التى عليها ، ومَحا التصاوير مِن داخلها ، وكساها الثياب اليمانِيَة : ولم يَتعرض لذخائرها . واتبَع خُلفاؤه سُنَّته فى امرها . ولما كانت فِتنة ابن الزبير ، وامتنع عن بَيْعة يزيد بن معاوية ودعا لنفسه ، حاصَرَتْه جيوش يزيد ، ورمَت عليه بالنيران ، ثم بلغهم مَوْت صاحبهم يزيد ، فرجَعُوا . وكان ابن الزبير يَرْوِى عن عائشة أم المؤمنين زَوْج النبى أنه ﷺ قال لها لولا قَوْمُك حَديثُو عهد بكفر لرددْت البيت على قواعد إبراهيم ولجعلت له بابين شرقيا وغربيا»[1] فأتى

(١) روى هذا الحديث بوجوه مختلفة العبارة ، وهذه رواية ابن خلدون فى مقدمته

بعشرة من كبار الصحابة سمعوا من عائشة (رضى الله عنها) هذا القول، وهدم الكعبة، وبناها مستطيلة بحجارة زرقاء صلبة على قواعد إبراهيم، وبلغ بها فى العلو سبعا وعشرين ذراعا، وجعل لها بابين متصلين بالأرض شرقيا وغربيا وصفحهما وأساطينها التى فى جوفها بالذهب، واتخذ مفاتيحها من ذهب

ثم بعث عبد الملك جيشا على ابن الزبير، فحاصر مكة، ورمى البيت بالمنجنيق، ثم فتح مكة وقتل ابن الزبير، واقتطع من الكعبة الزيادة التى زادها على بناء قريش مكان حجر إسماعيل، وبنى حائطا جديدا على أساس قريش، وسد الباب الغربى وأبقى الشرقى، ورفع عتبته عن الارض كما كانت زمن رسول الله، وجعل لها ميزابا من النحاس يصب فى حجر إسماعيل. فجميع بنائها الآن من عمل ابن الزبير إلا جدارها الشمالى وإلا سد الباب الغربى وتعلية عتبة الشرقى بحيث يصعد إليه بمدرج متحرك هو الآن من الخشب المصفح بالفضة، وإلا ما كان من تجديد السلطان سليمان لسقفها سنة ٩٦٠ وبعض ترميم فى جدرها زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ والسلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٩ (١)

وما زال الخلفاء يرعون فى خدمتها وكسوتها سنة رسول الله فيها حتى كانت فتنة الأفطس وهو الحسن بن الحسين بن على بن على زين

---

(١) وقاعدة الكعبة شكل مستطيل يقرب من المربع المنتظم واضلاعه مختلفة الطول قليلا، فالجانب الغربى طوله ٩٨/١٢ ذراعا فرنسية والشرقى ٥١/١٢ والقبلى ٤٥/١١ والبحرى ٨٢/١٠

العابدين سنة تسع وتسعين ومائه حين غلب على مكة خارجا على الدولة العباسية فإنه عمد إلى الكعبة فأخذ ما فى خزائنها ، وقال : ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا يُنتفَع به ؛ نحن أحقّ به نستعين به على حَرْبنا ؛ وأخرجه وتصرّف فيه ، وبَطَلَتْ الذخيرة من الكعبة من يومئذ دهرا طويلا ، ثم جُدِّدَتْ بإهداء سلاطين العثمانيين وغيرهم اليها

ولما انتشرت فتن القرامطة ببلاد العرب أوقعوا بقوافل الحجيج مرارا ؛ ودخلوا مكة ؛ وقتلوا أهلها ؛ وانتزعوا الحجر الأسود ، وأخذوه معهم إلى بلادهم بجهة البحرين . وبقى عندهم حتى أمرهم الخليفة الفاطمى بمصر بردّه ، فردوه بعد بذل كثير من المال . وقالوا : أخذناه بمشيئة الله ، ورددناه بمشيئة الله . فوُضِعَ مكانه ، وأُحيط بإطار من الفضة . ولونه أسودُ أحْوَى (إلى الصفرة والحمرة قليلا) بيضى الشكل ، قطره نحو ثلاثين عُشراً [1]

وسَقْفُ الكعبة محمولٌ على جُدُرها وعلى عُقود مقامة على ثلاث أساطين من العُود القاقُلّى . ويُصعَد إلى سطحها بسُلَّم في الزاوية الشمالية التى على يمين الداخل

ولملوك الإسلام كثير من آثار الترميم والترخيم والتذهيب فى داخلها . وكُتبتْ تواريخ ذلك على جُدُرها داخلها

وكانتْ كُسوة الكعبة تختلف باختلاف العصور من الثياب البيض والصُّفر والمخططة ، وتُكسَى مرّتين أو ثلاثا فى السنة حتى استقرّ الأمر

(١) أى عشر الذراع الفرنسية (ديسي متر)

على كسوتها بالديباج الأسود شعار العباسيين ، فلما ضعفت دولة العباسيين صارت تُرسَل مرة من ملوك اليمن واخرى من ملوك مصر حتى استقرت فى ملوك مصر ووقفوا عليها اوقافا ولا تزال ترسل من مصر الى الآن . وكُسيت من الداخل بالديباج الوردى والكسوة التى عليها الآن من الداخل أهداها إليها السلطان عبد العزيز العثمانى

المسجد الحرام

أو

الحرَم المكّى

كان المَسْجِد الحَرام مُنذ عَهْد إبراهيم (عليه السلام) الى خِلافة عُمَر ابن الخطاب (رضى الله عنه) فضاءً بَراحاً حَوْل الكعبة فيهِ بِئْر زَمْزَم والمَقام . وليس عليه سُور إلا ما يُحدِق به من المنازل وأنْواهِ الدُّروب التى من أشهرها بابُ شَيْبة . فَوسَّعه عُمَر وعُثمان وابنُ الزُّبَيْر ، ثم زادَه الوليد بن عبد الملك زِيادة عظيمة ، وأقام حَوْله أرْوِقة مَسْقُوفة بالخَشَب على عَمَد من الرُّخام . ثم أصلح فيه أبو جعفر المنصور بئر زَمزم ، وعَمَّقها وَجعَل لها بيتا مسقوفا ، وشادَ مَنارة باب العُمرة . ثم عمَّره المَهدىُّ ابنُه عِمارة فَخْمه زادت ذَرْعه ، وأكثرتْ من أروقته وعَمَده ، وجعَلَتْ جوانبَه الأربعة مستقيمة ، وأقام به مَنارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحَزْورة . وفى زمن المُعتَضد العباسىّ تَهدَّمتْ دارُ النَّدْوة ،

وكانتْ داخلَ الحرم ينزلُها الخلفاء والملوك ، فبناها مَسْجِداً (ثم جُعِلَتْ بَعْدُ مُصلًّى لِلحَنَفِيّة) وأقام بالمسجد منارة باب الزيادة . ثم رَمَّمَهُ ملوك مصر ، ومنهم قايتْباى ، وأقام به مَنارة تُعرَف بِاسمه . وآخر تجديد له هو العِمارة العظيمة التى أمر بها السلطان سليم الثانى ، وجعلته على الحالة التى هو عليها الآن . ويشتمل بها الحرم على أربعة أروقة حَوْل صحن تقوم على ٣١١ عَموداً من الرُّخام يَتخلّلها ٢٤٤ دِعامة مبنية من الحجر الأحمر ، واكثر العَمَد والدِّعَم مَطْلِيّةٌ بالمَرْمَر مسقوفة بدَل الخشب بقِباب مَعْقودة تنحدر عنها الأمطار على أمثلة المساجد العثمانية كما يشاهد بمسجد السيدة صَفِية بالداودية من القاهرة

و شَكل المسجد من الداخل مستطيل منتظم فى الجُملة مُستقيم الأضلاع ؛ فطول جنبه الشمالى ١٦٤ ذراعاً فرنسية والجنوبى ١٦٦ والشرقى ١٠٨ والغربى ١٠٩

ويشتمل الحرم :

أولاً ـ على أربعة أرْوِقة بعَدَد جوانبه مُطيفة بصَحْنه

وثانياً ـ على صَحْنٍ فسيح مكشوف الى السماء مُحَصَّب بحصباء دقيقة تخترقه طُرُقات مُبَلّطة بالحجارة تنتهى الى مَدارِ المصلّيات

وثالثا ـ على مُصلّيات أربعة : أوّلها مُصلّى الحنفية من الشّمال ، وأصله دار النّدْوَة أدخلها الخلفاء فى المسجد ، وكانوا ينزلونها عند حَجّهم ، ثم تداعت للسُّقوط زَمَنَ المعتضد العباسى ، فأمر بَهَدْمِها وبنائِها مسجدا . ثم جُدِّدَتْ طَبَقَتَيْنِ جُعِلَتْ السُّفْلَى مُصلًّى للحنفية والعُلْيا للمُبَلِّغين .

وثانيها مُصلَّى المالكية. وهو عَرِيشٌ مقام على أربعة أعمدة فى الجهة الغربية. وثالثها مُصلَّى الحَنْبلية من الجنوب، وهو عريش كسابقه. أما مصلى الشافعية فهو بجوار المقام أو بينه وبَيْن الكعبة

ورابعا — على بِئْر زمزم، وهى من عهد هَاجَر وإسماعيل، ثم غاضت على طَوالِ الدهر، وطُمَّتْ، فحفرها عبدُ المُطَّلِب، وأصلحها الخُلفاء؛ فعمّقها ووسَّعها وَطواها وجَعل فوقها بيتا الخليفة أبو جعفر المنصور. ثم مازالت مَوضع عناية السلاطين والاشراف ووجهاء المسلمين الى وقتنا هذا

وخامسا — على باب شَيْبة، وهو عَلَم على حَدّ المسجد أى البراح الذى كان زمن رسول الله. وشكله الآنَ حائط يَنْفُذه باب عالٍ بجوار زمزم

وسادسا — على المِنبر وأوّل من اتّخذهُ مُعَاوية مِن الخشَب، وجُدِّدَ مِرارا حتى بناه السلطان سليمان من الرُّخام، وهو بَاق الى عهدنا

وسابعا — على المَطاف، وهو مُستدِير بَيْضىُّ الشكلُ طول قطرِه الأكبر ٥١ ذراعا فرنسية والاصغر ٤٠ ذراعا فرنسية. وعلى حدوده أعمدة مُوَصِّلة رُءوسها بعوارض يُعلَّق فيها المصابيح. وفى وَسَط المَطاف الكعبة المُشَرَّفة والحطيم، وهو حائط عريض بارتفاع ذراع ف، يحيط بحجر إسماعيل على سَمْت رُكْنَى الجِدار الشَّمَالى من الكعبة يفصل بينه وبين البيت فرجتان، وأرض الحِجر وجُدران الحَطِيم مُرَخَّمة. وبجوار الكعبة مما يلى جدارها الشرقى بيت فيه المقام، وهو قبة صغيرة مقامة على اربعة أعمدة داخلها حجر أسمر به آثار قدَمَيْنِ غائصتَيْن فيه تمثلان قدَمَىْ إبراهيم (عليه السلام)

وللمسجد الحرام اثنان وعشرون بابا : منها ما له مدخلٌ واحد ، ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة . وبمجموع مداخلها ٣٩ مَدْخَلا : منها باب النبى وباب السلام من الشرق ، ويُفْتَحانِ الى شارع المَسعى بَيْن الصفَّا والمَرْوَة ، وباب الزيادة من الشَّمال ، وباب الوداع ، وباب إبراهيم من الغرب ، وباب الصفا من الجنوب

نبالة راع

حديث المقرى وراعى غنم

روى أحمد بن يوسف فى كتابه المكافأة قال : حدثنى أبو حبيب المُقرى . قال : ضاقت أحوالى فلم يَبقَ لى إلا جاريةٌ ، ومنزل أسكُنه . فبعتُ المنزل بألف دينار ، وخرجتُ الى مكة بالجارية ، فقلت لها : يكون هذا المالُ فى وسطك . فكانت إذا نزلتْ فى منزل حفرتْ فى خَيْمتها حَفيرة وأودعتها المَال وطمَّتها . فاذا نودى بالرحيل أثارته وشدَّته فى وسطها

قال : فاتفق أن رحلْنا عن منهَل و نَسيتِ المالَ فى الحفرة ، فأخبرتنى الجارية بذلك . قال : فحار فكرى وطاش رُوحى ولم أدر ما أعمَل . ودخلْنا مكةَ فحدثتْنى نفسى ببَيْعها فلم يُطِعنى قلبى . فلمّا رجعْنا ونزلنا بالمنْهل الذى خلَّفتْ فيه الكيسَ رأيتُ صحراءَ وغلاماً على رابية يرعى غُنيمات له وأقبلتُ أدور وأنظر إلى الأرض . فقال لى : ويحك ! ما تطلُب ؟ قلتُ : شيئاً أودعتُه أرضَ هذا المنهَل . فقال لى : صِفه لِى . قلتُ : كيس

أحمرُ فيه مال . فقال : وما لِيَ فيه إن دللتُك عليه ؟ قلتُ : نصفُه . قال : ها هو ذاك فى الرابية . فلما رأى تحيُّرى فيه قام حتى أخرجه ووضعه بين يدىّ ، فحمدْتُ الله وقسمت الكيسَ قسمين ، وخيرته أحدَهما . فقالَ لى : إنى أرى قِسْمِى منه كثيراً ، وأنا أكتفى بنصف أحدِ القسمين . فقسمتُه قسْمين . فقال : تقسِمه أيضاً قسمين ، ففعلتُ . فقال : ما أعجب أمرَك . أترُكه كلَّهُ حراما ونصفَه حلالاً وآخذ منه شيئاً ؟ هذا ما لا يكون ! انصرف بمالِك . فقلت له : يا غلام أنت حرٌّ أو مملوك ؟ فقال: مملوكٌ . فقلت : لمن ؟ فقال : لشيخ هذا الحىّ

فدخلتُ الحىّ فألفيتُ الشيخَ والناس عنده ، فقلتُ له : رأيتُ غلاماً فى المنهل يرعى غُنَيمات ، وأسألك أن تبيعنيه . فقال : اشتريته بعشرة دنانير . فقلتُ : أنا آخذه بعشرين . فقالَ : وإن لم أبِعْه . قلتُ : أعطيك به ثلاثين ديناراً . فقال لمن حوله : أمَا تسمَعون ما يقول ! وما يحملك على أن تبذُل به هذا الثمن ؟ فقلت : جمَعَ علىَّ ضالةً ، فقدّرتُ أن أعتِقه وأبتاع الغنم التى يرعاها له ، وأُملِّكه إياها . فقال : قدّرتَ أن تفعل به هذا الفَعْلة واحدة من الجميل أوْلاَ كها ، ولنا فى كل يوم منذ ملكناه حسنةٌ تقتضى أكثرَ ما تؤتيه . وأنا أُشهِد الجماعةَ أنه حرٌّ لوجه الله ، وأن ما يرعاه له . فانصرَفتُ عن الشيخ وقد بلغ لى ما أمَّلتُه له

جلال مجلس القاضى

تنازع إبراهيمُ بن المهدى [١] وابن بُخْتيَشوع الطبيب [٢] بين يدَىْ أحمد بن أبى دُوَاد [٣] فى مجلس الحُكْم فى عَقار بناحية السّواد ، فأربى عليه إبراهيم وأغلظ له . فأحْفَظَ [٤] ذلك ابن أبى دُوَاد . فقال : يا إبراهيم إذا نازعت فى مجلس الحكم بحضرتنا امرأ فلا أعلمَنَّ أنك رفعتَ عليه صوتاً ، ولا أشرتَ بيد ، وليكنْ قصدُك أمَماً [٥] ، وريحُك ساكنةً ، وكلامُك معتدلاً ، ووَفِّ مجالس الخليفة حقوقَها من التعظيم والتوقير والاستكانة والتوجه الى الواجب ؛ فانَّ ذلك أشْكَلُ بك [٦] ، وأشمَلُ لمذهبك فى مَحْتِدِك [٧] وعظيم خَطَرك [٨] . ولا تَعجلَنَّ فربَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثاً [٩]

---

(١) هو ابراهيم بن المهدى العباسى بن المنصور . خلع أهل بغداد المأمون عند ما بايع علىّ بن موسى الرضى العلوى بالخلافة واخرجها عن العباسيين وجعل مقر خلافته مرو بخراسان ، وبايعوا ابراهيم هذا . فجاء المأمون الى بغداد وخذل أهلها ابراهيم فهرب . ثم عثر عليه وعفا عنه المأمون وصار من جلسائه وندمائه ، وكذلك بقى زمن المعتصم . وكان من أعلم أهل زمانه بالموسيقى والغناء ومن فحول البلغاء والأدباء . وتوفى سنة ٢٢٤ هـ (٢) هو جبريل بن بختيشوع أمهر الاطباء زمن الرشيد والامين والمأمون ، وكان نصرانياً وكذا ابوه وأولاده وأحفاده أطباء . مات فى سنة ٢١٣ هـ (٣) هو القاضى أبو عبد الله أحمد بن أبى داود الايادى من قبيلة اياد أحد أجواد العرب وعدولهم وأشد عظماء زمانه نبالة وعصبية للعرب . وهو امام من أئمة المعتزلة تولى قضاء القضاة للمأمون والمعتصم والواثق وتوفى سنة ٢٣٣ (٤) أحفظه أغضبه فاحتفظ أى غضب (٥) أى بينا (٦) أى أشبه (٧) أى أصلك وطبعك (٨) خطر الرجل قدره ومنزلته (٩) أى بطئاً ، راث يريث ريثاً : أبطأ

والله يعصمك من خطل [١] ، القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم

فقال إبراهيم : أصلحك الله تعالى أمرت بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست عائداً لما يثلم [٢] مروءتى عندك ، ويسقطنى من عينك ، ويخرجنى من مقدار الواجب الى الاعتذار . فهأنذا معتذر اليك من هذه البادرة [٣] اعتذار مقر بذنبه ، معترف بجرمه . ولا يزال الغضب يستفزنى بموادّه ، فيردنى مثلك بحلمه . وتلك عادة الله عندك وعندنا منك . وقد جعلت حقى من هذا العقار لابن بختيشوع . فليت ذلك يكون وافياً بأرش [٤] الجناية عليه . ولم يتلف مال أفاد موعظة . وحسبنا الله ونعم الوكيل !

السمك

إذا كان الماء هو ينبوع الحياة ومهد الحيوان كما قال تعالى « وجعلنا من الماء كل شىء حى » فلا عجب أن يكون ما أودع البحر من الحيوان بالاضافة الى ما أودع البر منه أضعافا مضاعفة فى العدد والنوع . وما من بهيمة أو حشرة أو هامة أو دودة فى البر إلا ولها نظير فى البحر ، حتى الطير فإن من دوابه ما يطير . ثم فيه وراء ذلك من عجائب المخلوقات وغرائب الأحياء وبدائع صنع الله ما تحار فيه العقول ، وتضل القرائح والفهوم

---

(١) خطل فى منطقه ورأيه خطلا : أخطأ (٢) يخل بمروءتى ويكسر من حدشرفى
(٣) السقطة عند الغضب والحدة (٤) الارش دية الجراحات وهو ما يغرمه الجانى للمجنى عليه من المال (التعويض)

ولقد اعتاد الانسان أن يترخّصَ [١] لنفسه فيدعو كلّ ما يَسبَح في الماء سَمَكا ، ولكن فِطْرة السمك التى فطَره الله عليها من تنفُّسه فى الماء بخياشيمه وتكاثر نوعه من سَرْئه [٢] يجعل بعض سوابح البِحار من غير أُمّة السمك : مما يتنفّس برئتَيْه في جوّ الهواء ، ويتكاثر بالوِلادة ، ويَربو برَضاع الألبان ، مثل الحيتان [٣]

وإنما دعا الانسان الى الترخُّص فى تسمية سوابح الماء سمكا أن السمك أشهر أنواع الحيوان المائىّ ، وأطيبه طعاما له

والسمك يقِف من مَدارج الرُّقىّ الحيَوىّ على أدْنَى مَرْتَبة الحيوان الفقرِىّ ؛ فله هَيْكل عَظْمى وجُمْجُمة ودِماغ ونُخاع شَوْكىّ يَنسلِك فى قَناة الصُّلْب الفِقْرية وأطراف أربعة لايعدوها وعَضَل يكسو العظام لَحْما وحَواسّ قائمة فى الرأس ودَمٌ أحمر وإن لم يَكُن حارّا

وقد جعل الله خَلْق السمك صالحا لِعَيْشه فى الماء ، فكانت كَثافة جسمه مُعادلة فى الجملة لكثافة الماء ؛ فلا يُضْطَرّ أن يَطفُو على سَطْحه كالأجسام الخفيفةِ الكثافة ، ولا أن يَرْسُب كالأجسام الثَّقيلَتها ، وكان له من شَكْله وطبيعة قِوامه وملاسة بَدَنه أيُّما عَوْن على النَّجاء [٤] والمُروق فى الماء ؛ إذ يستدِقّ فى شُكوله طَرَفاه : الخُرْطوم والذنب ، ويَستغلِظ

---

(١) أى يتساهل ولا يستقصى فى الأمر (٢) السرء بالفتح والضم : بيض السمك والجراد ونحوهما (٣) وهي أنواع : منها البال ويسمى الوال أيضاً والدّلفين (٤) السرعة والخلوص

وسطه لتخفّ عليه مدافعة الماء عند إرادة الانبعاث فيه والتقلّص منه . وعلى هذا المثال وهذه الخاصة ابتُدِعَتْ أشكال سُفُن الماء ومُنْطادات الهواء. كما اتّخِذتْ المجاديف مُحاكية لزعانفه واصطُنِع سُكّان السفينة والطيّارة على مِثال ذَنَبه

ومِقدار الهواء الذي يَستروِحه السمك لحِفظ حياته قليل ، إذْ يقوم بذلك مايَستنشقه من الهواء الذائب فى الماء . ومن ثمّ كانت دَوْرَة دَمِه بطيئة وحرَكة تنفُّسه فى الماء لا يُشْعَر بها، وحرارة بدنه فاترة، وقوة حَيويّته أفشل[1] من قوّة الحيوان الثَّدْيِيّ والطيور . وكذلك كان حِسُّه وشُعوره واحتياجه ، فخُلِقَتْ آلات إدراكه وحواسّه ضعيفة قليلة الوظائف ، وليس له من مَطالب الحياة سِوى الأكل ودَفْع الاعداء وتكثير النَّوع ، على قلة عِناية وكثرة بَلاهة فى ذلك جميعاً ؛ فهو من أقلّ الحيوان تمتّعاً باللذّات والرغائب . ولهذا كان دِماغه غاية فى الصِّغَر بالإضافة الى جسمه فى كثير من انواعه ، وكانت حواسه مُهَيَّأة لقبول تأثيرات الإبصار والشمّ والذَّوق واللمس على وجه ضعيف

نعم إن بعض أنواع السمك يُساهِم الحيوان الراقى فى الاحتيال لدَفع مَكايد أعدائه وتدبير خُطَط الهُجوم والدِّفاع إلا أنه قليل، وأكثر وسائل دِفاعه فطرية فيه مُلْهَمَة

وأتم حواسّه عملا الشمُّ ، ومكانه المَنْخِران إلا أن الهواءَ والماءَ العامِلَيْن فى حركة التنفس لا يَمرّان فيهما لأنهما غير نافذين الى الفم

(١) أضعف

ومن السمك ذو المَنْخرَيْن وذو المَنْخر الواحد كما فى كَلب البحر

وعَيْنَا السمك مختلِفتان حجما ووَضْعا ، وهما الى جانبى الرأس فى الغالب ، وقد تكونان فى أعلاه او تكونان الى جهة واحدة منه . وهما جامدتان مُحملقتان جاحظتان لهما قَرْنيَّتان شفَّافتان مُفَاطَحتان جدًّا ، والرُّطوبة المائية قليلة فيهما ، ولهما بَأُورَتان كُريَّتان صُلبتان ، وليس لهما أجفان متحرِّكة ولا غُدَد دَمْعية : لِمَعيشته فى ظُلمة وسُكون

وأكثر السمك لايقوَى على التصويت

وليس لِأُذُنَيْهِ صِوانان ظاهران ولا غِشاء طَبْلِيٌّ ؛ فهو لا يسمَع إلا الأصوات الغَريبة أو القوية . ويَقوَى السمع فى بعضه ويَتنوع ؛ فيَأْلَف الداجِنُ كلمات خاصة يدعوه بها مُرَبُّوه ، فإذا ذُكِرَت جاء ليقتات بما يُلقَى إليه . وعوَّده بعضهم صوت الأجراس ، فاذا صَلصَلَت اجتمع إليها

وخَلْق السمك صُوَر شَتَّى غيرَ أنّه فى جميعها عديم العُنُق ، وفى كثير منها مُندَغِم [1] العَسِيب فيتَّصِلُ رأْسه وذَنَبه بِجذْعه جُملةً ، وربما كان الذَنَب فى بعض الأنواع متميِّزاً من الجسم : إمّا مستديراً كاذناب دَوابِّ البرِّ ، وإمّا مستعرِضا منبَسِط الحِفافَيْن [2] أو قائم الصَّفْحتين ورأسه فى أكثر أنواعه صغير بالاضافة الى سائر جسمه مُصفَّح [3] ،

---

(١) مختف . والعسيب عظم الذنب (٢) الطرفين (٣) الرأس المصفح المضغوط صدغاه المطمئن جانباه

وقد يضخُم عن سائر بدنه ؛ وقد يكون أكبس [١] مُكوَّراً أو مُسْلَنْطِحاً [٢] مستعرِضا . ومنه ذو الخُرطوم وذو المِنْقار والأفْقَم [٣] والأكْثَمُ [٤] . ولأكثر السمك أسنانٌ فى فكّيه ، وإنما يَستعمِلُها للنهْشِ والالتقام لا للمضغ لأن أكثره يَزدَرِد طعامه ازدراداً

ولسانه صغير صُلْب متّصل بفكّه الأسفل ، وربما كان لِشفتيه خَمَل وهَدَب دُودى [٥] حساس

وجِلْدُ السمكِ إمّا ناعم أملس أو مُغَشًّى بحراشف صغيرة . والحراشف أنواع : فقد تصغُر حتى تكون كحبوب خَشِنة كما فى كاب البحر ، وقد تكبر فتكون فُلوساً وفصوصاً صغيرة كما فى أكثر أنواع السمك . وقد تكون دِرْعا مُصَفّحة

ويمتد على كلّ من جانِبَىِ السمكة من الرأس الى قُبَيل الذَّنب خط يُدعى الخط الجانبىّ مؤلف من ثقوب أو مَسامّ تنضَح السوائل الغِراوية التى تُغَشّى جسمها وتُسهِّل انزلاقها فى الماء . وفى رأس السمكة وبقية بدنها ثقوب كثيرة وأنابيب أخرى يدخل منها الماء ، وتخرُج منها الفُضول

وللسمك دَوْرة دَمَوِيّة قليلة التشعُّب ، وقلب ينبِض بالدم ، مكانُه فَجْوةُ ما تحت الحُلقوم ، يفصِله عن البَطْن حجاب حاجز ، وتقيه العظامُ البُلعومية من أعلاه والخيشومان اللذان يقومان مَقام الرِّئتين . ولهذا

---

(١) مستدير (٢) مفلطح القفا (٣) البارز الفك الأعلى (٤) ضد الافقم ، والمرجع الصحيح فيهما كتاب المخصص (٥) أى يستطيل وينقبض

القلب أذَيْنة واحدة وبُطين واحد ، ويَصلُح الدّم فيه بالتنفُّس ، ويقوم مَقام الرئتين جَهاز الخياشيم . وهو وُرَيقات هُدْبيّة مَرْصوفة على أقواس مُلتصقة بعظم الرأس ، وكلُّ وريقة مُكوَّنة من عِدة صفائح مُغَشاة بأوعية دموية لا تحصى عدَداً آتية من القلب ، وهى التى تمتص ما فى الهواء من المُزْكى [1] ، ولذلك يكون السمك الطرِىء الحديث العهد بالبحر أحمر الخياشيم ، لأنَّ دِماءه لم تَعفَن بَعْدُ ، فيرْبدّ لونها وتخبُث رِيحها . وهذا الجهاز التنفسيّ متصل بالفم ، فيدخل الماء من الفم ممتزجا بالهواء ، فتستخلص الخياشيم ماينفعُها من هواء ذلك الماء ، ثم يخرج الماء بعد ذلك من شِقَّين متَّسعين إلى جانِبَى الرأس تُطبِق عليهما صفيحتان متحركتان تَضغَطان الماء فيخرُج منه بقوّة تُعين السمك على السَّيْر

وإذْ كان ما يُعوِز السمك من المُزْكى قليلا ، وكانتْ خياشيمه لا تُؤدّى عملها إلاَّ بتطرُّئتها بالماء ، كان خروجه منه إلى الهواء مُفْضيا إلى جَفّه لتجفيف هواء الجوّ خياشيمَه ، فتتعطَّل وظائفها ويختنِق ، وبذلك يُعلَم أن الانفَ فى السمك ليس من متممات جهاز النفس كما فى أكثر الحيوان

والسمك أنواع يبلُغ عِدَّتها بِضْعَةَ عَشَرَ ألفا ، منها نحو ستة آلاف معروفة الصفات ، فمنه أكلة العُشب ، وهى أقله ، ومنه أكلة اللحم ، ويأكل بعض أنواعها الآخر ، بل قد يأكل بعض النوع الواحد بعضه كما يأكل حَشَرات البحر ودِيدانه . وهو شره نَهِم يلتهم طعامه بانقضاض ورعونة

(١) سمينا به (الأكسجين) وعلة التسمية مبينة فى الجزء الأول من هذا الكتاب

تُلقيان به إلى التَّهْلُكة واُنتشاب صنانير الصيد ببلاعيمه . ومن أهوله فى ذلك وأخبثه كلب البحر ، ومنه ما يعيش على اُمتصاص الرطوبة من غيره حيواناً أو نباتاً بحلمات فى فمه تعمل عمل المِضَخَّة

وقناته الهضمية قصيرة تمتدّ تارةً على اُستطالة واحدة بلا تعريج ، فيسُر حينئذ تمييزُ المَعِدَة من الأمعاء . وتارةً تلتوى وتتحوَّى ، ويكثُر أن يكون منها معىً غليظ ومعىً دقيق والهضم فيها سريع ، ولبعض السمك قانصة كالطيور تَطحَنُ ما صَلُب من غذائه

ويعيش السمك فى الأعماق القريبة من سطح الماء ، وأكثره لا يعيش فى عُمق يزيد على مائة وعشرين قامة لصُعوبة نفوذ النور اليه ولشدة ثِقَل الماء عليه . وهو يتحمل البَرْد الشديد

ويَسبَح السمك بجملة وسائل : منها تكافُؤ كثافة جسمه وكثافة الماء ، فلا يعود بعد ذلك محتاجا إلا الى ما يدفعُه إلى الأنحاء المختلفة وتنظيم توجُّهه بإرادته ، وتقوم بهذه الوظيفة زعانفُه الأربع التى هى له بمثابة مجاديف السفينة ، وأغطيةُ خياشيمه التى تضغَط الماءَ إلى خَلفُ فتدفعُه قُدُما ، ويقوم ذَنَبه وتَلَوِّى عَضَله بتوجيهه الى حيث يشاء

أمّا تصعيده وتصويبه وطَفوه ورسوبه فبمثابة الطَّفْو الهوائية الممتدة فى جَوْفه تحت الصُّلْب ، فتنقبض وتنبسط بحَسَب إرادة الحيوان ؛ فإذا أراد الصُّعود ملأها هواءً مُستَخْلصا إياه من خلال الماء ، خفَّ جسمه بالهواء وارتفع ، وإذا أراد الهُوِىّ أفرغ منها الهواء ، فغاص ورسَب .

وتكون هذه المثانة وتراً أو شفعاً. وهى فى بعض الحيوان أظهر منها فى الآخر، وقد تُعين الحيوان على حركته زِعنفة ظهره، فتكون منه بمنزلة القِلْع من السفينة

وأكثر السمك سريع فى سباحته وحركته: يقطع أوسطه عشرات الأَمْيال فى الساعة. وقد يُساير السُّفن ساعاتٍ وأياماً، وله فى ذلك أحوال

حكى صاحب كتاب عجائب الهند، وهو الناخُذاةُ بُزُرْكُ بنُ شَهْرِيارَ أنّ رُبّانا حدّثه قال: إنّ سمكةً سارتْ مع مَرْكَبه بنواحى اليَمن يوما وليلتين وبعضَ يوم، ولم تُفارقْه، ولم تتقدّم عنه ولم تتأخر. فقدّر مَسيرَهم معها بما يَزيد على سبعين ومائة فَرْسخ، وانها كانت بطول المركب سواء وكان طول مركَبه خمسين ذِراعا بذِراع العمل من الإبط الى طرَف الأصبع الوُسْطَى. فسألتهُ عن السبب فى ملازمة دوابّ البحر الجَرْىَ مع المراكب و محاذاتها قال: ذلك يختلف: فمنها ما يُحاذى المراكب لِيسقُط منها شىء فتلقَمه، أو تكون قد وقعتْ قبلَ ذلك على مَركَب قد عَطِب فنالتْ منه؛ فصارت إذا رأت مَركبا حاذتْه طمَعاً أن يَحدُث منه ما حدَث من غيره وظنّا منها أن المراكب كلها تكون كما وجَدتْ عليه الأول؛ فصارتْ ضارية على ذلك. ومنها ما يَرَى المركبَ فيعجَب من شَكْله، ويظنّه حيواناً بعضهُ فى الماء وبعضهُ فى الهواء، فيمرَح معه ويُجاريه عِشقاً له وتأنُّسا به مُدةَ مَدَى قُوّته واستفراغ نَشاطه إلى أن يَعْيا فيُفارِقه، ولا صَبرَ للحيوان على مُضاهاة الجماد، ومنها ما يُجارِى

المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة ، فاذا عيي وقصّر وراى المركب يتقدمه رجع اليه فحمل عليه حملة واحدة ، فإن سلم وإلا نسأل الله السلامة . ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها وبينه شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب ، فتحمل عليه حملات حتى تقلبه ، فتلتقط ما فيه . ومنها ما إذا رأى المركب يقرب منه هرب وذعر خوفا على نفسه واستيحاشا منه .

وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة ، والبحار المنقطعة المهجورة ، وعمق البحار وعدم البر والجزائر والسواحل . وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين اه

وأكثر السمك يحفظ نوعه بطريقة البيض والحضانة ؛ ففى زمن الشتاء يقرب من الشواطىء والأعشاب لدفئها فيفرخ فيها . ولذلك تكثر أنواعه قرب الشواطىء ، ويزداد صيده فى هذا الفصل

والأنثى منه تبيض مئات الألوف من السمك فى فجوة أو بين عشب أو بجانب صخرة ؛ فيبث الفحل لقاحه على البيض فتلقح كما تلقح النخل ؛ ويترك ينقف ويربو ويعيش من غير عناية به ولا حضانة ؛ وبعضه يلفحه ، ثم يزاول حضانته ؛ فاذا نقف السمك تبعت الأنقاف أباها مديدة ، ثم استقلت بمعيشتها

والسمك من أكثر الأحياء نموا ، ولولا أن بعضه يأكل بعضا لامتلأت به مياه البحار والأنهار

ومن السمك ما يَعيش وُحدَانا ، وأكثره يعيش قطْعانا ، ومنه ما يقطن وطنًا واحداً لا يُفارقه ، ومنه القواطع المهاجرة التى تَصيف بصُقعْ وتشتو بآخر

ومنه الطيَّار ذو الأَجنحة كأجنحة الخفافيش ، وهو لا يلْبَث فى الهواء طويلا لئلا تُجفِّف حرارة الشمس بَداوة أجنحته . وغاية طيرانه بضْع مئات من الأَذرُع الفرنسية . وعلة طيرانه فوق الماء هَربُه من أعدائه ولكن الأَعداءَ له بالمرصاد ، إذ يترصَّده فى الجوّ كثير من الطير فتتخطَّفه . وقد تبلغ كبراه فى الطُّول نحو قدَم أو تزيد . وللملاّحين فيه خُرافة يتملّحون بها ، هى فى جُمْلتها مَثَلٌ وموعظة . وهى أن هذه الطائفة من السمك بَطِرت مَعيشتَها وودَّتْ لو تُحلِّق فى الهواء ، فتشاهد عجائب الدنيا ، وتنجو من وجه العدوّ الذى يُطاردها فى الماء . وسألتْ ربّها أن يُبلغَها هذه الأُمنيّة . فاستجاب لها وأمدَّها بأجنحة تطير بها . فأعجبها ذلك ونجَتْ من كيد أعدائها ، فتاهت على سائر نوعها مدة وازْدَرَتْ ماسواها من سوابح الماء ، ولكن هذه المِيزة كانت مَتاعا قليلاً ، فلم يكد يشتهِرُ أمرها بين جوارح الطير حتى وقفْنَ لها بالمرصاد ، فاذا شاهدْنها طائرة انقضضنَ عليها فكانت معهُن كالمستجير من الرَّمْضاء بالنار

ومن أعجب السمك النوع المُولِّد للكهرَباء المُسمى بالرَّعّاد . وفى نيل مصر نَوع منه يُسمَّى القِطَّ لشبهه به ، وهو أملَس أرقط الى السُّمرة ، مفلطَح الرأس يطُول الى ذِراع فرنسية ، ويكثر فى بُحيرات إفريقية ، وفى حديقة السمك بالجزيرة الوُسطى أمام بُلاق نوع منه

وكهربائيّة السمك قُوّة مُنبَعِثة مِن أعصابه ما دام حيّا ، فاذا مات بطَلَتْ. وهى كهربائية حقيقية تُصير الحديد مَغْنَطِيسا ، وتحِلّ المُركَّبات الكيميائية وتقدَح الشرارة الكهربائية ، وتصرَع الإنسان اذا كان نوع حيوانها قويّا

سمك الرّعاد النيلى

ومكان هذه القوّة تامور [1] كهربائىّ مُؤلّف من جُملة أنابيب وصفائح تنتشر فى عامّة جسم الحيوان كما فى رَعّاد النيل ، وقد يكون عند رأسه أو عند ذنبه ، ويستعمل الحيوان هذه الكهربائية فى الدِّفاع عن نفسه وفى اقتناص فريسته

ومن السمك ما يسكنُ المِياه المِلْحة ، ومنه ما يسكنُ الأنهار والبحيرات العذبة . وقلما يعيش فى المياه المرّة . فسُبْحان خالِقه العظيم !

(١) وضعناها لما يسمى فى العرف (بَطّارية)

المال

نقصد بالمال كلّ ما سدّ حاجة بنفسه أو ببدله . وحاجاتنا الكفيلة بحفظ حياتنا مُسخَّرة [١] لنا فى الأرض التى جعلها الله لنا ذلولا : نمشى فى مناكبها [٢] فنصيب منها رزقا حسنا ، ونتخذ لباسا وسكنا . وما خوّلناه [٣] من هذه النعم هى الاموال التى جعلها لنا قياما ، ولصلاحنا لزاما ، غير أنّ هذه النعم لم تكن ميسورة فى كل مكان ، ولا موفورة عند كل أمة ، بل خلقت متنثرة على وجه الارض تتنثر شعوبها وقبائلها ؛ فقد يوجد منها عند قبيل ما لا يوجد عند غيره ؛ فاضطرّ الناس إلى المقايضة بالعروض [٤] ، والمبادلة بالأعمال والمواضعة على تقويم كليهما بأحد النقدين [٥] لسهولة التعامل بهما وخفة حملهما ، وأصبحا بذلك عيارا للمال وكفيئا [٦] للمنافع . وصار ملء خزانة من الذهب يقوّم به ملء مئات من خزائن الثياب وأهراء [٧] الطعام وحظائر الدواب والأنعام ؛ فسهل على الناس ادّخار المال ، وتمكّن من نفوسهم حبّ الذهب والافتتان به ؛ حتى ذهب بعقول كثير منهم ، فنسوا الغرض الذى اتخذ من أجله وكنزوه ، ولم يستعملوه ، ولولا الاستعمال ما أريد المال ولكن الشرائع والقوانين والآداب والعادات جعلت له حدودا ولاستعماله

---

(١) مسهلة مذللة (٢) جوانبها (٣) أعطاناه (٤) جمع عرض مثل رأس . وهو المتاع المقوّم (٥) الذهب والفضة (٦) مثيلا (٧) جمع هرى كقفل : مخزن للحبوب

وُجوهها ولإمساكه قُيوداً ، فنحن نُريد المال لخصال شريفة : إن قَصَّرنا في إرادته لها حاقَ بنا الدَّمار (١) ، و لحقَنا الذُّل والعار

ان الاصل في إرادة المال أن يسُدَّ خَلّة (٢) النفس والأهل والوَلَد من طَعام ولِباس وسَكَن وعيْش في أَمْنٍ وعافية ، فإنْ لم يكن في مَسْعاةِ ربِّ الأُسْرة سِداد لها من عَوَز (٣) وبَلاغ (٤) من ضَرورة فإلى شَرِّ ما تصير ؛ إذ العُدْم يُذهِب النفس ، ويُذهِل العَقل ، ويُضْوى (٥) الجِسْم ؛ ويُفسد الخُلُق ، ويُشِتّ الشَّمْل . ولا يُقيم على هذا الجَهْد ممَّن يُطيق دفعه إلاّ مَن فسدت نحيزته (٦) ، ووَكَسَتْ (٧) قيمتهُ عن قِيمة النَّحْلة الدَّءوب أو النَّمْلة الكَسُوب

والقناعة بشَظَفِ العيش (٨) كانت تكون محمودةً لو بقِي الانسان مُتَبدِّياً مُسْتَنفِرا لا يتعامل بالنقود كما كان في جاهليّته الأولى ، أو كما يَعيش الهَمَج في مجاهل إفريقية وأمريكا وجزائر المحيط الأعظم ؛ لأن قُنيته من الصيد والداجن كانت عرضة لغائلة الضوارى وعادية الغُزاة ومصادرة الظلمة . وربما كانت الزَّهادة أيضا مقبولة من الحكماء والعباد والمُتبَتِّلين (٩) الى الله ، لانهم أفذاذ أُشرِبُوا في قلوبهم إيثارَ الآجلة على العاجلة ، فانصرفوا عن عَضارة (١٠) الحياة وزِبْرِج (١١) الدنيا ، وتناسَوا أنهم من أهلها فلم يقصِدُوا الى عمَل فيها غير عبادة رَبِّهم وتَذكير غيرهم بعاقبةِ أمرهم .

---

(١) أحاط ونزل (٢) حاجة (٣) حاجة (٤) كفاية (٥) يهزل
(٦) طبيعته (٧) نقصت (٨) شظف العيش شدته وخشونته (٩) المنقطعين الى عبادة الله عن الناس (١٠) الغضارة : النعمة والسعة (١١) الزينة

وحكمة الله تعالى تقتضى ألاَّ يخلُو العالَم من آحاد من هؤلاء موعظةً لعُبَّاد المال وذكرى لعبيدِ اللذات !

ولكنَّ للحياة الاجتماعية وراءَ إمساك الرَّمَق مطالب شريفةً ومقاصد نبيلةً لا تطيب بهجة الحياة إلا بها، ولا يلتئم شَمْل الأُسرة بدونها، ولا يَسلم شرف الأمة بغيرها، ولا ترسَخ قَدَم الدين والنظام إلا عليها، فاذا كَسَبنا المالَ من أجلها وادَّخرناه لتحقيقها، كان سَعْينا مَشكوراً، وعِرْضنا مَوْفوراً

أنلوم كريماً تسكُن بَيْن جنْبَيْه نفسٌ طَموحٌ عاقها نَحْس البيئة وفَقْر الوالدين عن تكميلها وتَنْويلها إرْبتَها اذا هو ادَّخَر المال يقتنى به كُتُبًا، أو يستعين على دَرْس حقيقة أو يُعِدُّه رأساً لتجارة شريفة أو لنَشْر صناعة جميلة .أو نلوم كاسبَ أسْرة إن أثَّل مالاً أو اعتقد (١) عقاراً لنِسْوة أرامل أو ذُرِّيَّة ضعاف يخاف عليهم الهوانَ والضياع اذا عاجلَه العَجْز واختضرته (٢) شَعُوبُ، أو نلوم شاباً بَعيد النَّظَر رأى أنَّ الدَّهْرَ بالناس قُلَّب (٣) وأن بَرْق الأمانىِّ خُلَّب (٤) فاقتصد فى شَبابه وصِحّته لأيام عُطْلته وشَيْخُوخته وإزْمان عاهته

أو نلوم رجلا آتاه الله سَعَةً من المال فهو يُنفق منه فى تنعيم بالِه وترْفيه العَيْش على عِياله، ينزِل القصورَ، ويَمْتَطى الفارِهَ (٥)، ويتروّح

---

(١) ملك واقتنى (٢) جزّته خضرا، وشعوب علم على المنية مؤنثة ـ والمعنى أن الموت يعاجله ويأخذه شاباً غضاً فتياً (٣) متقلب (٤) خداع يوهم أنه ذو مطر وليس به (٥) الفتىّ القوى المليح من الدواب

على سوابق السيَّارات ، ومواخر السفن ، ويُطوِّف الممالكَ ، ويستطلع طِلَعَ الشُّعوب مُتوخِّياً القَصْد ، مُتنزِّها عن مواطن الرِّيَب ، ثمّ هو بَعْدُ يُؤَدِّي منه حقّ الخالق والمخلوق ، ويُواسي الصديق ويُغيث الملهوف ، ويُعين على العلم وينصُر الفضيلة ، ويُمِدّ الدولة عند الشدّة . لا جَرم أن مثلَ هذا قد قابَلَ نِعْمة الله عليه بالشُّكْران ، واستمتع بما أُحلّ له في القرآن من قوله تعالى « قُلْ مَنْ حرَّم زِينَةَ اللهِ التي أخْرَجَ لعبادِه والطَّيِّبات منَ الرِّزْق » وقوله « وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نَصيبَكَ منَ الدُّنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليْكَ »

اذاً فكَسْب المال لهذه المقاصد واستِعْماله في هذه الوجوه عمَل فاضل ، والتهاوُن فيه عَجْز شائن . والأُمّة التي يكثر فيها الفقراء ، مَقْضِيٌّ عليها بالبلاء ، وتجرُّع غُصَص اللأْواء [1] ، لِفقدانها المالَ مادَّةَ العَيش وحِرْزَ السَّلامة من آفات الدنيا ؛ إذ لا جيوشَ ، ولا طيَّارات ، ولا أساطيل ، ولا غوَّاصات ، ولا أسلحة ، ولا حُصون ، ولا عِلْم ، ولا تِجارة ، ولا صناعة ، ولا زِراعة ، ولا أَمْن ، ولا عافية ، إلا بالمال الذي ما زال ولَنْ يَزال قِوامَ الممالك في حَرْبها وسَلْمها

ولقد كان لِرسول الله (ﷺ) مِن مال ابي بكر وعثمان وعبد الرحمن ابن عَوْف في تجهيز الغزوات وتفريج الكُرُبات عن المسلمين مَدَد لا يقِلّ

---

(١) الشدة

عن قواضب السيوف وصوارد [١] النبال . وقد علمتنا الحرب العظمى ماذا يكفل المالُ من حُسْن المآل

ومن أُوتِيَ المالَ فاستعمله فى الباطل وأنفقه فى غير محمدة لنفسه ولا مبرَّة لقومه ، فهو مِنَ المُبَذِّرين المُسْرفين الذين يتعجَّلون الفاقة ، ويستبطئون البَلْوَى ، ويملُّون النِّعْمَة ويَسْتَعْقبون الحَسْرة ، وهم فى التبذير صنوف ، وفى الإسراف ضروب :

فمن المُبَذِّرين أغرارُ الشُّبَّان الفُقَراء ، من المتعلِّمين وكتبة الدواوين مِمَّنْ يتشبَّهون بالأغنياء وخُلَعاء المُتْرَفين ، فيُنْفقون نصفَ دَخْلهم فى الاستكثار من الحُلَل والحلى ، ونصفه الآخر على مشارب القهوة وملاهى التمثيل والخيالة والاستلقاء فى العجلات والسيارات بلا إعياء ولا عجز ولا أىِّ سبب سوى التباهى والتظاهُر بأنهم من أبناء النِّعم ، والله يعلم أنهم كلٌّ على آبائهم فى تدْبير القُوت والمأوى . ولو عقلوا أن لا دَوامَ لعائلهم ، ولا ضمانَ لوظائفهم ، وأنّ الشَّبابَ ظلٌّ زائل ، والحياةَ سائقٌ حثيث الى العجْز والشيخوخة ، لأعدُّوا لريب الزمان العُدَّة ، واقتدُوا بأولئك الرُّؤساء والعظماء من الاجانب الذين لا يُخالفُون [٢] بَيْنَ أكثرَ من حُلَّتَيْنِ أو ثلاثٍ من حُلَل الشِّتاء أو الصَّيْف ، ويغدُون ويروحون ناهِبين الأرْض بأقدامهم ، مُتَسَرْبلين بخشِن أثوابهم

ومن المُبَذِّرين أعيانُ الرِّيف وأرْباب الضِّياع وورثة الأغنياء الذين

---

(١) جمع صارد وهو السهم الصائب (٢) يغايرون ويبادلون

اذا أخصبت سنتهم ، ووفرت غلتهم ، وربحت سوقهم هبوا ينفقون أموالهم فى تجديد الزوجات، واقتناء السيارات ، وهجر القرى واستيطان الحواضر، والعكوف على اللذات ، وإقامة الولائم للحكام، والاختلاف إلى ملاهى الوطن ومصايف أوربة ، فاذا أخلفتهم السنون ، أو كسدت السوق ضجوا وولولوا واتهموا تارة الدولة بالاستهانة بأمرهم، وقلة توفير الترف عليهم . وتارة المقادير بتخييب آمالهم وحرمانهم ثمرة ما ملكت أيديهم ، ثم لا يجدون فى رءوسهم رأيا أسد ، ولا حيلة أبقى على بذخهم (١) وصلفهم (٢) من رهن عقارهم أو بيع بعض قنياتهم

وشر من هؤلاء المستهينين بالمال المبددين لشمل الثروة قوم آخرون أعماهم حب المال ، فجمعوه من حل وغير حل ، وقتروا على أنفسهم وعيالهم ، وبخلوا عن حقوق الله وعباده ، وأصبحوا من خوف الفقر فى فقر ، فعاشوا فى الدنيا مجهودين محدودين (٣) ممقوتين مبغضين من أبنائهم وعشيرتهم ، ثم خرجوا منها غير مأسوف عليهم تاركين خزائنهم لغيرهم ، حاملين أوزارهم على ظهورهم

إذا عرفت أيها القارئ خير المال وشره ، ونفعه وضره فكن أنت ممن يطلبه ليستعين به على مروءته ويصون به كرامة نفسه ويسترفده (٤) عند عجزه ، ثم يواسى به عشيرته . واطلبه ثم أطلبه مادمت قادراً على كسبه . ولا تحتقر فى جلبه أى عمل مباح ، فلا أحقر من

---

(١) البذخ : التكبر والتعالى (٣) الصلف : مجاوزة قدر الظرف والتكبر والعجب (٣) محرومين أشقياء (٤) يستمنحه ويستعين به

الفارغ مِنَ العمَل ، المُتَطَلِّع لما فى يَدِ غيره . واعلَمْ أنه لا يُجدى عليك العَمل ما لم تَقتصِدْ فى معيشتك ، ويَنْقُص خَرْجك عن دَخْلِك ، فادَّخِرْ فَضْلَ الدَّخل على الخرج لِوَقْت الشِدّة عامِلا على تَرْبيته فى وُجُوه الربح الشريفة . وحُطْه بحَزْمِك وصُنْه بقوةِ عزيمتك حياطَتَك نَفْسَك وصيانتك أهلك . ولا تُقْدِمْ على عَمَل يستنفِدُ كلَّ ثَرْوتك . ولا تُقْرِض ولا تَسْتَقرض إلا للضرورة القصوى واستيقانك من الأداء والاستيفاء . ولا شىءَ أضمَنُ للثروة من مُزاولة الاعمال المُربحة بذاتها كالزراعة والتجارة والصِّناعة ، بشرْط الجِدّ والمثابرة والاستقامة والصِّدْق والأمانة والاقتصاد . فقد أَخْنَى الزمانُ على من كانوا يسترذلُون الاحتراف بهذه الأعمال ، ويُؤْثِرُون عليها خدمةَ السُّلطان المحْصُورة العَدَد المحدودة الرِّزق . على أنَّ المناصب العالية ومراتب الوزارة ستؤول فى بلادنا الى مِثل مَنْ آلت اليهم فى أوربة وأمريكا من أرباب الاعمال والمتخرجين فى مدارس الحرف والصناعات ، والله لا يُضيع أجرَ مَنْ أحسن عملا

مقطعات شعرية

الرحلة فى طلب الغنى

قال أبو عطاء السِّنْدِىّ [١]:

إذا المرءُ لم يَطلُبْ مَعاشا لنفسه ... شكا الفقرَ أو لامَ الصديقَ فأكثرا
وصار على الأدْنَيْنَ كَلًّا وأوشكت ... صِلاتُ ذَوِى القربى له أن تنكَّرا [٢]
فسِرْ فى بلاد الله ، والتمس الغنى ... تعِشْ ذا يَسار ، أو تموتَ فتُعذَرا
ولا ترْضَ مِن عَيش بدُونٍ ، ولا تَنَمْ ... وكيف ينام اللَّيلَ مَن كان مُعْسِرا

وأنشد ابن جامع للرشيد شعراً غناه به [٣]:

تقول : أَقِمْ فينا فقيراً ! وما الذى ... تَرَى فيه لَيلَى أن أُقيمَ فقيرا ؟
ذَرِينى أَمُتْ يالَيل ، أو أَكسِبَ الغِنَى ... فانّى أرَى غيرَ الغِنىّ حقيرا
يُدَفَّع فى النادِى ، ويُرفَض قوله ، ... وإن كان بالرأى السديد جديرا
ويُغفَر ما يَجْنِى سواه ، وإنْ يُطِفْ ... بذنب يَكُنْ منه الصغير كبيرا

وقال جابر بن الثَّعْلَب الطائى من شعراء الحماسة :

وقام إلىَّ العاذلاتُ يَلُمْنَنِى ... يَقُلْنَ : ألا تنفكُّ تَرحَل مَرْحَلا [٤]

---

(١) هو افلح بن يسار كان أبوه سنديا من موالى بنى أسد بالكوفة وكان من شيعة بنى أمية : مدحهم فأغرق وأدرك الدولة العباسية ومدح رجالها ولم تكن له نباهة فيها ومات فى أواخر حكم المنصور (٢) أى صار على الاقارب الادنين عيالا واوشكت علاقاته بهم أن تجهل وتنسى (٣) هو أبو القاسم اسماعيل بن جامع من أكبر المغنين زمن الرشيد ونسبه فى قريش (٤) مرحل : مصدر ميمى : أى ترحل ارتحالا

فإن الفتى ذا الحزم رام بنفسه جواشنَ هذا الليل كى يَتموّلا(١)
ومَن يفتقر فى قومه يحمَد الغِنى وإن كان فيهم واسطَ العمّ مُخْوِلا(٢)
ويُزرى بمقل المرء قلةُ ماله وإن كان أسرى من رجال وأحولا(٣)
كأنّ الفتى لم يعرَ يوماً إذا اكتسى ولم يكُ صُعلوكا اذا ما تموّلا(٤)
اذا جانبٌ أعياك فاعمِدْ لجانب فانّك لاقٍ فى بلادٍ مُعوَّلا

الشباب الناهض

وقال الشريف الرضى فى فتوّته :

ستعلَمون ما يكون منّى إن مَدّ من ضَبْعَىَّ(٥) طولُ سِنّى
أأدَع الدنيا ، ولَم تَدعْنى يلْعَبُ بى عَناؤها المُعَنّى(٦)
وسِعْتُ أيّامى ، ولَمْ تسعْنى أفضُل عنها ، وتضيق عنى(٧)
لِمْ أنا مِثْلُ القاطنِ(٨) المُبِنّ ؟ أسحَبُ بُرْدَىْ ضَرَع(٩) ، وأثنى
ولِى مَضاءٌ(١٠) قطُّ لم يَخُنّى ضميرُ قلبى وضمير جفنى

(١) جواشن الليل صدوره واوائله وهذا البيت وما بعده جواب للعاذلات
(٢) أى أن الفقير ينتفع بالمال والغنى ولا ينتفع بشرف نسبه وان كان كريم العم والخال (٣) أى أن قلة المال تشين المرء وان كان أشرف من غيره وأكثر حيلة وحذقا (٤) أى أن الغنى ينسخ ما قبله من معرة الفقر وينسى الناس حالته الاولى
(٥) الضبع : العضد والمراد بها القوة والقدرة ولا شك ان كبر السن يزيد القدرة والمعرفة ويبلغ المجد امله (٦) يقال (عناء عان ومعنّ) مبالغة أى تعب متعب ، مثل ليل أليل (٧) المراد بالايام أهلها أى انى احطت معرفة بأهل زمانى ولم يحيطوا بى علماً (٨) المقيم ـ والمبن المنتن الرائحة أى لم أكن كالقاطن لايبرح مكانه ؛ حتى يكون كالماء الذى يأسن من طول مكثه (٩) الضرع : الذل أى انتقل فى الذل من حال الى حال (١٠) نفاذ فى الامور مضمر فى قلبي الحديد ونظرى الثاقب

أُسّسَ آبائى ، وسَوف أبنى قد عَزّ أصلِى ، ويعِزّ غُصنى
غَنِيتُ بالمجد ، ولمْ أستغْنِ [١] ما احتبس الرزقُ فساءَ ظنّى
ولا قرَعْت من قُنوط سِنّى [٢]

النفس الابية

قال القاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى [٣] رحمه الله :

يقولون لِى : فيكَ انقباضٌ [٤] وإنّما رَأَوا رجلا عن موقِف الذُّلّ أحْجما
أرَى الناسَ مَن داناهُم [٥] هانَ عندهُمْ ، ومن أكرمتْه عِزّةُ النفس أُكرِما
وما زلتُ منحازا بِعِرْضِىَ جانبا عن الذّل أعتدّ [٦] الصِّيانة مَغنَما
إذا قيل : هذا مَنهَل . قلتُ : قد أَرَى ولكنّ نفس الحُرّ تحتمل الظّما
أُنَزِّهها عن بعض مالا يَشينها مَخافةَ أقوال العِدا : فِيمَ ؟ أو لِما [٧] ؟
وإنى إذا مافاتنِى الأمرُ لم أَبِتْ أُقلِّب فكرى إثْرَه متندِّما
ولكنّه إن جاءَ عَفْواً قبِلتهُ ، وإن مالَ لم أُتبعه هلاً ولَيتَما
وأقبِضُ خَطوِى عن حُظوظ كثيرة إذا لم أَنَلها وافرَ العِرْض مُكرَما

---

(١) أى غنيت بمجد آبائى ولكن لا تزال لى وراء ذلك آمال كبار من الغنى والرياسة (٢) قرع السن كناية عن الندم والاسف. أى لا ايئس ثقة بنفسى
(٣) كان كاتباً شاعراً فقيهاً شافعياً تولى قضاء جرجان ثم قضاء القضاة فى احدى الدول البويهية . وتوفى بنيسابور ودفن بجرجان سنة ٣٦٦ وهو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبىء وخصومه (٤) أى عن الناس وعزلة عنهم
(٥) قاربهم . وهان : ذل (٦) أى أعد (٧) أى قولهم : فيم فعل ذلك ؟

وأُكرِم نفسى أنْ أُضاحِكَ عابسا، وأنْ أتلقّى بالمديح مُذَمَّما
وكم طالبٍ رِقّى بنُعماه لم يَصِلْ إليه، وإن كان الرئيسَ المُعظَّما
وكم نعمةٍ كانت على الحُرّ نِقمة، وكم مَغْنَم يعتدُّه الحرّ مَغْرَما
وما كلُّ بَرْق[1] لاحَ لى يستفزّنى، ولا كلُّ مَن لاقيتُ أرضاه مُنعِما
الى أن أرى ما لا أغَصّ[2] بذكره اذا قلتُ: قد أسدَى إلىّ وأنعَما
ولم أقض حقّ العلم إن كان كلّما بدا طمَعٌ صيّرته لِىَ سُلّما
ولم أبتذِل فى خدمة العلم مُهجتى لِأَخدُم مَن لاقيتُ لكن لِأُخدَما
أأشقَى به غَرسا وأجنيه حَنظَلا؟ إذاً فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم، ولو عظّموه فى النفوس لعظّما
ولكن أهانوه، فهانوا، ودنّسوا مُحيَّاه[3] بالأطماع حتى تَجَهّما

وقال أيضاً:

إذا البلَد المعمور ضاق برُحْبه[4] على ماجِد فليَسكُن البلد القفرا
وكم ماجد لم يَرضَ بالخَسْف، فانبرَى يُقارِع عن هِمّاته البيض والسُّمرا[5]
ومَن علِقت نَيْلَ الامانى همُومه تجشّم فى آثارها المطلَب الوَعْرا[6]

---

(١) البرق يطمع فى المطر بالمراد به هنا الطمع (٢) أشرق به . أى أنى لا أعفف الى أن ارى نعمة كريم لا أخجل اذا قيل : انه منّ على وتفضل
(٣) وجهه، وتجهم : اسود وقبح (٤) سعته (٥) الخسف : الاذلال وتحميل الانسان ما يكره . وانبرى : تعرض . ويقارع : يضارب . والهمات: جمع همة وهى ما يهم الانسان بعمله والهوى والمقصد . والبيض : السيوف . والسمر : الرماح ـ والمعنى كم من ماجد أُريدَ اذلاله فقاتل دون شرفه (٦) الهموم جمع هم وهو ما يهم بفعله الانسان

فلا تَشكُ أحداث الزمان فإنني ... أراه بمن يشكو حوادثه مُغْرى [١]
وهل نَصَرتْ من قبلِ شكواكَ فاضلا؟ ... فتأْمل منهن المَعُونة والنَّصرا
وما غلَب الايام مثلُ مُجرِّب ... إذا غلَبتْه غايةٌ غلَب الصبرا

وقال أيضاً :

على مهجتي تجنى الحوادثُ والدهرُ ... فأمّا اصطباري فهو ممتنِعٌ وَعْرُ [٢]
كأنى ألافى كلّ يوم يَنوبنى [٣] ... بذَنْب، وما ذنبي سِوَى أنني حُرُّ
فإن لم يكن عند الزمان سِوى الذى ... أضِيق به ذَرعا فعندى له الصبر [٤]
وقالوا: توصَّل بالخُضوع إلى الغنى، ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرّما ... على الغِنى: نفسي الأبيّة، والدّهر [٥]
إذا قيل: هذا اليُسر أبصرت دونه ... مَواقف خيرٌ من وقوفى بها العُسر
إذا قُدِّموا بالوَفر [٦] قُدِّمتُ قبلهم ... بنفس فقيرٍ كلُّ أخلاقه وَفر

(١) مولع به دائم التعمد لاساءته (٢) أى ان اصطبارى صعب لايغلبه شيء (٣) اى كل يوم يأتى علىّ (٤) أى فان لم يكن لى عند الزمان سوى مبادأتى بالشر الذي أضيق به ذرعا فانى لا أضجر ولا أشكو بل أحتمل وأصبر (٥) أى ان نفسى الأبية تمنعنى من طلب الغنى من غير وجه شريف، وكذلك الدهر فانه يحرم الكرام (٦) الوفر الغنى والمال الكثير

الالعاب الاولمبية[١]

كانت جميع قبائل اليونان فى جاهليتها مولعة بالالعاب الرياضية ولوعا بلغ منها لتعظيمها اياها واعتدادها بها مبلغ الشعائر الدينية ، فصارت تلك العادة بينهم مما يتقرب بها إلى المعبود زلفى قربى

ولم يكن الغرض الذى توخاه واضع هذه الألعاب مجرد اللهو والعبث ، ولا مطلق العبادة والتحنث[٢] وانما كان تربية النشء تربية بدنية نظامية ، وتحبيب المنافسة فى إحراز الفوز والغلبة اليهم . وتلك كانت عندهم أهم صفات الرجل الوطنى المهذب الذاب عن بلاده بشدة أسره وقوة جنانه

ولعظم عناية اليونان بهذه الألعاب وتقديسها كان يشترك فيها جميع شعوبهم من سكان شبه جزيرتهم وسواحل آسيا الصغرى وإيطاليا وإفريقية وجزائر بحر الروم . وهى إحدى الروابط التى كانت توحد شعوب أمتهم كما توحدها اللغة والدين

وكانت هذه الألعاب تقام قديما فى أربعة أماكن تسمى باسمها . وأشهرها ما كان يقام فى مدينة أولمبية[٣] على نهر ألفيوس[٤] من بلاد المورة ، وسميت هذه المدينة بنسبتها إلى (أولمبس) وهو جبل فى تساليا شاهق وعر المسالك ، مظلل بالغمام ، مكلل بالثلوج ، موشح

---

(١) المراجع التاريخية لهذه المقالة : المقتطف ودائرة المعارف للبستانى

(٢) التعبد (٣) تسمى الآن ميريلا أو لنغنيكة (٤) يسمى الآن روفيا

سفحه وجوانبه بشجر الغار والدُّلب ، يتخلله كثير من الينابيع والغدران ، كان يعتقد أوائلهم أنه مهبط الآلهة ومنزل رئيسهم زفس (المشترى) الأولمبي حيث يُرأس محافل الآلهة . فلما بُنِيَ له هيكل فى أليس [١] سميت المدينة التى أقيمت حول هذا الهيكل أولمبية ، وان كانت تبعد عن جبل أولمبس بُعداً عظيما . وكان هيكل زفس هذا من أجل وأفخم هياكل اليونان ، وتمثال زفس فيه ، إحدى عجائب الدنيا السبع . ويحيط به بستان الزيتون المقدس الذى كانت تُصنع منه أكاليل الفائزين فى هذه الالعاب . وبقرب البستان ميدان المحاضرين (العدائين) ومضمار سباق العجل وساحات المصارعين والملاكمين والملاعبين بالاسلحة

وتاريخ مبدأ الألعاب الاولمبية غامض لم يتضح بعدُ تمام الوضوح . وغايةُ ما عُرِفَ عنه أنه قديم جدّا ، قيل : إن هرقليس [٢] ابتكره ، وقيل : إنه أحدث فيه إصلاحا وتعديلا

وكانت هذه الالعاب تُقام فى مدينة أولمبية كلَّ أربع سنوات مرة وبعد دهر طويل من اعتياد هذه الالعاب جعل اليونانيون عهد نشأتها مبدأ لتاريخهم أى سنة ٧٧٦ ق . م

---

(١) وزفس هذا معرب (زوس) وهو المسمى جبتير أيضا ، وأليس قسم من اقليم البيلوبونزيا (مورة) وهو سهل خصب يخترقه نهر الألفيوس

(٢) وقيل أيضا أن ليكرغ ملك أسبرطة وايفيتوس ملك الزا من نسل هرقليس وكليوسبتنس ملك بيس جددوها وأصلحوها سنة ٨٨٤ ق . م أما كون سنة ٧٧٦ مبدأ التاريخ فانما كان لسن نظام جديد

وتشتمل هذه الألعاب على المسابقة فى العَدْو ، وهى أعظمها شأنا ، ويظهر أنها أول مافُكِّر فيه من نوعها ، والمسابقة بالعجل ذات الفرسين وسباق الخيل المُسْرجة ، والمصارعة ، والمباراة باللعب بالاسلحة ، والملاكمة

وكان يُشترط فيمن يُخاطر [١] فى هذه الألعاب أن يكون من الجنس اليونانى أو ممَّن ينتمى إليه بأصرة قرابة ، وأن يكون حَسَن الاخلاق والسيرة : لم تُعهدْ فيه نقيصة ، ولم يَستعمِل الغشّ والخديعة فى ألعابه ، وأنه راضَ جِسْمه على اللُّعبة التى يريد أن يشترك فيها عَشْرَة أشهر ؛ وأن يشهدَ العُدول من الحاضرين بإحرازه كلّ هذه الصفات

فعند ما تحين نَوْبة اللعب يذهبون الى هيكل زَفْس ، ويحلِفون أمام تمثاله أنهم لايُحاولون الغشّ والخديعة للغَلَبة ونَيْل الخَطَر . بل يَجرُون على موجَب سَنَن الألعاب حقا ، فاذا كان السباق عَدْوا وحُضْرا [٢] مثلا جاءوا الى الميدان ، وهو بسيط من الأرض مفروش بالرَّمل طوله نحو ستمائة قدم ، فيُنادى المنادى : هل من عائب لهؤلاء المحاضرين [٣] بأنهم مُستعبَدون لأحد أو يحترفون حرفة مَهينة ؟ فاذا لم يَتصدَّ أحد لتجريحهم أُذِنَ لهم أن يُحاضروا . فيلتف حَوْلهم أصدقاؤهم يُشجعونهم وينصحونهم إلى أن يَحين وقت الشروع فى المحاضرة ، فيقِفون فى أول الميدان صفا واحدا بعد أن يخلعوا أرديتهم لئلا تَعوقهم ، ويرمون بأبصارهم الى الغاية التى يُحاضرون اليها . فإذا نُفِخَ فى البُوق اندفعوا اندفاعَ السَّيْل ، والناس

(١) يسابق على خطر والخطر الجائزة التى تعطى للفائز

(٢) الحضر : الجرى (٣) المحاضرة : المسابقة فى الحضر وهو العدو

الآداب الإلهية

يتكبكبون على الميدان يعجُّون [١] لهم بالتحريض فإذا سقط أحدهم أغرب الجُمهورُ فى الضحك منه ، ولا يلتفت إليه من يُسابقونه بل يُمعنون [٢] فى عَدْوهم حتى إذا قاربوا الغاية حيثُ يجلِس الحَكَم تنبه الناس الى من يتقدمهم ويجتاز الحد ، فيهتفون له بأصوات الفرح والابتهاج ، ويُعطَى سَعَف النخل علامةً للظفر ، ويُحدق به أنسباؤه وخُلصانهُ [٣] ، ويُعانقونه ، ودموع الفرح والسرور تسيل من أعينهم . ثم يرفعونه على أكتافهم شاقِّينَ به صُفوف النظّارة [٤] ، فيعلو الضجيج ، وتجتمع الناس حوله يُحيُّونه ويَرمونه بالأزهار ، فيشعر حينئذ بحلاوة الظَّفَر ، لأن هذه الغَلَبة ستكون فخرا له ولوطنه مدى حياته وبعد موته . وعقب انفضاض اللعب يكلل الفائز بإكليل أوراق الزيتون والغار ، وربما أتحفوه بجوائز من المال ، ويسير مع الفائزين فى بقية الألعاب من المصارعة والملاكمة الى المسْرَح يتبعهم النظّارة والعَجَل التى أحرزت قَصَب السَّبْق مُزدانة بالأزهار والرياحين ، حتى اذا بلغوه صدَحت الأجواق الموسيقية ، وقُدِّمت القرابين للآلهة وسُجِّلَتْ أسماء الفائزين فى سِجِلٍّ لتخليد ذكرهم . وبعدئذ يذهبون مع أصدقائهم الى الولائم الفاخرة التى يولمونها لهم . وعند ما يعودون إلى مُدُنهم يخرُج اليهم أهلها ويُلاقونهم بأصوات الفرح وأغانى الظَّفَر ، وقد يثغرون لهم ثُغْرة فى الأسوار ليدخلوها دُخولَ الفاتحين ،

---

(١) يصيحون باعلى صوتهم (٢) يشتدون (٣) اصدقاؤه المخلصون
(٤) المشاهدين

ويُقيمون لهم التماثيل فى مواطنهم وفى غابة أولمبية المقدّسة، ويتغنّى الشعراء بمدحهم

وأحسن أشعار بنداروس الشاعر نظمها فى مَدْح الظافرين فى هذه الألعاب

قيلَ إنه طُلِبَ إليه أن ينظم قصيدة لبتياس أحد الحائزين قَصَب السَّبق فى الألعاب النِّيميّة (١) فطَلَبَ مالا كثيرا فاستعظمه أصدقاء بتياس وقالوا: إننا نُقيم له تِمثالا من النُّحاس بأقلّ منه. ثم تشاوَرُوا، وقال أمثلهم رأيا: لعمرى إن القصيدة خير لصاحبنا من إقامة التمثال. فوزنوا للشاعر المال. فافتتح القصيدة بقوله «لستُ صانعَ تماثيل لا تُشاهَد الا حيث تُنْصَب؛ ولكن ناظمَ أشعار تَطير فى الآفاق، ويَطير معها صِيتُ بتياس المكلَّل بإكليل الظَّفَر»

وحدَثَ مَرَّة فى هذه الألعاب حادث كان له وقع عظيم فى نفوس المرتاضين، وهو أن ابْنَىْ دِياغوراس - وكان مِمّن حاضَر فى شبابه وحاز إكليل الظفر - أتَيَا الى أولمبية، وحاضرا فى ميدانها، ونالا إكليل الظفر كأبيهما من قبل. فأسرع الشيخ ليهنئ ولديه. فاعتنقاه، ونزَعا الاكليلين عن رُءوسهما، وكلّلا بهما رأسَه، إقرارا له بحسن تربيته إياهما. ثم حمَلاه على أكتافهما كأنه هو الظافر، واجتازا به الميدان. فحيّاه الجمُّ الغفير من المشاهدين بأعلى أصواتهم. وقالوا: الآنَ طاب لك الموتُ يا دياغوراس

(١) نسبة الى وادى نيميا. وهو أحد الملاعب الاربعة التى منها الالعاب الاولمبية

لانك بلغت أقصى أمانيك !

صورة دياغوراس وولديه

فغلب عليه السرور والفرح وأحنى رأسه على كتف ابنه الاكبر ، وأسلم الروح

أما المصارعون فكانوا يتصارعون بأرديتهم ؛ فاتفق أن رجلا فاته الظفر لسقوط ردائه عند المصارعة ، فامتنع من الحراك ، فأذنوا للمصارعين أن يتصارعوا عُراة ، ومن يومئذ لم يؤذن للنساء بحضور الحفل بهذه الالعاب

وأما سباق الخيل والعجلات فقد كان الملوك يشتركون فيه بأنفسهم أو ينيبون عنهم خاصتهم ويتنازعون فخرها . وكان الملك فى إسبَرْطة يتخذ من الظافرين حَرَس الشَّرَف

ولم تكن احتفالات أولمبية مقصورة على الالعاب ، بل كانت بمثابة الأسواق عند العرب يحضرها كل مُتبَاهٍ بعمل ؛ فيخطب فيها الخطباء خطبهم البليغة ، وينشد فيها الشعراء قصائدهم الرائعة ، ويُلقى المؤرخ بعض فصول كتبه ، ويعرض الصانع أبدعَ صُنعه ، وهكذا ؛ فكان هذا الاحتفال أسمى مقصد لتربية الجامعة الوطنية بين الشعوب اليونانية ،

ولتبادل أنواع الاحسان والإجادة فى كل شىء

وبقيت الألعاب الاولمبية الى أن أبطلها العاهل الرومانى تيودوسيوس سنة ٣٩٤ ميلادية

ومن هذه الحفلات نشأت فى مُحْدَثِى أوربة عادة المباراة فى الحركات النظامية ، والالعاب الرياضية ، والمصارعة ، والملاكمة ، وسباق الخيل ، والزوارق والسيارات والطيارات . وهى عادة حسنة جليلة الفوائد جمّة العوائد ، لَوْلا ما شابها عندهم من رذيلة المقامرة من اللاعبين والنظّارة التى مقتتها الشرائع ، ومجّتها الأذواق السليمة ، والتى جعلت المتناضلين فيها يتهالكون على إحراز الجائزة التى أصبحت تُقدَّر بألوف الدنانير . ولو أنهم تأسّوا بقدماء اليونان فى تكليل رءوس الفائزين بأغصان الأشجار المحبوبة لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً للفضيلة بينهم

والألعاب الرياضية من أنفع الأمور لقُطّان المدائن وطُلّاب المدارس وأشباههم ممّن يُعالجون الحِرَف العقلية ، ويَحْيَون حياةً جُلوسيّة : لتقويم ابدانهم وتقْوِيَة عضائلهم وتعويدهم الخِفّة والنشاط واحتمال الشدائد والانكماش فى العمل والدفاع عن النفس إذا عدا عليهم عادٍ أو حَزَبَتْهم (١) ضائقة . ويقول قادة الأمة الانجليزية وساستها ومربُّوها : إن أعوَد العادات عليهم بجزيل الخير وبَسْطة السلطان وشِدّة الصبر والثبات عند تجهُّم الأزمات ، هى عادة المباراة والمنافسة فى الألعاب الرياضية . وشاهد

(١) اشتدت عليهم

قائدُهم الكبير ولِنجتون حفلةَ ألعابٍ فى ساحة مدرسة فقال : فى هذه الساحة انتصرتُ فى موقعة وُتَرْلو !

أمّا البَدْو الذين يَقضون حياتهم بَيْن حَلٍّ وتَرْحال وارتيادٍ وانتجاع واقتحامِ عِقابٍ وهُبوط أوْدية ، ومَن على شاكلتهم من أهل الدَّساكر والقرى الذين لاينَون عن مكابدة الأعمال المُنْصبة : من فَلْح الأرض وشَقّ القُنِيّ وإحْناء الدوالى وإدارة الطنابير وحِراسة الحقول ، فلا يُنكرُ عاقل أنّ الألعاب الرياضية أقل فيهم غَناءً منها فى أهل الأمصار ؛ غير أنّ فشوَّها بينهم يكسبهم خصالا فاضلة ؛ فإنها تُعوِّدهم الإقدام والشجاعة وتُحبِّب إليهم النِّظام ، وتُرَبّى فيهم عادةَ احترام القانون والسنَن وإطاعة الرؤساء وقبول حُكْم المحكَّمين ، وتُدخل السرور على قلوبهم بتنوّع الأعمال واختلاف المَشاهد أمام أبصارهم ؛ اذ أنّ النفوس البشرية تُبلِّدها الأعمالُ المتكرّرة ، وتُطفىء جَذْوةَ نشاطها الحياة الجامدة ، وإنما تستروِحُ النفوس ببعض اللعب لتَسْتَجِمَّ به [1] القُدْرة على الجِدّ

ولقد أفشتْ إقامة الأوربيّين بَيْن ظَهرانَيْنَا هذه الألعاب في فِتياننا ، وراقت أولى الأمر منّا فعاضدوها وأدمجوها فى أعمال المدارس ، فكانت نتيجتها حسنة فى الجملة ؛ ولكنّها لم يُفهَم منها بَعْدُ كلّ الأغراض النبيلة التى يرمى اليها الأوربيون

وحسبَ بعض أغْرار الطُّلّاب أنها وحدَها غايةُ البُطولة ، ومنتهَى

(١) تستجمع

الفَخَار فى الشابّ المُتَمدين ، فغامروا بجدُودهم ، وقامروا بآمال آبائهم فيهم ، فأفلَت العلم من أيديهم ، وخرجوا من المدارس صِفْرَ الأيدى والعُقول ؛ ذلك بأنَّهم أفرطوا فى اللعِب ، وفَرّطوا فى الدَّرْس ، فتجاوزوا حدّ الاعتدال الذى هو ميزان الاعمال وعُدَّة الأبطال

فحَقٌّ على كل من ولِىَ شأنًا من تربيَة نابِتَتِنا أن يَقِفهم على المقاصد الشريفة من هذه الرياضات ، ويُفهِمهم مَغْزَى قول خليفتهم العظيم عمر بن الخطاب : « عَلِّموا أولادَكم السِّباحةَ والرَّمى ، ومُروهم فليَثِبوا على الخَيْل وَثْبًا » ؛ فإنّ أمْرَه بالسباحة ، والرّمى إلى غير عَدُوّ حاضر ، والوَثْب على الخيلِ بدُون استعانة بالرُّكُب ، أمرٌ كان وراءه ما بَعْدَه

ثم ليتّقِ اللهَ فيهم ؛ فلا يُغَرِّر بِهُوجِهم [1] فيتغاضَى عن تقصيرهم فى الدروس ، ويَقْذِف بهم فى الملاعب ليربحَ كلمةَ ثناء من رئيس طَرُوب . ولْيعلم أنه كما كان فى الإغريق جبابرة فى القوّة كان منهم كذلك أساطين فى الحكمة ووُضّاع للعلوم

فإذا نحن جعلنا مقاصد الحكماء من اللعب غايتنا ، ونُصْبَ أعيننا ، لا نلبَث أن يَنشأ فينا نَشْأٌ أولو جِدّ وشهامة ، وقوة وشجاعة ، وعِزّة وكرامة . والله تعالى يهدينا سواء السبيل

---

(١) جمع أهوج

حسن الوفاء

حُكِيَ عن العباس صاحب شُرْطة المأمون أنه قال : دخلتُ يوماً الى مجلس أمير المؤمنين ببغدادَ ، وبين يديه رجل مُكَبَّل بالحديد ، فلما رآني قال لى : يا عباس ! قلتُ : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : خذ هذا اليك ، فاستوثق منه واحتفظ به ، وبكِّر به إلىّ فى غدٍ واحترز كلَّ الاحتراز . (قال العباس) : فدعَوْتُ جماعة فحملوه إذْ لم يَقدِر أن يتحرك . وقلتُ فى نفسى مع هذه الوصية التى أوصانى بها أميرُ المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكونَ معى فى بيتى . فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى

ثم أخذتُ أسأله عن قضيته وعن حاله ، ومِنْ أين هوَ ، فقال : أنا من دِمَشق . فقلتُ : جزى الله دِمشقَ وأهلها خيراً ! فمَنْ أنتَ مِن أهلها ؟ قال : وعَمن تسأل ؟ قلتُ : أتعرِف فلانا ؟ قال : ومِنْ أينَ تعرف ذلك الرجل ؟ فقلتُ : وقع لى معه قضية . فقال : ما كنتُ بالذى يُعرِّفك خبره حتى تُعرِّفنى قضيتك معه . فقلت : ويْحَك !

كنتُ مع بعض الوُلاة بدِمشق ، فبغَى أهلُها وخرجوا علينا ؛ حتى إنّ الوالىَ تَدلَّى فى زِنْبيل مِنْ قصْر الحجاج ، وهرَبَ هو وأصحابه ، وهرَبتُ فى جملة القوم ، فبينما أنا هارب فى بعض الدُّروب إذا بجماعة يَعْدُون خَلْفى ، فما زلتُ أعْدُو أمامَهم حتى فتُّهم . فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره . فقلتُ : أغِثنى أغاثك الله !

قال : لا بأسَ عليك ! أدخل الدّار . فدخلتُ . فقالتْ زوجته : أدخل تلك المقصورةَ ، فدخلتُها ، ووقف الرجل على باب الدار . فما شعرتُ إلا وقد دخلَ والرجالُ معه يقولون : والله عندك ! فقالَ : دُونكم الدارَ ففتّشوها ! ففتّشوها ، حتى لم يبق سوى تلك المقصورة ، وامرأته فيها . فقالوا : هو هاهنا ! فصاحت بهم المرأةُ ونهرتهم . فانصرفوا . وخرج الرجل ، وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجُف : ما تحملني رجلايَ من شدة الخوف . فقالت المرأةُ : اجلسْ لا بأس عليك . فجلستُ فلم ألبثْ حتى دخل الرجل فقال : لا تخَف ! قد صرفَ اللهُ عنك شرهم ، وصرتَ إلى الأمن والدَّعة إن شاء الله تعالى ! فقلت : جزاكَ اللهُ خيراً !

فما زال يُعاشرُني أحسنَ مُعاشرة وأجملها ، وأفرد لي مكانا في داره ، ولم يُحوِجني إلى شيء ، ولم يفتُر عن تفقُّد احوالي . فأقمتُ عنده أربعةَ أشهر في أرغد عيش وأهنئه الى أن سكنَت الفتنة وهدأتْ ، وزالَ أثرها . فقلت له : أتأذَنُ لي في الخروج ؟ حتى أتفقد حال غلماني ، فلعلّي أقفُ منهم على خبر . فاخذَ عليَّ المواثيق بالرجوع إليه . فخرجتُ وطلبتُ غلماني فلم أرَ لهمْ أثراً . فرجعت إليه وأعلمتُه الخبر ، وهو مع هذا كلّه لا يعرفني ، ولا يسألني ، ولا يعرِفُ اسمي ، ولا يُخاطبني الا بالكُنيَة . فقال لي : علامَ تعزِم ؟ فقلت : قد عزمتُ على التوجُّه الى بغدادَ . فقال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرُج . وهأنذا قد أعلمتُك . فقلتُ له : إنكَ تفضلتَ عليَّ هذه المدةَ ، ولكَ عهدُ الله أني لا أنسى لك هذا الفضلَ ، ولأُوفينّك مهما استطعتُ . فدعا غلاما له أسودَ ، وقال له : أسرِج الفرس

الفلانى، ثم جهز آلة السفر. فقلتُ فى نفسى أظن أنه يريد أن يخرُج الى ضَيْعةٍ أو ناحيةٍ من النواحى. فأقاموا يومهم ذلك فى كَدّ وتعب

فلمّا كان يومُ خروج القافلة جاء فى السَّحَر وقال لى: يا فلانُ! قم، فإن القافلة تخرُج الساعةَ، وأكرَهُ أن تنفردَ عنها. فقلت فى نفسى كيف أصنع؟ وليس معى ما أتزوّدُ به، ولا ما أكترى به مركوبا، ثم قمت فاذا هو وامرأته يحملان كارَة من أفخر الملابس وخُفّين جديدين وآلةَ السفر، ثم جاء لى بسيف ومِنطَقَة فشدّهما فى وسطى. ثم قدّمَ بغلاً، فحمل عليه صُندوقين وفوقهما فَرْش، ودفع إلى نُسخة ما فى الصُّندوقين، وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدّم الىّ الفرَس الذى كان جهّزه. وقال: اركَب، وهذا الغلامُ الأسودُ يخدُمك ويسُوسُ مَركوبَك. وأقبلَ هو وامرأته يعتذران إلىّ من التقصير فى أمرى، وركِبَ معى يُشيّعنى

وانصرفتُ إلى بَغدادَ، وأنا أتوقعُ خبره لأُوفىَ بعَهْدى له فى مُجازاته ومكافأته. واشتغلت بأمر أمير المؤمنينَ. فلم أتفرّغ أن أُرسِل اليه مَن يَكشِف خبره. فلهذا أنا أسأل عنه

فلما سمع الرجلُ الحديثَ قال: لقد أمكنك اللهُ تعالى من الوفاء له ومكافأته على فَضلِه ومجازاته على صُنْعه بلا كُلْفة عليك ولا مَئُونة تلزمُك. فقلتُ: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجلُ. وانما الضرُّ الذى أنا فيه غيّر عليك حالى وما كنتَ تعرِفُه منى. ثم لم يَزَل يذكر لى تفاصيل الأسباب حتى أثبتُّ معرفته. فما تمالكتُ أن قمتُ وقبّلت رأسه، ثم

قلتُ له : فما الذى أصارَك الى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثلُ الفتنة التى كانت فى أيامك فنُسِبتْ إلىّ ، وبعَثَ أمير المؤمنين بجيُوش ، فأصلحوا البلدَ ، وأُخِذتُ أنا ، وضُربْتُ الى أنْ أشرفْت على الموْت ، وقُيِّدْت وبُعِث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم ، وخطْبى لديه جَسيم ، وهو قاتلى لا محالةَ . وقد أُخرِجتُ من أهلى بلا وصيّة ، وتبعنى من غِلْمانى مَنْ ينصرِف إليهم بخبرى ، وهو نازل عند فلان . فان رأيتَ أن تجعَل من مكافئتك لى أن تُرسِل من يُحضِره لى حتى أُوصيَه بما أُريد فقد جاوزتَ حدَّ المكافأة ، وقمتَ لِى بوفاء عهدِكَ .

(قال العباسُ) فقلتُ : يَصنَع الله خيراً . ثم أحضرتُ حدّاداً فى الليل فكّ قيودَه وأزال ما كان فيه من الأنكال ، وأدخلته حمّام دارِى وألبستُه من الثياب ما احتاج اليه ، ثم سيَّرتُ مَنْ أحضر اليه غلامه . فلما رآه جعلَ يبكى ويُوصيه . فاستدعيتُ نائبى وقلتُ : علىّ بالفرس الفلانىّ والفرس الفلانىّ والبَغل الفلانىّ والبغلة الفلانية : نحو عشرة من الدوابّ ، ثم عشرة من الصناديق ، ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا . وأحضرتُ بَدْرَةً عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسةُ آلاف دينار ، وقلت لنائبى فى الشُّرْطة : خذ هذا وشيِّعْه الى حدِّ الأنبار . فقال لى الرجل : إن ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم وخطبى جسيم . إنْ أنتَ احتجَجْتَ بأنى هربتُ بعَثَ أمير المؤمنين فى طلبى كلَّ من على بابه فأُرَدُّ وأُقتَلُ . فقلت له : انجُ بنفسك ودعْنى أدبِّر أمرى . فقال : والله ما

أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك : فإن احتجتَ الى حضورى حضرتُ . فقلت لنائبى : إن كان الامر على مايقول فليكن فى موضع كذا فإن أنا سلمتُ فى غداة غدٍ أعلمتُه ، وإن أنا قُتلتُ فقد وقيتُه بنفسى كما وقانى بنفسه . وأنشدك الله ألاَّ يذهبَ من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد . فأخذه وصيّره فى مكان أثق به ، وتفرغت لنفسي وتحنّطت وجهزت لى كفناً ، فلم أفرُغ من صلاة الصبح إلا ورسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات الرجل معك وقم . فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، فاذا هو جالس ، وعليه ثيابه ، وهو ينتظرنا . فقال : أين الرجل ؟ فسكتُّ . فقال : ويحكَ أين الرجلُ ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين اسمعْ منى . فقال : لله على عهدٌ لئن ذكرتَ أنه هربَ لأضربنَّ عُنقَك . فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين ! ما هرب ، ولكن اسمع حديثى وحديثه ، ثم شأنَك وما تُريد أنْ تفعلَه فى أمرى ، قال : قل ! فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، كان من حديثى معه كيْتَ وكيتَ . وقصصتُ عليه القصة جميعها ، وعرّفته أننى أريد أن أفِىَ له ، وأُكافئه على مافعله معى . وقلتُ : أنا ومولاىَ أميرُ المؤمنين بين أمرين : إما أن يصفحَ عنّى فأكون قد وفيتُ وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأقيهُ بنفسى وقد تحنّطتُ وها كفنى يا أمير المؤمنين . فلما سمعَ المأمون الحديث قال : ويلك ! لا جزاك الله عن نفسك خيراً ! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة وطول العهد بهذا لا غيرُ ! هلاّ عرفتنى خبره ، فكنا نكافئه عنك ، ولا نقصّر فى وفائك له ! فقلت : يا أمير

المؤمنين إنه هاهنا قد حلف ألاّ يبرح حتى يعرف سلامتى. فان احتجتَ الى حضوره حضر. فقال المأمون: هذه منّة أعظم من الأولى! إذهب الآن إليه فطيّب نفسه، وسكّن روْعه، وأتنى به حتى أتولّى مكافئته. (قال العباس): فأتيتُ اليه وقلت له: ليزُلْ خوفك! إن أمير المؤمنين قال: كَيْتَ وكيت. فقال: الحمد لله الذى لا يُحمَدُ على السراء والضراء سِواهُ!

وصف يوم ماطر

روى الحُصْرىّ[١] فى كتابه زهر الآداب أنّ عُمَر بن علىّ المُطَّوِّعى[٢] قال: رأى الأمير السيد أبو الفضل عبيد الله بن أحمد[٣] (أدام الله عزّه) أيامَ مُقامه بجُوَين[٤] أن يُطالع[٥] قَرْية من قُرى ضِياعه تُدعى (نجاب) على سبيل التنزّه والتفرج[٦] فكنتُ فى جُملة من استصحبه اليها من أصحابه. واتفق أنّا وصلْنا والسماء مُصْحِيَة[٧] والجوّ صاف لم يُطَرِّز ثوبه بعَلَم الغمام[٨]، والأفقُ فَيْرُوزَجٌ لم يَعْبَقْ به كافور[٩] السَّحاب. فوقع

---

(١) هو أبو اسحاق ابراهيم بن على بن تميم الحصرى أحد ادباء القيروان وشعرائها توفى سنة ٤١٣ هـ (٢) هو أبو حفص: منسوب الى المطوعة وهم قوم تطوعوا للجهاد بثغور خراسان. وكان اديبا شاعرا متصلا ببنى ميكال من عمال الدولة العباسية فى القرن الرابع على فارس (٣) هو أبو الفضل الميكالى من ذرية كسرى وكان شاعراً مجيداً وكاتبا بليغا (٤) ناحية كبيرة من نواحى خراسان (٥) يتفقد (٦) تطلب الفرج بشىء معجب (٧) انقشع عنها الغيم (٨) العلم فى طرف الثوب: رسم مخالف لون الثوب أو نوعه. وكذلك الطراز والتطريز: الفعل منه طرز، يعنى أن السماء وقتئذ لم يكن بها سحاب (٩) هو صمغ أبيض

الاختيار على ظلّ شجرة باسقة [١] الفروع متسعة الأوراق والغصون قد سترت ما حواليها من الأرض طولا وعرضا. فنزلنا تحتها مستظلّين بسماوة أفنانها، مستذرين [٢] من وهج [٣] الشمس بستارة أغصانها، وأخذنا نتجاذب أذيال المذاكرة، ونتسالب أهداب المناشدة والمحاورة. فما شعرنا بالسماء إلا وقد أرعدت وأبرقت، وأظلمت بعد ما أشرقت، ثم جادت بمطر كأفواه القرب فأجادت؛ وحكت أنامل الأجواد بل أوفت عليها وزادت. حتى كاد غيثها يعود عيثا [٤] وهمّ وبلها أن يستحيل وبلا. فصبرنا على أذاها، وقلنا: سحابة صيف عن قليل تقشّع. فاذا نحن بها قد أمطرتنا بردا أيقنّا معه بالبلاء، وسلّمنا لأسباب القضاء. فما مرّت إلا ساعة من النهار حتى سمعنا خرير الأنهار، ورأينا السيل قد بلغ الزبى، [٥] والماء قد غمر القيعان والربا، فبادرنا إلى حصن القرية لائذين من السيل بأفنيتها، وعائذين من القطر بأبنيتها، وأثوابنا قد صندل [٦] كافوريها

لشجر يسمى باسمه، يكرّر بالتصعيد، ويدخل فى اكثر انواع الطيب وكثير من الأدوية. وكان يجلب من الصين والهند فاستغنى عنه الآن بالكافور الصناعى. ويشبه الأدباء به الشيء الابيض المستملح كما شبه به السحاب هنا

(١) مرتفعة (٢) مستظلين (٣) حرارة (٤) فساداً (٥) جمع زبية بضم الزاى وهى الرابية لا يبلوها ماء السيل، و « بلغ السيل الزبى » مثل يضرب لتفاقم الأمر وشدته (٦) الصندل خشب طيب الرائحة محمرّ. وقد اشتقوا منه فعلا، يعنى ان مياه الامطار تركت لون ثيابهم البيض التى تشبه الكافور بلون الصندل

ماء الوَبل ، وغلَّفَ طِرَازَيْها طِينُ الوَحْل . ونحن نَحْمَد الله تعالى على سلامة الأبدان ، وإن فقدْنا بياضَ الأكمام والأَرْدَان [١] ونشكره على سلامة الأنفُس والأرواح ؛ شكر التَّاجر على بقاء رأس المال إذا فُجِع بالأرباح . فبتْنا تلك الليلةَ فى سماء تكفُ [٢] ولا تَكُفّ ، وتبكى علينا إلى الصباح بأدمع هَوَام [٣] وأربعة سِجام ، [٤] فلما سُلَّ سيفُ الصُبْح من غِمْد الظلام ، وصُرِفَ بوالِى الصَّحْوِ عامِلُ الغمام [٥] ، رأينا صواب الرأى أن نُوسِع الإقامة بها رَفْضاً [٦] ونتخذ الارتحالَ عنها فَرْضاً . فما زلنا نَطوِى الصَّحارى أرضاً فأرضا ، الى أن وافينا المستقرَّ رَكْضاً . فلما نَفَضْنا غُبار ذلك المَسير ، الذى جمعَنا فى رِبْقة [٧] الأسير ، وأفضينا الى ساحة التَّيْسير ، بعد ما أُصِبْنا بالأمر العسير ، وتذاكرنا ما لَقِينا من التعب والمشقة ، فى قطع ذلك الطريق وطَىّ تلك الشُّقة . أخذَ الأمير السيد (أطال الله بقاءه) [٨] القلم فعلَّق هذه الأبيات ارتجالا :

---

(١) جمع ردن (بالضم) : أصل الكم وأعلاه (٢) مضارع وكف بمعنى قطر

(٣) جمع هام : اسم فاعل من همى يهمى بمعنى هطل (٤) اذا امتلأت العينان بالدموع هطلتا من جوانبهما الأربعة : اللحاظين والموقين ، وذلك غاية البكاء . قال المتنبى يصف الحمى بأنها عند مفارقتها له فى الصباح تجعله فى عرق كثير :

كأن الصبح يطردها فتجرى مدامعها بأربعة سجام

أى كأنها تبكى لفراقه (٥) صرف : عزل . والوالى أو العامل هو نائب السلطان فى المدينة . يقال : صرف فلان بفلان أى جعل الثانى محل الأول . ومعنى الكلام ان الغمام زال وحل محله الصحو (٦) أوسعه ضربا أوسبا : أكثر منه . أى رفضنا الاقامة رفضا باتا (٧) الربقة عروة فى حبل تشد فيها أعناق الدواب أو الاسرى (٨) أى أبو الفضل الميكالى الآنف الذكر

دَهتْنا السماءُ غداة السَّحاب ... بغَيْثٍ على أُفْقِهِ مُسْبِلِ
فجاء برعدٍ له رنَّة ... كرنّة ثَكْلَى ، ولم تَثْكَلِ
وثنّى بوَبْلٍ عَدَا طَوْرَه ، ... فعادَ وَبالاً على المُمْحِلِ (١)
وأشرفَ أصحابُنا من أذاهُ ... على خَطرٍ هائلٍ مُعْضِلِ
فمن لائذٍ بفِناء الجِدارِ ، ... وآوٍ الى نَفَقٍ مُهْمَلِ
ومِنْ مُستجيرٍ يُنادِي الغريق ... هناكَ ، ومِنْ صارخٍ مُعْوِلِ
وجادتْ علينا سماءُ السُّتوفِ ... بدمعٍ من الوَجْدِ لم يَهْمِلِ (٢)
كأنّ حَراماً لها أن تَرَى ... يَبيساً من الأرض لم يُبْلَلِ
وأقبل سَيْلٌ له رَوْعَةٌ ، ... فأدبَرَ كلٌّ عن المُقبِلِ
يُقَلِّعُ ما شاءَ من دَوْحةٍ ، ... وما يَلْقَ من صخرة يَحمِلِ
فمن عامرٍ ردَّه غامراً (٣) : ... ومن مَعْلَمٍ عادَ كالمَجْهَلِ
كفانا بليّتَه ربُّنا ؛ ... فقد وجب الشُّكر للمُفْضِلِ
فقُلْ للسماء : أرْعُدِي وابْرُقِي ... فانّا رجَعْنا الى المنزِلِ

(١) الممحل : المجدب . أى ان هذا المطر كان شرا عليه (٢) أى لم يكن سيله بسبب الحزن كما هو المألوف (٣) الغامر ضد العامر

النخل

تَنبُتُ الأُمّة فى صُقعٍ من الأَرض ويَنبُت معها ما تُعوِّل عليه من حيوان ونبات، فيُداخِلان مَعيشتها، ويستبطنان مِزاجها وطبيعتها، حتى يصيرا عُنوان جِنسها ورَمْز حياتها، فلا تَصبر عنهما، ولا تستطيب غيرهما. فاذا كانت الإبل للأعراب منها رَكوبهم ومنها يأكلون. فالنخل كذلك منها يتفكهون وبها يَعيشون. فحيثما طَوّحتْ بالعربىّ الأقدار، وألقى فى بُقعة عصا التَّسيار، نَتَج الإبلَ وغَرَس الفَسيل (١). ذلك بأن جِبلّته (٢) الأُولى فُطِرتْ على معيشة القَفْر، والابل — كما يقولون — سفائن البر، وأصبَر حيوان على ظمأ وأقنعه بأىّ مَرْعى. والنخل أشبه بها في ذلك فهُنّ الراسخات فى الوَحْل (٣) المخصِبات فى المَحْل (٤). ولأمرٍ ما أكثَر الله من تَرداد ذِكرها في كلامه القديم، وخصّها رسوله ﷺ بالتكريم فقال «أكرموا عمتكم النخلة» فجعلها أُختا لآبائنا لِبرّها بنا وتحدّبها (٥) علينا: تُؤتينا أُكُلها فى الجَدْب كما تُؤتيناه فى الخِصب، وتجود فى الوَحْل كما تَطيب فى الرمل

لذلك يُرجّح علماء النبات أن مَهْد النخل ومَوطِنها القديم جزيرة العرب، فهىَ تَنبُت فيها بفِطرتها، وتَستقلّ على أرضها بنفسها. ثم عنها

---

(١) جمع فسيلة وهى فرخ النخلة وغيرها (٢) الجبلة: الخلقة والطبيعة أو الأمة التى جبلت ونشأت على حال خاصة (٣) أى لا تقلعها السيول ولا تتلف بكثرة المياه (٤) الجدب وانقطاع المطر: لشربها بعروقها من باطن الارض (٥) تعطفها

نُقِلَتْ إلى مصر فى هجرة عريقةِ القِدَم مجهولة المُبتدا والخبر . وجاء القرآن مُشيرا إلى أنّ النخل فى مصر شجر قديم النّبات شهير الصفات بحكايته على لسان فِرْعون يَتوعّد السحَرَة المؤمنين برب العالمين رب موسى وهارون بقوله « فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ (١) وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ » وأخبارُها مُنبثّة فى اللُّغة المِصرية القديمة على اختلاف أطوارها واقسامها

ولمّا فتَح العرب الممالك كانت البَصرة أوّل مِصر مَصَّروه ، فانشِبوا (٢) بَعْدَ أن نَزَلوا الرِّحال واستذرَوْا بالعُروش أنْ غرَسوا حولها النخيل ، فكثُر سوادُها ، ووفَرتْ غلّتُها ، وتنوّعت ثمرتها ، وقام من صِيرانها (٣) على سِقْى (٤) نهر الأُبُلّة (٥) مُرادِقات زَبَرْجَدِية ، وتَهدَّل من قِنْوانها (٦) ثُرَيّات عَسْجدية . وتَنانير (٧) ياقوتية ، حتى عُدَّ بها نهر الأبلة أحد جنات الدنيا الأربع ، وهى : صُغْد سَمَرْقَنْد (٨) وشِعْب بَوّان (٩) ونهر الأُبُلّة وغُوطة دمشق . ولا تزال غَلة نخيل البصرة من أغزر موارد ثروتها وموضع البَذْل من عِنايتها

---

(١) بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى (٢) أى ما لبثوا (٣) جمع صور (بفتح الصاد) وهو مجتمع النخل (٤) سقي النهر : الأرضون التى يسقيها (٥) الأبلة بلدة قديمة فى الجنوب الغربى من البصرة كانت مرفأ لسفن بحر فارس . ونهر الابلة هو نهر جره اليها من ناحية البصرة زياد ابن ابيه (٦) جمع قنو (بكسر القاف) : الكباسة (٧) وهو هنا كالثريا التى تعلق فيها القناديل (٨) موضع خصب فيها (٩) هو واد عميق بفارس كثير الاشجار والمياه

وتَنبُت النخل فى البلاد الحارّة والمعتدلة القليلة البَرْد، ولكنّها لا تُخصِب ولا تُعَمَّر إلا فى السهول التى بين الدرجة الخامسة عشرة والخامسة والثلاثين من خطوط العرض الأَرضية

وهى من الاشجار الوطنية القديمة واكثرها عندنا انتشارا وبركة. وللمصريين من أهل النُّوبة ومصر العُليا والسُّفلى عظيم عِناية بها وحُسن هِداية فى القيام على تربيتها وإخصابها

وأكثرُ ما تكثُف صِيرانها، وتَغِنُّ [1] حوائشها [2] وجنانها بإقليم الجيزة وشرقىّ القليوبية وشمالىّ الشرقية والغربية والبحيرة وجميع بلاد الواح وخاصة واح سيوة. ويندُر أن تكون بمصر مدينة أو قرية غير محفوفة بنخل كثير أو قليل

وتُعَمَّر النخلة إلى قَرْن من الدهر. وتُعرَف سِنها بعَدّ طباق الكرَب [3] على جِذْعها؛ فكلُّ طبقتين تُقابلان عاما من عمُرها مالم تكن عَيْدانة قِرْواحا [4]، فإنّ طَعْنَها فى السِّنّ يَفُتّ من جَرامِيز [5] كَرَبها فتنجرِد وتَتْلاَسُ، ويَصعُب تقدير سنّها إلا بقَيْس جِذعها: بأن تقدّر كل طبقة من الكرَب بِشِبْر أو نحوه

---

(١) تكثر وتستر الأرض (٢) جمع حائش وهو حديقة النخل (٣) اليابس على جذوع النخل من أصول السعف المشذبة (٤) العيدانة والقرواح: النخلة الطويلة السحوق المنجردة الملساء (٥) جمع جرمود (بضم الجيم): وهو ما يبس وتقبض من الكرب الذي يبقى على جذع النخلة من أصل السعف بعد ما تقطع كما فى المخصص

وجميع السهول فى منطقة النخيل تصلح لغراسها طينيةً كانت أو رَمْليّة كثيرة الخصب أو قليلته . وسواء أُجعلت النخل فيها عَذِيَّة [١] أم سَقِيّة [٢] وكان ماؤها عذبا أم شَريبا [٣] غير أن أجود الأرضين لغرْس النخل الخفيفةُ التي يُمازِج رَمْلها الطّين والطُّفال . والأرض الرملية لا تَقِرُّ [٤] غلّتُها بغير السَّماد

وتُستكثَر النخيل بأحدى طريقتين :

الأولى — طريقة اسْتنباتِ النَّوَى . وهى الطريقة الفطرية ، وتنبُت النَّجْمة من نَقير [٥] النواة غير أن ما ينبُت منها يكون جُلُّه فَحاحيل [٦] لا تُثْمِر ، وإن أَثْمرتْ خالفت أُصولها فى بعض صفاتها ، وأنما يُستَبْقَى من كل مَجْمَع [٧] فُحّالٌ لكلّ عشرين أو ثلاثين نخلة لِتُؤَبِّر [٨] بطَلْعِه

والثانية ـ طريقة اسْتنبات الوَدِيّ [٩] والفسيل . وهى التى عليها المُعَوّل فى جميع البُلدان التى تُعنَى بغراسة النخيل ، ولكنّها تستلزم من الغرّاس كُلْفة وتعهُّدا بالخدمة بضع سنين

فاذا أُريد زرع دِيارٍ [١٠] نخلا حُرِثَت الأرض مرّتين حرْثا غائرا ثم

---

(١) بعيدة عن الماء والريف (٢) ضد العذبة (٣) الشريب الماء به شىء من العذوبة ويمكن شربه (٤) تكثر (٥) النكتة الصغيرة في ظهر النواة (٦) جمع فحال و هو : النخلة الذكر (٧) النخل التى تنبت من النوى (٨) تلقح (٩) جمع ودية وهى الفسيلة الصغيرة (١٠) مزرعة النخل كما فى المخصص

فقرت تفقيرا مستقيم السكك متباعدَ الفُقُر[١] ، بحيث لا يقلّ غرار[٢] ما بين السكتين طولا وعرضا عن ثمانى أذرع فرنسية ، أو كما يُقدّر حُذّاق الغُرّاس لكل فدان ثمانين نخلة ، وقد تصل الى مائة فى الأرض السوداء الخصبة . فاذا حان إبّان الغراس ، وهو شهر برمهات (إبريل) يُعمَد الى الفسائل التى مضى على نُجومها أربع سنين أو خمس ، وكانت عُروق جُذرها ناشبة فى الأرض ، فتُفتَصل من أصول أُمهاتها ، ويُنحّى عنها سعَفها القديم ، وتُلفّ أُرُومتها[٣] عُقيبَ افتصالها ببعض النبات والحشائش لِتَقيها حرّ الشمس ، ثم تُغرَس كلّ فصلة فى فقيرها على غوْر من الأرض أعمق ممّا كانت فيه بنحو قدم ، وتُكبَس بالطين والدمّان[٤] مُوَجّهة بميْل قليل إلى جهة الشمال ، ثم تُلفّ الغريسة بسعَف ، وتُسقَى بماء كثير ويُكرّر السقْى كلّ ثمانية أيام مُدّة سنة الا فى زمن النز والفيضان ، وتُثار الأرض حوْلها كلّ أُسبوعَين أو ثلاثة ؛ حتى اذا مشَتْ فيها الحياة ، واخضرت ، وخرَجت لها قُلْبة[٥] وعواهن[٦] جديدة عُرِّيَتْ من اللفائف ، وتعهّدتْ بالسقى والعزْق وافتصال ما ينجم حول أُرُومتها من الأشاء[٧] حتى تُدْرِكَ وتُثمر ، ويندُر أن يكون كذلك قبل ستّ سنين . وربما اهتجنت[٨] فأثمرَتْ قبلَ إدراكها عِذْقا أو عِذْقين . وإثمار النخلة أن

(١) جمع فقير : مثل كبير ، وهى البئر التى تغرس فيها الفسيلة (٢) الأرض التى بين سطرين من النخيل (٣) اصلها وجذرها (٤) السماد (٥) قلبة النخلة وقلبها (بضم القاف) رأسها اللين الذى لم يشتد فيصير جذعا أو هو الخوص اللين والجمارة (٦) هى خوصها الطرى الابيض (٧) الأشاء : جمع اشأة ، وهى مجتمع صغار النخل حول أمه (٨) اثمرت وهى صغيرة

تخرج من محيط قلبتها كوافير تبلغ عدتها ما بين ستة واثنى عشر كافورا (١) تنشق عن طلع كالخرز أبيض متراكب على عيدان لدن تتضام وتؤلف كل خصلة منها عثكولا (٢) وشمراخا، ومن العثاكيل يتجمع العذق والكباسة

ولا ينعقد طلع النخلة ثمرا إلا أذا أبر بنفاضة طلع الفحال. ويسبق طلعه فى الظهور طلع الاناث بأكثر من أسبوعين. وتأبير النخل إمّا بالصناعة وعمل الانسان، وهو الغالب، وإمّا بالطبيعة وتلقيح الرياح، وهو قليل التأثير فى النخل: فالأول يكون بتخليل طلع النخلة ببعض عيدان من طلع الفحال وحزمه بخوصة، والثانى بنقل الرياح غبار طلع الفحال الى طلع النخلة. ولا ينجح إلا اذا كثرت الفحاحيل بين النخيل، وإن لم تكثر خرجت ثمرتها صيصا؛ على أنه ثبت بطريق النذرة أن الرياح حملت لقاح فحال من بضعة أميال

وأول ماينعقد من الطلع يسمى جدالا (٣) فاذا استدار وجسأ (٤) نواه سمى بلحا، فإذا تلوّن بالحمرة أو الصفرة سمى بسرا، ثم هو بعد: إمّا رطب لا يتتمر فى بعض النخل وإن تأخرا كله تسارع إليه الفساد، وإمّا رطب يتتمر فى بعضها فيكون تمرا يابسا أو عجوة بحسب نوع النخلة وإقليمها. وإنما يكثر تتمر الرطب فى البلاد الحارة الجافة

(١) الكافور: كم الطلع قبل ان ينشق عنه (٢) العثكول والشمراخ: الخصلة من الكباسة (٣) جمع جدالة، مثل سحابة؛ وهو ما انعقد من الطلع واخضر واستدار قبل أن يشتد (٤) كنصر: يبس

الهواء القليلة السُّقيا. ومن البُسْر ما يَطيب أكله ولا يُنتظَر به الإرطابَ ومنه ما يُتَرَبَّص[١] به الارطابَ أو التَّتمُّر. وقد تُؤكل الرِّمَخ[٢] من نَفَض[٣] البَلَح إلاّ أنها تكون جالبة لِلحُمَّى غالبا

وينضَج البُسر فى أعالى الصَّعيد من مصر قبل نُضْجه فى شماليّها بنحو شهر. ويَتمّ نُضج النخل فى جميع أرض الوادى فى شهر (مسرى) ويَحين صِرامه[٤] فى أوّل فَيَضان النيل أواسط الصَّيف. ويَنتهى فى أواسط الخريف

ولا يُدَّخر من ثمرة النخل إلا التَّمْر والعَجْوة وبعض الرُّطَب القليل الحلاوة؛ وذلك بتشميسه فى المِرْبَد[٥] حتى يجِفّ ويبَس ثم يرنَع. وربما تحايلوا لإتمار الرُّطَب بفَضْخِه[٦] وإخراج نواه أو تجفيفة فى التنانير[٧] على حرارة فاترة

وقد يُنتَبذ التَّمْر فيُمكن استقطار الغَول (الكؤل) منه

ومن النخل صِنْوان[٨] وغيرُ صِنْوان: فالصِّنوان النخلات تنبُت من أصل واحد؛ ويكثُرُ ذلك فى بلاد العرب والنُّوبة؛ ويغلِب أن يكون منها أربع رَقَلات[٩] او خمس، حولَها أشاءٌ كثير. وقلّما يكون فى الصِّنوان جميعها أكثر من فُحّال واحد

---

(١) ينتظر به (٢) جمع رمخة كعنبة، وهو ما أرطب من البلح قبل ان يصير بسرا (٣) ماسقط من الثمر (٤) قطع ثمره (٥) مكان تشميس التمر كالجرن للحبوب (٦) شقه (٧) الافران (٨) جمع صنو (٩) الرقلة: النخلة فاتت اليد او الطويلة

وتُشذَّب النخل فى الشتاء وبعد ذلك بيسير تنجم كوافيرها، ثم تتصدَّع عن الطَّلْع فى شهر مايو

وتبقى النخلة مُثمرة الى قَرْن؛ ثم يَصْعَلُ[1] رأسها وسعفها، وترذُل ثمرتها وتقِلُّ وتُسانه؛ فتُثمِرُ سنة وتُخلِف أُخرى، ثم تُصبح ولا فائدة تُرتقب منها الا الأنتفاع بجذعها وسعفها

ومنافع النخل كثيرة: فالتَّمْر يابسه وعَجْوته مع اللبن أساس لِغِذاء كثير من بَدْوِ الحجاز وعُمان والبَحْرين وصحارى إفريقية وواحِها. وهو مُلائم لأبدانهم، لأنهم لايُفْرِطون فى أكله، ويعرِفون بالمِراس والتّجربة الحيطة والحِمْية التى تقيهم ضَرَّه فلا يُؤذيهم. ومن عَصير رُطَبه يستخرجون دِبْساً ورُبًّا لذيذ الطَّعم، وأفضله الخامُ غيرُ المطبوخ، ويستعملونه فى كلّ مايُستعمَل فيه السُّكر حتى قهوة البُنّ. وحَشف التَّمْر وقُسابته[2] يُرضَخ مع النوى المنقوع فيكون منهما اقراص تأكلها الإبل. ومن سَعَفه تُتَّخذ الأخْصاص والسقائف والمقمّات الطويلة. ويُتخذ من كَرانيفه[3] وكَرَبه وقود جيّد، ومن جريده العِصِىُّ والأقفاص والكراسىّ والأسوجة والعرائش والروافد التى تنوب عن الألواح برصفها فوق العوارض. وتتَّخِذ الأعراب من سُلاَّئه[4] مَسَالّ للجوالق[5] ونحوها، ومن الخُوص تُضفَر القِفاف والجُوَن والزنابيل ومَعارف الدَّوالى والنَّياطل،

(١) يصغر (٢) قسابة التمر أردؤه (٣) جمع كرنافه: اسفل السعفة المستعرض (٤) شوكه (٥) جمع جوالق (بضم الجيم): الغرارة

ومن عواهن الخوص البيضاء وخوافيه تُضفَر المراوح والحُصُر وتُصبغ بألوان جميلة ، وقد تُصنَع منها الخيام وقِلاع المراكب . ويُصنَع من مَدْفوق الجريد الأخضر المُلبَّس بعواهن الخوص أشكالٌ جميلة من الاطباق وسُفَر الطعام والسِّلال والعياب ، ويَتفنَّن النُّوبة وبَدْو السُّودان فى ذلك ما يَشاءون . ويُصنَع من ليفه الحِبال التى تُستعمل فى المياه كأشْطان (١) الآبار وقلوس (٢) أناجر (٣) السفن . ويُتَّخذ منه أومن مَدْقوق العراجين القلوس التى تُربَط بها قواديس (٤) النواعير ، كما يُصنَع من خشنه المكانس وتنجَّد من دقيقه الفُرش والمساور (٥) ويُنسَج نَوْع من البُسُط . ويُمكِن أن يُتَّخذ منه ومن الخُوص والجريد نَوْعٌ من الوَرَق . ويُتَّخذ من جُذوعه وأفْلاقها عَوارض تَحمِل روافد السُّقوف فتُعمَّر إذا كانت بعيدة عن الرُّطوبة أكثرَ من سِتمائة سنة للدونتها ولأنها لا تَسوس (٦) . وإن الزائر لجامع أحمد بن طولون لَيرى العارىَ عن ظِهارة الألواح المنقوشة من عوارضه جُذوعا من النخيل مرّ عليها ستة قرون (٧) من الزمان ، وهى على جِدَّة وشِدّة تُدافعان نُوَب الحِدْثان . ومَنْ عَرَف أن سُقُف المنازل والمساجد والعَرَقات التى تَكُون بين سَافات البِناء كانت إلى عهد قريب

---

(١) جمع شطن كورق : الحبل الطويل (٢) جمع قلس بفتح القاف احد حبال سفن البحر (٣) جمع انجر وهو مرساة السفينة من الحديد ونحوه (٤) جمع قادوس : الاقداح الضخام التى تحمل ماء الساقية (٥) الوسائد (٦) ينشأ فيها السوس (٧) لان أقرب ظن أن تكون من تجديد السلطان لاجين سنة ٦٩٦ هـ إن لم تكن من انشاء ابن طولون نفسه سنة ٢٦٥ هـ فيكون قد مضى عليها ١٠٧٧ هـ

تتَّخذ من الجذوع عرَف فَضْل النخل وبركتها على الديار المصرية

وتبلُغ عِدّةُ النخيل فى مصر وواحها ونُوبتها اكثرَ من عشرة آلاف ألف نخلة

ونختِم مقالَنا هذا بما رَواه الأَصمَعىّ المتوفى سنة ٢١٦ هـ عن أبى عمْرو ابْن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ قال : لقِيتُ أعرابيا بمكّة ،

فقلتُ له : مِمَّن أنت ؟

قال : أسَدِىّ

فلتُ : ومِنْ أيّهم ؟

قال : نَهْدِىّ

قلت : مِن أىّ البلاد ؟

قال : مِنْ عُمَان

قلت : فأنّى لك هذه الفَصاحة ؟(١)

قال : إنا سكنا قُطْرا لا نَسْمَع فيه ناجِخة التّيّار (٢)

قلت : صِف لى أرضَكَ

قال : سِيفٌ (٣) أفيح (٤)، وفَضاءٌ صَحْصَح (٥) وجَبل صَرْدَح (٦)، ورَمْل أصْبَح (٧)

---

(١) لان اهل عمان لا يعتدّ بفصاحتهم لمجاورتهم فارس والسند والهند

(٢) الناجخة الصوت . والتيار الموج ـ اى نحن بعيدون عن الساحل لا نخالط ملاحى العجم وتجارهم فى المرافىء فتفسد لغتنا بهم (٣) السيف ارض الساحل

(٤) واسع (٥) مستوٍ (٦) صلب (٧) يعلو بياضه حمرة

قلت : فما مالُك ؟

قال : النَّخل

قلت : فأيْنَ أنت مِنَ الإبل ؟

قال: إنّ النخلَ حَمْاُها غذاء. وسَعَفها ضياء، وجذْعها بناء، وكَرَبها صلاء [١]، ولِيفها رِشاء [٢]، وخُوصها وِعاء، وقَرْوُها [٣] إناء

استنصاح الخلفاء بعض الدهماء

مما رواه الإمام محمد بن ظَفَر الصَّقلّى المتوفّى سنة ٥٦٥ هـ فى كتابه سِلوان المطاع : أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مرْوان لما ندَب الناس لقتال عبد الله بن الزُّبَيْر وخرَج بهم مُتَوجّها الى مَكّة (حرَسَها الله تعالى) اُستصحب عَمْرو بنَ سَعيد بن العاص [٤]، وكان عَمْرو بنُ سَعيد قد اُنطوى على دَغَل نِيّة وفساد طَوِيّة وطماعِيَة فى نَيْل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مرْوان قد فَطِن لذلك إلا أنه كان يُبقى عليه لتأكّد حُرْمته وأواصر قرابته. فلما فَصل أمير المؤمنين عن دِمشق وسار عنها أياما ، واستمر به السير ، تَمارض عمرو بن سعيد ، فاستأذن أمير المؤمنين عبد الملك فى العَوْد الى دِمشق ، فأذن له . فلما دَخل عَمْرو

---

(١) وقود (٢) حبل (٣) القرو نقير من جذع النخلة او الخشب يجعل فيه العصير ونحوه (٤) وكان مروان عهد اليه بالخلافة بعده لمعاضدته اياه فى الخلافة ثم نكث وجعله ولى عهد لابنه عبد الملك فنكث عبد الملك أيضاً ، فخرج عليه فخدعه عبد الملك وقتله سنة ٧٠ هـ وهو ابن عمة عبد الملك ومن أقرب بنى أمية اليه

ابن سعيد دمشقَ صَعِد المنبر، فخطب النّاسَ خُطبة نال فيها من الخليفة، ودعا الناسَ إلى خَلعِه، فأجابوه الى ذلك، وبايَعوه. فاستولى على دِمشقَ وحصّن سُورَها وسَدّ ثُغورها، وبَذَل الرغائب. فبلغ ذلك عبدَ الملك بن مَرْوان، وهو متوَجّه إلى ابن الزبير. وبلغه مع ذلك أن والىَ حِمْص قد نزَع يده من الطاعة، وأن أهل الثغور [1] قد تشوّفوا للخلاف عليه. فخرج على وزرائِه [2]، وبيده مِخْصَرة يضرِب بها عِطْفه، فأطْلَعهم على ما بلغه، وقال لهم: هذه دمَشق دار مُلكنا قد استولى عليها عمْرو بن سعيد. وهذا عبدُ الله بنُ الزبير قد استولى على الحجاز والعراق ومصر واليمن وخُراسان. وهذا النعمانُ بن بشير أمير حِمص وزُفر بن الحارث أمير قِنّسْرِين [3] ونائل بن قيس أمير فِلَسْطينَ قد نزَعوا أيديهم من الطّاعة، وبايعوا الناس لابن الزبير، وقد تشوف أهل الثغور للخلاف، وهذه المُضَرية [4] سيوفها على عواتقِها تطالبنا بقتلى المرْج. فلمّا سمِع وزراؤه مَقالته ذَهَلتْ عقولهم، وعلِموا أن لا مفرّ، فنكّسوا رءوسهم ولم ينطِقوا. فقال لهم عبد الملك: لمَ لا تنطقون؟ أحْضِروا

---

(١) كانت البلاد التى على تخوم الروم من غربى الجزيرة الفراتية وشمالى الشام تسمى الثغور ثم سميت العواصم (٢) أى انصاره لأن منصب الوزارة لم يستحدث فى الاسلام الا عند ظهور الدولة العباسية (٣) مدينة قديمة كانت على مرحلة من حلب خربها الروم في غارة لهم سنة ٣٥٥هـ (٤) أى القبائل التى من مضر. ويسمون أيضا القيسية وكانوا بايعوا ابن الزبير تحت لواء الضحاك بن قيس فقاتلهم مروان أبو عبد الملك باليمانية فى مرج راهط من غوطة دمشق فهزمهم وقتل الضحاك

غَنَاءَكم ، فهذا وقت الحاجة اليكم . فقال له أفضلُهم : أىُّ غَنَاءٍ عندنا فى هذا ؟ ودِدْتُ والله انى كُنت حِرباءً [١] على عُود من أشجار تِهامة حتى تنقضى هذه الفتن

فلما سمع الملك مقالة صاحبه علم أن لا غَنَاءَ عِند وُزرائه . فقام عنهم ، وأمرَهم بلُزوم موضعهم وركب من فَوْره منفردا ، وأمرَ جماعة كثيفة من شُجعان قومه وفُرسانهم أن يركَبوا فى السلاح ويتبعوه مبتعدين منه بحيث يرَوْن إشارته إن أشار اليهم ففعلوا ذلك . وسار عبد الملك واتبعه القوم على ما رَسَم لهم . فلم يزَل سائراً حتى انتهى إلى شيخ كبير السن ضعيف الجسم سيئ الحال ، وهو يجمع السُّمَّاق [٢] . فسلم عليه عبد الملك ، وآنَسه بحديث خفيف ، ثم قال له : أيها الشيخ . ألك علم بمنزل هذا العَسكر ؟ فقال الشيخ : بلغنى أنهم نزلوا بموضع كذا . فقال عبد الملك : هل سمعت شيئاً مما يقول الناس فى أمره ؟ فقال الشيخ : ما سؤالك عنه ؟ فقال عبد الملك : إنى أردتُ الالتحاق بأَميره والدخول فى أصحابه والتعرُّض للحُظْوة عنده . فقال الشيخ ما معناه : انى أراك أديباً رَضِيّا ، وأحسبك حَسيباً سَرِيّا ، فهل تُحِبّ أن أنصَح لك فيما أنت قاصده ؟ فقال عبد الملك : ما أحوجنى الى ما تقول ! فقال الشيخ : إنه ينبغى لك أن

---

(١) الحرباء دابة طولها أقل من شبر تتلون بلون ماتجاوره وتراعى الشمس دائماً

(٢) هو ثمر شجرة صغيرة حامض قابض عفص مُشهٍّ كان كثير الاستعمال فى الطعام قبل جلب الباذنجان الأحمر (القوطه) من أمريكا . ولا يزال يستعمل كذلك فى الشام وفى بعض الأدوية

تصرفَ نفسَك عن هذا الامر الذى ترغبُ إليه ؛ فإن الأمير الذى أنت قاصده قد انحلَّت عُرا ملكه ، ونابذَه أتباعُه ، واضطربت أموره . وإن السلطان فى حال اضطراب أموره كالبحر فى حال هيجانه لا ينبغى أن يُقرَب . فقال عبد الملك : أيها الشيخ إن الحُنكةَ لم تبلغ بى مغالبةَ نفسى فى كل ما ترغَب اليه . وانى أجدها تنزع الى صُحبة هذا الامير نزاعا شديداً ، ولابُدَّ من ذلك . فهل لك إلى أن تُحسنَ إلىّ فتخبرنى بما تراه من الرأى لهذا الامير فى تدبير هذه الخطوب التى دهمَتْه لأعرِض ذلك الرأى عليه وأتنفَّق به عنده ، فلعلَّه أن يكون سببا لقربى منه !

فقال : إن حِكمة الله وعزَّته لتقتضيان بحجْب العقول والآراء عن النفوذ فى بعض النوازل . وإنى لأظنّ أن هذه النازلة التى نزلت بهذا الخليفة من النوازل التى لا تنفُذ فيها العقول ، ولا يهتدى الى صواب تدبيرها الرأى ، وإنى أكرَه أن أردّ مسألتك بالخيبة ؛ فهأنذا أقول فيما سألتنى قولا أقْضِى به حقّ رغبتك ، وان كنت لا أثِق بنفسى فيه لأن الخطْب عظيم جدّا والخطَر فيه يُضاهى عظمه . فقال له عبد الملك : قل جزاك الله خيرا ! فإنى لأرجو أن يُسدِّدك الله ، ويُرشدنى بك الى الصّلاح

فقال الشيخ : ان هذا الخليفة خرَج لمحاربة عدوّه ، فظهَر من مَشيئة الله سبحانه أنّه لا يُريد ماقصدَه ؛ والدليل على أن الله لم يُرِدْ قصْدَه لمحاربة ابن الزبير أنه قطعه عن التمادى بما أحدثه فى دار ملكه من وُثوب عمرو

ابن سعيد على منبره ، واستفساده لرعيته ، واستيلائه على بيوت أمواله وسرير خلافته . وانى مشير عليك بتفقد حال هذا الأمير وانتظار مايكون منه ؛ فان رأيته قد تمادى فيما خرج له وأصر على قصد ابن الزبير فاعلم أنه مخذول ؛ فاجتنبه . وإنما كان مخذولا لأن الله تعالى قد أظهر فى حكمه أمرا يقطعه عن التمادى لما خرج له ، فأبى إلا لجاجة . وإن رأيته قد رجع من حيث جاء ، وترك ما كان قصد له وخرج فى طلبه فارج له السلامة لأنه مستقيل ، والله سبحانه وتعالى أهل أن يقبل من استقاله ويرحم من يرجع اليه . فقال له عبد الملك : ياشيخ وهل رجوعه الى دمشق الا كمسيره الى ابن الزبير ؟ إذ كان قد ظهر من حكمة الله تعالى ومشيئته أن قبض عنه قلوب رعيته الذين بدمشق عن موالاته وبسط أيديهم بالبيعة لغيره ، فمسيره الى ابن الزبير كرجوعه الى عمرو بن سعيد لان كل واحد منهما حاصل على مملكة منيعة ورعية مطيعة . فقال الشيخ : إن الذى أشكل عليك لواضح بين ، وها أنذا أزيل اللبس عنك . إن عبد الملك اذا قصد ابن الزبير كان فى صورة ظالم له ؛ لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة قط ، ولا وثب له على مملكة . وهو اذا قصد عمرو بن سعيد كان فى صورة مظلوم لأن عمرو بن سعيد نكث بيعته ، وخان أمانته ، وأفسد رعيته ، وحملهم على النكث والغدر ، ووثب على دار ملك لم يكن له ولا لأبيه ، بل كان لعبد الملك ولأبيه من قبله ، وعمرو بن سعيد عليه معتد وله مغتصب . وإنه كان يقال : سيف الغصب مهزول ووالى الغدر معزول . وكان يقال : جيش الغدر مفلول وعرش الطغيان مثلول . وسأضرب لك

مثلا يَشفى النفس، ويَنفى اللَّبس. وأُودِعه من فِقَر الحِكَم ما يَشْحَذ الفِطن والألباب، ويُسفر عن وجوه الصواب :

زعموا أن ثعلبا كان يُدعَى ظالما، وله جُحْر يأوى اليه، وكان مغتبطا به لا يبغى عنه حِوَلاً. فخرج يوماً يبتغى مايأكله، ثم رجع فوجد فيه حيّة فانتظر خروجها. فلم تخرُج وعلم أنها قد أَوْطنته. وذلك لأَن الحيّة لا تتخذ جُحْراً، وإنما تدخل الجِحَرة فتغتصبها وتطرُد عنها ما كان فيها من الحيوان. قال الراجز يصِف رجلا بالظلم :

وانت كالأفعَى التى لا تَحْتَفِرْ ثم تجى شاردةً فتنْجَحِرْ

ولذلك قالوا : أظلَمُ مِن حيّة. فهذا ظلمها

ولما رأى ظالمٌ أن الحية قد أوطنت جُحْره، ولم يُمْكنه السكون معها ذهب يطلب لنفسه مأوَى. فانتهى به الطَّواف الى جُحْرٍ حَسَن الظاهر حَصين الموضع فى أرض خصيبة ذات أشجار ملتفة وماء مَعين، فأعجبه وسأل عنه. فأُخبر أن الجحر لثعلب يُدعَى مفوّضاً، وانه ورثه عن أبيه. فناداه ظالم، فخرج اليه، ورحّب به، وادخله الجُحر، وسأله عما قصد فقصّ عليه خبره، وشكا اليه ماناله، فرقّ له مفوّض ثم أقبل عليه، فقال له : إن مِن الهِمّة الا تُقصِّر عن مطالبة عدوّك، وأن تَستفرغ جُهدك فى ابتغاء دفعه : وإنه كان يقال : مَن تَهيّب عدوّه فقد جيّش على نفْسه جيشا. وكان يقال : رُبّ حِيلة أنفَع مِن قبيلة. وكان يقال : الموت فى طلب الثار خير من الحياة فى العار. وكان يقال : اذا طلبتَ لِقاءَ عدوّك بالقوة فلا تُقْدِمَنّ عليه حتى تعلَم ضعفه عنك. واذا طالبْتَه بالمكيدة فلا

يعظمن أمرُه عندك ، وإن كان عظيما . والرأى عندى أن تنطلق معى الى مأواك الذى انتُزع منك غصبًا فلعلّى أنتهى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ؛ فإن أفضل الرأى ما أُسِّسَ على الرَّوِيَّة . ولهذا قيل : يفسُد التدبيرُ بثلاثة أسباب : أحدها أن تكثُر الشركاء فيه ، فاذا كان ذلك انتشر التدبير وبطل ، الثانى أن يكون الشركاء فى التدبير متنافسين متحاسدين ، فيدخُله الهوَى والبَغْى فيفسُد ، والثالث أن يَملِكَ التدبيرَ مَن غاب عن الأمر المدبَّر دُون مَن باشَره وشاهدَه ؛ فاذا كان ذلك كذلك دخله حِقْد المباشِر الحاضِر وفوتُ الفُرَص . ثم إن تدبير المسموعات مؤسَّس على ظنون الخبر ، وتدبير المبْصَرات مؤسَّس على يقين النظر

فانطلقا معًا الى ذلك الجحْر فتأمَّله مفوَّض ، وعلِم ما أراد علْمه من أمره . ثم أقبل على ظالم فقال له : قد شاهدتُ من أمْر مسكَنك ما فتح لى بابَ المكيدة وسفَر لى عن وجه الرأى فيه . فقال ظالم : أطلِعْنى على ما ظهر لك . فقال مفوض : إن أضعفَ الرأى ما سنَح فى البديهة . وإنه كان يقال : الرأى مِرآة العقل فمَن أردتَ أن تنظُر الى صورة عقله فاستشره . وكان يُقال : أفضل الرأى ما أجادت الفكرةُ نقْدَهُ ، وأحكمت الرَّوِيّة عَقده . وكان يقال : الرأى سيف العقل ؛ ولمَّا كان أمضى السيوف ما بُولغ فى إرهاف حدّه وأجيد صَقْله كان أنجحُ الآراء ما كثُر امتحانه ، وأطيل تأمّله . وكان يُقال : كلّ رأى لم تمخَض به الفِكرة ليلةً كاملة فهو مولود بغير تمام . ثم قال له : انطلِق معى فبِتِ الليلة عندى لأنظُر ليلتى هذه فيما سنَح لى من المكيدة ، ففعلا ، وبات مفوَّض مفكِّرًا فى ذلك ، وجعل ظالم يتأمل مسكَن

مفوّض، فرأى من سَعته وطِيب تُرْبته وحَصانته وكثرة مرافقه ما اشتدّ به إعجابه وحِرْصه عليه ، وطفِق يُدبّر الحيلة فى غَصْبه ونَفْى مفوّض عنه . وكان يقال : اللئيم كالنار ، إكرامُها إضرامُها . وكالخمر ، حبيبها كئيبها ، وتبيعُها صريعُها . وكان يُقال: اذا كانت الاساءة طبعاً ، لم يَملِكْ لها الإحسان دَفْعاً . وكان يقال : العاقل يُقدّم التجريب على التقريب (١)، والاختبار على الاختيار ، والثقة على المِقَة (٢)

فلما أصبحا قال مفوض لظالم : انى رأيتُ ذلك الجُحر بموضع بَعيد من الشجر والخُضَر ؛ فاصرِفْ نفسك عنه ، وهلُمّ أُعِنْك على احتفار مسكن بهذا المكان المتيسّر المرافق . فقال له ظالم : ان هذا لا يُمكننى ، لأنّ لى نفساً تَهلِك لبُعْد الوطن حَنينا ، ولا تَملِك مع فَقْدِ السَّكَن سُكونا . وإنه كان يقال : دَلائل الوَفاء سبْع : بِرُّ الآباء والأمهات ، وصِلة ذوى القرابات ، والنزاع الى الوطن ، والجزعُ لفقد السَّكَن ، والحزنُ لا خلاق الشَّباب ، واللُّبس لأَخْلاق (٣) الثياب ، والصبر على هَرَم الدواب . وكان يقال : الغريب ميّت الأحياء . قد أعاده البيْن ، أثراً بَعد عَين

فلما سمع مفوّض مَقالة ظالم وما تظاهر به من الرَّغبة فى مسكَنه ووطَنِه ، قال له : إنى أرى أن نَذْهَب يومَنا هذا فنَحْتَطِب حَطبا ، ونَربِط منه حُزْمتَين . واذا أقبل الليل انطلقت أنا الى بعض هذه الخيام ، فأخذتُ قَبَس نار ، فاحتملْنا القبَس والحطب ، وقصدْنا الى مسكَنك فجعلنا الحُزْمتين على بابه ، وأضرمناهما نارا . فإن خرجت الحيةُ احترقت ،

(١) أى لا يقرّب انسانا حتى يجرّبه (٢) الحب (٣) جمع خلق : البالى

وان لزمت الجحر أهلكها الدخانُ . فقال ظالم : نِعم الرأىُ هذا ! فانطلقا فاحتطبا ، وربطا من الحطب حُزْمتين بمقدار ما يُطيقان حَمْله . ولما جاء الليلُ ، وأوْقد أهل الخيام النار انطلق مفوّض ليأخُذ قبساً فعمَد ظالم الى إحدى الحزمتين فأزالها الى موضع غيّبها فيه ، ثم جرّ الحُزمة الأخرى الى باب مسكَن مفوّض ودخلَه ، وجذبها اليه ، فأدخلها فى الباب فسدّه بها . وقدّر الجاهل فى نفسه أن مفوضا اذا أتى الجحر لم يُمكنه الدُّخولُ اليه لحصانتهِ ولأنّ بابَه مسدودٌ بالحطب سَدًّا مُحكَما ، فأكثرُ مايقدرُ عليه أن يُحاصِره ؛ فاذا يَئس منه ذهب فرأى لنفسه مأوى . وقد كان ظالم رأى فى جحر مفوّض طُعْمة ادّخرها مفوض لنفسه . فعوّل ظالم على الاقتيات منها في مدة الحِصار ، وأذهله الشَّرَه والحِرْص والبَغْيُ عن فساد هذا الرأى ، وأنه مُتعرّض لمثل ماعزَم أن يفعَله بالحيَّة . وكان يقال : احترسْ من تدبيرك على عدوّك كاحتراسك من تدبير عدوّك عليك ، فربّ هالك بما دَبَّر وفكَر ، وساقط فى البئر التى حفَرَ ، وجريح بالسِّلاح الذى شَهَر . ثم إن مفوّضاً جاء بالقبس فلم يجدْ ظالما ، ولا وجد الحطب ، فظنّ أن ظالما قد احتمل الحزمتين معاً تخفيفا عنه ، وأنه بادَر بهما نحو جحره إشفاقا أن يأتى مفوّض فيحتمل إحداهما . فشقّ ذلك عليه ، وظهر له من الرأى أن يترُك القبس ، ويُبادر اليه فيأخذَه فيحتمل معه الحطب ، وألْقى القبسَ من يده ، ثم كَرِه أن تُنفِدَه الريح فيحتاج الى طلَب قبس آخر فأدخله فى باب جحره ليستره بذلك ، فأصاب الحطبَ ، فأضرمه فاحترق ظالم فى الجُحر ، وحاق به

مكره

فلما اطلع مفوّض على أمر ظالم قل : ما رأيتُ كالبغْى سلاحا أكثر عمله فى محتمله . ولهذا قيل : الباغى باحث على مُدْية حتفه بظلْمه ومُتَرَدٍّ فى مَهاوِى تدميره بمساوى تدبيره . وقيل : ما اجتمع البغى والمُلك على سرير الأخلا . وقيل : لكلٍّ عاثر راحمٌ الا الباغى ، فان القلوبَ مطبوعة على الشماتة بمَصْرَعه . وقيل : ما أعطَى البغْى أحدا شيئاً الا أخذ منه أضعافه . ثم أن مفوضاً تمهّلَ حتى طفئت النار ، فدخل جحره فاستخرج جيفة ظالم فألقاها ، وأوطَنَ جُحره على حال تحفُّظ واحتراس واستعدادٍ لكيد الكائدين

(فهذا) مَثَل عَمرو بن سَعيد فى بَغْيه ومخادعته عبدَ الملك ومخالفته الى دار مُلكه وتحصُّنه فيها . وقد كان عبد الملك فى خروجه الى محاربة ابن الزبير عاملا فيما يُريد به عزّ عمرو بن سعيد وبقاءَ المُلك فى أهل بيته وخروجه عن ابن الزبير ، اذْ كان عزُّ عبد الملك عزاً لعمرو بن سعيد ومُلكه مُلكاً له ، فلم يَرضَ عَمرو سَعْيَه ولا أعانه على مصلحة نفسه . وفعَل كفعْل ظالم مع مفوّض سواء

فلمّا سمع عبد الملك ما ضَرَبه الشيخ من المَثَل واستبصر فيما أودَعه من الحِكَم سُرّ بذلك سروراً شديداً . ثم أقبل على الشيخ فقال له : جُزيتَ خيراً ! فقد عَظُمَت يدُكَ عندى ، وإنى لأُوثِر أن تجعل بينى وبينك مَوعِدا ، وتَذكُر مكانَك لألقاك به بعد يومى هذا . فقال الشيخ : فما الذى تُريد بذلك ؟ فقال عبد الملك : انى اؤمل أن أنتفع برأيك عند

الأمير ، وأكافئك على ما كان منك . فقال الشيخ : إنى أعطيتُ اللهَ تعالى عهداً ألاَّ أتحمَّلَ مِنةَ بخيل . فقال له عبد الملك : ومن أين علمتَ بخلى ؟ فقال الشيخ كيف لا أعلم بخلك وقد أرجأتَ صلتى ومكافأتى مع القدرة على تعجيلها ، فما عليك لو وصلتنى ببعض ما أرى عليك من السلاح والبزَّة (١) السنية ؟ فقال له عبد الملك : أُقسم بالله لقد ذهلتُ ! ثم نزع سيفه ، فقال : اقبلْ منى سيفى هذا ولا تُخدَع عنه ، فإن قيمته عشرون الف درهم . فقال الشيخ : إنى لا أقبل صلة ذاهل . فدعنى وربّى الذى لا يبخل ولا يذهل ، فهو حسبى !

فلما سمع عبد الملك مقالته علمَ فضله فى دينه . وقال له : إنى أنا عبد الملك ، فاعمدْ لى وارفع إلى حوائجك . فقال الشيخ : وأنا عبد الملك ، فهلمَّ نرفعْ حوائجنا الى من أنا وأنت له عبدان

فانطلق عبد الملك ، فعمل برأى الشيخ فأنجحَ

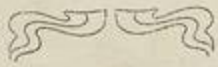

(١) الثياب

الجامع الازهر

من شعائر الإسلام أن يكون فى كل مِصْرٍ مسجد جامع تُقام فيه الصلوات الخمس وتُجمع الجُمُعة ، فكان أوَّل جامع أُسِّس فى حاضرة الديار المصرية الجامع العتيق (جامع عمرو) بالفُسطاط . ثم بنى العبَّاسيون بمدينتهم العسكر شمالىَّ الفسطاط جامع العَسْكر . ثم بنى الأمير احمد ابن طولون على جَبَل يَشْكُر جامعه العظيم ، فبطل به أمر جامع العَسْكر . ولما أنشأ الفاطميون القاهرة على يد القائد جَوْهر الرومى الصَّقلِّى سنة ٣٥٩ هـ أسّسوا الجامع الأزهر على مَقربة من قَصر الخلافة على الخطة التى كانت تُبنى عليها المساجد الجامعة فى صَدْرِ الاسلام : وهى صَحْن فسيح مربَّع الجوانب يُحيط به أروقة مُقامة على أساطين من ثلاثة جوانب و مقصورة قِبليّة مسقوفة فسيحة ذات عَمَد كثيرة فيها المنبر والمحراب

وابْتُدِىء بعمارته يوم السبت لست بَقِينَ من جُمادَى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة هـ ، وكَمل بناؤه لتسْع خَلَوْنَ من رمضان سنة إحدى وستين وثلثمائة . وكُتِب بدائرة القُبة التى على المحراب ما نَصُّه بعد البسملة : « مما أمر ببنائه عبد الله وَوليُّه أبو تميم مَعَدٌ الإمامُ المُعزُّ لدين الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الاكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب . وذلك فى سنة ستين وثلثمائة »

وأوَّل جُمُعة جُمِعَتْ فيه فى شهر رمضان لسبع خَلَوْنَ منه سنة

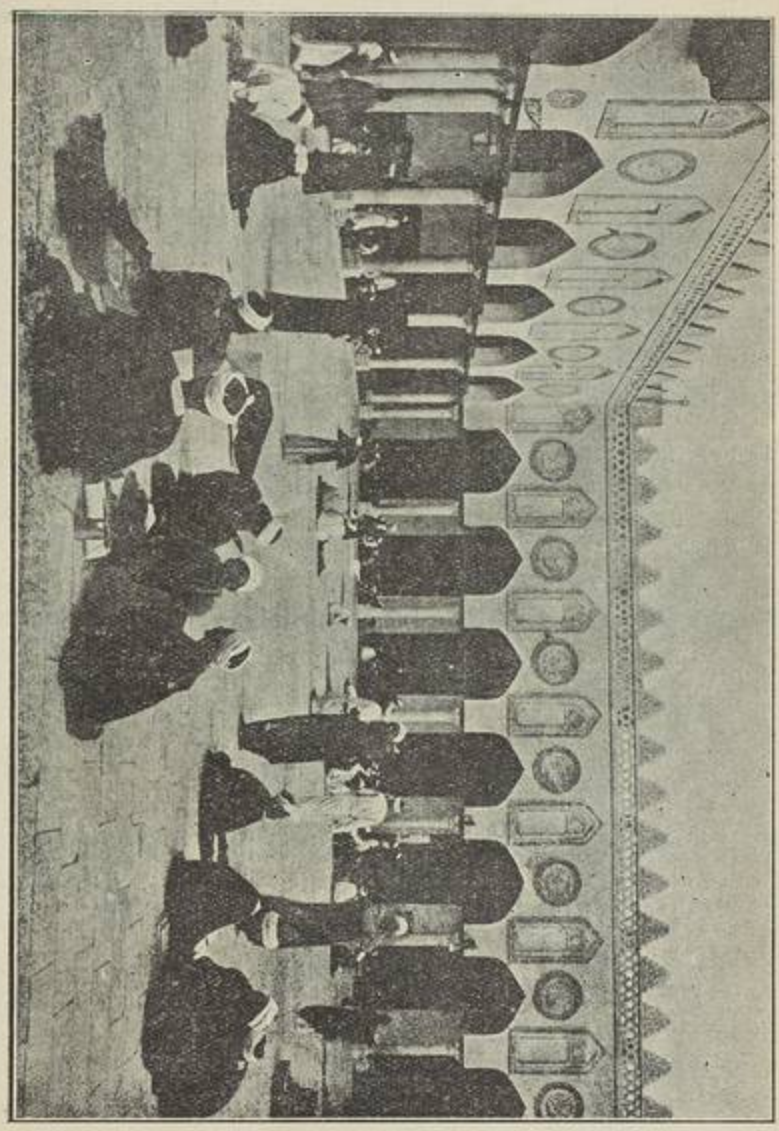

الطلبة في صحن الأزهر يطالبون الدروس قبل حضورها

إحدى وستين وثلثمائة . وزاد فيه العزيز بن المعز بعض الأشياء

وفى سنة ٣٧٨ هـ سأل الوزير أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس الخليفة العزيز أن يجرى أرزاقا على جماعة من الفقهاء يدرسون فيه العلم . ففعل وبنى لهم داراً بجانب الازهر كانت أول ما أنشئ من نوعها من الابنية الملحقة بالأزهر التى أطلق عليها بعد اسم الأروقة أو المدارس أو الزوايا والتى أحاطت بالازهر من جوانبه الاربعة . فاذا كان يوم الجمعة حضروا الى الجامع ، وتحلقوا فيه بعد الصلاة للدرس الى أن تصلى العصر . وأطلق لهم الوزير صلة فى كل سنة ، وخلع عليهم الخليفة يوم عيد الفطر وحملهم على بغال . ثم جدده ابنه الحاكم بأمر الله ، ووقف عليه أوقافا عظيمة

وكان الخليفة العزيز قد أنشأ بين بابى النصر والفتوح جامعا عظيما صليت فيه الجمعة وأكمله ابنه الحاكم فسمى بجامع الحاكم . وبنى الحاكم أيضا جامع المقس (جامع أولاد عنان) ، وجامع راشدة بخطة راشدة بفسطاط مصر ، فكانت الجمعة تجمع مرة فى الجامع الازهر ومرة فى الجامع الحاكمى ومرة بجامع ابن طولون ومرة بالجامع العتيق بالفسطاط . ثم جدده الخليفة المستنصر الفاطمى ، ثم جدده الخليفة الحافظ لدين الله

ولم تنقطع الخطبة بالجملة من الازهر زمن الدولة الفاطمية ، فلما استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وأبطل منها مذهب الشيعة الفاطمية وقلد وظيفة قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس

عمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد ، كما هو مذهب الشافعية ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرّ الخطبة بالجامع الحاكمى إذ كان أوسع من الأزهر . فلم يزل الجامع معطلاً من إقامة الجمعة فيه مائة عام أى زمن الدولة الأيوبية وبعضاً من عصر المماليك البحرية

فلما ولى الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ملك مصر كان من أمراء دولته الأمير عزّ الدين أيدمر الحلّى ، وكانت داره بقرب الأزهر ، فرعى فيه حرمة الجوار واستعان بماله وجاهه عند السلطان فى عمارته ، فجمع من أوقافه بعض ما بددته أيدى الغاصبين ، وأمدّه السلطان بكثير من المال ، وشرع فى عمارته . فعمر الواهى من أركانه ورفع سقوفه وبلّطه وفرشه وأثر فيه آثاراً حسنة حتى عاد حرماً فى وسط المدينة . وأنشأ ببلبك الخازندار فيه مقصورة (رواقا) كبيرة رتّب فيها جماعة من الفقهاء لقراءة الفقه على مذهب الامام الشافعى (رحمه الله) ، ورتّب فى هذه المقصورة محدّثا يسمع الحديث النبوى والرقائق [1] ، وسبعة لقراءة القرءان ومدرسا ، ووقف على ذلك الغلات الدارّة . فلما كمل تجديده تحدّث فى إعادة الخطبة فيه ، فامتنع قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الاعز [2] من اقامة خطبتين ، فيه وفى الجامع الحاكمى وفقا لمذهبه . فولّى السلطان قاضيا حنفيّا ، فأذن فى إعادتها ، وأخذ بذلك خطوط العلماء . وأقيمت الجمعة فيه باحتفال عظيم حضره

(١) المواعظ وحكايات الصالحين (٢) كان الاعز هذا وزيرا للكامل الأيوبى

أكابر الدولة . ووجد الناس به مرفقا وراحة لتوسطه ، وعاد مسجداً جامعاً ومدرسة . فكان هذا الإذن أساساً اعتمد عليه سلاطين المماليك وكبراؤهم فى صحة بناء مساجد جامعة متعددة بالقاهرة وغيرها

وكانت عنايتهم بالازهر من أكبر مظاهر البر والاحسان المأثورة عنهم ، فجددوه مرارا وأضافوا اليه كثيراً من الأروقة العامة أو الخاصة لطائفة أو مذهب . ورفعوا حواليه وعلى أروقته المنارات السامقة

المآذن البحرية للأزهر ومئذنة جامع محمد بك أبي الذهب

واجروا عليه الجرايات من الوان الطعام والحلوى ، حتى زالت دولتهم وأصبحت مصر ولاية تابعة للعثمانيين فأولاه ولاتهم بعض العناية ، وامتاز من بينهم المحسن العظيم والمجدد الكبير عبد الرحمن كتخدا الذى أنشأ وجدد به ما يربو على عمل جميع من سبقه ، فإنه أنشأ المقصورة القبلية المرتفعة التى تقارب نصف الأزهر طولا وعرضا ، وبنى بها محرابا واسعا ومنبرا بديع الصنعة ، وأنشأ للازهر باب الصعيديين وبنى بأعلاه مكتبا ، وبنى رواق الصعيديين فوق صهريج وسبيل ، وبنى بجانب ذلك الباب منارة ، وأنشأ باب الشربة[1] وشيد عليه منارة وأنشأ المدرسة الطيبرسية بجوار الباب البحرى[2] إنشاء جديداً ، وبنى الباب البحرى (باب المزينين) وهو الباقى الى الآن . وجدد رواقا للمكيين والتكروريين[3] ورتب كثيراً من الخبز والطعام للأزهر وزاد فى طعام المجاورين الهريسة يوم الاثنين والخميس

ولما ولى الأمير الكبير محمد على باشا رأس الأسرة المحمدية العلوية أنشأ فيه رواق السنارية . ثم كان الأمير عباس باشا الاول يزور الأزهر ويجلس بحلقة الشيخ الباجورى وينثر على الطلبة الدراهم

وأنشأ المرحوم السيد أبو بكر راتب باشا الكبير رواق الحنفية ووقف عليه الاوقاف العظيمة . ثم جدد المرحوم اسماعيل باشا خديو مصر

---

(١) أصل الشربة مقدار الرى من الماء كالحسوة واللقمة ، اطلقت على مايعطى من قليل الحساء مجازا (٢) كان انشأها زمن المماليك الامير علاء الدين طيبرس مدرسة للشافعية (٣) أهل السودان الغربى

سنة ١٢٧٠ هـ باب الصعيديين على ماهو عليه الآن

ثم لمّا هدأت الأحوال بعد الثورة العرابية شرع ديوان الاوقاف فى إصلاح المتخرّب من الآثار . فشرع فى العمارة العظيمة بالازهر من سنة ١٣١٠ هـ ؛ فأصلح أواوينه وعُقوده وبلّط صَحْنه ، وأدخل فيه دُخان الاستصباح . وأنشأ الرواق العباسى ، ومكان ادارة الازهر ، وجدّد جميع الاروقة ، وازال بعض المنازل أمام بابه البحرى . والدولة المصرية على نيّة أن تبتاع جميع الابنية المحيطة به ويجعل بناء منفردا بنفسه

وبالازهر نحو ثلاثين رواقاً لمختلف الطوائف وعلى حسب أوقاف الواقفين

الازهر باعتباره جامعة اسلامية كبرى

كان الغرض من تأسيس الازهر أن يكون مسجدا جامعا للقاهرة كما ذكرنا آنفا ؛ ولكنه مالبث أن صار أيضا مدرسة للعلوم ، وبخاصّة فقه الشيعة والحكمة وعقائد الدين على رأى العُبَيْديين سنة ٣٧٨ هـ زمن العزيز أى بعد ثمانى عشرة سنة من إنشائه ، وأُلحق به من يومئذ أوّل رواق ينزله المدرسون وطلبة العلم بمسعاة الوزير يعقوب بن كلّس الذى كان يعتبر قيّماً عليه ورئيساً لمدرّسيه ، ولم يُزَحْزِح ذلك من مكانة تعليم العلم و إقراء القرآن بالجامع العتيق بالفسطاط و الجامع الطُّولونى ؛ إذ كانت الفسطاط فى الحقيقة هى حاضرة البلاد الكبرى ، والقاهرة منها بمنزلة ثكنة ومعقل للجند والخليفة

وما زال نِطاق التعليم يتّسع به حتى انفضاض الدّولة الفاطمية، فأُهمِلَ أمره زمن الدولة الأيّوبيّة، وأُنشِئَتْ مدارس أُخرى لتدريس فقه الشافعية وعقائد الأشعرية والتفسير والحديث وغيرها، ثم بُعِثَتْ حياتُه العلمية من مَرْقَدِها زمن دولَتَيْ المماليك؛ فجُدِّدت عمارتُه مِراراً وأُضيف اليه بِضْعَ عشرةَ مدرسة أو رواقاً حُبِستْ عليها الحُبوس الجليلة والغلّات الدارّة. فقصَدَه الطلاب والعُبّاد من أقاصي البلاد، وبلَغ في سنة ٨١٨ هـ عدد مُجاوريه نحو ٧٥٠ رجلا من مِصريين ومغاربة وأعاجم؛ وهم عدد كبير بالإضافة إلى ما كان يُنافسه في الشهرة، ويُنازعه هذه المكرُمة من نحو مائة مدرسة وجامع ورِباط أنشأها سلاطين المماليك وأُمراؤهم وقضاتهم لطلاب العلم والعِبادة، ووقفوا عليها أضعاف ما وقفوا على الأزهر من الأوقاف

وكان يُدرس فيها وفي الازهر فقه المذاهب الأربعة واصول الفقه والتوحيد والنحو والصرف والبلاغة والمنطق وغيرها من العلوم العقلية والنقلية ونحو ذلك مما بقي يدرس في الازهر الى وقتنا هذا مع ما زيد عليه من العلوم

وكان يَتولّى النظر فيه والتحدُّث على أحباسه كَبيرٌ بعدَ كبير من أُمراء المماليك ونوّاب السلطنة

ثم لمّا ذهبَت دولة المماليك وصارت مصر ولاية عثمانية، وانقطعت عنها خيرات الممالك التي كانت خاضعة لها واهتدى ملاحو البرتقال الى طريق الهند البحرى المارّ بجنوب إفريقية وحولوا تِجارة الهند والشرق عن طريق

مصر فقلّت ثروتها وندر إنشاء الجوامع الكبيرة والمدارس العظيمة بها، عظمت الرغبة فى المجاورة بالازهر لأنه كان أقدمها عهدا وأكثرها أروقة وأدرّها أرزاقا وأجلها احتراما فى نفوس اهل القاهرة والاقليم المصرية والممالك الاسلامية ؛ فكادت تُقصَر حسنات المحسنين عليه لولا رغبة رؤساء الترك فى إنشاء أربطة لِصُوفيّة بِلادهم وإنشاء المكاتب المستقلة بتعليم القرآن الكريم والخط

ووكل وُلاة العثمانيين النظر فى شؤون التدريس والأحباس الى شيخ من كبار الازهريين يسمى شيخ الجامع الازهر ، وتولّى هذا المنصب شيوخ المالكية عصرا ، ثم بَقِى فى الشافعية مُدّة ، ثم عاد إلى الأوّلين ، ثم تولاه الحنفية فى الدولة المحمدية العلوية فأصبح دُولَة بَيْن الجميع

وأوّل شيخ تولى النظر فيه هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله الخِرْشىّ المالكىّ

ولم يزَل النظَر فى أُموره الدراسيّة والادارية مقصورا على شيخ الجامع منفردا برأيه حتى سنة ١٣١٢ هـ ، فرأى وُلاة الامور مجاراةً لِسَنَن النظام فى الجامعات الكبرى والمصالح العامة أن يُعاضده فى ذلك مجلِس إدارة يرأسه الشيخ نفسه ، وتُؤلف أعضاؤه من بعض كبار مشايخ المذاهب وعالِمَيْن من كبار رجال الدولة الذين تعلموا فى غير الأزهر من المدارس النظامية ودرسوا العلوم الكونيّة على النظام الأوربى ، فكان لهذا المجلس مَسْعاة حميدة عند أُولى الأمر فى إدخال نظام جديد فى الازهر سنة

١٣١٤ هـ يَقضِي بتعديل شكل إدارته وإضافة كثير من العلوم التى لم تُدْرس فيه من قبلُ أو التى هُجِر تدريسها، وتعيين نوع الكتب التى تدرس، وطريقة التدريس، وتحديد مدة الدراسة ونوع الشهادات التى تُعطَى للدارس فيه

وعلى ذلك بَطل درس الحواشى والتقريرات واقتُصر على المُتون والشروح

وأُدخِل فيه تدريس العلوم الرياضية والجغرافية والتاريخ ومبادىء العلوم الكونية واللغة والانشاء والأدب والخطوط

وكانت دِراسة العلوم فيه نظرية مَحْضة: لا يُعْنَى فيها بغير فَهْم كلام المؤلفين والمنافشة فى تعبيرهم بدون كبير تحصيل لمادَّة العلم ولا تطبيق عليه، كأنَّ الكتُب نفسها كانت مقصودة لذاتها. فبَطَل ذلك، وأصبح نفس العلم والانتفاع به فيما وُضع له هو الغاية القُصوى من الدراسة، وضُبِط ذلك بالامتحانات الانتقالية والانتهائية

وجُعِلت مدَّة الدراسة فيه خمس عشرة سنة ينال فى نهايتها الطالب بَعْدَ نجاحه فى الامتحان شهادة العالمية. ويسبق امتحانَ شهادة العالمية شهادتان: هما الشهادة الاوليَّة الازهرية والشهادة الثانوية

وكانت صناعة الانشاء والخطابة من أشق الأمور مُزاولة على كثير من الأزهريين، فصرنا نرى منهم الآن الكُتَّاب الفطاحل والخطباء المصاقع. فاشتركوا بذلك بعد عزلة أربت على قرن فى جميع الحوادث التى تهم البلاد

واقتضى النظام الجديد أن يختص كل مدرس بنوع من العلم لطائفة من الطلبة محدودة العدد من طبقة واحدة ، فضاق نطاق الأزهر عن فرق الدراسة فوزعت على كثير من جوامع القاهرة التى كانت بنيت لمثل هذا الغرض وهجرت دراسة العلم بها منذ ثلاثة قرون

وألحق بالازهر فى نظامه وإدارته العليا كثير من المعاهد العلمية كمعهد الاسكندرية والجامع الاحمدى والجامع الدسوقى ومعهد دمياط ومعهد أسيوط

وفى ١٤ المحرم سنة ١٣٤٢ أقر مجلس الوزراء تعديلا فى قانون الأزهر يقضى بزيادة درس بعض علوم ، وزيادة أقسامه الدراسية قسما رابعا للإخصاء فى علم من العلوم بحيث يكون المتخرج فى هذا القسم بمنزلة محقق فى هذا العلم ، وبضم مدرسة القضاء إلى الازهر وجعلها مقصورة على الاخصاء فى الفقه والامور القضائية الشرعية

ويزيد عدد طلبته على عشرة آلاف طالب

وللأزهر الفضل الأوفر على العلوم الإسلامية عامة والعربية منها خاصة لحفظه تراث السلف منها إلى الخلف : بما تفرغ له من وظيفة الدرس ونشر العلم فى العصور المُدْلَهِمّة والحُطَمات المُصْطَامة

فلما أهلك التتار فى الشرق الحرث والنسل وأبادوا الكتب وقتلوا العلماء ، وفعل فعلتهم الاسبان بأهل الاندلس هاجر من نجا منهم وخاف على علمه ودينه الى الممالك المصرية ، فرحب بهم سلاطينها وسهلوا ، وجددوا الخلافة العباسية بالقاهرة ، فاتسعت رقعتها ، وأصبحت مَباءة

الجميع وإليها المفزع من المشرق والمغرب ، وخلفت بغداد وقرطبة فى العلم والحضارة ، وقام الازهر فى ذلك الحين بوظيفة نشر العلم واللغة مع نحو مائة مدرسة ومسجد ، وتخرج فيه وفى هذه المدارس من لا يحصى عددهم من العلماء والادباء الذين أخلفوا على العلم والعربية بعض ما نكبهما به التتار والاسبان

ولما أزال الفتح العثمانى استقلال دولة المماليك المصرية الذين لم يكن لهم من دنياهم غير تشييد العمارات والمساجد والمدارس والمكاتب والاربطة والسبل ووقف ما ملكت أيديهم عليها وعلى المشتغلين بالعلم بها ، فلت الرغبة فى صيانة ما خلفه هؤلاء السلاطين العظام وإجراء ريع الاوقاف على المستحقين من الطلبة ، وجاء فساد الحكم فى مصر زمن الولاة العثمانيين عليها ضغثاً على إبالة[1] ، فرأى طلاب العلم أن يتضاموا الى مدرسة واحدة تلم شعثهم ، وتوحد قواهم ، وتكون لهم معقلا يقيهم الفتن والكوارث ، فلم يجدوا أمامهم غير الازهر لسعته وعناية بعض ولاة العثمانيين به وكثرة أوقافه ، فكثر عديدهم فيه ، وعظم أمرهم بين العامة ، وكانوا مرجع شكواهم من الحكام فى كثير من النوازل . وأقبل أهله على الاشتغال بالعلم والاستهداء بنوره فى ذلك العصر المظلم ، فبقى بهم سند الدراسة وسلسلة التعلم متصلين غير منقطعين ، حتى إذا أذن الله لمصر باستقالة عثرتها ، واسترداد حريتها ، وإرواء غلتها من العلم والأدب

(١) الضغث قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس ، والابالة مثلها : أى وخما على وخم . وهو مثل يضرب للبلية بعد البلية

لم تجد أمامها معينا سائغا شرابه هنيئا رواؤه الا الأزهر : فمن طلبته استمد مصلح مصر الكبير محمد على باشا البعوث العلمية الى اوربة ، ومن علمائه أخذ حفيده اسماعيل اساتذة مدارسه الكثيرة ، ومن بين أهله اختيرت طلبة مدرسة دار العلوم التى أصبح فضلها فى تربية النشء وخدمة اللغة والأدب متعالما مشهورا

ولا يزال الازهر وان يزال ان شاء الله تعالى شمسا مشرقة تمد اشعتها المشارق والمغارب بنور العلوم الدينية وفنون الآداب العربية

فكاهة

ابن المقفع وبخيل قتل ١٤٢ هـ بمرو الروذ

قال الجاحظ (١) فى كتاب البخلاء : روى أصحابنا عن عبد الله بن المقفع (٢) (قال) : كان ابن جذام الشبى يجلس إلى ، وكان ربما انصرف معى الى المنزل فيتغدى معنا ، ويقيم الى أن يبرد (٣) . وكنت أعرفه بشدة البخل وكثرة المال . فألح على فى الاستزارة ، وصممت عليه فى الامتناع . فقال : جعلت فداءك ! أنت تظن أنى ممن يتكلف وأنت تشفق على ؟ لا والله ! إن هى الا كسيرات يابسة وملح وماء الحب (٤) . فظننت أنه يريد اختلابى (٥) بتهوين الأمر على . وقلت : إن هذا

---

(١) هو أبو عثمان عمرو الجاحظ امام المتأدبين وشيخ المصنفين من أهل البصرة توفى سنة ٢٥٥ هـ (٢) هو أحد بلغاء الدنيا وصاحب كتاب كليلة ودمنة والدرة اليتيمة والأدبين الصغير والكبير وغيرها قتل سنة ١٤٢ هـ

(٣) أبرد دخل فى آخر النهار (٤) بالضم : الجرة (٥) اختلابه : خدعه

كقول الرجل : ياغلامُ أطعمنا كِسرة أو أطعم السائل خمسَ تمرات ، ومعناه أضعافُ ما وقع اللفظُ عليه ، وما أظنُّ أن أحداً يدعو مثلي الى الخُرَيبة[1] من الباطنة[2] ، ثم يأتيه بكِسرات ومِلح !

فلما صِرت عنده وقرَّبه الىَّ إذ وقف سائل بالباب فقال : أطعمونا مما تأكلون ، أطعمكم الله من طعام الجنة ! قال : بُورِكَ فيك ! فأعاد الكلام ، فأعاد عليه مثل ذلك القول ، فأعاد عليه السائل ، فقال : اذهب ويلكَ فقد رَدّوا عليك . فقال السائل : سبحانَ الله ! مارأيت كاليوم أحدا يَرُدّ من لُقمة والطعامُ بَين يَدَيْه . قال : اذهب ويلك ! والا خرجت اليك والله فدَقَقْتُ ساقَيْك ! قال السائل : سبحان الله ! ينهى الله أن يُنهَرَ السائلُ ، وانت تَدُقّ ساقيه ! فقلت للسائل : اذهبْ وأرح نفسك ؛ فانك لو تعرفُ من صدقِ وَعيدِه مثلَ الذى أعرف من صدقِ وعده لما وقفتَ طَرفة عينٍ بَعْدَ رَدِّه إياك

---

(١) ضاحية من ضواحى البصرة (٢) الباطنة قصبة المدينة ووسطها ؛ ضد الضاحية

موقعة شريش الحاسمة [1]

لمّا دَانَ العرب بالإسلام خرجوا من جزيرتهم يَنشُرون دِينهم فى مَشارق الأرض ومغاربها ويَحمون الدّعوة اليه بالقوّة ممن يَعتدِى عليهما ؛ فامتدتْ لذلك فُتوحهم فى نحو ثمانين عاماً من تُخوم الهند والصين الى شواطىء المحيط الأخضر الاتلَنْتى ضامّين إلى جيوشهم أُولى القوّة والبأس الذين حسُن إسلامهم ، وأخلصوا لله دينهم : من أهل الممالك التى افتتحوها . وكان مِن أصعبهم مِراساً وأقواهم شَكيمة قبائل البربر الضاربين فى شَمالىّ إفريقية وصحاريها : ولكنهم لم يَنضموا تحتَ لِواء الإسلام ذابّين عن حِماه بسيوفهم ناضحين عنه بسهامهم إلا بعد أن أسلموا وارتدّوا (على ما قيل) اثنتىْ عشرة مَرّة ، صدقوا فى آخرها النِّيّةَ للاسلام على يد القائد العظيم موسى بن نُصَيْر عامل الوليد بن عبد الملك على إفريقية . فنشأت فيهم نابتةٌ من الشّباب كان من أشدهم ثَقافةَ حَرْبٍ وصدقَ إيمان ويُمنَ نقيبةٍ فتَياهُ النجيبانِ : طارق بن زياد ، وطريف بن مالك البربريان ؛ واجتمع له من العرب والبربر جيشٌ مختلِط اجتاز به ساحاتِ النصر حتى أناخ به على أسوار طَنْجة وشواطىء المحيط ؛ فافتتح هذه المدينة العظيمة ، وكانت حاضرة المغرب الأقصى . واعتصمت منه قلعة سَبْتَة [2] بحَصانها وحسن دفاع صاحبها

---

(١) شريش مدينة قديمة بالاندلس كانت قبل العرب وبعدهم ، ومنها الشيخ الشريشى شارح المقامات (٢) التى يسميها الافرنج (سوته)

يُلْيان عنها بشجاعته ودَهائه واجتلابه المِيرة والذخيرة من عُدْوة الأندلس

وكانت مُدُن الساحل من المَغرب الأقصى تابعة تَباعةً اسمية لعواهل القسطنطينية البيزنطيين، وتَباعةً فعلية لملوك طُلَيطُلة من قوط الغرب باسبانيا، وكان يُلْيان هذا ختَناً لآخر ملوكهم «غِيطَشَة»[1] (ويتزه) وعاملا له على سَبْته؛ فحدث أن نقمت الرعية من غيطشة اشتطاطه عليهم فى الخراج وأخذهم بالقوانين المجحفة بحقوقهم وإرخاءه العنان للقساوسة يبهظونهم تكليفاً، ويُرهقونهم من أمرهم عُسْراً. فتألّبوا عليه، وثارت به طائفة منهم فقتلوه. ونصبوا قائداً عظيما يسمى رُذْريق[2] من غير بيت الملك ملِكا عليهم؛ فكان شراً من سَلَفه وحكَم البلاد بالقوة والعَنَت واضطهد مُنافسيه من الأشراف والقُوّاد. فأحفظ ذلك عليه قلوبهم وقلوب أقارب الملك المقتول ومنهم يُلْيان، فتفرقوا شِيَعاً وأحزاباً كلّ يعمَل على كَيْد صاحبه، ويعمل اليهود على كيد الجميع؛ لوقوع الاضطهاد عليهم من جميعهم. وانتشر الهَرْجُ بينهم، وفشت الفتنة فيهم. واتفق عند مُنازلة العرب لِيليان أن أساء رُذريقُ الى شرفه فى ابنته فلوريدة، وكانت تُنَشَّأُ فى قصر الملك لتلقن الأنظمة الحسَنة والسجايا الملَكيّة على عادة امراء القوط فى تربية بناتهم، فزاد ذلك فى حَنَق يُليان، فأعمل الحِيلة لينتقم لشرفه أوّلا، وليتخذ له عند

(١) صبح الأعشى يعربه (غطسة) (٢) وهو معرّب (ردريك) ويعرب أيضاً لذريق

العرب يداً ثانياً . فبدأ بإضعاف قوة رُذريق ، فأجاز اليه مُوهماً أنه يستنجده على العرب كعادته ، فأوقره مالا وأمدّه بأفرهِ خيله وأحسن آلات دفاعه . وطلب إليه أن يبعث له بعِقبان مدرَّبة على الصيد ليلهوَ بها . فقال يُليان : نعم ! سأبعثُ لك بعِقبان لم ترَ عيناك مثلها : (يُريد العربَ) وأخذ ابنته ورجع الى سَبْتة . فهادَن العرب وصالحهم على مدينته وأرباضها ، وطفِق يُحرّشهم بالاسبان ، ويُحرّضهم على قتالهم ، ويهوّن عليهم أمرهم ، ويُرغّبهم فى مَغانمهم ؛ ولكنّ العرب تريّثوا فى الأمر ؛ واحتاطوا له من جميع وجوهه ، فبثّوا العُيون والروّاد فى أنحاء البلاد ليقفوا على أحوال القوط ومكان رُذريق من قلوب رعيته وأهل بيت الملك المقتول ، واستعانوا على ذلك باليهود ، فأخلصوا للعرب النيّة ؛ لوَشيجة النسب بينهم ، ولترقُّب الخلاص من اضطهاد القوط على ايديهم. ثم كتَب قائدهم موسى بن نُصَير الى الخليفة الوليد بجَلِيّة الحال ، واستأذنَه فى فتح الاندلس . فكتب اليه « أنْ خُضْها بالسرايا حتى تختبر شأنها ، ولا تُغرّر بالمسلمين فى بَحْر شديد الأهوال » . فراجعَه « أنه ليس ببحرٍ زَخّار وإنما هو خليج منه يَبِين للناظر ماخَلْفَه » . فكتب اليه « وإن كان ذلك فلا بُدّ من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه » . فأرسل موسى مولاه أبا زُرعةَ طَريفَ بن مالك البربرى فى أربعمائة رجل ، معهم مائة فارس ، أجازهم يليان الى بر الأندلس بأربع سفن من عنده . فنزلوا بالمكان الذى سُمّى باسم مدينة طريف وذلك فى شهر رمضان سنة ٩١ هـ

(سنة ٧١٠ م) . ففزا أهلها وغنم مغانم جليلة القدر ، وعاد ولم يُصَب من معه بسوء . ثم ثار أهل الشمال برُذريق ، فخرج اليهم من طُلَيطُلة بجموع كثيرة . فعاد يُليان الى موسى يُغريه بالفتح وانتهاز الفرصة ، فاستخار الله ، ودعا مولاه طارق بن زياد وعقد له على سبعة آلاف كلّهم من البربر إلا قليلا من العرب ، وأمره ألاّ يُوغل فى البلاد إلا بإذنه حتى يَلْحق به . فأقلع إليها فى شعبان سنة ٩٢ ﻫ (أغسطس سنة ٧١١ م) ، ومعه يليان وكثير من آله وأهل بلده ليكونوا أدِلاّءَ ورهائنَ فى أيديهم خشيةَ الغدر بهم ، فنزل طارق على صخرة الأسد التى سُمّيت بعدُ جبلَ طارق وجبلَ الفتح [1] ، وانساب جيشه فى البلاد ، ففتحوا حِصن قَرْطاجَنّة فى سفح هذا الجبل ، ثم اقتحموا بَسيط الأرض . فكتب تُدْمير عامل هذه الجهات إلى رُذريق « أن قد حلّ بأرضنا قوم لا ندرى أهبطوا من السماء أم نبَعوا من الأرض ، فاوَمتُهم جهدى لأدفع غائلتهم فما استطعتُ لكثرة عدَدهم وبَسالتهم . فأسرعْ الينا بكلّ ماتستطيع حَشْدَه من الجنود » . فوجّهَ بأمداد كثيفة الى تُدمير ؛ فوقعت بينهم وبين جيش طارق جُملة مُناوشات كانت الدّبْرَةُ [2] فى جميعها على القُوط ، حتى أقبل رذريق بجيش جرّار يَقرُب من مِائة ألف مقاتل كامل العُدّة والسلاح . فاستنجد طارق موسى ، فأمدّه بخمسة آلاف . فتكامل بهم عدد مقاتلته اثنَىْ عشرَ

(١) سماه بذلك عبد المؤمن بن على ، خليفة ابن تومرت مهدى الموحدين بالمغرب وذلك عند اجازته البحر لمحاربة الاسبان ، وبنى فى سفحه مدينة جبل طارق قبالة الجزيرة الخضراء (٢) الهزيمة

الفاً . فأمر طارق بإحراق السفن التى عبروا بها تيئيساً لهم من الحياة والنكوص ليستميتوا فى القتال

فالتقى جيش طارق بجيش رذريق على نهر يصبّ فى خليج قادس من المحيط يُسمّى (وادى لِطّه[1]) على سهل من الأرض يُسمّى فَحْص[2] شَرِيش[3] من كُورة[4] شَذُونة . ففرّق طارق جيشه أرْسالا ليعظم فى عين العدوّ[5] . ثم ألتحم الفريقان لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ وحُمل رُذريق على سريره ، وعلى رأسه رِواق من الدِّيباج تكتنفه غابة من الأعلام والبُنود ، وبين يدَيه المقاتلة . فزحف القوط مُشاة وفُرساناً مُدَجّجين بأكمل العُدّة ومختلف الأسلحة من سيوف ودَرَق ودروع

---

(١) يكتب أيضاً « لكة » وهو تحريف لأن الكاف القديمة تشبه الطاء ولفظ لطة أقرب فى التعريب من الاسم الأعجمى وهو (جواد اليت) وهو نهر يجرى من الشرق الى الغرب جنوبى نهر الوادى الكبير ويصب فى المحيط عند مدينة قادس (٢) يطلق الفحص فى عرف عرب الأندلس على كل واد معمور ثم توسعوا فى اطلاقه على كل معمور سهلاً كان أو جبلاً كما نقله ياقوت

(٣) مدينة شمالى وادى لطة قرب مصبه (٤) عرف ياقوت الكورة بأنها كل صقع يشتمل على عدة قرى وينسب الى قصبة مسماة بهذا الاسم وقد ينسب الى مدينة عظيمة فيه أو نهر ، فشذونة مدينة كانت قصبة الوادى الذى يسقيه نهر لطة وشرقيّها جنوبى النهر كانت الموقعة ـ وشذونة معرب (صيدون) مدينة بناها الفينيقيون باسم التى بنوها بالشام ، وان العرب عربت صيدون الشام باسم (صيداء) وصيدون الأندلس باسم شذونة (٥) اقتدى فى هذه التعبئة بخالد ابن الوليد عند ما عبأ جيش العرب على نهر اليرموك

مذهّبة وطَبَرْزِينات [١] وفُئوس ومَناجل ومَقاليع . وتلقّاهم طارق بأصحابه متسربلين بالدروع السابغة ، مستجنّين بالدَّرَق اللَّمطيّة [٢] ، وقد اعتقلوا الرماح وتقلدوا السيوف وتنكّبوا القِسيّ العربية ، وعلى رءوسهم العمائم البِيض . فانتشبت الحرب وحمِيَ وطِيسها ، واستبسل القُوط ، وثبَت لهم المسلمون ، ودامت الحرب سِجالا بينهم سبعةَ أيام . فكبُر ذلك على طارق ، فنادَى حُماةَ جيشه ، وخطبهم خطبته الخالدة التى أعقبها الفتح ، فقال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد ورغّب فى الشهادة :

« أيها الناس : [٣] أين المفرّ ؟ البحر من ورائكم ، والعدُوّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدقُ والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه ، وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفُكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى أعدائكم ، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تُنجزوا لكم أمراً ذهبتْ رِيحكم ، وتعوّضت القلوبُ من رُعْبها منكم الجُرأةَ عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خِذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد القت به اليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز

---

(١) الطبرزين والطبر : فاس لها رأس قائم كالسيف يشبه هلالاً أو نصف قرص ، وقد يكون لها رأس ثان أعلاها كسنان الحربة

(٢) نسبة الى (لمطة) أرض لقبيلة من البربر كانت تنقع الجلود فى الحليب سنة فيتخذون منها درقاً تنبو عنها السيوف القواطع

(٣) وقعت الخطبة فى جميع مرات طبعها محرفة قليلا أو كثيراً فذكرناها مصححة بقدر ما نعلم

الفرصة فيه لمُمْكِن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أُحذِّركم أمراً أنا عنه بنَجوةٍ ، ولا حَمَلْتُكم على خُطةٍ أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ أرْبأ[1] عنها بنفسى ، واعلموا أنكم إن صبَرتم على الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألذّ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ؛ فيما حظكم فيه أوفر من حظى . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عُزْبانا[2] ، ورضيكم الملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقةمنه بارتياحكم للطعان وإسماحكم[3] بمجالدة الأبطال والفُرسان ؛ ليكون حَظُّه معكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ،

---

(١) جملة (أربأ) حال من ضمير الرفع في (حملتكم) والتي قبلها صفة (لأرخص)

(٢) وردت فى جميع مرات الطبع (عربانا) ظناً من المصححين انه جمع عرب ، وهو جمع لم يرد فى الفصيح على أنه لا معنى لتخصيص العرب هنا مع أن جيش طارق كان بربرياً ، فاذن هى محرفة عن (عزبانا) من العزوبة بمعنى عدم التأهل وقد كانوا يستصلحون حال الأعزاب من الفقراء ببعثهم فى الغزوات ليتأهلوا ويمتزجوا بالأمم فينشروا الاسلام بينهم . و (عزبان) يصح أن يكون جمعاً لعزب كجذع وجذعان أو لعزيب كقعيد وقعدان وشجيع وشجعان وثنى وثنيان أو لعازب كصاحب وصحبان وراكب وركبان أو لأعزب على رأى غير أبى حاتم كأعمى وعميان لأن الخلو من الزوج من العيوب ، وتكون اجازة غير أبى حاتم له : قياساً على انه مذكر عزباء المسلم وروده من الجميع ، وسماعاً فى حديث « مافى الجنة أعزب » (تاج العروس) وحديث نافع عن عبد الله بن عمر أنه كان ينام فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعزب (المغرب للمطرزى) ولا مانع أن تكون محرفة عن عُزّاب (جمع عازب) أو عن (أعزاب) لولا مكان السجعة بعدها

(٣) مصدر (أسمح) بمعنى مرن واستراض وانقاد وثقف ، فيكون السياق : باستراضتكم وثقافتكم وبصركم بمجالدة الخ كما فى اللسان وغيره

وليكون مغنمُها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى وَلِيُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً فى الدارين . واعلموا أنى أوّلُ مُجيب الى ما دعوتكم اليه ، وانّى عند مُلتقى الجمعين حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتِلُهُ إن شاء الله تعالى : فإن هلكتُ بعدَه فقد كُفيتُم أمرَه ، ولم يُعوزكم بَطَل عاقل تُسندون أمورَكم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولى إليه فاخلُفُونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفُوا المُهِمَّ من فَتْح هذه الجزيرة بقتْله ، فانهم بعده يُخذَلون »

واتفق فى الليلة التى صبَّحها النصرُ أنْ جاء رسولٌ من قِبَل ولَدَى غيطشةَ إلى يُليان يطلُبان اليه أن يتوسّط عندَ الأمير طارق ليردَّ عليهما ضِياع والدهما إذا تمَّ له النَّصْر ، وأنهما إذا رأيا صدقَ عزيمة المسلمين فى الحملة خذَلا رُذريق وانهزما بأتباعهما ، فضمن ذلك لهما

فلمّا كان اليوم الثامن من المَوقعة ٦ شوال سنة ٩٢ صمَد طارقٌ بنُخْبة فُرسانه إلى قَلْب جيش العدُوّ الذى فيه رذريق ، وقد عرَفه طارق بنُعوته وشاراته الملَكية ، وحمَل بَقيةُ جيشه على المجنِّبتَيْن حملةً صادقة ، واشتد القتال ؛ واضطرب جيشُ القوط ، واختلت صفوفه ، وانخذل ولَدا غيطشة ببعض الناس ، وتبعَهم آخرون ، فاستحالت الحرب الى مَذْبحة عظيمة استمرت سَحابةَ اليوم وقُتِلَ فيها مُعْظَم القوط قتْلاً ذريعاً ، وثبتَ القَلْبُ حتى اخترقه طارق ومَن معه فأُثخِن رذريق بالجراح ، وأراد أن يقتحم النهرَ بفرَسه فساخ فرسه فى رَدَغة الطين ، فعثر

المسلمون على الفرس ، وكان مُجَلَّلا بالذهب والجواهر ، وبجانبه إحدى نَعْلَى رذريق ، ولم يُعثَرَ له على أثر . والظاهر أنه غرق في النهر ، وحملته المياه الى المحيط . وتفرق من بَقِيَ من القوط شذَرَ مذَر . وغنم المسلمون ما لا يُحصَى من المال والخيل والمئونة والسلاح . فخمَّس طارقٌ أربعةَ أخماسها على تسعة آلاف ممن شهدَ المعركة غير الأتباع والعبيد[1] ، وأرسل الى موسى بن نصير بالفتح . فكتبَ اليه أن يلبَث مكانه حتى يفِدَ عليه بجيش عظيم . فجمع وُجوه الجند ويُليانَ ، واستشارهم ، فكلّهم أشارَ بمطاردة المنهزمين . وفتْح حاضرتهم طُلَيطُلة قبل أن يُنَصِّبوا عليهم مَلِكا يجمع شَمْلهم ، ويُوَحِّدَ كَلِمتهم . فخالفَ طارق رأى الأمير موسى . وبعد أن فتَح أَسْتَجة بَعْد مقاومة عنيفة قسّم جيشه ثلاث فِرَق يقود إحداها مُغيثٌ الرومىّ مَوْلى الوليد بن عبد الملك ، ووجّهها إلى قُرْطبة ، ويقود الثانية زيد ابن قاصِد السَّكْسَكىّ ، ووجّهها إلى مالَقة ، وقاد هو الثالثة إلى طُلَيطُلة . ففتح كلٌّ ماعُهِدَ إليه . ولم يلقَ طارق بطليطلة مقاومة تُذكَر . ثم ذهب إلى مدينة خَلْفها فى الجبل (سُمِّيتْ مدينةَ المائدة لأنهم وَجدوا فى كنيستها مائدة لمَذْبَحها من الذهب الخالص محلاّة بأنفس الجواهر) . ولما علِمَ موسى بمخالفة طارق له فى أمْره حنِق عليه ، وكأنه حسَده على ماتمّ على يده من الفتح . فقدِم عليه من قابِل فى ١٨ ألف مقاتل من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ؛ منهم عَشْرة آلاف فارس ، فافتتح فى طريقه الى

---

(١) تقسم الغنيمة شرعاً خمسة اقسام : أربعة منها توزع على المقاتلين ، والخمس الباقى يرسل الى الخليفة يصرفه فى وجوهه الشرعية

طارق البلاد التى لم يفتتحها مثل إشْبِيلِيَة ومارِدة حتى ٱلتقى به قافلا من غزْو بلاد الشّمال ، فأنّبه على توغّله فى بلاد يجهل مسالكها وفجاجها وتغريره بعصابة لا يأمن أن يُحاط بها . فٱعتذر بٱنتهاز الفُرصة ومناجزة الأعداء قبل أن يَنجُم فيهم رئيس يجمع كلمتهم ويَلُمّ شَعَثهم ، ولكن ذلك لم يَصرِف موسى عن رأيه فيه . فعزله عن قيادة جيش البربر . وعهد بها الى مُغيث الرّومى مولى الخليفة ، فأبَتْ عليه شهامته وكرَم نفسه أن يخلُف قائدَه ، وأبلغ الخبرَ الخليفة الوليد . فأمر بَردّ طارق الى عمله ، وأصطلحا وأتمّا فتْح البلاد على غير توادّ وتواصل . فكان طارق يستأمِر الخليفة رأْساً فى شؤونه ، وكان موسى يشكو اليه ٱستبدادَ طارق برأيه وكثرة تبذيره وقلّة بصره بوُجوه الحرب . فٱستقدمهما الخليفة لينظُر فى أمرهما بنفسه . أما طارق فأجاب الدعوة طائعاً ، وأما موسى فتلكّأ وٱعتذر بأن رجوعهما يَفُتّ فى أعضاد الجيش ويُفوّت عليه عاقبة النصر ، وأنه سيرجِع الى دِمَشق ، ولكن من طريق البرّ الطويل (أوربة) مفتتِحاً اليه ممالك الإفرنج حتى القُسْطَنْطِينية ، وأخذ يُعِدّ الأُهبة لٱقتحام أوربة . فهالَ الوليدَ هذا الخبر ، وعرَف أنه تغرير بالمسلمين ، وأن موسى وقَع فى أهولَ مما نَعاه على طارق ، وٱرتاب فى نِيّةِ موسى . فبعث اليه برسول جاءه وسط جيشه وأخذ بعِنان فرسه ، وذكّره بطاعة الخليفة ، فلم يسَعْ موسى إلاّ الٱنقياد اليه . فٱستخلف ٱبنه عبد العزيز على الأندلس وٱستخلف ٱبنه عبد الله على إفريقية ورجَع مع طارق الى الشام ، ومعهما مالم يُصَب مثلهُ من السَّبْى والمال وأبناء أشراف القوط والغنائم محمولة على

العَجل والظَّهْر . فصادفا الوليد قد مات . فصَرَفهما الخليفة سليمان عن الأندلس ونفى موسى الى وادى القُرى بالحجاز ، ولم تعلم بعدَ ذلك بقية حياة طارق .

والناظر فى عاقبة هذه الموقعة الحاسمة يجد أنها كانت جليلة الخَطَر ، عظيمةَ الأثر فى حال الإسلام والمسلمين بالمَغرب الأقصى وفى حال أهل أوربة الغربية

ذلك بأنها قضَتْ على دَولة من أقوى دول أوربة وأغناها ، وبَسطت سلطان العرب على رُقعة خِصْبة آهلة تُمدّ حاميات المغرب بالمِيرة والذخيرة اذا حِيلَ بينهم وبَيْن المشرق ، وجعلتْ رِواق هذا السلطان ينبسط أحيانا على شاطىء نهر لوار وأعالى الرُّون والسُّون من فرنسا بلهَ شواطئها وشواطىء ايطاليا وودیان سويسرة وجزر بحر الروم الغربية ؛ مما ثبَّت أقدام العرب فى إسبانيا والمغرب الأقصى وإفريقية بانقطاع الأمداد ورُسل الفتنة التى كان يَكيد بها للعرب سكانُ جَنوبىّ أوربة ويُذمِّرون بها البربرَ عليهم

وانها أنشأت فى هذه الجزيرة حضارة عربية راقية ذات شريعة سَمْحة وآداب فاضلة ، وعلوم سامية ، وعِمارة فخمة ، بَنَى أهل غربىّ أوربة على أساسها شوامخ نهضتهم ، وبقِىَ أثرها فى دِمائهم ولُغتهم وأدبهم وعاداتهم

كما أنها وَحّدت كلمة أمراء الافرنج وسهَّلتْ انضواءهم تحتَ لواء قَرْلَة (شَرل مَرْتل) فوقفَ تَقدُّمَ العرب ، وأنشأ حفيدُه شَرْلمانيةَ دولة

الإفرنجة العظمى التى لبثت في أوربة دهراً طويلا حتى ثل عرشها نابليون بونابرت

الفيل (١)

الفيل (ويكنى أبا الحجاج وأبا دغفل (٢)) حيوان رائع ظريف فطن نبيل. وهو أعظم دواب البر خلقا، وأهولها منظرا، وأسمقها (٣) قامة، وأكبرها هامة، وأطولها نابا، وأبسطها أذنا، وأمدها خرطوما وأكثرها أكلا

الفيل الافريقى

وتدل الأحافير وعتيق الأساطير على أنه كان يعيش في أكثر أقاليم الأرض القديمة: حارها وباردها، وأنه كان أصنافا شتى متفاوتة فى بدانة الجسم ولونه، وانجراد الجلد وتشعره، واستواء الأنياب وتعقفها (٤)

الفيل الهندي

(١) مصادر هذا المقال: الحيوان للجاحظ ومروج الذهب للمسعودى وعجائب المخلوقات للقزوينى وحياة الحيوان للدميرى والمقتطف ودائرة المعارف البريطانية الحديثة (٢) الدغفل: ولد الفيل (٣) أعلاها (٤) تلويها

وهو الآن لا يأوى الا الأصقاعَ الحارة ، ذوات الغِياض [١] والأدْغال [٢] والبَطائح والأنهار من جنوبىّ الدرجة العاشرة من العُروض الشمالية فى إفريقية ، ومن جنوبىّ جبال هِملايا وحدود الصين الى سُمَطْرة فى آسيا

وأكثر أصنافه قد انقرض ولم يَبق منه من مُختلف الخَلْق إلاّ الفيل الإفريقىّ ذو الجُثَّة الضخْمة والهامة الكبيرة والجَبْهة البارزة والآذان المستعرِضة ، والأظفار الثلاثة ، والأنياب الطويلة ، الناجمة لذُكرانه وإناثه على سواء ؛ وإلا الفيل الهندىّ ، وهو يمتاز من الافريق بأن جَبْهته مُنْبَعجة ، وأنه يصغُر قليلا عنه بَدَنا ورأسا وأُذُنا ونابا ، وأن أنيابه تنجُم فى ذُكرانه دُونَ إناثه ، وأعجب ميزة له أن أظفاره أربعة لا ثلاثة مما حمَل بعضَ علماء الحيوان على اعتباره نَوْعا مُستقِلاً لا صِنْفا مِن صُنوف الفيلة ؛ كما لم يَبْق بين مختلف اللون إلا الفيل الأقهب [٣] والقليل من الفيل الابيض المقدّس عند أهل مملكة سيام . على أن بعض العلماء يرجّح أن البَياض عرَض له لا طبيعة وراثيّة فيه

وأكثر الفيلة الباقية من الصِّنف المتمعّط [٤] الوَبَر أو الخفيفه ويستظهر بعضهم أن انجراد جلود الفيول طارىء عليها ، وأن البائدة منها فى الدهور الغابرة كانت وَبْراء ، وخاصّة ما كان يقطُن منها الأصقاع

(١) جمع غيضة (بفتح الغين) وهى الاجمة ومجتمع الشجر فى مغيض ماء
(٢) جمع دغل (بفتحتين) الشجر الملتف والنبات المشتبك (٣) الأكدر الى سواد (٤) المنجرد

الباردة من شمالىّ آسيا ، اذ لايزال فيل شمالىّ الهند أغزر وبرا من فيل الجنوب ودغافل فيلة الجنوب أقل جردا من كبارها

وليس من الفيلة الآن ماله أنياب معقفة تعقيفا متحاقا كأنياب الأفيال المنقرضة المعثور على هياكلها العظمية فى الأحافير ، بل اكثرها معوج عوجا يسيرا يقارب الاعتدال

وترتفع قامة الفيل الى اكثر من عشر أقدام ، وتزيد زنة جرمه على أكثر من مائة قنطار

ورأس الفيل ضخم عظيم يربو على رءوس دواب البر جميعا ، ودماغه أربى من أدمغتها ، وهو كثير الغضون (١) والأسارير : مما يؤذن بذكائه وفطانته

وهو أوقص بين الوقص (٢) لايكاد عنقه يتميز عن كاهله . ولولا خرطومه المديد البالغ طوله نحو ثمانى أقدام ما استطاع أن يقم (٣) الأعشاب من الأرض ، ويعطو (٤) الأغصان من الأشجار ويلقمها فاه . وهذا الخرطوم أعجب ما فى الحيوان : فهو مشفره الأعلى ، وهو أنفه ، وهو يده وهو سقاؤه الذى يعب به شرابه ويقذف به فى جوفه ، وهو مضخته التى يضخ بها الماء على جسده ليتبرد به ، وهو مرن متين كثير العضل قوى الأعصاب شديد الحس : يتمطط ويتقلص (٥) ويتحوى (٦) وينبسط ، ويضرب به الأرض ، ويرفعه فى السماء ، ويصرفه كيف يشاء .

---

(١) الانثناءات والحزوز (٢) قصر العنق (٣) يأكل (٤) يتناول
(٥) ينقبض (٦) يتلوى

ولا عجب ان عدّ بعض العلماء فيه أربعين ألف عضلة

وينتهى بخُرطومين[١] رقيقين كالشفتين: العليا والسفلى شديدى الحس جداً، ينقبضان ويمتدّان وينفرجان وينطبقان، ويمسك بهما أدقّ الأشياء حتى الإبرة. وبينهما ثقبا منخرَيه كأنهما قصبتا مِزمار، منهما يكون صياحه الرّفيق الذى لا يتناسب مع مقدار جرم بدَنه. وخُرطومه مَقتل من مقاتله لو قُطِعَ لمات؛ وذلك حِكمةٌ بالغة من بارئه؛ إذ لو عاش بعده ما انتفع بنفسه

وعينا الفيل صغيرتان، إلا أنهما مُفعمتان حُسْنَ فِراسةٍ وصحةَ فَهْم وصدْقَ نَظَر وجَوْدةَ تَحْديق وسُكونَ طَرْف وحلما ووقارا

وفى ذلك يقول سَهْل بن هرون:[٢]

ولما رأيت الفيل ينظُر قاصدا ظننتُ بأنّ الفيل يلْزَمه الفرض[٣]

قالوا: وللفيل لسان مقلوب: أصله الى خارج، وطَرْفه إلى داخل ولولا أنه مقلوب لكان إذا لَقِنَ الكلام تكلّمَ لِدِقة فهمه وسُرعة لَقَنِه

ومن أعجب ما فى الفيل أسنانه؛ وذلك أنه تَنْبُتُ له ثَنِيّتان[٤] فى فَكّه الأعلى فقط تنجُمان من السنة الثانية من عُمُره، ثم تنمُوان ما عاشَ، وثمانية وعشرون ضِرْسا، غير أنها لا تَنبُت جُمْلة، ولا تتكامل مرّة؛

---

(١) حافتين (٢) كان من البلغاء المستعربين من ابناء الفرس وكان قيّم بيت الحكمة للمأمون العباسى (٣) أى تجب عليه الفروض الشرعية لعقله (٤) مثنى ثنية واحدة الثنايا وهي الأربع الاسنان التى فى مقدم الفم فى غير الفيل ثنيتان من أعلى وثنيتان من أسفل

وإنّما ينبُت منها بادئ بَدْءٍ اثنان طويلان عريضان فى مُؤخر كلّ لَحْى يتركب كلّ منهما من عِدّة صفائح قائمة متلاصقة حديدة الأطراف متفاوتة الطُّول كأنها مجمع ضُروس . ثم ينبت غيرها : ولكن كلّما نبتَ ضِرْس جديد سقَط القديم فلا يجتمع له فى فَكّيه زمناً ما أكثر من ثمانية أضراس

وأعجب ما فى أسنانه ثَنِيتاهُ اللتان نُسمّيهما تسامُحاً نابَيْن ، إذ كانا طويلين مُدَرَّبَيْن ، وليْس لحيوان نابان أطولُ من نابَى الفيل . وهما وإن كانا أجوفين فى أكثر طولهما قد تزيد زِنَتُهما على مِائَتَىْ رِطل . وعَظْمُهما الذى نُسمّيه عاجا مندمِج صُلْب ، إذا قُطِع وصُقِل كان له بَريق ومَلاسة ، وظهرت فى مقاطعه خُطوطٌ متآزية وطرائق مَتمعّجة [1] وخاصة اذا طال عليه الزمان والاستعمال ، كالتى ترَى فى مَقاطع الكهرَباء . ولذلك يتنافس الناس فى استعماله

ونابا الفيل قويّان جداً يحمِل بهما أكثر من ألف رطل ، ويقذف بهما الفَهْد الكبير أكثر من ثلاثين قدما . ويستعملها فى الدفاع عن نفسه والصِّيال [2] على غيره ، فاذا رأى أسد فيلا منفرداً عن قُطْعان الفيلة ساوره [3] : فإما أن يقتُله ، وإما ان يقتله الفيل ؛ وذلك بأن يَرْفَع فنطيسته [4] فى الجوّ صُعُدا ، ويُراوغ الأسد ويُحاول أن يتلقّى بأطراف نابَيْه صدرَ الاسد فى وَثَباته ، فيَنْفذانه أو ينفُضانه قَصيًّا ، وان آنس من الأسد خَوَراً صال عليه ونطَحه بنابَيْه أو رَكاه [5] برجله رَكْلة

(١) متلوية (٢) الهجوم (٣) هجم عليه (٤) خرطومه (٥) رفسه

أتلفته أو أفلت منخنا بالجراح ، وربما كانت النمورة أنكى على الفيل من الأسد لخفتها فى الوثبة وإمكان تسلقها رأسه

وللفيل أذنان مستعرضتان جدا تتران صفحتى عنقه وكاهليه ويذب بهما الذباب والحشرات عن فمه وعينيه - قال رؤبة[1] :

أجرد كالحصن طويل النابين مشرف الأحى صغير العينين
عليه أذنان كفضل الثوبين

وقوائم الفيل شثنة غليظة مستديرة كأنها الأساطين ذوات أوظفة[2] وأعضاد وأخفاذ ومفاصل إلا أنها قليلة الانثناء فهو يضطجع ولكن لا يستطيع أن يثنى يديه تحت صدره كما تبرك الإبل ، لا كما كان يظن بعض المؤلفين من أن قوائمه لا مفاصل لها ؛ ويزعمون أنه ينام قائما . وتنتهى أرجله بفراسن[3] لينة بها ثلاثة أظفار عريضة فى الإفريق وأربعة فى الهندى ، هى منه بمنزلة الأخفاف من الجمل يمشى بها على الأرض هونا وينقلها نقلا رفيقا لا يشعر به من يقاربه

وجلد الفيل متسع غليظ صفيق كثير التغضن أجرد أقهب اللون أو أسوده أو أبيضه

وللفيل كرش كالجمل يختزن فيها الماء لوقت حاجته ، وربما ردده الى خرطومه فنضح به جسده أو ضخه فى وجه من يتولع به[4]

---

(١) شاعر بدوى رجاز كان فى صدر الدولة العباسية (٢) جمع وظيف وهو من الدواب كالساعد من الانسان (٣) جمع فرسن . وهو خف الفيل (٤) يلاعبه ويعابثه

ويعيش فى الغياض والادغال الكثيفة القريبة من المياه لانه بحرى الطباع كالجاموس يُعجبه الاستنقاع فى الماء ويُحسن السباحة إحساناً يُنجيه من السباع التى لا تحسنها

ويعيش قطعانا كبيرة تدين لفَحْل عظيم هو أشدها بأسا وأعظمها جِرْما ونابا ، وهى تتبعه أينما سار واذا أُحيط بها وسَدّ عليها القنّاصون

قطيع من الفيلة

المنافذَ والمشارِع ألتفّت حَوْله ، وبذَلت نفوسها دونه ، ودافعت عنه دفاع المستقتِل

والفيلة تأكل الأعشاب والثِّمار والحاء [1] الأشجار وقصب السكر وغيرها من النبات . وقد تسطو فى الهند على حُقول الذُّرة والأُرْز غير المُسَوَّجة ؛ لأنها تحذَر اقتحامَ الأسوجة ولَوْ واهية

وبهيمةُ الأفيال من أفطَن الوَحْش وألْقَنه وأسرَعِه تأنُّسا بالناس

(١) قشر

وتأدُّباً بأدبهم ، ومُطاوعة لأمرهم ، ومُعاونة لهم فى أعمالهم ؛ ولكن الهندية منها أكثر قبولا للدَّجن والتهذيب والرِّياضة على عَمَل الإنسان أما الافريقية فهى شرسة نَزِقة يعسُر تألُّفها ، وإن دَجنت كانت خُرقا لا تُحسِن عملا مع أن تركيب بِنْيتها الفطْرىّ أربى وأقوى من مِثله فى الهندية ، ولَعلّ ثِقَتها بقوّتها جعَلتْها تَرْبأُ بنفسها عن الاستخذاء [1] للإنس يُعبِّدونها بالتسخير ، ويَنْصِبون على مُتونها المسالح [2] والأبراج ويَقْمَعُون رءوسها بِمقامِع من حديد

والفِيل أذكر البهائم لِحَسَنةٍ وسَيِّئَة . وللناس فى وَفائه واْنتقامه حكايات عجيبة وأقاويل عريضة . فحكى بَعض أطباء الإفرنج أن فيلا مما يُعْرَض فى المشاهد والملاهى أصابه مَغْصٌ لشُرْبه ماءً باردا عَقب تَعَب ، فوضَع على خاصِرتَيْه حرَّاقاتٍ شديدة ، فزال المَغْصُ . فلما رآه الفيل بَعْد أقبل عليه وهَشّ له ومَسّ يَده بخُرطومه وأشار الى خاصرته . وحكى الجاحظ فى الحيوان قال : أخبرنى رجل من البحريين لم أر فيهم أقصدَ ولا أسدَّ ولا أقل تكلّفا منه ، قال : لم أجدْهم يَشكُّون أن فيّالا ضرَب فِيلا فأوجعه فألحَّ عليه ، وأنهم نَهَوْه وخوَّفوه وقالوا : لا تَنَمْ حَيْثُ يَنالك ؛ فإنه من الحيوان الذى يَحْقِد ويُطالب . ولما أراد ذلك السائسُ القائلةَ [3] شدّه الى أصل شجرة ، وأحْكَم وَثاقه ، ثم تَنحّى عنه

---

(١) التذلل (٢) جمع مسلحة وهى مكان جماعة من المقاتلة (٣) النوم فى الظهر وقت الحر

بمقدار ذِراع ونام . ولِذلك السائس جُمّة ، فتناول الفيل بخُرطومه غُصْنا ، كان مطروحا ، فوطِئَ على طَرَفه حتى تَشَعَّثَ ، ثم أخذه بخرطومه ، فوضع ذلك الطرف على جُمّة الهِندىّ ثم لواها بخُرطومه ، فلما ظَنّ أنها تشبّكت به وانعقدت جَذَب الهندىّ خَيْطه خَبْطة كانت نفسه فيها . (قال الجاحظ) فإن كان هذا الحديثُ حقّا فى أصل تَخْريجه فكفاك بالفيل مَعْرِفة ومَكيدة ، وإن كان باطلا فإنهم لم يَنحلُوا الفيل هذه النِّحلة دُونَ غيره من الدوابّ إلاّ وفيه ما يحتَمل عليه ويَليق به

ويُعَمَّر الفِيل إلى ثلاثين ومائةِ سنة . وزعَم المتقدّمون انه يُعَمَّر قُرونا ، وحَكَوْا أنّ فيلا منها سجَد لِكسرى أَبْرَويز ، ثم سجَد للمعتضد العبّاسىّ ، وبينهما أربعُمائة سنة . وتحمِل أنثى الفِيلة فى الخامسةَ عشرةَ من عُمرها . ومدةُ حملها واحد وعشرون شهرا ؛ وهى تُفِذُّ غالبا وتُتْئِمُ نادرا . وتُرضِع دَغْفَلَها بفمه لا بخرطومه من ثَدْيَيْن فى صدرها . ولا تُنْتَج الفيلة إلا فى مَعادنها ومَواطنها ، فاذا نُقِلَت منهما أصبحت عُقَّرا عِقاما (١) لا تُخْصِب (٢) الا فَلْتَة

وقد سخَّر الناس الفِيلة من القُرون الأولى رَكوبة وحَمُولة ، وتنافس فى اقتنائها ملوك الهند وفارس ، واتّخذوا على ظهورها مَقاصير ومَسالح ومَحامل وهَوادج يجلِسون فيها فى سلمهم وحربهم وأيام حَفْلهم ومواكبهم . لأنّها تحمِى رُكّابها ؛ فتُجالد عنهم بالسيوف وتزُجّ بالمزاريق ، وتخبِط بالأرجل ؛ وهى بَعْدُ وطِيئة الظهر ، قليلة العِثار ، ليّنة المشى بعيدة

(١) جمع عاقر وعقيم (٢) لا تلد

الخطو، أقرب مطاوعة مِن الخيل، وأسهل قَوْداً من الإبل، لا تُعرَف بجماح ولا طِماح ولا حِران ولا شِماس [١]. واستعملها الفُرْس فى أيامهم مع العرب أزمان الفتوح. واستخدمها بعدهم ملوك الإسلام. قالوا: ولم يجتمع لاحدٍ مِن ملوك المسلمين مِن الفيلة ما اجتمع لأمير المؤمنين ابى جَعْفر المنصور: اجتمع عنده أربعون فيلا. وكان المُعْتَضِد العباسى يتشبّه به فى ذلك. واستصحبها السلطان محمود بن سُبُكْتِكين [٢] فى حروبه، وفتح بها مدينة الطاق مِن بلاد سِجِسْتان [٣]: وضَع فيلٌ منها نابَيه تحتَ بابها فاقتلعه

تسخير الفيل فى العمل

ولا يزال الهنود يستخدمونها رَكائب فى أيام الزّينة وعوامل فى الحرث والاحتطاب وجرّ الأثقال وحمل الأعكام [٤]، ودياس الأرز والحبوب فتقوم مقام النوارج. ويستعملون ضِخامها فى صَيْد النُّمورة

---

(١) شمس الفرس يشمس (كينصر): منع ظهره (٢) هو أحد ملوك الاسلام العظام وسلطان الدولة الغزنوية بأواسط آسيا فتح من بلاد الهند ما لم يفتحه مسلم قبله توفى سنة ٤٢١ هـ بغزنة (٣) هي الآن القسم الجنوبى من بلاد الافغان (٤) جمع عكم (بكسر العين) وهو العدل والكارة، وجميعها بمعنى (الطرد) بالعامية

صيد النمورة من فوق الفيلة

رَغْبةً فى جُلودها ؛ فيُقْحِمونها الآجام والأدغال ، وهم وُقُوف فى تَوابيت ومَقاصير مَنْصوبة على ظهورها ، فى كل تابوت عِدّة رجال مُسَلَّحين بالبندقيات السريعة الطّلَقات . فاذا أَروحتهم [1] النمورة صالتْ عليهم ، فصبَرت لها الفيلة ورفَعتْ خراطيمها صُعُدا ، ودافَعت عَن نَفْسها وأَصحابها بالأنياب والأرجل ، وأطلق الصيادون رَصاصهم على النمورة ، ورُبّما وثب النمر الأَيّد [2] فإذا هو على رَأْس الفيل ، فعاجله رَصاص الصيّادين عن أَن يَصل إليهم ، أو ينال من خُرطوم الفيل .

وتصاد الفِيلة : إما للقُنْية والتسخير والتدريب ، واما للانتفاع بعظامها ونيوبها وجلودها

ففى الحال الاولى يُقيم الصيّادون قُرْبَ غاباتها حظائر كبيرة ، ثم يُطاردونها إليها حتى يَحشُروها فيها ، ويبقونها حتى يُجهدها الجوع والعطش ،

(١) اروح الوحش شم وأحس ريح الانس (٢) القوى

فتذلّ وتستخذى فيتقرّبون إليها الفَيْنة بَعْدَ الفَيْنة [١] بالعُلوفة والماء، فتقرُب منهم وتأكل وتشرَب على حَذَر؛ فلا يزالون يرُوضونها بالشدّة مَرّة وباللّين أُخرى حتى تأنس اليهم وتنقاد. وربّما اصطحبوا معهم فيولا داجنة مَرُوضة على الصيد فيُسَرّحونها إلى الفيلة الوَحْشية فتُماشيها وتُراعيها [٢] وتستجرّها إلى الحظيرة

وفى الحال الثانية يُطاردها الصيّادون ويزعُجونها بالمزاريق أو يطعَنونها بالرِّماح. ومُحْدَثُو الصيّادين والمُتَوَلِّعين بصَيْدِها من السيّاحين يرمُون بالرَّصاص رُءوسها ومقاتلها، فيسهل عليهم بذلك صَيْدها

ويُقدَر ما يصاد منها الآن لأجل عاجها بنحو مائة الف فيل فى العام أكثرها من غابات إفريقيّة. واذا لم تُسَنّ قوانين لتقييد صَيْدها وحمايتها يُوشك أن تَنْقَرِضَ على مَدَى الزّمان

وقد عرَف الأقدمون والمحدثون طبيعة العاج وجمال منظَره وحُسن بَريقه، فاستعملوه فى قوائم السيوف ونصُب [٣] الخناجر والسكاكين والمبارى ومقابض المحاجن [٤] والعِصِىّ والمخاصر [٥] والمظَالّ وأدوات الرَّسم والهندسة، وخرَطوه حِقاقا وكئُوسا وأزرارا وحَلَقا ودمالج وقلائد وفصوصا للنَّرْد، ونَجَروه أمشاطا وعُلَبا، وكَفّتوه [٦] فى الأَخْوِنة

(١) الفينة: الحين والساعة (٢) ترعى معها (٣) جمع نصاب وهى يد الأداة من سكين ونحوه (٤) جمع محجن (بكسر الميم) وهى العصا الملوية اليد (٥) جمع مخصرة وهى العصا القصيرة المستعملة الآن (٦) أصل التكفيت ضم شىء الى شىء أو وضعه فيه واستعمل من قديم فى الصناعة العربيـة بمعنى ضم بعض اجزاء من الذهب أو الفضة أو العاج أو الصدف الى بعض وتنزيله فى معدن أو خشب

والمناضد والصناديق والخزائن والكراسى والأرائك والمكاتب والأبواب والمنابر . وأولع الصينيون والهنود ومن صاقبهم من الأمم بنَجْره ونقشه دُمًى [١] وتماثيل لعظمائهم ومعبوداتهم وحيوانهم ويُبدعون ذلك أيما إبداع

ويشاهد الزائرون لمساجد القاهرة ومدارسها القديمة ودار الآثار ودار العاديّات فيها ما أبدعته يد الصناعة المصرية من عهد الفراعنة الى وقتنا هذا من بدائع النقش على العاج وتنزيله فى خشب الجَوْز والآبنوس فلا يسعهم إلا إكْبار هذه اليد الصنّاع والأنامل الرفيقة ، التى نَسّقت تلك الفصوص الدقيقة ، ونمّقتْ منها شكولا أنيقة ، وكستها من البهاء والرونق شُفوفا [٢] رقيقة

وجلود الفيلة صفيقة غليظة لا يزال الزنوج والحُبشان يتخذون منها درَقا وحَجَفا [٣] لا تعمل فيها السيوف ولا تخرقها الحِراب ، ويخرزون منها جَوالق وأجْربة وعِيابا [٤] وأسقية ويجعلونها أخْبية وقبابا وأبسطة وفراشا . ولهم فيها منافع أخرى

وفى حِل اكل الفيل خلاف بين أئمة المسلمين واكثرهم على كراهته أو تحريمه

---

(١) جمع دمية : التمثال الصغير من العاج (٢) جمع شف (بفتح الشين) وهو الثوب الرقيق النسج (٣) الدروس من الجلد (٤) جمع عيبه وهى وعاء للثياب ونحوها وتتخذ فى السفر (الشنطة)

مقطعات شعرية فى الاوصاف

قال محمد بن بشير من شعراء الدولة الأموية وفصحائهم فى وصف الكتب :

لمّا رأيتُ بأنّى لستُ مُعْجِزَهم ... فَوْتاً ولا هَرَباً قدرْتُ أحتجبُ
خَصِرتُ فى البيت مسروراً به جَذِلا ... جارَ المثواهُ لاشكوى ولا شَغَبُ
فَرْداً يُحدِّثُنى المَوْتَى وتَنْطِق لى ... عن علْم ماغابَ عَنِّى منهمُ الكتب
هم مؤنِسُون وألّافٌ غَنِيتُ بهمْ ... فليس لى فى أنيس غيرهمْ أرَب
لِلّهِ من جُلساء لاأَجليسهمُ ... ولا عَشيرهمُ للسوء مُرْتقِب
لا بادرات الأذى يخشى رَفيقهمُ ... ولا يُلاقيه منهمْ مَنطِقٌ ذَرِب[1]
أبْقَوْا لنا حِكَماً تبقَى منافعُها ... أُخرَى الليالى على الايّام وانشعبوا[2]
فأيّما أدَبٍ منهمْ مَدَدْتُ يدى ... إليه فهو قريبٌ من يدى كَثَبُ[3]
إن شِئتُ من محكَم الآثار يَرفعها ... إلى النّبىِّ ثقاتٌ خيرةٌ نُجُب
أو شِئتُ من عَرَبٍ عِلْماً بأوّلهمْ ... فى الجاهليّة أنبتنى بها العرَب
أوشئتُ من سِيَر الأملاك من عجم ... تُنْبِى وتُخبِر كيفَ الرأى والأدب
حتى كأنّىَ قَدْ شاهدتُ عَصْرهمُ ... وقد مضتْ دُونَهمْ من دهرهمْ حِقَبُ[4]
يا قائلاً قصُرتْ فى العلم نُهْيته[5] ... أمسىَ إلى الجهل فيما قال ينتسب:
إنّ الاوائلَ قد بانُوا بمَعْلمهم ، ... خِلافَ قولك ما بانوا وما ذهبوا

---

(١) فاحش (٢) ماتوا وانقرضوا (٣) قريب (٤) جمع حقبة (بكسر الحاء) : المدة من الدهر أو السنة (٥) غايته.

ما ماتَ مثل امرىء أبقى لنا أدبا نكونُ منه إذا ما ماتَ نكتسبُ

وقال ابن أبي عُيَينة [١] يصف بساتين نهر الأُبُلَّة بقرب البادية :

يا جَنَّةً فاقَت الْجِنانَ ، فَما يَبْلُغُها قِيمَةٌ وَلاَ ثَمَنُ
أَلِفْتُها فاتَّخَذْتُها وَطَناً ، إنَّ فُؤادي لاهلِها وَطَنُ
زُوِّجَ حِيتانُها الضِّبابَ بِها فَهَذِهِ كَنَّةٌ وَذَا خَتَنُ [٢]
فانْظُرْ وَفَكِّرْ فيما تُطيفُ بِهِ ، إنَّ الاريبَ الْمُفَكِّرُ الفَطِنُ:
مِنْ سُفُنٍ كالنَّعامِ مُقْبِلَةٍ ، وَمِنْ نَعامٍ كأَنَّها سُفُنُ

وقال البُحْتَرِيّ [٣] يصف سَحابة :

ذاتُ ارْتِجاز [٤] بِحَنِينِ الرَّعْدِ مَجرورةُ الذَّيْلِ صَدوقُ الوَعْدِ
مسفوحة الدَّمعِ لغَيْرِ وَجْدِ لها نَسِيمٌ كنسيم الوَرْدِ
ورَنَّةٌ مثلُ زَئِيرِ الأُسْدِ ولَمْعُ بَرْقٍ كسُيُوفِ الهِنْدِ
جاءَتْ بها ريحُ الصَّبا من نَجْدٍ ، فانتثرتْ مِثلَ انْتِثارِ العِقْدِ
فراحتِ الأَرْضُ بعيشٍ رَغْدِ مِن وَشْيِ أَنوارٍ [٥] الرُّبا في بُرْدِ

---

(١) شاعر من شعراء الدولة العباسية من ذرية المهلب بن أبي صفرة
(٢) الحيتان جمع حوت وهو السمكة . والضباب جمع ضب ، وهو حيوان من نوع الورل يعيش في البر ويصبر على العطش . والكنة : امرأة الابن أو الأخ . والختن الصهر وزوج البنت أو كل ما كان من اقرباء المرأة كالأب والأخ . والمعنى ان هذه الروضة قد جمعت النقائض من الماء والبرية والسمك والضب وألفت بينها حتى جعلتها أنسباء (٣) هو أبو عبادة الوليد بن عبادة من أشعر شعراء الدولة العباسية وأرقهم قولا . توفى سنة ٢٨٤هـ (٤) ارتجاز السحاب سيره ببطء لثقله بالماء . يريد أنه يمشي والرعد يحدوه بحنينه وصوته (٥) جمع نور وهو الزهر

كأنما غُدْرانها في الوَهْد [١] يَلْعَبْنَ مِن حَبابِها [٢] بالنَّرْد

وقال ابن المُعْتَزّ [٣] يصف واديا مُمْرِعا :

ووَادٍ خَصيبِ التُّرْبِ تَندَى بقاعُه بهيم [٤] الذُّرَا، أثوابُ قيعانِه خُضْرُ
رحيبٌ كموج البحر يلتهم الرُّبا [٥] وتَنْزِقُ في أكلائه [٦] النَّعَم الدَّثْرُ
أَلَحَّتْ عليه كلُّ طَخْياءَ [٧] دِيمة إذا ما بَكَتْ أجفانُها ضَحِكَ الزَّهْرُ
فما طلعَتْ شمسُ النهار ضُحَيَّةً ولا أُصُلاً إلا ومِن دُونِها خِدْر
كأنَّ الرَّبابَ الجَوْنَ [٨] والفجرُ ساطعٌ دُخانُ حريقٍ لا يُضِيءُ له جَمْر

وقال يصف فَرَس صَيْد :

قد أغتدى بقارحٍ [٩] مُسَوَّمٍ [١٠] يَعْبُوبِ [١١]
يَنْفِي الحصى بجافرٍ كالقَدَحِ المكبوبِ
قد ضَحِكَتْ غُرَّتُهُ في موضعِ التقطيبِ
إذا عَدَتْ أربعُه لقَنَصٍ مَطْلوبِ
لم ينقطعْ غُبارُها قَبْلَ دمٍ مَصْبُوبِ

وقال السَّرِيُّ الرَّفَّاءُ من شعراء الدولة العباسية في وَصْف الجَرَاد :

---

(١) المنخفض من الارض (٢) فقاقيعها (٣) هو عبد الله ابن الخليفة العباسي المعتز تولى الخلافة يوما واحداً في فتنة وقتل سنة ٢٩٦ هـ وكان من أرق أهل زمانه شعرا وأدقهم وصفا (٤) اسود من كثرة الخضرة (٥) أى لطول أعشابه واشجاره لايظهر روابيه (٦) جمع كلأ وهو العشب ، والدثر الكثير (٧) سحابة سوداء . وديمة : دائمة الهطل (٨) السحاب الاسود (٩) القارح من الحافر : الكامل سن الشباب (١٠) معلم بسمة (١١) سريع طويل سهل العدو

وَجَحْفَل من جُنودِ الله منتشِرٍ مثلِ الخناصر منقوشِ الحيازيم (١)
يَحِلُّ بَسْطَةَ إقليم فإنْ عَصَفَتْ به الصَّبا تركتْه جوَّ إقليم
ماشَنَّ وهو ضَعيفُ البطش غارتَه إلا اَستباحَ حِمى الشُّمِّ اللهاميم (٢)
يُلْقِى على الحَبِّ فى أعلى مَنابته كلا كلاً (٣) نُقِشَتْ نَقْشَ الخواتيم
إذَا اَستقلَّ أعاد الأَرْض مُعْدمةً واَستَوْدعَ التُّرْبَ نَسْلاً غيرَ معدوم

وقال أبو الصَّلْت أُمَيَّة بن عَبْد العزيز الأَنْدُلسى يصف الطاوس:

أبَدَى لنا الطاوُسُ عَن منظَرٍ لم تَرَ عَيْنى مثلَه منظرا
مُتَوَّجَ المَفْرِق إلاّ يكنْ كِسْرَى بنَ ساسانَ يَكُنْ قَيْصَرا
فى كلّ عُضْوٍ ذَهَبٌ مُفْرَغ فى سُندُس مِن ريشه أخضرا
نزْهَة مَن أبْصَر، فى طَيِّها عِبْرَة مَن فكَّرَ واستبْصرا
تبارك الخالق فى كُلِّ ما أبدَعَه منه وما صَوَّرا

---

(١) جمع حيزوم وهو الصدر (٢) أي السادة العظماء (٣) جمع كلكل وهو الصدر

المدينة المنورة

هى منزل رسول الله ، ودار هجرته ، ومعقل دينه ، وموطن أنصاره ، وموضع قبره ومسجده ، ومقر خلفائه

وكان اسمها فى الجاهلية « يَثْرِبَ » و « أثرب » ، ثم سماها رسول الله (ﷺ) « طَيْبَةَ » ، واشتهرت باسم « المدينة » أو « مدينة الرسول »

وهى من أرض الحجاز على حدود نجد ، فى بسيط فسيح من الأرض كثير النخل يكنفه جبلان : هما لابتا المدينة وحرّاتها . وهى على شكل مدوّر مستعرض من الجنوب الشرقى مستدق من الشمال الغربى . ويشرف قبر رسول الله وقبرا صاحبيه الجنوب الشرقى من المدينة

والمعروف أن أول من نزل وادى المدينة فى العصور الأولى وعمّر بها المنازل وغرس النخيل بعض قبائل العمالقة ، وسموها « يثرب » أو « أثرب » ، وأقاموا بها قرونا حتى تمزق شمل العمالقة فى سائر أنحاء جزيرة العرب ومصر والشام . وغلبهم على ديارهم بنو قحطان وبنو اسماعيل واليونان والرومان ، وبقى منهم بقايا بيثرب زحمتهم عليها جوالى اليهود من الشام أيام غارات البابليين والفرس والرومان ؛ كما غلبوهم على كثير من البقاع الخصبة شماليها من تيماء وخيبر وفدك وغيرها . وبنوا بها الحصون والآطام ، وغرسوا النخيل ، وأجروا العيون ، وحفروا الآبار ، واستعربوا وتبدّوا وتطبّعوا بطباع العرب وعاداتهم إلا فيما يمس أصول شريعتهم

ولما تفرقت قبائل اليمانية بظلمهم أنفسهم وتخريب سيل العرم بلادهم كان سبيلُ قبيلة غسّانَ منها شرقيَّ الشام وجنوبيّ فلسطين وقنِعَ بعض بُطونهم من الأوس والخزرج آبنى حارثة بن ثعلبة بالاقامة بينَ ظهرانَى اليهود وبعض بُطون العرب المجاورة لهم بيثرب وما إليها من القرى ؛ حتى إذا كثر عديدهم ، وفشت فيهم فاشية من المال ، وبنوا الآطام والحصون تخوَّفهم اليهودُ فأساءوا جوارَهم ، وتعمَّدوا أذاهم . فاستنجدوا عليهم بَنى عُمُومتهم من غسّان فى الشمال وحمير في الجنوب ، فنصبوا لليهود المكايد والحروب حتى أجلَوْهم عن المدينة إلا قليلا ، واعتصموا بحصونهم خيبر وتيماء وغيرهما ، وخلصت المدينة للأوس والخزرج ، ولكنهم لم ينعَمُوا بها طويلا فما عتَّموا أن نشبت الحروب بين القبيلتين ، وظلت قائمة نحو مائة سنة حتى آجتمعوا على الاسلام ، فألَّفَ بينَ قلوبهم وأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وصارُوا أنصارَ رسول الله الى الله .

وذلك انه لما دعا رسول الله قبائلَ العرب فى مَوْسِم الحجِّ الى الإسلام آستجاب إلى دعوته نَفَر من حُجّاج المدينة فبايعوه على الإسلام وطاعة الله ثم عادوا من قابل ومعهم سبعون رجلا وآمرأتان بايَعُوه على الإسلام وحماية دعوته . ثم عادوا الى المدينة ونشروا الإسلام فيها فهاجر اليها رسول الله وصاحبه ابو بكر ، وبنى مسجده وتبعهما مسلمو قُرَيْش من مكَّة ، فسمَّى رسول الله أهلَ المدينة الأنصار ، وسمى النازلين عليهم من قُرَيْش المهاجرين . وآخى بينهم في الاسلام وصاروا أُمَّة واحدة

غلب بهم قُرَيشَ مكة في غزوة بدر ، وغزَتْهم هي في مَوْقعة أُحُد ، فلم يَنْتصف منها . فألَّبَتْ عليه مكةُ قبائلَ اليهود وغطَفانَ وغيرَهم من الأحزاب ، وجاءوا ليصطلموا الأنصار ويستأصلوا شأفة الاسلام . فأمر الرسول بحفر خندق على المدينة عمِل فيه مع أصحابه بنفسه ؛ فامتنع على الأحزاب اقتحامه ، فحاصروا المدينة على غير نكاية بالمسلمين حتى نَفِدَ صبرهم وانتقض فتلهم ودبّتْ عقارب الفِتْنة بينهم ، وتخاذلوا ، وارتاب بعضُهم في نِيّة بعض ، فانفضُّوا من حَوْلها ، وكان أسبقَهم إلى الانصراف أشدُّهم عداوة لرسول الله وتأليبا عليه : أبو سُفْيان صَخْر ابن حرب صاحب لِواء مُشركي قريش يَوْمئِذ ، وتبعه قبائل غطَفان ويَهود . وما كادتْ يهود تَقِرّ في ديارها حتى أدركهم رسولُ الله بأهل المدينة ، وحصَرَهم في حُصونهم ، وأنزلهم على حكمه ؛ فاستبق بعضَهم لاستغلال الأرض واستباح غيرهم ، واصبحت شُطور أموالهم ومخارفهم[1] فيْئًا لرسول الله وللمسلمين وارْباضا ذوات غَلّةٍ وثَمَرة على المدينة . فعظُم شأنها وقويَتْ شَوْكة أهلها ، حتى استأمنهم مشركو مكّة بعقد هُدْنة كانوا هم الناكثين لها ، فخرج رسول الله بجيش جرّار فتح به مكة عَنْوَة وأسلم أهلها ، وهزم به من تصدّى لحربه من جموع هَوازن وأحْلافها ، وفتَح الطائف ، وبَثَّ الرُّسُل والدُّعاة الى قبائل العرب وملوك الدُّوَل المجاورة للجزيرة . فدخَل العرب في دِين الله أفْواجا ، وأصبحت المدينة وِجْهةً لوُفود القبائل من أنحاء الجزيرة ، وهاجَرَ اليها كثير من مكّة

(١) جمع مخرفة : البستان

وغيرها ، وصارت حاضرةَ بلاد العرب تُجْبَى اليها زكاة أموالها وصدقاتها ، وتُعْقَد فيها أَلْوِية أُمراء البُعوث والسرايا وعُمّال الجباية ، وتَنبعثُ منها أَنوار العِرفان والهِداية

وما زالت كذلك حتى قُبِضَ رسول الله ﷺ الى الرَّفيق الأعلى ، فكانت داراً لِخُلَفائه أبي بكر وعُمَر وعُثمان رضوان الله عليهم . وعنها صدَرَتْ خِلالَ مدّتهم تلك الجُيوش والأَوامر التي قوَّضَتْ عَرْش كسرى ودَكْدَكَتْ مُلْك قيصر وحملتْ اليها تيجان الملوك وذخائرهم وخزائن أموالهم وسلاحهم وسَبْيَهم . فكثُرتْ فيها العِمارة ، وامتدّتْ الى الوديان المُطيفة بها . وكان أَوّلَ قصر بُنِي فيها للخليفة عثمان ، ثم اقتدى به كثير من سادات الصحابة وأمرائهم .

ثم انتقلت الخِلافة الى الكوفة مدة على رضى الله عنه ثم إلى دمشق مدَّةَ بني أمية فغدَت المدينة كمكّة ولاية مُلْحَقة بغيرها . وحدَثَ في زمن يزيد بن مُعاوية أن أهلها عَدَلوا عن بيعة يزيد وبايعوا كأهل مكة عبدالله بن الزبير ، فبعَثَ على أهل المدينتين جيشا كثيفا عقَدلواءه لمسلم ابن عُقبة المُرّي فأَوقع بأهل المدينة وقَتَل أكثَر من عشرة آلاف منهم نحو تِسْعِمائه من الصحابة في موقعة الحَرَّة واستباحها ثلاثة ايام نَهْبا وتقتيلا ، وأكْرَه من بَقِيَ منهم على البَيْعة ليزيد وأن يكونوا له عبيدا . ثمّ توجه لِتلقاء مكة فمات في الطريق ، واستخلف الحُصَيْن بن نُمَير السَّكُونيّ على حَرْب مكة ، فحاصرها ورمى الكعبة بالمِنجنيق ثم بلَغه موت يزيد فرجَع الى الشام . فكانت وقعة الحَرّة هذه أفظع فاجِعة وأفدح

كارثة مُنيتْ بها المدينة منذ كان الاسلام.

ولكن خلفاء بنى أمية بعد أن خلص لهم المُلْك أسَوْا بعض تلك الجراحات بإغداق الأموال على أهل الحرَمَيْن بَبَرْبية فُروضهم وأعطياتهم، وأوْقَروا رِكاب وُفودهم اليهم مالاً وكسوة تأليفا لقلوبهم واستلالا لِأضْغانهم. فنَعِم بالُهم، وحسُن حالهم، ورفُه عَيْشهم، وهبوا يُنشئون القُصور والمخارف حوْل المدينة حتى امتلأ بالعمائر وادى العقيق وقُباء والعوالى

ولبِثَتْ على ذلك زمَنَ بنى أُمَيَّة وردَحا من عصر بنى العباس. فلما وَهى حَبْل الخُلفاء العباسيين باستبداد غِلمانهم من التُّرك والدَّيْلَم بأمر الخلافة دُونَهم، وانتقضَت عليهم ممالك الأطراف، ونجمَتْ فِتنة القَرامطة فى جزيرة العرب، ومدّ الفاطميّون رِواقَ مُلْكهم على المغْرب ومصر والشام، قلّت عِنايتهم بأمر الحجاز فتناقص عمرانه واضمحل شانه، وخرَج عليهم الاشراف الحَسَنيُّون بمكة والحُسَيْنيُّونَ بالمدينة، وصار كل من الإمارَتَيْن مُسْتقلاً بنفسه عن الاخرى إلاّ فترات كانت إمارة المدينتين تخلُص لأشراف مكة. وكانت الامارتان كلتاهما تدعُوان للفاطميين ثم للخلفاء العباسيين ببغداد فمصر، قارنين معهم فى الدُّعاء لهم بعض المتغلبين من مُلوك الاسلام وامرائه فى العراق واليمن ومصر؛ الى أن دخلَت إمارة الحجاز فى دائرة السّلْطنة العثمانية الكبرى، فأبْقت الحالَ فيها على ما كانت عليه من قبلُ

وفى أوائل القرن الثالث عشر من الهجرة ظهرت فى جزيرة العرب

دعوة الوهابيين التى قام بها محمد بن عبد الوهاب بمؤازرة آل سُعُود أُمراء نَجْد ، فغلَبُوا على الحجاز وأكثر جزيرة العرب ، وانتزعوا ما كان بالحجرة النَّبوية من النفائس والجواهر ، فاستعانت الدولة العثمانية بوالى مصر يومئذ محمد على باشا فاستنقذ المدينة والحجاز منهم ، وغزاهم فى عُقْر دارهم وأخمد جَذْوة دعوتهم دَهْراً طويلا

وبَقِىَ الحجاز فى قَبْضة العثمانيين حتى ثارت الحرب العظمى فاستقل شريف مكة بها مَلَّقبا بلَقب ملك الحجاز ، وشرع فى غَزْو المدينة ، فأخرجت الحامية العثمانية أهلها منها الى آسيا الصغرى ، ودام الحصار عليهم طويلا حتى استأسروا

وكان أهلها قَبْل الحرب نحو ستين الفاً ، بينهم كثير من الغُرباء : الهنود والجاويين والتُّرك والمغاربة والمصريين والزنوج وغيرهم . وكانت مادَّة عيشهم من زُوّار قَبْرِ رسول الله ومن غَلّاتِ حدائقهم وحوائط نَخلهم المحُيطة بالمدينة وخاصة الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية التى يُربى ما بها من أنواع التمر والعجوة على سبعين نوعا . ويملك أشرافها وساداتها كثيراً من القرى والأرْباض الخِصْبة ذوات العُيون المتدفقة التى يزرع عليها كثير من الخُضَر والبطّيخ والفاكهة . وأكثر تجارتهم فيما يَتّجر فيه أهل مكة ، ويزيدون عليهم بتجارة التَّمْر الذى يصدرونه إلى الآفاق حيث يَتَبَرَّك به مسلمو الارْض

ولما مد السلطان عبد الحميد سكة الحديد الحجازية ووصل بها المدينة بدمشق وبحر الروم اتسعت مرافقها وتواترت عليها وفود الزوار فى

قبة النبي عليه الصلاة والسلام وأبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهم بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة في محرم سنة ١٣١٦ هجرية

حقوق النقل الطبع والنشر محفوظة وسيحاسب المتعدي طبقاً للقانون اللواء ابراهيم رمزي بك الرسام المصري

أكثر فصول العام، ثم انقطع ذلك بتخربها زمن الحرب ، وربما عادت قريبا الى ما كانت عليه

ولم يكن للمدينة فى القرون الأولى من وسائل التحصين إلا الخندق الذى حفره رسول الله (ﷺ) فى وقعة الأحزاب وجدده أهل المدينة فى وقعة الحرة . فلما انتهبها الخوارج والقرامطة مرارا بنى عليها إسحاق بن محمد عامل العباسيين سورا منيعا سنة ٢٣٦ هـ ، وجدده عضد الدولة بن بويه الديلمى ، ثم جدده ملوك الإسلام من سلاطين الجزيرة والشام ومصر والعثمانيين إلى أن رممه محمد علىّ باشا فى حرب الوهابيين ، ثم جدده السلطان عبد العزيز العثمانى سنة ١٢٨٥ هـ وجعل ارتفاعه ٢٥ ذراعا فرنسية ، وهو الباقى إلى الآن . وهذا هو السور الداخلى . وللمدينة سور خارجى أقل من الأول فى الضخامة يضم اليها محلة المناخة . وهى منفصلة عن القصبة بواد متسع فى عرض أربعمائة ذراع فرنسية على طول المدينة ينزل فيه ركب الزوار والمحمل المصرى

ومنازل المدينة الآن كمنازل مكة فى طراز البناء وضيق الذرع وتعدد الطباق ، وعامة أحجارها من حرتيها السوداوين . وليس بالمدينة شوارع متسعة بل أزقة متعرجة ذات قرن ودواخل وخوارج .

ومن أشهر دروبها حارة السماحة غربى الحرم ، وبها ديار الوجهاء والسادات ، وسكة السوق على ضيقها ، وحول الحرم ثلاثة شوارع من جهاته الشرقية والشمالية والغربية

وفى المدينة آبارٌ كثيرة للسُّقيا، وعامة أهلها يستقون من العَيْن الزرقاء التى تَنْبَع غربىَّ قُبَاء، وتمدُّها عَيْن أُخرى قريبة منها، وتتشعب فى قُنِىٍّ تحت أرض المدينة، ولها سِقايات وأحْواض واسعة يُهْبَط إليها بدَرَج كثير. وللملوك الإسلام آثار صالحة فى صِيانتها، وتنظيف مسالكها، وتعميم النفع بها

ومن آثار المدينة بستانٌ مكانَ منازل آل عمر بن الخطاب قبلى الحجرة الشريفة، ودار أبى أيوب الأنصارى الذى نزل عليه رسول الله مَقْدَمَه الى المدينة، ودار عثمان بن عفان التى قتل فيها؛ وكلتاهما شرقى المسجد أمام الحجرة. ومن مشاهد المدينة ومزاورها مَشْهد حَمْزة بن عبد المُطّلب عمّ النبى بسفح أُحُد بالشَّمال الغَرْبىّ من المدينة، وكان قد دُفِنَ حَيْثُ صُرِع من بَطْن الوادى فى مَوْقعة أُحد، ثم نُقِلَ بعيداً عن مجرى السُّيول. وحَوْلَ قبره قبور شُهَداء أُحد، ومَسجد قُبَاء وقد تَقدَّم خبره. وأكبر مَزار بالمدينة جَبَّانتُها المباركة: بَقيع الغَرْقَد[1] شَرْقىّ المدينة، ويَضُمُّ ثَراه أجْداثَ أكثر من عَشرة آلاف من الصحابة وخيارِ التابعين رضوان الله عليهم، وبه قبر عثمان بن عفان رضى الله عنه، وعليه قبة، وبجانبه قبة على قبر الامام مالك بن أنس فقيه المدينة، وبقربه قبة على قبور أزواج النبى (ﷺ)، وقبة على قبر إبراهيم بن رسول الله من مارية القبطية، وقبة كبيرة بها قبرا العباس عمّ النبى والحسن بن على رضى الله عنهما، وبه قبر للسيدة فاطمة بنت النبى على إحدى الروايتين فى مدفنها

(١) الغرقد عشب من أعشاب المدينة كان ينبت فى البقيع

الحرم النبوى

لما هاجر رسول الله ﷺ الى المدينة جاءها من جهة قُباء ، على مسافة ميلين من الجنوب الغربى منها . فنزل بها بضعَ عشرة ليلة بنى فيها مسجداً يُسمَّى باسم مسجد التقوى . وهو أوّل مسجد أُسِّس فى الإسلام . وجدّده الملوك مِرارا . ثم ركِبَ رسول الله راحلته وسار يمشى معه الناس حتى دخل المدينة ، وكلّما مرّ على منازل قوم دعوْهُ الى النزول عليهم فيذكُرهم بخير حتى برَكَتْ ناقته أمام دار أبى أيُّوب الأنصارىّ . فقال : هذا المنزل إن شاء الله ! ربِّ أنزِلنى مُنْزَلاً مُبارَكاً وأنتَ خيْرُ المُنْزِلين . وأمامَ الدار يومئذ مِرْبَد كان لغلامين يتيمَيْن بالمدينة يقال لهما سهلٌ وسُهَيْل من بَنِى النجّار . فأرسلَ إلى مَلإٍ بَنى النجّار ، وقال لهم : ثامِنُونى بحائطكم هذا . فقالوا : لا والله لا نطلُب ثمنَه إلاّ الى الله . فلمْ يَرْضَ إلا أن ابتاعه بعشرة دنانير . وكان فيه نَخْل وقبور للجاهلية وخَرِب وماءٌ مستَنْجَل (١) فأمر بالنخل فقُطِعَت ، وبالقبور فنُبِشَتْ ، وغُيِّبَتْ عِظامها ، وبالخَرِب فسُوِّيَتْ ، وبالماء فسُرِّبَ حتى ذهب ، وأخذ يَبْنى عليه مسجده ومنزله . وعمِل فيه مع الأنصار بنفسه ، وأسَّسُوه بالحِجارة الى عُلُوّ ثلاث أذرُع . ثم أكملوه باللَّبِن إلى سَبْع أذرع . واتّخذوا فى بعضه من جُذوع النخل سوارىَ وعوارضَ ، وسقفُوه بالجَريد والخَصَف (٢) والإذْخِر (٣) وقليل من الطّين ، وجعل باقى الارض صَحْنا ثم

---

(١) نز مستنقع (٢) ماضفر من الخوص قفافا كبيرة وجلالا (٣) العشب الأخضر

زيد فيه مرتين . وأرجح الروايات فى ذرعه أنه كان مربعا : مائة زراع فى مائة . وبنى رسول الله جنوبيه من الشرق مناز له . وكانت قبلته الى بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم حولت الى الكعبة .

وكان رسول الله يخطب مستنداً الى جذع نخلة ، ثم جعل له منبر من أثل بدرجتين ومجلس . ثم رفعه معاوية فى خلافته ، وجعل له ست درجات وجدده ملوك الاسلام مراراً . والمنبر الحالى من تجديد السلطان عبد المجيد وهو من الرخام المحلى بالذهب

وجعل رسول الله فى آخر المسجد من الشمال صفة [1] ينزلها المستضعفون والفقراء ومن لا أهل لهم من أصحابه . ويجرى عليهم من الأرزاق ما يقوم بحاجاتهم . ومنهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى (رضى الله عنهما)

وجعل للمسجد بعد تحويل القبلة ثلاثة أبواب : شرقى وغربى وشمالى . وكان لدور أصحابه المطيفة بالمسجد خوخات تشرع إليه ، فأمر رسول الله بها أن تسد إلا خوخة أبى بكر

ولما قبض رسول الله (ﷺ) دفن فى حجرته من منزل أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر ثم دفن فيها أبو بكر ثم عمر

وبقى المسجد فى زمن أبى بكر على ما كان عليه زمن رسول الله . ثم زاده عمر كثيراً من الجهة الشمالية وقليلا من الجهات الثلاث . ثم زاده عثمان من جهاته الأربع ، وبناه بالجص والحجارة . ثم لما كان زمن الوليد

(١) عريش

ابن عبد الملك أرسل الى عامله على المدينة عُمَر بن عبد العزيز يأمره بتجديده والزيادة منه ، فزاد فيه من جميع جهاته وأدخل فيه حُجُرات أزواج النبى (ﷺ) وصارتْ حُجرة القبر الشريف داخل جدار المسجد ، وبناه بالحجَر وبلّطه بالرُّخام ، وطلَى سَقْفه بالذهب ، وحلَّى جُدُره بالفسَيْفساء ، وجعَل أساطينه من الحجارة والمَرمر . واتخذ له محْرابا ولم يكن له محراب من قبلُ . وجدّد الحُجرة الشريفة

ثم زاد فيه المهدىّ العبّاسىّ زيادة كبيرة من جهة الشّمال تكمّل بها ذَرْعُه الحالىّ إلا قليلا

وفى ليلة أوّل رمضان من سنة ٦٥٤ هـ دخل أحد قوّام المسجد بمشْعَل نارٍ فى مَخزَن القناديل بالشّمال الغربىّ من المسجد ، فأخَذ حاجته منه ، وغَفَل عن النار ؛ فعلِقتْ بأقفاص القناديل ، فاشتعل المخزَن ، فحاول إطفاءها ، فات حرَقا دُونَ ذلك . وعلَت النّار الى سُقُف المسجد ، وكان له سَقْفان : أحدهما فوْقَ الآخر ، وبينَهما أكثر من ذِراع ، فاحترق المسجد جميعه . فأبلغوا الخبر الخليفة المستعصِم آخر الخلفاء العباسيّين ، فبعَث بالصُّنّاع والآلات سنة ٦٥٥ هـ ؛ ولكنْ حال دُون إتمام العِمارة تلك الكارثة العظمى : زوالُ الخِلافة العباسية من بَغْداد فى السنة التالية سنة ٦٥٦ هـ على أيدى التّتار وقَتْلهم الخليفة أشنعَ قِتْلة . فاشترك كلّ من مَلِك اليَمَن المظفّر بن رَسول وسلاطين مصر من المماليك البَحَرية فى تعميره . وكان الفَضْل الأكبر فى ذلك للملِك الظاهر بيبَرْس البُنْدُقْدارىّ . ثمّ كانَ لسلاطين المماليك من بَعْده فى المسجد من أعمال التجديد والترميم

فى السقف والجدُر والسُّور والمآذن والحُجرة ماخلَّد لهم الباقيات الصالحات عند الله والناس . ومِنْ أسخاهم يداً فى ذلك ربُّ الأبنيات والعمارات أبو النّصر الملِك الأشرف قايتباى ؛ فإنه جدَّد المسجد النَّبوىّ مرّة قَبْلَ الحريق الثانى ومرة بعده

وهذا الحريق الثانى نشأ من صاعقة سقطت سَحَرَ ليلةٍ ذاتِ ظُلُمات ورَعْد وبَرْق وإعصار وأمطار على رأس المِئْذَنة الكبرى الشرقية الجنوبية القريبة من الحُجرة النبوية ، فشقّته ، وكان عليها مُؤذّن يهلّل بِسَحَرٍ فمات صَعَقاً ، وخرّقت الصاعقة سَقْف المسجد تحتَ المِئْذنة ، فاشتعل بأسرع من لَمْح البَصَر ، واندلع لَهَب النار الى المسجد جميعه ، فاحترق فى بِضْع ساعات حاشَى الحُجرة المطهَّرة

ولما بلغ السلطانَ قايتباىَ خبرُ هذه الفاجعة شقّ عليه وكان عامئذٍ يُجدّد الحرَم المكّىّ ، فأمَر العُمّال والمُباشرين بالتحوُّل تَوًّا الى المدينة ، وأرسل الخَشَب والحديد والنُّحاس والرُّخام مِن أقطار الممالك المصرية ، فجدّد المسجد هذه المرة تجديدا كان آيةً فى الحسن والفخامة ، وبنى غربيّه بيْن باب السَّلام وبابِ الرَّحْمة مدرسته ورِباطه الماثلين الى هذا الزمان

ولمَّا سقطت دَوْلتا المماليك وورِثت الدولة العُثمانية بلادهما وخدمة الحرَمين الشريفين لم تقِلّ عِناية سلاطينها بعمارة المساجد المقدسة عن سالفيهم . والتجديد الأخير الذى يتمثّل به شَكْل المسجد الآن ويُعَدّ مَفْخَرة من مفاخر الملوك العظام قد قام به منهم السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٠ ، فقد أنفق ألْفَ ألف دِينار عُثمانىّ على هذه العِمارة العظيمة التى أرْبت

على كلّ عِمارة سَبَقَتْها فى الفخامة والزّخرفة والتذهيب والتزويق وحُسْن الهِنْدام وجمال الخُطوط المطرَّزة بها أعالى الجدُر والأبواب الناطقة بما كان لكاتبها العظيم عبد الله زُهْدى بك من عُلُوّ الكَعْب وانقطاع النظير فى فَنّه الجميل

جانب من صحن الحرم النبوي الشريف (١)

والمسجد النبوىّ مُقام على أَرْض مستطيلة الشكل تمتدّ من القِبلة الى الشمال على تَفاوُت قليل فى طُول جوانبها ، والحُجرة المطهَّرة منها على مَقْرُبة من زاويتها الشرقية القبلية . وقبلة المسجد جنوبيَّة متحرِّفةٌ الى الشرق قليلا ، وعلى خطّ القبلة يمتدّ الجانب الجنوبىّ منه بطول ٣٥/٣٦

(١) نقلت هذه الصورة والتى تليها عن صورتين فى كتاب الرحلة الحجازية لحضرة المفضال محمد لبيب البتنونى بك

من الأَذرُع الفرَنْسية ، ويَقِلّ عنه الجانب الشمالىّ المقابل : فيكون طوله ٦٦ ، ومُتوَسِّط طُول الجانبين : الشرقىّ والغربىّ ٢٥ / ١١٦

ويشتمِل المسجد الآن على صحن مَحْصُوب يُطيف به أَربعة أَروقة ذوات قِباب مُقامة على أساطين عظيمة من الصوَّان مُغَشَّاة بغِلالة من المَرْمَر المُمَرَّد كأَنّه الرُّخام المُوشَّى بالذَّهَب كما فى الحَرَم المكّىّ. وأَكبرها الرِّواق القِبلى الذى يشغَلُ أَكثرَ من ثُلُث ذَرْع المسجد لاشتماله على الحُجْرة المطهرة ، والمِنبر غربيَّها ؛ وهو فى موضع مِنبر رسول الله ، وبينهما الروضـةُ الشريفةُ المَعْنِيَّةُ بقوله عليه صَلواتُ الله : « ما بَيْنَ بَيْتِى

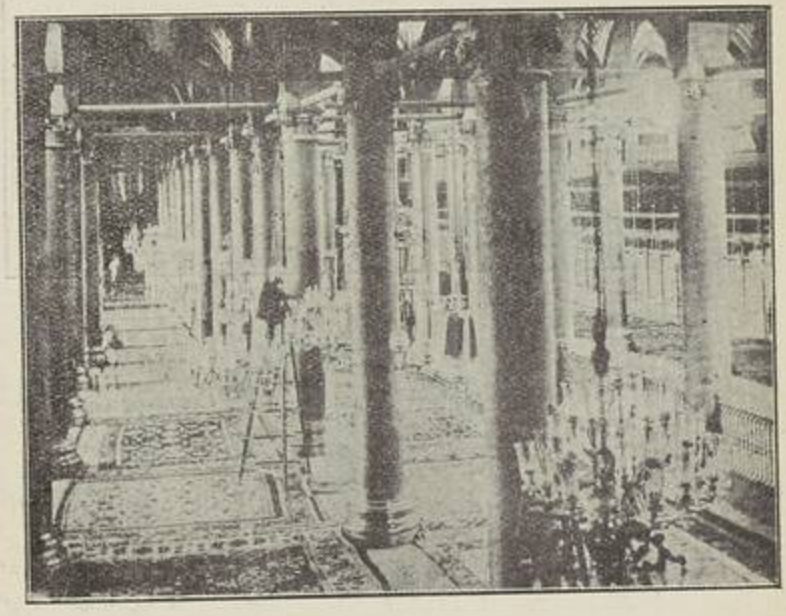

الحرم النبوي الشريف من الداخل

ومِنْبَرى رَوْضَةٌ مِنْ رِياضِ الجَنّة » ، وهى مُمَيَّزة مِن زِيادتى عُمَر وعُثمان (رضي الله عنهما) بِدَرابْزِين من صُفْر ، وفيها مُصَلاَّهُ الشريف حيث

أُقيم عليه مِحراب بديع الصُّنع . وأمامه مِحراب عثمان رضى الله عنه على نهاية الزيادة التى زادها

وفى الصحن بئر ونخلة حولها أشاءٌ مُسوَّجةٌ بسياج من حديد يزعمون أنها بقية بُستان للسيدة فاطمة بنت رسول الله ، وليس بصحيح

وللمسجد خمسة أبواب : باب السلام ، وباب الرحمة من الغرب ، وباب جبريل ، وباب النساء من الشرق ، وبين هذين البابين من جنوبىّ الرواق الشرقىّ مِصطبة بطول اثنتى عشرة ذراعا فرنسيّة وعرض ثمانٍ يجلس عليها خُدام الحُجرة ، وهى مكان الصُّفّة التى اتخذها رسول الله ﷺ للمحاويج ومن لا أهل له من أصحابه . وشماليًّا من هذا الرواق الشرقى حظير لمُصلّى النساء ، والباب المجيدى من الشمال

وله خمس مآذن : أربع مقامة على أركانه ، وأخرى لمدرسة قايتباى

الحجرة الشريفة

هى حُجرة أُمّ المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) ، حيث قُبض رسول الله ﷺ ودُفن بجانب جدارها القبلىّ مما يلى الرُّكن الغربىّ ، ثم دُفن خلفه مُزحزحاً قليلاً الى المشرق صاحبُه وخليفته ابو بكر الصديق ، ثم دُفن خلف أبى بكر مزحزحا قليلا الى المشرق خليفتُه الثانى أمير المؤمنين عُمر بن الخطّاب (رضى الله عنه) . وكان رسول الله (ﷺ) قد بنى بيت عائشة بالحجر إلى ثلاث أذرُع فوق الأرض ، ثم أكمله إلى سبع أذرُع باللبن الكبير ، وسقفه بجُذوع النخل

وجريده وخصف الخوص [١] . ثم إن أمير المؤمنين عمر أو عبد الله ابن الزبير أو كليهما رممه بالحجر ، وبقي كثير من اللبن في جدره فسقط سنة ٥٧ هـ الجدار الشرقي زمن ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، فرمه وبنى حول الحجرة عند ما أمر الوليد بعمارة المسجد حظارا [٢] مربع الشكل يحوطها به من تأثير الجو ، وجعل بينه وبين جدار الحجرة فضاء نحو ذراع من الشرق والشمال ؛ وأقل من ذراع من الجنوب ، وجعله من جهة الغرب ملاصقا لجدارها الغربي . ثم تخوف أن يستقبل الناس جدار الحجرة الشمالي كما يستقبلون الكعبة ، فبنى من ركنيه جدارين مزورين ينتهيان في ركن زاوية إلى الشمال ، فأصبح حظار عمر بذلك مخمسا مزورا له وجوه ذاهب الى الشمال على تفاوت في طول الأضلاع فتفادى بذلك من تربيع الحجرة ومشابهتها للكعبة ، ولم يجعل في الجدر الداخلة ولا الخارجة بابا . ودخل في هذا المثلث المنشأ على الجانب الشمالي جزء من بيت فاطمة (رضي الله عنها)

ثم كسيت جدر الحجرة من خارجها ستورا كما تكسى الكعبة . وأول من كساها السيدة الخيزران أم الرشيد عند حجها سنة ١٧٠ هـ ثم الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح بن رزيك وزير الفاطميين . ثم خلفاء العباسيين ثم سلاطين مصر ثم سلاطين العثمانيين . ولما احترق

---

(١) جمع خصفة ، وهي قفة كبيرة يوضع فيها التمر (٢) الحظار : الحائط المحيط بمكان

المسجد للمرة الاولى سنة ٦٥٤ هـ وجدّده الظاهر بيبرس ملك مصر سقفوا الحجرة باطنها وحظارها بخشب الساج . وبين سقفها وسقف المسجد فراغ ، وفوق سقف المسجد على سمت الحجرة دائر من الآجر يمير سطحها من بقية سطح المسجد ، وأداروا حول الحجرة مقصورة من الخشب ، دخل فيها بيت فاطمة ، ولذلك اتخذ الشيعة وقتئذ شماليها مصلى لهم . ولم يكن للحجرة الى سنة ٦٧٨ هـ قبة ، فأقام الملك المنصور قلاوون الصالحي قبة من الخشب على رؤوس السوارى مربعة الأسفل مثمنة الأعلى مكسوة بالرصاص ، وكانت تسمى القبة الزرقاء ورممت مرارا

وفى سنة ٨٨١ هـ ظهرت خلخال المسجد عند تغيير الستور صدوع فى الحجرة المطهرة ، فأخبر بذلك سلطان العصر قايتباى ، فبعث بالمهندسين والصناع ، فكشفوا عن الصدع ، فوجدوه متسعا ، وأبصروا من داخله جدر الحجرة المربعة ، وهى بيت السيدة عائشة مصدعا أيضا . فعقدوا مجلسا بالمقصورة الشريفة ، وأجمعوا أمرهم على نقض جميع الجدر ، وبناء حجرة جديدة مربعة ، شماليها فضاء مثلث ، فيتكون من الجميع بنية مخمسة لها جوجو شمالى على مثل ما بنى عمر بن عبد العزيز ، وبناء قبة من الحجر على البنية المربعة . فهدموا الجدر ونظفوا أرض القبور فلم تتبين لهم آثار وضعها لأنها لم تكن مبنية ولا مرتفعة عن الأرض الا بنحو أربع أصابع . فسنموها بالحصباء وراعوا فى ترتيبها الرواية المشهورة الآنفة ، وبنوا الجدر بالحجر النحيت ، ولم يبقوا من

حُجرة النبيّ القديمة الا الرُّكن الغربى القبلى الذى يلى رأسه الشريف بارتفاع ثلاث أذرُع ليس عليها اعتماد فى الثقل وإلا بعضَ لَبن جعلوه فى أعلى البناء تيمُّناً وحفظاً لأثر من آثار رسول الله . وإذْ كانت القباب لا تُقام الا على جدر مُربَّعة متساوية الطول ، وحُجرة القبر مستطيلة ، بَنَوْا قبْواً على الجزء الزائد على التربيع من جهة الشرق ، وبَنَوْا قُبيّة صغيرة على الجُدُر الثلاثة وعلى القَبو : بَنَوْا أسفلها بالحجر الأسود وأعلاها بالحجر الأبيض ؛ فكانت جميعها تحتَ سَقْفِ المسجد بلا باب وفوقَ سَقْفِه القُبّة الزرقاء . فلما كان الحريقُ الثانى واحترق المسجد والقُبّة الزرقاء العليا وبقيت القبة البَيْضاء الصغيرة ، وكان ذلك زَمن قايتباي أيضاً ، جدّد المسجد كما ذكرنا ، وبَنى بَدَل القُبّة الزرقاء قبّة كبيرة خضراء مُقامة على دعائم قويّة حَوْل الحجرة ، ونصب حولَ هذه الدعائم مقصورة من النُّحاس ، وبينها وبين الحُجرة الشريفة فِناءٌ من الجهات القبلية والغربية والشرقية بسَعَةِ ثلاث أذْرُع فرنسية ، وشماليّها مقصورة أصْغر منها على بَيْت فاطمة (رضى الله عنها) . ويُقال فى بعض الروايات أنّ علياً (رضى الله عنه) دَفَنَها فيه . وبَقِيَتْ هذه القُبّةُ الى أن جَدَّدها السُّلْطان محمود سنة ١٢٣٣ هـ ، ثم رَمَّمَها ودهنَها باللون الأخضر سنة ١٢٥٥ هـ . وقد اشتهرتْ المقصورة النُّحاسية الآن باسم الحُجرة ، ولا يَدْخُلُها الا خَدَم الحجرة والملوك والأُمراء . ولها أربعة أبواب : باب على الرَّوْضة ، وبجانبه طاقة يستلمها الزائرون ، وباب قبْلى أمام الوَجْهِ الشريف ، وبابان شماليّان يُتوصَّلُ

منهما الى مقصورة السيدة فاطمة من جانبيها

وقد عُلِّق فى هذا الفناء عشراتُ القناديل والثُّريات والتَّنانير المتخذة من الذَّهب والفضة ، المرصَّعة بالماس والياقوت والجواهر الكريمة ، عدا أحجار الماس الكبيرة المثبتة فى أُطر وكفوف من الذهب المرصع بالجوهر وغير ذلك من الحلى والعقود والقلائد والكتُب والمصاحف المُحلاّة بالذهب والدُّر ، وكثير من الذخائر مما تُقدَّر قيمته بسبعة آلاف ألفِ دينار

وصايا الآباء للابناء

وصية عمرو بن كلثوم لبنيه :

لمّا حضرت عَمْرَو بن كُلْثُوم (١) الوفاةُ ، وقد أتتْ عليه خمسون ومائةُ سنة ، جمَع بنيه فقال :

يا بَنِيّ قد بَلَغْت من العُمُر ما لم يَبْلُغه أحَد من آبائى ، ولا بُدّ أن يَنزل بى ما نزَل بهم من الموْت . وإنّى والله ما عيَّرتُ أحداً بشىء إلاّ عيِّرتُ بمثله ؛ إن كان حَقًّا فحَقّا ، وإن كان باطلا فباطلا . ومَن سَبّ سُبّ ؛ فكُفُّوا عن الشَّتم ، فإنه أسْلمُ لكم . وأحْسِنوا جوارَكم يَحْسُنْ ثَناؤكم . وامنعُوا من ضَيْم (٢) الغَريب ؛ فرُبّ رَجُل خيرٌ من ألف ،

(١) هو من سادات بنى تغلب فى الجاهلية الأولى وأحد خطبائهم وشعرائهم وفرسانهم ومعمريهم واحد أصحاب المعلقات السبع (٢) ظلم

وَرَدٌّ خيرٌ من خُلْف (١) . وإذا حُدِّثتُم فعوا ، واذا حَدَّثتم فأوْجزوا ؛ فإنّه مع الإكثار يكون الإهذار (٢) وأشجع القوْم العَطوف بَعْدَ الكَرّ (٣) ، كما أنّ أكْرَم المنايا القَتْل (٤) ، ولا خيْرَ فيمن لا رَوِيّة له عِندَ الغَضب ، ولا مَن إذا عُوتِبَ لم يُعْتِب (٥) ومن الناس من لا يُرْجى خيْره ولا يُخاف شرُّه ؛ فبُكاؤه (٦) خيرٌ من دَرِّه ، وعُقوقه (٧) خير من برِّه . ولا تَتَزَوّجوا فى حَيِّكم فانّه يُؤدى الى قبيح البغض

وصية ذى الاصبع العدوانى

لمّا احْتُضِر (٨) ذو الإصْبَع العَدْوانىّ دعا ابنه أَسيداً فقال له : يا بُنَىَّ إنَّ أباك فَنِىَ وهو حَىّ ، وعاش حتى سئِم العَيْش . وإنّى مُوصيك بما إنْ حَفِظْتَه بلَغْتَ فى قَوْمك ما بلَغْتُه . فاحفظ عَنّى :

أَلِنْ جانِبَك لقَوْمك يُحِبُّوك ، وتَواضَعْ لهم يَرْفَعوك ، وابْسُط لهم وَجْهك يُطيعوك ، ولا تستأثِر عليهم بشىء يُسَوِّدُوك ، وأكْرِم صِغارهم كما تُكْرِمُ كِبارهم يُكْرِمْك كِبارهم ، ويَكْبَر على مَوَدّتك صِغارهم .

---

(١) اى انكم ان رددتم عنكم طالب المعروف ردا جميلا خير من أن تعدوه بقضاء حاجته ثم تخلفوه (٢) مصدر أهذر الرجل اذا هذى فى كلامه (٣) مصدر كر الفارس يكر من باب نصر اذا فر للجولان ثم عاد للقتال . اى اشجع الفرسان من يفر عن قرنه خديعة ثم اذا تبعه عطف عليه وطعنه . يوصيهم باستعمال الخدعة فى الحرب (٤) اى فى سبيل الدفاع عما تجب حمايته (٥) أى لم يعط العتبى وهى الرضا من نفسه والاحسان الى غيره (٦) مصدر بكأت الناقة اذا قل لبنها ضد درّت (٧) العقوق العصيان وقلة الاحسان : عكس البر (٨) أى حضره الموت

وأسمح بمالك . واحم حريمك وأعزز جارك . وأعن من استعان بك . وأكرم ضيفك . وأسرع النهضة فى الصريخ (١) ؛ فإن لك أجلاً لا يعدوك . وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ؛ فبذلك يتم سؤددك.

ثم أنشأ يقول :

أأسيد إن مالاً ملكـــت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام إن استطعـــت إلى إخائهم سبيلا
إن الكرام إذا تؤا خيهم وجدت لهم قبولا (٢)
ودع الذى يعد العشيـــرة أن يُنيل ولن يُنيلا
أبى إن المال لا يبكى إذا فقد البخيلا (٣)
أأسيد إن أزمعت من بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظ وإن شحط المزا رُ أخا أخيك أو الزميلا (٤)
واركب بنفسك إن همـــت بها الحزونة والسهولا (٥)

---

(١) صوت المستغيث أى أسرع الاجابة عند ما يستصرخك مستغيث فى شدة أو غارة (٢) أى قبولا للمؤاخاة والمحاسنة (٣) يعنى أن اعزاز المرء للصديق وصونه له عن التبذل يدفعانه الى البكاء والحزن عليه اذا هلك بخلاف المال فان البخيل اذا صانه وأعزه لا يقابله عند هلاكه بالحزن والبكاء لانه جماد (٤) شحط المزار من باب فتح : بعد . والزميل عديل الراكب على الجمل . ويراد به الرفيق . يقول : اذا قضت الأيام بابعادك عن رفقائك وأصدقائك وأصدقاء أصدقائك فلا تجعل البعاد سببا فى نسيانهم واغفال مودتهم

(٥) الحزونة مصدر حزنت الأرض كسهلت : اذا خشنت . يقول : اركب بنفسك الحزن والسهل اذا كلفتها طلب أمر عظيم ، ولا تعول بها على غيرك

وصِلِ الكِرام، وكن لمَنْ ترجو مَوَدّته وَصُولا
ودَعِ التوانى فى الأُمو ر، وكنْ لها سَلساً ذَلُولا
وٱبْسُط يمينَك بالندى وٱمْدُدْ لها باعاً طويلا
واعزِمْ إذا حاولت أمـ ـراً يُفرج الهمّ الدخيلا
وٱبذُلْ لضيفك ذاتَ رحـ ـلِك مكرماً حتى يَزُولا (١)
واحْلُلْ على الأيفاع لِلْـ ـعافِينَ؛ واجتنب المَسيلا (٢)
وإذا القُرُوم تخاطرت يَوْما، وأرعدتِ الخصيلا (٣)
فٱهصُرْ كهَصْر الليث خضـ ـبَ من فريسته التليلا (٤)
وٱنزِل الى الهَيجا إذا ابْطالُها كرِهُوا النُّزولا
وإذا دُعِيتَ إلى المُهِمّ ، فكُنْ لِفادِحِه حَمولا (٥)

---

(١) الرحل هنا : المسكن . وذات الرحل : ما يحتويه من أثاث وفرش ومأكل ومشرب (٢) جمع يفع بفتح الياء والفاء : التل . والعافون جمع عاف ، وهو الضيف والوارد وطالب الفضل. أى لا تخف نفسك عن طلاب معروفك بنزولك المسايل وبطون الأودية ، بل ٱعل على اليفاع حتى يراك طالبوك (٣) خطرت القروم ضربت بأذنابها يمينا وشمالا نشاطا وخفة. والخصيل : الذنب أو كل عصبة فيها لحم غليظ . والمراد بالقروم هنا الشجعان (٤) الهصر : الجذب والاماله والكسر والدفع وعطف الشىء وثنيه . والتليل : العنق . يقول : اذا هبت فحول الفرسان للقتال فافعل فعل الاسد اذا خضب عنق فريسته بالدماء (٥) الفادح من كل شىء : الصعب الثقيل ، والحادث من حوادث الدهر

وصية معاوية لقومه

روى (العتبى) عن أبيه عن جده [١] قال : لما اشتكى معاويةُ شكاتَهُ التى مات فيها أرسل الى ناس من جلة بنى أُميَّة فقال : يا مَعْشر بنى أُميَّة انى لمّا خفتُ أن يَسبقكم الموتُ إلىَّ سبقتُه بالموعظة اليكم ، لا لارُدّ قدَرا ، ولكن لأبْلُغَ عُذْرا : إنَّ الذى أُخَلِّفُ لكم من دُنْياىَ أمر ستشارَ كون فيه وتُغلَبون عليه ؛ والذى أخلِّفُ لكم من ورائى [٢] أمر مقصورٌ لكم نفعُه إن فعلتموه ، مَخوف عليكم ضرره ان ضيّعتموه . إنّ قُريشاً شاركتْكم فى أنسابكم ، وانفردتُمْ دونَها بأفعالكم ، فقد مَكم [٣] ماتقدَّمتُمْ له ، إذ أخَّرَ غيرَكم ما تأخروا عنه . ولَقَدْ جُهِلَ بى [٤] فَحملت وتُقِّرَ لى [٥] ففهمْتُ ؛ حتى كأنّى أنظرُ الى أبنائكم بَعْدَكم كنظرى الى آبائهم قبلَهم . إنَّ دولتَكم ستطول ، وكلٌّ طويل مَملول وكل مملول مخذولٌ . فاذا كان ذلك كذلك كان سببُه اختلافَكم فيما بينَكم ، واجتماعَ المختلفين عليكم ، فَيُدْبِرُ الأمرُ بضدّ ما أقْبَل به ؛ فلستُ أذكر حسناً يُرْكَب منكم ، ولا قبيحا يُنْتَهك فيكم إلا والذى أُمْسِك عن ذِكره أكثرُ وأعظم . [٦] ولا مُعَوَّلَ عليه عند ذلك أفضلُ من الصَّبْر ، واحتساب الأجر . فيُمادُّكم القومُ دُولتَهم امتدادَ العِنانَيْنِ [٧] فى عُنُق الجواد ؛ حتى إذا بلَغ اللهُ بالأمر

(١) هو عمرو بن عتبة بن ابى سفيان (٢) أى الخلافة والملك (٣) أى المطالبة بالخلافة والقتال من أجلها (٤) أى اعتدى على الناس بالجهل فحملت ، أى تحملت جهلهم (٥) التنقير شبه الصفير (٦) أى ان صارحتكم بذكر شىء مما سيصيبكم من المعاملة الخشنة التى ستعاملون بها فما أخفيه عنكم أدهى ، فلا داعى لذكر شىء مما اتوقعه فيكم (٧) العنانان : طرفا اللجام

مَداه ، وجاء الوقتُ المَبْلولُ بريق النبى [1] (ﷺ) مع الخِلقة المطبوعة على مَلالة الشيء المحبوب كانت الدولة كالإناء المُكْفأ [2]. فعندها أُوصيكم بتقوى الله الذى لم يتَّقِهِ غيرُكم فيكم فجَعل العاقبةَ لكم ، والعاقبة للمتقين .

(وقال عمرو بن عتبة) : فدخلت عليه يوما آخر فقال : يا عمرو أوعيتَ كلامى ؟ قلت : وعيت . قال : أعد علىّ كلامى ، فلقد كلمتكم وما أُرانى أُمسى من يومكم ذلك

النهى عن الفرقة

روى القالى فى أماليه عن سفيان بن عمرو بن عُتبة بن أبى سفيان أنه قال : وَقَع ميراث بَيْن بنى هاشم وبين بنى أُميّة تَشاحُّوا [3] فيه وتَضايقوا . فلما تفرقوا أقبل علينا أبونا عَمْرو ، فقال : يا بَنِىَّ إنَّ لقُرَيْش دَرَجاً [4] تَزِلُّ عنها أقدامُ الرجال ، وأفعالاً تَخْشَعُ لها رقابُ الاموال ، وغايات تَقْصُر عَنْها الجيادُ المُسَوَّمَةُ [5] . وألْسُناً تَكِلُّ عنها الشِّفارُ المَشْحُوذَة . ثم إنَّهُ لَيُخَيَّلُ إلَىَّ أنَّ منهم ناساً تَخَلَّقُوا بأخْلاقِ العَوامِّ ؛ فصار لهم رِفْقٌ [6] فى اللُّؤْم ، وتَخَرُّقٌ [7] فى الحِرْص ، إنْ خافوا مَكْرُوهاً تَعَجلوا لَهُ الفَقْرَ ، وإنْ عُجِّلَتْ لَهُمْ نِعْمة أخَّرُوا عليها الشُّكْر . أُولَئِك أنْضاءُ [8] الفِكْر وعَجَزَةُ حَمَلةِ الشُّكْرِ [9]

---

(١) الموعود به من رسول الله (٢) أى انقلبت الدولة وانكبت (٣) المشاحة الضنة ، وتشاح القوم فى الأمر شح بعضهم على بعض حذر فوته (٤) درجا أى درجات (٥) المسومة : المعلمة (٦) الرفق بالأمور البصر بها (٧) توسع (٨) النضو : الضعيف ، والجمع أنضاء (٩) أى العاجزون عن حمل الشكر

الزجاج

هو جسم صُلْب قَصِم شفّاف طَنّان عديم اللّوْن قابل للصّقْل والتنقية والتّمْليس والتنظيف الى الغاية القصوى . وهو يَكْسِر النور كَسْرا بَيِّناً ويَعْكِسُه عَكْسا تامًّا إذا غَشِيَ إحدى صفْحَتَيْه غشاءٌ مَعْدِنيّ رقيق أو طِلاء كثيف لامع . ويصعُب حَزُّه بسائِر الأجسام ولو اشتدت صلابتها الا الماس ؛ فإنه يقطعُه بِحَزّ سَطْحه ؛ حتى اذا انكسر على أثَره كانت حُروفه مستوية على مجرى الحزّ ، وما ذاك الا لصلابته صلابة أشدّ من صَلابة المعادن

وقد عرَفه الأقدمون من زَمَن عريق فى القِدم ، والظاهر أنّهم حاكَوْا به الزُّجاج الفِطْرِيّ والبِلُّورَ الصَّخْرِيّ ، فرَأَوْا أنّ قِطعة منه ذابتْ فى نار شديدة ، وأذابتْ معها شيئا من الرمال الملتصقة بها ، فجرّبوا ذلك فى الرِّمال مختلطةً بشيءٍ من البِلُّور الصَّخْرِيّ أو مُرَكَّبات النَّطْرون أو الرَّماد أو نحوها من الموادّ القَلَوِيّة ، فزاد ذلك فى سَيَلانه وصفائه ، فصنعوا منه الزجاج

ويُظَنُّ انّ المِصْريِّين أوّل من اهتدَى الى تركيب الزُّجاج الصِّناعيّ ؛ فقد عُثِر فى مَقْبُرة بنى حَسَن على صُور من أيام الملك أوزرْتَسِنَ الأوّل ، أى منذ ٥٠٠٠ سنة تُمَثِّل أُناسا من أهل طِيُوة يَنفُخون الزُّجاج ، وأنابيب النفْخ المرسومة فى ذلك الأثر أشبه بالأنابيب المستعملة فى الأزمان الحديثة . ووجُد فى طِيوة أيضا خَرَزُ عِقْدٍ زُجاج من نوع

زجاج النوافذ الفاخر المعروف فى أيامنا ، وعليه اسم الملكة زَوْج تُحتمس الثالث سنة ١٥٠٠ ق . م

نواحيد زجاجية فرعونية

وفى دار العاديّات ببلاد الانجليز قارورة صغيرة من الزجاج الأزرق نُقش عليها اسم هذا الملك وألقابه باللوّن الأصفر. فإن لم يكن المصريون هم اوّل من اهتدى الى صُنْع الزُّجاج فلا أقل من أنهم برَعوا فى صناعته وتلوينه وتنقيته براعة تَقدّموا فيها كُلَّ الامم؛ لِما أبقَوْا من الحِلَى الزجاجية التى حاكَوْا بها الأحجار الكريمة بأبهى ألوانها ، وما استعملوه من آنية الشراب وتماثيل الآلهة ودُمَى الموتى والنقوش الفُسَيْفسائية والمينا الذى تَلَبَّس به المعادن وخاصة الذهب ؛ مما زُيِّنَ به أكثر دُور العاديّات فى الدنيا

والمَقُول : إن الفينيقيين لَقِنُوا صِناعة الزجاج عن المصريين ، وارتقت هذه الصناعة فى صَيْداء وصُور فى أقدم أزمانهما

أما الأشوريون المتأخر عَصْر تَمدُّنِهم عن عُصور المصريين فقد وجِد فى أطلال نِينَوَى حاضرتهم عَدَسِيَّات من الزُّجاج وكئوس

وقوارير ، غير أنه لا يُعرَف عنهم استعمالهم الزجاج للنوافذ

وأقدم ماوُجِد فى آثارهم من الزجاج الشفّاف إناء من الزجاج الأخضر هو الآن فى دار العاديات الإنجليزية منقوشٌ عليه صورة أسد واسم الملك سَرْجون الأشُورِىّ وألقابه سنة ٧٠٩ ق . م .

وعُثِر فى آثار جزيرة قُبْرس على أوَانٍ تدُلّ على أن اليونان مَهروا فى صِناعة الزجاج الملوّن وغير المُلوّن

ودَخلت صناعة الزجاج فى رُومِيَة أيام شِشْرون ، ونَمَتْ فى مُلك نِيرون ، فكان الأغنياء والمُترَفون يتخذون منه صحاف طَعامهم وأقداح شرابهم . وبَقايا مُخَلّفاتهم تدُلّ على أنهم استخدموه فى إدخال النُّور من النوافذ الى الغرَف فى بُمْبَيْه ، وأنهم افتَنُّوا فى صُنعه وتَنَوّقُوا فى نَقْشه : نقْشاً بارزاً وغائراً

ولما ارتقت مدنية العرب شاع استعمال الزجاج بينهم شيوعا دَلّ على مَهارتهم وحِذْقهم فى تركيبه وتلوينه ، فاصطنعوا منه كلّ الآنية وزُجَاج النوافذ الشفّاف الساذَج والملوّن فى المساجد والقصور ومَضاوِىّ الحمّامات ؛ إلا أن ألواحه كانت صغيرة لاتزيد على شبْرَين ، وأدخلوه فى تَرْكيب الفُسَيْفِساء ، واتّخذوا منه المِينا الذى كَسَوْا به الجُدْران والحِلَى ، واتّخذوا منه زجاج المَرَايا

وفى القرون المتوسطة كان أفضلُ الزجاج يُصنَع فى البُنْدُقية . ويظن أن أول ما صنع من زجاج المرايا فى أوربة صنع فيها واشتهر فى سائر أقطار العالم ، واستعاضوا به عن المرايا المعدنية . ويظن أنهم أخذوا صناعته عن

العرب لمحاكاتهم أشكال الاوانى العربية فى مصنوعاتهم وبخاصة القناديل وحواملها

ثم شاع استعمال الزجاج فى العصور الأخيرة بأوربة. وكان المعقبين فيها للبنادقة الفرنسيّون

وفى سنة ١٦٨٨ م أُدخلتْ الى باريس طريقةُ سَكْب ألواح الزجاج الكبيرة بدلَ صُنْعها بطريقة النفخ كما سيأتى، ونجحت صناعة الزجاج فى سائر حواضر أوربة فى القرن الثامن عشر نجاحا عظيما. ولبلاد بوهيميا فى تحسين صناعة الزجاج والبلور أثر يذكر

تركيب الزجاج — ومادة الزجاج: الرَّمْل النَّقِىّ والقَلى أو ملح النَّطرون مُضافا اليهما شىء من الكِلس أو أحد الأصداء المعدنية. ومن أخصها المَرْتَك (صدأ الرَّصاص) أو الكِلس. وقد يُضاف الى هذه المواد شىء من البَوْرَق. ويُخلَط غالبا بهذه المواد كثير من سحيق الزجاج لتَسْهيل إذابتها: وما دَخله القَلى كان أقلَّ صلابة مما دَخله النطرون، ولون الأوّل الخضْرة الضاربة الى الصُّفرة، ولَوْن الثانى الزُّرقة

وأهمّية الرَّصاص فيه أو الخارصين كَسْبه رَوْنقا ولمَعَانا وثِقَلا وقوّة على عَكْس النُّور

وأصناف الزجاج أكثر من عشرة باعتبار صِفاتها واستعمالها وصَلابتها وتحمُّلها للحرارة، إلا أنّها ترجع الى نَوْعين: الزجاج العادىّ، والبَلُّور. ويَتميّز البلُّور من غَيره بنقاء مادّة الرمل فيه، وكثيراً ما تكون من الصَّوان النقى؛ والرَّصاص وحامض البَورق

ويتخذ من البلور الأدوات الزجاجية الفاخرة، وأرفعها قيمة زجاج العدسات التى تستعمل فى المجاهر والمراقب وآلات التصوير الشمسى؛ ويليها البلور المحاكى به الفصوص الكريمة، ثم بلّور آنية الشراب الفاخرة والمرايا الثمينة

ويوجد من الزجاج نوع يسيل فى الماء. وقد يوجد على حالة سائلة تجف فى الهواء. ويستعمل لإلصاق المتكسر من الزجاج أو الخزف الصينى الثمين. ويصنع منه نوع رخو لدن ويمد منه خيوط دقيقة تنسج أشرطةً وثيابا وقلانس وأهدابا

وطريقة صنع الزجاج أن تسحق المواد سحقا جيدا وتمزج، وتوضع فى بواتق أو جفان من الخزف لاتتصدع بالحرارة، وترص على رفوف متآزية على جدار تنور؛ وفى وسط التنور منفذ للهب الموقد ودخانه، ولهذه الرفوف طاقات عليها أبواب محكمة تدخل منها الجفان وتخرج وثقوب: كل ثقب منها على سمت بوتقة يمر منه محراك لتحريك المزيج. وتكون الجفان صغيرة أو كبيرة، فربما وسع بعضها أكثر من ثلاثين قنطاراً من الزجاج الذائب. وتغطى الجفان والبواتق اذا أريد صنع زجاج نقى لايختلط بأكدار الدخان والفحم. وربما اتخذوا بدل الجفان احواضا ثابتة لها مثاعب

فاذا سال الزجاج للقوام المطلوب استعمل لتقطيعه وتشكيله طريقتان:

الطريقة الأولى - وهى أقدمهما - النفخ، وأدواتها قصبة من الحديد

طولها أربع أقدام أو خمس ، سعة ثقبها ما بين ربع قيراط وقيراط ، ويتسع هذا الثقب من طرف ، ويضيق من الآخر ، فيغلف نحو ثلث القصبة من الطرف المتسع الثقب بالخشب ليتيسر للصانع القبض عليها بيده والنفخ فيها بفمه ، ثم يحمى الطرف الآخر الضيق الثقب الى درجة الاحمرار ، ويدخل فى البوتقة ، ويلتصق به الزجاج الذائب ، فيخرج منه العامل على طرف القصبة القطعة اللازمة ، ثم يرفعها قبالة وجهه ، ويحورها فى الهواء بطرق مخصوصة حتى يستدير شكلها ، ثم ينفخ فيها من الجانب الملبس بالخشب : فينتفخ الزجاج ، ويكون على شكل كمثرى ، ثم لا يزال ينفخ حتى تصل الى الحجم الذى يريده ؛ فإذا أراد لوحا من الزجاج شق هذه المثانة الزجاجية من أحد جوانبها ، وبسطها على لوح من الخشب المندى . واذا أراد صنع كوب غلف هذه الكرة بقالب على حسب الشكل المطلوب ، ينفخ فيها حتى تلتصق بجدران القالب ، وتتشكل بشكله . واذا أراد صنع أنبوبة من الزجاج أخذ على رأس القصبة قطعة من الزجاج حتى يجعلها كالكرة فيأتى آخر ويثقبها بمثقب بقدر السعة المطلوب تجويف الأنبوبة عليها ، ويلصق هذا الصانع الآخر قصبة بالطرف المثقوب ، ويسحبها الى جانبه ، فتمتد الأنبوبة الى الطول المستطاع من غير أن تتغير سعة هذا الثقب .

وطريقة النفخ هذه لا يتمكن بها الصانع من صنع إناء مرة واحدة : فالكوب ذو المقعد المستدير يصنع من قطعتين أو ثلاث يلتحم بعضها ببعض ، وكذلك الكوب ذو العروة . ثم لا يكفى النفخ لتهيئة

الإناء بل لا بُدَّ من قَصّ أطرافه وهو لَيِّن بمقص ، ثم صقله ثم حَكِّه على مِسَنّ خاص يسوِّى حافتَه ويُحَدِّد زواياه و يُصلِح استدارته . ولا تزال طريقة النفخ مستعملة بعدُ فى المعامل الصغيرة ولصنع الأوانى العادية

والطريقة الثانية طريقة القوالب والضّغط ، وذلك أن يصَبّ الزجاج الذائب فى فَراغ بين قالَبين ثم يَضغَط داخلُهما خارجَهما بنسبة خاصة ، فيتشكل الزجاج بالشكل المطلوب ، ثم يُصقَل ويحكّ لتسويته . وهذه الطريقة أكثر استعمالا فى المعامل العظيمة

ويستعمَل الآن لصَبّ الألواح العظيمة للمرايا ولمعارض أماكن التجارة العظيمة سَطح كبير أفقى محفوف بإطار من المعْدِن بنسبة غلظ اللوح ، فيصب فيه السائل داخل الفرن حتى ينضَج وتَخرج منه دقائق البُخار والهواء الذى فيه ، ثم يُخرَج ويُبرَّد ويصقَل

و ينقش الزجاج غالباً بطريق الحكّ بعد يُبسه ، فيُرسم عليه بعض خطوط أو أشجار أو أزهار ، أو يصبه وهو سائل فى قوالب منقوشة أو مكتوبة . أما اذا اريد صُنع أشكال أو كتابات دقيقة فيُطلَى سَطح الاناء بمادّة شمعية لا يعمَل فيها حامض المُغْذِى المائىّ (الفلورايدريك)[1]

ويُنقَش على هذه المادة حتى يظهر من النقش سطح الزجاج ، ثم تطلى الآنية بهذا الحامض فيذوب من الزجاج السطح الملامِس

(١) لأن معنى كلمة (فلور) مذيب مسيل ، وكذلك معنى كلمة (المغذى) التى وضعناها له

مصنع زجاج مصرى رسمه جماعة العلماء الذين رافقوا جيش نابليون الى مصر كما شاهدوه

الى غور خاص ، فاذا ازيلَ الشمَع ظهر النقش غائراً فى الزجاج واضحا ؛ فإما أن يوضع فى هذه النقَب ألوان تتلون بها ، وإما لا

ويُلوّن الزجاج بوَضْع بعض أصداء فى مخلوطه تُلَوّنه بالنسبة المطلوبة ، وهذا التلوين يتمثل فى بِنْية الزجاج ، وقلّما يتأثر بضوء الشمس. وقد يلوّن السطح الخارجى من الزجاج الملون اقتصاداً فى النفقة

ويثقب الزجاج بثقب من الفُولاذ مُنَدًّى بِسنه بالماء أو بزيت النِّفط أو ببعض موادَّ أخرى

ولما دخل الفرنسيس مصر سنة ١٢١٣ وجدوا بها صناعات لا يُستغنَى عنها ، منها صناعة الزجاج. وقد صوَّروا له مَصْنعا هذه صورته كما ترى مُصَغَّرَة

وقد انشِىء فى مصر فى عصرنا الحاضر عِدَّة مصانع للزجاج فى أوقات متفاوتة منذ عصْرِ المرحوم محمد على باشا الى الآن ؛ ولكنها لم تفلح لقلة رءوس أموال أصحابها ولمزاحمة المتاجر الأوربية لها

وقد أحوجتنا الحرب العامة إلى إنشاء بعض مصانِع زجاجية حقيرة صُنِع فيها كثير من أنواع الزجاج ، ثم اخذت فى الاستجادة بدرجة مقبولة ، الا أننا اذا رجعنا الى تاريخنا أيام كنا أسبقَ الامم إلى صُنْع الزجاج وأمهرهم فى تلوينه وتنقيته ، وإلى أنَّ بلادنا ثلاثة أرباعها رمال وحصى صوّان نقى ، والى أن بحيرات النطرون مفعَمة بأملاح النطرون والقلى ، والى أن رماد الأفران وأتربة الأطلال مصادر عظيمة للقلى : تبيّن لنا إمكان ادخال هذه الصناعة فى مصانعنا المستقبلة واتخاذها مهنة عظيمة يظهر فيها الحِذق المصرى حالا واستقبالا كما ظهر قديما وغابراً

رسائل فى أغراض مختلفة

كتب عبد الله بن مُعاوية بنِ عبدِ الله بنِ جعفر بن ابى طالب [١] الى بعضِ اخوانه يُعاتِبهُ :

بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم

أما بَعدُ فقد عاقَنِي الشّكّ فى أمْرك عن عزيمة الرأى فيك . وذلك أنك ابْتَدأْتنى بلُطف عن غيْرِ خبرة ، ثم أعْقَبْتَنى جَفاءً عن غير جَريرة [٢] ، فأطمَعَنى أوَّلُك فى إخائك ، وأيْئَسَنِي آخرك عن وفائك ، فلا أنا فى اليوم مُجْمِعٌ لك اطِّراحاً [٣] ، ولا أنا فى غدٍ وانتظارِه منكَ على ثِقةٍ . فسبحان من لوْ شاءَ كشَفَ بإيضاحِ الرَّأى فى أمْرِك عن عَزيمة الشكّ فيك ، فاجْتَمَعْنا على ائتلاف ، أو افْتَرَقْنا على اختلاف والسَّلام ؟

وكتب الوزير أبو على بن مقلة [٤] وهو فى السجن الى الوزير أبى الحسن على بن الفُرات وزير المقتدر الخليفة العباسى يستعطفه :

بسم الله الرحمن الرحيم

أقصرتُ أطال الله بقاءَ الوزير فعْلى وصُنعى على الاستعطاف

---

(١) خرج على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فسير عليه مروان الجيوش ففر الى خراسان يستنصر أبا مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية فسجنه ثم قتله (٢) ذنب (٣) أى لست اليوم مزمعا على هجرك ولست فى الغد المنتظر على ثقة منك (٤) هو امام الخطاطين ـ نقل الخط العربى من الكوفى الى الشكل المعروف فى زماننا . وكان وزيراً للمقتدر ثم للراضى ووشى به فقطعت يده ، ثم سجن وقطع لسانه . ومات فى السجن سنة ٣٢٨ هـ

والشكوى ، حتى تناهت بي المِحنة والبأوَى فى النفس و المـال ، والجسم والحال ، الى ما فيه شـفاء للمنتقم ، وتقويم للمجترِم ، وحتى أفضيْتُ الى الحيْرَةِ والتَّبَلُّد [١] وعيالي الى الهُتْكةِ والتلَدد [٢] . وما أقول ان حالا أتاها الوزير أيده الله فى أمرى الا بحقّ واجب ، وظنّ صِدق غير كاذب ، الا أن القُدرةَ تُذهِب الحفيظة [٣] والاعترافَ يُزيل الاقتراف [٤] ، والمعروف يُؤثره أهلُ الفضل والدِّين ، والاحسان الى المُسِيء مِن أفعال المتقين . وعلى كل حال فلى ذِمامٌ وحُرْمة ، وتأميل وخدمة ، فان كانت الاساءة تضيّعها فرعاية الوزير أيده الله تحفظُها . فإن راى الوزير (اطال الله بقاءه) ان يلحظ عبده بعين رأفته ، ويُنعم عليه بإحياء مهجته ، ويخلّصها من العذاب الشـديد ، والجَهد الجهيد ، ويجعل له من معروفه نصيباً ، ومن البلوى فرجاً قريباً . فعَلَ إن شاء الله * فعفا عنه

وكتب ابو الفضل بن العميد [٥] الى بعض اخوانه يتودد :

قد قَرُب (ايدك الله) مَحلك على تراخيه [٦] ، وتَصاقب [٧] مستقرّك على تَنائيه [٨] لان الشوق يُمثّلك ، والذكر يُخيّلك ؛ فنحن فى الظاهرِ على افتراقٍ ، وفى الباطن على تلاقٍ ، وفى التّسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، فقد تعانقت الأرواح

---

(١) ضد التجلد (٢) التلدد . ان يلتفت المضطر يميناً وشمالا تحيراً
(٣) الغضب (٤) فعل الذنب (٥) هو الاستاذ الرئيس الوزير أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد أحد فحول كتاب المشرق . كان وزيراً لركن الدولة ابن بويه توفى سنة ٣٦٠ هـ (٦) تباعده (٧) تقارب (٨) تباعده

وكتب ابن العميد الى عضد الدولة يهنئه بمولودين (١):

أطال الله بقاء الأمير الأجل عَضُدِ الدّولة أدام الله عزّه وتأييده، وعُلوّه وتمهيده، وبَسْطَته وتوطيده (٢)، وظاهَرَ له (٣) من كلّ خير مَزيدَه، وهنّأه ما أحظاه به (٤) على قُرْب الولاد (٥)، من توفير الأعداد، وتكثير الأمداد، وتثمير الأولاد، وأراه من النّجابة فى البنين والأحفاد ما أراه من الكرم، فى الآباء والأجداد. ولا أخلى عينه من قُرّة، ونفسه من مَسَرّة، ومُتَجدّدِ نِعْمةٍ، ومُسْتَأنَف مَكْرُمةٍ، وزيادةٍ فى عَدَدِه وفُسَحٍ فى أمَدِه؛ حتى يبلغ غاية مَهله (٦)، ويَستغرق نِهاية أمَله، ويَستوفىَ مَا بَعْدَ حُسنِ ظنّه. وعرّفه الله السعادة فيما بُشّر به عَبْدُه من طلوع بدرين هما انبعثا من نُوره، واستنارا من دُوره، وحفّا بسَرِيره. وجعلَ وَفْدَهُمَا مُتَلاَئِمين وَوُرُودَهما تَوْءَمين، بَشِيرَيْن بتظاهر النعم، وتوافر القِسَم، ومُؤْذِنَين بترادُفِ بنين بجمعهم مُتخرّق (٧) الفَضاء، ويُشرِقُ بنُورهم أفُق العلاَء، وينتهى بهم أمَدُ النماء، الى غَايَة تَفُوت غايةَ الإحصاء. ولا زالت السُّبُل عامرة، والمناهلُ غامِرة، تصافِح صَادِرَهم بالبِشر، وآمِلَهم بنَيْل القصد

---

(١) هو فنا خسرو بن حسن ركن الدولة أعظم ملوك بنى بويه المتغلبين على بنى العباس توفى سنة ٣٧٢ هـ، وهنأه بهذه التهنئة وهو شاب لم يستفحل أمره

(٢) أى أدامه متصرفا فى حل الأمور وعقدها (٣) ضاعف وقوى وزاد (٤) أى ما فضله به (٥) الولاد: المولد أى على صغر السن

(٦) المهل: أسلاف الرجل المتقدمون (٧) متسع

كتب أبو الفضل بن العميد الى أبي عبد الله الطبري ينصح له ويأخذه بأدب الملوك

وقفتُ على ماوصفتَ من برّ مولانا الأمير بك، وتوفيره الفضلَ عليك، واظهار جميل رأيه فيك، وما أنزله من عارفة لديك. وليس العجب أن يتناهى مثله فى الكرم الى أبعد غاية، وانما العجبُ ان يقصُر شيء من مساعيه عن نيل المجد كلّه، وحيازةِ الفضل بأجمعه. وقد رجوتُ أن يكون مايغرسه من صنيعة عندك أجدرَ غرسٍ بالزكاء (١)، وأضمنَه للريع والنماء. فارْعَ ذلك، واركبْ فى الخدمة طريقةً تُبعدك من الملال، وتوسّطْ فى الحضور بين الإكثار والإقلال. ولا تسترسلْ الى حُسْن القبول كلّ الاسترسال؛ فلأن تُدْعَى من بعيد خيرٌ من أن تُقصَى من قريب. وليكن كلامُك جواباً تتحرّز فيه من الخطل (٢) ومن الإسهاب، ولا يُعجبنّك تأتّى كلمة محمودة فيلجّ (٣) بك الاطنابُ توقّعاً لمثلها؛ فربّما عدِمتَ ثانيةَ الأولى. وبالعقل يُزَمّ (٤) اللسان، ويُرامُ السَّداد. ولا يستفزّك طربُ الكلام على مايُفسد تمييزَك. والشفاعة لا تعرِض لها؛ فانها مُخْلِقةٌ (٥) للجاه، فإن اضطُررتَ اليها فلا تهجُمْ عليها حتى تعرف موْقعَها، وتحصّل وزنها، وتُطالع موضعَها، فإن وجدتَ النفس بالإجابة سَمْحةً والى الإسعاف هَشّةً فأظهِرْ مافى نفسك غيرَ محقّقٍ. ولا تُوهِمْ أنّ عليك فى الردّ ما يُوحشُك، ولا

(١) النماء (٢) الخطل: فساد الكلام والرأى (٣) يتمادى (٤) يحبس ويوقف (٥) مبلية

فى المنع ما يَغيظُك. وليكن انْطِلاقُ وَجهِك اذا دُفعْتَ عن حاجَتِك أكثرَ مِنْه عند نجاحها على يدك: لِيَخِف كلامُك، ولا يَثقُل على سامِعه منك. أقول ما أقول غيرَ واعظ ولا مُرْشِد، فقد كمّل اللهُ خِصالَك، وحسّنَ أخلاقَك، وفضّلك فى ذلك كلّه، لكنى أنبه تنبيه المُشارِك لك فإنى أعلم أنّ للذكْرَى موضِعاً منك لطيفاً

وللميكالى[١] الى الأمير السيد أبيه يهنئه بالقدوم الى مقرّه والإبلال من مرضه:

كتبت وأنا بمنزلة من ارتدّ اليه شبابُه بعد المَشيب، وارْتَدَى برداءِ من العُمر قَشيب[٢] والحمد لله رب العالمين

وَصل كتاب مَوْلاى مُبشِّراً من خَبر عَوده الى مقرّ عزه وشرَفه، محروسا فى حفظ الله وكَنَفه[٣] بما لم تزَل الآمال تتنسّم روائحه، وتترقّب غاديَ صُنع الله فيه ورَائِحه، واثقةً بأن عادةَ الله الكريمةَ عنده تُسايره وتُرافقه، وتلزَم جَنابه فلا تُفارقُه، حتى تُخرجه من غمرة الغماء[٤] خروجَ السيف من الغِمد والبدرِ بعد السَّرار[٥] الى الانجلاء، فعدَدْتُ يومَ وروده عيداً، أعاد عهدَ السرور جديداً، ورد طَرْفَ الحسود كليلا وقد كان حديدا. ولم أشبّهه فى إهداء الرَّوْح[٦] والشّفاء وتلافى

---

(١) هو أبو الفضل عبيد الله بن أحمد كان آله عمالا للدولة العباسية على فارس ثم انتقلوا الى خراسان وهم من ابناء الاكاسرة المستعر بين الفصحاء

(٢) جديد (٣) حرزه وستره (٤) الغماء ما يغمى البيت من السقف ونحوه أى أخرجه من الاستتار بالمنزل من مرضه (٥) السرار: اختفاء القمر فى آخر ليلة من الشهر القمرى (٦) أى كتاب أبيه

الرُّوح (١) بَعد أن أَشْفَى (٢) على المكروه كل الإشفاء ، الا بقميص يوسف حين تلَقّاه يعقوبُ عليه السلام من البشير ، وأَلقاه على وجهه فنظر بعين البصير ، فكم أَوْسَعته لَثْماً واستلاما ، والتقطتُ منه برداً وسلاما ، حتى لم تَبق غُلَّة فى الصدر الا بردتها ، ولا غُمَّة فى النفس الا طردتها ، ولا شريعةٌ من الأُنس الا وَرَدْتها

سيدنا عثمان بن عفان

(رضى الله عنه)

هو أمير المؤمنين ، وثالث الخُلفاء الراشدين أبو عَمْرو عُثمان ذو النورَيْن بن عَفّان بن أبى العاص بن أُمَيَّة بن عَبد شمس بن عَبْد مَناف

ولد بالطائف فى السنة السادسة من عام الفيل ، ونَشأَ بمكة ، واشتغل بالتجارة جاهليَّة وإسلاما فدرَّتْ عليه خَيْراتها ، وكان من أبْصر قريش بالتصرُّف فيها وتَثْمير المالِ فى وجوهها . وكان صديقا لأَبى بَكْرٍ (رضى الله عنه) فلما أسلمَ الصِّدّيق أقْنَعَه بِصحَّة الإسلام فَشَرح الله له صدره وأسلم ؛ فكان رابعَ أربعة دخلوا فى الإسلام ، وسنُّه يومئذ بِضْعٌ وثلاثون سنة ؛ وزوَّجه رسولُ الله من ابنته السيدة رُقَيَّة

ولمّا اشتدّ إيذاء قريش للمسلمين بمكة أمره النبىّ بالهجرة مع زَوْجه الى بلادِ الحَبَشة ، وكانوا يَتَّجِرون إليها قبلَ الاسلام ، فهاجر إليها

(١) الراحة والرحمة (٢) اشرف

ولما هاجر رسولُ الله إلى المدينة جاء اليها بزوجه ، وأدرك بها موقعة بدر ، فأذن له النبيّ بالتخلّف عنها لمرض زوجه ، وجعل له سهمًا فى الغنائم ، فعُدّ بين أهل بدر . ولما ماتت زوجه رُقيّة زوّجه من أختها أمّ كلثوم ، فماتت أيضًا فى زمن رسول الله (ﷺ)

وبقى حياة رسول الله يُزاول التجارة ، ويحضُر معه الغزوات ، وامدّه بالأموال الوفيرة فى تجهيزها . وجهّز جيش العُسرة (١) بتسعين وخمسمائة بعير بأحلاسها وأقتابها (٢) ، وأتمّ الألف بخمسين فرسا ، حتى عُدّ لحُسن بلائه فى مؤازرة المسلمين من العشرة الذين تُوفّى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، وبشّرهم بالجنة . ولما اغتيل عمر بن الخطّاب (رضى الله عنه) استدعى من بقى من هؤلاء العشرة بالمدينة ، وهم عثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقّاص ، وعهد إليهم باختيار خليفة منهم فى خلال ثلاثة أيام تنقضى بعد موته . وجعل الأمر شورى بينهم ، وضمّ اليهم ابنه عبدالله ليكون مُرجّحا فى الرأى إذا اختلفوا ، ولا يكون له حقّ فى الخلافة . ففعلوا ثم فوّضوا الامر لعبد الرحمن بن عوف ، ورضوا بحكمه ، فاختار رضى الله عنه عثمان . فبايعوه بالإجماع ، وبايعه المسلمون ، وفرحوا به لانه كان سهلا ليّن العريكة جوادًا بالمال . ولم تمض ستّ سنين من خلافته حتى كثُرت الفتوح ، ورُفع إلى المدينة ألوف الألوف من الأموال ، حتى صار إذا

---

(١) فى غزوة تبوك (٢) الاحلاس : جمع حلس (كبئر) : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ، والاقتاب : جمع قتب (كسبب) : الرحل

فسّم الفَيْءَ على أصحاب رسول الله يأمُرُ للرجل بمائة ألف درهم . ففشا الغنى بَيْنَ أهل المدينة ، وهبُّوا يعمُرون الدُّورَ والقصُور ، ويُنشِئون المَحارِفَ والبَساتين ، حتى ضاقت بهم المدينة وأرباضها . فاستأذَنَ كِبارُ الصحابة منهم فى الهِجْرة إلى الامصار - وكان يمنعهم منها عمر - فأذِن لهم عُثمان

ولمّا كان (رضى الله عنه) قد نَشأ فى التجارة وارتضع أخلاف الثَّروة وأِلف نعْمَة العيش لم يقوَ بَعْدَ أنْ أسَنَّ ونَيَّفَ على السبعين أن يَعيش عيشة الجَهْد والتقشف التى عاشها أبو بكر وعُمَر ، فعمِدَ إلى أن يتعفَّفَ عن بَيْتِ المال ، ويُثمِّرَ مالَه الذى كَسَبَ قبلَ الخلافة ونصيبه من الفَيء بعدها أُسوة المهاجرين الاولين فى وُجوه التجارة برًّا وبَحراً واستغلالِ الارض : مِمَّا لا يحظُره عليه دِين ولا سُنَّة . فعاد ذلك عَلَيْه بالرِّبح الكثير ، فبنَى داراً كبيرة بالمدينة ، ووَاسَى أُولى قُرباه مِن صُلْبِ ماله . فحسَده بعض العيَّابين وجُفاة الأعراب ومَنْ دَخلَ حديثاً فى الاسلام ، ونقَموا منه خُرُوجه عن سِيرة صاحِبَيْه فى الزُّهد والتقشُّف ، وبَسَطوا ألسنتَهم فيه وتَخوَّنُوه بالاستئثار بالفَيْء وإيثار أهل بَيْته من بنى أُميَّة ؛ فكان يحلُمُ عليهم ويُغْضى على أذاهم ؛ حتى استطار شرُّهُمْ ، واستفسدُوا عليه غيرَهم وأتته الكُتُب والوُفود من أهل الذمة فى الممالك المفتتحة ومِنْ رُؤَساء العَشائر والاجناد من مهاجرة العَرَب بالامصار يشكون إليه سِيرةَ عُمَّاله فيهم . فأعمل رأيه واجتهاده وأخذ بالحَيْطة لِنَفْسه فى أن يستعمِلَ على الامصار مَن له عليهم

سُلْطانٌ مِنْ أهلِ بيته وذوى قرابته : لسابقة أياديه عليهم ، وأنه شيخُ بَيْتِهم وكبيرُهم ، وأن فى استطاعته زَجْرَهم وتأديبَهم ، وأنهم أولى النّاس بإخلاص النّصيحة له. فاستعمل نفرا منهم لم يخطئ الفراسة فى أكثرهم. فولّى عبد الله بن أبى السَّرْح أخاه من الرّضاع مِصْر ، ففتح له النُّوبة وأكمل فتح بَرْقة وفتح إفريقية وأمعنت جُيوشه فى المغرب الأوسط (الجزائر). وفتح بقيةَ وُلاته من أهل بيته وقوادهم بَقيّةَ بلاد فارس وكَرْمان (١) وطَبَرِسْتان (٢) وخُراسان (٣) وسِجِسْتان (٤) وطُخارِستان (٥) وإرمينية ؛ وفتح مُعاوية قُبْرُسَ وسواحلَ آسيا الصغرى ، وغزا القسطنطينية ، ولكن ذلك صار نِقْمة جديدة عليه من جُفاة الاعراب وذوُبانهم

وزاد الأمْرَ حَرَجا حَيْدة بعض الوُلاة المعْزولين عن مشاركتهم له فى تَدْبير الأمْر ، وكان فيهم كثير من أهل الرأى والمشورة. فاستوحش منهم ، ولم يستعن بهم ، وطالتْ خلافتُه عنْ صاحبيْهِ ، وكبرت سنّه حتى جاوزَتْ الثمانين ، فملّه مَن يأمُل تغيُّرَ حالِه بتغيُّر الأمراء مِن شُذّاذ العَرب وأجناد الأقاليم ، وطمعُوا فى حِلْمِه ولِيْنه ، وجاءه الوفود من أهل مِصر والعِراق يستعدونه (٦) على الولاة من أقاربه ، ويطلبون أن يستبدل بهم غيرهم ممن يحبون ، وطلب أهل مِصر أن

---

(١) ولاية جنوبى بلاد الفرس على مدخل بحر فارس (٢) ولاية جبلية شمالى بلاد الفرس تشرف على بحر قزوين ، ومنها اذربيجان (٣) القسم الشمالى الشرقى من بلاد الفرس . وأطلق قديماً على ما وراء دجلة شرقا (٤) ولاية كانت تشمل جنوبى بلاد الافغان وشمالى البلوخستان (٥) ولاية كانت تشمل شمالى الافغان (٦) يستنصرونه ويتظلمون اليه

يستبدلوا بعبد الله بن سعد بن أبي السرح محمدَ بن أبي بكر الصدّيق. ففعل، وكتبَ له عهداً بولاية مصر وبعثه معهم، ومعه بعضُ الصحابة لينظروا في شكايتهم. وإنهم لراحلون في طريقهم إلى مصر اذْ أبصروا عبداً راكباً نجيباً يستحثه، فاسترابوا به واستوقفوه، وسألوه عن وجهه فقال: أمير مصر عبد الله بن سعد، ففتشوه، فوجدُوا معه كتاباً على لسان عثمان مختوماً بخاتمه يأمر فيه عبد الله بقتل محمد ومَنْ معه والبقاء في إمارته. فعظُم عليهم الخطب، ورجعُوا أدراجهم الى المدينة. وجمعوا الصحابة، وأطلعوهم على الكتاب فذهبُوا معهم الى عثمان. فاعترف بأن الختم بخاتمه والنجيب نجيبه، وحلف أنه ما ختم، ولا أمر، ولا كتب، ولا علم بشيء مما في الكتاب؛ وعُرِفَ الخطُّ أنه خط مَرْوان ابن الحكم كاتب عثمان. فقال أهل مصر: إن جهلك بما دبَّر علينا مَرْوان حُجَّة لنا عليك، فإمّا أن تعتزل الخلافة، وإما أن تُسلمنا مَرْوان. نخاف إن سلَّمهم مَروانَ أن يقتلوه بلا بيّنة، وإن عزَل نفسه أن يجترىء غَوْغاء الناس على الخلفاء من بعده فيعزِلوهم لأهْوَن سبب. واختار الثبات على رأيه واستسلم لقضاء الله. فحاصروه في داره، وانضم اليهم كثير من أمثالهم. فأرادَ كِبار الصحابة أن يدخُلوا في الامر بينهم وبينه، فعزَم عليهم أن يرجعوا الى دُورهم، فأرسلوا اليه أبناءهم ليحموا بابه أن يقتحموه عليه، ولم يظنُّوا أن الأمر يَصل بالثوّار أن يتسوَّرُوا عليه من دُور جيرانه مع قيام كثير من أقاربه وعبيده على سطح داره يرمون من اقترب من الدار بالسهام. فدخل الثوار عليه، وفيهم محمد بن أبي بكر

فعاتبه عثمان ، فنكل عنه[1] وخرج ؛ ولكن بقيتهم قتلوه ، وهو جالس يقرأ فى المصحف فى سورة البقرة . ودافعت عنه زوجته نائلة فقطعت أصابع يدها . ووثب بعض عبيده على من قتله ، فقتلوا بعضهم ، وقتلوا هم . ولم يعلم أهل السطح ولا أهل الباب بما جرى حتى سمعوا الواعية ، وهرب القتلة ، وانفض المحاصرون . ولم يعلم حق العلم من اشترك فى قتله ، وشهد نسوة عثمان بأن محمدا لم يقتله

وكان قتله لثمانى عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ وسنه ثنتان وثمانون سنة ، ودفن خفية بالبقيع

وكان رحمه الله ربعة أشعر أسمر اللون حسن الوجه كث اللحية طويلها يخضب بصفرة . وكان رقيق القلب جوادا رحيما حسن التلاوة للقرآن وله فى حفظه وصونه عن التحريف والتبديل ما جعل وعد الله تعالى بحفظه محققا على يده (رضى الله عنه) بقوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »

فقد جاء وفود المسلمين من الأمصار ينذرونه بافتتان الناس فى دينهم واختلافهم فى تلاوة القرءان بلغاتهم على تعددها حتى أدى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضا . فخشى عثمان تفاقم الخطب ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، فنسخوا أربع نسخ من نسخة كان المسلمون قد اجمعوا عليها زمن أبى بكر جمعت القرآن كله مرتبا بترتيب رسول الله وحفظت

(١) امتنع وانصرف

عنده ، ثم انتقلت الى خليفته عمر بن الخطاب ثم الى حفصة بنت عمر زوج النبي (ﷺ) . واقتصروا فى كتابة هذه المصاحف على لغة قريش لأن القرءان نزل بها ، وأمر بإحراق ما عداها من المصاحف. وبعث بمصحف منها الى مكة وآخر الى الشام وآخر الى الكوفة . وأبقى عنده واحداً وهو الذى كان يقرأ فيه حين قُتل ، وأصابه رَشاش من دَمِه عند قوله تعالى « فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وهُو السَّمِيعُ العَلِيمُ » . فاستنسخ الولاة منها نسخاً ، وبعثوا بها الى بقية الامصار . وبذلك عثمان جمع المسلمين على مُصْحَف واحد

فلو لم يكن لعثمان على المسلمين مِنَّةٌ غير هذه لكفته فَضْلاً وشَرَفا ، فكيف وقد فتح الله به على المسلمين ملكا عتيدا جعل به مُلْكهم يمتدّ من حدود الهند والصين والترك الى أواسط المغرب . فجزاه الله عنّا خيْر الجزاء

خطبتان لعثمان

رَوَى الطَّبرىّ [١] أن أول خطبة خطبها عثمان بعد ما بويع بالخلافة هى:

أمّا بَعْدُ فإنّى قد حُمِّلتُ، وقد قبلت. ألا وإنّى مُتَّبِع، ولَسْتُ بمُبْتَدِع. ألا وانّ لكم علىّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسُنّة نبيّه ﷺ ثلاثًا: اتباعَ مَن كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتُم، وسَنَّ سُنَّة اهل الخير فيما لم تَسنُّوا عن مَلإٍ [٢]، والكفّ عنكم إلا فيما استوجبتم.

ألا وإنّ الدُّنيا خَضِرة قد شُهِّيَتْ إلى الناس، ومال اليها كثير منهم؛ فلا تركَنوا الى الدنيا، ولا تَثِقوا بها؛ فإنها لَيْستْ بثِقَة. واعلموا أنها غير تاركةٍ الا مَنْ تَرَكَها

ومِن خُطَبه حِينَ عابُوا عليه تقديم بنى أُميَّة قوله:

إن لكلّ شىءٍ آفة، وإنّ لكل نِعْمة عاهة، وإن آفة هذه الأُمّة وعاهة هذه النعمة عيّابون ظنّانون، يُظهرون لكم ما تُحبُّون، ويُسِرّون ماتكرَهون، يقولون لكم وتقولون، طَغام [٣] مثل النَّعام [٤]، يتبعون أوّل ناعق. أحبّ مَواردهم اليهم النازح [٥]. لقد أقرَرْتم لابن الخطّاب بأكثر ممّا نقمتم علىّ؛ ولكن وقَمكم [٦] وقَمَعكم وزجَركم زَجْرَ النَّعام

---

(١) هو الامام الكبير المجتهد المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٢) الملأ جمهور أهل الحل والعقد فى الأمة

(٣) الطغام: أوغاد الناس وحمقاهم ورذال الطير (٤) فى الحمق والطيش والنفار (٥) النازح البعيد، أى انهم لا يأتون الأمور من طرقها القريبة البينة بل يشتطون فيها ويتعسفون (٦) قهركم وأذلكم وكذلك معنى (قمعكم)

المُخَزَّمة (١). والله إنى لأقرب ناصرا وأعزّ نَفَرا وأقْمَن (٢) إن قلتُ : هَلُمَّ ! أن تجاب دعوتى من عُمَر . هل فَقَدْتُم من حقوقكم شيئاً ؟ فمالى لا أفعلُ فى الحقّ ما أشاء ؟ إذاً فلِم كنت إماما ؟

الحياة فى الاصقاع القطبية

قِوام الحياة الهواء والحرارة والماء . والهواء مُحيط بأقطار الارض إلى أُفق عالٍ يَقصُر عن بلوغه الأحياء ؛ فلا يخلو منه مكان ، ولا يُفتقد فى أىّ زمان ، والماء والحرارة يتفاوتان قِلّة وكَثْرة بتفاوُت بِقاع الارض فِطْرة وتكوينا ، ومُلاءَمة لِلأحياء وصَلاحِيَة ؛ فإذا قَلّ فى صُقْع أحدُهما أو كِلاهما أو عزّتْ صَلاحِيتُه قَلّت الحياة أو ساءَتْ . ولَيْسَتْ الاحياء فى ذلك سواءً ؛ فبعضها لا يقوم بحياته منها الا الكثير ، وبعضها يُجزئه النَّزْر اليسير ، وبعضها لا ينعَم بهما إلا مُتعادِلَيْن نقيَّيْن من الاذَى مُلَطَّفَين بأضواء الشمس والقمر ؛ غير أن عامّة الاحياء نباتاً وحيواناً تفِرُّ وتفرُّه إذا وفَر الماء العَذْب وسطعت حرارة الشمس وضوءها .

وإذْ كان النبات أعْجَزَ من الحيوان عن مُدافعة حوادث الجوّ لقَراره فيما يَنْبُت فيه ، وتَعَذُّر فِراره مما يُؤذِيه ، كان أفرعه أشجارا وأوْفَرَ أنواعاً ، وأبهَجه ألوانا ، وأطيَبَهُ ثَمرَة ، وأذكاه رائحة ما استوطن

---

١) هى صفة لازمة للنعام وأكثر الطير لأن وترات أنوفها منقوبة . وتوصف النعام بالجبن والنفار فهى تنزعج لأقل زجر (٢) أحرى وأجدر

الاصقاع الحارّة أو استبطن سُرُر الاودية[١]

ويتضاءل كلُّ أولئك فيه ماتقارب من قُطْبَيِ الارض أو توغّل[٢] في قِمَم الجبال، حتى اذا بَلَغ دائرَتَي القُطْبَيْنِ انحطَّ الى المنزلة الدُّنيا من حياة النبات

ويشرك الحيوانُ النباتَ في بعض هذه الصفات. ويمتاز منه بغيرها فهو في الأصقاع الحارّة أفرَهُ أبدانًا، وأبهج ألوانا، وأثرى أنواعا، وأضرى سباعا، وأصفقُ جُلودا، وأنمى عَدِيدا، لانها بيئة صالحة لعيش آكلة النبات من المُجتَرّات وغير المجترات، حيثُ يُخصب منها كبار السباع من الأُسود والبُبُور[٣]، والفُهود والنُّمور. ثم تقلّ أنواعه وتقمُؤ سباعه كلّما تدانى من القطْبَيْنِ. ولكنّ فِطرة الله التي فطَر الحيوانَ عليها من توافر مَرافق الحياة، وتضاعُف الاعضاء والاحشاء، وتنبُّه الحواس جعلته يُقاوِي عَوادي الطبيعة، ويعيش في بِقاع لا يَحْيا فيها النبات؛ حتى اذا قارب القُطْبَيْنِ بادَ منه آكِل العُشب أو كاد، وبقي آكل اللحم من ذوات الأوبار والشحوم المطيفة: مما يقيها صبارة القُرّ وزمْهَرير الشتاء

ولما كان نَوْع الانسان مُمْتازا من الحيوان بقوّة الادراك وسَعة الحِيلة أمكن أُمَّة منه قليلة العدد قريبة الأجسام هي أمة الاسكيموس أن تَقْطُن هذه البِقاع المجْدِبة المُوحِشة المظلمة على شَظَف من العَيْش وتبدُّد

(١) جمع سرار، وهو بطن الوادي (٢) صعد
(٣) جمع ببر كسهم، وهو سبع عظيم من فصيلة النمور يكون في صحارى الهند

فى الجماعة وتخوّف من الدِّباب والذئاب، وهم على ذلك لا يستطيبون بها بدلا، ولا يبتغون عنها حِوَلا، ولا يحاولون هجرة كما تفعل الوُحوش الأوابد والطيور القواطع، حتى فى فصل الشتاء الطويل الليل الذى يُغدف عليهم قناعه ستة أشهر، وتهبط فيه الحرارة إلى الدرجة الخمسين دون الصفر، وتتهرأ فيه الأُنوف والآذان، وتجمد الدماء فى الابدان. ولله فى خلقه شؤون

ولو لم يَعُدّ وَيل القطبين ليله الطويل وبَرْده القارس لهان على بعض الأحياء احتمالهما فى جميع بقاعهما؛ أمّا وقد انضم اليهما ثوران الأعاصير، وهطلان الثلوج، وهدّات جبال الجمد، وتقارع قِدَرها[1]، واندفاقها فى شعاب هابطة، واودية غائرة تجرى فيها متدافعة متصافقة جرية فوائض الأنهار وسوابق الخيل: مما يُصِمّ الآذان، ويُزَلزل الابدان، ويُفزِع أهولَ الحيوان بَلْهَ الانسان، فلم يكن بدٌّ من نكوص النبات وكبير الحيوان عن ميدان هذا المَعْمَعان وانحيازهما الى حَيْث يأمنان شرّ الطغيان. وذلك لا يكون الا دُون القطبين ببضع درجات. أمّا بَهْرة القطب الجنوبىّ فلا أثَرَ بها للاحياء المحسوسة لانها جبال وهضاب. وأما بهرة الشمالى فلانها بَحْر عميق يستأثِر بالحياة فيها سواكن أغوار البحار من السّراطين والمَحار

وأصقاع القُطْب الشمالى تختلف عن أصقاع القطب الجنوبى برًّا وبَحْرًا وحياةً وحرارةً

(١) جمع قدره (بكسر الفاء): القطعة الشاخصة من الجبل

فأصقاع الشمالىّ مجموعة من السواحل والجزائر الكبيرة والصغيرة مُتَنَثِّرَة على أسياف اليوابس الثّلاث (آسيا وأوربة وأمريكا) تحفّ ببحر مستدير عميق جداً يكون القُطب على التقريب فى وسطه

وكلها مَطْمورة بالجليد عامّة السنة إلا نحو شهرين منها تَتَكَشّف فيها صَفْحة البَحر، وتَنجلى رُءوس الصُّخور فيما دُونَ الدّرجة السادسة والثمانين

وأكبر هذه الجُزُر الجزيرة الخضراء (غرنلندة). وكان يُظَنّ أنها مجموعة جزائر وَصل ما بينها الجليد، ثم ظَهر أنّها يابسة منفردة

وأصقاع القطب الجنوبى أرض يابسة بالتقريب، تشبه يابسة أستراليا يكنُفها بحر محيط متجمّد الا قليلا. ويرسو على أسيافها ويشمُخ فى أوساطها جبال شاهقة ناريّة وغير نارية. ويتوسطها جبل عظيم يبلغ ارتفاعه خمسةَ عشر ألف قَدم يُسامت القطبَ بعضَ قُنَنِه

وأصقاع الشمالىّ أحفل بالحياة من أصقاع الجنوبى لانّ تيّار المكسيك الاستوائىّ الحارّ يجرى إلى الشمال حتى يضرب فى شُطوط أوربّة وأمريكا الشمالية، ويتخلّل جزائرها القُطْبية، فيُلَطِّف البَرْد، ويُدفِئ الجوّ، ويُنعِشُ النبات والحيوان، ويجعل الحياة ممكنة فى بِقاع لا تَتَهيّأ فى نظائرها من بِقاع القطب الجنوبىّ حيث ينعقد الجَمْد من الدرجة الخمسين من عروض الجنوب التى هى عَرْض بحر المَنْش مما يُناظرها فى الشمال. لأن التيارات الاستوائية لا تُمعِن فى الجنوب

وأصناف النبات فى الدائرة القُطبية الشماليّة قد تبلغ ثمانيةَ عشر صِنْفا.

الحياة في القطب الشمالي

(١) حوت البال (٢، ٣، ٤) طيور مائية (٥) عقاب قطبي (٦) نورس (٧) بوم (٨) فنك (٩) دب أبيض (١٠) دلفين (١١) عجل بحري أقمم (١٢) حوت ذو منقار (١٣) ثعلب قطبي (١٤) ايل قطبي (١٥) قطا (١٦) ارنب ابيض (١٧) عجل بحري ذو نابين (١٨) شاة (١٩) بط قطبي (٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) انواع العرمض والاشنان القطبيين (٢٥، ٢٦) نوعا طحلب وحزاز

بَعْضهما عُشْب وكَلأ ترعاه آكلةُ العُشب من الدواب ، ويُدَّخر دَرينُه.(١) وبعْضها شُجيرات تَتَفرّع وتُزْهر وتُثمِر ، ولا يكون ذلك الا فى حَمارَّة (٢) الصَّيْف وفى سُرُر الأَوْدية والقِيعان ؛ لسَيَلان الثُّلوج عندئذ بالماء العذْب وانتشار الحرارة الملائمة لبعض النبات

وهى فى القطب الجنوبىّ لا تَعْدُو بِضْعَةَ أنواع من الطُّحْلب (٣) والعَرْمَض (٤) والأُشْنان (٥) والحزاز (٦)

وكذلك الشأْن فى حيوان القطب الشمالى فهو أَزْبَى عددا وأكثر نَوْعا

ففيه مِن دَوابّ البَرّ آكلة العُشْب الأَيائل (٧) القطبية (الرّنة) الأليفة الأَنيسة التى تقوم لأُمة الإسكيموس مَقام الخيل فى جرّ الأَثقال ومَقام الابل والشاء والبقر فى احْتِلاب أَلْبانها ، والاغتذاء بلُحْمانها ، والاكتساء بجُلودها ، والاعتداد بقُرونها . ويليها فى المَنفعة الكِباش الجبلية ذَوات القرون العظيمة المُذَرَّبة

ومن دوابّ البَرّ القُطْبية الأَرانب المُتَلَوِّنة الأَوْبار بتغايُر فَصْلَى القُطْبين : الشِّتاء والصَّيْف ؛ فهى إذا انهبطت الى الجنوب حَيْثُ تَسْطَع

---

(١) الدرين : العشب اليابس (٢) شدة (٣) النبات الدقيق الذي يعلو وجه الماء الراكد (٤) صغار النبات (٥) هو نبات من نوع الحمض لا ورق له ، وله أغصان دقاق كثيرة المياه ويعظم حتى يكون خشباً . ويستعمل فى غسل الثياب والبدن . وهو من الغسول (٦) هو النبات الدقيق الذى يعلو الصخور الندية (٧) جمع إيل : نوع من الوعول متشعب القرون

حرارة الشمس كانت وُرْقاً [١] أو رُبْداً [٢] فإذا جاءَ الشتاء أو صَعَّدتْ في الشمال صارت بيضا أو زُهْراً [٣]. وكذلك تتعاقب الألوان في ثعالب القطب وفنَكه وسِنْجابه مِنْ آكلة اللحْم

ومن دوابّ البرّ القطبية الدُّبّ الأبيض. وهو السَّبُع الفذُّ المَهيب المخوف في تلك الأصقاع. ويمتاز من دِبَبةِ الجنوب ببَياض لَوْنه، وضَخامة بَدَنه، ودِقّة رأسه، وطُول خَطْمِه، وتعذُّر تأَلُّفه. وليْس يَخْشَى رُوَّادُ القُطْب الشماليّ ولا السَّاكِنوه مِن سَبُع غيره؛ اللَّهُمَّ إلا آجالَ الذِّئاب في جنوبيّ الأصقاع القُطْبية، فإنها إذا عَضَّها الجُوع كلِبَتْ واستأْسَدَتْ، وفتكَت بالدوابّ والأناسيّ

ولا أثَرَ لكلّ هذه الدوابّ والسِّباع الآنفة في أصقاع القُطب الجنوبيّ

أما العجول البحرية [٤] فهي في جملتها تقطُن القطبَيْن غير أنها في الشمال أكثر تنوُّعا

وهي دوابّ من ذوات الأربع برِّيّة بحرية مستديرة الرءوس غِلاظ الرِّقاب، ضِخام الصُّدور، دِقاق المآخير ليس لشَواها [٥] اعضاد ولا أفخاذ؛ وإنما هي كُفوف ملاصقة لأجسامها، موصولة الاصابع بأغشية من الجلد بحيثُ تقوم منها مَقام الزَّعانف من السَّمَك. والفَظ

(١) جمع اورق أو ورقاء: الممزوج بياضه بسواد وخضرة (٢) غبراء (٣) بيضاء الى حمرة خفيفة (٤) يسمى القدماء الواحد منها: شيخ البحر، وبنت الماء وانسان الماء، وكلب الماء، والقندس، والقندر (٥) ليس لآذانها حتاد

منها ليَدَيْه فِرْسنان[1] يعتمد عليهما ، فيكون كالاسد المُقْعِي على ذَنَبه وأذنابها سَمَكيّة غير أنها منبسطة مستعرضة

وهى أنواع شتّى : منها الشَّرِس ، وغير الشَّرِس ، ومنها الفَقِم ذُو النابَيْن العُلْويّيْن ، ومنها الفَظُّ الذى تَبلُغ زِنَتُه ألفَ رِطل . وكلها سُكٌّ[2] الآذان . عِبال[3] الجُسوم ، كِناز[4] الشحوم ، كأنها الزِّقاق المنتفخة . وتقتات من السَّمَك وحَشاش[5] البحر وهُلاميّاته . وقد تَستروح على البَرّ فتزحف زَحْفا بطيئاً . وقلّما تَعْدو الشُّطوط حَذَر الدّباب وقُطعان الذِّئاب وصيّادى الاسكيموس وكلابهم

وعجل البحر حيوان ذكىّ يُمْكِن تَألُّف بَعض أنواعه كالنَّوْع المُسمى بشَيْخ البحْر الافْقم (السيل) ويسهل تلقينه بعض الاصوات وتدريبه على شىء من اللعب وقد جَلَب بعض رَاضة الحيوان الى مَلاهى القاهرة دابّة منه كانت تعزف بيَدَيْها على المِعْزَف

وقد تَنْحَدِر شيوخُ البَحْرِ هذه الى البِحار الحارّة ، ويَلِج بعضها بحْر الرُّوم ؛ فتكون مَوْضِع اسْتغراب مَلّاحيه وَدَهْشتِهم . وربّما ظنوه بادِئ بَدْءٍ غَريقا ، لأن رَأْسه من بُعْدٍ كرأس إنسان . وللأوائل فيه خُرافات كثيرة ، وأكاذيب عريضة

وفى حديقة الحيوان بالجيزة جِلْد دابّة منه مَحْشُوّ كالبَوّ يُمثّل شَخْصها وهى حَيّة

وطُيور الأصقاع القطبية الشّمالية عِدّةُ أنواع :

---

(١) خفان (٢) ليس لآذانها حتار (٣) ممتلئات (٤) مجتمعة الشحم (٥) هوام

أشهرُها وأكثرها البَطّ القطبي، وهو طائر أسود الظهر أبيض الجُؤجُؤ، له أجنحة ضعيفة مَكْسُوَّة زَغَباً وريشاً قصير القصَب؛ فهو في الطَّير كالنَّعام لا ينتفع بأجنحته. وينتشر في القطبين انتشاراً رائعاً، فيغطي أديم بعض البقاع منه الأُلوف المؤلّفة. ويكون منه ومن فِراخه

صورة شمسية لقطيع من البط القطبي

بطة قطبية مكبرة

طعام سائغ لبَعْض الجوارح والعِقْبان والبُوم التي تقطُن القطب الشمالي خاصة. وهذا البَطُّ يَعيش على السَّمك والسَّراطين والهُلاميَّات ويَبيض ويُفرِخ في اداحي[1] وأفاحيص بَيْن الصُّخور. وفي

(١) جمع أدحي (ككرسي) وهو حفرة يبسطها الطائر برجليه ليبيض فيها، ومثلها الافحوص

القُطب الجنوبىّ منه نَوْع يُسمَّى البَطّ المَلَكى يضع بَيْضه فى جَيْب جِلْدِىّ فى إنسِىّ وَرِكَيْه فإذا نُتِفَ مَانَ الفراخ بإلقامها بَعْض السراطين وصِغار السمك حتى تنهض بنفسها

وفى القطبين بعض طيور مائيّة أُخْرَى تطير وتُحلّق فى السماء، وتَعيش على السَّمك وعلى صِغار غيرها. وقد يتراءى فى بعض جِهات القطب الشمالىّ نَوْع من القَطا

وفى البِحار القُطبية كثير من انواع الحيتان مما يتنفس برئتيه:

من البال (١) الأدْرَدِ، (٢) وذى الأنْياب، وذى المِنقار، والدُّلْفِين. وينْفرد البال ذو الأنياب بسكنى البحار الجنوبية، وهو الذى يقذِف بالعَنْبَر

والبال أكبر مَخْلوق فى الأرْض وأعْجَبه: ولعلّ طولَهُ يُنيِّف على ثلاثين ذِراعا فرَنْسِيَّة. ورأسه عظيم جدًّا

بعض انواع الحيتان

(١) ويعرب أيضاً باسم البالة والوال (٢) الذى لا اسنان له

يبلغ ثلث جسمه

وهو من الحيوان الثديّ . والأنثى منه تلد وترضع ولدها، وتتهالك فى الدفاع عنه . ويقتات بالسمك والهلاميات، فيفغر فاه الواسع فيدخله منها شيء كثير ، ثم يطبقه فيخرج الماء من ثقبين من رأسه يحاكيان فوارتين عظيمتين

وقد الحّ الصيادون عليه ابتغاء دهنه بالآلات الفتاكة الحديثة حتى أوشك أن ينقرض

وفى بحر القطب الشمالى أحياء لا تحصى أنواعها : من السراطين ، والحلازين (١) والدوالع (٢) ، والودع (٣) وسائر أنواع المحار وخشاش البحر (٤) . وأعجبها حيوان هلامى تعبانى منتفخ يعظم حتى يبلغ ثلاث أذرع فرنسية ، ويصغر حتى لا يرى

وهو شره يفترس من السمك ما هو أعظم منه . ويضيء بالليل، وينمو فى بعض الخلجان حتى يغطى وجه الماء ، فاذا كان الليل صار به البحر كأنه لجة من نار . ومن غريب أمره أنه اذا عرضت واحدة منه للشمس جفت رطوبتها ، وصارت خرشاء (٥) فارغة

وعلى هذا الحيوان وغيره مما لا يحصى من سمك البحر وخشاشه تعيش جوارح الطيور والبطّ والإوزّ والقنادس

---

(١) جمع حلزون : حيوان من المحار الملتوى (٢) جمع دولعة لنوع من المحار مخروط الشكل مسدودة فوهته بصدفة قرنية (٣) محار محدودب كنصف بيضة مقلوبة (٤) حشرات (٥) جلدة رقيقة

ولا يَقْطن الأصقاع القطبيةَ الجنوبيَّة أحدٌ من الاناسىّ ، بل إن يابِستَها الجليديّة وجبالها الشاهقة تكاد تكون خلْوا من الحياة الا سواحلها

أما الاقطار الشمالية فإن بحرها الجليدىّ حافل بالأحياء وما يعيش عليها من الطَّير والوحش ، الا فى بَهْرة [1] القطب

ويقطن جزائره وسواحلَ يوابسه أُمّةٌ من الناس تسمى «اللاّبون» أو «الإسكيمو» ، وهم قِصار بحاتر عِراض الوجوه حُوصٌ [2] العُيون فُطْس الانوف سُبْط الشعور صُفْرُ الالْوان : مما يُرَجِّحُ أنهم من سلالة مُغولية . وهم مشتّتُون فى أرض القطب ، وجَمْهرتهم تكون فى غربىّ الجزيرة الخَضْراء ؛ على أنَّهم لا يزيدون على خمسين الف نَسَمة . وهم على جانب عظيم من الشجاعة والنشاط وقوّة البِنية والمهارة فى صَيْد القنادس والثعالب والذئاب والدببَة والحِيتان والطيور ؛ فيأكلون لحومها نيئة ويتدثرون بفِرائها ويستصبحون بدُهنها ويتخذون من عظامها الصغيرة وسَفاها أسنة لحرابهم وإبراً لمَخيطهم ، ومن عظامها الكبيرة أرْماثا [3] وزَوارق وركاءً [4] يصيدون عليها نساء ورجالاً ، يَركب الرجل منهم ركوة صغيرة مستدِقّة الطرَفين كمَكّوك الحائك لاتَسع غيره ، واذا خرج من البحر حملها على كَتِفه . وزوارق النساء تسع خمساً أو ستا منهن

---

(١) وسطه (٢) جمع احوص : ضيق العين (٣) جمع رمث كسبب : أخشاب أو نحوهما يضم بعضها الى بعض كالزورق (٤) جمع ركوة (مثلثة) : الزورق الصغير

ولا يُمعِنّ فى البَحْر الا بمراقبة رجل يتبعُهنّ برَكْوته

خروج الاسكيمو الى الصيد زمن الصيف

ويُعينهم على عَيْشهم النَّكِد كلابُهم الجَريئة الذكية القوية الماهرة فى مُراوغة الصَّيْد ومخاتلته . وهى حُرَّاسهم من الدِّببة والذئاب وأَدِلَّاؤُهم فى الأَسْفار وسَوَاحِبُ مَزَالجهم وصَيْدهم على الجَليد . وأَيائلهم التى هى

أيائل القطب

أكبر حيوانهم وانفعه يحملون عليها الأثقال ويستعملونها فى سحب الزلاّقات ويأكلون ويشربون البانها ويرتدون جلودها

ولباسهم من الفراء سراويل وقميص وقِناع وقُفّازان وجَوْربان ؛ فلا يَبين من جسومهم الا صفحات وجوههم

ويتخذون من كُهوف الجَليد بُيوتا وقَرَاميص (١) وربّما اتّخذوا أكواخاً من رَضَم (٢) الجَليد سَمكُها ذِراعان فرنسيتان ويسدّون خَصاصها (٣) ببعض الحَشيش والجُلود ، وينصِبون فى رِحلات الصَّيْف خياما من ادَمٍ مُقامة على عِظام الحيتان

---

(١) جمع قرماص (بكسر القاف) هو حفرة واسعة الجوف ضيقة الرأس يستدفىء فيها الصرد : أى الذى عضه البرد (٢) صخور عظام بعضها فوق بعض (٣) ثقوبها

كوخ من جد وعظام وجلود

والسَّنَة عندهم يَوْم واحد : نهار ولَيْل . وَهم يُكْثِرون الحركة والعمل في النهار حتى إذا تعِبُوا ناموا . فتُشرق عليهم الشمس فيه صَفراء اللون كبيرةَ الحجم ضعيفة الحرّ كوقْت الأَصيل عندنا. ولا يسكنون الليل كلَّه ويَقومون فيه ببعض الأعمال ، لانه ليس جميعُه لَيْلا حالِكا الا نحو شهرين مع طلوع القَمر عليهم . وهو مَعْبودهم وا كبر كوكب مَرْئِيّ لهم . هذا إلى أضواء الشفق القطبي العجيب الاشكال الغريب الالوان المنتقل من مكان الى مكان والذى يُخَيَّل للراءى انه بحار من نار قد أطْبقت على الأفق تسعى لالتهام أحيائه

ولا يتهيأ لغير اللابون اَستيطان الأقطاب الا إذا تناسلوا فيها قُرونا وأجيالا مثلهم ؛ فإنهم إذا صبَروا على شَظَف العَيْش لم يصبِروا على هَرْء (١) البَرْد أبْشارَهم (٢) وإقمار (٣) بَياض الجليد أبصارَهم . ولو لم يعْن

(١) هرأه البرد اشتد عليه او قتله او أتلف أطرافه (٢) جلودهم (٣) قمرت العين لم تبصر من بياض الثلج . وأقمرها الثلج

رُوَّاد القطب من الأوربيين بدلك وُجوههم وفرْك أيديهم وتغْمية عيُونهم لمَاوا صَرَداً (١) أو عَمُوا قَمَراً

على أنه اذا ارتقى الإنسان فى صُنْع المنطادات والطيارات ؛ حتى تغلّب على عَوادِى الطبيعة من العواصف والأعاصير كانت الرِّحلة الى القُطبين نُزْهَةً من أعجب النزه التى تشْرَح صَدْر الإنسان ، وتُزيل عنه الأتراح والاشجان ، وما ذلك على العلم بعزيز

رسائل مختلفة للمؤلف

الهداء طرفة الى صديق

صديقى العزيز

سلام عليك بقَدْر شَوْقى إليك . وبَعْدُ فما بَرِحَت الهَديّة تَرْجُمانَ الطَوِيّة ، وعُنْوانَ خُلوص النيّة . وهى إذا عظُمت الخُلَّة لا تَصغُر من قِلَّة لهذا ولذاك بَعَثْتُ إليك بعُنْقود عِنَب تغفَّل الزَّمان ، فيَنَعَ قَبْل الأوان ، وتعرَّضَ لتهادِى الخُلاَّن

ولى من قَبُول مولاى ما يَرْفَع الكُلْفة ؛ ومن حُسن ذَوْقه ما تحلو به هذه الطُّرفة . والسلام

---

(١) بردا

وصاة بمريض عالم

صديقى النِّطابِىّ الكبير

أمَّا بَعْدَ سلام أطيَب من عَوْد العافية وأحلَى من نَيْل المُنَى فلئن كان فلان حرَمه المرض نعمة الصحّة لقد أسعفه الحظُّ أن يَنشُدَ الحياةَ فى واديك . ومن توفيق الأقدار أن يَستَطِبّ عَليمٌ بطِبّ النّفوس عند أرْفَقِ نِطابىّ بطِبّ الجسوم . وإن هذه الصِّلة المعْنَوِيّة التى أعلم أنك تُكبر أمْرها ، وتعظِم شأنها هى التى سَهَّلَتْ علىّ قبول استشفاعه بى إليك لتلاحظَه بعَيْن عِنايتك ، وتُفيءَ عليه من ظِلال شَفَقتك . علَى أن اعتقادَه لا يَنْقص عن اعتقادى بحسْن رِعايتك لمَرْضاك ، وشِدّة عَطفك على مُيَمِّمِى ساحَتك . غيْرَ أنّ المريض كالغَريق يتعلّل بكل تَعِلّة ، ويتلمّس النجاة بأىّ وسيلة

وأملِى فى كَرَم الله وفضل حِذقك فى صناعتك أن نَرَى مَريضَنا قريبا رافلا فى حُلَل السّلامة مُرَتِّلاً مَعَنا آياتِ الحمْد لله والشُّكر لك والسلام عليك ورحمة الله

كتاب الى رئيس للعناية بأحد مرءوسيه

سيدي الفاضل

بعدَ سلامٍ لا يستقلّ به القلَم وتحيَّة لا يَعدِلُها إلا وثيق محبّتك وكريم إخائك . أكتبُ اليك وعَهْدُ الناس أنَّك جميل الإيثار لأوليائك

حَسَنُ المَثوبة لذوي الاحسان من عُمَّالك ، وذلك ما أَطمَعَ فلانا مرءوسك أن يَمتَّ (١) بى اليك ، ليَحُلَّ عِنْدَك مَحَلاً يُحْمَدُ فيه أثَره ، ويقِفَ فى خِدْمَتِك مَوْقِفاً يحسُن فيه بَلاؤه ، ويعظُم جَزاؤُه كما فاز بذلك نُظَراؤُه

فان أحسنْتَ ظَنّه بأخيك ، وحقّقْتَ أمَلَه فيك ، فهى نَصفَةٌ ما زِلتُ أعرِفُها فى خِلالك . وحَسَنَةٌ تضاف الى كثير حسناتك والسلام ؟

الهراء مؤلف أول مؤلفاته

لعظيم له الفضل على المؤلف فى تخريجه

مَوْلاى

إن عظيم جهادك فى نَفْع أُمتك ، وحَميد سَعْيك فى مُعاضدة العِلم وأهله ، خوّلانى أن أستمدّ من أياديك البيضاء يداً أُحبِّر بها هذا الكتاب ، وإن كنت فى ذلك لكالبَحْر يُمْطره السحاب . فإن راق مولاى فتوفيقٌ الى الاستهداء بنوره ، والاقتباس من جميل رأيه . وإلا فباكورةٌ تَستتبِع ثمراً يانعاً ، وهِلال يَستتلى - إن شاء الله - بَدْراً طالِعاً ؟

---

(١) يتوسل

التعاون

بعضُ الحيوان أقوى من بعض ، ومَطالب الحياة فى أُمّة منه أرْبَى [١] من أُمة ، غيرَ أنّ فِطْرة الله التى فطَره عليها تقتضى أن تَتضامّ ذواتُ الضعف منه لتستجمع من قُواها قُوّة مُوحّدة تدرأ عنها بطشَ القوىّ ، وأن تتحاصّ [٢] ذوات المطالب الكثيرة منه ضُروبَ العمل الذى يكفُل حياتها . ولا جَرَمَ أنّ تشارُك نوع من الحيوان فى دفع الأذَى ، وتقاسُم آخر جَلْبَ الجَدا [٣] هو تعاوُن فِطْرِىّ لا يقوم لهما عَيْش بدونه

والأنسان حيوان يجمع تينك الخِسّتَيْن: الضعف والحاجة ؛ ولكنه بتعاوُنه يبلغ الحُسْنَيَيْنِ : القُدْرة والكفاية ؛ فإذا جانَبَ فريقٌ منه التعاوُن ، وآثر التواكل والتخاذُل ، فقد ظلمَ نفسه ، وعادى جنسه ، وباء من الله بالخِذْلان ، ومن الناس بالحرمان والامتهان وتَسَفَّلَ عن رُذال الحيوان : ومن أظلم مِمّن يستفضل [٤] من الضعف أسْراً [٥] ، ومن القُلّ وَفْراً ، ويتجاهل قوله تعالى « يأَيُّها النّاس إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » إذْ ليسَ لتعارُفنا أزواجا وشعوباً وقبائل مِن ثمرةٍ إلا تعاوننا وتناصرنا صَوْناً لذات أنفسنا ، وبُقْيَا على كِيان جنسنا ؛ فبالتعارف تنشأ الالفة والمودة والرحمة ، ومن هذه

---

(١) انمى وأزيد (٢) أى يأخذ كلّ منها حصة من العمل (٣) الخير
(٤) يستبقى ويستزيد (٥) قوة

الخلال الشريفة ينبعث رُوحُ التعاوُن والتناصر على تحصيل المَودود وتنحية المكروه . وكلَّما اشتدَّتْ أواصر التعارف بين طائفة كان التعاون لهم ألزم وعليهم أوجب

اذا فهمنا هـذا علمنا وجوبَ تعاون الزَّوْجَيْنِ على إصلاح ذات بينهما ، ووجوب تعاوُن كلِّ شَعْبٍ وقَبيل على تمكينه فى الأرض ، وتثبيت أقدامه فى ميدان التنازع الحيوىِّ العظيم ؛ فمن الزَّوْجَيْن تنبُت الأُسرة ، ومن الأُسرة يتشعَّبُ الشعب والقَبيل . فاذا أردنا أن نعيش مستمكنين فى الأرض مستوفِرين حاجَنا من متاع الحياة الدنيا فلا يقوم لنا بذلك إلا التعاون أسرةً وقَبيلا

فلْيتعاون أفراد الأُسْرة أصلا وفرعا على إهْداء بالها وإرْخاء عيشها وتأمين سِرْبها [1] وتهوين صعاب الحياة عليها

ولْيقُم ربُّ الأُسرة مِنَّا بما يجب عليه لإسعاد زَوْجه وولده ومن بلغ عنده الكِبَر والعجز من والديه ورَهْطه ، فلا أكفلَ بَعْدَ العبادة لرضا الله تعالى ، ولا أدلَّ على كرَم النِّجار ونبالة الهمَّة وشَرَف النفس وطهارة العِرْق من العَطْف على قرينة الحياة وصَوْنها عن البِذْلة والعَوَز ، ومن الشفقة على فِلذات الأكباد وتَنشئَتِهِمْ على أدب وعِلم وعافية ، ومن البِرِّ بالوالدين وتخفيف آلام الشيخوخة عليهما ، ومن المودَّة فى القربى وتوثيق أواصرها بالحسنى

ولا يكن ربُّ الاسرة كذلك الغافل الذى لا يَعنيه من شأن أهله

(١) متقلبها ومتصرفها

وولده ما يَعنيه من شأن نفسه وخُلصانه ؛ فيكون علَّة شقاء الاسرة وفساد أخلاقها وتشتت شملها ، ثم تَنصبُ على رأسه مَعرَّتها ومخازيها ، ويأخذه الله نَكالَ الآخرة والاولى ، إن فى ذلك لَعِبْرَة لِمن يَخْشَى

ولْتَتمِمْ ربَّة البيت بإسعاد كاسبها فى نفسه وولده وأهله ؛ فمَنْ أولى من السيِّدة الكريمة بصيانة شرَف بَعلها ، وإطاعة أمْره وإدخال السُّرور على قلبه : بحسن القيام على أولاده وتنسيق أثاث بيته وادائه ، وتهيئة ماتدعو اليه معيشة قُطّانه مِن مَطْعَم ومَشْرب ومَلْبَسٍ ومرْقد . تلك هى الحرة التى تستأهل أن تُدْعى رَيْحانة المنزل وربّة البيت أى المربِّية والقائمة بشؤون أهله . أما تلك السَّليطة الرّعْناء التى لاتألو زَوْجها صَخَباً وحواراً ، وتعنّتُه سُؤالاً ولَجاجا ، وتبهظُه نَفقة وتكليفا ، وتُحرجه صَلَفاً وبَذَخا ، وتحشُد عليه البَيْتَ زائراتٍ وصواحبات ، وتُنفق أثمن الساعات فى ردّ الزيارات ، وتكِلُ تدبيرَ منزلها الى المراضع والخادمات ، ثم هى بعدُ أعجز من أن تستقلَّ بطَهْى لَوْن ، أو خَيْط ثَوْب ، فهى بأن تُدْعى شيطانا مَريداً وداءً وَبيلا أولى مِن أن تُدعى ريحانة البيْتِ وقُرّة أعْين الأهل ، وبأن تُدْعى ضَيْفا ثقيلا وكلاًّ بَغيضاً من أن تُدْعى ربَّة المنْزل

ولْيَقُمِ الاولاد بمعونة أبويهم على تربيتهم بحسن طاعتهما ، والدأب على تحصيل العلوم والفنون ، والبرّ بهما ، والنهوض بأمرهما عند عَجْزهما

ثمّ لْيقُمْ أُولو القربى بواجب المَودّة التى وصّاهم الله بها غير مرّة فى كتابه العزيز ؛ ولا أجْلَى مَظْهَرٍ لتلك المَوَدّة ، ولا ابيَنَ أثَرٍ لفضلها

من تعاوُن أُولِى القُرْبى فى سَرّائهم وضَرائهم ، ومن تناصُرهم عِنْدَ حلول الأَزَمات ونزول المُلمّات

اذا قام أعضاء كل أُسْرة بما يجب عليهم من التعاون والتناصر وقطعوا أسباب الخِلاف بينهم مِمّا نراه مستحكما مستعرزاً [1] بين كثير من البيوت والأُسر فى القُرى والأَقاليم . فوهَنَتْ به قُواهم ، وتفكّكت عُرا عَصَبِيّتهم ، ودَبّتْ عقارب السِّعاية والنَّميمة بينهم ، وتبدّدت ثَروتهم ، وأصبح عَقارهم رَهْناً للمَصارف ، ونَهْباً بَيْن المحامين وخبراء الدعاوى ؛ فأَخربُوا بُيوتهم بأَيديهم ، وغَرَسوا فى أعقابهم الفاقة والتباغُض والتحاقُد والتحاسد وحُبّ الانتقام بإهلاك الحرث والنسل . فلا عَجَبَ إذا حلّ مَحَلَّ كلّ أُولئك التوادُّ والتراحُمُ ، وامتدت أَروقة السعادة فوق رؤوسهم ، وحَفَقتْ أعلام الوِئام على رُبوعهم

ثم اذا استشعر كلُّ أَهل بيت فى بلدة فضيلة التعاون على البرّ والتقوى ، وتناهَوْا عن الإِثْم والعُدْوان فقد اُستبلوا العافيةَ ، فى الأَهل والولد والمال ، وشلّوا أيدى الدُّخلاء الذين يَتصيّدون أرزاقهم الخبيثة بحبائل المكْر والفِتنة ، ويتربّصون بكِرام العشائر دوائرَ السَّوْء ؛ وأصبحوا وكأَنهم اسرة واحدة

وليست المملكة الفاضلة والشعب العزيز الجانب إلا طائفة من المدائن والقُرى مُتماثلة فى فُضْليَات الصِّفات ، مُتوحِّدة المَبادِىء والغايات : رَعيّةً وسُلطانا . فاذا بَذَلَت الدولة جَهْدها فى مَعونة الرَّعيّة ، وأَجمعت

(١) قوياً مشتدا مستمسكا

الرعيـة على معونة الدولة ومعونة بعضها لبعض فليس لأعدائها عليها من سبيل

أما معونة الدولة للرعية فهى تأدية الأمانة التى ائتمنتها عليها، والقيام بالوكالة التى وكلتها إليها، ووضع حقوق الوكالة فى نصابها

وذلك بتربيتها وإعدادها لمكافحة الزمان ومنافسة الجيران بنشر العلم فى عامتها وخاصتها، وتثقيف عقولها، وتهذيب أخلاقها وعاداتها، وتوفير الصحة عليها، وتأمينها على أرواحها وأعراضها وأموالها من الاشرار العائثين بالفساد خلال ديارها والغزاة المغيرين عليها، وتنمية ثروتها: بإخصاب أرضها، وإحداث الصناعات النافعة بينها، وترويج تجارتها، وإنصاف مظلوميها من ظالميهم، وبتنفيذ الشرائع والقوانين بالقسطاس المستقيم سالكة فى كل أولئك سبيل الاقتصاد فى النفقة، مدخرة من المال ماتعوزها إليه نوائب الدهر من الاوبئة والحروب والقحط

وأما معونة الرعية للدولة فهى تسهيل عملها عليها، وملازمة الطاعة فى تنفيذ ما وكلته اليها

وذلك بأن يبذل الآباء والأمهات منها غاية جهدهم فى حسن القيام على تربية أبنائهم فى المنزل وخارج المدرسة، وصونهم عن السقوط فى حمأة الرذيلة: من الكذب والمهارة والعناد ومشاحة غيرهم والتمادى فى اللعب والسخرية بالناس؛ وبأن يقوم مياسيرها بنصيبهم فى تهذيب محاويجها، وترقية عقولهم وأخلاقهم بنشر معاهد التعليم بينهم أو مد

الحكومة بالمال والأرضين لإنشائها وحبس الريع والعقار على تشجيع النبغاء والاذكياء والمؤلفين والمخترعين، وإنشاء ملاجىء للأيتام والزمنى ودوراً للمرضى، وبأن يقوم أرباب الزعامة والعصبية والنجدة والأقوال المسموعة بالضرب على أيدى المفسدين من السراق والخراب، ومطاردة الجناة وسوقهم الى حراس العدالة، ومقت المذنبين، وإنشاء جماعات الحسبة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

أما مانسمعه كل يوم من إلقاء كل تبعة على كاهل الدولة مع إصرارنا على خذلانها، وقلة الأخذ بناصرها، وتهاوننا فى تأدية حقوق الشريعة والقانون، وتسترنا على العصاة والجناة، وكتماننا للشهادة عليهم، وتهنئتهم عند الخروج من الحبوس وتلقيهم بالطبول والزمور، فليس إلا تعجيزاً وإرهاقاً لرجال الدولة، إذ هم ليسوا ملائكة عذاب ينزلون النقمة على كل فاجر، ولا أنبياء معصومين من الخطإ؛ وإنما هم بشر من الأمة نبتوا فى مزرعتها، ونشئوا بين أظهرها، وإنما ولوا أمر الأمة بتراض بينهم وبينها على حراسة الشريعة من جانبهم، والعمل بها من جانبها؛ فإذا تجنى الأصيل على الوكيل فتر نشاط الوكيل، وركن الى الخب والخديعة، وحلت الفوضى محل النظام والأمن والعافية

سأل أحدهم علي بن أبى طالب (رضي الله عنه): لم اختلف عليك الناس ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر؟ فقال: لانهما حكما مثلى وحكمت مثلك! وقال عبد الملك بن مروان من خطبة له فى أهل الكوفة: «ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين، وأنتم لا تعملون أعمالهم». فالأمر

من الأُمّة وإليها ، وكما تكون يُوَلّى عليها

وأما معُونة الأُمة بعضها لبعض فباشتراك النابهين منها فى إسعادها وكلاءة مادّة رزقها عليها من الزراعة والصّناعة والتجارة

وذلك بأن يقوم نُبَهاء الزُّراع بالتجارب المفيدة فى استجادة الزَّرع والدواب ، وإنشاء النّقابات الزراعيّة لانتقاء البَذْر ، واستحضار السَّماد واقتراض الأموال ، ونَشْرِ أفضل طُرُق الزراعة ، واستعمال أفضل آلات الحرث والحصْد والرّىّ

وبأن يقوم أرباب رُءوس الأموال القليلة بتأليف الشركات الصناعية والتجارية : لتكوين رءوس أموال عظيمة تقوم بجلائل الأعمال ولا يُزَعزِعها طفيف الخسارة ، وإنشاء النقابات المختلفة لاتقان الصناعة وترويج التجارة وتحسين حال العمال وتخفيف آلام العجزة منهم والحكومة بينهم عند تخاصمهم

إذا استمسكت كلُّ أُمّة : حاكمها ومحكومها بعرا التعاوُن ، ثم تعاونت هى وغيرها على تذْليل صِعاب الحياة الدُّنْيا ، وتبادلوا المنافع والغلات كانت عاقبة ذلك سعادة الانسان ورَفْع الخِصام ، واستتباب السلام . وما ذلك على الله بعزيز

رسائل مختلفة للمؤلف

تهنئة بمنصب

أخى الفاضل ،

تحيّةً وسلاما . وبعدُ فقديما كان الناس يُهنّئُون الرجال بالأمر عسيراً مَناله نَزِيراً اهتباله [1] ، وأنا اليوم إنْ هنأتك بمنصبك الجديد لم أشُذّ عن هذه البابة : لا لأنك نلتَ شيئاً يُنفَسُ على مِثْلك فى علمه وأدبه ونُبله وزكاة طَوِيّته ، بل لأنك نلتَ عزيزاً فى زمان تُعَدُّ محاسَنته لأهل السيِّئَة أشبهَ بمُناكدته لأرباب الحسنة ؛ فأصبح افتراعك لمنصبك — بلا سِعاية فى صديق ولا نَكْث لعَقِيدة ولا خفْر لذِمّة — مَخِيلة خيرٍ يتفرّسُ الأحرار فى صفْحتها اعتدال الزمان ، ويستروحون من قِبَلِها نسمة الحق

فزادك الله رِفعة وكرامة ، وعصَمَك من الحَيْد مع هواك ، والكَيْد من سِواك ، وجعَل للأمة من متجدّد مستقبلك ، أفضلَ مما عرَفته من مُتمَجَّد ماضيك . والسلام عليك ورحمة الله

رسالة من صديق الى صديقه يعاتبه ويلومه

صديقى القديم ،

أمّا السلام ، فعلى تلك الأيّام ؛ أيامَ كنّا نكون وما لنجوَى اثْنَينا ثالث ، ولا طمَع فى حديثنا لمتسمِّع ، تلك أيامٌ عهِدتُك فيها تُقيل عِثارى

(١) اغتنامه

و تسبل أستارى ، وتحفظ علىّ « ما أكتم الناسَ من حاجى وأسرارى »، فبدّلتُ بها منك أياما نَسِيتَ فيها حقوقَ الصداقة وحفِظتُها ، وتبسّطتَ فى مجالسِك بسرّى وطَوَيتُ سِرّك ، حتى مايكاد القلب يعلمُه ، ولا الخاطر يتوهّمُه . ومالى عندك أيّها الصديق من جُرْم إلا إفراطى فى الثقة بك ، وإفضائى بمهامّى اليك . وما لك من عُذْر إلا أن تكون أزمعتَ قطيعةً أنا أبعدُ الناس عنها ، وصارمتنى وداداً أنا شديد الارتباط به . على أنّى أرجو الله أن يكون إفشاؤك سِرّى فى مسألة (كذا) ليس لهذا ولا ذاك ، وإنما هى مُجاذبة الحديث تُورط المرءَ فيما لا يروم ، فتعودَ لى غيرَ مُليم ، وتستديمَ منّى عهْدا غيرَ ذميم

إذا ذهب العتاب فليس وُدٌّ ويبقى الود ما بَقِىَ العتاب

والسلام ؟

رسالة من صديق لصديق يعتذر عن هفوة هفاها

صديقى العزيز ،

سلامى إن وَجّهتُه لحبيب فأنتَ وِجهتُه ، ووداى إن اختصصتَ به كريما فهو قَصْر عليك . وصلَ كتابك الذى رَقّت ألفاظه ولكن لِلْحَز فى قلب سليم ، وزاد عتابه إلا على إخلاص المعتوب عليه . رثَيْتَ فيه عهْداً لازلتُ على ثِقةٍ من دوامه ، وأسِفْتَ على صداقة أنا ضارع الى الله فى إفساح أمَدها . ولا والله ما كنتُ لأُفشِىَ لك سِراً أتوقّعُ الشرّ من إذاعته ، ولا لأتّهِمَ مُحدّثاً كنتُ أحسبه فى صداقتنا ثالثَ اثنَيْن : أغرَق

لى فى مَدْحك ، والثناء عليك ، والدُّعاء لك ، والإعجاب بعَمَلك ، وتَعْداد أياديك عليه ، فما شَكَكْتُ أنه أولى الناس أن يكون مُشيداً بذِكْرك ، مُنَوِّهاً بفضلك ، حافظا لمَوَدّتنا ، مُظاهِراً لجماعتنا ، ولكنها التجارب لا تُبْتاع إلا بعظيم الأموال ، وإذلال أعناق الرّجال ، ولَعَلّ تجربتى هذه تصُدُّنى عن مُقارفة مثلها ، وتنهانى أن أؤدِّىَ الأمانات إلا الى أهلها ، ولعَلّى أجد منك بين ثقة قديمة وعظة حديثة عَفْواً عن هَفْوة لم أتَعمّدها ، وقبولا لمِعذِرة تَحْسُن معها صِلَتي بك . والسلام ؟

تسخير البخار

يَا لِلإنسان ! ما أعْجَبَ أمرَه ، وأبعدَ غَوْره ، وأثقب فِكره : خُلق ضعيفَ الجوارح ، بادى الأَدَمة ، ليس له براثن [١] السباع ، ولا نيوب الفيلة ، ولا مَناسر [٢] النُّسور ، ولا أجنحة الطيور . فابْتَدَعَ له فُؤادُه الرُّواع [٣] ويدُه الصَّناع من الضَّعْف مُنة ، ومن العَجْز حِيلة . فلم يكفِه تَعْبيد الحيوان حتى تعدّاه الى تسخير الجماد ، فأَخْرج من ماء النهر وحديد الأرض دَابَّة تجرُّ من العَجَل قافلة غَنّاء [٤] لا يُدرَك طَرَفاها ، ومدينةً تجرى على الدَّأْماء [٥] لا تُرَوِّعها الرياحُ العواصف ، ولا تُفَزِّعُها الأمواج الصواخب ، وطاحُونةً دُونها ألوف الأرحاء ،

---

(١) جمع برثن (كقنفذ) : كف الاسد ومخالبه (٢) جمع منسر (بكسر الميم) : منقار الجوارح (٣) الذكىّ النشيط (٤) يقال قافلة غناء لا يدرك طرفاها اذا كانت طويلة آهلة بالمسافرين (٥) البحر

ومنجنونا يُترع المزارع، ويُخصب البلاقع، ودواليب تُنجز في ساعة من الأعمال، ما لا تنجزه ألوف الرجال: مما لو شاهدته أبصار الغابرين لحسبوه من عمل المردة والشياطين، أو تخييلات المكرة الساحرين

أمّا نحن معاشرَ الأحياء فقد ألفنا استخدام قوّة البخار حتى كدنا ننسى أنه حدث عجيب فى تاريخ البشر، مع أنّه لم يؤثر لنا عن الأوائل أنهم اهتدوا إلى تسخير هذه القوّة، أو حاولوا تسخيرها فى شؤون الحياة. وكل ما أتانا من انباء القرون الأولى أن «هيرون» الإسكندرىّ اخترع فى عهد البطالسة حوالى سنة ١٣٠ قبل الميلاد بضعة أجهزة علمية، أشهرها جهاز مؤلف من كرة جوفاء ترتكز على محور أفقىّ، ويخرج منها البخار من بزبازين متضادّى الاتجاه، فتدور الكرة على ذلك المحور. وبذلك لم يخرج اختراعه عن كونه أُلعوبة أو نموذجا علميًّا لشرح خاصّة من خواص الطبيعة: وهى أن الأبخرة والدواخن اذا اندفعت من ثقب إناء أو من أنبوبة ارتدّ منها ضغط الاناء المنبعثة منه على عكس الجهة التى اندفعت اليها. وفى هذا الجهاز كان البخار يخرج حال تولّده من الماء، ولا يحبس حتى يشتدّ ضغطه، وتظهر قوته العظيمة، ولم يدر بخلد هيرون وقتئذ أن البخار سيستخدم يوما ما على الحال التى نعرفها اليوم، وفى تحريك الآلات المتداولة عندنا، وأنّ قوته ستمدّ الانسان بتلك المعونة الجليلة التى نتمتع بها الآن

ثم لم يعد شىء يذكر من أخبار قوة البخار الى أوائل القرن السابع عشر الميلادى حين اهتدى مهندس فرنسى يُدعى «سلامون دى

كوس » فى سنة ١٦١٥ م إلى استخدام البخار فى رفع ماء من بئر إلى حجرة صغيرة فوقها محكمة الإغلاق : بأن ملأها بخارا ، ثم جعله يتكاثف ، فأحدث فى الحجرة فراغا ، فصعد الماء ليملأ هذا الفراغ ، وذلك لضغط الهواء سطحَ الماء فى البئر وعدمِ ضغطه إياه من الحجرة . كما تفعل المِضَخّة

وتلت ذلك اختراعات شبيهة به لم تأتِ بفوائد عملية تذكر الى أن اخترعت آلة استُعمِلت فيها قوة البخار بشبه الطريقة المألوفة لدينا ، وهى توجيه البخار الى قُرْص أو « مِكبس » داخل أسطوانة محكمة السدّ لا يتجاوز محيطُها الداخلىّ محيطَ القُرص . تلك هى الآلة التى اخترعها « نيُو كومن » الانجليزى سنة ١٧٠٥ م . وقد استُعملت هذه الآلة بالفعل فى الأغراض العملية : فاستُخدِمتْ فى مناجم الفحم لنَزْح المياه السائلة من جُدرانها والمُعطّلة للعمل بها . ومع أن هذه الآلة كانت ناقصة ساذَجة مستنفِدة لمقادير وافرة من الوقود لا تكافىء ما تنْجزه من العمل لَبِثَ الناس يستعملونها نحو سبعين عاما ، فما راعهم إلاّ و « جِمْس وَط » يرفع المياه من أغوار الآبار والأنهار ، ويدير أرحاء الطحن ويحرك دواليب المصانع باختراعه العجيب الذى ملك به ناصيةَ البخار وسخّر منه جبّاراً عظيما وشيطاناً مَريداً لخدمة الانسان الضعيف ببدنه القوىّ بعقله ، فأحله اختراعه المقام الأرفع بين طبقات المستنبطين والمخترعين

ولد هذا النابغة فى بلدة « جرينوك » من أعمال اسكتلندة سنة

١٧٣٦ م ؛ وكان فى طفولته ضعيف الصحة ضئيل الجسم ، فعُنِيَ والده بتعليمه فى منزله القراءةَ والكتابة والحساب ، ثم تدرّج هو فصار يدرُس بنفسه ما تصل اليه يداه ، فشَبَّ مُولَعاً بالرسم وحلّ التمرينات الهندسية . وكان أبوه نجّارا رقيق الحال ، فأخذ يصحَبه معه الى دُكّانه ؛ ولكن جمس وط لم يَشأ أن يَنقضِى زمنُه بلا استفادة ولا ثمرة ، بل أخذ يتأمّل سر الصناعة وتركيب بعض الآلات والأدوات ، ففتَق له التأمُّل والانتباه بعضَ حكمتها وطُرُق استعمالها . وحبَّبَ اليه البحث والاستقراء فى أسرار الخليقة

فإنه لجالسٌ ذاتَ يوم ، وهو صبى فى بيت ابيه ، وأمامه قِدْرٌ مُغَطاة تغلِى على النار إذ انبعث البخار من حافتِها ، ويَرْجُف غطاءَها رجْفاً شديداً ، فأخذ يتفهم سرّ ذلك ، ويَبْلو أمره ؛ وكان من رآه يظنه عابثا . فغاظ عملُه امرأةً من أهله كانت ترقبه ، فصاحت : « أىْ جِمْس وط ! لم أرَ غُلاما مثلَك فى كسلك وعَبَثك ، خذْ كِتابا واشغَلْ نفسك بما يُفيدك . لقد مضتْ عليك ساعة من غير أن تنطِق بكلمة ، بل انصرفت الى رَفْع الغِطاء من القِدْر ثم اعادته الى مكانه ، ثم تارةً تضع أمام البخار فِنْجانة ، وطوراً تضع مِلْعقة ، ثم تأخذ فى عدّ نُقَط الماء التى حدَثتْ من تكاثُف البخار ! أما تَخجَل من إضاعة وقْتِك فى هذا الوَجه ! » ولم تدرِ تلك النصيحةُ الشفيقةُ أن جِمْس وَط لم يكن يومئذ لاعِباً ولا عابثا ، وانما كان يتأمّل فى خَواصّ البُخار ، ويتفكّر فى طريقه تكثيفه : مما كان

منه أكبر فائدة له عند ما اخذ يدرُس فى كِبَرِه تركيب الآلات البخارية

ولمَّا قويَتْ صِحَّته وتَرَعْرَع جِسمه أدخَله أبوه المدرسة حيث تَعلَّم الرِّياضة وغيرها من مَبادىء العلوم الراقية، ولكنه لم يلْبَث بها طويلا لفقر أبيه ورِقَّة حاله وشعور « جمس وط » بوجوب معونته. فاشتغل بصنع الآلات العِلمية، وذهب الى « جلاسجو »، وهو فى الثامنة عشرة من عُمره ليستجيدَ الصناعة، ولم يكن بالمدينة الا مصنَع واحد لهذا العمل، فبعد أن قضى جمس به مدةً وَجيزة رأى أنه لا يقوم بما يروم، فتَركه وذَهب الى لَنْدن، وثَمَّة أخَذَ يعرِض نفسَه على أصحاب المصانع، فلم يجِدْ منهم قَبولا، حتى كاد يستولى عليه اليأس؛ وبعد لأْيٍ وعُطْلَةٍ وجد مَصْنَعاً قَبِلَ أَنْ يُعلِّمَه تلك الحِرْفة فى سَنَةٍ واحدة على أن ينقُده جمس ٢١ دينارا انجليزيا جزاء تعليمه

ومع أن اوقات العمل بهذا المصنع لم تكن تقلّ عن عَشْر ساعات فى اليوم بحيث لم يستطع معها أن يَروح الى مَأْواه قبلَ الساعة التاسعة مَساءً، لم يَعْبَأْ بالتعَب، وأخذ يبحَث عن أعمال أُخرى يُؤَديها بمنزله قبل النوم وفى بُكرة النهار؛ ليكسِب بذلك بعضَ دُرَيْهمات يخفّف بها عِبءَ المعيشة عن أبيه

وما قارب العام الأنتهاء إلا وقد ضرب « وط » فى هذه الحرفة الدقيقة بسهم، ورَجَع الى أهله قريرَ العين كله آمالٌ فى رَغَد عيش وهناءة بال. فبعد أن استراح بين قومه مُدّة من الزمان استجمّ فيها قُوَّته،

واستعاض ما أفقده النصب والإعياء أيامَ كونه بلندن ذهب الى جلاسجو حيث كان يُظَنُّ أن سيجد مجالا فسيحا لرواج حرفته ؛ فما كان أشدَّ حزنه عند ما علمَ أن قوانين البلاد وقتئذ لم تكن لتُجيزَ لصانع أن يفتح مصنعا يزاول فيه مهنته الا اذا كان من أهل المدينة ، أو ممن تدرّب فيها على تلك المهنة سبعَ سنين فصاعدا ؛ فكادت هذه الصدمة تقضى على آماله لولا أن أمدّته العناية ؛ فأتاح الله له من عرف قدره وأسند اليه عمل إصلاح الآلات العلمية بجامعة جلاسجو . ولقد أجاد جمس وط عمله الجديد ؛ وأحسنَ فيه كلَّ الاحسان ، فثبّت بذلك قدَمه فى الجامعة ، وأذنتْ له بحجرتين من مبانيها يتخذ إحداهما حانوتا لعرض مصنوعاته والأخرى مصنعاً يجرى فيه تجاربه وبحوثه . وهنالك كان يختلف اليه الكثير من طلبة الجامعة يناقشونه المسائل الصناعية العلمية التى تشغلهم ؛ فكان يبهرهم بدقة نظره وقوة إدراكه . وإذا استعصت عليه مسألة يؤجلها الى الغد ، فيقرأ فيها كلّ مايصل اليه ، ويُنعم النظر فى تفاصيلها ، فلا يأتى الموعد التالى لاجتماع الطلبة الاوقد أعدّ لهم جوابا شافيا عمّا يريدون . بذلك قويتْ مداركه وعظُم استعداده لتفهّم عويصات المسائل ؛ فاستعاض كثيرا مما فوّت عليه الفقر من دروس المدارس

وحدث أن الجامعة أرادتْ إصلاح نموذج صغير لآلة «نيوكومن» كان قد أُهدِىَ اليها . فلما سمعَ جمس بذلك سعَى حتى عُهِد إليه إصلاحه ، ولم يكن قد رأى مثله من قبل ؛ فما زال به حتى أصلحه ، ولكنه أدرك

نَقْصَ ذلك الاختراع ، وأنه لا يُجدى نفعا مادام بحالته ، ولهذا سمّاه « الالعوبة الظريفة » . ومن ذلك الحين أكبّ جمس وط على درْس خواصّ البُخار والتفكير فى اختراع آلة خالية من عُيوب الآلة التى اخترعها نُيوكومن

ولكى نعلم كُنْه المهمة التى أخذها جمس وط على عاتقه ونَوْع الجهد الذى وَطّن النفس على بَذْلِه فى هذه السبيل يجدُر بنا أن نَشرَح بالإجمال الطريقة التى بها كانت تتحرك آلة نيوكومن:

كان البخار فى هذه الآلة يخرُج من المِرْجل الى أُسطوانة جَوْفاء محكَمة السَدّ ، داخلها قُرْص ثقيل محكَم التماسّ لجدْرانها ، وهذا القُرْص مُتّصِل من أعلاه بذِراع مَتينة متصلة بالمِضَخّة التى يُراد تحريكها لِرَفْع الماء . فبدُخول البُخار فى الأُسطوانة لا يجد سبيلا للانتشار الا برَفع القُرْص ، فيرتفع هذا حتى يبلُغ أعلى الأُسطوانة ، ولكى يُرَدّ الى أسفل الاسطوانة كان لابُدّ من إزالة ماتحتَه من البخار لأن القُرْص لم يرتفع إلاّ بقُوّته ، ولذلك جُعِل فى أسفل الاسطوانة ثُقبان : يفتح أولهما متى بلَغ القُرص أعلَى الأُسطوانة فيرُشّ ماءً باردا يكثّفُ البخار فيعود ماءً لا يشغَل من الأُسطوانة الاّ حيّزا يسيرا ، ويفتح الثّقْب الآخر فيخرج منه هذا الماء ، فيسقُط القرص ، ثم يُرْفَع وينخفض بالطريقة عينها وهكذا ، فتظَلّ الآلة دائرةً

هذا هو اختراع نيوكومن ، ومن وَصْفه نعلَم مابه من النّقْص العظيم ، وهو تَسخين الاسطوانة وتبريدها فى كل مرّة ، وفى ذلك مافيه

من عُطْل للآلة وإسراف عظيم فى الوَقود : مما يكاد يجعلها عديمةَ الجَدْوَى فأخذ جمس وط على عاتقه تذليل هذه الصعوبة. وهنا نجدُ فى سيرته خير مثال لِصَبْر الأبطال ومُثابرة فحول الرجال ، فلقد قَضَى السنينَ الطِّوالَ ولم يظفَر من بُحوثه بطائل ، وشدّما اعترضته العَقبات من كل جانب ، وضاق عليه الرِّزق ، حتى كاد ينوء بحَمْل نفقة بيته : مما كان يضطره الفينة بعد الفينة الى كف يَده عن العَمَل في اختراعه والانصراف الى كَسْب القوت ، وإن لم يَكف ذِهنه عن التفكير فيه . ولا يتسع لنا المقال أن نأتى على تفصيل ما ابتكره من الوسائل لتلافى نقائص الآلة البخارية ، وإنما نقول بالإيجاز إنه اهتدى بعدَ كل هذا العَناء الى ابتداع طريقة للخلاص من البخار الذى فى أسفل القُرْص بأن يُنفذَه من الاسطوانة الجَوْفاء الى إناء آخر يتكاثف فيه بدون أن تبرُد الأسطوانة

صورة جمس وط مسخر البخار

بذلك أُزيحَتْ أكبر عقبة كادت تَقضى على الآلة البخارية فى مَهْدها. وقد وَالَى جمس وط بَعْدُ جهادَه فى إتقانها وتثقيفها ؛ حتى إنه لم تَحِنْ مَنيّته عام ١٨١٩ م إلاّ وقد صارت الآلة البخارية ينبوع قوة عظيمة لمَعُونة الانسان ، وتنوّعت وجوه تسخيرها فى كثير من الاعمال والصناعات .

ولا يُحْصى أنواع الاصلاح التى أُدْخِلَتْ عليها بَعْدَ وَط ، والّتى ضاعفت قُوّتها ، وزادت من نَفْعها ، ولكن إلى جس وط يرجع الفضل الأكبر فى اقتحام الصِّعاب التى كانت تحول دون بُروزها الى عالَم الظُّهور ، وسيظَلُّ التاريخُ يذكره أبَدَ الدهر بأنه بَطَلُ البخار

وعلى كثرة الوجوه التى اُستخدمت فيها الآلة البخارية على يَدَيْه لم تكن منها القُطر الحديدية ولا السُّفُن البخارية ، وهما الاختراعان اللذان كانا أكبر مظهر لقوة البخار ، واللذان غيَّرَا معالم الحضارة القديمة ، ووصلا الغرب بالشرق ، وجعلا سُكّان الكوكب الأرضىّ وكأنهم أبناء مملكة واحدة ، فإنّ الاختراع الأوّل قام به بطل ثانٍ هو « جُرْج استفنْسَن » وقام بالثانى بَطَل ثالث هو « رُبَرْت فُلتون الإرلندىّ »

أما النابغة « جُرج استفنسن » فإنه نَشَأَ منشأ حقيرا ، فكان والده عاملاً يشتغل بموالاة الآلات البخارية فى المناجم ؛ ولضيق ذات يده لم يستطع إرساله الى المدرسة للتعلّم ؛ فلم يكَدْ جُرْج يبلغ الثامنةَ من عُمره حتى أخذ يشتغل ببعض الأعمال الصغيرة ليكسب شيئاً يُعين به والده فى نفقات المعيشة فجُعِلَ مساعداً لوالده فى المناجم بأجر زهيد بلَغ ١٢ درهما انجليزيا فى الاسبوع ، وهو فى الخامسة عشرة ، ففرِح به فرحا شديداً ، ولفرط ذكائه وعظيم اهتمامه بالتأمل فى الآلات جُعِلَ بعد عامَيْن عاملا قائماً بذاته ، فعُهِدت إليه إدارة آلة بنفسه ، فعُنِىَ جِدَّ العناية بتفهمها حتى صار يقدِر على فكّ أجزائها وتنظيفها وإعادتها بدون مساعدة أحد له

وسمع وقتئذ باختراع « وَط » وأنه سيُخرج للناس آلة أرقى من التى كان هو يديرها ؛ فاهتم بالأمر ، وأخذ يسأل عنه كلَّ حين وتاقت نفسه الى الوقوف على أسراره ، فحالت أُمّيّته دون أُمْنِيّته . فشرع فى التخلص من هذه العاهة ، وذهب الى المدارس الليلية ، وانكب فى أوقات فراغه على الدرس حتى ألمَّ بمبادىء القراءة والكتابة والحساب ، وهو فى العشرين من عمره ، فصار يقرأ بنفسه بعض المباحث التى شُغِفَ بها ؛ وارتقت مداركه فى تأمُّل الآلات التى تقع تحت نظره . ثم انتابت بلادَ الانجليز ضائقةٌ مالية كبيرة على إثْر حُروب نابليون بونابرت ، فقلت الأرزاق ، وضاقت دائرة العمل ، وانحطت اجور العُمَّال . فتضعضعت حال جُرْج استيفنسن ، فكان يتفصَّى (١) من هذا الضيق بأعمال أُخرى كاصلاح ساعات زملائه وخيْط ملابسهم وخَصْف نعالهم

وحدَث أنْ كان بالقرب من مَقَرّ عمله مَنْجم فيه آلة بخارية لِنَزْح المياه السَّاربة من جُدُره ، فلم تُؤَدِّ هذا العمل على الوجه المطلوب ؛ حتى كادَ المنجم ينغمر بالماء ، وحار فيها كبار الآليين ؛ الى أن استُدعِى جُرْج لفحصها ، ففكّ أجزاءها وأعاد تنظيمها وأدارها ، فجفّ المنجم من الماء فى أربع وعشرين ساعة . ومن ثَمّ اشتَهَر أمرهُ ، وعظمت مَكانته

وكان الناس فى ذلك الوقت قد أخذُوا يفكّرون فى تسخير البخار فى جرّ الاثقال على الأرض ، وكانوا يستخدمون لذلك خَيْلاً تجُرّ عَجَلات تجرِى على قُضبان من خشب مُنْذُ القرن السادس عشر ثم استُبدِلَ بها

(١) يتخلص

قضبان من حديد أواخر القرن الثامن عشر ؛ فاخترع أحدهم قاطرة جافية تجرى بمساعدة فرس يجرّ بعض عجل الفحم ببطء شديد . فكان فشلها أمراً محتوماً . فانتبه جُرْج لهذا الأمر ، وأخذ يضع نموذجا بعد آخر ، ولا يحظى بنتيجة : وحاول غيرُه فعله فأخفقوا فيه ، ونبذوه وراءهم ظِهْرِيًّا ؛ غير أن جُرْج لم يكن مثلهم خائر العزيمة ، بل ادَّرع الصبرَ والمثابرة ، ولم يدع لليأس عليه سبيلا ، مُوقِناً أنه ما دام باذلا جهده وشاحِذاً ذِهْنه فيما قَصد إليه فانه لا محالة بالغُه إن عاجلا وإن آجلا ، كما قيل فى المثل : « مَعَ الخواطئ سَهْمٌ صائب » . فما زال يدأب ويزداد كل يوم من خطئه وخطإ غيره علما وتبصرة حتى وُفِّق إلى صُنْع قاطرة ظهر بها عام ١٨٢٥ م فى مجمع حافل تجرّ وراءها قطاراً طويلا ليقطع أوّل خط حديدى بين قريتى « استكتن » و« دَرْلنجتن » بانجلترة ، والاولى مركز صناعىّ عظيم ، والثانية مركز مناجم فحم وفيرة الغلة . وكان يسيرُ أمامها فارس يفسح لها الطريق ، ولم يكن ليتظنّى أنّ القاطرة الحديدية الجديدة تلحق جوادَه ؛ فاستراثَ جُرْج استيفنسن جرْيتَه وأعجله بإطلاق البخار ، فخرج الفارس من طريق القطار مذعوراً ، وانطلق القطار بسرعة ادهشت الحاضرين ؛ على انها لم تزِدْ يومئذ على خمسةَ عشر ميلاً فى الساعة

وفى سنة ١٨٣٠ م أخرج استيفنسن للعالَم قاطرة محسَّنة ليقطع بها خطاً أُنشِئَ بين مدينتى مَنْشستر ولِفرْپول جرّتْ وراءها قطاراً طويلا من العجلات بسرعة ٢٤ ميلا فى الساعة . فكانت الفاصلة الكبرَى فى

صورة اول قطار بخارى بين استكتن ود لنجتن

أمر القُطر البخارية . وانصرف العلماء والمخترعون الى تحسينها وتهذيبها ، حتى كان من شأن سُرْعتها المدهشة ما نراه اليوم

وكانت القواطر قبل الإتقان الحالى طويلة المداخن قصيرة امتداد الأجرام لاحداث تيّار من الهواء يُشعِل الفحم ويجْذِب دُخانه الى أعلى المدخنة ، فاستعاضوا من طُول المدخنة بطول جِرْم القاطرة ، حيث حشَوْها بمِئات من الأنابيب مغمورة فى الماء والبخار ، ويَنْدفِع منها اللَّهَب والدُّخان إلى المدخنة بتيار الهواء حيث يُلاقيه في مقدم القاطرة البخار الرَّجِيع ، فيقوى التيار بما يحدثه من تفريغ الهواء

وأما النابغة « روبرت فلتون » الارلندىّ — أوّل من فاز فى تحقيق الملاحة البخارية فَوْزا عظيما وأخرج للناس قاربا بخاريا نافعا — فإنهُ ولِدَ بأمريكا من أسرة إرلندية فقيرة . فلم يحظَ فى صغره من التعلم الا بقدر

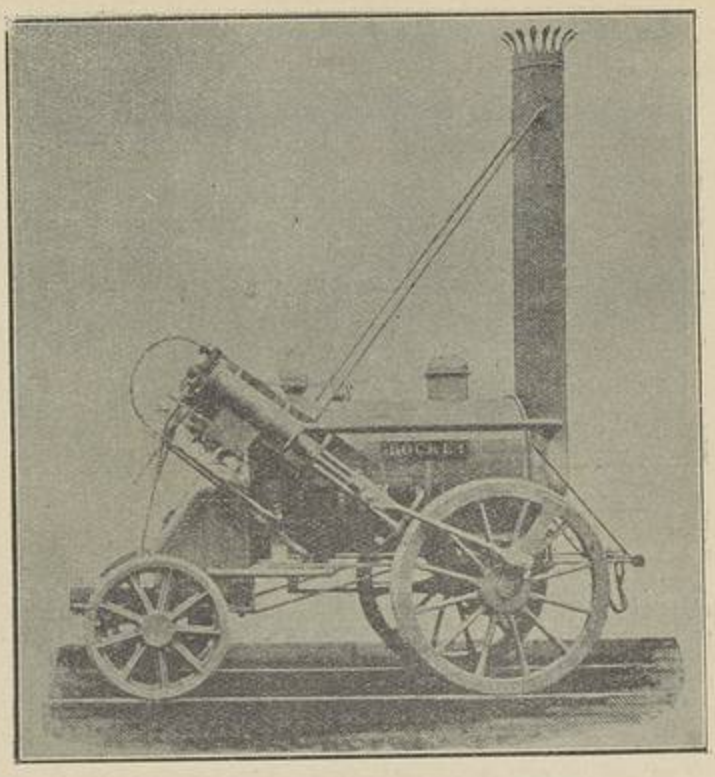

صورة قاطرة الخط الذى مد بين منشستر ولفربول

يسير ، وبعد أن تقلب فى عدة حرف رحل الى انجلترة فى الثانية والعشرين من عمره حيث انصرف الى الأعمال الهندسية

وفى سنة ١٧٩٧ م ذهب الى باريس وتفرغ فيها لفحص تذليل الملاحة بالبخار ، فأخرج فى سنة ١٨٠٣ م زورقا بخاريا صغيرا جرى به فى نهر السين بحال تبشر بالنجاح وبحسن المستقبل

ثم عاد « فلتون » الى أمريكا ، وتابع فيها درس الملاحة البخارية الى أن أخرج فى سنة ١٨٠٧ م سفينة جابت الشقة بين « نيويرك »

و « ألبنى » وقدرها ١٥٠ ميلا فى ٣٢ ساعة ؛ فكان شوطها هذا باكورة النجاح الحقيقىّ فى الملاحة البخارية بل فى ترقية الأساطيل الحربية

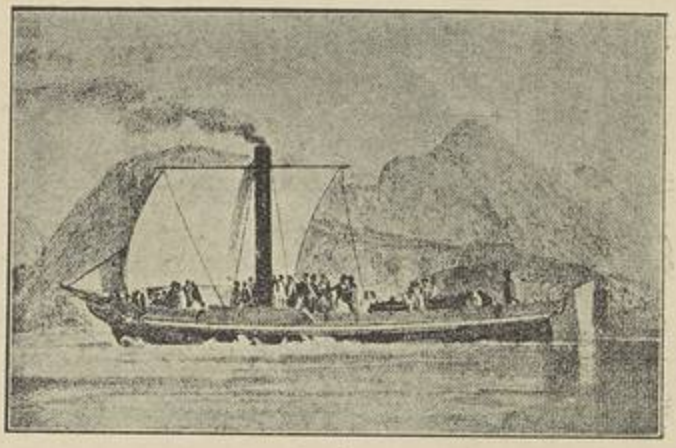

صورة أول سفينة بخارية

هذا فعل بخار الماء العجيب جبّار القرن الماضى ، ولكن للمخترعات أعماراً كأعمار الأحياء . فقد أخذ بخار النفط ينقصه جبروته ، فأجزأ عنه فى كثير من الآلات ، ثم لا يلبث أن يتظاهر هو والكهربائيّة التى يستولدها على الإجهاز عليه ، فيصبح نسيا منسيا أو قصصا تاريخيا ، ثم يخلف هذين غيرهما . ولا يعلم الا الله ماذا يظهر على يد الانسان من بدائع الاكوان

رسالة وداع للمؤلف

على لسان مدرسى مدرسة يودعون بها ناظراً استقال وزارة المعارف، ويأسفون على فراقه، ويهدون اليه صورهم مصورا معهم:

ياحضرة المُرَبّى العظيم

كثيرٌ من النّاس مَن ينبهُ شأنه بَيْن قومه، ويسير اسمُه فى أُمته: بفَضْل مِن مال، أو أثارة مِن علْم، أو نسبة الى ذِى شرف، أو توْفيق أقدار لأقدار؛ ولكنّ قليلا من يَشيد لصَرْحها رُكنا، ويُعلى لِشرفها مَنارا. فبينا الأوّل يذهَب كأنه مَا كان، ويتلَمَّأُ[1] عليه النِّسْيان، ويتجاهله الزمان، إذا بالثانى خالدُ الاسم، ثابت الأثر؛ باقى الكرامة، وإن توَغَّلَ به القِدَم؛ وتناءَت به الدُّهور

وكثيرٌ من الناس مَن يقتعِد غوارب الولاية، ويفترع مناصب الدُّولة، ويَتبَنَّكُ[2] فى دُسُوت الرِّياسة، ويتفوَّق[3] أخلاف[4] الوظائف؛ ولكنّ قليلا منهم من يعمَل عمَلا يعدِل المبذول له فيه، أو يكون فى العمَل والخُلق قُدْوة حَسَنة لمرءوسيه. فبينا نَرَى الأوّل فى الرُّفقة لَيْس بمُطْمأَنٍّ إليه، وفى الفُرْقة غَيْر مأسوف عليه، إذْ نَرَى الثانى تَتَهالَكُ فى وَلائه النُّفوس، وتتنافس فى محبَّته القلوب، ويُفْسِح التاريخ لأعماله صَدْراً رَحيبا؛ ويُجَدِّد له كلّ يَوْم مَجْدا قَشيبا[5]. أولئك هم

---

(١) يواريه وينضم عليه ويخفيه (٢) يتمكن (٣) يرضع فواقا بعد فواق: اى مصة بعد مصة (٤) جمع خلف (كبئر): وهو من ذوات الضرع كالثدى للانسان او هو حلمة الضرع (٥) جديدا

افذاذ (١) العالَم ، ودُروع الأُمم ، وحُماة الحقّ

وأنتَ أيها المُرَبِّى الكبير مِمَّن أكمل الله له المَزِيَّتين ، وخَصَّه بكلْتا الحُسْنَيَيْن ؛ فأَنْشأَك من دَوْحة طاهرة ، ووهب لك حياة طيّبة مملوءة علما نافعا وعَمَلا صالحا

فلَئِنْ نَبُلَ قدرُك فى أُمّتك ، وبَعُد صيتك فى عَشِيرتك ، لقد كان ذلك لِجهاد طويل فى نُصْرتها ، ودَأب عظيم فى خدْمَتِها ، وشُغْل شاغل بتَرْفية لغتها وتربية نَشْئِها . فبالْحَقِّ أن تجعلك دُرَّةً فى تاجها ، وبالحرَى أن يُدَوِّن التاريخ سيرتك حَلْقَة من سلسلة رُقِيِّها ؛ وبالعَدْل ان يَعُدَّك فى الرَّعيل (٢) الأوّل مِن مُصلِحيها . وذلك أيسر ما يُكافأ به العاملون ، ويعامَل به المخلصون

ولَئِنْ تقلَّدتَ النَّظَر فى شُؤون مَدْرَستِنا أُمِّك الرَّءوم ومَدْرَج فضْلك المَعْلوم ، إنك رَعَيْتَها رَعْىَ الأَبن البارّ ، وصحِبْتَ جِيرَتَها صُحْبة الأبرار الأخيار ؛ فكنت فيها كلّ شىء ، وما غفَلْتَ عن أىّ شَىْء وكنت لِمُدَرِّسيها وعُمّالها رئيساً كريما ، وصديقا حميما ولطلبتها أبا رحيما ومرشداً حكيما

فاذا أسِفْنا على فائت فإنما هو ماضى صُحْبتك لنا ، أو تلهَّفْنا على مَوْدُود فليس إلا رياستك القصيرة الأجل فينا ، على الرَّغم مِن إمكانك إطالتَها ؛ وتسويغَنا حلاوتَها ، ولكنّها نفسُك الأبيّة أبت إلاّ أن تخدُم أُمّتَك ولُغتَك فى مَجال أبعد مَدًى ، ومُستَوًى أطلَق حُدودا ورُسُوما .

(١) جمع فذ : اى فرد (٢) طائفة الخيل المتقدمة

فكرمتَ ماضياً ومستقبلا، وطِبْتَ مُتَصَرَّفا ومستقيلا

وإنَّ اهْوِن مايُثْلج (١) صَدْرك، ويُرْضيك عن نفسك أَنْ تنظر وراءَك إلى نِصف قَرْن قَضَيْتَه بين المَحابر والدَّفاتر، والإفادة والاستفادة؛ فلم تُعرَف لك فيه زَلَّة، ولم تؤخَذ عليك نَقيصة. وكان كلُّ أَعمالك فيه خياراً مِن خِيار

هذا وإنَّ مَدرستنا التى عَرَفَتْ منك قديما طالبا فَهِما، ومُدَرِّسا حَليما، ومفتِّشا عَليما، وناظرا حَكيما؛ تَتقدَّم إليك اليومَ فى أَشخاصنا لِتودِّعَ منك رَئيساً مفارقا بالجُثمان (٢)، ماثلاً فى الجَنان. وتُقدِّم إليك صُورَنا معك رَمْزاً لاتحادنا فى الأَشباح، كما اتحدنا فى الأرواح

والله تعالى يجعلُ حياتك مُباركة طيِّبة، وينفَع العِلْم والأَدَب بمستقبلها، كما نفَع بماضيها. والسَّلام عليك ورحمة الله ؟

الكرْم

الكرْم من أسهل الاشجار غَرْسا، وأبكَرها ثَمَرة، وأكثرها غَلَّة، وأطيبها أُكلاً

وهو من أقدَم الفاكهة التى عُنِىَ بغَرْسها الإنسان، ورافقتهُ فى كل مَكان

والمُرجّح أن مَهده القديم سُهول آسيا المعتدِلة الحرّ وسُفوح جبالها. ومنها نُقِل الى بلادالعرب ومِصْرَ، فكان من أكرَم ثمارها.

(١) أى يريح بالك ويجعل قلبك مطمئنا (٢) بالشخص والعيان

ونقله الفينيقيون الى عامّة سواحل بحر الروم ؛ فطاب بها مُقامه ، وتميّزتْ أنواعه

ويجود الكَرْم فى أكثر الأرَضين من المِنْطَقَتَيْنِ المعتدِلَتَيْن وخاصّة مُنحَدِر السهول وسُفوح الجبال التي ليست عُرْضة لمهابّ الرياح الباردة ، ولو كانت قليلة الخِصْب . وأكثرها مُلاءمة له الخفيفة الممتزجة الطُّفال بالحَصَى والرِّمل ، أمّا الطِّينيَّة العالِكة النَّدِية وأبرّة الاودية فإنّ مُلوكها وطولَ احتباس الرطوبة فيها يعوقان انسياب الجُدُور ، ويُفْضيان الى تَعَفُّنها . ورُبّما استُنْبِتَت الكروم في البقاع المرتفِعة من المنطقة المُحترقة : كبلاد الحَبَشة واليَمَن فيكون أكُلُها دائماً ، وظلها وارِفا ، وأوراقها نَضِرة متجدِدةً طولَ السنة

وتُستَنْبَتُ الكَرْمة :

إمّا بطريقة بَذْر الحَبَّة (١) ، فلا تُؤْتى أُكُلَها إلاّ بَعْدَ ثمانى سنين ، وقلّما تشاكه (٢) أصلها ؛ فَطَوْراً تفوقهُ وطوْراً ترذُل عنه ؛ فنَدَر بذلك اتّباع هذه الطريقة

وإمّا بطريقة افتسال القُضْبان ، وهي التى تُعْجِب الزُّرّاع فى كلّ البقاع

فاذا أرادوا إنْشاء حائط كَرْم فان كانت الأرض بكْراً لم تُزْرَع بَعْدُ مُهِّدتْ وحُرِثتْ جميعها حَرْثا غائراً مَرَّةً أومرتين ، وإلاّ أجزأ حَرْثها

(١) الحبة تشدد الباء وتخفف (٢) تشابه

سربا (١)، وشُقَّتْ فُقُراً (٢) فى عَرْضِ شبرين، وقُمَّتْ بِرَكايا متناسقة البُعْدِ ممتزجة تربتها بيسير من السِّرجين. فإذا حان الغِراس، وهو فى بلادنا أوائل شهر أمشير انتُقِىَ من بَيْنِ شُكُر (٣) الكَرْم ونَواميه (٤) المستغلظة أجودُها وأنضجها، ويُفَضَّل ما أثمر منها فى سنته الفارطة، ويُجَزَّأُ قُضْبانا فى طُول شبرَين او ثلاثة: ويُحْمَد منها النوامى التى لها عَقِب أي متصلة من اسفلها بأُنبوبة من الشَّكير الذى نجمت منه، وإلا يتيسَّرْ ذلك حُنِى من العُود نحو ثلثه حنْواً رفيقاً، وكُبِسَ هو والثُّلث الاوسط بالتراب المخلوط بالسرجين، وتُرِك الثلث الأخير ناتئاً على وَجه الارض بحيثُ تَظْهَر منه عَيْن أو عينان، وتُغْرَس فى كلّ ركيَّة فَسْلتان أو ثلاث، حتى اذا يَبِستْ فَسلَة أورَقت فَسْلَة، وهكذا؛ حتى تَنْتَهِى الغراس. ثم يُجْرَى الماء فى الفُقُر ثم تتعَهَّد الغِراس بالسَّقْى ونَكْت الرَّكايا نكْتاً خفيفاً؛ فاذا حان إيراق الكَرْم نَبَتَتْ معها أو بَعيْدَها. واذا أَتَتْ على الغرْسة سنةٌ حُطِبَتْ نواميها الدقيقة، وتُرِكَ منها نامية مَحْطوبة الرأْس او ناميتان

وقد يُغرَس الفَسْل فى مَنْشَإٍ (٥) مُتَقارِبا بعضُه مِن بعض فاذا

(١) جمع سربة: الطريقة والصف من الغراس (٢) جمع فقير وهو ما يحفر كالقناة ليجرى فيه الماء الى أصول الشجر، ويجعل فى الفقير لكل غرسة ركية تحبس بعض الماء (٣) جمع شكير وهو الفرع الطويل الذى تمتد به وبا مثاله الكرمة (٤) جمع نامية وهي الشعب التي تنجم من عيون الشكير وتحمل العناقيد (٥) هو المكان الذي تستنبت فيه القضبان فاذا اورقت نقلت الى المكان المعد لأن يكون حائطا. والمنشأ هو المسمى عند عامة البستانيين (بالمشتل)

أورقتْ واَنشعبت نواميها حُطِبَتْ مِن قابِلٍ ، ونُقِلتْ النَّشَايا الى رَكايَا مُتَناسقة على سُرْبة واحدة ، ونصِبَ بجانب كلّ نَشِيئَة شَحْطة لِتعلَق بها عِطَفها (١) وحَوالقها (٢) وسُروعها (٣) ، فإذا استطالتْ شُكُرها نصِبَ لها زوافر (٤) أوعُرُش

وقد تُنشَأُ الحوائط مِن العَكائس . والعَكيسة أن يُعْكَس شكير ناضج ممّا ينبت فى أصل الكرم ، ويُطْمَر منه نحو ثلاث أنابيب أو أربع زمَنَ الغراس ، فتَنْبُت لها جُذُور وتُجْتَثّ (٥) من قابِل ؛ فتكون أبْكَرَ إثْماراً من النَّشايا والأَغْراس

وتقليم الكروم يُشَكّلها بالأَشكال التى تُراد منها ، فإذا أرادها الغارس قصيرة غَرَسها غِراساً متقاربة ، ثم أنْحَى عليها بالإجمام (٦) عاماً بعد عام ، وذلك هو الكَرْم الأَرْضىّ ، وهو أقلُّ الكروم نفقة وإن لم يكن أكثرها ثَمرة ؛ ولكنه قد يفضُل الكرومَ المعْروشة فى بعض البِقاع

وإذا أرادَها متوسطة الطُّول حطَبها حَطْبا قَصْداً وربَطها على زوافر ؛ وإلاّ عرَّش لها عُرُشا : بان يُنْصَب لها دِجْران (٧) وزوافر ، وتعرَض عليها دِعَم طُولا وعَرْضا فوقَها شُبُأَكة من قَصَب أو جريد ذات تفاريج تتدلّى منها العناقيد

---

(١) جمع عطفة (كقربة) : خيط الكرم الذي يعلق به على العريش ويلتوى على قضبانه (٢) جمع حالق وهو العطفة (٣) جمع سرع (كشمس وبئر) : الغصن الغض (٤) قوائم العريش (٥) تنزع بجذورها (٦) وهو قطع شعب الكرمة من فوق الارض (٧) جمع دجرانة وهي القائمة للعريش ايضا

وأول إيراق الكرمة وإثمارها أن تنتفخ عيون الشكير، ثم تنفطر فُطْرا مُزْغِبا (١) ثم تصير زَمَعات مُكْمِحة (٢) بالأوراق والعناقيد

وأول مايتميز من حب العنقود ويكون مثل رءوس الذَّرّ يُسَمَّى بَرَما، ثم حَثَرا، ثم يتفطَّر الحَثَر عن نَوْر ينتفض عن حَبّ مُنْعقِد يُسمى نَفَضا، فإذا أهبر وصار له شحمة وعجمة سُمى هُبْرا وغَضًّا وحِصْرما، ثم يُرِق (٣) مُلاحيّه ويلين، ويُوشم (٤) غِرْبيبُه ويتشكّل، ثم يُقطِف (٥) ويصير ثَمَراً يَنِيعاً، فإمّا أن يُقطَف فيؤكل عِنَبا غَرِيضاً، أو يُغادَر ضَمِيراً (٦) حتى يجُفّف زَبيباً. فتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين

وما بَقِيَ بعد قِطاف العنب من العُنَيْقيدات ها هنا وها هنا يسمى خُصاصة

وقد يُثمر الكَرْم مَرّة أُخرى فى العام بعض عُنَيْقيدات تنضج في الشتاء، وتسمى خِلْفَة ولَحقاً

وقلّما تطول الحجَن النَّوامى التى تُثمِر العناقيد ويطول غيرها من الشكُر، ويُغلى (٧) وَرَقه، فإذا أضرّت بالعناقيد لاستنفادها ماءَ الكرمة غُمِلَتْ (٨) مَرّةً أو مَرّتَيْنِ. وإذا غُمِلَ الكرم طُبِخَ ورقه المسمى

(١) أي له زغب كالقطن (٢) الزمعات النواتيء من عيون العنب تخرج بالورق والعناقيد. والاكماح تهيؤها للايراق (٣) يلين ويشف. ولا يكون الا في الملاحى، وهو الأبيض وتخفف لامه وتشدد (٤) يتلون قليلا
(٥) يحين قطافه (٦) العنب اذا تقبض وتهيأ لأن يكون زبيباً
(٧) أغلى ورق العنب كثر (٨) الغمل تخفيف الورق عن العناقيد وتنضيد العناقيد بحيث تصل اليها الشمس. وهو أيضاً تخفيف الحصرم لتجود بقية العناقيد

خُلْبا وغَلْفَقاً لفائفَ للحَشايا فيكسبها حُموضة لذيذة

واذا استحطب [١] الكَرْم وذلك أول الشتاء حُطِبَتْ أطراف الشُّكُر، واستُبْقِيَ منها ما أستغلظ لتنجُم من عيونه نوام من قابل، وحُطِبَتْ النوامى القصيرة حتى لا يبقى منها الا ثلاث أنابيب أو أربع. ويُحمَد أن يكون المِحْطب سِكِّيناً مُعَقَّفة لا مِقَصًّا. ولا ينزع القِرْف [٢] من الشكر والجَفْنِ [٣] بل يُتْرَك حتى يسقط بنفسه

وأصناف العنب كثيرَة جداً تختلِف طَعْما ولوْنا وشكلا. ويُسمّى الأبيض منها مُلاَحِيًّا

ومن أشهر أصنافه:

(١) الجُرَشيّ — وهو ابيض صغير يكون أبْكَر العِنَب إدْراكا

(٢) الاقْماعيّ العَرَبيّ — وهو أبيض عظيم الحَب كثير الماء

(٣) الاقْماعي الفارسيّ — وهو أبيض عظيم الحبّ جداً كثير الشحم

(٤) الشَّوْكيّ — وهو أبيض قليل الماء ينشقّ حبه على شجره

(٥) الزَّعْناء — وحبها أبيض طويل

(٦) الرّازقي — وهو أبيض طويل داخله زرْقة

(٧) الضُّروع — وعناقيدها بيضاء كبار، أطول العِنب حَبًّا وأقله حبَة

---

(١) حان تقليمه (٢) القشر الذى يكون كالخيوط والشرائط على اغصان العنب وسوقه عند ما تغلظ ويتشقق لحاؤها (٣) أصل الكرمة ويطلق على الكرمة نفسها

(٨) النُّواسيّ — أبيض مُدَوّر الحبّ متسلسل العناقيد كانه أذناب الثعالب

(٩) حبلة عَمْرو — بيضاء محدّدة الاطراف

(١٠) البَيْضة — بيضاء عظيمة الحبّ

(١١) أطراف العذارى — أبيض كالضُّروع طويل الحب رقيقه وهو أجود العنب

(١٢) الشآميّ — ابيض فاذا ينع احمارّ

(١٣) أُمّ حبيب — سوداء زرقاء تضخُم عناقيدها ويعظم حبها

(١٤) الرماديّ — أسود أغبر

(١٥) عيون البقر — أسود ليس بالحالك عظيم الحب مُدَحْرَج يكون زبيباً وليس بصادق الحلاوة

(١٦) الدوالىّ — اسود يضرب الى حمرة، أعظم العنب عُنقوداً، ويبلغ عنقوده ذراعا، وعنبه جاف يتكسر فى الفم. ويصير زبيباً

(١٧) الغريب — أشدّ العنب سواداً وأرقه وأجوده

(١٨) الجَوْزة — ليس بعظيم ولكنه اذا ينَع اصفرّ جداً

(١٩) الحُمْنان — وهو اصغر العنب حباً، ويندُر أن يكون فيه عَجَم، ومنه الاسود والابيض، ويسمى الكِشْمِش أيضاً

ولا يصلح كلّ العنب لان يصير زَبيباً، وإنما يصلح منه القليل الماء المنعقِد الشّحْم الغليظ النَّطْل [1]. فإذا أُرِيدَ جَعْله زبيبا لُوِيَت

(١) النطل : قشر حب العنب

مقاطف [1] العناقيد على شجرها ليقلّ الماء الوارد اليها من الشجرة ، وأُزيل ما حوْلها من الغَلْفَق حتى تنكشف لحرّ الشمس ، فيتقبّض الحبُّ ويكون ضميراً ثم تقطف العناقيد ، ويُنزع من حبها ما كان تالفاً ، ثم تُعَرّض لحرّ الشمس يَوْما ، وفى اليوم الثانى يُؤْتى بماء قد حُلّ فيه رَمادٌ من حطب العنب أو أي محلول قَلَوِىّ وصُفِّى ، وجُعل فى قِدْر على نار ، ومعه بعض النبات العطرى . فعند مايأخذ فى الغليان تُغْمَر فيه العناقيد ثلاث مرّات ، ثم تجفّف نهاراً فى الشمس ، وتحْجَب عن الطلّ ليلا فى الحُجَر ، وتقلّب مُدّة أربعة أيام ، فتصير زَبيباً ، فيضرَب بعَصا ضَرْباً رفيقا حتى يخرُج من ثَفاريقه [2] ، ويُغَرْبل ليَتَميّز عُنْجُده [3] ثم يحفَظ

ومن العنب مايعصَر وهو رَطب فيخمر ، أو يُطْبخ على النار حتى يذهب ماؤه مُجْملة ، ويغلظ قِوامه ، ويصير دِبْسا ورُبّا ، فينوب عن العسل فى أكثر الاحوال

(١) جمع مقطف (بكسر الميم) عنق العنقود (٢) جمع ثفروق بضم الثاء وهو قمع الحبة ، ويطلق أيضاً على عرجون العنقود (٣) العنجد أردأ الزبيب وحشفه

مقطعات شعرية

فى العتاب

قال البُحْتُرى :

وأصيْدَ [١] ان نازعتُه اللّحظَ ردّه كليلاً ، وإن راجعتُه القول جَمْجما [٢]

ثناهُ العِدَا عَنّى فأصبح مُعرِضا وأوْهَمَه الواشون حتى توَهّما

وقد كان سَهْلا واضحا ، فتوعّرتْ رُباه ، وطَلْقا ضاحكا ، فتجهّما

أُمتخذٌ عندى الإساءةَ مُحْسن ومنتقم منى امرُؤ كان مُنعِما

ومُكتَسِب فىّ الملامةَ ماجدٌ يرى الحَمْدَ غُنْما والملامة مَغْرَما

يُخوّفنى من سوء رأيك مَعْشَر ولا خَوْفَ إلاّ أن تجورَ وتَظلِما

أعيذُكَ أن أخشاكَ من غير حادث تَبيّنَ ، أو جُرْمٍ اليك تقدّما

وقال ابن رشيق القَيْرَوانى [٣] :

وقد كنتُ لا آتى اليك مُخَاتلاً لدَيْك ، ولا أُثْنى عليك تَصَنُّعا

ولكنْ رأيتُ المَدْحَ فيك فريضة علىّ اذا كان المديحُ تطوُّعا

فقمتُ بما لم يَخْفَ عنك مَكانُهُ من القول حتّى ضاق مما توسّعا

ولو غيرُك المَوْسومُ عندى بريبة لأعطيتُ فيه مُدعّى القوم ما ادّعى

فلا تتخالجْك الظنون فإنها مآثمُ ، واتركْ للصّنيعة مَوضعا

---

(١) الاصيد الملك (٢) أى لم يبين كلامه واخفاه فى صدره

(٣) هو الكاتب الشاعر المؤلف أبو على الحسن بن رشيق توفى سنة ٤٦٣ هـ

فو الله ما طوّلتُ باللوم فيكمُ ... لساناً، ولا عرّضتُ للذّم مسمعا
ولا ملتُ عنكم بالوِدادولا انطوتْ ... حِبالى، ولا وَلّى ثنائى مُودِّعا
بلى ربّما أكرمتُ نفسى فلم تهُن ... وأجْلَلْتُها عن أن تَذِل وتخضعا
فباينتُ لا أنّ العداوةَ باينتْ ... وقاطعتُ لا أنّ الوَفاء تقطّعا
ألوذُ بأكناف الرّجاء، وأتّقى ... سِهامَ العِدا إن لم أجِدْ فيك مَطْمَعا

وقال المتنبّى[1]:

يا أعدَلَ الناس الا فى مُعامَلتى ... فيك الخِصام وأنت الخصْم والحَكَم
أُعيذُها نَظَراتٍ منك صادقةً ... أن تحسب الشّحْمَ فيمن شَحْمُه وَرَم
وما انتفاعُ أخى الدُّنيا بناظِره ... اذا استوتْ عِنده الانوارُ والظُّلَم
يا مَن يعزّ علينا أن نفارقهم ... وِجْدانُنا كلَّ شىء بعدَكم عَدَم
ما كان أخلَقنا منكم بتكرِمة ... لو أنّ أمرَكم مِن أمرنا أمَمُ[2]
ان كان سَرَّكمُ ما قال حاسدنا ... فما لُجرْح اذا أرضاكمُ ألَم
وبيننا لَوْ رعيْتُمْ ذاكَ معرفة ... انّ المعارف فى أهل النُّهى ذِمَم
كم تطلُبون لنا عَيْبا فيعجزُكم ... ويكرهُ الله ما تأتُون والكرَم
اذا ترحلتَ عن قوْم وقد قدروا ... ألاّ تُفارِقهم فالراحلون همُ

---

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر الحكيم الطائر الصيت المتوفى سنة ٣٥٤ هـ (٢) أى قريب بالمودّة والمصافاة

مدينة القدس

هى ثالثة مَدينة مباركة عند المسلمين ، وأعظم المُدُن المقدسة عند اليهود والنصارى . وممّا ستقرؤه تعرِف سبب تعظيم الملل الثلاث لها

وهى قائمة على أربع هِضَاب فى الطرَف الشمالىّ الغربى من البحر الميّت فى البقاع الجبلية من جنوبىّ فِلَسْطين ، وليس حَوالَيها سهول زراعية واسعة بل وديان ضيقة أوسفوح جبال تحرَث بالأيدى لا بالدواب. وبها أسواق كثيرة وعِمارات حسنة وصَوامع وبِيَع وصَلَوات صغيرة وكبيرة . وأجدّ مَبانيها ما أنشأه جالية اليهود والأوربيين فى السنين الأخيرة

أما بناؤها القديم فأشبه شىء بنظائره فى القاهرة حتى أسواقها ؛ فهى ضيقة معروشة كخان الخليلى والفحامين ونحوهما

ومعيشة أهلها من التجارة مع القرى المجاورة لها ومن غلاّت الحبُوس الموقوفة على معابدها ومما ينفقه زوار النصارى واليهود اثناء مقامهم بها

وتسمَّى القدس الشريف وأُورِيشَلِم وإيلِيا

ويقطنها كثير من اليهود والنصارى . وجملة سكانها نحو ثمانين الف نسمة

وتسقَى المدينة وما حَوْلها مِياهَ الامطار حيثُ تتجمع فى صهاريج متقنة الصنع قلما تخلو منها دار أو معبد ، وبعض العيون والآبار

وهى جيدة الهواء متوسطة الحرّ والبرد

ويشغل المسجد الأقصى منها الطرف الجنوبىّ الشرقىّ ، وتقوم كنيسة القيامة فى وسطها

وأعظم أسباب عمرانها يرجع الى حصانتها وتقديس كثير من أماكنها

وهى من المدُن القديمة التى لا يُعْلَم باليقين مَبْدأ عمارتها ، وإن أقدم مايعرف من أمرها أنها ذكرت فى مخاطبات تلّ العمارنة المشهورة فى القرن الخامس عشَر قبل الميلاد باسم « يورِيشلم » أى (دار السلام)

وكانت إذ ذاك في قبضة المصريين ، ثم استقل بها أهلها من الكنعانيين المعروفين بالجبّارين واليبوسيين ، ودفعوا عنها بنى إسرائيل عند خروجهم من مصر ، ثم غلَبهم بنو إسرائيل عليها زمنَ نبى الله داود عليه السلام ؛ فاتخذها حاضرة لملكه وجدّدها ، وبنى لها سورا وقلعة حوالى سنة ١٠٠٠ ق م ، ثم خلفه ابنه سليمان عليه السلام ، فزاد فى تحصين أسوارها وقلاعها ، وبنى مسجده المعروف بهيكل سليمان على الصخرة المقدسة ، وبذل فى بنائه كلّ مقدور فى دولته من مال وصنعة ، ووصفته التوراة وصفا مفصلا ليس وراءه مزيد ؛ فكان أقدس مكان عبادة لليهود . ثم بنى بها قصراً عظيما اتخذ فيه صَرْحا مُمَرَّداً من قوارير [1] كان من أبدع ما بلغته الصناعة والاتقان في ذلك الزمان ، ولاجَرَم ؛ فقد بلغتْ دولة إسرائيل فى عصره أَوْج عظَمتها

(١) رواية ابن خلدون وغيره أن الصرح الممرد كان فى القدس ، وقال آخرون غير ذلك .

ثم انتابتها الثورات بعد موته، فاضمحلت المملكة والمدينة، فسقطت في أيدى المصريين ثم العمالقة من العرب والأمم الفلسطينية. ثم استرجعها اليهود. وحاصرهم الاشوريون يقودهم ملكهم سنحاريب ثم انصرفوا؛ ولكن البابليين بقيادة بُختنصَّر استولوا عليها من سنة ٥٩٧ الى سنة ٥٨٦ ق. م وخرّبوها، وسبَوْا معظم أهلها الى بابل، فأقاموا فيها أكثر من نصف قرن، ثم أعادهم قِيرُش ملك الفرس اليها، فعمروها وبنَوْا المسجد. ثم دخلت فى فتوح الاسكندر وتوارثها خلفاؤه من البطالسة المصريين ثم السيلُوقيين السوريين، فساموا اليهودَ الخسفَ، فثاروا عليهم مِرارا انتهت بتدخّل الرومان، فاكتسحوا البلاد بقيادة بمبيوس فخرّب المدينة وعبثَ بأماكنها المقدّسة عبثا شنيعاً، الا أن الرومان نصبوا هيرودس عليها واليا، وكان ينتمى اليه اليهودُ بالصِّهر فلَم شعَثَهم، وجدّد بعض ماخُرِّبَ، وبنى المعبدَ للمرّة الثالثة، ثم خلَفه مَن غالى في اضطهاد اليهود، فخرجوا على الرومان خروجا عاما أفضى الى فتك الروم بهم وتخريب مدينتهم وهيكلهم زمن العاهل طيطوس سنة ٧٠ م. ثم ثاروا ثورة أخرى أخمدت بالعنف حتى جدّدها العاهل هدريان وسماها (إيليا) وطرد اليهود منها، وبنى على الصخرة معبداً للمشترى. وبقيت تحت سلطة الرومان حتى ظهر المسيح فيها. ثم انتشرت الديانات المسيحية فى الارض، وتنصّر عَواهل الرومان، فبنوْا فى وسط المدينة سنة ٣٣٣م كنيسة على مكان قالوا: ان المسيح صُلب ودفن فيه. ويُسمَّى بكنيسة القيامة، وصار لكلّ أهل مذهب من مذاهب المسيحية حِصّة في هذه

الكنيسة يقوم رئيسهم الدينى فيها ، فهى بذلك أقدس مكان للنصرانية ثم انتزعها الفرس الساسانيّون من يد الرومان قُبَيْل الاسلام سنة ٦١٤ م وهدموا معابدها . ثم عادت للروم ، ولكنها لم تلبَثْ أن فتحها المسلمون سنة ٦٣٧ م وسنة ١٧ هـ بعد حصار طويل

وذلك أن عمرو بن العاص قدِم فلسطين فافتتح كثيراً من بلادها ، وحاصر بيت المقدس ، فامتنع عليه الى أن قدِم عليه ابو عبيدة . فحاصره معه ، وتحدّث مع صاحب المدينة فى الصلح ، فقبِل على أن يكون المتولى له الخليفة بنفسه . فبعث أبو عبيدة الى عمر بالخبر ، فجاء الشام ، وعقد معهم عهداً كان أساس عهود الذِّمة التى عقدها الفاتحون فى الاسلام . وسأل عمر عن موضع مسجد سليمان ، وكان مخرَّبا ، فدلوه على الصخرة فى طرَف البلد الجنوبى الشرقى ، وقد بقى من الهيكل بعض جُدُر ، فأقام عُمَر قبلى الصخرة مسجِده على حال من البداوة

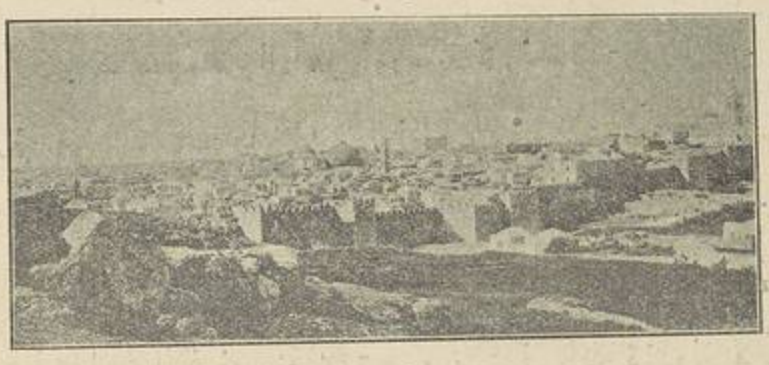

منظر عام لمدينة القدس

ومن ثم اصطبغت المدينة بصبغة اسلامية ، وعظم أمرها ، وأمّها الزوار من كل فج ، وأصبحت ثالثة المدُن المقدسة . واستمر ذلك أزْمانَ

الخلفاء الراشدين وبنى امية وبنى العباس . فلما تضعضعت حال الخلافة العباسية ، واستبدّ بالامصار وُلاتها دخلت فى حَوزة فروع الدولة السلجوقية ، فأساءوا معاملة بعض الزائرين لكنيسة القيامة من رُهبان أوربة ، فذهبوا يستحثون أهل اوربة على استنقاذ الكنيسة من يد المسلمين ، ويُهوِّنون عليهم أمرهم ؛ فكان ذلك من أهمّ أسباب الحروب الصليبية فجاء الصليبيّون واكتسحوا الساحل ، وحاصروا المدينة ؛ الا أنها لم تكن حينئذ فى حَوْزة الاتراك السلجوقيين ، بل كان المصريون الفاطميون قد استحوذوا عليها ، ولم يحسنوا الدفاع عنها ، ففتحوها المدينة سنة ٤٩٢ هـ ووضعوا السيف في أهلها سبعة أيام ، وقتلوا منهم أكثر من سبعين الف نفس ، وخربوا المسجد ؛ وفعلوا من الفظائع ما يسوَدُّ له وجه التاريخ . ولم تزل المدينة في أيديهم الى أن استنقذها منهم صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ ، وبذل لهم من خِصال الشهامة ومكارم الاخلاق والتسامح مالايزال أهل أوربة يذكرونه بالاعجاب . ثم استعادها الافرنج من الملك الكامل محمد بن العادل بمهادنة جرت بينه وبينهم سنة ٦٢٦ هـ ، فانتزعها منهم الملك الناصر داود صاحب الكَرَك سنة ٦٣٧ ، ثم سلمها لهم ليكونوا له عَوْنا على الصالح نجم الدين أيوب ملك مصر ، فانتزعها هذا من الافرنج سنة ٦٤٢ هـ . وبقيت فى حظيرة الدولة الأيوبية فدولتى المماليك البحرية والبرجية فدولة آل عثمان الى ان استولت عليها الجيوش البرطانية أثناء الحرب العظمى سنة ١٣٣٧ هـ . وتدير شؤونها الآن الدولة الانجليزية مندوبة من قبل دول الحلفاء

بيت المقدس الشريف

هو المسجد الاقصى الذى بارَكَ الله حَوْله ، وأسرَى اليه رسولَه ، وأُولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين

والمعروف من أمره أنه كان بَيْدَراً لأحد اليبُوسِيِّين أهل فِلَسْطين الأقدمين . فلمّا غَلَبهم بنُو اسرائيل على أمرهم ، واستولَى نبيُّ الله داودُ على أُورِيشَلِمَ اتّخذها دار مُلكه ، وبنَى على الصخرة مَذبحًا للقرابين . ثم أنشأَ ولدهُ سليمان «عليه السلام» هَيْكَله العظيم على الوجه الذى أسبقنا ذكره عن التَّوْراة ، وتم بِناؤه بعد زمانه . ثم خُرِّبَ الهيكل . مِراراً على أيدى الفاتحين من البابليّين والرُّومان حتى تَنَصّر الروم ، فبَنَوا كنيسة القيامة ، وتَخرّبَ الهيكل ، وحُوِّل مَطْرَحاً للقُمامة

ولما جاءَ الإسلام وفُرِضَت الصلاة على المسلمين وهاجر رسول الله (ﷺ) الى المدينة اتّخذ المسجد الاقصى : أى مكان مسجد سليمان ، وهو الصّخْرة ، قِبْلَة مُدّة ستة عشر شهرا . ثم أمره الله فى السنة الثانية من الهجرة أن يُوَلِّىَ وَجهه شطْر المسجد الحرَام مُستقبلا الكعبة ؛ غَيْرَ انّ ذلك لم يُقَلِّل من حُرمته عند المسلمين ، ذلك بأَنه مسجد أنبياء الله ومَهبِط بَرَكته ورحمته . قال ﷺ « لا تُشَدّ الرِّحال الا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . ولذلك كان أوّلَ شىء سأَل عنه أميرُ المؤمنين عُمَر بن الخطّاب « رضى الله عنه » حِين حضرَ لفَتح القُدْس صُلْحاً مكانُ المسجد الأقصَى مسجد سليمان والنبيّين

مِن بعده. فدُلَّ على الصخرة، وعليها قُمامة المدينة. فأمر بإزالتها، وعمل فى ذلك بنفسه حتى نُقِّيتْ، ثم تقدم قِبْليَّها فصلى واتخذ مكان مُصلاّه مسجدا

ولمّا كان زمَنُ عبد الملك بن مَرْوان أمر بإنشاء مسجد فخم على الصخرة فى شكل مُثمّن الجوانب وإقامة قبة عظيمة عليه؛ وبإنشاء مسجد جامع فسيح قِبْلِىّ القبة مكان قَصْر سليمان بحيث يُضَمّ اليه مسجد عمر. فأطلق عليه الناسُ على طَوَال الزمان اسم «الاقصى»؛ وانما المسجد الاقصى مسجد سليمان على الصخرة وما ضمّ السور الذى كان اكثره ماثلا ايام عمر

ولقد بَذَل عبد الملك فى تَشْييد القبّة والمسجد ما كان شاهدَ عَدْلٍ على سُمُوّ هِمّته وسماحة نفسه، فجمَع عليه المُهَنْدِسين والصناع من أنحاء بلاده ومِن بلاد الروم إذ أمدّه عاهلهم بالمال والرجال وأنواع الرُّخام والمعادن والخَشَب والأدْهِنة. وأرْصد للعِمارة خَرَاج مِصر سَبْعَ سنين. وجعل أبا المِقْدام رَجاءَ بنَ حَيْوَةَ من أكابر أعوانه ويَزيدَ ابْن سلام من مواليه قَيِّمَيْن عليها، فأتماها سنة ٧٣ هـ، وفَضَل مِن المال مائةُ الف دينار. فأمرَهما عبد الملك بها فأَبَيا، وكتبا له نحْن أولى بأن نَمُدّه بحُلِىّ نسائنا فأَنفقها في أحب الاشياء اليك. فأمرهما بسَبْكها وأن يُصفّح بها ظاهرُ القبة، ففعلا

وبَنَى بجوار القبة من الجهة الشرقية قُبة السلسلة مكان قضاء داود عليه السلام حَيْث كان الناس يتقاضَوْن أمام سلسلة مضروبة. ويقال: ان

منظر عام للحرم القدسي

بناء قبة السلسلة إنما كان نموذجا صغيراً لبناء قبة الصخرة، فلما أعجب عبدَ الملك بنوْها على مثاله وقامَ بَعْدَه ابنه الوليد بنصيب عظيم من تزيينهما

وفى زمن العباسيين رمَّمَ ابو جعفر المنصور وابنه الهادى المسجد، وجَدَّدَ المأمون قُبة الصخرة

وفى زمن الفاطميّين المصريّين جَدَّد الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله القبّة، وأعْلَى سَمْكَها، وجَدَّدَ المسجد. ولما استولى الصّليبيّون على البلاد حوّلوا قُبّة الصخرة كنيسة والمسجد قصراً لملكهم، وجعلوا الأقبية التى تحت المسجد إصْطَبْلا، وسَمّوْه إصطبل سليمان

ولما استنقذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بيت المقدس أعادَ القُبّة والمسجد الى ما كانا عليه، ونَقَل الى المسجد من حَلَب المِنبر البديع الصُّنْع الذى كان أعده له نور الدين الشهيد أثناء مُحاربته الصليبيين لاسترداد بيت المقدس. ولا يزال هذا المنبر به الى الآن

ثم ما زال ملوك الاسلام وأمراؤه وأغنياؤه من الايوبيين والمماليك والعثمانيين يتعهّدون القُبة والمسجد بالرّمّ والإصلاح، ويُنْشِئون فى رحيب الحرَم المصلّيات والمحاريب والخلَوات والاربطة والسبُل والمدارس على آثار النبيّين والصالحين

وإذ كان الرّمُّ للبنيان كالغِذاء للحيوان فلمّا قامت الفتن والثورات فى البلاد العثمانية انكفّتْ يدُ الاصلاح عن هذه البَنَايا المُقدّسة والآثار المباركة، فتصدّعتْ جوانبُها، وتآكلت سُقُفها ومالتْ سَواريها، وأوشكت أن تَنْقَضّ جُمْلَة، فيَعُود مابذَل لأجله خلفاء الاسلام

وملوكه وأمراؤه النفس والنفيس أثراً بعد عين ، فإنا لله !

ويتألف الحرم القدسي من ساحة من الارض غير مستوية الاديم مستطيلة الشكل من الشمال إلى الجنوب مختلفة ذرع الجوانب ؛ فذرع جانبها الشرقي ٤٧٤ ذراع فرنسية والغربي ٤٩٠ والشمالي ٣٢١ والجنوبي ٢٨٣ . ويحيط بها سور مرتفع في الجانب الشرقي وبعض القبلي بنحو ثماني أذرع فرنسية ، له عشرة أبواب شارعة وأخرى مسدودة ، أكثرها في الجانب الغربي . ومن أشهرها باب السلسلة ، وباب المغاربة ، وباب القطانين من الغرب ، وباب حطة ، وباب شرف الانبياء من الشمال ، والباب العتيق من الشرق

ويتوسط هذه الساحة الى الغرب ربوة مسطحة مستطيلة تعلو سائرها بنحو ثلاث أذرع ونصف ذراع فرنسية يسمونها مصطبة الصخرة يصعد إليها بمدرجات ثمانية لكل منها ثماني درجات على نهايتها أقواس شاهقة على أعمدة سامقة . وهذه المصطبة مبلطة كلها بالرخام ، وتتوسطها الى الجنوب والغرب قبة الصخرة . والصخرة المقدسة نشز من الصوان الاسود غير مستوي السطح يعلو سطح المصطبة بنحو ذراع ونصف فرنسية الى ذراعين في طول نحو ١٧ ذراعا فرنسية وعرض ١٣ ، وعليها قامت تلك البنية الفخمة البديعة الصنع التي صبرت على الدهر ثلاثة عشر قرنا إلا قليلا ، وحفظت لبني أمية ذكراً جميلا

وفي أقصى ساحة الحرم من الجنوب الغربي المسجد المشهور الآن باسم « الاقصى » مكان قصر سليمان

وعلى الزبوة وبقيّة ساحة الحرم كثير من القباب والمحاريب والخلوات والمصلّيات ، وكلها جميلة الشكل بديعة الصنع مقامة على آثار الانبياء والصالحين والعلماء والزهاد . وفى الجانب الغربى والشمالى أروقة ممتدّة بطول اكثرها ، وبالساحة بعض الاشجار العادية التى عُمِّرَت المئات من السنين ، واكثرها اشجار زيتون

أمّا بَنِيَّة قُبَّة الصخرة فهى بَيْت فَسيح ذو جِدار متين مُثمن الجوانب ، عَرْضُ كل ثَمْينة منه ٢٠٫٤ ذِراعا فرنسية . وقد طُبِّق ظاهره بإزار من الرُّخام والخَزَف القاشانى البديع الأشكال الجميل الألوان . ويعلو هذا الإزار دائرة من الطيقان الكبيرة عليها شُبَّاكات من الجِصّ تُمثِّل تفاريجُها شُكولا هندسية متناسقةَ الوضع رائعة المنظَر ، عليها ألواح وفُصوص من الزُّجاج المُلوّن بألوان مختلفة تزيدها رَوْعة وبَهْجة

ويُدْخَل مِن هذا الجِدار الى جَوْف البيت من أربعة أبواب : باب الجنّة شمالا ، وباب النّساء غَرْبا ، وباب السلسلة أوباب داود شرقا ، وباب القِبْلة . وكان على كل باب (كما روَى ياقوت فى مُعجَم البلدان) صُفّة مُرَخَّمة عليها بابٌ آخر خارجَ باب القبّة . ولم يَبق منها الآن الا صُفة باب القِبلة . وهى سُدّة ذات قَبْو حَسَن الاستدارة ، على جانبيه رِواقان كالطُّنُفَيْن محمولان بلا حنايا على ثمانية أعمدة من الرُّخام

وجميع قَبْو الصُّفّة وأُطر الطيقان وما بينها وحواشى الطُّنُف والرفارف مُغَشّاة بالجِصّ المُنَقّب على شَكْل من الزَّرْكَشة والتَّشْجير يأخذ بالألباب ، ويُزْرِى بوَشْى الثياب

ويشتمل داخل البيت على ثلاثة أروقة، أوسطها رواق الصخرة، والآخران مُتآزيان مُطيفان بها. فأما رواق الصخرة فهو أعمدة من الرُّخام الفاخر ودعائم متينة من البنيان تحمل منطقة مرتفعة ذات طيقان واسعة هي كرسيّ لقبّة فخمة فوقها أخرى أعلى منها. وأما الرّواقان الآخران فيفصلهما نطاق من أعمدة ودعائم ذات حنايا قصيرة تحمل هي وكرسيّ القبة وجدار البيت سقفا ذا سطح منزلق من القبّة الى الجدار لينحدر عنه ماء المطر الى الميازيب. وجميع سطح البيت وقبته مصفح بالرّصاص الصفيق، وباطن قبته وسقف أروقته مطليّ بالفسيفساء على شكول وتزاويق مموّهة بالذّهب وبديع الأصباغ ليس لها نظير مما أبقاه حدثان الزّمان من الصّناعة العربية

ويحيط بالصخرة المقدّسة درابزين من الخشب ووراءه مُصلّى النساء. ويمتدّ من الصّخرة لسانٌ من جهة القبلة الى الشرق يُنزل تحته الى مغارة صغيرة في طول أربع أذرع فرنسية وعرض ثلاث

وأمّا المسجد القبليّ الذي يسمّى الأقصى فيشمل مكان المسجد الذي بناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومصلاّه يوم الفتح موسّعاً الى الجهة الغربية. وطوله ثمانون ذراعا فرنسية وعرضه خمسون، ويدخل اليه من سبعة أبواب تشرع الى ساحة المسجد الكبرى يتوسطها باب أكبر حيث يُفضي كلّ باب الى كور من أروقة المسجد السبعة. وأمام الأبواب رواق ذو سبع حنايا. وله بابان آخران: شرقيّ وغربي

ويقابل الداخل من بابه الأكبر رواقه الأوسط، وعلى جانبه حنايا شاهقة ذوات صفّين من الطّيقان لإنارة المسجد، وسقف هذا الرّواق

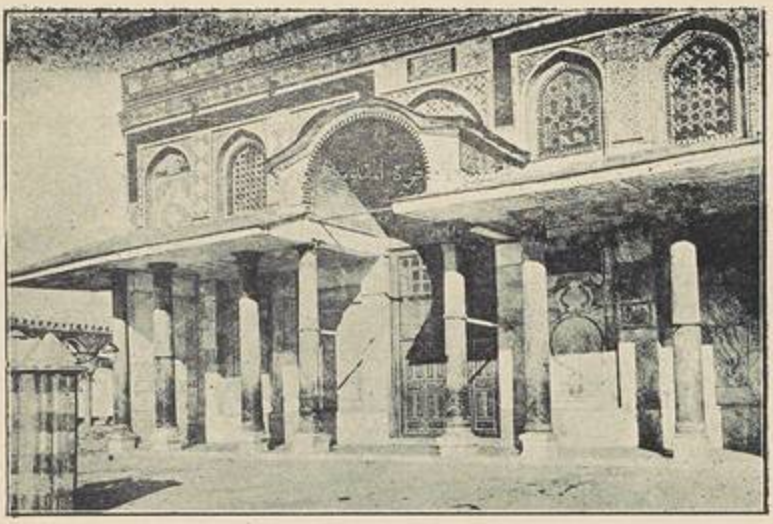

باب القبلة من مسجد الصخرة

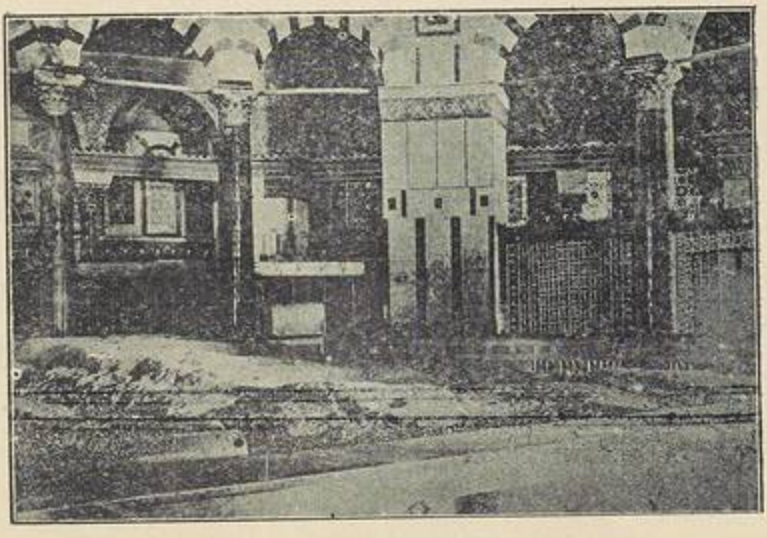

الصخرة المقدسة

مرتفع سَطْحُه مُسَنَّم ، وسَقْفا الرِّوَاقَيْن اللَّذَيْن على جَنَبَتَيْه أخفض منه ، ولهما طيقان جانبيّة . والأروقة المتطرّفة سقفها اخفض منهما . وينتهى الرِّواق الأوسط بقبة مرتفعة . تحتها المِحراب البديع ، وهو من آثار صلاح الدين . وبجانبه مِنْبر نور الدين الشهيد ، وأمامه صفّة المبلِّغين

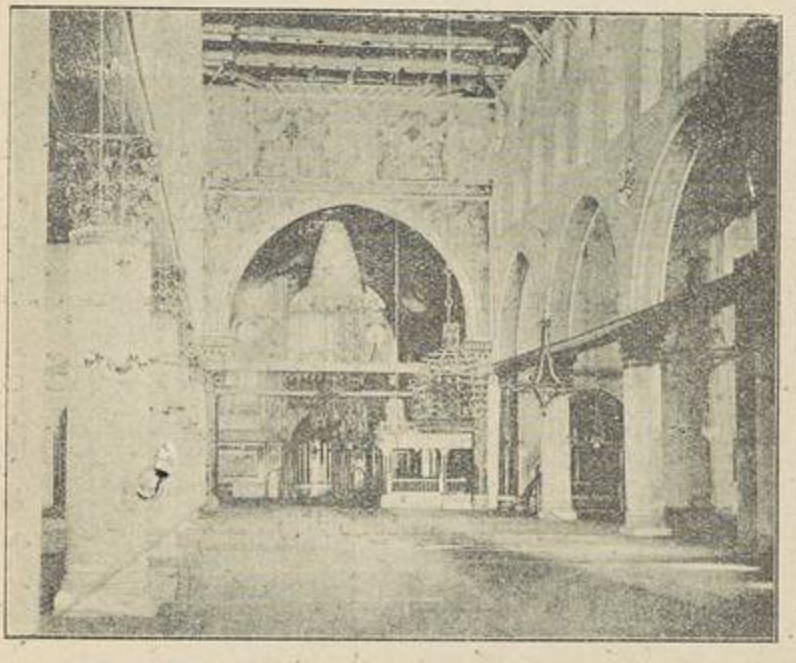

داخل الاقصى

وبجانب المسجد من الغرب مَقْصورة من صنْع الفاطميين تسمّى مسجد النساء ، وبجانبه الشرقىّ مَقصورة من بَقايا مسجد عمر . وبجواره رواق يسمّى محراب زكريا

والمسجد آية من آيات الإتقان والإبداع فى البناء والنّحْت والتذهيب والتزويق . وهو مثال ناطق بما كان للمسلمين من علم وحضارة وحسن صناعة وسلامة ذوق

سيدنا على بن ابى طالب رضى الله عنه

هو اميرُ المؤمنين ، ورابع الخُلفاء الراشدين ، أبو الحسَن علىّ بن أبى طالب (عبدِ مَناف) بن عبدِ المُطّلب بن هاشم ، ابن عمّ الرسول وزوْج البَتُول

وأُمّه السيدة فاطمة بنت أسد بن هاشم . وَلدتْه قبل البعثة بنحو ثلاث عَشْرة سنة ، وأبوه غائب ، فسمّتْه حَيْدَرة . ولَما حضَر أبوه سمّاه « عَليّا » . فبَقِىَ اسماً له جاهليّة وإسلاما . وأصاب قريْشاً قَحْطٌ مَسَّ أبا طالبٍ منه ضرٌّ وفَقْر ، فأعانَه رسول الله ﷺ بضَمّ ابنه علىّ إليه ؛ فرَبِىَ فى بَيْت رسول الله ، وتأدبَ بآدابه . ولمَّا بعثَه الله إلى الناس بَشيراً ونَذيراً كان أوّلَ مَن أسلم من أهل بَيْته زَوْجه السيدة خَدِيجة وعَلىٌّ بن ابى طالب ، وهو ابن ثلاث عَشْرةَ سنة ؛ فكان بذلك فَتَى المسلمين ، وأقربَهم من خاتَم المرسَلين ، وأعلم الصحابة بأمْر الدين ، وأقضاهم بين المتخاصمين ، وأشدهم على الشِّرك والمشركين . ونَشَأ رضى الله عنه شجاعاً أيِّداً قَوِى العَضَل ، ثابتَ الجنان ، لا يَقْبَل هَوادة في الحقّ ولو علَى نفسه وولده ، مُفَدِّياً رسولَ الله بنفسه ؛ خلَفه في مَبيته ليلةَ هاجر الى المدينة ، وأدّى عنه ودائع الناس ، ولَحِق به بَعد ثلاث ، ولم يتخلف عنه في غَزاة إلا غزوةَ تَبوك ، استخلَفه فيها رسول الله على المدينة فى بَيْته وأهله ؛ فقال : يارسولَ الله تخلّفُنى مَعَ النساء والصِّبيان . فقال : أما ترضَى أن تكون مِنّى بمَنْزِلة هَرون من موسى إلا أنه لا نَبِىّ بَعْدى .

وكان في أكثر مَغازيه صاحبَ لِوائه ، واشدَّ الناس فَتْكا بأعدائه

ولمَّا آخى رسول الله بين المسلمين اتخذه أخاه ، وزوجه من ابنته السيدة فاطمة الزهراء ، فاجتمعَ له بالتربيَة والأُخُوَّة والنَّسَب والصِّهْر مالم يجتمع لغيره من أصحاب النبى عليهم رضوان الله

وكانَ مخلِصاً الدِّينَ لله ولرَسوله ناصحاً لخلفائه من بَعْده ، فكان بَعْدَ أن بايَع أبا بكر عَوْناله وأميناً ، ولعمرَ مشيراً ووَزيراً وقاضياً ، حتى لقد كان عمر يستعيذ بالله من مُعضِلة ليس لها أبو حَسَن ، وكذلك كان لعثمان أكثرَ خلافته ، حتى اذا شَغَب عليه الاعراب وشُذَّاذُ الأقاليم نصَح له هو وكبار الصحابة في سياسة أمرهم إلا أنّ بِطانته من بَنى أُمَيَّة وقتئذ استضعفوا رأيَهم . فلزم على الحِيدَةَ حتى استشهدَ عثمان ، فشق عليه قتله ، ودخلَ دارَه ، وأغلَقَ عليه بابَه أياما ، والناس يدعونه الى مبايعته بالخِلافة ، وهو يأباها عليهم حتّى ألجأوه إليها إلجاءً فقبِل على أن تكون البيعة علانيةً فى المَسجد يحضرها جمهور المسلمين . فبايَعه فى المسجد جمهورهم ، ومنهم طلحة بن عبيد الله والزُّبَير بن العوّام . وتخلَّفَ عن البَيْعة نَفَر من الناس وبَنو أُمَيَّة ، فمَرُّوا الى الشام حاملينَ قَميصَ عثمان مضرَّجاً بدَمه وأصابع زَوْجه نائلة التى قطعَها فتلته عند ما ألقتْ نَفسَها عليه ، وعلقوها على مِنبر جامع دِمَشق يَستَصْرِخون الناس لِلاخذ بثأر عثمان متَّهمين عَليّاً بالتهاون فى القِصاص من قَتَلته . فهَبُّوا جميعا وعلى رأسهم معاوية بن سفيان وعمرو بن العاص

أما أميرَ المؤمنين على فإنه لمّا كان مُعتقِداً أنَّ قَتْل عثمان إنما حدَثَ

من جرّاء إيثار بني أُميّة بالولاية وإرهافهم الحدّ في معاملة الناس كان أوّل ما دبّر من أمر الخلافة أنْ عزل ولاة عثمان غير مُصغٍ إلى نصيحة عبد الله بن عبّاس وغيره باستبقائهم رَيْثما تهدأ الأُمور ويستقرّ الناس على حال ذاهبا الى أنّ المبادرة بإنفاذ ما يراه حقّا أولى بدينه من مُداراة ما يراه باطلا. فخرج عليه معاوية وبنو أُميّة وأهل الشام. ولحق طلحة والزبير بمكّة، لقيا السيدة عائشة أُمّ المؤمنين مُنصرفها من الحجّ، لأنّها لم تحضر قتل عثمان، وأخبراها بخبر قتله، وأقنعاها أن عليّا استهان بتحقيق مقتله والقصاص من قتلته حين فرّوا، ودعواها إلى الخروج معهما الى المطالبة بدم عثمان من قتلته أولاً وعلي ثانياً. فأجابتهم وخرج معهم والى مكّة بجيش ومالٍ وكراع. وقصد الجميع البصرة إذ كان لهم شيعة فيها. واشتروا جملاً ضخما فوضعوا عليه هودجاً مصفحاً بالحديد وجعلوا فيه السيدة، وذهبوا الى البصرة، واستولوا عليها. وقصدهم عليٌّ ببعض أهل الكوفة. وبعد مراسلات في الصلح لم تجد شيئاً التحم الجيشان، فكانت الدبرة لعلي وأصحابه. وقُتل طلحة بن عبيد الله، وعقر الجمل. وانصرف الزبير راجعا، فقتله بعض الفتاك غيلةً في طريقه. وأرجع علي السيدة مع بعض أهلها مُكرمةً إلى المدينة. وذهب هو الى الكوفة فدارت بينه وبين معاوية مكاتبات على غير فائدة، وانتهت بملاقاة جيشيهما على أرض صفّين من الفرات الأعلى. ودامت الحرب أكثر من مائة يوم كاد في نهايتها جيش العراق ينتصر على جيش الشام، ولكن أهل الشام رفعوا المصاحف على أطراف الرماح، ودعوا جيش علي الى

المهادنة على أن يحكموا في الخلاف بينهم مَا فيها من كلام الله . فخُدِعَ أصحاب علىّ، واضطروه الى وَقْفِ القتال والتحكيم ،اختارُوا منهم حكما أبا موسَى الاشعرىَّ ، واختار أهل الشام عمرو بن العاص. فاتفق الحكَمان على أن يخلَعا معًا عليا ومُعاوية ، ويتركا الامر للمسلمين يختارون لهم خليفةً مَن يشاءون . فجَمَعا الناس، وتقدم أبو موسى فخلَع عليا صاحبه ، ثم تلاه عمْرو بن العاص فوافقهُ على خلع على ، ولكنه ثبت صاحبه معاوية فى الخلافة .فضجَ الناس « حَكم الحكمانِ بغير ما في كتاب الله » وأضطرب الامر علَى علىّ ، وتثاقل الناس عن نصرته ، وخرجَتْ عليه طائفة أنكروا عليه التحكيم،وقالوا: لاحكم الا لله.فسموا الخوارج.فكفروا عليا وأتباعه واستباحوا قتله وقتل المسلمين . فخرج اليهم ونصح لهم ، فرجعت منهم طائفة ، وأبادَ أكثر الباقين في موقعة النهروان . ولكن بقيتهم بقوا يفسدون فى الارض

ولما رجع الى الكوفة ندب الناس الى قتال معاوية وهم يتثاقلون . فبينما الناس في خَبْط وشماس اتفق ثلاثة من الخوارج على ان أحدهم عبد الرحمن ابن ملجَم المرادِىّ ينتدب لقتل على بالكوفة ، والبُرَك بن عبد الله التميمى لقتل معاوية بالشام وعمرو بن بكر التميمى لعمرو بن العاص بمصر . واتعَدوا بينهم ليلة ١٧ من رمضان سنة ٤٠ هـ. فذهبَ كلٌّ منهم لصاحبه، فضربَ عبد الرحمن عليا بسيفه وهو داخل بغلس مسجد الكوفة يدعو الناس الى الصلاة على جبهته ، فبلغ السيف دماغه . فنادى لا يفوتنكم الرجل ! فأمسكوه . فقال : أحبسوه وأطيبوا طعامه وألينوا فراشه ؛ فإن

أعِش فأنا ولى دمى : عفو أو قصاص ، وإن أمت فألحقوه بى أخاصمه عند ربى ، ولا تمثلوا به . فمات رضى الله عنه بعد يوم وليلة فدفن سحرا واخفوا قبره . والمشهور أن قبره بنجف الحيرة (١)

وكان رحمه الله رَبْعة بَطِينا الى السِّمن ما هو ، أبيض الوجه الى السمرة قليلا ، أدعج العينين عظيمهما ، طويل اللحية عريضَها ، أبيضها . عريض ما بين المنكبين ، لمنكبه مُشاش (٢) كمشاش السبع الضارى ، لاتبين عضُده من ساعده ، قد أدمج إدماجا شثن (٣) الكفين ضخم الكراديس (٤) أصلع ، ليس فى رأسه شعر الا مِن خلفه ، خفيف المشى إذا سعى للحرب هرْول ، ما صارع أحداً إلا صرعه ، آخذ الناس بأدب رسول الله وأفقههم بدينه ، وأعلمهم بمكنون سره لم يترك من الدنيا صفراء ولا بيضاء ، غير سبعمائة درهم أرصدها لخادمه

(١) أما البرك فضرب معاوية على فخذه وكان سمينا فجرحه فقطع معاوية يده ورجله . وأما عمرو فقتل خارجة نائب عمرو بن العاص على الصلاة ظانا انه عمرو فقتل به (٢) المشاش رءوس العظام (٣) عظيم (٤) جمع كردوسة وهى مفصل العظم

تم الجزء الثانى بحمد الله وعونه

فهرس

صفحة		صفحة	
٢	خطبة الكتاب	١٣٥	مقطعات شعرية في الاوصاف
٣	العلم	١٣٩	المدينة المنورة
١٠	بليغ اقوال فى وصف رجال	١٤٧	الحرم النبوى
١٥	تربيه الاعراب	١٥٣	الحجرة الشريفة
١٨	مكة المكرمة	١٥٧	وصايا الآباء للابناء
٢٥	الكعبة المشرفة	١٦٣	الزجاج
٢٩	المسجد الحرام	١٧٢	رسائل في اغراض مختلفة
٣٢	نبالة راع	١٧٧	سيدنا عثمان بن عفان
٣٤	جلال مجلس القاضى	١٨٤	خطبتان لعثمان
٣٥	السمك	١٨٥	الحياة في الأصقاع القطبية
٣٦	المال	٢٠٠	رسائل مختلفة للمؤلف
٥٣	مقطعات شعرية حماسية	٢٠٣	التعاون
٥٨	الالعاب الاولمبية	٢١٠	رسائل مختلفة للمؤلف
٦٧	حسن الوفاء	٢١٢	تسخير البخار
٧٢	وصف يوم ماطر	٢٢٦	رسالة وداع للمؤلف
٧٦	النخل	٢٢٨	الكرم
٨٦	استنصاح الخلفاء بعض الدهماء	٢٣٦	مقطعات شعرية
٩٧	الجامع الازهر	٢٣٨	مدينة القدس
١٠٩	فكاهة	٢٤٣	بيت المقدس
١١١	موقعة شريش الحاسمة	٢٥٠	على بن أبى طالب
١٢٢	الفيل		

الكلمات التي وقعت خطأ وينبغى اصلاحها قبل مطالعة الكتاب

صفحه	سطر	خطأ	صواب
٧	١١	ولِجنا	ولَجنا
١٢	٩	استولى	استولى عليها
٧٨	١٣	جراميز	جِرامير
٧٨	١٨	جرموز	جِرمور
٥٤	١١	القاطن	العاطن
٥٤	١٨	المقيم	المنتقع
١٢٧	٣	يستران	تستران
١٤٦	٢٠	عشب من اعشاب	شجر من اشجار
١٥١	٣	زهدى	الزهدى
١٥٣	٢٠	بدربزين	بدرابزين

تنبيه

مالم ينسب لأحد فى هذا الجزء من انشاء أو ترجمة فهو للمؤلف انشاء ولأخيه حضرة عمر الاسكندرى افندى المدرس بدار العلوم ترجمة من دائرة المعارف البرطانية وغيرها من الكتب المعتبرة . وقد كان المرحوم عبد القادر افندى حسن ترجم للمؤلف كثيرا من كتب المطالعة الانجليزية واشتراها المؤلف من ورثته ونشر بعضها فى الجزء الاول باسمه الا انه وجدها تنخفض عن مستوى الجزء الثانى عبارة وموضوعا فعدل عنها

893.74
Is3

DEC 2 1964

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58883223
893.74 Is3
Nuzhat al-qari, lil-